


الأزهر
جامعاً وجامعة

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى
M. A., Ph. D.
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ بجامعة الأزهر سابقاً
عضو المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
وعضو لجنة البحوث التاريخية بالمجالس القومية المتخصصة
وعضو لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة

الجزء الثانى

١٩٨٤

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد ـ القاهرة

الأزهر

جامعاً وجامعة

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى
M. A., Ph. D.
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عضو المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
وعضو لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة
وأستاذ التاريخ ورئيس قسم التاريخ السابق بجامعة الأزهر

الجزء الثانى

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد – القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل رب زدني علماً »

صدق الله العظيم

الفصل الخامس عشر

موقف الأزهر
من الحملة الفرنسية على مصر

تعرضت مصر فى صيف سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) لحملة فرنسية يقودها بونابرت . وكانت هذه الحملة أول غزو عسكرى مسيحى أوروبى فى التاريخ الحديث لإقليم إسلامى عربى من ولايات الدولة العثمانية فى منطقة الشرق الأدنى كما كانت تسمى هذه المنطقة فى ذلك الوقت .

وقبل أن نتكلم عن موقف الأزهر من الحملة الفرنسية ، نذكر أن بونابرت حاول أن يمارس سياسة استعمارية مع علماء الأزهر ، نطلق عليها تجاوزاً سياسة التعايش السلمى ، ويطلق عليها المؤرخون الفرنسيون : سياسة بونابرت الإسلامية(١) La Politique Musulmanne de Bonaparte. وانبثاقاً من هذه السياسة تظاهر باحترامه للدين الإسلامى، وبالحرص على استمرار المسلمين فى إقامة الشعائر الدينية كالصلاة فى المساجد، ثم الاحتفال بالمناسبات الدينية الإسلامية وغيرها ربطاً للشعب الإسلامى فى مصر بالحكم الفرنسى .

سياسة التعايش السلمى مع علماء الأزهر وأهدافها :

أدرك بونابرت منذ وقت مبكر أنه مقدم على تجربة جديدة فى حكم شعب شرقى ، له حضارة تليدة ، وتختلف ديانته ولغته وثقافته وتقاليده عن مثيلاتها لدى الشعوب الأوروبية ، ولذلك اتجهت أنظار بونابرت من أول

---

(١) Charles-Roux (F.); La Politique Musulmanne de Bonaparte. Revue des Etudes Napoléoniennes. XIV année, t., 1, janvier-février 1925, pp. 23-47.

الأمر إلى الأزهر وإلى المشايخ علماء الأزهر ، على أساس أن الأزهر هو مركز الدراسات العليا الإسلامية العربية فى مصر ، وأنه يتبوأ مكاناً عالياً فى العالم الإسلامى . وقد قرر فى مذكراته التى أملاها فى منفاه بجزيرة سانت هيلانه أن الأزهر يقابل جامعة السوربون «La Sorbonne» فى باريس ، وأنه أشهر جامعة فى الشرق(١) . ونظر بونابرت إلى المشايخ علماء الأزهر نظرة إجلال وتقدير عميقين ، استناداً إلى أن لهم صفتين : الصفة الأولى أنهم الصفوة الممتازة من الطبقة المستنيرة فى البلاد ، المتعمقون فى الدراسات الدينية واللغوية أو السوربونيون(٢)Les Sorbonistes ، وعلى مبلغ علمى ، كان بونابرت أول من أطلق على المشايخ علماء الأزهر . المصطلح الجامعى الحديث «دكاترة الشريعة»(٣)Les Docteurs de la loi ، وأما الصفة الثانية فهى أنهم زعماء الشعب المصرى ، اعتاد أن يفزع إليهم فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بوجه خاص ، عندما انهالت عليه المظالم من يمين ويسار ، فكان علماء الأزهر يتدخلون لدى الحكام لرفع المظالم عن الشعب الكادح ؛ وفى ظل الأوضاع التى كانت سائدة فى مصر وقتذاك ، كان علماء الأزهر فعلا وفى نظر بونابرت ، أكثر عناصر المجتمع المصرى نفوذاً وهيبة ، وعلماً واحتراماً ، واستقراراً ووقاراً .

---

(١) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. op. cit., t. I, p. 212.

(٢) من مدلولات هذه اللفظة باللغة الفرنسية : الحائزون لدرجة الدكتوراه فى العلوم الدينية من جامعة السوربون .

(٣) انظر على سبيل المثال ما جاء فى مذكراته السابق الإشارة إليها .

t. I. pp. 369–371.

t. II. 152.

وانظر : جريدة :

Courrier de l'Egypte. No. 6. Le 2ème jour complémentaire, VIè année de la République. p. 1.

أسباب تقرب بونابرت من علماء الأزهر :

وقد وضع بونابرت فى ذهنه أن يتخذ من هؤلاء المشايخ العلماء أداة يوضحون له المسائل التى يستعصى عليه تفهمها من ناحية . ويشرحون لجماهير الشعب حقيقة المشروعات التى يعتزم تنفيذها من ناحية ثانية ، وينقلون إلى السلطات الفرنسية مشكلات الجماهير وشكاياتهم من ناحية ثالثة . وكان قيام المشايخ علماء الأزهر بهذا الدور - فى تقدير بونابرت - كفيلا بتنقية الجو بين الحاكم والمحكومين . وقطع دابر مروجى الشائعات . وفوق ذلك كله . كسب تأييد علماء الأزهر للحكم الفرنسى . ويكون لهذا التأييد أصداء بعيدة فى نفوس جماهير الشعب المصرى . فيخلدون إلى السكينة . وعدم المقاومة . وكان نجاح هذه السياسة الإسلامية - إذا قدر لها النجاح - مؤدياً فى آخر الأمر إلى إنشاء المستعمرة الفرنسية التى أرسلت حكومة الإدارة فى باريس « الديركتوار » صفوة العلماء الفرنسيين والقادة العسكريين . لمعاونة القائد العام للحملة على إنشائها(١) . وبعبارة أخرى . كان الهدف النهائى من هذا التنظيم هو توطيد دعائم الحكم الفرنسى فى مصر . وقد أفصح بونابرت فى مذكراته عن البواعث التى أملت عليه التقرب إلى المشايخ علماء الأزهر . فقال : إنهم زعماء الشعب المصرى(٢) ، وإنهم ظفروا بثقة ومودة سكان مصر على بكرة أبيهم . ومضى يقول : إن مشاعر الغيرة والحقد قد افتعلت فى نفوس

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، د.ت. دار المعارف ، ص ١٦٣ .

(٢) قال بونابرت فى مذكراته « إن العلماء كبار المشايخ هم قادة الشعب العربى » . وكان يقصد المصريين بعبارة الشعب العربى ، لأنه ذكر بعد ذلك مباشرة أن هؤلاء العلماء ظفروا بثقة ومحبة جميع سكان مصر ، ويلاحظ أيضاً أن بونابرت والكتاب الفرنسيين المعاصرين للحملة وعلماءها ، كانوا يطلقون لفظة « العرب » على المصريين عموماً ، سواء فى الريف أو الحضر . ولم يقصروا استعمال هذه اللفظة على عرب البادية ، كما جرت عادة الناس حتى ذلك الوقت .

انظر : محمد شفيق غربال ، منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ما هى عليه اليوم . مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٤٤ .

الأتراك العثمانيين والمماليك على علماء الأزهر ، فجعلتهم يعملون على إقصاء هؤلاء العلماء عن المشاركة فى تصريف الشئون العامة . وقرر بونابرت أنه كان من خطل الرأى أن يحذو الفرنسيون حذو الأتراك العثمانيين والمماليك فى انتهاج هذه السياسة ، كما أنه كان فى حكم الاستحالة أن يتطاع الفرنسيون إلى ممارسة نفوذ سريع على المصريين ، لأن الفرنسيين أغراب عن الشعب المصرى ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة — فى نظر بونابرت — إلى وسطاء بين الحكام الفرنسيين وبين جماهير الشعب ، ثم قال : « وقد فضلت العلماء ودكاترة الشريعة ، لأنهم أولا : هم كالملك بطبيعة الحال ، وثانياً : لأنهم هم مفسرو القر ن ، وإن أكبر العقبات التى واجهتنا ، وسوف تواجهنا أيضاً إنما تنبثق عن الأفكار الدينية ، وثالثاً : لأن هؤلاء العلماء ذوو طباع هادئة ، ويحبون العدالة ، وعلى درجة من الثراء ، وأصحاب مبادىء خلقية عالية ، وهم بلدون منازع أكثر الناس أمانة فى مصر ، ولا يركبون الخيل ، ولا يمارسون أعمالا عسكرية ، ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة »(١) .

مظاهر من سياسة التعايش السلمى :

١ — منشور بونابرت إلى جنود الحملة :

تلاحقت مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية وهو لا يزال فى عرض البحر المتوسط ، فى طريقه إلى مصر ، وتمثلت المظاهر الأولى فى عدة منشورات ، كتبها وهو على ظهر بارجة القيادة أوريان « Orient » أى الشرق ، فأصدر منشوراً مؤرخاً فى الثانى والعشرين من يونيو ١٧٩٨ إلى جيش الشرق ، وأذيع على الجنود فى الثامن والعشرين من يونيو ، أى قبل وصول الحملة إلى الإسكندرية بيومين ، وقد أوضح بونابرت للجنود أن الشعب المصرى يدين بالإسلام ، وأن أول ركن من أركان الدين الإسلامى هو الشهادتان

---

(١) Napoléon Ier; Guerre d'Orient etc., op. cit., t. 2, pp. 151–152.

« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، فلا ينبغى على الفرنسيين معارضة المصريين فى عقيدتهم الدينية ، أو تخطئتهم فيها ، بل عليهم أن يسلكوا معهم نفس المسلك الذى انتهجوه من قبل مع اليهود والإيطاليين ، وعليهم أن يظهروا نحو المشايخ والأئمة الاحترام الذى أظهروه لحاخامات اليهود وأساقفة المسيحيين ، وعليهم أن يكونوا متسامحين حيال الأعياد والاحتفالات التى يقيمها المصريون ، وأن يحترموا المساجد كما يحترمون كنيس اليهود وكنائس المسيحيين والأديرة ، وأن يحترموا ديانة محمد ، كما يحترمون ديانة موسى وديانة المسيح .

ومضى بونابرت فى منشوره يقول للجنود : إن فى مصر عادات تختلف عن العادات فى أوروبا ، فلا مناص من أن يعتادها الجنود ويألفوها ، وذكر أن معاملة المصريين للسيدات تختلف عن معاملة الفرنسيين لهن ، وقال : إن الشخص الذى يعتدى على سيدة فى أى بلد من بلاد العالم إنما هو شخص دنئ . وحذر بونابرت جنوده من ارتكاب أعمال النهب ، وقال إن مثل هذه الأعمال تثرى أقلية ضئيلة من رجال الجيش ، ولكن ضررها ينسحب ويمتد إلى كل الفرنسيين ، ويجعلهم موضع كراهية شديدة من الشعب المصرى ، وأكد لهم أن مصلحة الفرنسيين تتطلب اكتساب صداقة المصريين ومودتهم(١) .

ويعتبر هذا المنشور من المعالم الأولى لسياسة التعايش السلمى ، وقد أراد أن يحمل جنوده على التزام هذه السياسة ، ويلاحظ أن توزيع هذا المنشور كان مقصوراً على العسكريين الفرنسيين دون سواهم ، وقد جاء فى صورة أمر عسكرى واجب التنفيذ ، صدر عن القائد العام لجيش الشرق ، ولم يعلم به الشعب المصرى ، واستهدف بونابرت منه اجتذاب قلوب المصريين نحو

---

(١) Napoléon Ier; Correspondance de Napoléon Ier, op, cit., t. IV; doc. no. 2710, en date du 4 Messidor VIe année de République (22 juin, 1798),

الفرنسيين ، إذ يرون جيشاً أوروبياً مسيحياً يستولى على بلادهم عنوة ، ولا يلجأ إلى أعمال النهب والسلب ، والقتل وانتهاك الحرمات(١) .

٢ — منشور بونابرت إلى المصريين :

وكتب بونابرت أيضاً وهو على ظهر البارجة أوريان منشوراً باللغة الفرنسية موجهاً إلى الشعب المصرى شرح فيه الخطوط الرئيسية للسياسة التى يعتزم انتهاجها فى مصر ، وقام المستشرقون المرافقون للحملة بترجمة المنشور إلى اللغة العربية ، وساعدهم مترجمون من الأسرى المسلمين الذين كان فرسان القديس يوحنا قد اعتقلوهم فى جزيرة مالطة منذ سنوات طويلة ، وألقوا بهم فى غيابة السجن . وأطلق بونابرت سراحهم عقب استيلائه على الجزيرة وهو فى طريقه إلى مصر(٢) ، وقد جاءت الترجمة غير دقيقة وفى أسلوب ركيك .

---

(١) بلغ من حرص بونابرت على تنفيذ هذه السياسة أنه أصدر عقب استيلائه على الإسكندرية أمراً عسكرياً إلى قادة الجيش ، طلب فيه ضرورة احترام الدين الإسلامى ، والمحافظة على أرواح الأهالى وممتلكاتهم ، وإطلاق الحرية التامة للمصريين فى إقامة الصلاة فى المساجد ، كما كانوا يفعلون من قبل ، وتحريم دخول أى فرنسى ، سواء كان عسكرياً أو مدنياً المساجد ، ومنع الفرنسيين من الاحتشاد أمام أبوابها . وأمر بونابرت فى هذا المنشور قادة الجيش بأن يصدروا الأوامر لجميع ضباط الكتائب بإذاعة هذه الأوامر على الجنود ، والتنبيه عليهم بتجنب أعمال السلب والنهب ، ومعاقبة كل من يخالف هذه الأوامر بالإعدام رمياً بالرصاص . وأمر أيضاً بأن يدفع الجنود أثمان السلع التى يبتاعونها ، وأن تكون الحرب محصورة بين الفرنسيين والمماليك .

انظر نص هذا المنشور فى :

Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no 2734 en date du 15 Messidor, VIè année de la République (3 juillet, 1798).

(٢) استغل بونابرت هذا الحادث سياسياً ودبلوماسياً فعهد إلى الجنرال شابو Chabot قائد الحامية الفرنسية فى جزيرة كورفو بالاتصال بالقائم بأعمال السفارة الفرنسية فى الآستانة وهو روفانRuffin ليقوم بإبلاغ الباب العالى أن الجيش الفرنسى قد أطلق سراح الأسرى المسلمين فى جزيرة مالطة ، عقب سحق قوات فرسان القديس يوحنا ، وكان المعتقلون المسلمون أخلاطاً شتى من الأتراك والمغاربة والشوام وغيرهم ، وكلهم من رعايا الدولة العثمانية ، وبلغ عددهم سبعمائة أسير : قدم لهم بونابرت الملابس والنقود والأطعمة قبل السماح لهم بالسفر إلى بلادهم .

—

وأضيفت إليها — بتوجيه من بونابرت — عبارات لم ترد فى الأصل الفرنسى كما سنرى ، وأمر بونابرت بطبع الترجمة العربية للمنشور ، والحملة لا تزال فى عرض البحر ، حتى يكون المنشور معداً للتوزيع على أفراد الشعب المصرى بمجرد وصول الحملة إلى الإسكندرية ، وكان بونابرت قد أحضر مع الحملة مطبعة مزودة بالحروف الفرنسية واليونانية والعربية التى جمعها من باريس ، ثم استكمل لها الحروف العربية الناقصة من مطبعة البروباجندا فى روما(١) ، ولما نزلت الحملة فى الإسكندرية فى يوم الإثنين الثامن عشر من محرم ١٢١٣ الموافق الثانى من يوليو ١٧٩٨ وزع المنشور على المصريين ، كما أرسلت نسخ منه إلى القاهرة مع أسرى مالطة ، فوزعوه فى العاصمة قبل وصول الفرنسيين إليها . وقد حمل هؤلاء الأسرى نسخاً من هذا المنشور إلى بلادهم عند عودتهم إليها سواء كانت بلاد الشام أو شمالى إفريقية أو الأناضول . وبهذه الطريقة الإعلامية « عم المنشور جميع بلاد الشرق » كما يقول أحد المعاصرين وهو المعلم نقولا ترك (٢) .

= انظر ما كتبه بونابرت عنهم فى مذكراته :

Napoléon Ier, Guerre d'Orient. etc., op. cit., t. I, p. 133.

(١) كان بونابرت قد كتب إلى مونج « Monge » العالم الفرنسى فى الرياضيات وإلى الجنرال ديزيه « Désaix » ، وكانا فى روما ، يطلب منهما الاستيلاء على القسم العربى من مطبعة البروباجندا ، وأن يتعاقد مع بعض المترجمين من الشرقيين المقيمين فى إيطاليا ، وقد تم التعاقد مع الخواجة إلياس فتح الله ، والخواجة يوسف مسابكى وغيرهما .

(٢) المعلم نقولا ترك : مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ جاستون فييت ص ١٧ .

وقد جاءت ترجمته الفرنسية لهذه العبارة على النحو التالى .

elle (la proclamation) avait été distribuée dans tout l'Orient. p. 26, trad. fr.

بدأ بونابرت منشوره إلى الشعب المصرى بهذه العبارات الدينية :
« بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه(١). ومن طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية(٢) السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته ، يعرف أهالى مصر جميعهم أن .... »

أكد بونابرت فى أكثر من موضع فى هذا المنشور أنه لن يتعرض بسوء للدين الإسلامى ، بل إنه أكثر من المماليك عبادة لله ، واحتراماً لنبيه صلوات الله عليه ، وللقرآن الكريم ، وقرر فى منشوره أن الفرنسيين مسلمون مخلصون. وجاءت هذه العبارة فى الأصل الفرنسى : « إننا أصدقاء للمسلمين المخلصين »
"Que nous sommes amis des vrais musulmans" (٣)
وحاول أن يقيم الدليل على صحة هذا الزعم ، فقال : إن الأمة الفرنسية وجهت الجيش الفرنسى إلى روما ، وحاربت البابا لأنه كان يحرض دائماً النصارى على محاربة المسلمين ، وأضاف بونابرت إلى ذلك قوله : إنه وهو فى طريقه إلى مصر قد استولى على جزيرة مالطة ، وطرد منها فرسان القديس يوحنا

---

(١) يلاحظ أن الأصل الفرنسى جاء خالياً من هذه العبارات الدينية ، وقد استهل بونابرت المنشور بهذه العبارة : « بونابرت عضو المجمع العلمى القومى ، والقائد العام لجيش الشرق » .
ويلاحظ أيضاً على الترجمة العربية أنها ذكرت إحدى الشهادتين وهى « لا إله إلا الله » وأغفلت الشهادة الثانية وهى « محمد رسول الله » .

(٢) التسوية يقصد بها المساواة « L'égalité » . .

(٣) لم يقع هذا التحريف فى الترجمة عفواً ، بل جاء مقصوداً ، ولم يقبل بونابرت أن يسجل على نفسه هذا الإقرار فى الأصل الفرنسى بأن الفرنسيين مسلمون مخلصون صادقون مهما قيل من مبررات أمام الرأى العام الفرنسى ، ولكن قام المترجمون بإدخال هذا التعديل وغيره فى الترجمة العربية بتوجيه من بونابرت .

وقد ناقش أحد الباحثين الأوروبيين أسباب وجود الاختلاف بين الأصل الفرنسى كما وضعه بونابرت ، وبين الترجمة العربية التى وضعها مترجمو الحملة ، وكما وزعت على الشعب المصرى . انظـــر :

Chauvin Victor; La Légende Egyptienne de Bonaparte, Mons, 1902, pp. 36-37.

الذين يزعمون أن الله قد طلب منهم قتل المسلمين(١)،وعمد بونابرت فى منشوره إلى تذكير المصريين بأنهم ينتمون إلى إقليم هو أحسن بلد فى العالم ، وأنهم أمة لم تبدأ من فراغ ، بل بدأت من مجد عريض ، وأنها طاولت الزمان وجوداً ، وصنعت الحضارات صنعاً . وقال : إن حكم المماليك الباغى هو الذى انحدر بالمصريين إلى هذه الحالة التعسة من الفاقة والبؤس . وحاول فى منشوره أن يفصل بين الشعب المصرى والمماليك ، فقرر أنه جاء ليحاربهم وحدهم ، ولينقذ المصريين من مظالمهم ، ويقتص منهم ، لأنهم يضطهدون التجار الفرنسيين ، ويعتصرون أرزاق المصريين ، ويغتصبون خيرات البلاد ، ومحاصيلها ، وينعمون بالجوارى الحسان ، والخيول المطهمة ، والقصور الفخمة ، وأكد أن مصر ليست ملكاً لهم . وقال : « فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم » ، وتكلم عن وضاعة أصلهم ، ووصفهم بأنهم أغراب عن مصر جلبوا من خارجها ، وذكر أن جميع الناس عند الله سواء ، وأن العقل والفضائل والعلوم هى التى تميز الأفراد بعضهم عن بعض ، وليس للمماليك من هذه الخصال نصيب ، ووعد بونابرت المصريين بأن الحكم الفرنسى سوف يتيح عديد الفرص أمام « العلماء والفضلاء والعقلاء » لتولى المناصب الحكومية . وحاول أن يحتفظ بعلاقات ودية مع السلطان العثمانى ، وقد وصفه بأنه « محبنا دام بقاؤه » واختتم منشوره بتعليمات يغلب عليها طابع التهديد ، فهدد بإحراق كل قرية تقاوم الجيش الفرنسى ،

(١) انظر بخصوص هذا الموضوع كلا من :

Correspondance de Napoléon. t. IV.

الوثائق رقم ٢٤٩٦ ، ٢٤٩٧ ، ٢٦٢٠ ، ٢٦٢٢ ، ٢٦٢٥ ، ٢٦٢٧ ، ٢٦٢٩ ، ٢٦٣٦ ، ٢٦٤١ .

وانظر أيضاً عرضاً دبلوماسياً لتطورات مشروع غزو الجزيرة فى فصل عنوانه :

The Genesis of the Expedition.

فى

Shafik Ghorbal : The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era based on Researches in the British and French Archives. London, 1928. pp. 35–36.

وأما إذا أظهرت القرية ولاءها للفرنسيين ، فيسمح لها برفع العلم العثمانى(١) ، وأن على جميع القرى الواقعة على مسيرة ثلاث ساعات(٢) أن تبعث بمندوبين عنها للقائد العام يعلنون الولاء ، وأنهم رفعوا العلم الفرنسى « الذى هو أبيض وكحلى وأحمر » ، وطلب من المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة الاستمرار فى أداء مهام مناصبهم ، والتحفظ على أملاك المماليك ، وأن تستمر إقامة الصلاة فى المساجد كالمعتاد ، وأن يكون كل إنسان مطمئناً فى مسكنه .

وكانت آخر عبارات المنشور أن طلب بونابرت من المصريين أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على زوال دولة المماليك قائلين بصوت عال :

أدام الله إجـــلال السلطان العثمانى

أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى

لعن الله المماليك

وأصلح حال الأمة المصرية

تحريراً فى ١٣ شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنساوى (٣)

والحق أن هذا المنشور يلخص سياسة بونابرت الإسلامية ، واستهدف منه تأكيد المبادىء الآتية فى أذهان الشعب المصرى .

---

(١) جاءت فى الترجمة العربية « الصنجاق » وهى لفظة تركية تكتب أحياناً « سنجق » ومن معانيها العلم .

(٢) جاءت فى الأصل الفرنسى ثلاثة فراسخ .

(٣) نشر النص الفرنسى للمنشور تحت عنوان : Proclamation فى

Correspondance de Napoléon; t IV, doc. no. 2723, en date du 4 Messidor, VIé année de la République (2 juillet, 1798).

ونشرت الترجمة العربية كما وزعت على الشعب فى (الجبرتى ، ج ٣ ، ص ص ٤ — ٥).

أولا : إن الفرنسيين مسلمون مخلصون، وإنهم لا يضمرون شراً للإسلام، بل إنهم يكنّون احتراماً عميقاً للنبي صلوات الله عليه ، وللقرآن الكريم ، ويحرصون على أن تستمر إقامة الصلاة فى المساجد كالعادة . والهدف من ذلك إشاعة الطمأنينة فى نفوس المصريين ، وجذب قلوبهم إلى الحكم الفرنسى .

ثانياً : الفصل بين المصريين والمماليك ، والهدف من ذلك استمالة المصريين إلى التزام موقف الحيدة ، وحصر العمليات الحربية فى أضيق نطاق ممكن ، وتصبح الحرب مقصورة على الفرنسيين من ناحية ، والمماليك من ناحية أخرى ، وبذلك يتم له التغلب على المماليك فى سهولة وسرعة ، ودون وقوع خسائر فادحة فى الأرواح أو العتاد فى الجانب الفرنسى .

ثالثاً : الاهتمام بإبراز صفة أراد بونابرت أن يلصقها بالفرنسيين ، وهى أنهم لم يجيئوا إلى مصر غزاة قاهرين ، بل جاءوا محررين للشعب من ظلم المماليك واستبدادهم ، ولذلك زج فى منشوره ببعض كلمات تحمل بعض الشعارات التحررية فى الثورة الفرنسية مثل الحرية والمساواة ، وقد عرب الكلمة الأخيرة المترجمون المرافقون للحملة بكلمة « التسوية » .

رابعاً : إن الحكم الفرنسى سيهيىء للمصريين من أمرهم رشداً ، وسوف يتيح لهم الفرص لشغل المناصب القيادية ، وبذلك يرضى المصريون عن الحكم الفرنسى ، على أساس المنافع المشتركة .

خامساً : تذكير المصريين بحضارتهم القديمة ، وأن المماليك هم الذين عصفوا بهذه الحضارة ، وأنهم السبب فى فقر وشقاء المصريين ، وفى هذا القول إثارة لشعور الشعب على المماليك .

سادساً : إيجاد علاقات ودية بين الفرنسيين والسلطان العثمانى ، حتى لا يركن المصريون إلى الثورة على الفرنسيين ، بسبب ولائهم للسلطان ، الذى كان الشعب ينظر إليه على أنه خليفة المسلمين وسلطان أكبر دولة إسلامية فى العـــالم .

تعليق عنيف للجبرتى على المنشور :

وللجبرتى تعليق عنيف ولاذع جداً على هذا المنشور ، وقد كتب هذا التعليق فى كتابه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » (١) ، وجاء عنوان التعليق على النحو الآتى : « تفسير بعض ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة » ، وقد فند الجبرتى معظم الآراء التى جاءت فى منشور بونابرت ، ودلل على ما فيها من تضارب . نذكر على سبيل المثال ما جاء فى تعليقه على قول بونابرت إنه يحترم القرآن العظيم : « إن احترام القرآن تعظيمه ، وتعظيمه بالتصديق بما فيه ، وهو من آيات النبى الدالة على صدقه ، وأنه نبى آخر الزمان ، وأن أمته أشرف الأمم ، وهؤلاء لجميع ذلك نافون ، وفيما عددوه كاذبون ، وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . أما التعظيم الحسى ، فهو فرض مأمور به بقوله تعالى « لا يمسه إلا المطهرون » ، فيحرم على

---

(١) توجد فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ثلاث نسخ خطية من كتاب مظهر التقديس ، وهى تحمل الأرقام : الآتية

المخطوط الأول : ١٣٢٨ تاريخ ، المكتبة التيمورية ، عدد صفحاته ٤٠٦ ، سنة ١٢٤٠ هـ

المخطوط الثانى : ٣٣٠ تاريخ ، عدد صفحاته ٣٨٣ ، سنة ١٢٦٣ هـ .

المخطوط الثالث : ١٠١ تاريخ ، مكتبة الأمير مصطفى فاضل ، عدد أوراقة ١٤٥ ، سنة ١٢٢٤ هـ .

وقام الكسندر كاردان « Alexandre Cardin » مترجم القنصلية الفرنسية فى الإسكندرية بترجمة كتاب مظهر التقديس إلى اللغة الفرنسية ونشره فصولا فى الجريدة الآسيوية « Journal Asiatique » أعداد مارس (آذار سنة ١٨٣٤) ويوليو (تموز) وديسمبر (كانون أول سنة ١٨٣٧) ، ثم جمعت هذه الفصول فى كتاب مستقل طبع فى باريس سنة ١٨٣٨ فى سنة وفاته . واسم هذا الكتاب مذكور فى الدليل البيليوجرافى الذى وضعه مونيه « Munier » .

هذا وتوجد فى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية صورة فوتوغرافية لمخطوط مظهر التقديس تحت رقم ٣٠٣٣ — ٩٨ : ٢٧٥ . وقد أخذت هذه الصورة عن مخطوط محفوظ فى المكتبة الأهلية فى رامبور بالهند تحت رقم ٣٦٣٤ تاريخ . ويقع هذا المخطوط فى ١٧٥ صفحة . ولم يذكر اسم ناسخه ، وإن كانت قد ذكرت سنة ١٢١٦هـ تاريخاً لنسخه .

المحدث والجنب مس آية من القرآن ، وهؤلاء قد شوهد الكثير منهم يتغوط ويمسك بأوراق المصاحف ، ويرميها ملطخة فى الطريق ومحل النجاسات ، فإنهم لا يستنجون بالماء ألبتة ، وجليلهم وحقيرهم يستعمل ما يجده من الأوراق . ودخل بعض الناس داراً من دورهم ، فوجد باب المهنة مسنوداً بمصحف كبير ، فأخذه وفتحه فوجده ختمة شريفة مكالفة ، فتأثر واغتم ، وطلب أن يفتديه بدراهم ، فامتنع صاحب الدار من بيعه إلا بمبلغ كذا ، فسعى الرجل حتى استرضى خاطره ، واستنقذ الختمة ، وهم فى كل ذلك يضحكون ، ويعدون الرجل كأنه مجنون ، فأين أعزك الله التعظيم الذى يزعمه هذا المفترى(١) ؟ » ، وقد تعرض الجبرتى فى مواضع أخرى من كتابه المخطوط إلى التضارب بين ما جاء على لسان بونابرت فى هذا المنشور ، وبين التصرفات التى صدرت عنه فى حكم الشعب المصرى ، وسنشير إليها فى مواطن قادمة فى هذه الدراسة ، أما بونابرت فإنه سخر من هذا المنشور حين أعيدت عليه قراءته بعد مضى سنوات طويلة لم تقل عن تسع عشرة سنة ، وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة ، يحيط به بعض القادة الفرنسيين الذين عاشوا معه فى المنفى ، وقال لهم إن هذا المنشور قطعة من الدجل (٢) .

* * *

---

(١) إن هذا التعليق موجود فى المخطوطات الثلاثة على النحو التالى :
المخطوط الأول الذى يحمل رقم ١٣٢٨ ، ص ص ٣١ — ٣٥ .
المخطوط الثانى الذى يحمل رقم ٣٣٠ ، ص ص ٢٨ — ٣٢
المخطوط الثالث الذى يحمل رقم ١٠١ ، الوجه الثانى من ورقة ١٢ وورقة ١٣ بوجهيها أى أن التعليق استغرق فى هذا المخطوط ثلاث صفحات وهى تعادل خمس صفحات فى كل من المخطوطين الأولين .

(٢) Gourgaud et Montholon· Mémoires pour servir a l'his- toire de France sous le règne de Napoléon. écrits à Sainte Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité, Paris. Didot, 1823, 7 vols. t. II, pp. 281–282.

٣ – بونابرت يحاول إظهار صداقته للسلطان :

وحرص بونابرت فى ذاك الوقت على إظهار صداقته للسلطان العثمانى أمام كبار الموظفين العثمانيين فى مصر ، تمشياً مع خطة العمل الدبلوماسى : والتى أراد لها أن تكون مكملة لسياسته الإسلامية ، فكتب خطاباً مؤرخاً فى الثلاثين من يونيو ١٧٩٨ إلى الوالى العثمانى واسمه أبو بكر باشا ، ولقبه الطرابلسى(١) ، قال فيه : إن الغرض من الحملة على مصر إنما هو معاقبة الأمراء المماليك الذين أسرفوا فى الإساءة إلى التجار الفرنسيين ، وقد عجزت وسائل الباب العالى عن كسر شوكتهم ، وإعادتهم إلى جادة الحق والصواب ، وحاول بونابرت فى منشوره أن يثير أبا بكر باشا الطرابلسى على المماليك ، فقال : لقد كان من المفروض أن يكون الباشا العثمانى فى مصر هو السيد المطاع فى أرجاء البلاد ، ولكن جرده المماليك من كل جاه ونفوذ ، ولذلك يجدر بالباشا أن يتلقى نبأ قدوم الحملة الفرنسية بالغبطة والابتهاج ، واختتم خطابه بهذه العبارات «واعلم أنى لم أحضر للتعرض للدين ، ولا للقيام بأمر يسىء إلى السلطان . إن الأمة الفرنسية هى الحليفة الوحيدة للسلطان فى أوروبا ، فهلم إذاً لمقابلتنا ، والعن معنا المماليك وعنصرهم الخبيث»(٢) . وقد بعث بهذا الخطاب من الإسكندرية

– والجزء الثانى من هذه الأجزاء السبعة يخص أحداث الحملة الفرنسية على مصر .
وانظر أيضاً :

Guémard (G.), Histoire et bibliographie critipue de la Commission des Sciences et Arts de l'Institut d'Egypte. Lc Caire. 1936. pp. 105–196.

(١) تولى حكم ولاية مصر فى ٢٨ سبتمبر ١٧٩٦ (٢٥ ربيع أول ١٢١١ هـ) وغادر القاهرة فى ٢١ يوليو ١٧٩٨ (٧ صفر ١٢١٣) عقب معركة إمبابة ، واتخذ طريقه إلى بلبيس ثم غزة .

(٢) Correspondannce de Napoléon. t. IV, doc. no. 8719. en date du 12 Messidor VIe. année de la Républipue (28 Juin. 1798).

مع أحد الضباط العثمانيين التابعين لإحدى السفن الحربية العثمانية الثلاث التي كانت راسية في مياه الثغر (١) . وجدير بالذكر أن بونابرت اتخذ من هذا الخطاب وسيلة للدعاية إلى سياسته الإسلامية ، فأمر بنشر الترجمة العربية لهذا الخطاب في الإسكندرية (٢) ، كما كتب بونابرت خطاباً في هذا المعنى إلى إدريس بك قائد « عقاب بحرى » كبرى السفن العثمانية الثلاث ، المرابطة في الإسكندرية ، وقال له بونابرت في هذا الخطاب « إنك تابع صديقنا العظيم سلطان تركيا » (٣) .

نمر بعد ذلك مروراً سريعاً على مظاهر أخرى لسياسة بونابرت الإسلامية تجاه الشعب المصرى . احتل الجيش الفرنسى الإسكندرية ، وزحف على القاهرة ، وفى طريقه إليها أوقع هزيمة بالمماليك عند قرية شبراريس (٤) (١٣ من يولبو ١٧٩٨) ، ثم انتصر عليهم فى معركة إمبابة (٢١ يوليو) ، وحسمت هذه المعركة الموقف الحربى لصالح

---

(١) Napoléon 1 . Gueare d'Orient. etc.; op. cit., t. l., p. 122

(٢) Loc. cit.

(٣) Correspoudance de Napoléon. t. IV, doc. no; 2721, en date du 12 Messidor Vl . année de la République 1 Juillet. 1798 ,

(٤) تجمع معظم المصادر الفرنسية على أن المعركة دارت فى شبر اريس وليس فى شبراخيت . وتكتب هذه المصادر مكان المعركة « Chebreis » أو «Choubra Reis» وبالرجوع إلى الخطط التوفيقية نجد أنه توجد فى الوجه البحرى قريتان تحملان اسم شبر اريس ، إحداهما شبر ارس البحيرة ، وهى قرية على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ، تقع فى إقليم البحيرة ، وتتبع مركز شبراخيت ، وتقع القرية فى جنوب مركز شبراخيت على مسيرة نصف ساعة . أما الأخرى فهى شبر اريس المنوفية وهى قرية تقع على الشاطىء الغربى للترعة الباجورية ، وتقع فى إقليم المنوفية ، وتتبع مركز تلا . وتقع فى جنوب كفر الزيات على مسيرة ثلاث ساعات . والمعركة دارت فى قرية شبر اريس البحيرة .

(انظر : على مبارك باشا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٢ ، ص ١١٢) .

الفرنسيين ، وأطلقوا عليها اسماً يخلد ذكراها فى التاريخ فسموها موقعة الأهرام (١) . وفى غداة هذا الانتصار مضى بونابرت فى الإعلام عن سياسته الإسلامية ، فأذاع منشوراً وجهه إلى سكان القاهرة أكد فيه بعض النقاط التى جاءت فى منشوره الأول ، ثم أضاف جديداً هو عزمه على إنشاء ديوان لحكم القاهرة يتكون من سبعة أعضاء ويكون الجامع الأزهر مقراً له ، ولم يرد ذكر لهذا المنشور فى كتاب الجبرتى ، ولكن ورد نصه الأصلى باللغة الفرنسية فى مجموعة الوثائق الرسمية الخاصة بالحملة(٢) وهذه هى الترجمة العربية للنص الفرنسى :

٤ – منشور بونابرت إلى سكان القاهرة :

« معسكر الجيزة فى ٤ تيرميدور إلى أهل القاهرة :

« إنى مسرور من سلوككم ، وقد أحسنتم صنعاً بعدم اشتراككم فى مقاومتى . لقد جئت هنا لأبيد جنس المماليك ، وأحمى التجارة ، وأهل البلاد الأصليين . فليطمئن الخائفون ، وليعد الذين تركوا بيوتهم إليها ، ولتقام الصلوات فى المساجد ، كما كانت تقام من قبل ، وكما أريد أن تقام دائماً ، لا تخشوا شيئاً على عائلاتكم و بيوتكم وأملاككم ، لاسيما دينكم ، دين النبى الذى أحترمه وأقدسه .

---

(١) يعتبر الفرنسيون انتصارهم فى معركة إمبابة صفحة فخار فى التاريخ العسكرى الفرنسى ولذلك أطلقوا عليها اسم « معركة الأهرام » ، وحذا الإنجليز هذا الحذو فأطلقوا على معركة أبى قير البحرية (أول أغسطس ١٧٩٨) اسم « معركة النيل » ، وهكذا عمد الفرنسيون والإنجليز من قبيل الزهو إلى إطلاق اسمين لكل منهما رنين ، وأغفلوا الاسمين الحقيقين لمعركتين حاسمتين ، لأن كلا من هذين الاسمين : إمبابة ، وأبى قير قرية صغيرة ، لا يكاد يعرفهما أو يسمع عنهما أحد فى أوروبا ، وسنلتزم فى هذه الدراسة بالاسمين الحقيقيين لهاتين المعركتين .

(٢) Correspondance de Napoléon. t. IV, doc, no. 2818. en date du 4 Thermidor VI année de la République (22 Juillet, 1798 .

« ولما كانت المحافظة على الأمن من المسائل التى لا تتحمل تأخيراً ، فسيكون هنا ديوان مؤلف من سبعة أعضاء ، يجتمعون فى الجامع الأزهر (١) ، يتصل اثنان منهم دائماً بالقائد ، ويتخصص أربعة منهم للمحافظة على الأمن ، ومراقبة شئون الشرطة » .

وأقام بونابرت عقب معركة إمبابة فى قصر مراد باك بالجيزة ، واتخذ منه مقراً للقيادة العامة للجيش الفرنسى ، وفى أثناء إقامته فى هذا القصر كان علماء الأزهر هم أول الشخصيات الذين طلب مقابلتهم (٢) . فكان هذا الطلب مظهراً عملياً لاعترافه بزعامتهم للشعب المصرى . فذهب إليه وفد كان على رأسه اثنان من كبار العلماء ، هما الشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى . وتمشياً مع سياسته الإسلامية أحسن بونابرت مقابلة أعضاء الوفد ، وتودد إليهم ، ولما علم منهم أن

(١) "Comme il est urgent que la tranquillité ne soit pas troublée, il y aura un divan de sept personnes qui se réuniront à la mosquée d'El Azhar".

(٢) عقد اجتماع فى الأزهر صبيحة معركة إمبابة ، ضم بعض العلماء والأعيان الذين بقوا فى القاهرة ، كما شهده مصطفى كتخدا باشا – أى نائب الوالى العثمانى – وقاضى القضاة العثمانى ، وتدارسوا الموقف ، واستقر رأيهم على ضرورة الإفراج عن الفرنسيين الذين كان مراد بك قد أمر بوضعهم « تحت اليسق » ، أى اعتقالهم قبل معركة إمبابة ، وقيل إنه كان يعتزم قتلهم ، لولا أن تدخل روستى « Rossetti » قنصل النمسا العام ، واتفقوا أيضاً على أن يبعثوا برسالة إلى بونابرت يستفسرون منه عن نواياه بعد المعركة ، وكان الجيش الفرنسى لا يزال مرابطاً فى البر الغربى لم يعبر النيل بعد إلى القاهرة ، فذهب رسولان إلى الجيزة ، وبعد أن وقف بونابرت على مضمونها قال على لسان الترجمان : « وأين عظماؤكم ومشايخكم ؟.. ولماذا تأخروا فى الحضور إلينا ، لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ وطمنهم وبش فى وجوههم » .

هذا ويوجد اختلاف بين أقوال الجبرتى ، ونقولا ترك ، ولاكروا « Lacroix» ، وريبو «Reybaud» ، والمذكرات التى أملاها بونابرت فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة حول الاتصالات التى تمت بين بونابرت وكبار سكان القاهرة لتسليم العاصمة ، كما يوجد خلاف حول تاريخ دخول بونابرت القاهرة ، وهل هو يوم ٢٤ أو ٢٥ يوليو ١٧٩٨ ، والأصح هو ٢٤ طبقاً لرواية الجبرتى ، ولاجونكيير «La Jonquière».

عدداً من كبار المشايخ علماء الأزهر قد غادروا القاهرة عقب معركة إمبابة ، طلب أن تكتب لهم خطابات تدعوهم إلى العودة إلى العاصمة ، وتؤكد لهم أنه لن يصيبهم سوء . وأعلن بونابرت لأعضاء الوفد عن عزمه على إنشاء ديوان « لأجل راحتكم وراحة الرعية ، وإجراء الشريعة ..... » (١) .

ولا بد أن بونابرت قد علم من أعضاء الوفد — طالما أن حديثه معهم قد تناول كبار القوم الذين غادروا القاهرة عقب معركة إمبابة — أن أبا بكر باشا الطرابلسى الوالى العثمانى قد ارتحل هو الآخر مع إبراهيم بك، كما علم بونابرت أن بين الذين آثروا الهجرة من القاهرة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والسيد محمد السادات ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ،والسيدأحمد المحروقى شهبندر(٢) تجار القاهرة . فأرسل بونابرت خطاباً من الجيزة مؤرخاً فى ٢٢ يوليو إلى أبى بكر باشا الطرابلسى ، على أمل أن يصله هذا الخطاب فى بلبيس،وافترض بونابرت أن خطابه الأول الذى أرسله إليه من الإسكندرية لم يصله ، وقد أبدى بونابرت فى خطابه أسفه الشديد ، لأن إبراهيم بك استعمل معه العنف وأكرهه على مغادرة القاهرة ، ثم قال له : « إذا كنت سيداً مطاعاً فارجع إلى القاهرة،وستظفر بالاحترام والتقدير الجديرين بممثل صديقناالسلطان » ، ومضى يقول فى خطابه إنه سحق القوة العسكرية للمماليك ، ثم طلب إليه أن يؤكد للسلطان أن الأسلحة التى جعلت فرنسا تنتصر على المماليك ستكون دائماً تحت تصرف السلطان(٣) . وفى اليوم التالى أرسل بونابرت خطابه الثالث إلى أبى بكر باشا ، وقد حاول أن يحدد فيه على نحو من الأنحاء وضع

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٢) شهبندر التجار ، معناها كبير التجار ، أو سر التجار .

(٣) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2819, en date du 4 Thermidor VIè, année de la République. (22 juiliet 1798).

مصر السياسى بعد الغزو الفرنسى ، وقد جاء فى هذا الخطاب الثالث :
« إن هدف الجمهورية الفرنسية من احتلالها مصر هو طرد المماليك الذين طالما شقوا عصا الطاعة على الباب العالى ، وأظهروا شعوراً عدائياً نحو الحكومة الفرنسية ، والآن ، وقد استطاعت الجمهورية الفرنسية ، بانتصار جيوشها ، أن تضع يدها على مصر ، فإن من أقصى رغبات الجمهورية أن تحافظ على نفوذ نائب جلالة السلطان ، ولذلك أرجوكم أن تؤكدوا للباب العالى أنه لن يخسر شيئاً بوجودنا فى مصر ، وسأحرص على أن تتلقى حكومة جلالة السلطان الجزية التى كانت ترسل لها من مصر » (١) .

ومن الواضح أن هذا الخطاب كان يمثل جانباً من خطة العمل الدبلوماسى التى وضعت بعناية فى وزارة الخارجية الفرنسية ، والتى كانت مكملة لسياسة بونابرت الإسلامية .

* * *

٥ — إنشاء ديوان القاهرة :

عبر بونابرت النيل ودخل القاهرة فى ٢٤ يوليو ١٧٩٨ ، وأقام فى قصر محمد بك الألفى بخط الساكت بالأزبكية ، واتخذه مقراً للقيادة العامة للجيش الفرنسى ، وكان الألفى قد فرغ من بنائه فى السنة السابقة على الغزو الفرنسى ، وأنفق الأموال الوفيرة على تأثيثه وزخرفته ، حتى أصبح من أروع قصور مصر كلها(٢) ، ولم تطل إقامته فيه أكثر من ستة عشر يوماً ، فكأنه كان يبنيه وينفق عليه بسخاء ليسكنه بونابرت . وفى هذا القصر أصدر بونابرت القرار التالى :

---

(١) Op. cit., doc. no. 2824, en date du 5 Thermidor VIe année de la République. (23 juillet 1798)

(٢) وصف الجبرتى هذا القصر وصفاً مستفيضاً ، وهو يترجم لمحمد بك الألفى . (الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٢٦ — ٤٢) .

« معسكر القاهرة ، فى ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية :

« نحن بونابرت عضو المجمع العلمى القومى (١)، والقائد العام للجيش، نأمر بما يأتى :

أولا : تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء .

ثانيا : يتألف هذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشرقاوى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الأشراف ، ومحمد الأمير . وعليهم أن يجتمعوا اليوم ، الساعة الخامسة مساء فى منزل كخيا الشاويشية ، وعليهم أن ينتخبوا رئيساً لهم ، وأن يختاروا أميناً (كاتم سر) من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية .

« ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند) لإدارة الشرطة ، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتموين المدينة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يعهد إليهم بمهمة الإشراف على دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها إلى امتداد فرسخين منها .

ثالثا : يجتمع أعضاء الديوان كل يوم من الظهر ، ويبقى منهم ثلاثة أعضاء على الدوام فى دار المجلس .

---

(١) كان بونابرت عضواً فى المجمع العلمى الفرنسى منذ ديسمبر سنة ١٧٩٧ ، وهذه العضوية هى التى يقصدها ويشير إليها فى صدر هذا القرار ، وكان بونابرت يزهو بعضويته فى هذه الهيئة العلمية الفرنسية الرفيعة ، ولذلك كان فى القرارات والأوامر العسكرية التى يصدرها يذكر صفته العلمية أولا ، ثم صفته العسكرية بعد ذلك ، وكانت توضع الصياغة اللفظية لديباجة أو مقدمة القرارات والأوامر العسكرية على النحو التالى :

Bonaparte, Membre de l'Institut National, Général en chef, ordonne :

« بونابرت .. عضو المجمع القومى، والقائد العام ، يأمر : »

رابعا : يقام على باب الديوان حرس فرنسى ، وآخر تركى .

خامسا : على الجنرال بيرتيه (١) Berthier ، وقومندان المدينة(٢) أن يكونا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لإجراء مايلزم لأعضائه، ولكى يأخذا عليهم تعهداً بألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش(٣) » .

لنا على هذا القرار ثلاث ملاحظات ، تتصل بسياسة التعايش السلمى مع علماء الأزهر ، أولاها أن جميع أعضاء الديوان كانوا من المشايخ علماء الأزهر ، وقد عهد إليهم بالإدارة المحلية لمدينة القاهرة وضواحيها . أما الملاحظة الثانية فهى أن الاتفاق على اختيار أعضاء الديوان قد تم فى حضور مصطفى بك كتخدا الباشا — أى نائب الوالى العثمانى(٤) — ، وقاضى عسكر أفندى — أى كبير القضاة العثمانى(٥) . وكان حضور هما هذا الاجتماع أمراً له دلالته السياسية ، فإن بونابرت كان حريصاً على المحافظة على العلاقات الودية مع

---

(١) رئيس هيئة أركان الحرب .

(٢) كان الجنرال ديبوى « Dupuy» يشغل هذا المنصب ، وكان بمثابة حاكم القاهرة وكان يلقب أحياناً بشيخ البلد ، وهو اللقب الذى كان يطلق على كبير الأمراء المماليك فى القاهرة إبان الحكم العثمانى ، ويلاحظ أن اسم هذا الجنرال كان يكتب فى مذكرات بونابرت « Dupuis » انظر على سبيل المثال الجزء الأول ص ص ٢٤٨ و ٢٤٩ من مذكرات نابليون :

(٣) Correspondance de Napoléon t. IV, doc. no. 2837, en date du 7 Thermidor, VIe année de la République. (25 juillet, 1798).

(٤) كان الكتخدا هو وكيل الباشا ، وكان يعينه السلطان برتبة صنجق ، ويعاون الباشا فى أعماله الرسمية وغير الرسمية ، ويوقع الأوراق نيابة عنه فى أثناء غيابه ،وكان يتغير بتغير الباشا .

(٥) يقول الجبرتى : « وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر ١٢١٣ أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر ، فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ .... وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضى » .

(انظر : ج ٣ ، ص ١١) .

السلطان ، والإبقاء على السيادة العثمانية الشكلية على مصر ، كما أن حضورهما يوحى بأنهما وافقا على هذا التنظيم الجديد للإدارة المحلية ذات السلطة المدنية فى منطقة القاهرة ، والملاحظة الثالثة أن بونابرت تراجع عن رأيه الذى سجله على نفسه فى منشورة الذى أذاعه على أهل القاهرة بتاريخ ٢٢ يوليو ١٧٩٨ بأن يجعل من الجامع الأزهر مقراً لديوان القاهرة . ولا يمكن أن يقال إن بونابرت أراد أن يهيىء المناخ الصحى لأعضاء الديوان ، حتى يباشروا اختصاصاتهم ، بعيدين عن المؤثرات الدينية العنيفة ، أو عناصر الشغب ، أو غير ذلك من عوامل قد تعرقل أعمال الديوان ، ولكن الحقيقة المجردة التى تفسر هذا التراجع هى أن بونابرت قد تعجل فى إصدار هذا الرأى فى منشوره ، ثم تبين له استحالة تنفيذه ، لأن التقاليد الدينية لا تجيز دخول غير المسلمين فى المساجد ، ويباشرون وظائف عامة من داخلها ، وكان بونابرت فى القرار الذى أصدره بإنشاء الديوان قد عهد إلى اثنين من كبار قواد الجيش الفرنسى بالتواجد فى دار الديوان « لإجراء ما يلزم لأعضائه ، ولكى يأخذا عليهم تعهداً بألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش».

* * *

٦ — تودد بونابرت إلى علماء الأزهر :

ومن مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية تودده إلى المشايخ علماء الأزهر ، أضفى عليهم الكثير من مظاهر الاحترام والتقدير ، واستبقى لهم امتيازاتهم ، وعلى رأسها حصصهم فى نظام الالتزام فى القرى ، وتنظرهم على الأوقاف . وأمر بأن يؤدى رجال حرس الشرف الذين يرابطون أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر ، إذا جاءوا إلى مقر القيادة(١)، فإذا دخلوا هذا المقر خف لاستقبالهم رجال الياوران

(١) Napoléon Ier., Guerre d'Orient. etc., or. cit., t. I. p. 213

وقد كرر بونابرت فى الجزء الثانى من مذكراته المشار إليها موضوع التحية العسكرية التى أمر أن يؤديها العسكريون الفرنسيون لمشايخ علماء الأزهر.

انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٢ من مذكراته .

والمترجمون يرحبون بهم ، ويقودونهم إلى الصالون الرئيسى فى القصر ، وتقدم لهم المرطبات ثم القهوة ، فإذا فرغوا من تناولها دخل عليهم بونابرت ورحب بهم ، وجلس وسطهم ، محاولا أن يدخل فى نفوسهم الطمأنينة والثقة . وكان يخوض معهم — بواسطة المستشرق فانتور الذى كان يقوم بوظيفة المترجم — فى مناقشات علمية ، تتناول القرآن الكريم ، ويطالب بونابرت من المشايخ تفسير بعض الآيات . وكان يحرص على إظهار الاحترام الشديد للنبي صلوات الله وسلامه عليه . ويخرج المشايخ من عنده وهم ألسنة تلهج بالشكر والثناء ، ويذهبون إلى الجامع الأزهر ، ويجتمعون بمن فيه ، ويتحدثون إليهم عما شاهدوه وسمعوه ويعلق بونابرت على هذا المسلك بأن المشايخ علماء الأزهر قد أدوا خدمات جليلة للجيش الفرنسى(١) . وقد أشاد فى مذكراته بخصالهم ، وقال إنهم طاعنون فى السن ، وإن علمهم وطباعهم وثراءهم ، بل وعراقة أصولهم ، وكرم محتدهم ، كل أولئك يحمل الإنسان على إظهار مزيد من الاحترام نحوهم . ومضى بونابرت فى مذكراته فقال : إنها كانت مفاجأة سارة لعلماء الأزهر حين أدركوا بعد شهر واحد من دخول الفرنسيين القاهرة أنهم أصبحوا ذوى نفوذ كبير ، وأنهم يشتركون فى شئون الإدارة والحكم ، وكانت كل قراهم وممتلكاتهم الخاصة موضع الرعاية التامة ، ولم يسبق أن تمتع هؤلاء الرجال بمثل هذا التقدير . وكانوا يجمعون فى وقت واحد بين عدة صفات ، فهم كبار رجال الدين والقضاء ، ورمز الأرستقراطية ، ولم يحدث أن سعى الناس إليهم يلتمسون حمايتهم ، كما حدث إبان الحكم الفرنسى ، إذ لم يكن المسلمون وحدهم هم الذين يرجون هذه الحماية ، بل كان ينشدها أيضاً المسيحيون من الأقباط واليونانيين

(١) Napoléon Ier, Guerre d'Orient. etc., op. cit., t. I. pp. 213–214.

والأرمن المقيمين فى مصر(١) .

ومما هو جدير بالذكر أن بونابرت أصدر فى ٢٧ يوليو ١٧٩٨ — أى فى خلال الأسبوع الأول لدخوله القاهرة — قراراً بتخصيص حصان لكل عالم من علماء الأزهر من أعضاء ديوان القاهرة(٢)، وكان هذا القرار يحمل معنى التكريم والتقدير للمشايخ علماء الأزهر بالذات ، لأن عضوية ديوان القاهرة كانت فى تلك الفترة مقصورة عليهم ، فكان هذا القرار ينسحب عليهم ، وعلى مبلغ علمنا لم يوضع قرار بونابرت هذا موضع التنفيذ (٣) .

٧ — الاحتفالات بالمولد الشريف :

وكان من مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية اهتمامه العميق بالأعياد الدينية الإسلامية ، ففى شهر أغسطس ١٧٩٨ — وهو الشهر التالى لدخوله القاهرة — حلت مناسبة دينية يحتفل بها المصريون احتفالا شعبياً واسعاً . وهى المولد

(١) كان مما جاء فى مذكراته :

" Tous leurs villages, toutes leurs propriétés particulières furent ménagés avec une délicate attention. Jamais ces hommes qui étaient à la fois les chefs de la religion, de la noblesse et de la justice n'avaient été plus considérés; jamais leur protection n'avait été plus recherchée, non seulement par les Musulmans, mais méme par les chretiens, Coptes, Grecs, Armeniens établis dans le pays."

Loc. cit

(٢) Correspondance de Napoléon, t. IV, dec no. 2865 en date du 9 Thermidor VIe année de la République. (27 juillet 1798).

(٣) يستفاد من الجبرتى أن علماء الأزهر وفيهم أعضاء الديوان لم يستخدموا فى تنقلاتهم إلا البغال . وقد سبق أن ذكرنا أن بونابرت قرر فى مذكراته أن علماء الأزهر قوم يميلون إلى الوداعة ولا يركبون الخيل . كما أنه كتب فى مذكراته أيضاً وصفاً دقيقاً لاستخدام المشايخ علماء الأزهر وسيلة البغال يحيطها الأتباع .

النبوى الشريف (١) ، وكان الاتجاه العام لدى الشعب هو عدم إقامة احتفالات فى هذه الذكرى الكريمة نظراً للظروف العصيبة التى كانت تجتازها البلاد وقتذاك . ولعل هذا الموقف السلبى فى تلك المناسبة الدينية كان تعبيراً شعبياً دينياً عن السخط على الحكم الفرنسى ، ولكن كان هذا الموقف من ناحية أخرى يتعارض تماماً مع سياسة بونابرت الإسلامية ، ومن ثم أمر بأن تقام احتفالات كبرى ، تفوق فى روعتها وبهائها الاحتفالات التى كانت تقام فى هذه المناسبة على عهود السلاطين المماليك ، وغيرهم من الحكام المسلمين ، كما أمر أن يشترك الجيش والموسيقات العسكرية فى الاحتفالات ، وأن تطلق المدافع نهاراً ، والألعاب النارية والصواريخ ليلا ، وأن تعلق أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية قناديل ذات زجاج متعدد الألوان، لتبدو فى غاية البهجة عند إضاءتها ليلا .

وقد مهد بونابرت لاحتفالات المولد بشغل منصب دينى كبير هو منصب نقيب الإشراف ، وقد ظل شاغراً منذ أن هاجر عمر مكرم إلى الشام عقب معركة إمبابة ، ولعل المشايخ أعضاء الديوان أو المتطلعين إلى هذا المنصب من أسرة البكرى هم الذين فاتحوا بونابرت فى ضرورة شغل منصب نقيب الأشراف قبل أن تبدأ احتفالات المولد النبوى الشريف ، والاحتمال الثانى هو الأصح ، لأن أسرة البكرى كانت صاحبة المصلحة فى إعادة نقابة الأشراف

---

(١) كان بونابرت قد احتفل قبل ذلك بأسبوع — أى فى ١٧ أغسطس ١٧٩٨ — بوفاء النيل ، وهو عيد كانت تشارك فيه قطاعات مختلفة من سكان القاهرة المسلمين والأقباط . وكذلك أفراد من أهل بلاد الشام المسيحيين ، ومن اليونانيين ، ويتضح من كلام الجبرتى أن المصريين انصرفوا عن المشاركة فى الاحتفال به ، على الرغم من أنهم كانوا يبتهجون به كل سنة قبل الغزو الفرنسى ، فهو يقول بعد أن وصف حفل وفاء النيل ، وما استحدثه الفرنسيون من مباهج « وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة ، سوى النصارى والشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسائهم ، وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها » .

انظر : الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤ — ١٥ .

إليها (١) وتمشياً مع هذا التوجيه أصدر بونابرت قراراً بتعيين السيد خليل البكرى نقيباً للأشراف، وذهب بنفسه إلى دار الشيخ خليل البكرى، حيث كان المشايخ أعضاء الديوان قد سبقوه إليها، وهناك وفى حضورهم خلع بونابرت خلعة ثمينة على النقيب الجديد، وكان هذا الإجراء بمثابة إعلام رسمى بتقلده المنصب، وممارسته لسلطات وظيفته (٢). ويقول الجبرتى: « نودى فى المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب » .

ويصف الجبرتى اهتمام بونابرت باحتفالات المولد، واشتراك الجيش الفرنسى فى الاحتفال به، فيقول: « سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم؟ فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل، وقال لابد من ذلك، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوى معاونة. وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل. واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم، وضربوا طبولهم ودبادبهم، وأرسل الطبلخانة (٣) الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى، واستمروا يضربونها طوال النهار والليل بالبركة (٤) تحت داره، وهى عباره عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية، وعدة

---

(١) كانت نقابة الأشراف فى أسرة البكرى، وكان السيد محمد البكرى هو نقيب الأشراف وشيخ السجادة البكرية، فلما جاز إلى ربه بدون عقب فى ١٨ ربيع آخر ١٢٠٨ (٢٣ نوفمبر سنة ١٧٩٣)، عين الأميران المملوكيان إبراهيم بك ومراد بك، فى منصب النقيب السيد عمر مكرم، كما عينا السيد خليل البكرى شيخاً للسجادة، وكان تعيين عمر مكرم نقيباً للأشراف بمثابة مكافأة له على السفارة التى قام بها فى يونيو ١٧٩١ من أجل إعادة إبراهيم بك ومراد بك إلى الحكم فى القاهرة، وكانا فى ذلك الوقت فى الصعيد يسعيان سعياً حثيثاً لاستعادة حكمهما السليب، الذى أطاحت به الحملة العثمانية بقيادة حسن باشا الجزائرلى على مصر سنة ١٧٨٦ .

انظر ملابسات هذا الموضوع فى مؤلفنا: عمر مكرم، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ – ٢٨

(٢) الجبرتى: ج ٣، ص ١٥ .

(٣) فرقة الموسيقى العسكرية .

(٤) يقصد بركة الأزبكية بالقرب من ميدان الأوبرا حالياً .

آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة، وسواريخ تصعد فى الهواء (١) » .

واستمرت الاحتفالات بالمولد النبوى من ١٩ إلى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ ، أوقدت خلال لياليها القناديل ، وأمست شوارع القاهرة وطرقاتها بمثـابة أسواق ليلية . واختص الفرنسيون ثلاثة بيوت فى القاهرة بالإضاءة القوية الكثيفة الممتازة طوال الليالى الخمس التى استغرقتها احتفالات المولد ، وكانت هذه البيوت هى : دار بونابرت ، ودار ديبوى الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة، ودار السيد خليل البكرى (٢) . وكان أرباب الطرق الصوفية والأتباع والمريدون والدراويش وأصحاب الأشاير ومن إليهم يطوفون فى مواكب جرارة ، يحملون المشاعل والأعلام ، وينشدون فى أصوات هادرة عبارات دينية بين دق الطبول والتكبير ، وذكر اسم الرسول صلوات الله عليه . وسارت فى أثر هذه المواكب الدينية مواكب الطوائف ، يتقدم كل طائفة شيخها ونقيبها وأعلامها وشاراتها .

وحضر بونابرت الليلة الختامية للمولد فى دار السيد خليل البكرى ، كما حضرها العلماء الفرنسيون أعضاء مجمع مصر العلمى ، وكبار ضباط الجيش . وجلس القائد العام أرضاً ساعات طوالا يستمع إلى القرّاء يتلون آيات القرآن الكريم ، وإلى المنشدين وهم يتلون القصة النبوية ، والتواشيح الدينية . وكان كبار المشايخ يجلسون أرضاً حوله ، وكل منهم يمسك مسبحة فى يده ، ينصتون لمـا يتلى . وبلغ من دهاء بونابرت أنه أخذ يقلد الحاضرين، فكان يهتز ذات اليمين وذات الشمال كأنه مدرك لمـا يقولون ، متأثر بما يتلون . وأظهـر

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٢) Courrier de l'Egypte. No I. en date du 12 Fructidor VIe année de la République (29 août 1798). p. 3.

صبراً لم ينفدفى شهود حفلة الذكر من بدايتها حتى نهايتها ، وقد تخللتها مأدبة عشاء أقامها السيد خليل البكرى . ومدت الأسمطة على الطريقة الشرقية . وأشترك الضيوف الفرنسيون مع المدعوين المصريين فى الجلوس أرضاً على وسائد إلى هذه الأسمطة . وكان السماط الذى جلس إليه بونابرت ، والسيد خليل البكرى يتوسط الأسمطة الأخرى ، وقد بلغ عددها خمسين سماطاً . وكان بونابرت يأكل بيديه ، فيمد يمينه فى تلال الأرز وأكوام اللحم وأطايب الطعام المقدم على صوان نحاسية ضخمة مستديرة ، وحذا الضيوف الفرنسيون على مضض حذو بونابرت ، فكانوا يأكلون بأيديهم مع المشايخ والأعيان ، ويشربون الماء المعطر برائحة الورد (١) .

وانتهج بونابرت سياسة إعلامية نشيطة عقب الاحتفالات بالمولد النبوى الشريف ، فأرسل رسالة مؤرخة فى الحادى عشر من شهر فركتيدور Fructidor من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٢٨ أغسطس ١٧٩٨) إلى الجنرال مارمون Marmont يطلب منه مقابلة الشيخ محمد المسيرى كبير علماء الإسكندرية ورئيس ديوانها (٢) ، ويشرح له كيف احتفل بونابرت بالمولد النبوى فى القاهرة ، وأمره بأن يذكر له فى ثنايا الحديث أن بونابرت يجتمع

---

(١) Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, presentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali-bey, et suivi du récit des événemens (sic) surveaus on ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed-Ali. Paris, Denain 1830-1836, 10 vols. t. III pp. 376-378.

(٢) عين الشيخ محمد المسيرى رئيساً لديوان الإسكندرية ، عندما أنشأ الجنرال كليبر هذا الديوان فى ٢١ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، تنفيذاً لأوامر أرسلها إليه بونابرت .

ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف الذين ينحدرون من الدوحة النبوية الشريفة ، وأن له مع هؤلاء وأولئك أحاديث ومناقشات ، ثم قال فى رسالته : «إنه لايوجد من هو أكثر منى اعتقاداً فى طهارة وقدسية الديانة المحمدية » .

"...., et que personne plus que moi n'est persuadé de la puretè et de la sainteté de la religion mohamétane(١)''

وفى ذات اليوم – ٢٨ أغسطس – أرسل بونابرت إلى الشيخ محمد المسيرى رسالة كان مما جاء فيها : « تعلمون التقدير الخاص الذى شعرت به نحوكم منذ اللحظة الأولى التى عرفتكم فيها ، إنى أرجو ألا يتأخر الوقت الذى استطيع فيه جمع كل الرجال العقلاء والمتعلمين فى البلاد ، وإقامة نظام موحد يقوم على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ الحقة ، والتى هى وحدها قديرة على إسعاد الناس » .

ومضى بونابرت فى سياسته الإعلامية ، مستغلا احتفالات المولد النبوى الشريف ، فأرسل فى ٢٩ أغسطس إلى الجنرال كليبر نسخة من عدد جريدة Courrier de l'Egypte الصادر فى ذات اليوم ، وكان هو العدد الأول من هذه الجريدة الإخبارية الفرنسية التى أصدرتها قيادة الحملة ، وكانت تطبع فى القاهرة . وقد تضمن هذا العدد مقالا عن الاحتفالات التى أقيمت بالقاهرة احتفالا بالمولد النبوى ، وإسهام الفرنسيين فى هذه الاحتفالات إسهاماً رسمياً . وقد طلب بونابرت من كليبر اتخاذ الإجراءات لترجمة هذا المقال إلى اللغة

---

(١) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no 3147, au Général Marmont, en date du 11 Fruccidor VIe année de le République. (28 août, 1798).

العربية ، والعمل على طبعه وإذاعته فى كافة أنحاء الشرق، وأن يرسل إلى بونابرت أربعمائة نسخة من الترجمة العربية (١) .

تناقلت الجماهير بتحفظ شديد أنباء هذه المشاركة البونابرتية فى احتفالات المولد النبوى . وأدرك الشعب بسليقته أن هذه الأفعال ليست صادرة عن عقيدة حقيقية وإيمان صحيح ، وإنما هى ضرب من الخداع والنفاق ، وأن بونابرت استهدف منها تخدير الشعب ، حتى تتوطد دعائم الحكم الفرنسى فى مصر ، ثم يظهر بونابرت على حقيقته . وهكذا جاء بنتيجة عكسية إسراف بونابرت فى التظاهر باحترام الإسلام . ويقول أحد الباحثين الفرنسيين فى هذا الصدد إن الطريقة الحقيقية لكسب قلوب المسلمين من وجهة النظر الدينية، هى إفهامهم بالأقوال والأفعال أن الإسلام موضع الاحترام ، أما التمادى فى إظهار مثل هذا الاحترام. فإنه يثير شكوك المسلمين وسخريتهم ، ويجعلهم ينظرون إلى متزعم هذه السياسة على أنه منافق أو دجال (٢) ،

٨ — الاحتفال بتعيين أمير الحج :

وكان منصب أمير الحج شاغراً ، إذ كان صالح بك قد تقلد إمارة الحج فى منتصف ١٢١٢ هـ قبيل الغزو الفرنسى بشهور معدودات ، وكان من أتباع مراد بك المقربين إليه . يذكر الجبرتى أن مراد بك شيد له داراً بجوار قصره فى الجيزة، فلما عاد صالح بك من الحجاز مع قافلة الحج المصرى رفض أن يذهب إلى القاهرة وانضم إلى إبراهيم بك فى بلبيس ، ثم ارتحل معه إلى بلاد الشام حيث توفى فى ذات السنة (٣). وأراد بونابرت استغلال هذه الفرصة بشغل

---

(١) Ibid, doc. no. 3176 au Général Klebér, en date du 12 Fructidor VIe année de la République.(29 août, 1798).

(٢) Chauvin Victor; op. cit., p. 10.

(٣) انظر ترجمة صالح بك فى الجبرتى ج ٣ ، ص ص ٦٦ — ٧٦ .

المنصب ، وخلق جو من الدعاية لسياسته الإسلامية ، ووقع اختياره على مصطفى بك كتخدا الباشا العثمانى . وقد آثر مصطفى بك البقاء فى مصر ، ولم يلحق بالباشا فى ارتحاله عن البلاد مع إبراهيم بك وعمر مكرم وغيرهما ، وكان رجلا مهاباً ، ذا نفوذ واسع . وقد نجح بونابرت فى حمله على قبول إمارة الحج . واستهدف بونابرت من تعيينه التقرب إلى الباب العالى ، لأن منصب أمير الحج كان يتولاه أحد كبار الأمراء المماليك من رتبة طبلخانة . ويقرر بونابرت أن هذا التعيين قد أدهش جميع الناس ، وأنه أمر بأن تدفع لأمير الحج الجديد كل المخصصات المقرره لشاغل هذا المنصب(١) .

وأقيم الاحتفال بتعيين مصطفى بك أميراً للحج فى ٢ سبتمبر ١٧٩٨ ، وذهب بونابرت إلى الديوان ، وخلع عليه فى حضور المشايخ علماء الأزهر خلعة خضراء ، وأهدى إليه جواداً كريماً ، وغطاء للرأس مرصعاً بقطع من الماس والأحجار الكريمة (٢) . وأمر بإطلاق المدافع كوسيلة إعلامية لإبلاغ سكان القاهرة بهذا التعيين (٣) . وغادر مصطفى بك مقر الديوان فى موكب رسمى . وفى أثناء مسيرة الموكب أطلقت المدافع ست طلقات ، وردت عليها مدفعية القلعة .

* * *

(١) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., op. cit., t. I, p. 228.

(٢) Charles-Roux F.; Bonaparte, Gouverneur d'Egypte. Paris 1936. p 84.

(٣) Reybaud; Louis et autres, op. cit., t, IV, p 80.

٩ — الاحتفال بمولد الإمام الحسين :

وتابع بونابرت سياسته الإسلامية، فأمر بالاحتفال بمولد الإمام الحسين. وكانت نية أهل القاهرة منصرفة عن إقامته فى تلك السنة (١٢١٣ هـ — ١٧٩٨ م) بالنسبة للظروف التى كانت تجتازها البلاد وقتئذ. وعلم بونابرت بهذا الاتجاه، فأصر على إقامة الاحتفال كما جرت العادة، وقيل له إن الاحتفال بهذا المولد يقام كل عام عقب الانتهاء من احتفالات المولد النبوى الشريف وقد أقيم الاحتفال فى يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر ١٧٩٨، أو الحادى والعشرين من ربيع آخر ١٢١٣، وأشرف الشيخ محمد السادات على الاحتفال، وفى الليلة الختامية للمولد «حضر صارى عسكر وشاهد الوقدة، ورجع إلى داره بعد العشاء(١)».

* * *

(١) الجبرتى، ج ٣، ص ٢٢

الفصل السادس عشر

أسباب ثورة الأزهر
على الفرنسيين

الأزهر يتنادى إلى الثورة :

فى صباح يوم الأحد ١ من جمادى الأولى ١٢١٣ (٢١ من أكتوبر ١٧٩٨) اندلعت ثورة دينية عارمة فى القاهرة على الحكم الفرنسى ، تنادى إليها الأزهريون ، وتزعمها الشيخ محمد السادات ، بعد أن كونوا مجلساً لقيادة الثورة ، جعل من الجامع الأزهر مقراً له . وانطلق المؤذنون من مآذن المساجد فى القاهرة يدعون المسلمين إلى الحفاظ على دينهم بالقيـام على الفرنسيين . وكانت استجابة المسلمين من سكان القاهرة والقرى المحيطة بها لهذا النداء الدينى استجابه فورية ، فنفروا خفافاً وثقالاً يجاهدون الفرنسيين . وأخذت شوارع القاهرة تموج بالثوار وهم يصيحون : نصر الله دين الإسلام ، نصر الله السلطان .

الأزهر ملتقى المعارضين للحكم الفرنسى :

ويلاحظ أن الجامع الأزهر كان ملتقى المعارضين للحكم الفرنسى ، والساخطين عليه ، ويشير بونابرت فى أكثر من موضع فى مذكراته إلى أن هؤلاء الناقمين على الحكم الفرنسى كانوا يجتمعون فى رحاب الجامع الأزهر كلما صدر عن السلطات الفرنسية تصرف يسئ إليهم ، وحسبنا أن نشير هنا إلى إحدى المرات ، فقد ذكر بونابرت أنه لما صدرت الأوامر بهدم المقابر ، تقاطرت وفود سكان القاهرة إلى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية ، وكان يتزعم هذه الوفود الشعبية أئمة المساجد

ومؤذنوها . ويصفهم بونابرت بأنهم قوم مسرفون فى تعصبهم ، وأنهم تكلموا أمامه بانفعال شديد،وصبوا جام غضبهم على المهندسين الفرنسيين. وعلى الرغم من أنه أصدر الأوامر بإيقاف عمليات هدم المقابر فور ، فإن المتظاهرين خرجوا من عنده وذهبوا إلى الجامع الأزهر كى يتدارسوا الموقف(١).

* * *

السبب الرئيسى للثورة :

قامت ثورة أكتوبر ١٧٩٨ قبل أن تنقضى ثلاثة أشهر على دخول الفرنسيين القاهرة ، وكان بونابرت حريصاً الحرص كله خلال هذه الأشهر الثلاثة على انتهاج سياسته الإسلامية تقرباً إلى الشعب ، فكان نشوب الثورة دليلا على إخفاق سياسته الإسلامية . وترجع هذه الثورة إلى سبب رئيسى وإلى عوامل مشجعة، وأخرى مساعدة، ويتمثل السبب الرئيسى فى استحالة إيجاد جو من التعايش السلمى بين الحكم الفرنسى لمصر الإسلامية والشعب

---

(١) Napoléon Ier, Guerre d'Orient. etc., op. cit., t. I, pp, 229-238.

ويشير الجبرتى إلى هذا الحادث الذى أثار سكان القاهرة ، وهو يتكلم عن حوادث يوم السبت ١٨ من ربيع آخر ١٢١٣ (٢٩ من سبتمبر ١٧٩٨) فيقول :

« ذهبت جماعة من القواسة الذين يخدمون الفرنساوية ، وشرعوا فى هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية ، وتمهيدها بالأرض ، فشاع الخبر بذلك ، وتسامع أصحاب الترب بتلك البقعة ، فخرجوا من كل حدب ينسلون ، وأكثرهم النساء الساكنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسين وقلعة الكلاب ، إلى أن صاروا كالجراد المنتشر ، ولهم صياح وضجيج ، واجتمعوا بالأزبكية ، ووقفوا تحت بيت صارى عسكر ، فنزل لهم المترجمون واعتذروا بأن صارى عسكر لا علم له بذلك الهدم ، ولم يأمر به ، وإنما أمر بمنع الدفن فقط ، فرجعوا إلى أماكنهم ، ورفع الهدم عنهم » .

انظر : الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢١ .

المصرى بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين ، وكان الشعب فى القرن الثامن عشر يشكل مجتمعاً دينياً إسلامياً متزمتاً ، ينظر إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى . وأن سلطانها هو سلطان المسلمين . ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد بين أفراد الشعب المصرى ، وكانت ثقافتهم ثقافة دينية ، ولم تكن الدولة العثمانية بالنسبة لمصر دولة أجنبية من ناحية الفقه الإسلامى . لأنه من المبادىء المقررة فى الشريعة الإسلامية أن بلاد المسلمين جميعها تعتبر داراً واحدة ، مهما تعددت أقاليمها . والفقه الإسلامى يقسم العالم إلى قسمين : دار الإسلام ودار الحرب ، وتشمل الأولى البلاد التى يكون للمسلمين ولاية عليها . وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم الذميون والمستأمنون ، اما دار الحرب فتشمل البلاد التى ليس للمسلمين ولاية عليها ، ولا تقام فيها أكثر شعائر الإسلام (١) . يضاف إلى ذلك أن اشتباك الدولة العثمانية فى حروب خارجية ، شنتها عليها الدول الأوروبية طوال القرن الثامن عشر ، والانتصارات التى أحرزتها النمسا والروسيا عليها ، كل أولئك جعل الشعب المصرى يزداد تعلقاً بالدولة العثمانية ، وولاء لسلطانها .

فى هذا الجو الدينى المتزمت هبط الفرنسيون أرض مصر ، واستولوا عليها عنوة ، وغادر مصر أبو بكر باشا الطرابلسى الوالى العثمانى ، ومعه الأمير إبراهيم بك شيخ البلد ، وعمر مكرم نقيب الأشراف ، وعدد من المصريين . وبمغادرة الباشا العثمانى البلد زال مظهر من مظاهر السيادة العثمانية على مصر ، وأصبح بونابرت على رأس النظام الجديد Le Nouveau Régime ، أو الحكم الجديد ، ولم يكن بونابرت مسلماً ولا عثمانياً ولا مملوكيا . ونظر المصريون إليه على حقيقته : حاكماً مسيحياً أوروبيا عسكرياً أجنبياً ، استولى على بلادهم

(١) دكتور محمد حافظ غانم : مبادىء القانون الدولى العام ، دراسة لضوابطه الأصولية ، ولأحكامه العامة ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤١ — ٤٦ .

عنوة . وكان المصريون حتى ذلك الوقت لايعرفون عن أوروبا إلا وجهها الكريه ، فذكريات الحروب الصليبية كانت لاتزال عالقة فى أذهانهم ، ولم تكن هناك اتصالات اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية بين الشعب المصرى وبين الشعوب الأوروبية، لأن رواسب الحروب الصليبية كانت تحول دون قيام مثل هذه الاتصالات من ناحية ، ولأن الظروف التى عاش فى ظلالها المصريون كانت لاتسمح لهم على الإطلاق أن يمدوا أبصارهم عبر البحر المتوسط إلى أوروبا ، لينشئوا معها تلك الصلات حتى ولو كانت الدولة العثمانية قد أذنت لهم فى إيجاد مثل تلك العلاقات من ناحية ثانية ، فمستوى معيشتهم كان هابطاً ، والاقتصاد المصرى كان اقتصاداً محلياً ، وثقافتهم كانت دينية بحتة ، ولم يتجهوا لدراسة الهندسة ،أو الطب ،أو الزراعة ، أو غيرها من الدراسات العلميه التى كانت تقوم بها معظم الجامعات الأوروبية . وتضاف إلى ذلك صعوبة المواصلات البحرية وأخطارها بين مصر والدول الأوروبية . وكانت السفن لاتزال تصنع من الأخشاب وتعتمد على الأشرعة فى سيرها .

كان المصريون قد اعتادوا الانقلابات السياسية بكثرة ملحوظة ،وبخاصة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ،بحيث كادت تصبح هذه الانقلابات أمراً عادياً فى الحياة السياسية بمصر ، ولكن كانت جميعها على وتيرة واحدة، لم يأت واحد منها بجديد على النظام السياسى أو الأوضاع الاقتصادية ، أو التقاليد الدينية ، أو الحياة الاجتماعية . كان الأمراء المماليك يتكتلون ضد الباشا العثمانى ، ويجمعون كلمتهم على إنهاء حكمه ، ويتحرك أرباب العكاكيز ويصعدون إلى القلعة لإبلاغ الباشا بقرار عزله ،فيصدع بمايؤمر ، ويهبط من القلعة إلى إحدى الدور الخاصة ، ربما تم محاسبته على تصرفاته المالية ، ثم تتخذ إجراءات ترحيله عن البلاد ، وينزل الباب العالى على رغبة الأمراء المماليك، ويرسل والياً جديداً يستقر فوق قلعة الجبل ،ويمضى

فى حكم البلاد ، دون إحداث تغيير أو تطوير فى أجهزة الحكم . وكان شيخ البلد – وهو كبير الأمراء المماليك ، وثانى شخصية فى مصر بعد الباشا – يواجه منافسة خطيرة من أمير مملوكى آخر يتطلع إلى الظفر بهذا المنصب ، تأسيساً على أنه أكثر منه جمعاً، وأعز نفراً ، وأشد بأسا ،ويقع صراع دموى بين هذين الأميرين المملوكيين ،وينتهى هذا الصراع بمصرع أحدهما أو هزيمته ، وفراره مع فلول قواته إلى أقاصى الصعيد . ويمضى الأمير المنتصر فى مشيخة مصر ، يحكم البلاد ، كما حكمها سلفه من قبل ، دون المساس بالأوضاع السائدة ، ثم يظهر عليه بعد فترة – قد تطول وقد تقصر – أمير مملوكى جديد ، ويتكرر المشهد الدامى ، من اندلاع حرب داخلية بين قوات كل منهما ، تسفر عن هزيمة أمير ، وانتصار أمير ينصرف إلى حكم البلاد ، مبقياً على كافة النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التى اعتادها الشعب جيلا بعد جيل .

عرف أهل القاهرة بصفة خاصة هذه الانقلابات ، وشاهدوها عن كثب ، ولكنهم وقفوا منها موقفاً سلبياً ، ولم يعنيهم انتصار أمير مملوكى معين أو هزيمته ، لأن هذه الانقلابات لم تمس أسلوبهم فى الحياة، على الرغم مما كان يسبقها، أو يصحبها ، أو يعقبها من اضطراب الأمن ، وتعسف الحاكم المنتصر ، إذ يسرف فى فرض ضرائب جزافية على الشعب الكادح.

هذه الانقلابات المكرورة كانت كلها انقلابات « إسلامية » و«فردية» ، وفى « نطاق الدولة العثمانية » ، ويقصد بالإسلامية أن القادة الذين تزعموا هذه الانقلابات مسلمون . ويقصد بالفردية أن فرداً واحداً قاد الانقلاب ، وجنى ثمرته حكماً وجاهاً ونفوذاً ، إذا نجح الانقلاب ، أو دفع حياته ثمناً لهذه المغامرة إذا باء بالفشل . ويقصد بعبارة « فى نطاق الدولة العثمانية » أن هذه الانقلابات لم تستهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ولذلك فإن الانقلابات أو الحركات التى قامت فى الشرق العربى الإسلامى تختلف

اختلافاً جذرياً عن الحركات التى قامت فى الولايات العثمانية الأوروبية المسيحية ، فهذه كانت حركات انفصالية أو استقلالية ، دفعت إليها الروح القومية والدينية معاً ، وغذتها الدول الأوروبية مثل النمسا والروسيا . ومما يذكر أن على بك الكبير الذى قام بحركته (١٧٦٨ - ١٧٧٣) لم يجرؤ على إعلان انفصاله عن الدولة العثمانية ، واستقلاله بمصر . حقيقة أنه شل نفوذ الديوان ونفوذ الفرق العسكرية العثمانية ، وانتهز فرصة اندلاع الحرب الروسية التركية فى سنة ١٧٦٨ ، وتخلص من الباشا العثمانى فى أكتوبر من ذات السنة ، ولم يسمح لأى وال عثمانى بدخول مصر ، أو كما يقول الجبرتى : « منع ورود الولاة العثمانيين (١) » . وامتنع عن إرسال الجزية إلى السلطان ابتداء من سنة ١٧٦٨ ، ولكنه لم يلقب نفسه سلطاناً ، وكانت الوثائق الرسمية الخاصة بهذه الفترة من بدء حركته حتى وفاته تصدر باسم « حضرت على بك ميرلوا - أى أمير لواء - قائمقام محروسة مصر (٢) » ، وأكثر من ذلك أمر على بك بضرب خطيب مسجد الداودية بالقاهرة ، لأنه دعا فى خطبة الجمعة للسلطان العثمانى ، ثم دعا لعلى بك . واعتعض على بك من هذا التصرف ، وكان يريد أن يكون دعاء الخطيب مقصوراً على السلطان وحده (٣) ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة ،

(١) الجبرتى ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

(٢) دكتور محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، ص ٦١ .

(٣) ذكر الجبرتى هذا الحادث فقال : « إن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان ١١٨٣ هـ (٢٩ ديسمبر ١٧٦٩ - ٢٧ يناير ١٧٧٠) بجامع الداودية ، فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ، ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة ، وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم ، يغلب عليه البله و الصلاح ، فقال : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر ؟ أقيل لك إنى السلطان ؟ فقال : نعم ، أنت سلطان ، وأنا أدعو لك . فأظهر الغيظ ، وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألماً من الضرب ، وركب حماراً وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ! ثم إن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم بدراهم وكسوة ، واستسمحه » .

انظر : الجبرتى ، ج ١ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

كما أنه أمر — بعد أن قام بحركته — بسك عملة جديدة ، فضية أولا ، و ذهبية بعد ذلك ، جعل على أحد وجهيها طغراء باسم السلطان مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وقتذاك (١٧٥٧ — ١٧٧٤) ؛ وعلى وجهها الآخر نقشت عبارة « ضرب فى مصر » ، ونقش اسم « على » بطريقة تنم عن التحايل على عدم ذكر اسمه صراحة ، إذ استخدم حرف الباء فى كلمة ضرب كحرف باء لكلمة « على » (١) . واستناداً إلى هذه الأسانيد نستطيع أن نقــرر أن على بك الكبير حافظ على بعض الروابط بين مصر والدولة العثمانية ، مثل الخطبة والعملة ، وأنه استهدف من حركته الانفراد بحكم مصر ، مع بقائها داخل نطاق الدولة العثمانية ، فحركة على بك كانت « إسلامية » و « فردية » ، و « فى نطاق الدولة العثمانية » .

نخلص من هذا التحليل السريع لحركة الانقلابات التى شهدتها مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، إلى أن هذه الانقلابات كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن الانقلاب الذى تم بنزول الحملة الفرنسية أرض مصر سنة ١٧٩٨ ، فكان اختــلاف الدين بين المصريين والفرنسيين هو الحائل الأكبر دون إيجاد جو من التعايش السلمى بين الفريقين ، وكان هو العامل الأهم الذى حدد نوع العلاقات بين الطرفين .

بونابرت يعترف بأهمية العازل الدينى :

وقد أوضح بونابرت أهميــة اختلاف الدين فى تحديد العلاقات بين

---

(١) انظر البحث الذى وضعه « Samuel Bernard » عن تطور النقود فى مصر عبر العصور التاريخية ، منذ عصر الخلفاء حتى عصر الحملة الفرنسية ، ونماذجها ، وأشكالها ، وأوزانها ، وأنواعها ، وطرق سكها ، وما إلى ذلك . وقد نشر هذا البحث الضافى بعنوان :
Mèmoire sur les monnoies (sic) d'Egypte.
dans:
Description de l'Egypte, t, XVI, pp, 267–506

الفرنسيين والشعب المصرى ، واعتقد بونابرت بعد إقامته فى مصر ، أو لعله ازداد اعتقاداً ، فى سلامة الآراء التى سبق أن رددها الرحالة الفرنسى فولنى Voleny عقب زيارته للشام ومصر سنة ١٧٨٥ ، فقد ذكر بونابرت فى مذكراته هذه الآراء ، منسوبة إلى صاحبها الرحالة الفرنسى ، وتتلخص فى أن اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين هو العقبة الرئيسية التى تحول دون توطيد دعائم الحكم الفرنسى فى مصر ، لأن الاستيلاء على مصر يتطلب — فى نظر هذا الرحالة — ثلاث حروب : الحرب الأولى ضد إنجلترا ، والثانية ضد الدولة العثمانية ، والثالثة ، وهى أشقها وأصعبها ضد المسلمين سكان مصر ، وتتطلب الحرب الأخيرة تضحيات جسيمة ، بحيث تعتبر حرب استنزاف للفرنسيين ، ولا يمكن التغلب عليها (١) .

ومضى بونابرت يقول فى صراحة تامة : إن الجيش الفرنسى قد استولى على الإسكندرية والقاهرة ، وانتصر فى معركتى شبراريس وإمبابة ، ولكن موقف الفرنسيين لم يكن مستقراً ، بل ظل مزعزعاً ، ولم يتحمل المصريون وجود الفرنسيين فى بلادهم إلا كرهاً ، لأن سرعة الحوادث قد أذهلتهم ، ولم يذعنوا إلا أمام القوة المادية ، ولكنهم — كمؤمنين مسلمين — لا يخفون حسرتهم واستياءهم من انتصار غير المؤمنين (٢) الذين دنسوا بوجودهم مياه النيل المقدسة ، وكانوا يعتبرون أنه من العار والخزى أن تسقط مصر فريسة

---

(١) Volney Constantin F.: Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. Paris—1787.

t II, Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785, suivi de considérations sur la guerre des Russes et des Turcs, publiées en 1788 et 1789. Paris, 1822.

(٢) كانت اللفظة التى استخدمها بونابرت هى idolâtres ومعناها الكفار ، أو الوثنيون .

فى أيدى الفرنسيين ، لأنها تقع على الطريق المؤدى إلى الحجاز مهد الكعبة ، وغيرها من الآثار المقدسة الإسلامية ، ثم قال إن أئمة المساجد كانوا يختارون فى تلاوة القرآن الكريم الآيات التى تحض المؤمنين على قتال غير المؤمنين Les infidèles ، وقرر بونابرت فى عبارة صريحة أنه كان من الواجب العمل على وقف انتشار هذه الآراء الدينيـــة ، لأن الجيش على الرغم من انتصاراته كانت تحيط به الأخطار ، وكان يصعب على الجيش أن يصمد فى حرب دينية (١) .

نقولا ترك يؤكد أهمية العازل الدينى :

ومما هو جدير بالذكر أن المعلم نقولا ترك — وهو من موارنة لبنان ، وعاصر أحداث الحملة فى مصر — يصور تصويراً دقيقاً هذا العازل الدينى الذى كان يفصل بين الشعب المصرى والحكم الفرنسى ، فهو يقول إن بونابرت أغرق الشعب بالمنشورات ، وانه كان دءوباً على إذاعتها وتعليقها على حوائط الحلات والمنازل وفى الأسواق « لكى يقرأها الشارد والوارد » . وفى كل منها كان يؤكد تعلقه بالدين الإسلامى ، وبمحمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، واحترامه للقرآن الكريم ، ويعـــد الشعب بأنه سيعتنق هو وجنوده الإسلام ، وأنه يعتزم بناء مسجد ضخم لامثيل له فى العالم الإسلامى . ولم يقف الشعب المصرى من هـــذه المنشورات موقف الحذر والريبة فحسب ، بل أعلن رأيه فى بونابرت . ولندع نقولا ترك يعبر بقلمه فى صراحة مفرطة عن هذا الرأى : « أما المصريون فكانت قلوبهم غير آمنة ولامطمئنة ، وكانوا يقولون : كل هذا خداع ومخاتلة ريثما يتملك ، وأما هو فنصرانى ابن نصرانى (٢) » وهى جملة معبرة تصور نظرة المجتمع المصرى الدينى إلى بونابرت ، فلم يصف المصريون بونابرت بأنه أوروبى ابن أوروبى ،

Napoléon Ier, Guerre d'Orient. etc, op. cit., t I, p, 211 (١)

(٢) النص العربى لمذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتحقيق الأستاذ « فيت » ص ٦٠ .

ولم يقولوا عنه إنه فرنسي ابن فرنسي ، بل اتخذوا من الدين معياراً لتقييم بونابرت .

وفى موطن آخـــر من مذكرات نقولا ترك يقول إنه كان مما يحز فى نفوس المصريين خضوع بلادهم لحكم أوروبى مسيحى ، لأن مصر بلد إسلامى منذ أن فتحها عمرو بن العاص ، ولأنهـــا ظلت على هذا الوضع الإسلامى على توالى الأدهر والعصور ، واختلاف الحكام الذين تعاقبوا على حكمها ، وأما محاولة الصليبيين الاستيلاء عليها فى العصور الوسطى فقد باءت بالفشل . وكان الشعب المصرى يردد أن بلاده كانت فى بعض الفترات مقراً للخلافة الفاطمية ، ثم الخلافة العباسية ، وأنها كانت حصناً حصيناً للإسلام ، ولا تزال مركزاً مرموقاً للثقافة الدينية العلمية الإسلامية ، ويخلص المعلم نقولا ترك من وصف مشاعر المصريين إلى القول بأن محاولات الفرنسيين اكتساب قلوب المصريين قد أخفقت ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقرر أن قبول المصريين للحكم الفرنسى إنما هو أمر ضد الطبيعة (١) .

اختلاف اللغة والزى والثقافة :

وهناك عوامل كانت تتصل على نحو من الأنحاء بالسبب الرئيسى للثورة ، وتزيد الفجوة بين الفرنسيين والمصريين اتساعاً وعمقاً ، كان من بينها عامل اللغة ، فالفرنسيون لا يعرفون اللغة العربية ، والمصريون يجهلون بدورهم الفرنسية ، فحال اختلاف اللغة دون حـــدوث لقاء فكرى بين الحاكمين والمحكومين ، أو على الأقل اتسم موقف كل فريق من الآخر بطابع العداء ، أو الشك ، أو الحذر . وهناك عامل آخر هو اختلاف الزى بين الفرنسيين والمصريين ، وقد حال هذا العامل دون حدوث تقارب بين الفريقين ، فإن

---

(١) النص العربى فى المرجع السابق ، ص ٣٠ . ويلاحظ أن الأستاذ « فيت » فى ترجمته النص العربى إلى الفرنسية كتب ما تعريبه « أمر ضد الطبيعة الإنسانية » .

Mais c'était faire fi de la nature humaine. p, 43 (trad. fr).

اختلاف الزى كان له أثره السيكولوجى فى نفوس العامة ، كانت البدلة والقبعة عند الفرنسيين يقابلهما القفطان والجبة والعمامة عند المصريين ، وقد عاشت العمامة عصوراً وأدهاراً متعاقبة عنـد المصريين شعاراً للإسلام ، ورمزاً للفضائل . وارتبطت القبعة فى نظر المصريين — ونحن نتكلم هنا فى هـذه الدراسة عن المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر — بالحروب الصليبية وبالأجانب الذين عاشوا فى مصر إبان الحكم العثمانى فى أحياء خاصة بهم ، يخضعون لقيود معينة . وقد عبر عن هذه العوامل مجتمعة هذا المعاصر لأحداث الحملة الفرنسية ، وهو المعلم نقولا ترك . فقال إن المصريين لم يستطيعوا إطلاقاً تحمل الفرنسيين بسبب اختلاف الدين واللغة والزى ، فضلا عن عداء قديم متأصل بين الفرنسيين والمصريين يرجـع إلى أيام لويس التاسع ملك فرنسا ، حين بلغ المنصورة (١) . ونضيف إلى هذه العوامل عاملا آخر هو أن الفرنسيين ذوو ثقافة أوروبية كانت غريبة على المصريين : أو كما يقول الجبرتى « لا تسعها عقول أمثالنا (٢) » ، وقد انتهجوا سياسة إعلامية نشيطة ، فغمروا المصريين بمنشورات تلاحقت بعضها إثر بعض . حقيقة أن هذه المنشورات كتبت باللغة العربية أو ترجمت إلى اللغة العربية ، ولكن وجدت فيها بعض الثغرات والمآخذ . جعلت المصريين يرتابون فى أمر هذه المنشورات ، بل ويتوجسون خيفة من واضعيها ، ونذكر على سبيل المثال المنشور الأول الذى أذاعه بونابرت على المصريين ، فهو يبـدأ بالبسملة ، ثم يذكر إحدى الشهادتين ، ويغفل تماماً الشهادة الثانية ، إذ يقـول « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه » والمسلمون يحرصون دائماً على ذكر الشهادتين ، مقرونتين بعضهما ببعض . حقيقة جاء ذكر النبى الكريم — صلوات الله عليه — فى ثنايا هذا المنشور ، ولكن كيف

---

(١) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ « فييت » ، ص ٢٤ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٦ ، وقد كتب هذه العبارة عقب زيارته لمجمع مصر العلمى .

يستطيع المصريون تصديق قوم يقررون فى منشورهم أنهم مسلمون مخلصون ، ويغفلون فى صدر المنشور الشهادة الثانية ، وهى أن محمداً رسول الله ! والمنشور أيضاً يشير إلى النظام انسياسى لفرنسا فى عبارات كانت تجارب المصريين السياسية طوال الحكم العثمانى لا تساعدهم على تفهم معانيها ، فالمنشور الأول أيضاً صدر « من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية » . وصدر هذا المنشور مؤرخاً بشهر لم يسمع به المصريون من قبل ، ولم يفقهوا له معنى ، وهو الرابع عشر من ميسيدور . وجاء فى المنشور الثانى الذى أذاعه بونابرت عقب انتصاره فى معركة إمبابة ، وألصقت نسخ منه فى شوارع القاهرة ، مؤرخاً فى الرابع من تبرميدور ، وكانت ثقافة الشعب لا تسمح له بمعرفة مدلول كل من هذين اللفظين ، وهل كان منتظراً من المثقفين المصريين فضلا عن الجماهير فى أواخر القرن الثامن عشر أن يعلموا أن ميسيدور Messidor هو الشهر العاشر من التقويم الجديد الذى أدخلته الثورة الفرنسية ، ليحل محل التقويم الجريجورى عقب إعلان إلغاء الملكية فى فرنسا ؟ وأن هذا الشهر يبدأ من اليوم العشرين من شهر يونيو ، وينتهى فى التاسع عشر من يوليو ؟ وأن معناه شهر الحصاد (١) ؟ ، وهل كان معقولا أن تدرك الجماهير وقتذاك أن تبرميدور Thermidor الذى أرخ به المنشور الثانى هو الشهر الحادى عشر من ذلك التقويم ؟ وأن هذا الشهر يبدأ من اليوم العشرين من يوليو ، ويمتد إلى الثامن عشر من أغسطس ؟ ، وأن معناه شهر الحر والقيظ (٢)؟ ولقد تتابعت المنشورات والأوراق الرسمية تحمل

---

(١) لفظة ميسيدور Messidor مشتقة من الكلمة اللاتينية Messis ، ومعناها Moisson : أى الحصاد .

(٢) لفظة تيرميدور Thermidor مشتقة من الكلمة اليونانية Therm ، ومعناها : الحر .

أسماء شهور أخرى ، مثل بريريال (١) Prairial ، ومعناه شهر المروج الخضراء ، ونيفوز(٢) Nivose ومعناه شهر الثلج ، وجبرمينال (٣) Germinal ، ومعناه شهر البذور ، وبليفيوز(٤) Pluviose ومعناه شهر المطر ، وفريكتيدور (٥) Fructus ، ومعناه شهر الفواكه ، وفضلا عن ذلك فقد كانت هذه الأسماء الغريبة لشهور انسنة تذكر مقرونة بعبارات غريبة أيضاً على المصريين ، فهى تارة تقول شهر كذا « من إقامة الجمهور الفرنساوى » ، وتارة أخرى تقول شهر كذا « من انتشار الجمهور الفرنساوى » .

منشور السلطان إلى الشعب المصرى :

ولم يلبث أن وقع حادث خارجى جعل العاطفة الدينية تزداد

---

(١) لفظة بريريال Prairial مشتقة من الكلمة الفرنسية La Prairie ، ومعناها مروج الحشائش ، وتطلق على الشهر التاسع من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ٢٠ مايو إلى ١٨ يونيو .

(٢) لفظة نيفوز Nivose مشتقة من الكلمة اللاتينية Nivis ، ومعناها الثلج وتطلق على الشهر الرابع من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ٢١ ديسمبر حتى ١٩ يناير .

(٣) لفظة جيرمينال Germinal مشتقة من الكلمة اللاتينية Germen ، ومعناها البذور ، وتطلق على الشهر السابع من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ٢١ مارس إلى ١٩ أبريل .

(٤) لفظة بليفوز Pluviôse مشتقة من الكلمة اللاتينية Pluvia ، ومعناها المطر ، وتطلق على الشهر الخامس من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ٢٠ أو ٢١ أو ٢٢ يناير إلى ١٩ أو ٢٠ أو ٢١ فبراير .

(٥) لفظة فريكتيدور Fructidor مشتقة من الكلمة اللاتينية Fructus ، ومعناها فواكه ، وتطلق على الشهر الثانى عشر من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ١٨ أغسطس إلى ١٦ سبتمبر .

ومما هو جدير بالذكر أن أوراق الفرنسيين ووثائقهم ظلت طوال إقامتهم فى مصر تصدر مؤرخة بالتقويم الجمهورى ، وبالتالى بهذه الأسماء الغريبة على المصريين ، وقد ألغى هذا التقويم فى فرنسا سنة ١٨٠٤ .

. تأججاً فى نفوس المصريين، فقد أعلن سليم الثالث — سلطان الدولة العثمانية — الحرب على فرنسا فى سبتمبر ١٧٩٨ ، وأدرك بونابرت خطورة إذاعة هذا النبأ بين جماهير الشعب ، فحاول جهده أن ينفيه ، ونعته بأنه شائعة خبيثة ، روج لها الإنجليز ، والمماليك ، والدراويش المتعصبون . ويقول بعض الباحثين إنه كان لبونابرت مقدرة فائقة على إخفاء الحقائق ، ولكن القوى التى كانت تعمل ضده ، سواء من خارج الحدود المصرية ، أو من داخل البلاد ، كانت أقوى منه وأشد فاعلية ، فقد تسلل إلى القاهرة من بلاد الشام رسل يحملون معهم منشوراً أصدره السلطان، دعا فيه المصريين إلى الجهاد الدينى ضد الفرنسيين ، واتخذ أولئك الرسل طريقهم إلى الجامع الأزهر سرباً ، وتلقف علماء الأزهر وطلاب الأزهر هذا المنشور (١).

حمل منشور السلطان على الفرنسيين حملة عنيفة ، فوصفهم بأنهم قوم لاينكرون وحدانية الله فقط ، ولاينكرون رسالة محمد فحسب ، بل ينكرون وجود الله ، ويهزأون بكل الأديان ، ولايعتقدون فى يوم البعث والحساب ، والحياة الآخرة ، وأنهم يحللون ما تحرمه الأديان ، ويعتقدون أن الكتب السماوية ليست إلا مجموعة من الأكاذيب ، أو نوعاً من الأساطير ، وأن موسى وعيسى ومحمـــداً ليسوا إلا رجالا عاديين لم يخصهم الله بالرسالة التى عهد إلى كل منهم بتبليغها إلى بنى الإنسان .

واهتم المنشور بعد هذا الهجوم على الفرنسيين بتحريض الشعب المصرى على الجهاد الدينى ضدهم ، وأثار فى المصريين العاطفة الدينية ، فخاطبهم بقوله : « ياحماة الإسلام ، يا مدافعين عن العقيدة ، يا من تعبدون الله وحده ، يامن تؤمنون برسالة محمد بن عبد الله ، أجمعوا كلمتكم وانفروا إلى الحرب والله القدير يرعاكم . . . . إن الإسلام محفور فى قلوبنا ، إنه

(١) De La Jonquière, op, cit, t, III, p 277.

ينساب فى عروقنا مع دمائنا . ولقد قال الله تعالى : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين(١) ، والحديث الشريف يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ومضى المنشور يقـــول مخاطباً المصريين : « لقد دقت ساعة الخلاص ، وحان الوقت لكى تبيدوا قوى الشر ، ولا ترهبكم جموعهم ، لأن الأسود لاتخشى الثعالب . وقد أصدرنا الأمر إلى الباب العالى بحشد قوات من أنحاء الإمبراطورية ، وبعـــد قليل تتحرك جيوش عديدة مهيبة ، وستغطى مراكب عالية كالجبال سطح البحر ، وستصل مدافع تبرق وترعد ، وأبطال يسترخصون المـــوت انتصاراً لقضية الله ، وسوف يلقى الفرنسيون الهلاك ، وتنهار آمالهم ، لأن وعـــد الله حق ، والعظمة لله رب العالمين » .

والأمر الذى يلفت نظر الباحث ، هو أن الباحثين الفرنسيين قد حرصوا على ترجمة هذا المنشور ترجمة كاملة إلى اللغة الفرنسية ، نذكر منهم مارتا(٢) Martin ، وقد نشر كتابه فى جزءين سنة ١٨١٥(٣) ، ولوى ريبو وزملاؤه ،

---

(١) سورة آل عمران : صدر الآية رقم ٢٨ .

(٢) كان مارتا أحد مهندسى الحملة ، وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وأحد الذين أسهموا فى وضع الموسوعة العلمية « وصف مصر » فكتب فيها بحثين هما :

a) Notice sur un grand monument souterrain à l'ouest de la ville d'Alexandrie. t.V, pp. 519 – 530.

b) Description hydrographique des provinces de Beny-Souef et du Fayoum. t. XVI, pp. 1 – 72.

وله عدة أبحاث منشورة ، منها بحث عن فيفا دينو ، فنان الحملة الفرنسية .

Vivant Denon en Egypte, 1798 – 1799. (Ann. de l'Acad. de Macon, 2e série IV, pp. 119 – 141.

(٣) Martin P.D.; Histoire de l'Expédition française en Egypte. (1798 – 1801) précédée d'un précis de la domination arabe. Paris, 1815. 2 vols. vol. I, pp. 243 – 251.

وقد نشروا كتابهم الضخم فى عشرة أجزاء فى الفترة من سنة ١٨٣٠ إلى ١٨٣٦(١) ، وقد استقينا من هذين المصدرين الاقتباسات التى أثبتناها فى المتن . أما الجبرتى فقد ذكر صورة موجزة للمنشور فى عبارات عامة ، كأنها رءوس موضوعات ، فقال : « ومضمون ذلك بعد براعة الاستهلال والآيات القرآنية ، والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد ، ولعن طائفة الإفرنج والحط عليهم ، وذكر عقيدتهم الفاسدة ، وكذبهم وتحيلهم(٢) » . وقد رجعنا إلى الكتاب الأول الذى وضعه الجبرتى باسم مظهر التقديس ، فوجدنا أنه نهج فيه نفس النهج ، فلم ينشر فيه نص المنشور . ويوجد خلاف بين الجبرتى والمؤرخين الفرنسيين ، المعاصرين للحملة . فالأول يقرر أن المنشور حمله هجان من بلاد الشام ، وبلغ به القاهرة فى ليلة السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى ١٢١٣ (الثالث من نوفمبر ١٧٩٨) ، أى بعد الثورة بأسبوعين (٣) ، بينما يقرر المؤرخون الفرنسيون أن هذا المنشور وزع فى

---

(١) Reybaud Louis et autres; op. cit., t. IV, pp. **142 — 152.**

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٣) كان الجبرتى قد ذكر قبل ذلك فى حوادث اليوم الثالث من شهر ربيع آخر ١٢١٣ ، (١٤ من سبتمبر ١٧٩٨) أنه وصلت إلى القاهرة عدة خطابات ، وجهها إبراهيم بك إلى المشايخ علماء الأزهر ، وإلى غيرهم ، طلب فيها بذل الجهود لبقاء الجبهة الداخلية فى مصر متماسكة ، ومناشدة الجماهير كى تقف موقفاً عدائياً من الفرنسيين ، وقال : « إن حضرة السلطان مولانا وجه لنا عساكر ، وإن شاء الله تعالى عن قريب نحضر عندكم .. » ، وأضاف الجبرتى إلى ذلك أن أمر هذه الخطابات قد تراءى إلى مسامع بونابرت ، واستطاع رجال المخابرات الفرنسية أن يحصلوا له على نسخة منها ، ولما ترجمت له أظهر استخفافاً بها ، وعلق عليها بقوله : « إن المماليك كذابون » .

(انظر ذات المصدر ، ج ٣ ، ص ١٧).

القاهرة فى شهر فانديميز من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (١) ، وهم فى هذا التحديد الزمنى التقريبى أدنى إلى الحقيقة من الجبرتى ، كما أنهم يقرون أنه لم يكد يبدأ شهر أكتوبر حتى علم سكان القاهرة على بكرة أبيهم أن السلطان العثمانى — سلطان المسلمين — قد أعلن الجهاد الدينى ضد الفرنسيين .

والدراسة التحليلية لمنشور السلطان توضح أنه كشف للشعب المصرى عن عدة مسائل على جانب كبير من الأهمية ، نذكر منها :

أولا : أطاح المنشور بكل إدعاءات ومزاعم بونابرت ، والتى كان يرددها فى منشوراته للشعب المصرى بأنه صديق السلطان ، وأن الفرنسيين لم يحضروا إلى مصر إلا باتفاق تام ومسبق مع السلطان ، وأن مصالح الشعب المصرى تتلاقى مع مصالح الفرنسيين ، لأنهم مسلمون مخلصون ، فقرر المنشور أن السلطان قد أعلن الحرب عليهم ، كما وصفهم بأنهم قوم كافرون .

ثانيا : أثار المنشور الحميــة الدينية فى نفوس المصريين بذكر بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والعبارات الدينية .

ثالثا : وصف المنشور الحرب التى دعا السلطان إليها الشعب المصرى ، بأنها حرب مقدسة ، أو جهاد دينى (٢) ، ومن المبادىء المقررة فى الشريعة الإسلامية أن الجهاد الدينى يعتــبر فرض عين على كل مسلم بالغ قادر .

---

(١) Vendémiaire هو الشهر الأول من التقويم الجمهورى الذى أدخلته الثورة الفرنسية ويبدأ هذا الشهر فى ٢٢ من سبتمبر ، وينتهى فى ٢١ من أكتوبر ، واللفظة الفرنسية مشتقة من الكلمة اللاتينية «Vindemia» ، ومعناها عملية جنى العنب «La Vendange» أو موسم جنى العنب «Les Vendanges» .

(٢) من الكلمات التى كانت منتشرة فى مصر إلى عهد قريب لفظة «الجهادية» فكان يقال ديوان الجهادية ، ويقابلها المصطلح الحديث وزارة الحربية أو وزارة الدفاع . وكان يقال إن فلاناً ذهب إلى الجهادية ، أى تم تجنيده فى الجيش المصرى ، أو نفر إلى ساحة الوغى .

والمنشور من هذه الناحية له أهميته ، **لأنه أضفى على الثورة الطابع الدينى الإسلامى ، وحدد المشتركين فيهـا بأنهم المسلمون المؤمنون برسالة محمد** ابن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — ، ولم يفت المعاصرون الفرنسيون للثورة أن يصفوها بأنها حرب مقدسة .

رابعا : شحذ المنشور عزائم المصريين بقـــوله : إن قوات عسكرية جرارة ، برية وبحرية ، فى طريقها إلى مصر ، لشد أزرهم فى محاربة الفرنسيين . وقد كان هذا المنشور سلاحاً قوياً فى يد دعاة الثورة ، استطاعوا بفضله أن يضموا إلى جانبهم جماهير سكان القاهرة . ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال : إنه كانت هناك فرمانات مثيرة تصدر عن السلطان بصفته أمير المؤمنين ، وكانت هذه الفرمانات تقرأ علناً فى المساجد ، وقد ذكر فيها أن الفرنسيين قد صحت عزيمتهم على القضاء على الدين الإسلامى ، وكانت هذه الفرمانات تدعو المؤمنين إلى مقاومة رغبة الفرنسيين فى تحطيم الإسلام (١) .

ومما يذكر أن مارتا Martin أشار إلى واقعة أخرى سبقت إرسال منشور السلطان ، وتتلخص هذه الواقعة فى أن مدينة القاهرة أغرقت منذ ٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨ — وهو أول يوم فى شهر فانديمير Vendémiaire — بمنشور صدر عن الصدر الأعظم يحوى تكذيباً قاطعاً لكل ما ردده بونابرت فى منشوراته من حدوث تفاهم بينه وبين السلطان ، وقد قرىء هذا المنشور فى المساجد ، وكان فيه تحريض للشعب المصرى على قتل الفرنسيين (٢) .

---

(١) "Inflammatory firmans from the Commander of the Faithful were read aloud in the mosques, ascribing to the French the intention of destroying Islam, and the faithful were called upon to resist."

Shafik Ghorbal; op. cit., p. 74.

(٢) Martin P.D; opvr. cit., t. I. p. 241.

مكاتبات الجزار باشا وإبراهيم بك :

وإلى جانب منشور الصدر الأعظم ، ثم منشور السلطان ، كان أحمد باشا الجـــزار والى الشام (١) يرسل المنشورات — أو « البيورديات (٢) » بمصطلح ذلك العصر — إلى المصريين يبلغهم أن السلطان قد عينه والياً على مصر ، بالإضافة إلى منصبه فى بلاد الشام ، وأنه سيزحف على رأس قوات جرارة لطرد الفرنسيين منها ، ويدعو المصريين إلى « القيام ضد الكفار (٣) » . وكان الأمير إبراهيم بك من ناحيته يعبث بمنشورات . أخرى إلى المشايخ علماء الأزهر ، يبلغهم أنه فى طريقه إلى القاهرة ، ويطلب منهم تحريض الشعب على الثورة ، الفرنسيين ، وكان هناك رسل يأتون خفية من بلاد الشام يحملون تلك المكاتبات ، ويتسللون إلى الجامع الأزهر ، ويلتقون

(١) يقول بونابرت فى مذكراته إن الحكومة العثمانية عمدت إلى مد نفوذ أحمد باشا الجزار إلى كل بلاد الشام ، من حلب شمالا حتى بيت المقدس جنوباً ، وذلك رغبة منها فى زيادة إمكانياته البشرية والمادية ، لحشد مزيد من القوات العسكرية الجرارة ، وتوجيهها إلى مصر .
انظـــر :

Napoléon I er ; Guerre d'Orient. etc., op. cit., t. I, p. 244.

(٢) بيورديات : كلمة تركية ، مفردها : بيوردى ، ومعناها أمر صادر من الصدر الأعظم أو من شخصية كبيرة مثل الوزير ، وتظهر هذه الكلمة فى صور شتى ، سواء فى صيغة المفرد ، أو فى صيغة الجمع فى المصادر العربية على النحو التالى :

صيغة المفرد : بيوردى — بيورلدى — بيرولدى — بيوورولدى .

صيغة الجمع : بيورديات — بيلورديات — بيلوريديات — بيورلايات .

انظـــر :

Meynard Barbier de ; Dictionnaire turc – français. Paris, 1881 – 1886' 2 vols., t. I, p. 386.

Deny ; op. cit., p. 147.

(٣) المعلم نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ « فيت » النص العربى ، ص ٢٧ .

بالعلماء والطلاب ، ويتداولون المنشورات فيما بينهم ، ليقرءوها فى مساجد القاهـــرة .

عوامل مشجعة :

كانت هناك عوامل شجعت سكان القاهرة على القيام بالثورة . وكان من بين هذه العوامل تحطيم الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية ، وقد تسربت أنباء هذه الكارثة إلى أهل القاهرة ، على الرغم من حرص الفرنسيين الشديد على تكتم أخبارها ، وتهديدهم بقطع لسان كل مصرى ، أو تغريمه مائة ريال إذا خاض فى ذكر هذه الواقعة(١) ، وقد أطاحت هذه الكارثة الحربية بالفكرة التى استقرت فى أذهان المصريين عن تفوق الفرنسيين عسكرياً بعد انتصارهم الخاطف فى معركة إمبابة .

وقد تكلم بونابرت فى إفاضة عن النتائج السيئة لهذه المعركة ، بالنسبة للفرنسيين فى نظـــر الشعب المصرى ، وقال إنه أمر بزيادة تحركات فرق الجيش الفرنسى فى القاهرة ، وقيام الجيش بعروض عسكرية ، إشعاراً للمصريين بأن الجيش الفرنسى لايزال قوة ضاربة ، كما حاول بونابرت أن يدخل فى روع علماء الأزهر أن أسطولا فرنسياً يتعقب أسطول نلسن الذى ولى الأدبار ، وكان الأسطول الإنجليزى بعد خروجه منتصراً فى هذه المعركة قد اتجه إلى نابولى لعلاج الجرحى ، وترميم بعض وحداته(٢) .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٢) انظر ما قاله بونابرت تحت عنوان :

Effet de la bataille navale sur le peuple d'Egypte.

« نتيجة المعركة البحرية على شعب مصر »

فى

Napoléon I er; Guerre d'Orient. etc. op. cit., t. I, pp. 197 – 202.

وعلم أهل القاهرة بعد ذلك أن الإنجليز فرضــوا حصاراً محكماً على السواحل المصرية ، بحيث أصبح فى حكم الاستحالة قدوم نجدات عسكرية إلى بونابرت من فرنسا ، وكما يقول المعلم نقولا ترك : « ربط الإنكليز عليهم بوغاز الإسكندرية وبوغاز دمياط ، ولا عاد خارج ولا داخل ، ولا طير يطير وفهموا (أى فهم المصريون) أن الإنكليز قفلوا عليهم (أى على الفرنسيين) البواغيز بأقفال إنكليزية ، وانقطع أملهم من إمداد يأتيهم من بلادهم » (١).

وهناك عامل ثالث شجع سكان القاهرة على الثورة ، هو أنهم علموا أن أهل المنصورة قد قاموا بثورة عارمة على الفرنسيين ، ونالوا منهم منالا عظيما ، وأن سكان دمياط قد نهجوا هذا النهج الثورى ؛ وانتصروا على الفرنسيين . وإذا كان هذا شأن سكان الأقاليم مع الفرنسيين ، فلا أقل من أن يحذو سكان العاصمة هذا الحذو النضالى الدينى الثورى .

عوامل مساعدة :

وكانت هناك أيضاً عوامل مساعدة ، هيأت « المناخ الصحى » لنشوب الثورة ، ولم تكن هذه العوامل بنت ساعتها ، فقد نشأت فى أوقات متفاوتة ، وترك كل منها رواسب عميقة فى نفوس المصريين ، وكلما مضت الأيام كانت تلك العوامل يتجمع بعضها مع بعض ، وتسلك مسارب واحدة ، انتهى بها إلى انفجار دينى على الحكم الفرنسى الذى اقترن بإجراءات ، كانت فى نظر زعماء الشعب وجماهيره ، خروجاً على التقاليد الإسلامية .

أولا : النسائيات :

انتشر إبان الحكم الفرنسى نوع من التحرر النسائى ، لم يكن يطيقه

(١) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ « فيت » ، النص العربى ص ٢٧

مجتمع القاهرة فى ذلك الوقت ، إذ نظر إليه أهل القاهرة على أنه إباحية وفوضى خلقية لا تتمشى مع التقاليد الإسلامية ، التى كان الحكم العثمانى يحرص على احترامها حرصاً بالغاً . انتشر سفور المرأة واختلاطها بالرجال ، وقد بدأت هذه الظاهرة الاجتماعية فى وقت مبكر ، منذ أن دخل الفرنسيون القاهرة . كان بعض الضباط الفرنسيين قد اصطحبوا زوجاتهم أو عشيقاتهم إلى مصر . ويقرر أحد المؤرخين أن هؤلاء السيدات لم يستطعن الصعود إلى سفن الحملة وهى راسية فى موانئ فرنسا إلا بعد أن تنكرن فى زى الرجال(١)، ويقدر أحد الباحثين عددهن بثلاثمائة سيدة تقريباً(٢) ، وهو عدد ضئيل جداً بالنسبة لحملة عسكرية جرارة ، تضم ٣٦,٠٠٠ جندى .

وقد عاشت هؤلاء الزوجات أو العشيقات فى مصر حياة متحررة من قيود مجتمع شرقى إسلامى محافظ ، وكن يشبعن ما كانت تهفو إليه نفوسهن من كل ما هو جديد وطريف . ولندع الجبرتى يتكلم عن الحرية التى مارستها السيدات الفرنسيات فى شوارع القاهرة ، وعن ملابسهن ، وعن مداعبتهن للعامه وهن يركبن الحمير : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات ، والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقاً عنيفاً ، مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة .... »(٣) وكانت السيدات الفرنسيات يراقصن الرجال فى ميدان

---

(١) Reybaud (L.) et autres ; op. cit., t. IV, p. 70.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٥٧٢ .

الأزبكية فى أثناء المهرجان الكبير الذى أقامه الجيش احتفالا بذكرى قيام الجمهورية .

وكان العنصر الثانى من السيدات المتحررات فى مصر يتمثل فى السيدات الشركسيات واليونانيات والأرمنيات ومن إليهن ، وقد كن زوجات أو مستولدات أو جوارى للأمراء المماليك والكشاف ، جىء بهن إلى مصر ، وأقمن فى قصور كانت غاية فى الروعة والبهاء (١) ، وعشن حياة مترفة ناعمة باذخة ، وارتدين أرق أنواع الملابس الحريرية ، المستوردة من مصانع ليون(٢) ، والملابس الصوفية وغيرها ، وقد قتل عدد كبير من أزواجهن أو أسيادهن فى المعارك التى خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين ، وارتفع عدد القتلى منهم فى معركة إمبابة ، وتشتت شمل العائلات المملوكية ، وانطلقت

---

(١) انظر وصفاً لمساكن البكوات المماليك والكشاف فى ص ٣٣٠ من البحث الضافى الذى وضعه « جومار » أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، بعنوان :

Description de la ville et de la citadelle du Kaire accompagnée' de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens (sic) sur sa distribution, ses monumens (sic), sa population, son commerce et son industrie. par M. Jomard.

Description de l'Egypte. t· XVIII, 2éme partie, pp. 113-538.

(٢) Hanotaux (Gabriel); Histoire de la Nation Egyptienne. t. V; L'Egypte turque. Pachas et Mameluks du XVIe au XVIIIe siécle. L'Expédition du génénel Bonaparte par H. Dehérain.

انظر بحثاً بعنوان :

La Demeure des Beys à la ville et à la Campagne. pp. 83 - 87.

السيدات إلى حياة التحرر ، بعد أن كن يقضين أحلى سنوات العمر وراء المشربيات ، لا يراهن أحد من الأفراد سوى الأغوات الطواشية الذين يقومون على خدمتهن .

ومما يذكر أن بونابرت قد تكلم فى مذكراته عن نساء المماليك والكشاف — وكن قد طلبن مقابلته بعد دخوله القاهرة — وقد بهره ما كن يتمتعن به من قوام رائع ، وأيد جميلة صغيرة ، وصوت رخيم . وأطرى طريقتهن فى الحديث والجلوس والمناقشة ، وقال إنهن من حيث السلوك الاجتماعى الممتاز ، ومن حيث مظهرهن وأناقتهن ، كن يضارعن أرقى السيدات فى المجتمعات الأوروبية. وتكلم بونابرت عن إتمام كثير من الزيجات بتدخله(١) ، وقد عاشت هؤلاء السيدات بعد زواجهن من الفرنسيين حياة أوروبية ، مترفة منعمة ، وخرجن سافرات فى صحبة أزواجهن ، وكن يذهبن معهم إلى نادى القوات المسلحة المسمى تيفولى(٢) Tivoli فى ميدان الأزبكية ، وإلى غيره من أماكن اللهو والتسلية

---

(١) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., op, cit., t. I. pp. 235 – 236.

(٢) فكر فى إنشاء هذا النادى أحد الفرنسيين واسمه « Dargevel » ، واختار له قصراً من قصور الأمراء المماليك ، بالقرب من ميدان الأزبكية ، وكانت تحف بالقصر حديقة ذات أشجار باسقة ، وأدخلت تعديلات على أبهاء القصر وحجراته ، وخصصت فيه قاعة للموسيقى ، ومرقص ، ومطعم ، ومكتبة ، وقاعة للبليارد ، واختير له اسم ملهى التيفولى فى باريس ، فأطلق عليه التيفولى المصرى « Le Tivoli Egyptien » ، أما الجبرتى فقد سماه « دار الخلاعة » ويقول إن الفرنسيين : « أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال ، للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه ، أو يكون مأذوناً وبيده ورقة » .

ويقرر الأستاذ كرستوفر هيرولد أنه من المحتمل أن يكون هذا النادى أول ناد للقوات المسلحة فى التاريخ .

انظر : ج. كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤ ، —

وجاءت الإماء عنصراً ثالثاً متحرراً إلى أبعد حدود التحرر فى مدينة القاهرة، والإماء هن الجوارى السود ، وكن أيضاً يعشن فى قصور الأمراء المماليك والكشاف ، وانطلقن من إسار الرق ، وكن أوفر عدداً ، وأكثر جرأة فى تطوير أسلوب حياتهن . قدم الفرنسيون لهن الملابس الأوروبية ، فارتدينها ، وقدموا لهن الخيول ، فركبنها(١) ، وكن يغادرون منازلهن فى أى وقت ، ويطفن بشوارع القاهرة ، سافرت الوجوه ، تبدو عليهن الأناقة فى ملابسهن وزينتهن ، ومشيتهن ، وحركاتهن (٢) .

ثم جـــاء عنصر رابع هو زواج الفرنسيين من المصريات المسلمات ، ويكشف الجبرتى عن الدافع على هذا الزواج فيقول : « خطب الكثير منهم بنات الأعيان ، وتزوجوهن رغبة فى سلطانهم ونوالهم (٣) » ، وقد أفتى البعض بشرعية زواج الفرنسى من المسلمة ، مادام يذكر الشهادتين ، فكان الفرنسى يتدرب على النطق بهما ويعقد قرانه عليها ، وهكذا كانت عقود

— ترجمة فؤاد اندراوس .
واسم الكتاب بالإنجليزية :
Christopher Herold (J.); Bonaparte in Egypt. New York, 1962.

(١) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ « فيت » ص ٦٠ النص العربى .

(٢) Galland Antoine; Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'armée française, avec la position et la distance réciproque des principaux lieux de l'Egypte; un coup d'oeil sur l'économie politique de ce pays, quelques détails sur ses antiquités, et la procédure exacte de Soleyman, assassin du général Kléber. Paris, 1803, 2 vols., vol. I. p. 87 et vol. II. p. 397.

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

الأنكحة هذه — فى نظر البعض — زواجاً شرعياً لا شائبة فيه . ويعلق الجبرتى على زواج الفرنسى بالمسلمة فيقول : « ينطق بالشهادتين ، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها » . وكان الأزواج الفرنسيون يضفون عليهن الكثير من مظاهر التقدير والتكريم ، ويقول الجبرتى « وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها على مثل شكلها ، وأمامها القواسة(١) والخدم ، وبأيديهم العصى ، يفرقون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينهين فى الأحكام(٢) » .

نظر سكان القاهرة إلى هذا الزواج المختلط ، وإلى تحرر المرأة المسلمة ، على أنهما نوع من الرذيلة . وقد عبر نقولا ترك فى مذكراته عن الاستياء الشديد الذى عم المصريين فى ذلك الوقت بقوله : إن المصريين لم يحتملوا إطلاقا وجود الفرنسيين فى القاهرة ، وإنهم كادوا يموتون حزناً وكمداً وغيظاً ، حين رأوا « نساءهم وبناتهم مكشوفات الوجوه ، مملوكات من الفرنسيين جهاراً ؛ ماشيات معهم فى الطريق ، نائمات وقاعدات فى بيوتهم » ، وأضاف نقولا ترك إلى ذلك أن المصريين كانوا يطلبون الموت فى كل ساعة ، للتخلص من هذه المناظر(٣) .

---

(١) القواسة ، وتكتب أحيانا « القواصة » جمع قواس أو قواص «Un Cawas» ومعناها : أحد رجال الشرطة .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

وانظر أيضا :

Jehan d'Ivray (Mme Fahmy Bey) ; Bonaparte et l'Egypte, Paris, 1914.

وقد أفردت المؤلفة الجزء الثانى من كتابها لموضوع النسائيات إبان الاحتلال الفرنسى .

Les femmes sous l'occupation française.

(٣) نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق الأستاذ « فيت » ص ٣١ من النص العربى .

وتزوج الحاكم العسكرى الفرنسى لمنطقة الأزهر بسيدة مصرية «من أولاد البلد المخلوعين» ، وكان يقضى سهراته معها فى مقهى صرح لتابع له ولترجمانه بفتحه فى هذا الحى الشعبى ، وكان أحد صاحبى المقهى يهودياً ، والآخر مسلما من مدينة حلب ، كان من بين أسرى جزيرة مالطة ، الذين أطلق بونابرت سراحهم . وكانت تحدث فى المقهى أعمال منافية للآداب العامة ، بقصد « التسلى والخلاعات » ، وكثر تردد سكان هذا الحى على المقهى ، وأغرموا بشتى ضروب « المجون والخلاعة ، وتلك طبيعة الفرنساوية » .

وكانت قلة عدد السيدات الأوروبيات فى مصر من أهم المشكلات التى واجهتها قيادة الحملة منذ الأيام الأولى لدخول القاهرة ، وجعلت قيام هذه الزيجات المختلطة من ناحية ، والعلاقات الآثمة بين الجنود وبعض النسوة المسلمات من ناحية أخرى ، ظاهرة متفشية . وقد طلب بونابرت من حكومة الديركتوار أن ترسل إلى مصر زوجات جميع رجال الحملة ، فضلا عن أعداد وفيرة من السيدات الفرنسيات ، وفرقة من راقصات الباليه ، وقد تعذر على حكومة الديركتور إرسال هذه الشحنات الآدمية بسبب الحصار الذى فرضه الإنجليز على السواحل المصرية فى أعقاب انتصارهم فى معركة أبى قير البحرية :

ولجأت القيادة العامة للجيش الفرنسى إلى حلول ارتجالية : كانت تشجع السيدات الأوروبيات فى القاهرة على حضور الحفلات الساهرة التى كان الفرنسيون يقيمونها فى دورهم أولا ، ثم نادى تيفولى Tivoli ثانياً ، لإعطاء هذه الحفلات لوناً من ألوان البهجة فى نفوس الفرنسيين ، وإبعاد السأم عن نفوسهم . ولجأت قيادة الجيش إلى الاتفاق مع المغنيات والراقصات المصريات المحترفات « العوالم » Les Almas ، كى يشتركن فى إحياء

الحفلات التى كانت تقام فى هذا النادى(١). وهكذا فرضت المسألة النسائية نفسها فرضاً على المجتمع القاهرى منذ الأيام الأولى للاحتلال الفرنسى.

القاهرة الخليعة :

والحق أن موجة التحرر النسائى التى شهدتها القاهرة ، جعلت بعض المؤرخين الفرنسيين يقررون أن القاهرة أصبحت باريس صغرى(٢) un petit Paris وجعلت نقولا ترك يقول فى هذا المعنى أيضاً وهو يسمى أولئك المصريات المسلمات — نساء كثيرات من الإسلام — : « وخرجت النساء خروجاً شنيعاً مع الفرنساوية ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس فى شرب الخمر والمسكرات والأشياء التى لاترضى رب السموات (٣). ويتفق الجبرتى ونقولا ترك فى رأى واحد هو شغف الفرنسيين الزائد بالنساء ، فالأول يقول إن للفرنسيين رغبة شديدة « فى النساء وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفة هواهن » ، ويقول أيضاً إنهم كانوا ينفقون بسخاء على المصريات (٤). أما الثانى ، وهو المعلم نقولا ترك ، فيقول : « إن الجنس الفرنساوى له مداخلة ومؤانسة ومسايرة لجنس النساء بنوع آخر عن باقى الأجناس الموجودة فى العالم بأسره » (٥) .

وقد حولت بعض البيوت إلى أماكن عامة للتسلية والمجون ، ووضعت خارجها لافتات باللغة الفرنسية ، تبين نوع اللهو الذى يمارس

---

(١) Reybaud Louis et autres, op. cit., t. IV, pp. 66 – 72.

(٢) Loc. cit.

(٣) نقولا ترك : نشر وترجمة « ديجرانج » ، ص ٢٢٢ .

(٤) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٥) نقولا ترك : نشر وترجمة الأستاذ فييت ، ص ٦٠ من النص العربى .

داخلها ، وفرشت هذه البيوت بالأثاث الشرقى أو الأوروبى(١) ، وكان أبسط ما يقال عن هذه البيوت إنها تقدم الخمور لروادها ، وتهيئ لهم رقص المخاصرة مع السيدات على أنغام الموسيقى . وأنشئت فى أحياء القاهرة مشارب البيرة — البارات — وحولت بعض المقاهى فى الأحياء الشعبية إلى مراقص ، ففى حى الخليفة — على سبيل المثال — حول مقهى إلى مرقص ، وكانت الراقصات يتناوبن الرقص لرواده ليلا ونهاراً . وفتحت محال الدعارة بكثرة فى شتى أنحاء القاهرة . وأقبل الجنود الفرنسيون على ارتيادها إقبالا شديداً (٢) . واتخذ الفرنسيون من ميدان الأزبكية مكاناً لحفلاتهم ومهرجاناتهم التى كانوا يقيمونها فى المناسبات السياسية ، وعند بداية أول كل شهر ، طبقاً للتقويم الذى جاءت به الثورة ، وكانت تمارس فى هذه الحفلات على نطاق واسع أمور تتنافى مع الآداب العامة ، من وجهة نظر المسلمين فى ذلك الوقت .

لقد أراد الفرنسيون أن يجعلوا من القاهرة مدينة أوروبية ، تقارب عاصمتهم باريس فى بهائها وملاهيها ، ومقاهيها وأنديتها(٣) ، حتى يكفلوا لجنودهم حياة تجمع بين أسباب المتعة والتسلية واللهو ، وبذلك ترتاح نفوسهم إلى الإقامة فى القاهرة، وتخف حدة تذمرهم وسخطهم(٤)

---

(١) Reybaud Louis et autres; op. cit., t. IV. pp. 66 – 72.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو ، ص ٥٨٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٤) يتضح عمق كراهية رجال الحملة الفرنسية للإقامة فى مصر من الخطابات الشخصية التى بعث بها رجال الحملة إلى ذويهم فى فرنسا ، وقد وقعت هذه الخطابات فى يد الأسطول الإنجليزى بقيادة نلسن ، وذلك فى أثناء نقلها من مصر إلى فرنسا، فصادرها نلسن وبعث بها إلى لندن ، —

ولكن فات السلطات الفرنسية أن تدرك أن مثل هذه الحيـــاة الاجتماعية المتحررة الصاخبة المستهترة ، كانت تتعارض تعارضاً جذرياً مع تقاليد مجتمع إسلامى متزمت ، وبالتالى تعصف بالسياسة الإسلامية التى حرص بونابرت على انتهاجها فى حكم الشعب المصرى . ولم يكن من المنتظر أن يغير الشعب المصرى فى مجموعه ، وبين عشية وضحاها ، أسلوبه فى الحياة الاجتماعية ، وهو أسلوب درج عليه أعصراً وأدهراً وأحقاباً ، ولم يجد المصريون من أهل الرأى فى مظـــاهر الإباحية التى انتشرت فى القاهرة دليلا على انغماس الفرنسيين فى حياة المجون والخلاعة فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها فوضى خلقية فقط ، بل اعتقـــدوا أن

= وقد سارعت الحكومة الإنجليزية إلى نشر هذه الخطابات، مع ترجمة لها بالإنجليزية ، واستعانت بأحد المهاجرين الفرنسيين فى التعليق عليها ، كما وضعت مقدمة لها ، وقامت الحكومة الفرنسية من ناحيتها بالرد على الملاحظات والتعليقات التى جاءت فى الطبعة الإنجليزية ، وأردفت بردها الخطابات المصادرة ، فأصبحت هناك مجموعتان :

المجموعة الأولى :

Copies of Original letters from the Army of General Bonaparte in Fgypt, intercepted by the Fleet under the command of Admiral Lord Nelson. With an English translation. 1798 – 1799. 2 vols., XXIII – 248 pages; XXXI – 236 pages.

وقد طبعت من المجموعة الأولى عدة طبعات .

المجموعة الثانية :

Correspondance de l'Armée française en Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, publiée à Londres, avec une introduction et des notes de la chancellerie anglaise. Traduites en français et suivies d'observations par E. Th. Simon. Paris, an VII (1799).

وقد ترجمت المجموعة الثانية إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية .

الفرنسيين إنما يهدفون إلى ما هو أخطر من ذلك كله بكثير : إنهم يريدون نشر الفساد والرذيلة بين شباب الشعب المصرى (١) . لقد أطلق أحد الأساتذة المصريين على القاهرة منذ أن دخلها الفرنسيون وصفاً معبراً هو « القاهرة الخليعة (٢) » ، وقال إن هذه التسمية مستمدة من الفكرة التى جالت فى ذهن الجبرتى ونظرائه من عقلاء المصريين . والحق أن الفرنسيين استهتروا بتقاليد الشعب المصرى ، وعاداته ، وأخـلاقه ، ومثله العليا . وبقدر ما استهوت حياة المجون والفسق ، أفئدة الطبقة الدنيا من سكان القاهرة ، وبعض أفراد قلائل من العائلات الكبيرة ، بقدر ما نفّرت بقية قطاعات الشعب منها . وكان القاهريون يقارنون بين الإباحية التى نشرها الفرنسيون ، وبين ما جاء فى منشور بونابرت أن الفرنسيين مسلمون مخلصون .

ثانياً : تعيين يونانى شرس وكيلا لمحافظة القاهرة .

ومن بين تصرفات الفرنسيين التى جانبهم فيها التوفيق ، وأثارت سكان القاهرة عليهم ، أنهم عينوا أحد اليونانيين العتاه فى منصب كتخدا مستحفظان — أى وكيل محافظة القـــاهرة — وكان اسمه برتلمى (٣) Barthélemy ، ويسميه الجبرتى برطلمين ، وأطلق عليه أهل القاهرة « فَرْط الرُمَّان »(٤)، وكان هذا اليونانى — وهو من مواليد جزيرة كيو Chio إحدى جزر الأرخبيل — معروفاً لأهل القاهرة بكراهيته العميقة للمصريين ، ويقول الجبرتى عنه إنه من سفلة اليونانيين ، اتخذ من

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو ، ص ٥٧٣ ، ص ٥٨٠ .

(٢) المرجع السابق . ص ٥٧١ .

(٣) يرد اسمه فى بعض المراجع التاريخية برتلميو سيرا « Bartholomeo Sera » .

(٤) يرد فى مراجع أخرى هذا الإسم القاهرى مترجماً إلى اللغة الفرنسية « Grain – de – Grenade » .

العسكرية حرفة له . والتحق بخدمة الأمير المملوكي محمد بك الألفي في فرقة الطوبجية – أي سلاح المدفعية – ، كما كان له محل بشارع الموسكي يبيع فيه القوارير الزجاج أيام بطالته . وكان هذا الرجل ضخم الجسم ، فارع القـامة ، عريض المنكبين ، تهفو نفسه إلى المشاجرات ، لأنها تتيح له الفرصة لإبراز عضلاته ، وإظهار قوته . وكان سكان القاهرة يتقون شره . ولما جاء الفرنسيون عرض خدماته عليهم ، فعينوه وكيلا لمحافظة القاهرة ، وغدا من صنائع الفرنسيين ، ومن أبرز أعوان الاحتلال الفرنسي . بدت النزعة المظهرية في خلقه ، منذ أن صدر قرار تعيينه في منصبه ، إذ خرج من مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في موكب رسمي يصفه الجبرتي في حوادث شهر صفر ١٢١٣ (١٥ يوليو – ١٢ أغسطس ١٧٩٨) ، فيقـول : « قلدوا برطلمين النصراني الرومي ، وهو الذي تسميه العامة (فَرْط الرُمَّان)، كتخدا مستحفظان ، وركب بموكب من بيت صاري عسكر ، وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين (١) ، مشاة بين يديه ، وعلى رأسه حشيشة (٢) من الحرير الملون ، وهو لابس فروة بزغادة(٣) ، ومن

---

(١) البطالون : هم الجنود غير النظاميين .

(٢) حشيشة : معناها لفافة .

(٣) وفى الترجمة الفرنسية لكتاب الجبرتي ترد هذه العبارة : Un riche pelisse sur le dos ومعناها : معطف ثمين ، مبطن بفرو يتدلى على ظهره .

انظـر :

Merveilles Biographiques et Historiques, ou Chroniques du Cheikh Abd – El – Rahman El Djabarti. Traduties de l'arabe par Chafik Mansour Bey, Abdul Aziz Khalil Bey, Gabriel Nicolas Kahil Bey et Iskender Ammoun Effendi. Le Caire. Imprimerie Nationale· 1888 – 1897 – 9 vols. t. VI. (1891) p. 25.

بين يديه الخـــدم بالحراب المفضضة ، ورتّب له بيــوك باشى(١) وقلقات(٢) عينوا لهم مراكز بأخطاط(٣) البلد يجلسون بها ، وسكن المذكور بيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين ، أخذه بمافيه من فرش ومتاع وجوارى وغير ذلك » (٤) .

ومن الغريب أن يصدر قرار تعيينه فى مستهل الحكم الفرنسى وفى ذات اليوم الذى صدر فيه قرار تشكيل ديوان القاهرة ، وفى الوقت الذى كان بونابرت يحاول استمالة قلوب المصريين إلى الحكم الفرنسى . ولا عبرة بما يقرره أحمد حافظ عوض من أن التبعة فى تعيينه تقع على علماء الأزهر

---

(١) بيوك : كلمة تركية معناها : كبير ، وبيوك باشى : تحمل معنى الموظف الكبير أو الياور

(٢) قلقات : مصطلح تاريخى ، مفرده : قلق ، وهذه اللفظة مأخوذة من الكلمة التركية قوللق ، ومعناها أحد أفراد الشرطة الذين يطوفون ليلا فى دورة عسس .

والجبرتى يعطى فكرة عن المكانة الهامة التى كان يشغلها أولئك القلقات فيقول :

« إن كبراء الفرنسيين كانوا يذهبون إلى القلق المختص بمنطقة الجامع الأزهر عقب إخماد ثورة القاهرة الأولى ، وتسرب الأنباء بأن الفرنسيين أعدموا عدداً من مشايخ الأزهر سراً ، وكان هؤلاء الفرنسيون الكبار يجتمعون عند القلق من أجل إرهاب المصريين ، خشية قيام فتنة » .

(ج ٣ ، ص ٢٩) .

والجبرتى يعطى أيضاً تحديداً دقيقاً لاختصاصات القلقات ، وهو يتكلم عن سياسة محمد على ، إبان حملة فريزر « Fraeser » البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ فى تضييق الخناق على الأمراء المماليك المتحصنين بالوجه القبلى — ويسميهم الجبرتى القبالى — خوفاً من حدوث اتصالات مثمرة ، بين الأمراء المماليك فى الصعيد والحملة البريطانية ، مما يؤدى إلى تحالف بين الفريقين ضد محمد على . يقول الجبرتى وهو يتكلم عن حوادث شهر صفر ١٢٢٢ (١٠ أبريل — ٨ مايو سنة ١٨٠٧) : « .. وكذلك نبهوا على القلقات الذين يسمونهم الضوابط المتقيدين بأبواب المدينة مثل باب النصر ، وباب الفتوح ، والبرقية ، والباب الحديد ، بمنع النساء عن الخروج ، خوفاً من خروج نساء القبالى وذهابهن إلى أزواجهن » . (ج ٤ ، ص ٥٧) .

(٣) أخطاط : جمع خط (بضم الخاء) معناها أقسام المدينة .

(٤) الجبرتى ، ج ٣ ، ص‌ص ١١ — ١٢ .

أعضاء الديوان (١) ، فقد اعتمد على رواية الجبرتى بعد أن أدخل تعديلا عليها ، عصف بمعناها . والعبارة التى ذكرها الجبرتى هى أن أعضاء الديوان أبلغوا الفرنسيين « أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم (٢) » ، والعبارة التى جاء بها قلم أحمد حافظ عوض منسوبة إلى الجبرتى هى « إن الذنب فى ذلك واقع على المشايخ الذين أفتوا لهم بأن سوقة مصر لا يخافون إلا من المماليك وأشباههم» . وفارق كبير بين العبارتين ، والأمانة العلمية تقتضى عدم إدخال تعديل على نص تاريخى يعصف بمعناه ، ولم يكن الرأى الذى قرره الجبرتى ينسحب على هذا اليونانى ، ولعل الأستاذ أحمد حافظ عوض قد فاته ما ذكره الجبرتى فى كتابه الأول الذى وضعه باسم « مظهر التقديس » إذ حمل فيه حملة عنيفة على الفرنسيين لتعيينهم هذا اليونانى فى منصب إدارى كبير ، وقال إن هذا التعيين يتنافى مع ما جاء فى المنشور الأول الذى وجهه بونابرت إلى الشعب المصرى فى ٢ من يوليو ١٧٩٨ ، والذى قال فيه : إن الحكم الفرنسى سوف يتيح الفرص أمام المصريين لتقلد المناصب السامية ، واكتساب المراتب العالية . وأضاف الجبرتى إلى ذلك قوله : إنه مما عصف بهذه الوعود « تقليدهم مناصب الأحكام الجليلة للأسافل والرعاع ، كجعلهم برطلمين ، وهو المسمى عند العامة (فَرْط الرُمَّان) ، كتخدا مستحفظان (٣) » .

ويعطى أحد المؤرخين الفرنسيين تفسيراً أو تبريراً ، لإقدام السلطات الفرنسية على تعيينه فى هذا المنصب ، فيقول إنه عقب معركة إمبابة وهروب

(١) أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ، ص ٢٥٧ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١١ .

(٣) الجبرتى : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، النسخة الخطية المودعة فى المكتبة التيمورية بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ١٣٢٨ تاريخ ، المكتبة التيمورية ، ص ٣٣ .

إبراهيم بك مع قواته إلى الشرقية ، انتهز بعض الغوغاء فرصة عدم وجود قوات أمن فى القاهرة ، فمارسوا عمليـــات النهب والسلب . وحدث أن هاجمت جموع غفيرة من الرعاع حى الإفرنج ، وكادوا يفتكون بسكانه ، ويسلبون ثرواتهم ، لولا أن تصدى لهم شخص يونانى بمفـــرده ، كان ذا شجاعة نادرة ، وقوة بدنية جبارة ، وأخذ يطلق النار على المهاجمين ، فردهم على أعقابهم ، وكان هذا اليونانى « الشجاع » هو برتلمى ، فعينه الفرنسيون فى منصب وكيل محافظة القاهرة ، تقديراً منهم لموقفه ، وجهوده فى حماية أرواح الأوروبيين وأموالهم (١) .

ولمـــا شغل برتلمى هذا المنصب برزت بروزاً واضحاً هوايته ، وهى القتل الجماعى للمماليك والمصريين على السواء . كان يطوف فى شوارع القاهرة والسيف مسلول فى يده ، وحوله وأمامه قوة تبلغ المائة من اليونانيين غلاظ القلوب على شاكلته (٢) . وكان يجمع فى ملبسه بين الملابس اليونانية والملابس الشرقية . كان يرتدى عمامة بيضاء كبيرة ، يزيد فى بياض لونها لمن يشاهدها بشرته البرونزية ، وكان يرتدى أيضاً سراويل واسعة ، وسترة

---

(١) Reybaud Louis et autres ; op. cit., t. III, p. 211.

(٢) تقرب اليونانيون المقيمون فى مصر من سلطات الاحتلال الفرنسى ، وقد أمر بونابرت بتكوين ثلاث كتائب من هؤلاء اليونانيين تتولى الحراسة النهرية للسفن الفرنسية ، بعد أن كثر تعرض المصريين لهذه السفن ، وفتكهم بركابها الفرنسيين ، وقد تضمن أمر بونابرت بأن تتكون كل كتيبة من مائة يونانى ، وأن يكون مقر الكتيبة الأولى القاهرة ، ورئيسها نقولا ماركو Nicolas Marco ، والثانية فى دمياط ، والثالثة فى رشيد .

انظر :

الوثيقة رقم ٣٥٤٢ مؤرخة فى ٦ بروميير من السنة السابعة للتقويم الجمهورى (٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ، والوثيقة رقم ٣٥٤٣ مؤرخة فى ذات التاريخ السابق ، وموجهة إلى الجنرال برتيه

Correspondance de Napoléon, t. V.

وبالإضافة إلى كتائب الحراسة النهرية شكل الفرنسيون من اليونانيين المقيمين فى مصر كتائب انضمت إلى الجيش العامل ، سداً للنقص فى صفوف الجيش .

ضيقة وقصيرة على صدره ، ويضع حول وسطه حزاماً عريضاً أحمر » وكان يطوف أحياناً فى صحبة زوجته ، مرتديه الملابس اليونانية الوطنية ، وكانت زوجته على شاكلته ، لا يرعبها منظر الدماء المسفوكة ، وكان يداهم البيوت ليلا ، بحجة البحث عن الأسلحة . وكان فى بعض الأحايين يخرج إلى أطراف القاهرة ، بحجة البحث عن الفارين ، أو البدو المتمردين ، فإذا لم يجد أحداً من هؤلاء وأولئك كان يقتل الفلاحين الذين يصادفهم فى طريق عودته إلى القاهرة ، ويجمع رءوسهم ويحملها رجاله معهم (١) . ولذلك كان يحرص على أن يعود من جولاته بنتائج إيجابية ، تتمثل فى رءوس قتلاه . وكان يرى أن أكبر معرة تلحق به من طوافه أن يعود إلى القلعة بدون « إيراد آدمى » ، سواء كان هذا الإيراد أشخاصاً مقبوضاً عليهم أو رءوس قتلى موضوعة فى زكايب ، وبسبب إسرافه فى القسوة ، وإمعانه فى الظلم ، ورغبته فى التشفى من الشعب المصرى ، أطلق عليه أحد المؤرخين الفرنسيين (٢) اسم « تريستان المصرى (٣) » Le Tristan Egyptien ويقول

---

(١) حدث أن عاد هذا الرجل فى إحدى المرات من جولاته ، وذهب إلى الجنرال ديبوى الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة ، وكان يتناول الغذاء مع بعض ضيوفه ، فقدم إليه زكيبة ، ظن الجنرال أول الأمر أنها تحوى بطيخاً أو شماماً ، فأمر بفض الزكيبة ، فإذا بمحتوياتها عبارة عن اثنى عشر رأساً من رءوس المصريين الذين قتلهم . وامتعض الحاضرون من هذا المشهد الدامى ، وأمر الجنرال بإخراجه مع زكيبته من قاعة الطعام .

(٢) Reybaud Louis et autres; op. cit., t. IV. pp. 128 – 131.

(٣) تريستان ، هو رجل سياسى فرنسى ، عاش فى القرن الخامس عشر ، واستطار شره فى فرنسا ، إذ اشتهر عنه إسرافه فى القسوة ، والتجسس على مواطنيه ، والتحريض على ارتكاب الجرائم التى وصلت إلى حد القتل أو الاغتيال ، وانتهز فرصة الحروب التى كانت مشتعلة بين فرنسا وإنجلترا ، وقيام الاضطرابات الداخلية فى فرنسا ، فأشبع هوايته الإجرامية ، وكان قد وضع نفسه فى خدمة ملكين تعاقبا على حكم فرنسا ، هما الملك شارل السابع « ١٤٢٢ – ١٤٦١ » ، والملك لويس الحادى عشر « ١٤٦١ – ١٤٨٣ » ، سمح له الأول بأن يباشر نفوذاً على كبار —

مؤرخ فرنسي آخر . إن كل الآثام الفظيعـــة التى نسبت إلى الفرنسيين إنما تتجسد فى هذا الرجل اليونانى (١) ؛ وجدير بالذكر أن الهتافات التى رددها أهل القاهرة إبان الثورات والفتن كانت تدوى بهذا القول المسجع : الله ينصر السلطان ، ويهلك فَـــرْط الرُمَّان (٢) ، وسنرى أن رعونة هذا اليونانى كانت السبب المباشر فى استفحال الثورة التى تنادى إليها رجال الأزهر فى أكتوبر ١٧٩٨ .

ثالثا : استيلاء المسيحيين على إيراد الأوقاف الإسلامية :

ومن الأسباب المساعدة استيلاء الأقباط ونصارى الشوام على إيراد الأوقاف الخيرية الإسلامية . وقد اعتبروها غنيمة لهم ، وتأثر من هذا الإجراء المستحقون فى الأوقاف ، إذ قطعت عنهـــم المرتبات التى كانوا يعتمدون عليها فى معيشتهم ، وكان معظمهم من الفقراء ، وقد وصفهم الجبرتى بأنهم : « أولاد الكتاتيب والفقهاء ،والعميان والمؤذنين ، وأرباب الوظائف ، والمرضى بالمارستان المنصورى ، أوقاف عبد الرحمن كتخدا » وقد ذهبوا إلى السيد خليل البكرى نقيب الأشراف ، يلتمسون تدخله لدى

=قادة الجيش ، وعينه الثانى فى منصب كبير الياوران،وفى جميع المناصب التى شغلها كان تريستان صورة قبيحة من صور استغلال النفوذ والبطش ، والاستهتار بالقانون ، وسفك الدماء لأتفه الأسباب ، وقد انقطعت أخباره بعد سنة ١٤٧٥ ، ويعرف فى تاريخ فرنسا القومى باسم « لويس تريستان ليرميت Louis Tristan Lhermite ،وتكتب هذه اللفظة الأخيرة أحياناً L'Hermite ، وأحياناً أخرى Lhermite ، وأحياناً ثالثة L'Ermite .

وهكذا توجد أوجه كثيرة للشبه بين هذه الشخصية الفرنسية وبين برتلمى الذى فرضه الفرنسيون فى منصب حساس فى مدينة القاهرة ، فاستغل سلطات منصبه لممارسة هوايته الإجرامية من ناحية ، ولإشفاء غليله من الشعب المصرى من ناحية أخرى .

(١) Wiet Gaston ; Nicolas Turc ; op. cit., (Trad. fr.) p. 113, note. 2.

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ص ٩٣

السلطات الفرنسية لإعادة الأمور إلى أوضاعها السليمة ، وكانوا جمعاً غفيراً » فواعدهم على حضورهم الديوان وينهوا شكواهم ، ويتشفع لهم ، فذهبوا راجعين (١) » .

رابعا : استعلاء المسيحيين على المسلمين :

يضاف إلى هذا الاستيلاء التعسفي سبب آخر ، هو استعلاء العناصر غير الإسلامية في مصر على مسلميها ، فقد كان المسلمون يخصون أنفسهم بامتيازات ، نذكر منها على سبيل المثال : الحق الذي قرروه لأنفسهم دون سواهم ، وهو ارتداء عمامة بيضاء ، وكذلك السير في الطرقات على الجانب الأيمن . ولما جاء الحكم الفرنسي لم يتخلص غير المسلمين من القيود المفروضة عليهم فحسب بل شمخوا بأنوفهم على المسلمين ، وخاطبوهم بلهجة كانت تنم عن التهكم والازدراء والسخرية (٢) . وواجه الفرنسيون هذه المشكلة منذ الأيام الأولى للحكم الفرنسي . وكان مركزهم حرجاً ، فالجيش في حاجة إلى معاونة الأقباط والشوام المسيحيين واليونانيين ومن إليهم ، لعدة أسباب ليس هذا البحث مكاناً لمناقشتها ، والجيش تابع لدولة أوروبية ذات نظام جمهوري ، وشعارها الحرية والإخاء والمساواة ، فإذا لم يعمل الفرنسيون على تطبيق هذه المبادئ على الأقليات في مصر ، فكأنما تنكر الجيش للمبادئ التي جاءت بها الثورة الفرنسية. ولكن أدرك بونابرت من ناحية أخرى أن هذا التحرر يسيء إلى الرأي العام في مصر ، ويعصف بالسياسة الإسلامية التي أخذ نفسه بها في حكم الشعب ، فقال في مذكراته : إنه من العبث إضفاء مظاهر الاحترام والتقدير على علماء الأزهر كوسيلة لاجتذاب قلوب المصريين للحكم الفرنسي « إذا لم نظهر نحن مزيداً من

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(٢) Reybaud Louis et autres ; op. cit., t. IV, pp. 138 – 139.

الاحترام العميق للدين الإسلامى ،وإذا كنا نسمح للأقباط واليونانيين واللاتين (المسيحيين الغربيين) بقسط من التحرر ، يغير من أوضاعهم وعلاقاتهم المعتادة . وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعاً ، وأكثر احتراماً لكل ما يتصل بالإسلام والمسلمين ، مما كانوا فى الماضى »(١) . والجبرتى يؤكد هذا الاتجاه الذى صدر عن بونابرت ، ويقرر أنه حاول الأخذ به ، بعد انتهاء ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، فيذكر فى حوادث اليوم السابع من شهر رمضان ١٢١٣ (١٢ من فبراير ١٧٩٩) «أن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق ، وتركوا لبس العمائم البيض ، والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك . ونبهوا أيضاً بالمناداة فى أول رمضان (٦ من فبراير ١٧٩٩) بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا ، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ، ولا يشربون الدخان ولا شيئاً من ذلك بمرأى منهم ، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية . . .» (٢) .

خامسا : تدخل الحكومة فى مسائل اعتبرها المصريون مسائل شخصية :

وازداد سخط سكان القاهرة على الحكم الفرنسى ، حين اتخذ الفرنسيون تدابير صحية وقائية لمنع انتشار الطاعون ، وغيره من الأوبئة فى مدينة القاهرة بالذات ، نظراً لكثافة السكان بها نسبياً عن سائر مدن مصر ، فأمروا القاهريين بأن ينشروا ثيابهم وأمتعتهم وفرشهم على سطوح المنازل ، وتعريضها للشمس والهواء طوال النهار يومياً ، وتبخير البيوت ، وعزل المصابين بأى مرض وبائى عن الأصحاء ، والإبلاغ عن كل مريض ، كى ترسل السلطات الفرنسية طبيباً لفحصه ، خشية أن يكون مصاباً بالطاعون . واهتمت هذه

---

(١) Nepoléon Ier; Guerre d'Orient. etc. op. cit., t. II p. 182.

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

السلطات اهتماماً زائداً بتنفيذ هذه الإجراءات الوقائية ، وعهدت إلى مشايخ الحارات ، وعدد من السيدات بالمرور على المنـــازل ، للتأكد من تنفيذ التعليمات الصحية . وكانت السيدات يصعدن إلى دور الحريم لهذا الغرض ، كما صدرت الأوامر بمنع دفن الموتى فى المقابر القائمة فى أحواش المساكن ، أو القريبة منها . وكانت توجد مقابر فى الأزبكية والرويعى وغيرهما ، فمنع الفرنسيون الدفن بها ، وأمروا باستخدام المدافـــن الموجودة فى أطراف العاصمة . أما العائلات التى ليست لها مدافن ، فسمح لها بأن تدفن موتاها فى مدافن المماليك ، كما طلب من القاهريين تعميق القبور ، بحيث لايكون القبر قريباً من سطح الأرض . وصدرت الأوامر لأهـــل القاهرة بكنس الشوارع ورشها ، ومداومة تنظيفها من القمامة والقاذورات ، وقد نظر المصريون شذراً إلى هذه الأوامر واعتبروا صدورها فضولا لايطاق من السلطات الفرنسية ، وتدخلا منها فيما لايعنيها ، لأنهم كانوا يعتبرون مثل هذه الموضوعات مما يدخل فى نطاق المسائل الشخصية يعالجها كل إنسان بأسلوبه الخاص ، وبطريقته الخاصة .

وأمر الفرنسيون بخلع البوابات التى كانت قائمة عند رءوس الشوارع والدروب والحارات النـــافذة إلى طرق ومسالك أخرى ، وكان جنود فرق الهندسة العسكرية هم الذين يقومون بعمليات خلع وتحطيم البوابات ، تحت إشراف الضباط المهندسين . وارتاع أهل القاهرة من هذا الإجراء ، لأن هذه البوابات كانت تغلق يومياً من بعد صلاة العشاء حتى مطلع فجر اليوم التالى . وكان وجودها وغلقها ليلا مبعث طمأنينة فى نفوس السكان ، إذ يكونون بمأمن من اعتداء اللصوص . وانتهز المرجفون فى المدينة فرصة هذا الإجراء ، وأذاعوا أن الفرنسيين يعتزمون مهاجمة البيوت ، وقتل من فيها وقت صلاة

الجمعة ، حين يكون الرجال محتشدين فى المساجد يؤدون شعائر صلاة الجمعة .
وفى شهر سبتمبر ١٧٩٨ مضى الفرنسيون يخلعون البوابات المقامة على المسالك غير النافذة أيضاً . وكانت البوابة الكبيرة تقطع نصفين ، ثم يرفعها العتالون وينقلونها إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب . وزاد هلع الجماهير ، وأغلق التجار حوانيتهم تعبيراً عن احتجاجهم وتذمرهم ،ولكن لم يأبه بونابرت بسخطهم ، واعتقد أن تذمرهم ليس إلا فورة غضب سوف تخبو وشيكاً ، ولكنه كان واهماً فى اعتقاده ، لأن إجراء خلع البوابات ظل عالقاً فى أذهان سكان القاهرة ، فما أن قامت الثورة حتى تحركت الجماهير إلى الدار التى كان يسكنها الجنرال كافاريلى Caffarelli قائد سلاح المهندسين فى الجيش ، باعتباره الضابط الذى كان يتولى الإشراف على تنفيذ خلع البوابات ، واقتحم القاهريون داره ، وقتلوا من كان فيها ، ولم ينقذ هذا الضابط الكبير من الموت فى ذلك اليوم إلا تواجده خارج القاهرة مع بونابرت . ويجمع الباحثون على أن الضرورات الحربية كانت وراء خلع البوابات ، إذ خشى بونابرت أن تعرقل هذه البوابات تحركات وحدات الجيش فى حالة اندلاع ثورة ضد الفرنسيين ، وقد يستخدم الأهالى البوابات بمثابة متاريس يحتمون بها ، وتتضح الأهمية التى كان يعلقها بونابرت على خلع البوابات من كثرة عدد الأوامر التى كان يصدرها تباعاً فى هذا الصدد إلى سلاح المهندسين(١) ، وقد ربط أهل القاهرة فى أذهانهم بين خلع البوابات وتحطيمها ، وبين تسليح القلعة

---

(١) انظر على سبيل المثال الوثائق الآتية :

الوثيقة رقم ٢٩٤٥ — أمر من بونابرت إلى الجنرال كافاريلى ، مؤرخ فى ١٦ من ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٣ أغسطس ١٧٩٨) .

الوثيقة رقم ٢٩٥٦ — أمر من بونابرت إلى الجنرال دومارتا Dommartin مؤرخ —

الذى كان قائماً على قدم وساق قبيـل نشوب الثورة ، كماسنرى فى موطن قادم .

سادسا : إعدام السيد محمد كريم :

ومن التصرفات التى أثارت المسلمين بوجه خاص على الحكم الفرنسى إعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطنى رمياً بالرصاص فى الرميلة بالقاهرة ، فى السادس من سبتمبر ١٧٩٨ ، ثم أقدم الفرنسيون على قطع رأسه وأمروا برفعها على نبوت ، وطافوا بها فى شوارع القاهرة ، والمنادى يقول : « هذا جزاء من يخالف الفرنسيس » . وقد اعتبر سكان القاهرة هذا العمل من جانب الفرنسيين تمثيلا بجثمان رجل من الأشراف(١) .

ثامنا : القروض الإجبارية :

وأسرف بونابرت فى فرض قروض إجبارية على سكان القاهرة من

= فى ١٦ من ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٣ من أغسطس ١٧٩٨).

الوثيقة رقم ٢٩٥٧ — أمر من بونابرت إلى الجنرال ديبوى Dupuy فى ذات التاريخ السابق .

الوثيقة رقم ٢٩٧٨ — أمر من بونابرت إلى الجنرال كافاريلى مؤرخ فى ٢٨ من ترميدور من السنة السادسة التقويم الجمهورى (٥ من أغسطس ١٧٩٨) .

وهذه الوثائق مذكورة فى المجلد الرابع من :

« Correspondance de Napoléon.

(١) انظر على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام الآتية :

٢٨٨٥ ، ٢٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ٣٠٢٥ ، ٣٢٤٧ ، ٣٢٤٨ فى المجلد الرابع من المصدر السابق وكل هذه الوثائق خاصة بإعدام السيد محمد كريم .

وانظر أيضاً :

جريدة Courrier de l'Egypte ، العدد الرابع الصادر فى ٢٤ من شهر فركتيدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (١٠ من سبتمبر ١٧٩٨) وقد أذيع فى هذا العدد نبأ إعدامه ، وأسباب الإعدام ، والطواف برأسه فى شوارع القاهرة .

التجار والصناع والحرفيين ومن إليهم ، وكانوا يلتمسون تخفيض قيمتها ، ولكنهم لم يجدوا استجابة لالتماساتهم المكرورة ، وعمد بونابرت بعد ذلك إلى مصادرة الممتلكات ، وابتزاز الأموال من نساء البكوات المماليك ، ولم تكن هذه الإجراءات المالية التعسفية ، أو معظمها بعبارة أدق ، أمراً جديداً ، بالنسبة لمجتمع القاهرة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حين كان الأمراء المماليك يملأون القاهرة ظلماً وعدواناً ونهباً واغتصاباً .

ويمكن أن يضاف إلى أسباب التذمر تعرض التجارة للكساد ، بسبب توقف قدوم القوافل التجارية من شمالى إفريقية ومن السودان ، وتعطل التجارة الخارجية البحرية استيراداً وتصديراً ، على الرغم من أن حجم هذه التجارة الخارجية كان ضئيلا نسبياً ، إلا أنها كان لها دور فى الاقتصاد المصرى فى ذلك الوقت .

ولم تكن جميع هذه الأسباب تبرر اندلاع ثورة عارمة كالتى قادها الأزهريون فى صباح ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨ ، إن كل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد إن تلك الأسباب قد أضافت مزيداً إلى رصيد النفور الذى شعر به المصريون من الحكم الفرنسى ، ثم جاءت تشريعات مالية استحدثها الفرنسيون واستغلها رجال الأزهر ، لتحريك ثورة كانوا يعدون لها من قبل .

تاسعا : التشريعات المالية :

كان بونابرت قد عهد إلى أحد رجال الاقتصاد الفرنسيين وهو بوسيلج Poussielgue تدبير موارد جديدة للمالية المصرية ، لمواجهة نفقات الإدارة والحكم والحرب ، وكان بوسيلج يشغل منصب مدير الشئون المالية لجيش الشرق ، ويسميه الجبرتى تارة «بوسليك المعروف بمدير الحدود» ، وهو

عبارة عن الروزنامجي (١) » ، ويسميه تارة أخرى« بوسايك رئيس الكتّاب ومدير الحـــدود(٢) » ، وتارة ثالثة « مدبر الجمهور(٣) » . أما المعلم نقولا ترك فيطلق عليه « بوسلج مدبّر الحدود فى مشيخة الفرنساوية(٤) » ، وقد تفتق ذهن هذا الفرنسى عن وضع عدة مشروعات مالية ، منهـــا ما يتصل بفرض ضرائب جديدة على التركات والعقارات والهبـــات والمبايعات

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

والروزنامجى هو المدير العام لديوان الروزنامه ، وكانت مهمة هذا الديوان إبان الحكم العثمانى جمع الأموال الأميرية ، وصرفها فى وجوهها المقررة ، تحت إشراف الديوان الدفترى .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .

(٤) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فييت ، ص ٦٥ ، ويلاحظ أن نقولا ترك يذكره فى مواضع كثيرة بحرف الكاف ، فيقول بوسلك (ص ٦٧) .

ويلاحظ الخلط الذى وقع فى كتاب الجبرتى ، فأحياناً (ص ٢٨) تظهر عبارة « مديرالحدود » بحرف الياء فى كلمة (مدير) . وأحياناً أخرى (ص ٩٠) تظهر بحرف الباء . أما نقولا ترك فيذكره دائماً « مدبر الحدود » بحرف الباء . ونجم عن هذا الخلط أن ظهرت هذه العبارة فى المراجع الفرنسية تارة بمعنى مدير الحدود Directeur des Frontières

أو

Commissaire pour la délimitation des frontières.

انظر :

Desgranges ; Histoire de l'Expédition des Français en Egypte par Nakoula – el – Turk, Paris, 1839, p. 140, et. pp. 150 – 151.

وظهرت تارة أخرى بمعنى مدبر الحدود « Régulateur des Limites. »

Deny ; op. cit., pp. 137 – 138.

والإشهادات ، وعلى السفر من مكان إلى آخر ، وتسجيل المواليد ، وكان يطلق على العملية الأخيرة : « إثبات الحياة » ، وتسجيل عقود الملكية ، والمؤاجرات وما إلى ذلك ، ولكى يضفى على التشريعات المالية الجديدة صفة شرعية جمع بونابرت فى العاصمة منذ الأسبوع الأول من أكتوبر ١٧٩٨ مجلساً أطلق عليه الديوان العام ، أو « الديوان العمومى » ، ضم علماء وأعيان القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط « وبقية البنادر » ، وعرض عليهم مشروعات هذه القوانين ومسائل أخرى . ونجح فى استصدار موافقة الديوان العام على هذه التشريعات ، قبل أن يفض جلساته فى العشرين من أكتوبر .

* * *

الفصل السابع عشر

« اندلاع ثورة الأزهر »

عرض سريع لأحداث الثورة

تكوين مجلس الثورة :

ذكرنا أن بعض علماء الأزهر رأوا ضرورة القيام على الفرنسيين ، وكان المنشور الذى وجهه السلطان العثمانى — سلطان المسلمين — إلى الشعب المصرى بإعلان الجهاد الدينى ضد الفرنسيين ، وكذلك رسائل الجزار باشا وإبراهيم بك ومن إليهم ، بمثابة خطة عمل لعلماء الأزهر ، فتكونت فى الجامع الأزهر ، وفى وقت مبكر على صدور التشريعات المالية ، لجنة للإعداد لثورة على الحكم الفرنسى وقيادته ، أطلق بونابرت عليها حيناً « مجلس الثوار (١) » Le Conseil de Revoltés وحيناً آخر « ديوان المتمردين » (٢) . Le Divan des Insurgés ، وحيناً ثالثاً « ديوان الدفاع (٣) » Le Divan de Défense ، كما أطلق عليها بعض الفرنسيين اسماً رابعاً هو « اللجنة المتآمرة (٤) » Le Comité Conspirateur ، وكان يرأس هذه اللجنة أحد علماء الأزهر المرموقين ، وهو الشيخ محمد السادات ، ولقبه « الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن

---

(١) انظر التقرير الذى وضعه بونابرت عن ثورة أكتوبر ، ورفعه إلى حكومة الديركتوار Napoléon Ier, Guerre d'Orient etc., op. cit. t. I. pp. 369 — 371.

(٢) Op. cit, p. 250.

(٣) Loc. cit.

(٤) Reybaud Louis et autres. op. cit. t. IV. p. 139.

المعروف بابن عارفين سبط بنى الوفاء » . وكان يجمع بين شرف المحتد ومجد العلم . تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم على عهد على بك الكبير ، أما أعضاء مجالس الثورة فكانوا من علماء الأزهر من غير أعضاء الديوان وأئمة المساجد وبعض المغـــاربة . وقدر بونابرت عدد أعضاء اللجنة بما يقرب من المائة . ويبدو أن بونابرت كان مبالغاً فى هذا التقدير ، لأن التشكيلات الثـــورية تكون فى العادة محصورة فى نطاق ضيق ، وخصوصاً فى مرحلة الإعداد للثورة . وأخذت اللجنة تخطط للثورة ، وتدرس الوسائل اللازمة لتحريك الثورة ، واختيـــار الوقت المناسب لإشعالها ، وشراء الأسلحة وإيداعها فى أماكن بعيدة عن عيون الفرنسيين وعملائهم .

وقد وضع مجلس الثورة فى تخطيطه لها الاعتماد على التكوين الحرفى لمجتمع القاهرة فى ذلك الوقت ، فقد كان من سمات المجتمع المصرى وجود طوائف الحرف guilds . وكان شيخ كل طائفة يمارس سلطات واسعة فنية وإدارية وتأديبية على أفراد طائفته . وكان علماء الأزهر على صلات وثيقة بشيوخ الطوائف(١) ، ومن المظاهر المألوفة فى حياة المجتمع القاهرى أن شيوخ بعض الطوائف كانوا يتخذون من المساجد

---

(١) كان علماء الأزهر فى العصر العثمانى يعتمدون على شيوخ الطوائف إذا أرادوا تحريك ثورة شعبية عارمة ضد أمير مملوكى ظلوم ، وكان شيخ الطائفة يحرص الحرص كله على أن يشهد عدد من كبار علماء الأزهر الاحتفالات التى تقيمها طائفته فى شتى المناسبات ، وبخاصة تلك التى تشبه الاحتفالات التى تقام فى الوقت الحاضر ، ويطلق عليها حفلات التخرج . فكانت تقام احتفالات عندما يرتقى « عريف » إلى مرتبة « معلم » ، يصبح له الحق فى مزاولة مهنته أو حرفته فى محل مستقل . وكان أحد كبار علماء الأزهر يخطب فى مثل هذا الحفل ، كما كانت « الإجازة » التى تعطى «للمعلم» الجديد من صياغة أحد علماء الأزهر ، وكان يغلب عليها الطابع الدينى ، وذكر بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية .

مكاناً مختاراً ، يمارسون فيه اختصاصاتهم العديدة المتشعبة (١)، وفى القرن الثامن عشر حدث تلاحم شديد بين رؤساء ثلاث هيئات : علماءالأزهر، وشيوخ طوائف التجـــار والحرف ، وأرباب الطرق الصوفية (٢) . وكان هذا التلاحم نتيجة طبيعية لتدهور نظم الحكم العثمانى من جهة ، وللمظالم التى انهالت على الجماهير الكادحة من جهة أخرى .وكان الجامع الأزهرهو ملتقى هذه القيادات . وفى ظل هذه الأوضاع حدثتاتصالات مسبقة بين مجلسالثورة وبين شيوخ الطوائف كى يصدر كلشيخ التعليمات إلى أفراد طائفته ، إما بإغلاق محلاتهم عند صدور أول إشارة ، وإما بالامتناع عن العمل إذا لم يكونوا من أصحاب المحلات ، وأن يكون الجامع الأزهر هو مكان التجمع .

ولجأ مجلس الثورة إلى تعبئة الشعور الدينى ضـــد الفرنسيين ، وكان مؤذنو المساجد من بين الذين اعتمد عليهم المجلس فى هذا المجال ، وأخذ المؤذنون يحرضون الشعب علىالقيـــام على الفرنسيين ، من منارات المساجد خمس مرات فى اليوم مع آذان الصلاة ، فكانت الدعوة إلى الصلاة والدعوة إلى الشـــورة تختلطان علناً فى أسماع سكان القاهرة .

---

(١) Ibrahim Salama Dr. , L'Enseignement Islamique en Egypte. Le Caire, 1939, p. 217.

وانظر أيضاً بحث «de Chabrol» الذى سبقت الإشارة إليه فى هذه الدراسة .

(٢) انظر البحث الذى تقدمت به الدكتورة عفاف لطفى السيد إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديث الذى عقد فى لندن فى أبريل ١٩٦٥ ، وكان عنوان بحثها :

The Role of the « Ulama» in Egypt during the early nineteenth century.

وانظر على وجه الخصوص الجزء الذى جاء فى بحثها عن مصر فى العصر العثمانى المملوكى ، بعنوان : «Mamluk Egypt» .

وقد نشر بحثها فى مجلد أبحاث المؤتمر :

Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic; edited by Holt P.M. London 1968, pp. 264 — 280.

ويقول بونابرت فى مذكراته فى هذا الصدد : « إنه من فوق أربعمائة منارة من مساجد القاهرة كانت تنطلق أصـــوات المؤذنين تطلب من المسلمين القيـــام على الفرنسيين ، وكان المؤذنون يصفونهم تارة بأنهم أعداء الله ، وتارة أخرى بأنهم غير مؤمنين ، وتارة ثالثة بأنهم كفرة(١)» واعتمد المجلس أيضاً على أئمة المساجد والقرّاء فيها فى إلهاب المشاعر الدينية لدى الجماهير . كانت خطب الجمعة التى تلقى فى المساجد تدور حول ضرورة الجهاد الدينى ، وكذلك كانت تختار الآيات القرآنية التى يرد فيها ذكر الجهاد ، ليتلوها قراء المساجد ، سواء قبل صلاة الجمعة أو يومياً ، قبل أداء صلاة العصر .

وكانت حرب الشائعات من الوسائل التى لجأ إليها مجلس الثورة ، لإثارة نفوس المصريين ، تمهيـــداً لإشعال الثورة فى الوقت المناسب ، وتحريكها جارفة هادرة ، فأذاع أنباء غير صحيحة ، كان بعضها أنباء دينية مثيرة ، تتلخص فى أن بونابرت قرر تنصير جميع المسلمين من سكان القاهرة ، وأنه يعتزم استخدام العنف ضد أى فرد تحدثه نفسه بالاستمساك بالدين الإسلامى . وكان الهدف من إذاعة هـــذا النوع من الشائعات هو شحن عواطف المصريين الدينية وإشعارهم أن هناك أخطاراً تتهددهم فى عقيدتهم ، مما يحتم عليهم التصدى للفرنسيين . وكان البعض الآخر من الأنباء التى روج لها مجلس الثورة ذا طابع عسكرى ، فأذاع أن الأمير مراد بك رد الفرنسيين فى الصعيد على أعقابهم إلى الجيزة ، وأن الجزار باشا قد عين قائداً عاماً للجيش العثمانى الزاحف على مصر من بلاد الشام ، وأنه وصل فعلا ومعه الأمير إبراهيم بك إلى بلبيس ، عاصمة مديرية الشرقية فى ذلك الوقت ، وأن جيشاً عثمانياً آخر سوف

---

(١) Napoléon Ier., Guerre d'Orient etc., op. cit., t. I. p. 251.

ينزل إلى الشواطىء المصرية . وكان الهدف من إطلاق هذا النوع من الشائعات هو تأكيـــد المعانى التى استقرت فى أذهان الشعب المصرى عن ضعف القوات الفرنسية بعد معركة أبى قير البحرية ، وانقطاع الاتصال بين الحملة وفرنسا ، ونقص عدد أفراد الجيش يوماً بعد يوم ، ثم تشجيع الجماهير على انتهاز هذه الفرصة التى يحيق فيهـا الخطر من كل جانب بالقوات الفرنسية كى يقوموا على الفرنسيين . وأضاف مجلس الثورة إلى هذه الشائعات شائعة أخرى هى أن الفرنسيين يستعدون للنجاة بأنفسهم ، وأنهم هدموا أبواب الأزقة ، تمهيداً لنهب البيوت عند رحيلهم .

وكان من بين حرب الشائعات التى لجأ إليها مجلس الثورة ، تشويه سمعة أعضاء الديوان . فأثار دعاة الثورة جــواً من الظنون والشكوك حول أعضاء الديوان ، وصوروهم أمام الشعب بمظهر الخونة المارقين ، المتعاونين مع الفرنسيين . وكان الهدف من هـــذه الشائعة الإساءة إلى مراكزهم بصفتهم الدينية والشعبية ، فلا يستمع شعب القاهرة إلى نصيحة من المشايخ علماء الأزهر أعضاء الديوان بالإخلاد إلى السكينة . وقد نجحت هذه الوسيلة ، إذ أخــذ الشعب ينظر شذراً إلى أعضاء الديوان ، واهتزت صورتهم فى ذهنه . ويقول بونابرت فى مذكراته إن مجلس الثورة تولى تنظيم الثوار ، وتوزيع العمل الثورى عليهم ، وأخرج الأسلحة من مخابئها ، ولم يغادر هذا المجلس صغيرة ولا كبيرة من المسائل التى تكفل نجاح الثورة إلا ناقشها و نظمها (١) .

وأراد الفرنسيون الرد على هذه الشائعات ، بعد أن استفحل أمرها ،

---

(١) انظر بخصوص حرب الشائعات كلا من :

Napoléon Ier, Guerre d'Orient. op. cit. t. I. pp. 244–245.

Reybaud Louis et autres, op. cit., t. IV. pp. 139–140.

وتناقلها الخاص والعام ، فأصدروا منشوراً وجهوه إلى سكان القاهرة كذبوا فيه تكذيباً قاطعاً الأنباء التى تداولتها الألسنة ، وقالوا إن مجئ أحمد باشا الجزار واجتيازه الصحراء أمر من نسج الخيال ، ما نزع البوابات فأمر يخضع للوائح الشرطة ، وأما تسليح القلعة فليس إلا استكمالا لمنشآت عسكرية . وعمد الفرنسيون فى منشورهم إلى تهديد سكان القاهرة بتذكيرهم بما حدث فى معركة إمبابة من سحق قوات المماليك . ويقرر بونابرت أن هذا المنشور جاء بنتيجة عكسية ، لأن دعاة الثورة أذاعوا أن الفرنسيين خائفون ، فازداد سكان القاهرة ثقة بأنفسهم وعداء للفرنسيين ، واستخفافاً بهم (١) .

مجلس الثورة يحدد ساعة الصفر :

وفى مساء السبت ٢٠ أكتوبر اجتمع فى الجامع الأزهر ثلاثون من أعضاء مجلس الثورة ، وعدد من رسل المماليك ، ولم يكن اجتماعهم ليثير شكوك الفرنسيين ، لأن الاجتماع يتم فى المسجد ، وتقام فيه شعائر الصلاة بانتظام ، والفترة التى اجتمعوا فيها تقع بين موعد صلاة المغرب وموعد صلاة العشاء ، وهى لاتزيد عن ساعة ونصف ساعة ، وكثير من المسلمين يفضلون البقاء فى المسجد بعد أداء صلاة المغرب ، انتظاراً لحلول موعد صلاة العشاء ، فيؤدونها قبل أن يعودوا إلى بيوتهم . واستقر رأى المجتمعين على إشعال الثورة فى صباح الأحد ٢١ أكتوبر ، وأن يكون أول مظهر لها إغلاق الحوانيت ، ودعوة التجار والصناع والحرفيين وغيرهم إلى التوجه فى هذا الوقت المحدد إلى الجامع الأزهر ، حيث تبدأ المسيرة الشعبية إلى القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية ، بحجة التظلم من فرض النظام الضريبى الجديد الذى صدرت به التشريعات المالية فى اليوم السابق (٢٠ أكتوبر) ، وقد وضع

(١) Napoléon Ier. Guerre d'Orient. etc. op. cit., t. I. p. 251.

أعضاء مجلس الثورة فى حسابهم أن يكون اجتماع هذه الحشود ومسيرتها فى شوارع القاهرة ، مقدمة لإحداث الشغب ، والإخلال بالأمن ، مما يتيح الجو المناسب لإشعال الثورة . وعلى هذا النحو اتخذ دعاةالثورة من التشريعات المالية شرارة أوقدوا بها ثورة عارمة ، كانت بواعثها الدينية قد اختمرت فى نفوس سكان القاهرة . وحولتها إلى عداء دينى متأجج ضد الحكم الفرنسى . ويلاحظ أن العوامل المشجعة ، والعوامل المساعدة ، التى سبق أن استعرضنا طرفاً منها ، يجب ألا تحجب حقيقة ثورة القاهرة فى أكتوبر ١٧٩٨ ، فهى فى لحمتها وسداها ثورة دينية ، انبثقت عن سبب رئيسى دينى ، وسنعود لمناقشة الطابع الدينى لهذه الثورة فى موطن قادم من هذه الدراسة .

ـ أربع حقائق عن بداية الثورة :

وهناك عدة حقائق تفرض نفسها فرضاً فى هذا الموقف ، نذكر منها :

أولا : إن التلاحق السريع بين إقرار التشريعات المالية فى ٢٠ أكتوبر وبين اندلاع الثورة فى صباح ٢١ أكتوبر ، دليل على أن مجلس الثورة كان يعد لها فى داخل الأزهر التدابير منذ زمن سابق على صدور التشريعات المالية ، وأن غالبية سكان القاهرة المسلمين كانوا على علم مسبق بأمر الثورة ، ومن ثم كانت الاستجابة السريعة لأول نداء دينى يذاع فى شوارع القاهرة بتحديد بدء الجهاد ضد الفرنسيين ، والانتصار لدين الإسلام . يقول نقولا ترك : « وكان أغلب أهل البلد معهم ألاس بذلك (١) ....ففى الحين والساعة قفلت البلد » (٢) .

---

(١) ترجم الأستاذ فيت كلمة « ألاس » على هذا النحو :

La plupart des habitants étaient au courant.''

كان غالبية السكان على علم بها ، أى بالثورة .

p. 43 (trad. fr.).

(٢) مذكرات نقولا ترك : النص العربى ، ص ٢٨ .

ثانيا : إن الاتصالات المسبقة بين بعض أعضاء المجلس وبين شيوخ الطوائف ،جاءت بالنتيجة المرتجاة، فقد كان الأزهر يموج بالحشود الشعبية فى ساعة الصفر .

ثالثاً : إن التشريعات المالية لم تمس إلا مصالح الموسرين من أهل القاهرة، وهؤلاء لم يسهموا إسهاما فعلا فى وقائع الثورة ، أما العامة والسوقة — أو الحرافيش — بمصطلح ذلك العصر — والذين كانوا وقود الثورة، فلم تلحق التشريعات المالية بهم أضراراً تذكر .

رابعاً : إن الثوار لم يصبوا جام غضبهم فى أثناء ثورتهم على أعضاء « الديوان العمومى » الذين أقروا مشروعات القوانين المالية ، بل اتجه نشاطهم الثورى ضد الفرنسيين ، وبعض الأجانب المستوطنين فى مصر ممن انضموا صراحة إلى الفرنسيين .

كان الفرنسيون يتوقعون قيام القاهرة بالثورة :

يقرر بعض الباحثين أن الفرنسيين لم يتوقعوا نشوب ثورة فى القاهرة ، ويستند هذا الفريق من الباحثين إلى واقعتين : أولاهما أن بونابرت غادر القاهرة فى الصباح المبكر من يوم الأحد الحادى والعشرين من أكتوبر ، وذهب فى صحبة جماعة من كبار قادة الجيش إلى جزيرة الروضة ، وتفقد ترسانة الجيزة ، وأنه لو كان يتوقع قيام الثورة ،لظل فى القاهرة، وثانيتهما أن الجنرال ديبوى Dupuy الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة استخف بالثورة عند نشوبها ، وانتقل إلى مكان الاضطرابات الشعبية ، دون أن ترافقه قوة عسكرية كافية ، فكان أن لقى مصرعه فى أول مواجهة مع الثورة :

والواقع أن الفرنسيين كان يتوقعون من يوم لآخر اندلاع الثورة فى

القاهرة ، ولكنهم كانوا يجهلون ساعة الصفر ، أى لم يكونوا يعلمون توقيت قيامها . والأدلة على ذلك التوقع متوفرة ، نستقيها من الأوامر الرسمية التى أصدرها بونابرت تباعاً قبل نشوب الثور ، ومن مذكراته ، ومن يوميات الجبرتى ، ومن كتابات المؤرخين المعاصرين لأحداث الثورة . ويفهم من هذه المصادر العديدة أن السلطات الفرنسية قد اتخذت تدابير أمن مشددة ، وإجراءات عسكرية ، وأخرى مدنية وقائية ، وكان اتخاذ هذه الإجراءات دليلا على شعور الفرنسيين بأن نذر الثورة تتجمع فى سماء القاهرة ، واتسم بعض هذه التدابير بطابع العنف الذى وصل إلى حد إزهاق الأرواح .

أصدر بونابرت قبيل نشوب ثورة القاهرة أوامر بتسليح القاهرة بصفة عامة ، وقلعة الجبل بصفة خاصة . وإن مما يلفت نظر الباحث كثرة عدد هذه الأوامر وتلاحقها . وكان من بين هذه الأوامر أمر مؤرخ فى الخامس من أغسطس ١٧٩٨ إلى الجنرال كافاريلى قائد سلاح المهندسين بتسليح القلعة(١) ، وأمر مؤرخ فى السابع والعشرين من سبتمبر إلى الجنرال برتيه رئيس أركان حرب الجيش يطلب منه موافاته بمعلومات عن القلعة وتسليحها(٢) ، وأمر مؤرخ فى الثامن والعشرين من سبتمبر إلى كافاريلى بأن يكون فى القلعة خمسمائة رجل بصفة دائمة ، يخصصون لأعمال التحصينات(٣) ، وأمر مؤرخ فى التاسع من أكتوبر بإنشاء بطارية مدفعية فى جزيرة الروضة(٤) ، وأمر

---

(١) وثيقة رقم ٢٩٧٨ - بتاريخ ١٨ من شهر ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى ، فى Correspondance de Napoléon. t. Iv.

(٢) وثيقة رقم ٣٣٩١ - بتاريخ ٦ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى الجزء الخامس من المصدر السابق .

(٣) وثيقة رقم ٣٣٩٤ - بتاريخ ٧ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى الجزء الخامس من المصدر السابق .

(٤) وثيقة رقم ٣٤٤٥ - بتاريخ ١٨ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى الجزء الخامس من المصدر السابق .

ومما يذكر أن بونابرت أصدر أمراً بتاريخ ١٨ فانديمير من السنة السابعة (٩ من أكتوبر ١٧٩٨) إلى بوسيلج « Poussielgue » بأن تكون كل جزيرة الروضة ملكاً للجمهورية -

مؤرخ فى الثانى عشر من أكتوبر إلى كافاريلى بضرورة الإسراع فى أعمال التحصينات فى مدينة القاهرة حتى يمكن الفراغ من هذه الأعمال فى أسرع وقت(١) ، وفى المذكرات التى أملاها بونابرت فى منفاه بجزيزة سانت هيلانة قرر أن الفرنسيين اشتغلوا ليلا ونهاراً فى أعمال التحصينات ، وهدموا عدداً كبيراً من المنازل ومسجداً ، وأقاموا مكانه بطارية مدفعية(٢) .

والدراسة الدقيقة للأحداث التى كتبها الجبرتى ، وهو يسجل يوميات شهر ربيع الآخر سنة ١٢١٣ تكشف عن تدابير الأمن والإجراءات العسكرية التى اتخذها الفرنسيون فى خلال هذا الشهر الذى انتهى قبل نشوب الثورة بعشرة أيام (١٢ سبتمبر — ١٠ أكتوبر ١٧٩٨) ، وكان هذا الشهر حافلا بالأحداث حتى كادت تضيع فى زحمتها تلك التدابير والإجراءات ، ونستخلص من دراستنا ليوميات الجبرتى أربعة مظاهر :

(أ) اتجاه الفرنسيين إلى ترحيل المغاربة من مصر :

استشعر الفرنسيون الخطر من وجود عناصر إسلامية غير مصرية فى مدينة القاهرة ، واتجهت أنظارهم إلى المغاربة ، واستقر رأى السلطات الفرنسية على أنهم عنصر غير مرغوب فى تواجده ، فطلبت من المغاربة فى منتصف شهر ربيع آخر ١٢١٣ (حوالى ٢٦ سبتمبر ١٧٩٨) مغادرة الديار المصرية كلية ، وأمهلتهم ثلاثة أيام للرحيل ، ثم مدت لهم المهلة أربعاً وعشرين ساعة . وذهب

—الفرنسية ، وأن يستولى على جميع الدور والمبانى القائمة بها ، وأن يقيم منشآت عسكرية فى الجزيرة .

نظـــر :

الوثيقة رقم ٣٤٥٠ — فى الجزء الخامس من المصدر السابق .

(١) وثيقة رقم ٣٤٥٥ بتاريخ ٢١ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى الجزء الخامس من المصدر السابق .

(٢) Napoléon Ier. Guerre d'Orient. et, op. cit, t. I, p. 245.

وفد من المغاربة إلى بونابرت ، وشرحوا له تعذر رحيلهم ، لأن الطريق البحرى مغلق بسبب الحصار الذى فرضه الأسطول البريطانى على سواحل مصر ، وأما الطريق البرى فقد وقفت فيه حركة سفر القوافل التى تسير على الشريط الساحلى ، وأضافوا إلى ذلك أنه يتعذر عليهم الرحيل من القاهرة ، والإقامة فى الإسكندرية لارتفاع أسعار المعيشة فيها نسبياً عن مثيلاتها بالقاهرة وعدم توفر ماء الشرب فيها . وقد صرف بونابرت النظر عن ترحيلهم(١) .

(ب) إخراج سكان القلعة :

أخرج الفرنسيون سكان القلعة من منازلهم ، وأنزلوهم إلى المدينة ، وأخذ هؤلاء السكان يبحثون عن مساكن لهم ، بينما شرع الفرنسيون فى إقامة تحصينات عسكرية فى القلعة ؛ وأقاموا فيها مدفعية ثقيلة . يقول الجبرتى : إن الفرنسيين « أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم ، والنزول إلى المدينة ، ليسكنوا بها فنزلوا ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع ، وهدموا بها أبنية كثيرة ، وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار ، وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بدنات (٢) باب العزب (٣) بالرميلة ، وغيروا معالمها ، وأبدلوا محاسنها ، ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين ، وآثار الحكماء والعظماء » (٤) .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٩ .

(٢) بدنات : معناها جوانب ، أو حواف ، أو كتل حجرية .

(٣) باب العزب موجود بقلعة الجبل ، وهو يطل على ميدان صلاح الدين ، وكان يعرف باسم باب « السلسلة » أو « باب الاصطبل » ، وله بدنتان ضخمتان ، وقد جدده الأمير رضوان كتخدا الجلفى سنة ١٧٤٧ ، ثم أقيم الممر الذى أمامه سنة ١٨٦٨ ، والداخل منه يقابله مسجد أحمد كتخدا عزبان .

انظـــر :

دكتور عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٢٢ .

(٤) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(ج) قتل رسل المماليك :

لاحظ الفرنسيون أن الاتصالات قد نشطت بين رجال الدولة العثمانية فى بلاد الشام وبين رجال الأزهر ، فقبضوا على اثنين من الرسل الذين يعملون فى نقل المكاتبات ، وأمروا بإعدامهما ، وبأن يطاف برأسيهما فى شوارع القاهرة ، مهددين متوعدين كل من تسول له نفسه إحضار مكاتبات من الخارج ، أو نقل الردود عليها . يقول الجبرتى فى سياق استعراضه لأحداث ذلك الشهر إن الفرنسيين « قتلوا شخصين وطافوا برءوسهما ، وهم ينادون عليهما ويقولون : هذا جزاء من يأتى بمكاتيب من عند المماليك ، ويذهب إليهم بمكاتيب » (١) .

(د) الأمر بعدم استضافة الأغراب :

أصدر الفرنسيون أوامر إلى سكان القاهرة بألا يستضيفوا فى منازلهم أحداً من « الأغراب » ، وبمقتضى هذه الأوامر أيضاً كان على القاهريين أن يخطروا أغات مستحفظان — أى محافظ القاهرة — بأسماء الراغبين فى السفر على ألا يسمح لأحد بالرحيل بدون حصوله على إذن من المحافظ (٢) .

الفرنسيون يجهلون ساعة الصفر :

وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا يتوقعون نشوب ثورة فى القاهرة ، وكانت بعض مدن الوجه البحرى قد سبقت القاهرة فى القيام على الفرنسيين ، فإنهم كانوا يجهلون تماماً ساعة الصفر . وكان جهلهم بها دليلا على براعة أعضاء مجلس الثورة ، فإنهم أخفوا التخطيط والتوقيت للثورة ، ولم يبيحوا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١ ، وفى الأوامر الصادرة عن بونابرت نجد أمراً مؤرخاً فى ٢٧ من سبتمبر ١٧٩٨ إلى الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى بقطع رأس جاسوسين ، والطواف برأسيهما فى شوارع القاهرة .

وثيقة رقم ٣٣٩٢ بتاريخ ٦ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى :
Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) الجبرتى : ج ٣ ، ص ٢٢ .

للسلطات الفرنسية الفرصة نضرب الثورة فى مهدها ، واعتقال زعمـــائها من أول لحظة ، ولذلك نجحوا فى تجنيب الثورة عوامل الفشل الأولى ، وكم من ثورات لم تر النور بسبب تسرب أخبارها قبل قيامها . كان بونابرت قد غادر القاهرة فى شروق ذلك اليوم إلى الجيزة والروضة ، وصحب معه بعض كبار القـــادة ، وكان من بينهم الجنرال كافاريلى Caffarelli قائد سلاح المهندسين ، والكولونيل دومارتا Dommartin قائد ســلاح المدفعيـــة ، والكولونيل ديترو‌ا Detroye ، أركان حرب سلاح المهندسين ، وقد قرر بونابرت فى مذكراته أنه ذهب لزيارة ترسانة الجيزة ؛ وأخذت المصادر والمراجع الفرنسية بهذا التفسير ، أو التبرير ، لتغطية موقفه وموقف زملائه .

عرض سريع لأحداث الثورة :

ولنمر مروراً سريعاً على أحداث الثورة التى بدأت وفق التخطيط الذى وضعته لجنة الثورة ، ففى الصباح الباكر من يوم الأحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ انطلق رجال الأزهر — شيوخه وطلابه — فى شوارع منطقة الأزهر يتنادون إلى الثورة ، ويلهبون مشاعر الأهلين بخطبهم الحماسية ، ويدعونهم إلى الجهاد الدينى ضد الفرنسيين ، ويطلبون منهم التجمع فى الجامع الأزهر ، وصعد المؤذنون إلى مآذن المساجد يدعون المسلمين إلى المشاركة فى حماية الدين بالقيام على الفرنسيين (١) ، ووقفت النساء على سطوح المنازل ، وعند طيقان البيوت ؛ يطلقن بأعلى أصواتهن صيحات مدوية ، تعبيراً عن مشاعر الغضب على الفرنسيين ، فكانت أصواتهن تبعث فى سكان القاهرة مزيداً من الرغبة فى التحرك والانضمام

---

(١) يقول «دى لاجونكير» : إن تجمعات الجماهير بدأت فى الساعة السادسة من صباح يوم الأحد ٢١ أكتوبر .

انظـــر :

De La Jonquière; op. cit., t. III, p. 279.

إلى ركب الثوار ، وسرعان ما ظهرت فى أيدى أفراد الشعب الأسلحة التى كانت محجوبة عن الأنظار ، وغدت منطقة الأزهر تموج بحشود شعبية من الثوار ، حاملين مختلف الأسلحة، مثل البنادق والرماح والسيوف والخناجر والنبابيت ، وغيرها . ويصف ريبو هذه الحال فيقول : « سادت الجلبة، واختلطت الأصوات ، وعلت الصيحات . فكان هذا المنظر يبعث الرهبة فى نفوس أشجع الأفراد ، ولم يعد هناك شك فى أن الثورة قد بدأت »(١)، ويمضى فيقول إن الذين احتشدوا فى الجامع الأزهر ، وفى ساحته بلغ عددهم خمسة عشر ألف شخص ، فاض بهم الحماس ، فأقسموا الأيمان على إحراز النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله .

اتجهت جموع من الثوار إلى دار قاضى القضاة العثمانى ، إبراهيم أدهم أفندى (٢) ، وقد وصفه بونابرت بأنه رجل محترم بأخلاقه وصفاته(٣) ؛ ودخل الدار وفد يتكون من عشرين فرداً تقريباً ، وكان على رأس الوفد السيد بدر(٤) المقدسى – يقال إنه رجل شامى الأصل من بيت المقدس(٥) – وطلب أعضاء الوفد من قاضى القضاة مرافقتهم إلى مقر القيادة العامة للجيش

---

(١) Reybaud Louis et autres, op. cit., t. IV. p. 167 .

(٢) يسميه الجبرتى بقمش زاده (ج ٣ ، ص ٤٣) ، وكان يطلق على قاضى القضاة العثمانى فى مصر : قاضى عسكر أفندى .

(٣) انظر التقرير الذى وضعه بونابرت فى ٦ من برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨) من ثورة القاهرة ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا التقرير .

(٤) Reybaud Louis et autres, op. cit., t. IV. P. 156

(٥) أحمد حافظ عوض : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٢ .

الفرنسى لمقابلة بونابرت ، والتظلم من التشريعات المالية ، واستجاب الرجل لرغبتهم ، ولكنه لم يكد يغادر عتبة داره حتى هالته كثرة الحشود الشعبية ، وانطلقت هتافات الجماهير : « إلى بونابرت » ، « ليذهب القاضى إلى بونابرت » ، وأدرك القاضى أن المسألة ليست إبلاغ شكوى إلى بونابرت من تشريعات مالية جائرة ، بل هى أعمق من ذلك بكثير . إنها ثورة هادرة ، وإن مطالبته بالخروج مع الثوار ليست إلا حيلة لضمه إليهم ابتغاء استدراج شتى الطوائف إلى هذه المسيرة الشعبية ، وتحويلها إلى ثورة عارمة ، وإضفاء طابع رسمى عليها ، يكسبها مزيداً من الأهمية ، فعاد إبراهيم أدهم إلى داره وهجم عليه الثوار ورجموه بالحجارة ، وأوسعوه ضرباً مع أفراد أسرته ، وتسللت بعض العناصر من الثوار ، ونهبت داره .

مقتل الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة :

علم الجنرال ديبوى Dupuy الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة بأنباء الحشود الشعبية فى منطقة الأزهر ، فأصدر الأمر إلى الصوات المرابطة فى بركة الفيل ، برفع الاستعداد إلى الدرجة القصوى ، وقرر الانتقال إلى منطقة الاضطرابات ، فتحرك على رأس كتيبة من الفرسان ، واتجه إلى الموسكى ، فى طريقه إلى الغورية ، وأراد أن يعرج على بيت القاضى . وكانت شوارع القاهرة فى القرن الثامن عشر ضيقة قصيرة متعرجة ، وكانت أقرب إلى الأزقة والعطف ، منها إلى الشوارع الفسيحة المستقيمة الطويلة ، التى شاهدت القاهرة بعضاً منها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد سهل على الثوار الإحاطة بالجنرال ديبوى فى مثل هذه الشوارع الضيقة ، وقطعوا الطريق عليه ، وأمطروه هو وفرسانه وابلا من الأحجار . وفى هذا الوقت جاء برتلمى اليونانى — أو فرط الرمان — فى كوكبة من رجاله ، وأطلق عياراً نارياً قتل أحد الثوار ، فازداد هياجهم ، واسترخصوا الموت فى سبيل النيل من الفرنسيين ، وأصابوا الجنرال ديبوى بطعنة رمح فى ثديه الأيسر ، قطعت

شريانه، وأخفقت المحاولات التي بذلها لاري Larrey كبير الجراحين في الجيش لإنقاذ حياته ، ففاضت روحه بعد ثماني دقائق من إصابته (١) .

ومن المسائل التي تلفت نظر الباحث أن بونابرت تجنب أن يذكر اسم برتلمي اليوناني ، وذلك في التقرير الذي وضعه ورفعه إلى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة ، كما تحاشى في ذات التقرير أن يذكر الوظيفة التي كان يشغلها ، وعمد أيضا إلى تبرير فعلة هذا اليوناني القبيح (٢) .

الثوار يهاجمون دار قائد سلاح المهندسين :

انتشر بسرعة نبأ مصرع ديبوي ، وزادت حماسة الثوار ، واعتقدوا أنهم — وقد قتلوا حاكم القاهرة — فقد غدا أمراً ميسوراً قتل سائر القواد والجنود بعد هذا النصر الذي أحرزته الثورة في جولتها الأولى . ولم يكن الجنرال ديبوي

---

(١) كان مقتل الجنرال ديبوي على هذا النحو مدعاة لأن يرميه الجنرال برتيه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي بالرعونة والاندفاع ، دون اتخاذ احتياطات كافية .

انظر خطابين أرسلهما الجنرال برتيه : الأول بتاريخ ٢١ أكتوبر إلى الجنرال مينو في رشيد والثاني بتاريخ ٢٣ أكتوبر إلى الجنرال دجوا « Dugua » في المنصورة .

De La Jonquière, op. cit., t. III, pp. 285 – 286.

(٢) جاء في تقرير بونابرت عن هذه الواقعة ما يلي :

"Un chef de bataillon turc, attaché à la police, qui venait deux cents pas derrière, voyant le tumulte et l'impossibilité de le faire cesser par la douceur, tira un coup de tromblon. La populace devint furieuse."

ومعنى هذه العبارة أن قائد كتيبة تركية ملحق بقوة الشرطة كان يقف على مسافة مائتي خطوة خلف ديبوي ، وأن هذا القائد رأى حوادث الشغب ، واستحال عليه تهدئة الموقف بالحسنى ، فأطلق عياراً نارياً ، الأمر الذي أثار غضب الجماهير ، وجعلها في حالة هياج شديد عاصف .

وواضح من عبارة بونابرت أنه تجنب ذكر اسم برتلمي ، وتحاشى اسم الوظيفة التي كان يشغلها ، وهي كتخدا مستحفظان ، أي وكيل محافظة القاهرة ، ولم يذكر أنه يوناني ، ولم يذكر أن تهوره كان سبباً في ازدياد هياج الشعب ، وقتل الجنرال ديبوي .

هو الضحية الوحيدة ، فقد قرر الكولونيل ديترو أن الثوار قتلوا عدداً كبيراً من الذين كانوا فى كتيبة الجنرال القتيل . ويقول بونابرت إن زعماء الثورة قد عملوا بعد مقتل ديبوى على زيادة إشعال العاطفة الدينية فى نفوس سكان القاهرة، فأطلقوا شائعات تقول إن الفرنسين كشفوا عن وجوههم، وظهروا على حقيقتهم أعداء للإسلام ، وإنهم يذبحون المسلمين ، وصعد المؤذنون مرة أخرى إلى منارات مساجد القاهرة، يطلبون من المسلمين حماية مساجدهم (١) .

كانت جموع الثوار تتمثل إلى ذلك الوقت فى الأزهريين رجال الصف الثانى من المشايخ علماء الأزهر والمجاورين ، وهم طلبة الأزهر ، وأئمة المساجد ومؤذنيها ، والدراويش والطبقات الدنيا من العامة ، ويطلق عليهم الحرافيش، والذعر ، والمغاربة ، ووقف بجانب هؤلاء وأولئك التجار ، والصناع الحرفيون ، ثم انضمت إلى الثوار بعد هذا النصر الأول العناصر الهادئة ، واقتحموا حى الأروا، وقتلوا الرجال، واتجهوا إلى دار الجنرال كافاريلى قائد سلاح المهندسين ،وكان يسكن دار مصطفى كاشف بالدرب الأحمر ،وقدذكره بونابرت فى مذكراته باسم الجنرال دى فالجا (٢)de Falga

---

(١) Napoléon Ier; Guerre d'Orient, etc.; op. cit., t. I. p. 249.

(٢) اسم هذا القائد ماكسيمليان كافاريلى دى فالجا
Maximilien Caffarelli de Falga
وتقع فالجا فى الحوض الأعلى لنهر الجارون ، وهو من أسرة إيطالية نزحت إلى فرنسا على عهد لويس الثالث عشر (١٦١٠ – ١٦٤٣) ويسميه الجبرتى «كفرلى المسمى بأبى خشبة» لأنه جاء إلى مصر بقدم طبيعية واحدة ، وأخرى خشبية بعد أن فقد القدم الأخرى فى حصار ماينز «Mayence» سنة ١٧٩٥ ، وقد قتل فى حصار عكا فى ربيع ١٧٩٩ عن ثلاثة وأربعين عاماً (١٧٥٦–١٧٩٩) .
وقد نعاه بونابرت إلى كليبر وإلى حكومة الإدارة (انظر مراسلات نابليون : ج ٥) .
الوثيقة رقم ٤١١٠ بتاريخ ٨ من شهر فلوريال « Floréal » من السنة السابعة من —

نسبة إلى مسقط رأسه ،وكان سكان القاهرة يمقتون هذا الضابط مقتاً شديداً، لأنه هو الذى باشر هدم بعض المساجد والمقابر ،وانتزاع أبواب الحارات . واقتحم الثوار داره ، ولكنه لم يكن موجوداً بها ، إذ كان قد صحب بونابرت فى ذلك اليوم إلى الجيزة والروضة ، وكان غيابه عن داره سبباً فى نجاته من موت محقق . فأعمل الثوار القتل فى عدد من العلماء كانوا موجودين فى داره ، ويذكر بونابرت أنهم كانوا خمسة أو ستة أشخاص، وأن الثوار علقوا رءوسهم على باب الجامع الأزهر(١). وحطم الثوار الأجهزة العلمية التى وجدوها فى الدار ، فكانت خسارة كبيرة نزلت بالعلم(٢). يقول الجبرتى : « وكان بتلك الدار شىء كثير من آلات الصنائع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية ، والعلوم الرياضية ، وغير ذلك مما هو معدوم النظير ، كل آلة لاقيمة لها عند من يعرف(٣) صنعتها ومنفعتها، فبدد ذلك كله العامة وكسروه قطعاً ، وصعب ذلك على الفرنسيين جداً ، وقاموا مدة طويلة

— التقويم الجمهورى (٢٧ من أبريل ١٧٩٩) . والوثيقة رقم ٤١٢٤ بتاريخ ٢١ من شهر فلوريال (١٠ من مايو ١٧٩٩) على التوالى .

وعلى الرغم من أنه كان موضع تندر جنود الحملة ، لأنه كان ذا قدم خشبية ، إلا أنه كان من أكفأ قواد الحملة ، وأغزرهم علماً ، وأوفرهم نشاطاً .

(١) Napoléon Ier; Guerre d'Orient., etc., op. cit., t. I., p. 249.

وكان من بين القتلى فى دار قائد سلاح المهندسين :

تيفنو « Thevenot » دوفال « Duval » وهما من مهندسى القناطر والجسور .

تستيفيود « Testeviude » كبير المهندسين الجغرافيين ، وكان فى طريقه إلى دار قائد سلاح المهندسين ، فقتله الثوار فى الطريق .

روسل « Roussel » ، مانجا « Mangin » ، دوبريه « Duperrès » رسام .

(٢) انظر تفصيلات عن هجوم الثوار على دار قائد سلاح المهندسين فى :

De La Jonquière op. cit., t. III. pp. 282-283.

(٣) وردت فى النص الأصلى فى كتاب الجبرتى على هذه الصورة ، وهذا خطأ مطبعى ، وصحة العبارة : كل آلة لا قيمة لها عند من لا يعرف صنعتها ومنفعتها .

يفحصون عن تلك الآلات ، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات» ، وقد أسرعت قوة من الجيش الفرنسى من القلعة إلى دار قائد سلاح المهندسين ، وحاصرت الدار ، وأطلقت النار على الثوار المزدحمين بالباب الخارجى ، ثم دخل الجنود الدار «وقتلوا من وجدوه بها من المسلمين ، وكانوا جملة كثيرة ، .... وكان من بين القتلى الشيخ محمد الزهار »(١) .

الثوار يهاجمون الجنود :

وكان عدد من الجنود الفرنسيين يسيرون فى شوارع القاهرة ولا يحملون أسلحة ، وفوجئوا بالثورة ، فنال الثوار منهم منالا عظيما . وكان من عادة الجنود الفرنسيين التجول فى شوارع القاهرة ، دون أن يحملوا معهم سلاحاً . وقد لاحظ اثنان من المعاصرين للحملة هذه الظاهرة ، فقد قرر المعلم نقولا ترك وهو يتكلم عن الفرنسيين فى اليوم الأول للثورة ، أنهم كانوا يتجولون بدون أسلحة فى شوارع القاهرة ، ولم يقفوا على حقيقة الموقف ، لأنهم كانوا يجهلون اللغة العربية ، مما أدى إلى قتل عدد كبير منهم(٢) . أما الجبرتى فقد ذكر أن الفرنسيين منذ أول يوم دخلوا فيه القاهرة « مشوا فى الأسواق بغير سلاح ولا تعديل ، بل صاروا يضاحكون الناس ويشترون مايحتاجون إليه بأغلى ثمن »(٣) ، وكانت هوايتهم المفضلة ركوب الحمير وقضاء ساعات جميلة على ظهورها ، وسوقها سوقاً عنيفاً ، « وهم يغنون ويضحكون ويصيحون ويتمسخرون »(٤) ، حتى قال فيهم الشيخ حسن العطار (٥) الذى عين فيما بعد شيخاً للأزهر :

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣١ .

(٢) نقولا ترك ، ص ٢٩ من النص العربى ، نشر الأستاذ فيت .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٥) كان الشيخ حسن العطار أحد علماء الأزهر ، ولما جاءت الحملة الفرنسية آثر الهجرة إلى الصعيد ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة ، واتصل عن كثب ببعض علماء الحملة —

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم   فى مصرنا بين حمّار وخمّار
وعن قريب لهم فى الشام مهلكة   يضيع لهم فيها آجال أعمـــار

وكان بعض الفرنسيين المدنيين قد أقاموا عدداً من المطاعم والمقاهى ، وأماكن اللهو فى أطراف القاهرة ، فأصبحوا صيداً ثميناً للثوار ، فقتلوهم ، ونهبوا دورهم . وسيطر الثوار على القاهرة ، كلها ، باستثناء ميدان الأزبكية وقعلة الجبل ، وبركة الفيل ، حيث كانت ترابط معظم القوات ، وانقطع الاتصال بين هذه المراكز الرئيسية الثلاثة . وانطلق الثوار يهاجمون دوريات الجنود من كل مكان ، وتركت جثث الفرنسيين فى الشوارع (٣) . وكان الجنود يضطرون فى معظم الأحوال إلى التراجع ، ووزع الثوار أنفسهم إلى مجموعات هاجمت مواقع المخافر الفرنسية ، وفتكوا بحراسها . وازداد الثوار ثقة بأنفسهم ، و غدا مركز الفرنسيين حرجاً للغاية .

استدعاء بونابرت :

أرسل الجنرال جونو Junot رسولا إلى بونابرت يخطره باندلاع الثورة ، فعاد إلى القاهرة مسرعاً ، وأراد أن يدخلها مع رفاقه من ناحية مصر القديمة ، فاستحال عليهم دخولها ، لأن الثوار أمطروهم وابلا من الأحجار ، فاتجهوا إلى بولاق ، ومنها دخلوا القاهرة ، ووصلوا إلى مقر القيادة العامة

= وقدر فيهم تفوقهم العلمى ، وسافر إلى بلاد الشام والأناضول . ولما رجع إلى مصر اشتغل بالتدريس فى الأزهر ، وكانت الحلق التى يتصدرها فى الأزهر تزدحم بالطلاب ، يستمعون إلى دروسه فى التفسير ، ثم عين شيخاً للأزهر ، خلفاً للشيخ أحمد الدمهوجى سنة ١٢٤٦ ﻫ (١٨٣٠ م) .

انظر ترجمته فى :

على مبارك : الخطط التوفيقية ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٣٨ — ٤٠ ،

وتجد أيضاً بعض ملامح لشخصيته فى الترجمة التى وضعها الجبرتى لصديقه اسماعيل الخشاب فى وفيات سنة ١٢٣٠ ﻫ ، وقد توفى الأخير فى ٢ من ذى الحجة ١٢٣٠ (٥ نوفبر ١٨١٥) . انظر (الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ — ٢٤١) .

(٣) De La Jonquière, op. cit., t. III, p. 279.

للجيش فى الأزبكية . ووجد بونابرت أن لهيب الثورة قد عم أنحاء القاهرة، وعلم أن الجامع الأزهر هو مركز الثورة ، وأن الثوار أقاموا المتاريس والحواجز فى الطرقات والأزقة المؤدية إلى الجامع الأزهر ، وأنه غدا من المتعذر أن يقتحمه الجنود ، سواء كانوا مشاة أو فرساناً(١) .

اتخذ بونابرت إجراءات سريعة لمواجهـــة الموقف الذى كان يتطور لمصلحة الثوار ، فعين الجنرال بون Bon حاكماً عسكرياً لمنطقة القاهرة خلفاً للجنرال ديبوى القتيل ، وأصدر أمراً إلى الجنرال دومارتا قائد سلاح المدفعية بنصب المدافع على جبل المقطم ، وتعزيز مدفعية القلعة . وأصدر أوامر متتالية إلى قادة الجيش بالتحرك إلى عدة مواقع فى القاهرة(٢) . وتحركت كتائب إلى أحياء القاهرة المتطرفة ، وهناك أطلق جنودها النار على الأهالى ، فردوا عليهم بالمثل . وكانت الطلقات تسمع فى كل مكان ، بين الثوار من ناحية ، وبين الفرنسيين ومن انضم إليهم من الأجانب الذين استوطنوا القاهرة من ناحية أخرى .

الأزهر مركز الثورة :

نقل رجال المخابرات العسكرّية الفرنسية إلى الجنرال بون أن الجامع الأزهر هو موئل زعماء الثورة ، وأنه يضم خمسة عشر ألف ثائراً ، يرابطون فى داخله ، وفى ساحته الخارجية ، وفى الأزقة الملاصقة له ، والجهات المجاورة له ، مثل الصنادقية ، وبيت القاضى ، والجمالية ، والنحاسين ، والغورية ، فأرسل إلى بونابرت التقرير الحربى الموجز الآتى :

---

(١) Loc. cit., p. 280.

(٢) انظر على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام التالية : ٣٥٢٠ ، ٣٥٢١ ، ٣٥٢٣ وكلها تحمل تاريخاً واحداً ، هو ٣٠ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢١ من أكتوبر ١٧٩٨) ف.

Correspondance de Napoléon, t. V.

٣٠ فانديمير ، الساعة ١٠ مساء .

« إن مركز الثورة لا يزال فى حى العرب ، حيث يوجد أكبر جامع — الأزهر — ، وقد أقام الثوار متاريس صغيرة فى جميع الشوارع المؤدية إليه . وهذه الشوارع ليست مضاءة على الإطلاق ، وقد تعرضت دورياتنا لطلقات الرصاص برهة . والمعتقد أن هذه الحشود التى تتخذ من هذا الحى مكاناً للتجمع ، لن تتفرق غداً فى الصباح ، وأرى فى هذه الحالة أن تأمروا باتخاذ إجراءات عنيفة جداً » (١).

وكان الفرنسيون قد أمضوا سحابة النهار وزلفاً من الليل فى إقامة المدافع على ربى المقطم ، وفى تعزيز مدفعيـــة القلعة ، وانتقل الجنرال دومارتا ليلا إلى هاتين المنطقتين ، واختار المواقع التى تنصب عليها المدافع الحديدة . وأصدر إليه رئيس هيئة أركان حرب الجيش أمراً فى منتصف الليل (٢١ — ٢٢ أكتوبر) بأن يضع بطاريات قوية من المدفعية على المرتفعات الواقعة بين القبة والقاعة ، وكانت هذه المرتفعات تتسلط على

---

(١) لم يرد هذا التقرير الحربى فى مجموعة مراسلات بونابرت ، ولكن أورد نصه لاجونكير

«Le foyer de la révolte existe toujours dans le quartier des arabes, où se trouve la plus grande mosquée. Les insurgés ont élevé des petites barricades dans toutes les rues qui aboutissent à ce point. Ces rues ne sont point éclairées Il n'y à qu'un instant que nos patrouilles y ont été fusillées Il est à croire que les attroupements, dont ce quartier est le point de ralliement, ne seront point dissipés demain au jour, Je pense que, dans ce cas. vous ordonnerez des mesures très sévères''.

انظـر :

De La Jonquière; op. cit., t. III, p. 280.

منطقة الأزهر (١) ، أما الثوار فقد اهتموا بتعزيز مواقعهم بإقامة مزيد من المتاريس ، والحصول على أسلحة ، وأرسلوا فى المساء رسلا إلى البلاد المجاورة للقاهرة ، يطلبون من سكانها الحضور إلى العاصمة ، والانضمام إلى الثورة .وكانت أحاديثهم تدور حول ضرورة الانتصار للدين الإسلامى الذى يتهدده الفرنسيون . ولقيت دعوة لجنة الثورة استجابة فورية من السكان . وأقبل بعضهم فى ظلمة الليل ، والبعض الآخر مع خيوط الفجر إلى القاهرة ، يحملون البنـــادق والرماح ، والسيوف والعصى ، وكان الثوار لا يزالون يسيطرون على بوابات القاهرة ففتحوها لهم . وعلى هذه الصورة انقضى اليوم الأول بليله ، والفريقان يتأهبان لاستئناف القتال فى اليوم التالى .

الثورة فى يومها الثانى :

وفى صباح اليوم التالى ، وهو الاثنين ٢٢ من أكتوبر ، نقل رجال المخابرات العسكرية إلى بونابرت أن المصريين يتدفقون على العاصمة من البلاد المجاورة لها ، وينضمون إلى الثوار ، فوجه بعض قواته إلى أطراف المدينة لمنع دخول أحد من خارجها . ونجحت القوات الفرنسية فى صد حشود كثيرة من الأهالى كانوا فى طريقهم إلى القاهرة فى ضحى هذا اليوم ، وبذلك استطاع بونابرت حصر الثورة فى القاهرة ، وعزل ثوارها عن باقى سكان القطر . وكان الأهالى الذين استطاعوا دخولها هم الذين جاءوا ليـــلا أو فجراً ، ومع ذلك قتل الثوار شخصية عسكرية كبـــيرة هو الكولونيل سلكووسكى Sulkowski ياور بونابرت ، وكان قد خرج فى الصباح فى شرذمة من حرس القائد العام

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ، الحاشية رقم ١ .

وانظر أيضاً : التقرير الذى أرسله بونابرت إلى حكومة الديركتوار عن الثورة بتاريخ ٦ من شهر بروميير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ من أكتوبر ١٧٩٨) ، والذى سبقت الإشارة إليه فى هذه الدراسة .

إلى طريق بلبيس ، ليمنع وصول الأهالى إلى القاهرة ، وبينما كان عائداً إلى العاصمة ، تلقاه ثوار القاهرة عنـــد باب النصر ، والتحموا معه فى معركة بالسلاح الأبيض وقتلوه ، ويقرر بونابرت فى تقريره عن الثورة أن نجاح الثوار فى قتله يرجع إلى عاملين : أن جواده كبا به وطرحه أرضاً ، وأن هذا الضابط كان لايزال يشكو من جراح أصابته فى الصالحية . وقد قتل الثوار تســعة من الحراس الخمسة عشر المرافقين له ، وقد حزن بونابرت عليه حزناً شديداً (١) .

وأدرك ثوار القاهرة أن سلاح المدفعية هو السلاح المفضل لدى الفرنسيين ، وأن هذا السلاح هو الذى كفل لهم الانتصار فى المعارك التى خاضوها ضـــد المماليك والمصريين ، ولذلك اتجهت جهود الثوار إلى كسر حدة هذا السلاح . فخرجت جموع منهم قدرها بونابرت فى مذكراته بين سبعة آلاف وثمـــانية آلاف من باب الفتوح ، واتجهت إلى المرتفعات التى نصبت عليها المدافع ، فصدهم الفرنسيون .

وصعد فريق من الثوار إلى سطح مسجد السلطان حسن ومناراته لضرب الفرنسيين المرابطين فى القلعة ، والقابعين وراء مدفعيتهم الثقيلة ، فأخفقت محاولتهـــم .

وكانت كتيبة فرنسية تضم قوة من الفرسان ومدفعين، ترابط عند مدخل حارة تؤدى إلى ميدان الأزبكية ، وأدرك الثوار عبث الهجوم عليها هجوماً مباشراً ، فتسلقوا المنازل المجاورة ، واحتلوا مسجداً صغيراً يشرف على موقع

---

(١) كان هذا الضابط بولونى الأصل ، ينحدر من أسرة عريقة ، وكان مناضلا عسكرياً من أجل تحرير وطنه الأصلى تحت لواء كوشيسكو « Kosciuszko Thadée » ، (١٧٤٦ — ١٨١٧) بطل بولندا . ولما لقى الهزيمة أمام الجيش الروسى تطوع سلكووسكى فى الجيش الفرنسى ،وكان مثالياً ، تغلب عليه المبادىء الراديكالية ، وقد عينه بونابرت ياوراً له تقديراً لكفايته ، كما عينه عضواً فى شعبة الاقتصاد السياسى فى مجمع مصر العلمى .

الكتيبة ، وأمطروها بوابل من بنادقهم وتكبد الفرنسيون خسائر فى أفراد الكتيبة ، ولكن سرعان ما خفت نجدة فرنسية واقتحمت المسجد ، وقتلت جميع الثوار المعتصمين به ، ثم قصفت المدفعية المسجد حتى انهارت دعائمه .

الثوار يرفضون وساطة أعضاء الديوان .

وفى ضحى هذا اليوم سعى مشايخ الأزهر أعضاء الديوان لمقابلة بونابرت والتمسوا منه إصدار الأمر بوقف القتال . وكانت مقابلته لهم فاترة جافة ، حملهم مسئولية ما حدث ، وتظاهر برغبته فى وقف القتال ، ولكنه طلب منهم أن يتصلوا بزعماء الثورة فى الأزهر لإلقاء السلاح كشرط أساسى للتوقف عن ضرب المدينة . ولما ذهب أعضاء الديوان إلى الأزهر رفض الثوار أن يسمحوا لهم بدخول الجامع ، أوحتى تخطى المتاريس المقامة فى مداخل الشـوارع والأزقة المؤدية إلى الجامع . وفشلت وسـاطتهم ، ومع ذلك أمسك علماء الأزهر عن إبلاغ بونابرت بالإخفاق الذى انتهى إليه مسعاهم . واعتقـد زعماء الثورة أن السفارة التى قام بها علماء الأزهر أعضاء الديوان لديهم ، قد تمت بإيعاز من بونابرت ، وبنوا على هذا الاعتقاد أفكاراً وآراء روجوا لها بين الثـوار ، فأذاعوا أن المركز الحربى للفرنسيين يتدهور سريعاً ، ومن ثم أوعز بونابرت إلى علماء الأزهر من أعضاء الديوان يبذلوا وساطتهم لوقف القتال ، وتلقف الثوار هذا الرأى على أنه حقيقة لا مراء فيها ، وغلب عليهم الحماس ، وأخذوا يتكلمون عن مسيرة ثورية كبرى ، تتحرك من داخل الجامع الأزهر إلى مواقع الفرنسيين فى القاهرة ، ويقوم الثوار بذبحهم جميعاً ، ضباطاً وجنوداً(١) .

لم تدم هذه الآمال طويلا ، كان بونابرت قد علم بما لقيه أعضاء الديوان من الثوار ، وأدرك أنه لا مناص من استخدام أقصى وسائل العنف لسحق الثورة . واستمر القتال يدور بين الفريقين بضراوة بالغة ، ولكن أخذت

---

(١) Reybaud Louis et autres; op. cit. t. IV. p. 178.

كفة الفرنسيين ترجح ، كلما مضت ساعات النهار ، إذ كانوا يمثلون جيشاً نظامياً ، مدرباً على أحدث أساليب القتال ، ومزوداً بالأسلحة والعتاد ، بينما كان الثوار أخلاطاً شتى من الرجال ، لئن جمعتهم وحدة العقيدة الدينيــة ، وغلبت عليهم الشجاعة والفدائية ، إلا أنهم كانت تعوزهم الأسلحة والذخائر ، وكان ينقصهم التدريب والمران ، ولذلك تغلبت القوات الفرنسية على الثوار فى معظم أحيـــاء القاهرة ، وظلت الثورة مشتعلة فى حى الأزهر ، وأرســل الجنرال بون الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة تقريراً حربياً إلى بونابرت ، يشير عليه باتخاذ وســائل عنيفة للقضاء على الثوار المحتشدين فى حى الأزهر . واقترح عليه توجيه القوات للزحف على الجامع الأزهر من جميع الجهات التى تؤدى إليه ، وهذا هو التقرير الحربى ، وهو مؤرخ فى أول برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٢ من أكتوبر) :

« إن الدوريات التى قامت فى فجر اليوم باستطلاع الجامع الكبير (الأزهر) أبلغتنى أن الهدوء يسود هذا الحى ، ولكن دوريات لاحقة وصلت الآن ، أخبرتنى عكس ذلك ، ومن الضرورى ، أيها المواطن الجنرال ، اتخاذ إجراءات عنيفة ، لتشتيت الجموع المسلحة التى تتجمع فى هذا الحى ، إنى فى انتظــار أوامركم ، ومن رأيى أن توجه قوات تزحف على هذا الجامع ، ولكن من الأفضل أن نحمل عليه — بواسطة تحركات مشتركة — من جميع النواحى التى تؤدى إلى الجامع (١) » .

---

(١) Les patrouilles qui ont paru à la pointe du jour à la grande mosquée m'avaient fait le rapport que la tranquillité règnait dans ce quartier; mais des patrouilles postérieures qui viennent de rentrer assurent le contraire .... Il serait essentiel, Citoyen Général, de faire des dispositions rigoureuses pour dissiper les rassemblements armés qui se forment dans ce quartier; mandez-moi vos ordres, j'aurais fait marcher des forces sur cette mosquée, mais il sera mieux de s'y —

بونابرت يأمر بقصف الجامع الأزهر بالمدفعية :

أخذ بونابرت باقتراح الجنرال بون ، فأصدر فى ذات اليوم إلى الجنرال برتيـه رئيس أركان حرب الجيش أمراً عسكرياً تضمن سرعة اتخاذ أعنف الوسائل لسحق الثورة . من قصف الجامع بالمدفعية ، وقتل الثوار ، وإحراق المنازل ، واحتلال الجامع بالجنود ، إلى غير ذلك من إجراءات ، وقد أبلغ رئيس أركان حرب الجيش هذا الأمر فى الساعة الثانية بعد الظهر إلى الجنرال بون لتنفيذه فوراً ، وهذا هو نص الأمر :

« عهد إلىّ القائد العام بأن أبلغكم ، أيها المواطن القائد ، بأن تهاجموا بصفة عاجلة جداً الحى الثائر ، وأن تضربوا الجامع (الأزهر) بالمدافع ، وأن تضعوا المدافع فى أفضل موقع ، ليكون الضرب أشد أثراً .

« أصدروا الأمر إلى الجنرال دومارتا بأن يفعل نفس الشىء ، وأن يستولى على مدخل الأزهر ، والمنازل الرئيسية التى تؤدى إلى الجامع ، وعليكم أن تقتحموا الجامع الأزهر بكتائبكم تحت حماية المدفعيـة ، وعليكم أن تأمروا الجنرال دوماترا بأن يفعل نفس الشىء فى ذات اللحظة .

« إن القائد العام يأمر بقتل كل من تلقونه مسلحاً فى الشوارع ، وأن يكون القتل بحد السنان .

« وعليكم أن تعلنوا الأهالى بأن كل منزل تلقى منه أحجار فى الشارع يحرق فوراً ، وعليكم أن تعفوا عن بقية المنازل .

« وعليكم أن تقتلوا جميع من فى الجامع ، وأن تضعوا فيه حرساً قوياً ، وعليكم أن تحتموا إنارة المنازل فى أثناء الليل .

---

porter par des mouvements combinés sur les différents points qui y aboutissent......

De La Jonquière, op. cit., t. III. p. 281, note 2.

« وعليكم أن تصدروا أمراً إلى الجنرال دومارتا بأن يضع ، فى أثنــاء الليل وفى فجر الغد ، وعلى المرتفعات التى يحتلها قوات رادعة .

« ولمــا كانت الساعة الآن الثانية ، فليس أمامكم لحظة واحدة تضيعونها . »

Quartier général, ler brumaire an VII, 2 heures.
Au Général Bon.

Le Général en chef me charge de vous dire, Citoyen général, qu' il est extrèmement urgent d'attaquer le quartier insurgé; faites bombarder la mosquée; placez les obusiers dans l'endroit le plus favorable pour pouvoir faire le plus d'effet.

Faites passer l'order au général Dommartin de faire la même chose et de s'emparer de la porte et des principales maisons qui conduisent à la mosquée. Sous la protection de ce feu, vous ferez entrer vos bataillons. Vous ordonnerez au général Dommartin de faire la même chose au même moment.

Le Général en chef ordonne que vous fassiez passer au fil de l'épée tous ceux que l'on rencontrera dans les rues, armés.

Vouz ferez publier que toutes les maisons qui jetteront dans les rues des pierres seront sur – le – champ brulées; et pardon aux autres.

Exterminez tout ce qui sera dans la mosquée et établissez de fortes patrouilles. Pendant la nuit, exigez que toutes les maisons éclairent.

Vous ordonnerez au général Dommartin que, pendant la nuit et demain à la pointe du jour, il y ait sur les hauteurs qu'il occupe des forces imposantes.

Comme il est deux heures, il n'y a pas un instant à perdre.''(1)

قصف الأزهر بالمدفعية :

ونفذ هذا الأمر الحربي تنفيذاً صارماً ، وأخذت مدفعية القلعة ومدفعية المقطم ، وسائر بطاريات المـــدفعية المقامة على المرتفعات تقصف حي الأزهر قصفاً مركزاً متواصلا(٢) . ورغبة في التنكيل بالثوار ، بحيث يأتيهم الموت من كل مكان ، ولا يكون أمامهم طريق للنجاة بأنفسهم من الموت المحقق ، احتلت كتائب من الجنود الدروب والطرق المؤدية إلى الجامع ، وبذلك تحصر القوات الفرنســية الثوار في الأزهر بين نارين : قذائف المدفعية ، وطلقات البنادق(٣). فإذا نجا الثوار من قذائف المدفعية ، فإنهم ملاقون الموت من طلقات بنادق الجنود المشاة ، وسرعان ما أصبح الجامع الأزهر وملحقاته ، وشارع الغورية ، وشارع الصنادقية ، أهدافاً لمدفعية الفرنسيين ، وأحدثت القذائف ، ثقوباً في جدران المسجد ، حتى أوشك أن يتداعى من شدة الضرب ، ولم يكن يشاهد في منطقة الأزهر إلا مبان محترقة ، ودور منهارة ، وقد دفنت عائلات بأكملها تحت الأنقاض ، وكان يسمع لأفرادها أنين موجع ، وأصوات خافتة تنبعث من تحت الأنقاض(٤) .

ويقول الجبرتي عن قصف المدفعية للأزهر : « إن الفرنسيين ضربوا

---

(١) الوثيقة رقم ٣٥٢٤ في الجزء الخامس من :
Correspondance de Napoléon.

(٢) يقول « ريبو » إن قصف المدفعية للأزهر ومنطقته بدأ في الساعة الرابعة من بعد الظهر . انظر :
Reybaud Louis et autres, op. cit., t. IV, p. 177.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

بالمدافع والبنبات (١) على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجرروا عليه المدافع والقنبر (٢) ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خفى الألطاف ، نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا فى الشقوق ، وتتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزلت فى البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل (٣) » .

نفاد الذخيرة من الثوار :

وأمام هذا القصف المركز ، تزعزعت جبهة الثوار فى منطقة الأزهر ، وأيقنوا أنه لا أمل لهم فى مواصلة النضال ، وقد نفدت منهم الذخيرة ، وازداد عدد قتلاهم زيادة رهيبة ، فطلب البقية الباقية منهم التسليم . ويقرر الجبرتى بصريح العبارة أن نفاد الذخيرة من الثوار حملهم على طلب التسليم ، وكان قد مضى ما يقرب من ثلاث ساعات بعد أن سجى الليل (٤) . يقول الجبرتى فى هذا الصدد : « وأما أهل الحسينية ، والعطوف البرانية ، فإنهم لم يزالوا مستمرين ، وعلى الرمى والقتال ملازمين ، ولكن خانهم المقصود ، وفرغ منهم البارود ، والإفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع بالقنابل والمدافع ، إلى أن مضى من الليل

(١) مفردها بنبة ، ومعناها قنبلة .
(٢) القنبر : وتكتب أيضاً قنابر ، بمعنى القنابل .
(٣) الجبرتى ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٤) هذا الموعد الذى حدده الجبرتى يقرب من الموعد الذى ذكره مارتا « Martin » من أن الضرب انتهى فى الساعة الثامنة مساءً ، وإذا علمنا أن غروب الشمس فى العشر الأواخر من شهر أكتوبر يكون فى حوالى الساعة الخامسة والنصف ، كان معنى ذلك أن توقف القتال قد تم فى حوالى الساعة الثامنة والنصف مساءً ، أما ريبو « Reybaud » فيقول إن الضرب قد توقف فى الساعة السادسة مساءً ، ونحن نأخذ بالرأى الأول .

نحو ثلاث ساعات ، وفرغت من عندهم الأدوات ، فعجزوا عن ذلك ، وانصرفوا »(١) .

فظائع الفرنسيين داخل الأزهر :

وعندئذ تقدم الجنود الفرنسيون إلى مواقع المتاريس ، ورفعوها من الدروب والشوارع ، والأزقة المؤدية إلى الجامع الأزهر ، واقتحموه مشاة وفرساناً ، اقتحام الضوارى ، وأعملوا القتل فى بقـــايا الثوار الذين كانوا معتصمين داخل الجامع .

واتسمت أعمال الجنود بطابعين : هما الانتقام ، ثم النهب والسلب . أما الانتقام ، ففضلا عن المذبحة التى ارتكبوها داخل الأزهر ، ربط الجنود خيولهم فى قبلة المسجد ، وأخذوا يبولون ، ويقضون حاجتهم فى شتى أرجاء الجامع ، وألقوا بالمصاحف على الأرض ، وداسوا عليها بأحذيتهم . أما أعمال النهب والسلب فقد كسروا خزائن الطلبة ، ونهبوا ما وجدوه فيها من الأموال والودائع ، ذات القيمة المادية الكبيرة . وكان سبب وجود هذه الثروات فى الجـــامع الأزهر اعتقاد المصريين أن الفرنسيين لايجرؤون على دخوله ، فحولوا إليه ما غلا ثمنه وخف حمله ، وتركوا هذه الثروات ودائع فى خزائن الطلبة ، فوقعت غنيمة باردة فى أيدى الجنود . وكانوا فى شراهتهم للنهب ينشرون الكتب التى فى خزائن الطلبة ، يحدوهم الأمل فى أن يجـــدوا شيئاً ذا قيمة خلف غلاف الكتاب ، ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر إن اليهود انتهزوا الفرصة ، فدخلوا الأزهر فى أثر الجنود ، واستولوا على مصاحف نفيسة وكتب قيمة (٢) . ولم يرع

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٢) عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ — ١٨٧٠) ، ص ٥٥ .

الجنود حرمة الجامع ، فقضوا ليلتهم يشربون الشراب . ويصف الجبرتى حزيناً المشهد الدامى فى تاريخ الأزهر ، وجاءت صياغته لهذا المشهد فى أسلوب مسجع ، أخذ عليه وقته وتفكيره ، لأن السجع فى أسلوب الجبرتى قليل نسبياً : « وبعد هجعة من الليل ، دخل الإفرنج المدينة كالسيل ، مروا فى الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين ، أو جند إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخل طائفة من باب البرقية (١) ، ومشوا إلى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا

= وتوجد فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة عدة طبعات من هذا الكتاب ، نذكر منها :

(أ) طبعة بولاق السابق الإشارة إليها ، والتى نستقى منها المادة العلمية ، ونشير إليها فى هوامش هذه الدراسة ، وتقع فى ستين صفحة ، ورقمها ١٠٥٢ — تاريخ .

(ب) طبعة مصطفى وهبة ، سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ — ١٨٦٥ م) ، وتقع فى ٨٢ صفحة وتوجد عدة نسخ من هذه الطبعة تحمل أرقام ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٢٩١٠ ، ٢٩١٤ ، ٢٩١٥ ، ٢٠٦٤ — تاريخ .

(ج) المطبعة العثمانية ، سنة ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ — ١٨٨٧ م) ، وهذه الطبعة تقع فى جزءين ، فى مجلدين برقم ٢٠٥٢ — تاريخ .

(د) طبعة على هامش كتاب « أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » تأليف محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى بن على الإسحاقى المتوفى بأرقام ٤٧٢ ، ٧٣١ ، ٧٠٩ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ — تاريخ ، طبعة سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ — ١٨٨٣ م) .

(٢) كان هذا الباب خارج حارة البرقية التى اختطها جماعة من أهل برقة ، ومكانها الآن الدراسة ، ويقول الأستاذ الدكتور عبد الرحمن زكى : إنه كان هناك بابان يعرفان بهذا الاسم فى سور القاهرة الشرقى : الباب الأول أنشأه جوهر الصقلى سنة ٩٧٠م (٣٥٩ هـ) ، وقد عرف باسم باب الغريب ، أو بوابة الخلاء ، لوقوعه شرقى جامع الغريب ، وقد هدم هذا الباب سنة ١٩٣٦ عند إنشاء مبانى الكليات الأزهرية الثلاث ، والباب الثانى أنشأه صلاح الدين سنة ١١٨٤م (٥٦٩ هـ) حينما أراد توسيع القاهرة من الجهة الشرقية ، وهو يقع على بعد ١٢٠ متراً من الجهة الشرقية لمبانى جامعة الأزهر بالدراسة .

انظر :

على مبارك : الخطط التوفيقية ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦ .

دكتور عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام مرجع سبق ذكره ص ١٩ .

وما هجعوا ، وعلموا باليقين أن لا دافـع لهم ولا كمين ، وتراسلوا إرسالا ، ركباناً ورجالا .

« ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصوراته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى ، والقصاع والودائع ، والمخبـآت بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيه ، وكسروها بصحنه ونواحيـه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجوه » (١) .

كان ذلك فى ليلة الثـلاثاء ٢٢ — ٢٣ من أكتوبر (١٢ — ١٣ من جمادى الأولى ١٢١٣) ، وباتت القاهرة فى هذه الليلة الدهماء ، فى لجة من الظلام ، ولجـة من الفزع (٢) .

فظائع لا يستطاع تبريرها :

والباحث المحايد لا يستطيع تبرير أعمـال الانتقام التى أقدم عليها الفرنسيون فى الجامع الأزهر . قد يقول البعض إن الجيش الفرنسى كان فى صدد إخماد ثورة عارمة ، قد يمتد لهيبها إلى سائر جهات القطر إذا استطال أمدها ، مما كان يتهدد الوجود الفرنسى فى مصر ، فلا تثريب على الجيش إذا استخدم أقسى وسائل العنف فى ضرب مركز الثورة ، وهو

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٨٧ .

الجـــامع الأزهر . وهذا القول يبدو فى ظاهره سليماً أو منطقياً ، ولكنه فى حقيقة الأمر تبرير واه يتهاوى ويصير إلى هباء أمام النقد الموضوعى . إن المصاحف ليست أهدافاً عسكرية ، حتى يلقى بها الجنود على الأرض ، ويدوسوا عليها دوساً بأحذيتهم ، وكذلك الأعمال المنـكرة التى ارتـكبها الفرنسيون فى حماقة داخل الجامع ، دون اكتراث لحرمته الدينية ، ودون مراعاة لمكانته فى نفوس المسلمين. وإن احتلال الجامع الأزهر لم يكن يتطلب ارتكاب مثل هذه المنكرات والحماقات ، فى أعقاب احتلال الجنود له .

ومما هو جـــدير بالذكر أن بونابرت — فى تقريره الذى رفعه إلى حكومة الديركتوار — تجنب أن يشير من قريب أو من بعيد إلى الأفعال المنكرة التى ارتكبها الجنود داخل الجامع الأزهر ، واكتفى بأن قال : «وبعد أقل من عشرين دقيقة من قصف المدفعية رفعت المتاريس ، وأخلى حى الأزهر ، وأصبح المسجد فى قبضة قواتنا ، وعاد الهدوء تماماً إلى حالته السابقة»(١) ؛ وبونابرت فى هذا التقرير يعمد إلى التهوين من شأن الثورة ، ويختزل المدة التى استمرت فيها المدفعية تقصف الجامع الأزهر ومنطقته إلى أقل من عشرين دقيقة ، مع أنها استطالت عدة ساعات ، ثم هو يغفل تماماً فظائع الجنود فى داخل الجامع الأزهر ، وهذا الإغفال المتعمد له مغزاه ، فهو لا يريد أن يسجل على نفسه تناقضاً فى سياسته الإسلامية ، ومن ثم أسقط من تقريره الأفعال المنكرة التى ارتكبها الجنود فى الجامع الأزهر ، فى الوقت الذى حرص على أن ينعى فى تقريره الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى ، والكولونيل سلكوسكى ياوره ، وأن يذكر مناقبهما .

(١) "En moins de vingt minutes de bombardement les barricades furent levées; le quartier évacué, la mosquée entre les mains de nos troupes; et la tranquillité fut parfaitement rétablie."

Napoléon Ier; Guerre d'Oriente, etc., op. cit., t. 1, pp. 369 – 371.

لم ينس المصريون ما وقع للجامع الأزهر على يد الفرنسيين فى ثورة القاهرة. وكانت هذه الأفعال السبب الأهم فى القطيعة التى وقعت بين الشعب المصرى وبين الفرنسيين، على الرغم من أن بونابرت مضى فى سياسته الإسلامية بعد إخماد ثورة القاهرة، ويقول أحد الأساتذة: «وأخيراً تم (الانفصال) بين الفريقين، لما دخل الفرنسيون الأزهر، مواطن احترامهم ومهبط إيمانهم، بخيولهم، وعاثوا فيه فساداً. وعندها تحقق المصريون أن هؤلاء المغيرين شعب آخر من طراز آخر، غير المماليك أو العثمانيين(١)». والحق أن الشعب المصرى كان يعلم علماً يقينياً قبل اندلاع الثورة أن الفرنسيين كانوا يختلفون عنه ديناً ولغة وثقافة، وعادات وتقاليد، ثم جاءت أفعال الجنود المنكرة فى الأزهر، فجسدت هذه الفروق فى أذهان الشعب تجسيداً.

بونابرت يأمر بهدم الازهر ليلا إذا أمكن :

كان احتلال الجيش الفرنسى للجامع الأزهر، والآثام التى ارتكبها الجنود فى داخل الجامع عصفاً بالسياسة الإسلامية التى حرص بونابرت على انتهاجها فى حكمه الشعب المصرى، منذ أول يوم جاء فيه إلى مصر. وفى تقديرنا يعد هذا التصرف أكبر خطأ عسكرى وسياسى وقع فيه بونابرت حيال الشعب المصرى. والسياسى الحصيف هو الذى يستطيع أن يكبح جماح عواطفه وقت الشدائد، وخلال الأزمات. وقد عجز بونابرت أن يكون على شاكلة هذا الطراز من رجال السياسة، فى أثناء الثورة والأيام التى أعقبتها. فقد تملكته فى هذه الفترة رغبة قوية فى الانتقام من الأزهر، ومن رجال الأزهر، ومن يلوذ بالأزهر. ولم يقنع بالمحن التى أصابت الأزهر على يديه، بل أصدر أمراً فى يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر بهدم الجامع الأزهر فى أثناء الليل وذلك بتحطيم بعض الأعمدة فيه إذا كان ذلك ممكناً، وتضمن هذا الأمر

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عصر محمد على، رسالة ماجستير، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٢٦.

أيضاً إنشاء نقطة مراقبة قوية فى الجامع ، وتنظيم دوريات فى الحى ، وهدم المتاريس والأبواب التى تسد الشوارع ، حتى تكون المواصلات مفتوحة بين الأزهر والقلعة ، وسائر مراكز تجمعات الجيش الفرنسى (١) .

ومن الصعب تبرير هذا الأمر الحربى الذى أصدره بونابرت بهدم الجامع الأزهر ، وهذا الأمر مسجل فى المجموعة الرئيسية التى حوت أوراق هذا القائد ، ولولا ذلك لكانت الشكوك تنتاب الباحث حول حقيقة هذا الأمر الحربى . وواضح أنه لم يكن هناك ما يتطلب هدم الجامع ، بعد أن احتله الجيش ، ورابط فيه الجنود ، وانتهكوا حرماته. إن التفسير الذى يمكن أن يساق فى هذا الصدد هو أن بونابرت أدرك من ثورة أكتوبر ، وأكثر من أى وقت مضى ، الدور القيادى البارز الذى كان يضطلع به الأزهر فى الحياة المصرية العامة السياسية والدينية ، وأدرك أيضاً من ثورة أكتوبر التضحيات التى جاد بها الأزهريون فى سبيل تحرير الشعب المصرى من الحكم المسيحى

---

(١) Quartier général au Caire, 2 brumaire an VII.
An Général Bon.

Ordre au général Bon de faire jeter à terre, pendant la nuit, la grande mosquée, en brisant quelques colonnes, si cela est possible; de tenir un fort poste dans la mosquée, et de lui faire faire des patrouilles dans le quartier; de maint-enir libre la communication à cet effet, de jeter à terre les barrières, portes. etc qui obstrueraient les rues. Il aura soin surtout de maintenir libre sa communication avec le Général Veaux.

انظر :

وثيقة رقم ٣٥٢٦ ، مؤرخة فى ٢ من شهر بروميير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٣ من شهر أكتوبر ١٧٩٨) فى

Correspondanuce de Napoléon, t. V.

الأوروبى ، وعرف من هذه الثورة كذلك قدرة الأزهريين على تحريك الجماهير ثورياً ودينياً فكان ، وهو فى ذروة غضبه ،أن استقر رأيه على أنه لا أمل يرتجى فى إيجاد علاقات سلمية مع الشعب المصرى ،إلا إذا قضى على الأزهر موئل المعارضة للحكم الفرنسى.

بقى أن نذكر أن هدم الأزهر لم يتم ، وبقى صرحه قائماً شامخاً ، يطاول الزمن وجوداً . والتزمت المصادر الفرنسية الصمت إزاء هذا الأمر الحربى الذى أصدره بونابرت. ولعل بونابرت قد راجع موقفه ، بعد أن هدأت هواجسه قليلا ، وجدت عوامل خففت إلى حد ما فورة غضبه ،وكان من بين هذه العوامل سعى كبار علماء الأزهر أعضاء الديوان إلى مقابلته فى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى.

مقابلة بونابرت لمشايخ الأزهر أعضاء الديوان :

وبعد أن سيطر الفرنسيون على الموقف فى الأزهر ومنطقته ، استقبل بونابرت المشايخ أعضاء الديوان (١) ،وألقى فيهم خطبة طويلة ، جمع فيها بين التقريع واللوم ، وإعلان الصفح عن سكان القاهرة ، وكان مما جاء فى كلمته أنه علم أن موقف معظم المشايخ كان يتسم بالضعف ، ثم قال : إنه يحب أن يعتقد أن أعضاء الديوان لم يشاركوا مشاركة فعالة فى إشعال الثورة ، وكان التعبير الحرفى الذى جاء على لسانه : لم يكن أحد منكم مجرماً(٢) ، ثم مضى يقـــول لهم إن النبى – صلوات الله وسلامه عليه – كان يمقت مقتاً شديداً إثارة الفتن ونكران الجميل . وأكد لهم أنه لا يريد أن يمر يوم واحد على مدينة القاهرة دون أن تقـــام فى مساجدها شعائر الصلاة كالمعتاد . وقال لهم إن الجيش الفرنسى قد استولى على الجامع الأزهر ، وإن الدماء جرت فيه

---

(١) يقول الجبرتى : إن هذه المقابلة تمت يوم الأربعاء ، وكان يوافق ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨

(٢) "Je sais que beaucoup de vous ont été faibles, mais j'aime à croire qu'aucun n'est criminel."

أنهاراً ، وطلب منهم أن يذهبوا إلى الجامع ويعملوا على تنظيفه . وأعلن أنه يرد لهم المصاحف التى استولى عليها جنود الجيش ، وأنه لايبغى الانتقام من سكان القاهرة ، وحسبه العدد الكبير من الثوار الذين حصدتهم نيران الفرنسيين . وأخيراً طلب بونابرت من أعضاء الديوان أن ينقلوا إلى أهل القاهرة أنه لايزال رءوفاً بهم شفوقاً عليهم وأنه عفا عنهم ، وأن ماحدث كان فى الكتاب مسطوراً . واستلم المشايخ المصاحف لإعادتها إلى الجامع الأزهر حمل كل شيخ مجموعة منها ، وحرص كل شيخ على تقبيل كل مصحف يحمله . وذهب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، ودخلته معهم الجماهير ، ورفعوا منه الجثث . وبعد أن تم تنظيفه صعد الشيخ عبد الله الشرقاوى المنبر وخطب فى الجماهير ، ونقل إليها تصريحات بونابرت(١) .

ويهمنا من كلمة بونابرت ثلاث نقاط ، هى :

(١) إن بونابرت لم يكن مطمئناً إلى إخلاص علماء الأزهر أعضاء االديوان للفرنسيين .

(٢) إن بونابرت كان لايزال متمسكاً بسياسته الإسلامية ، على الرغم من قيام سكان القاهرة على الفرنسيين ، وكان من مظاهر هذا التمسك إعلان حرصه على الاستمرار فى إقامة الصلاة فى المساجد ، وإعادة المصاحف التى نهبها الجيش إلى الجامع الأزهر .

(٣) إن التصريح الذى أدلى به وهو أن الجيش الفرنسى قد استولى على الجامع الأزهر —وهى حقيقية كان يعلمها علماً يقينياً علماء الأزهر— يدل على اعتراف بونابرت بأهمية الاستيلاء على الأزهر ، باعتبـاره معقل الثورة ، وأنه كان هدفاً عسكرياً رئيسياً من بين جميع العمليات الحربية التى قام بها الجيش للقضاء على الثورة .

---

(١) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc.; op. cit., t. I. pp. 255–259.

وتتفق رواية بونابرت فى إطارها العام مع رواية الجبرتى ، إذ يقول : « وأصبح يوم الأربع ، فركب فيه المشايخ أجمع ، و ذهبوا إلى بيت صارى عسكر ، وقابلوه ، وخاطبوه فى العفو ولاطفوه ، والتمسوا منه أماناً كافياً ، وعفواً ينادون به باللغتين شافياً ، لتطمئن بذلك قلوب الرعية ، ويسكن روعهم من هذه الرزية ، فوعـدهم وعداً مشوباً بالتسويف ، وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين فى إثارة العوام ، وحرضهم على الخلاف والقيام ، فغالطوه عن تلك المقاصد ، فقال على لسان الترجمان : نحن نعرفهم بالواحد ، فترجوا عنده فى إخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فأجابهم لذلك السؤال ، وأمر بإخراجهم فى الحال ، وأبقوا منهم السبعين ، أسكنوهم فى الخطة كالضابطين ، ليكونوا للأمور كالراصدين ، وبالأحكام متقيدين » (١) .

ويهمنا من رواية الجبرتى أربع نقاط هامة هى :

(١) إن نية بونابرت كانت مبيتة على الانتقام من المحرضين على الثورة ، إذ طلب من المشايخ موافاته بأسماء « المتعممين » الذين أثاروا العامة .

(٢) إن المشايخ رفضوا الإدلاء بأسماء المحرضين .

(٣) إن بونابرت استجاب لالتماس المشايخ بإخراج الجنود من الأزهر . استجابة فورية ، وصدرت الأوامر بإخراج الجنود فى الحال .

(٤) استبقى الفرنسيون قوة من الجنود للطوارئ ، والمحافظة على الأمن والنظام فى منطقة الأزهر ، وكان قوام هذه القوة سبعين فرداً .

ومضى يوم الأربعاء ٢٤ من أكتوبر بجلاء الجنود الفرنسيين عن الجامع الأزهر ، وتنظيفه ، وفتح أبوابه لعلمائه ومجاوريه ، يواصلون فى رحابه

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

رسالتهم العلمية والدينية نشراً وتعليما ، ووفد سائر الأهالى إلى جامعهم العتيد يؤدون فيه شعائر الصلاة . وكانت الفرحة تغمر الجميع باستعادة الأزهر حياته العلمية والدينية ، ودوره القيادى فى حياة الأمة .

أما الفرنسيون فقد أمضوا هذا اليوم فى إزالة الأحجار التى استخدمها الثوار فى إقامة المتاريس . يقول الجبرتى : «ووقف جماعة من الفرنسيس، ونظفوا مراكز المتاريس ، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة ، ووضعوها فى ناحية ، لتصير طرق المرور خالية »(١) . وواضح من عبارة الجبرتى أن الفرنسيين أستهدفوا من تنظيف الشوارع أغراضاً عسكرية بحتة لضمان حرية وسرعة تحرك وحدات الجيش فى الشوارع المؤدية إلى الجامع الأزهر ، إذا عاد الشعب إلى امتشاق الحسام فى وجههم ، وبخاصة لأن الفرنسيين كانوا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ،فقد أعلن بونابرت العفو عن سكان القاهرة ، وأذاع علماء الأزهر على سكان العاصمة البيان الذى أشرنا إليه(٢) ، وقد استهلوه بهذه العبارة « نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة(٣) » ، وقرروا فيه أن الفتنة قد انحسرت وسكنت ، لأن بونابرت « رجل كامل العقل ، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة إلى الفقراء والمساكين ،ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ، ونهبت جميع الأموال ، وقتلوا كامل أهل مصر » . وقد دلت الأحداث التالية على أن بونابرت كان فى ذات الوقت يضمر الانتقام الذريع من سكان القاهرة ومن علماء الأزهر بعد أن يخلد الجميع إلى السكينة .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ .

(٢) كان هذا البيان موجهاً إلى سكان القاهرة فقط ، خلافاً لبيان ثان أذاعه علماء الأزهر بتاريخ ٨ من جمادى الآخرة ١٢١٣ (١٧ من نوفمبر ١٧٩٨) ، وكان موجهاً إلى الشعب المصرى أو كما جاء فى البيان : « نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة : نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين ، ويا سكان الأرياف من العربان والفلاحين ، أن ...... » .

(٣) مصر المحروسة ، يقصد بها مدينة القاهرة .

إسراف الفرنسيين فى الانتقام من سكان القاهرة :

بعد أن نكل الفرنسيون بالثوار فى مذبحة رهيبة — على حد تعبير الجنرال برتيه رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى (١) — ، وبعد أن أعلن بونابرت العفو عن سكان القاهرة ، كان من المتوقع أن تعمل السلطات الفرنسية على إيجاد علاقات ودية ، أو شبه ودية ، مع أفراد الشعب المصرى ، تضميداً لجراحهم. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل على العكس أسرف الفرنسيون فى الانتقام من سكان القاهرة وضواحيها ، واتسمت أعمالهم بطابع العنف البالغ ، والرغبة فى التنكيل والتشفى إلى أبعد الحدود .

فبعد أن أحتل الفرنسيون الجامع الأزهر ، انتشر الجنود فى المناطق المجاورة له ، يقتحمون البيوت ، وينهبونها بحجة البحث عن الأسلحة ، ويتعرضون للمارة ، ويصادرون ما يجدونه من مال ، ويقتلون من يبدى أى مقاومة أو اعتراض. واضطر سكان حى الأزهر والمناطق القريبة منه إلى مغادرة بيوتهم . والجبرتى — كأحد سكان شارع الصنادقية القريب من الجامع الأزهر — يبدى أسفه العميق على ما حل بهذه المنطقة على أيدى الفرنسيين ، ويصفها بأنها أشرف البقاع ، فيقول : « وانتهكت حرمة تلك البقعة ، بعد أن كانت أشرف البقاع ، ويرغب الناس فى سكناها ، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع . والفرنساوية لا يمرون بها إلا فى النادر ، ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر ، فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع ، وانخفض على غير القياس المرفوع ، ثم ترددوا فى الأسواق ، ووقفوا صفوفاً ،

---

(١) "Nous avons fait un massacre terrible de ces scélérats..."

من خطاب أرسله الجنرال برتيه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى إلى الجنرال « جوا Dugua » فى ٢٣ من أكتوبر سنة ١٧٩٨) .

انظر :

De La Jonquière; op. cit., t. III. p. 286;

مشيناً وألوفاً ، فإن مر بهم أحـــد فتشوه ، وأخذوا ما معه ، وربمـــا قتلوه »(١) .

وأصدر بونابرت أمراً فى ٢٣ من أكتوبر إلى الجنرال برتيه رئيس أركان حرب الجيش بأن يطلب من الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة قطع رءوس جميع المعتقلين الذين قبض عليهم ومعهم أسلحة ، وأن تلقى جثثهم بدون رءوس فى النيل ، فى المنطقة الواقعة بين بولاق ومصر القديمة (٢) . ويلاحظ أن الفرنسيين كانوا يحرصون على إلقاء الجثث بدون رءوس فى النيل ، حتى يتعذر الاستدلال على شخصية أصحابها ، إذا طفت الجثث فى يوم ما على سطح النيل .

وقرر بونابرت فى مذكراته أن السلطات الفرنسية ألقت القبض على ثمانين شخصاً ، قال بونابرت عنهم إنهم من بين مائة عضو كانوا يشكلون مجلس الثورة(٣) ، وقد تم القبض عليهم ليلا . وفى السادسة من صباح يوم ٢٤ أكتوبر حكمت محكمة عسكرية بإعدامهم جميعاً ، تأسيساً على أنهم أعضاء فى مجلس الثورة . ومن المعروف أن أحكام الإعـــدام العسكرية التى تصدر فى ملابسات ثورة تنفذ فوراً ، ومعنى ذلك إن إعدام الثمانين شخصاً قد تم فى ٢٤ أكتوبر ، وهو اليوم الذى تمت فيـــه مقابلة علماء

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٢) الوثيقة رقم ٣٥٢٧ ، مؤرخة فى الثانى من برومير السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٣ من أكتوبر ١٧٩٨) .

Correspondance de Napoléon t. V.

وانظر أيضاً :

De La Jonquière; op. cit., t, III, p. 286.

(٣) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., op. cit.. t. pp. 253-254.

الأزهر أعضاء الديوان لبونابرت ، يلتمسون منه إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين .

إعدام علماء الأزهر بطريقة وحشية :

ومضى الفرنسيون فى سياسة القتل الجماعى . ألقوا القبض على خمسة من علماء الأزهر(١) ، واعتقلوهم فى دار البكرى . وفى منتصف ليلة الأحد ٣ — ٤ نوفمبر جاءت قوة من الجنود الفرنسيين إلى دار البكرى ، وطلب رئيس القوة مرافقة هؤلاء العلماء إلى بونابرت بحجة أنه يريد التحدث معهم ، وما كادوا يغادرون الدار حتى وجدوا حشداً كاثراً من الجنود قبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى دار الجنرال بون حاكم القاهرة العسكرى ، وكانت داره فى درب الجماميز . ويصف الجبرتى المصير التعس الذى لقيه أولئك العلماء مشايخ الأزهر فيقول : « فلما وصلوا بهم هناك عروهم من ثيابهم ، وصعدوا بهم إلى القلعة ، فسجنوهم إلى الصباح ، فأخرجوهم

---

(١) كان هولاء العلماء :

الشيخ سليمان الجوسقى ، شيخ طائفة المكفوفين .

الشيخ أحمد الشرقاوى .

الشيخ عبد الوهاب الشبراوى .

الشيخ يوسف المصيلحى .

الشيخ اسماعيل البراوى .

واستطاع السيد بدر المقدسى الإفلات من السلطات الفرنسية وسافر إلى الشام ، وكان هذا الرجل قد توجه على رأس حشود من الثوار إلى دار قاضى القضاة فى صباح اليوم الأول للثورة .
وقبضت السلطات الفرنسية أيضاً على إبراهيم أفندى كاتب جمرك البهار ، وكانت التهم الموجهة إليه — كما يقول الجبرتى : « إنه جمع له جمعاً من الشطار ، وأطعمهم الأسلحة والمساوق ، وكان عنده عدة من المماليك المختفين ، والرجال المطرودين » . ج ٣ ، ص ٢٨ — وقد حبس فى بيت الأغا ، ثم أصدر بونابرت أمراً بإطلاق سراحه ، ويلوح أن السبب فى صدور العفو عنه كان حاجة الفرنسيين إلى خبرته ومعلوماته عن منابع الإيراد الحكومى ، إذ كان بوسليج من بين الذين تشفعوا من أجله لدى بونابرت .

وقتلوهم بالبنادق ، وألقوهم من السور خلف القلعة ، وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياماً » (١) .

وقد غطى أحد المؤرخين الفرنسيين هذا الوصف الموجز الذى ذكره الجبرتى ، فأعطى صورة مفزعة عن الدقائق الأخيرة فى حياة هؤلاء العلماء، فذكر أنهم اقتيدوا من سجنهم إلى ميدان القلعة فى حراسة مشددة من الجنود، وكان على رأس القوة المرافقة لهم برتلمى اليونانى ، فأجاسهم القرفصاء على الأرض ،وأطلق على كل شيخ من أولئك العلماء عياراً نارياً أرداه قتيلا ، الواحد تلو الآخر(٢). وأضافت جريدة Courrier de l'Egypte جديداً إلى هذا المشهد الدامى ، فقد نشرت بياناً رسمياً جاء فيه : إنه فى الساعة التاسعة من صباح ١٤ برومير قد قطعت فى ميدان القلعة رقاب ستة علماء ، وذكرت نفس الأسماء الخمسة التى سجلها الجبرتى ، وأضافت إليهم السيد عبد الكريم ، وقالت إنه ثبتت عليهم تهمة التحريض على الثورة التى قامت فى ٣٠ فانديمير ، وأول برومير ، وقال البيان إن معظم هؤلاء المشايخ اشتركوا فى الثورة ، مدفوعين بكراهيتهم لزملائهم المشايخ الذين استخدمهم بونابرت فى الشئون العامة(٣).وهذا القول من جانب الجريدة الرسمية للاحتلال الفرنسى تبرير هزيل للقتل الجماعى الذى ارتكبه الفرنسيون مع فريق من علماء الأزهر. وقد ظل مصير هؤلاء العلماء مجهولا لسكان القاهرة عدة أيام ، وتردد أعضاء الديوان عدة مرات على بونابرت يلتمسون منه الإفراج عن هؤلاء العلماء وغيرهم من المعتقلين ، سواء من كان فى القلعة أو فى دار البكرى ، أو فى بيت الأغا . وكان بونابرت يستمهلهم ، ويروغ من الإجابة عن استفساراتهم . وأدرك الشعب أن فى الأمر سراً يحاول الفرنسيون إخفاءه ،

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

(٢) Reybaud Louis et autres; op. cit.; t. IV p; 101

(٣) العدد رقم ١٥ الصادر فى ٢٠ برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى ، (أول نوفبر ١٧٩٨) .

وازدادت هواجسه حين مضت الإيام ولم يفرج عن المعتقلين . واشتم الشعب رائحة الغدر، وصحت نبوءته . وواجه الفرنسيون هذا الموقف بنشر الرهبة فى نفوس سكان منطقة الأزهر ، فأرسلوا قوات عسكرية إلى منطقة الأزهر بالذات لمراقبة الموقف عن كثب ، وسحق أى حركة قد يقوم بها الشعب الثائر تعبيراً عن سخطه على إعدام علماء الأزهر (١).

ويقرر الشيخ عبد الله الشرقاوى أن الفرنسيين قتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً (٢) ، ونعتقد أن هذا التقدير الرقمى لا ينطوى على مبالغة ، لأن الشيخ الشرقاوى —كشيخ للجامع الأزهر —كان أدرى من غيره بالعلماء وأسمائهم ، ولابد أنه وقف على عدد وأسماء العلماء الذين قضوا نحبهم فى هذه الثورة ، وهو قد أضاف إلى العلماء الذين نفذ فيهم الفرنسيون أحكام الإعدام: علماء آخرين لقوا حتفهم برصاص الفرنسيين ، أو بقذائف مدفعيتهم.

وتقديراً للدور القيادى والبطولى الذى قام به الأزهر فى ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، ووفاء لعلمائه الذين أعدمهم الفرنسيون بطريقة تتنافى مع أبسط مبادىء الإنسانية ، نشير إلى المركز العلمى والإجتماعى لهؤلاء الشهداء . لقد ترجم الجبرتى لخمسة من علماء الأزهر الذين أعدمهم الفرنسيون فى أعقاب ثورة أكتوبر ، وقد بدأ بالشيخ أحمد الشرقاوى ، فوصفه بأنه علامة فقيه ، وقال عنه إنه تصدر للتدريس فى الأزهر بعد وفاة أبيه الشيخ إبراهيم الشرقاوى « واجتمعت عليه طلبه أبيه وغيرهم ، ولازم مكانه بالأزهر طول النهار ، يملى ويفيد ، ويفتى على مذهبه (الشافعى) ، ويأتى إليه الفلاحون من جيرة بلاده ، بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم ، فيقضى بينهم ، ويكتب لهم الفتاوى فى الدعاوى التى يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضى ، وربما زجر

---

(١) انظر يوميات الجبرتى ابتداء من يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ١٢١٣ ، ج ٣ ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) عبد الله الشرقاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

المعاند منهم، وضربه وشتمه ، ويستمعون لقوله ، ويمتثلون لأحكامه، وربما أتوه بهدايا ودراهم ، وكان جسيما ، عظيم اللحية ، فصيح اللسان، ولم يزل على حالته حتى اتهم فى فتنة الفرنسيين المتقدمة ، ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ، ولم يعلم له قبر » ، وواضح من كلام الجبرتى أنه كان يمارس مهنتين ، هما طبقاً للمصطلحات الحديثة : أستاذ جامعة ومستشار قانونى ، فهو يقوم بالتدريس فى الأزهر ، ويصدر الفتاوى فى القضايا المطروحة أمام القضاء ، وإلى جانب هذين العملين كان يحسم الخصومات ، قبل أن تأخذ طريقها إلى المحاكم ، كما أنه كان قوى الشخصية ، مهاباً .

وترجم الجبرتى للشيخ عبدالله الشبراوى ، فوصفه بأنه « الإمام العمدة ، الفقيه الصالح القانع » ، وقال عنه إنه تفقه على أشياخ عصره ، وذكر أسماء هؤلاء الشيوخ ، وكلهم من أعلام الأزهر ، ثم ذكر أنه تصـــدر للإقراء والتدريس والإفادة بالجوهرية ، وبالمشهد الحسينى ، وكان يقرأ فى دروسه كتب الحديث كالبخارى ومسلم ، وكان الجم الغفير من العامة يحرصون على حضور دروسه ، وكانوا يستفيدون منه « وكان حسن الإلقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، مقبلا على شأنه ، ولم يزل ملازماً على حالته حتى اتهم فى إثارة الفتنة ، وقتل بالقلعة شهيداً بيد الفرنسيس فى أواخر جمادى الأولى من السنة (١٢١٣) ، ولم يعلم له قبر » . ، ويتضح من ترجمة الجبرتى أن الشيخ عبدالله الشبراوى كان على حظ موفور من العلم بفضل ما أتيح له من فرص الدراسة على أيدى صفوة علماء الأزهر ، وأن تخصصه الضيق كان فى علم الحديث ، وأن كثيرين من العامة كانوا يحرصون على شهود حلقاته العلمية التى كان يتصدرها فى الجوهرية ، ومسجد الإمام الحسين ، وقد اجتمعت له من الصفات العلمية والخلقية ، ما جعلت منه عالماً أزهرياً مرموقاً .

وكان العالم الثالث الذى ترجم له الجبرتى من شهداء الأزهر هو الشيخ

يوسف المصيلحى ،وقد نعته بقوله : إنه « الشاب الصالح ، والنبيه الفالح ، الفاضل الفقيه .... » ، وأنه حضر دروس أشياخ العصر ، كالشيخ الصعيدى والشيخ البراوى ، والشيخ عطية الأجهورى ، والشيخ أحمد العروسى ، واتصل اتصالا وثيقاً بالشيخ محمد المصيلحى ، إلى أن قال : « وأملى دروساً بجامع الكردى بسويقة اللالا ، وكان مهذب النفس ، لطيف الذات حلو الناطقة مقبول الطلعة ، خفيف الروح ، ولم يزل ملازماً على حاله ، حتى اتهم أيضاً فى حادثة الفرنسيس ، وقتل مع من قتل ، شهيداً بالقلعة » . والمعانى المستفادة من ترجمة الجبرتى أن مجتمع العلماء افتقد عضواً عاملا كان فى الاستطاعة أن يثرى الحياة العقلية فى البلاد ، بفضل الدراسات التى تلقاها من كبار علماء الأزهر ، واتصالاته بهم ، واشتغاله بالتدريس ، وقدكان ينتظره مستقبل علمى زاهر ، لولا أن الفرنسيين قتلوه ، وهو فى مستهل حياته العلمية .

وأفرد الجبرتى ترجمة ضافية للشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة المكفوفين ، فقال : كان يستغل المكفوفين ، فيجرد مجموعات منهم إلى الملتزمين ، ونظار الأوقاف ، لاستيفاء المبالغ المطلوبة منهم له ، بصفته شيخاً لطائفة المكفوفين . وكان يمارس أعمالا تجارية واسعة ، أثرى منها ثراء واسعاً ، فكان يبيع الغلال والسمن والعسل والسكر والزيت ، وكانت له مطاحن لطحن الغلال ، وأنشأ مخبزاً لإنتاج خبز من صنف ردىء يخصص للمكفوفين ، وكان يلجأ إلى الاستيلاء التعسفى على ميراث أفراد الطائفة ، وكان كثير من المكفوفين يتركون ثروات ضخمة ، عبارة عن أموال سائلة ، وانتهى به الأمر إلى أنه أصبح من كبار الشخصيات فى مجتمع القاهرة ، أو كما يقول الجبرتى : « صار المترجم من أعيان الصدور المشار إليهم فى المجالس ، تخشى سطوته ، وتسمع كلمته ، ويقول قال الشيخ كذا ، وأمر الشيخ بكذا ، وصار يلبس الملابس والفراوى ، ويركب البغال ، وأتباعه محدقة به ، وتزوج الكثير من النساء الغنيات الجميلات ،

واشترى السرارى البيض والحبش والسود ، وكان يقرض الأكابر المقادير الكثيرة من المال ، ليكون له عليهم الفضل والمنة ، ولم يزل حتى حماه التفاخر فى زمن الفرنسيس على تولية كبر (١) إثارة الفتنة التى أصابته وغيره ، وقتل فيمن قتل بالقلعة ، ولم يعلم له قبر . وكان ابنه معوقاً (٢) ببيت البكرى ، فلما علم بموته قلق ، وكاد يخرج من عقله ، خوفاً على ما يعلم مكانه من مال أبيه ، حتى خلص(٣) فى ثانى يوم بشفاعة المشايخ ، ولم يكن مقصوداً بالذات ، بل حضر ليعود أباه : فحجزه القومة (٤) عليهم ، زيادة فى الاحتياط » . ونخلص من كلام الجبرتى إلى أن الشيخ سليمان الجوسقى كان على قدر كبير من الصرامة والجبروت ، وأنه كان يحب المال والنساء حباً جماً ، وأنه كان من المحرضين على الثورة .

وكان الشيخ اسماعيل البراوى هو آخر من ترجم له الجبرتى من علماء الأزهر الشهداء ، وقال عنه إنه «كان قليل البضاعة ، إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتداخل ، وذلك هو الذى أوقعه فى حبائل الفرنساوية ، وقتل مع من قتل شهيداً ، ولم يعلم له قبر » ، ويتضح من ترجمة الجبرتى له أنه كان أقل العلماء الشهداء مكانة علمية ، لأن بضاعته قليلة من العلم ، ولكنه كان خطيباً مفوهاً ، وأنه استغل هذه الموهبة فى مخاطبة الجماهير ،

---

(١) كبر الشىء أى معظم الشىء وأكبر أقسامه ، وهى تنطق بكسر الكاف وسكون الباء ، ومعنى العبارة أن الشيخ سليمان الجوسقى تولى القسط الأكبر من التحريض على الثورة وإثارة الفتنة وقد دفعنا إلى ذكر هذا الإيضاح أن الأستاذ أحمد حافظ عوض قد حذف هاتين الكلمتين (تولية كبر) وهو ينقل النص عن الجبرتى ، ولعله اعتقد أنهما خطأ مطبعى ، والآية القرآنية الكريمة حاسمة ، «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم» الفقرة الأخيرة من الآية ١١ سورة النور انظر : أحمد حافظ عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٦ .

(٢) أى محجوزاً ، أو محددة إقامته .

(٣) أى أطلق سراحه .

(٤) القائمين على حراسة المعتقلين .

محرضاً لهم على الثورة (١) .

ويلاحظ أن الجبرتى لم يترجم إلا لخمسة من علماء الأزهر الذين أعدمهم الفرنسيون فى أعقاب الثورة ، وليس معنى ذلك أن الأزهر لم يفجع إلا فى خمسة من علمائه ، وقد ذكرنا من قبل أن الشيخ عبد الله الشرقاوى — شيخ الأزهر — قد قرر أن الفرنسيين قتلوا نحو ثلاثة عشر عالماً من علماء الأزهر، والتفسير الذى يساق فى هذا الصدد لإغفال الجبرتى ترجمة باقى علماء الأزهر الشهداء ، هو أنه اكتفى بخمسة منهم ، كى يفسح لنفسه مجالا لترجمة الشهداء الآخرين مثل السيد محمد كريّم حاكم الإسكندرية الوطنى ، والأمراء المماليك الذين سقطوا فى معركة إمبابة . ومما يؤيد هذا التفسير أن الجبرتى لم يترجم إلا لثلاثة من الأمراء المماليك ضحايا معركة إمبابة ، مع أنهم تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح ، سواء من قتل منهم فى ساحة الوغى ، أو غرقاً فى النيل ، فترجم لاثنين من القتلى ، ولواحد من الغرقى (٢) ، كما ترجم لأمير مشهور مات حتف أنفه فى الشام ، هو صالح بك أمير الحج ، وعلى ذلك فإن علماء الأزهر الخمسة الذين خصهم الجبرتى بترجمته كانوا يشكلون أكبر نسبة فى تراجم وفيات سنة ١٢١٣ (١٥ يونيــو ١٧٩٨ — ٤ يونيو ١٧٩٩) ، وكانت نسبة تراجم مجتمع العلماء تفوق نسبة تراجم مجتمع العسكريين (٣) .

---

(١) تراجم هؤلاء العلماء الشهداء فى وفيات سنة ١٢١٣ ، فى الجبرتى ٣ ج ص ٦١ — ٦٢

(٢) ترجم من قتلى المعركة للأمير على بك الدفتردار ، وعبد الله كاشف الجرف تابع عثمان بك ذى الفقار الكبير ، وترجم من الغرقى للأمير إبراهيم بك الصغير ، المعروف بالوالى .

(٣) مجتمع العلمــاء ٧
مجتمع العسكريين ٤
حاكم الإسكندرية الوطنى ١
(السيد محمد كريم)
——
١٢

صور أخرى من تنكيل الفرنسيين بالشعب :

مضت بكل نشاط عمليات القبض على كل من حامت حولة شبهة التحريض على الثورة . والجبرتى ، وهو يسجل أحداث يوم الأحد١٨جمادى الأولى١٢١٣ (٢٨ أكتوبر ١٧٩٨) ، يتكلم عن « استمرار القبض على الناس ، وكبس البيوت بأدنى شبهة » وأكد بونابرت هذه الحقيقة فى رسالة مؤرخة فى ٢٧ أكتوبر إلى الجنرال رينيــه Reynier الحاكم العسكرى لمديرية الشرقية قال فيها : « إن السكينة قد عادت إلى القاهرة ، وفقد الثوار قرابة ألفى قتيل ، وفى كل ليلة تقطع رءوس نحو ثلاثين من الرجال ، وزعماء الأهالى » وأعتقد أن هذا العمل سيكون درساً نافعاً »(١) . ويعترف الضابط دى لاجونكيير De La Jonquière بأن إعدام الكثيرين قد تم بحد السنك فى القلعة سراً وبدون محاكمة (٢) . وامتدت موجــة الانتقام إلى السيدات المصريات . وقد كشف عن هــذه الحقيقة فى مذكراته دى بوريين Louis Antoine Fauvelet de Bourienne السكرتير الخاص لبونابرت(٣)

---

(١) وثيقة رقم ٣٥٣٩ مؤرخة فى ٦ من شهر بروميير السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ من أكتوبر ١٧٩٨) .

انظر :

Correspondance de Napoléon; t; V;

(٢) De La Jaonquière; op. cit. t. lll; p 283;

(٣) نشرت النسخة الفرنسية لمذكرات دى بوريين بعنوان :

Bourienne (L. A. Fauvelet de); Mémoires de M. de Bourienne; ministre d'Etat sur Napoléon; le Directoire; le Consulat; l'Empire et la Restauration Paris; 1829, 10 vols;

وظهرت الترجمة الإنجليزية لهذه المذكرات بعنوان غير دقيق علمياً فى كتاب يقع فى عشرة أجزاء عنوانه : The Life of Napoléon. by William Hazlitt

أفرد فيه أربعة أجزاء لمذكرات دى بوريين هى الأجزاء : السابع والثامن والتاسع والعاشر . وخصص الأجزاء الستة الأولى لعرض تاريخ نابليون . وقد تولت جمعية فى نيويورك ، أسمها The Grollier Society نشر الأجزاء العشرة .

فقد قرر أن عدداً كبيراً من المقبوض عليهم كانوا يساقون إلى القلعة ، وكان فى كل مساء يتولى بنفسه كتابة أوامر الإعدام ، وكانت تتضمن أسماء إثنى عشر معتقلا كل ليلة ، وكانت توضع جثثهم فى زكائب وتغرق فى النيل ، «وكانت هناك نساء كثيرات ، ممن نفذت فيهن أوامر الإعدام الليلية» (١) .

برتلمى يواصل تنكيله بالشعب :

وكان هذا الجو الإرهابى ،الذى عاشت فيه القاهرة عقب إخماد الثورة، فرصة ذهبية لوكيل محافظة القاهرة برتلمى اليونانى — أو فَرْط الرُمَّان — ، للتشفى من الشعب المصرى ، وإشباع هوايته فى التنكيل بأبناء البلاد ، التى آوته من خوف ، وأطعمته من جوع . وقد جعل الفرنسيون منه شخصية آمرة ، متحكمة ، متعالية ، متعسفة ، تبطش بالمصريين فى غير رحمة أو هوادة ، وبغير مقتضى أو سبب جدى . ويصف الجبرتى دور هذا اليونانى القبيح فى التنكيل بأهل القاهرة ، بعد أن ألقى الثوار أسلحتهم فيقول : «وانتدب برطلمين للعسس عـلى من حمل السلاح ، أو اختلس ، وبث أعوانه فى الجهات يتجسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وما ينهيه النصارى من أبغاضهم ، فيحكم فيهم بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثوقون بين يديه بالحبال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات ،

---

(١) «Numerous prisoners were conducted to the citadel; In obedience to an order which I wrote every evening; twelve were put to death nightly The bodies were then put into sacks and thrown into the Nile. There were many women included in these nocturnal executtons» .

انظر :

de Bourienne; Memoirs of Napoléon. vol 1., p 188

ويطالبونهم بالمنهوبات ،ويقررونهم (١) بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض . وكذلك فعل مثل ما فعل اللعين الأغا (٢) ، ونجبر فى أفعاله وطغى ،وكثير من الناس ذبحوهم ،وفى بحر النيل قذفوهم ،ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة ، لا يحصى عددها إلا الله ،وطال بالكفرة(٣) بغيهم وعنادهم ، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم» (٤) .

وعهد بونابرت فى ٢٦ أكتوبر ١٧٩٨ إلى هذا اليونانى القبيح بالذهاب مع قوة من رجال الشرطة فى اتجاه منطقة القبة والخانكة ، ويتجول فى عشر قرى تكون أقرب القرى إلى القاهرة ، ويداهم بيوتها ، بحثاً عن الخطابات التى كتبها أعضاء مجلس الثورة إلى مشايخ القرى وسكانها ،وطلبوا فيها منهم الحضور إلى القاهرة لمساندة الثوار . وطلب بونابرت منه أيضاً أن يجد فى جمع المعلومات المتصلة بهذا الموضوع (٥) . ويقول الجبرتى : إن برتلمى سافر فى ٢٨ من أكتوبر إلى بلدة سرياقوس «ومعه جملة من العسكر بسبب الناس الفارين إلى جهة الشرق فلم يدركهم ، وأخذ من فى البلاد ، وعسف فى

(١) أى يستخدمون معهم وسائل التعذيب كى يعترفوا .

(٢) الأغا ، يقصد به محافظ القاهرة ، وكان اسمه مصطفى أغا ، وهو ثانى محافظ يعين للقاهرة أيام الاحتلال الفرنسى ، وكان معروفاً عنه أنه من عملاء الفرنسيين ، وقد لقى مصرعه إبان ثورة القاهرة الثانية .

(٣) تؤكد هذه اللفظة « الكفرة » الطابع الدينى للمجتمع المصرى فى ذلك الوقت

(٤) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٥) وثيقة رقم ٣٥٣١ عبارة عن أمر أصدره بونابرت فى الخامس من شهر بروميير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٦ من أكتوبر ١٧٩٨) إلى الجنرال برتييه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى ، لتبليغه إلى ذلك اليونانى برتلمى .

انظر

Correspondance de Napoléon; t. V.

تحصيلها ، ورجع بعد أيام »(١) .

خسائر الشعب فى ثورته :

تكبد الشعب فى ثورة أكتوبر خسائر فادحة فى الأرواح ، إذ ارتفع عدد الضحايا إلى أربعة آلاف قتيل ، وقد استقينا هذا التقدير الرقمى من ريبو مؤرخ الحملة(٢) ، وهو يتفق فى هذا التقدير مع ما جاء فى مذكرات الجنرال بليار (٣) ، وهو أقرب إلى الحقيقة . أما بونابرت فقد قرر فى التقرير الذى وضعه عن ثورة القاهرة الأولى ،وأرسله إلى حكومة الديركتوار بتاريخ ٦ برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى(٤) أن عدد الضحايا المصريين يتراوح بين ألفى قتيل ، وبين ألفين وخمسمائة قتيل(٥) .

وقد بلغت خسائر الجانب الفرنسى نحو ثلثمائة قتيل ، منهم ضابط برتبة لواء ، هو الجنرال ديبوى ، الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة ، وضابط برتبة مقدم ، هو سلكوسكى ياور بونابرت ،وبعض الضباط والمهندسين من ضباط سلاح المهندسين وبعض العلماء ، وكان الباقون من الجنود ، وقد تخبط بونابرت فى ذكر عدد ضحايا الفرنسيين ، فقد قرر فى مذكراته أن خسائرهم قد بلغت ثلاثمائة ، منهم مائة قتيل ، فى حين أنه كان قد

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٢) Reybaud Louis et autres. op. cit.; t. IV. p. 181.

(٣) Mémoires du comte Belliard, lieutenant-général. pair de Framce. écrits par lui-méme. recueillis et mis en ordre par M. Vinet; un de ses aides de camp. Pairs 1842. 3 vols.

(٤) يقابل السابع والعشرين من شهر أكتوبر ١٧٩٨ .

(٥) انظر النص الرسمى لهذا التقرير فى كل من :

Napoléon ler; Guerre d'Orient etc. op. cit. t. I; pp. 369-371

———; Correspondance de Napoléon. t. V. doc. no. 3538 au Directoire Exécutif.

هبط بهذا العدد إلى ستة وثلاثين قتيلا فى تقريره الذى رفعه إلى حكومة الديركتوار ، والذى سبقت الإشارة إليه ، ولاشك أنه استهدف من ذكر هذا الرقم المتواضع ، التقليل من شأن ثورة سكان القاهرة ، حتى لا يضيف مزيداً من عوامل الإثارة أو القلق فى نفوس أعضاء حكومة الديركتوار . وكان بونابرت حريصاً على تكذيب الأنباء التى كان أعداء فرنسا ينشطون فى إذاعتها ، كنوع من أنواع الحرب النفسية ، ويعتقد الرأى العام الفرنسى أن الحملة واجهت ثورة هادرة من القاهريين ، وأن المتاعب تلاحقها بعد الضربة الأليمة التى أصابتها فى معركة أبى قير البحرية .

ويعلق الأستاذ الرافعى على نتائج ثورة أكتوبر بقوله : « وانتزعت الثقة بين الجنود والأهالى ، فكانت ثورة القاهرة كالهوة العميقة التى باعدت إلى الأبد بين الأمة المصرية والجيش الفرنسى ، وراح كل جندى لا يمشى إلا بسلاح ، بعد أن كانوا لا يمشون به أصلا ، من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل فى يده عصا أو سوطاً ، أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هؤلاء من جهتهم عن الخروج ، والمرور بالأسواق، من العشية إلى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدة والقسوة .... وساد حكم الإرهاب فى مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ، ولا طمأنينة (١) » .

ثورة القاهرة ثورة دينية

يحاول فريق من الباحثين أن يضفوا على هذه الثورة الطابع القومى le caractère national ، أو الطابع الوطنى le caractère patriotique ، وينسى هولاء الباحثون أن المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر كان مجتمعاً دينياً متزمتاً ، تغلب على أفراده ثقافة دينية ، وتسيطر عليه آراء دينية ،

(١) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ج ١ ، ص ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

ر توجهه دوافع دينية ، ويتحسس هؤلاء الباحثون الأسانيد فى عبارات ينتحلونها من تاريخ الغرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولا يقيمون وزناً للفروق الصارخة بين المجتمع الإسلامى فى مصر فى القرن الثامن عشر ، والمجتمعات الأوروبية فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

كانت الهتافات التى رددها الثوار هتافات دينية بحتة ، لا تمت بأى صلة إلى الشعارات أو المفاهيم القومية والوطنية ، ويعطى الجبرتى صورة نابضة بالحياة عن بداية ثورة أكتوبر ١٧٩٨ فيقول : « وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، **وعلى الجهاد عازمين** ، وأبرزوا ماكانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية ، وزعر(١) الحارات البرانية ، ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم ، ويقولون بصياح فى الكلام : **نصر الله دين الإسلام** » (٢) ، وهناك معاصر آخر لأحداث الثورة هو المعلم نقولا ترك ، يقول فى مذكراته عن بداية الثورة ، إن أحد شيوخ الأزهر طاف فى أول يوم من أيام الثورة بشوارع القاهرة ينادى بأعلى صوته : « **إن كل مؤمن موحد بالله ، عليه أن يذهب إلى الجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغى علينا أن نجاهد الكفار** » (٣) .

نستخلص من عبارتى الجبرتى ونقولا ترك ثلاثة عناصر حددت موقف سكان القاهرة من هذه الثورة :

أولا : إن الدعوة إلى الإشتراك فى الثورة كانت مقصورة على « المؤمنين الموحدين بالله » وهو وصف ينطبق على سكان القاهرة المسلمين دون سواهم .

---

(١) زعر : معناها أناس ذو شراسة .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

(٣) النص الحرفى لعبارة نقولا ترك هو « نزل أحد المشايخ الصغار ، وكان من مشايخ الأزهر وبدأ ينادى فى المدينة إن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغى لنا أن نغازى فى الكفار »

(مذكرات نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيت ، ص ٢٨ من الأصل العربى) .

ثانياً : إن الجامع الأزهر كان مكان حشد التجمعات الجماهيرية الإسلامية تتلقى فيه الأوامر ، أو الأسلحة ، أو الذخائر من قادة الثورة (١) .

ثالثاً : إن الحرب التى يخوضها أهل القاهرة المسلمون ، كانت حرب جهاد دينى ، استهدفت الانتصار لدين الإسلام ، ولم يطلق فيها الثوار الهتافات التى عرفتها مصر فى القرن العشرين بوجه خاص مثل : مصر للمصريين ، أو يحيا الاستقلال التام ، ولم يهتف الثوار بحياة السيد محمد السادات زعيم الثورة ، أو باسم أى زعيم مصرى آخر ، لأن أى زعيم مصرى ، مهما بلغت مكانته ، ومهابته ، ونفوذه فى نفوس الجماهير ، كان يتضاءل مركزه ، إذا قورن بسلطان الدولة العثمانية ، على أساس أنه سلطان المسلمين.

ويجمع على هذه الحقيقة المؤرخون والباحثون المصريون ، ممن عرفوا بالأصالة ، وسلامة الحكم والتقدير . فالأستاذ محمد شفيق غربال يذكر فى بحث له : « ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين ، وقام الفلاحون فى الأقاليم كلما أتيحت لهم فرصة ؛ وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفى لتفسير هذا الكره ، دون أن نلجأ إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب فى القرن التاسع عشر . **والتاريخ الصحيح لا يجد فى الفتن الشعبية بالقاهره والأقاليم ، إلا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة فى العودة لما ألفه الناس ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالا ، وإنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية**»(٢)، ثم يقول عن السيد محمد السادات قائد الثورة : «إنه كان من أكثر

(١) تظهر الفروق واضحة تماماً بين الأزهر فى سنة ١٧٩٨ ، حين كان مركزه ثورة دينية وبين الأزهر فى ١٩١٩ ، حين غدا مركز ثورة وطنية ، جمعت عنصرى الأمة المصرية ، وتردد الأقباط على الجامع الأزهر ، يخطبون من فوق منبره ، داعين إلى الثورة من أجل الحرية والاستقلال . وقد تضامن المسلمون والأقباط تضامناً ، برزت معه وحدة الأمة المصرية ، وصنع الأهالى أعلاماً جديدة ، رسموا فيها الصليب متعانقاً مع الهلال .

(٢) محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب ، والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٥ .

العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه ، **ومن أشدهم سعياً لإعادة الحكم العثمانى** (١) ، ويصور الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ثورة القاهرة الأولى بأنها انفجار للشعور الدينى عند المصريين ، فهو يقول : « وظل الفرنسيون يحكمون البلاد نحو ثلاث سنين ، تحقق الشعب خلالها أن هؤلاء المغيرين يخالفونه فى الدين ، ويخالفونه فى اللغة ، ويخالفونه فى الحياة الاجتماعية التى يحياها : رآهم يقيمون المراقص العامة ، ورأى لهم طرائق فى معاملة النساء لم يعهدها ، ورآهم يحتمون عليه أموراً لم يألفها ، فاعتقد أن ذلك تدخل منهم فيما لا يعنيهم : كدفن الموتى خارج المدن ، ورش الشوارع بالماء ، وتعليق الفوانيس ، ورآهم يقومون بأعمال رابته ، وأقلقت باله ، كهدم أبواب الحارات ، وما شاكل ذلك . **ومن ثم تهيأت الأسباب لينفجر الشعور الدينى عند المصريين فى ثورة جامحة فى القاهرة ، وكثير من مدن الأقاليم** (٢) » .

ولدينا دليل مادى ، على أن العاطفة الدينية كانت تسيطر على تصرفات المصريين فى ذلك الوقت ، وأنها ازدادت بروزاً ووضوحاً فى توجيه الأحداث فى مصر ، منذ أن دخل الفرنسيون البلاد . كان عدد من المماليك قد وقعوا أسرى فى أيدى الفرنسيين فى أثناء المعارك التى خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين . ولكن سرعان ما تناسى الشعب المصرى المظالم التى انهالت عليه إبان حكم المماليك الجائر ، وبخاصة على عهد الحكم الثنائى الذى تولاه إبراهيم بك ومراد بك . فما أن انتصر الفرنسيون بسلاح مدفعيتهم الرهيب على فرسان المماليك ، وأذلوهم حتى أصبح هؤلاء المماليك موضع الشفقة والرثاء من المصريين ، وتبخرت الكراهية التى كان يشعر بها الشعب نحوهم ، ونظر لهم على أنهم إخوة له فى العقيدة الدينية ، وتجلى هذا الشعور فى نفوس مختلف

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢١ .

طبقات الشعب ، من كبار المشايخ علماء الأزهر ، إلى رجل الشارع الفقير ، تدخل علماء الأزهر أعضاء الديوان لدى بونابرت كي يطلق سراح أسرى المماليك ، ونجحت الوساطة ، ولاذ المماليك بالجامع الأزهر ، حيث لقوا عطف الفقراء قبل الأثرياء . وكانت الوشيجة الدينية هي العامل الأول فى هذا التعاطف . يصف الجبرتى هذا الشعور النبيل وهو يستعرض حوادث شهر صفر ١٢١٣ (١٥ يوليو — ١٢ أغسطس ١٧٩٨) فيقول : « تشفع أرباب الديوان فى أسرى المماليك ، فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم ، فدخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر ، وهم فى أسوأ حال ، وعليهم الثياب الزرق المقطعة ، فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ، ويتكففون المارين ، وفى ذلك عبرة للمعتبرين » (١) .

وهناك تعليق دقيق على هذه الحادثة ، وعلى رواية الجبرتى لها ، وقد صدر هذا التعليق عن الأستاذ ج . كرستوفر هيرولد J. Christopher Herold فقال : إن المماليك والعثمانيين مسلمون ، حقيقة أنهم قد يعتصرون أرزاق المصريين ، ويستولون على أملاكهم ، ولكنهم إخوة للمصريين فى الدين ، ثم قال : إن الجبرتى مسلم مستنير ، وعباراته تحمل الكثير مما يعتبره الإسلام خلقاً جديراً بالإعجاب العظيم : وهو أن يقدم المظلومون الطعام إلى ظالميهم المنهزمين بدافع الشعور بالأخوة فى العقيدة الدينية ، أكثر من الشعور بالشفقة عليهم (٢) . وهناك أيضاً أحد كبار الصحفيين النابهين فى مصر المعاصرة ، وصاحب جريدة « كوكب الشرق » ، وهو الأستاذ أحمد حافظ عوض ، كان أسبق من كرستوفر هيرولد فى تصوير الشعور الدينى الفياض لدى الشعب المصرى فقال : إن المصريين كانوا على عهد الحملة الفرنسية متعلقين بحكم المماليك الذين لم يكونوا يقلون فى الأجنبية عن الفرنسيين ، سوى

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٢) الترجمة العربية ، لكتاب « بونابرت فى مصر » ، ص ١٩٥ .

أن أولئك كانوا مسلمين ، وإن كان إسلامهم ضعيفاً ، وهؤلاء غير مسلمين »(١) .

هذا هو موقف الشعب المصرى من المماليك إبان الحكم الفرنسى ، وهو موقف أملاه التعاطف الدينى ، وهذه هى نظرته إليهم ، وهى نظرة قائمة على الإخاء فى الدين ، وقد شكل ذلك الموقف وهذه النظرة العلاقات بين الشعب المصرى والعثمانيين . وقد وقع حادث قبيل اندلاع ثورة أكتوبر ١٧٩٨ يدل على مدى تعلق الشعب المصرى بالعثمانيين ، وأنه كان ينظر إليهم على أنهم حماة الإسلام ، المدافعون عن دياره .

كان أحد العسكريين العثمانيين معتقلا فى الإسكندرية ، ثم أطلق الفرنسيون سراحه ، وجاء إلى القاهرة فى ١٤ من سبتمبر ١٧٩٨ ، وذهب إلى منطقة الأزهر لزيارة المشهد الحسينى ، ولم تكد تقع أعين الجماهير عليه حتى ابتهجوا لمقدمه ، وتزاحموا على رؤيته ، وكأن دهوراً طويلة قد مرت دون أن يروا الجنود العثمانيين ، أو عساكر سلطان المسلمين ، واختلفت تفسيراتهم لمجيئه ، وذهبوا فى ظنونهم مذاهب شتى ، فقالوا : « إن هذا رسول ألجى(٢) ، حضر من عند السلطان بجواب للفرنسيس يأمرهم بالخروج من

---

(١) أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .

(٢) إلجى : لفظة تركية معناها : سفير ، وهى تكتب أحياناً بالجيم المعطشة فى إحدى ثلاث صور : إلجى ، آلجى ، إيلجى .

ولكن الكلمة الأكثر استعمالا فى المصادر التاريخية الخاصة بمصر إبان الحكم العثمانى هى الجى وهى تتكون من مقطعين : إل : معناها السلم ، أو السلام أو التحالف . والثانى جى : ومعناها رسول السلام . والأتراك العثمانيون يستخدمون فى هذا الصدد ثلاثة مصطلحات :

بيوك إيلجى : ومعناها سفير .

إيلجى مرخص : ومعناها وزير مفوض .

أورته إيلجى : ومعناها وزير مقيم .

مصر » ، وتقاطرت الجماهير نحو المشهد الحسينى ،وتجمهروا فى المنطقة . ونقل رجال المخابرات الفرنسية تفاصيل هذا الحادث إلى بونابرت ،وأضافوا إليه أن خطاباً ورد إلى المشايخ علماء الأزهر ، وأنهم أخفوه . ويبدو أن هذا النبأ بشقيه أثار بونابرت . فأسرع فى موكب كبير من الفرسان والمشاة إلى دار الشيخ محمد السادات ، على مقربة من مسجد الإمام الحسين ،وكان وقت القيلولة ، والشيخ منحرف المزاج ، فأنزعج وهبط من الدور العلوى لمقابلة بونابرت ، وهو لا يعلم السبب فى حضوره إلى داره فى مثـــل ذلك الوقت ، وعلى تلك الصورة.واستفسر بونابرت عن الخطاب الذى ورد إليه، فقال إنه لايعرف عنه شيئاً ، وطال الحديث بينهما ما يقرب من ساعة ، ثم خرج بونابرت وعاد فى موكبه ماراً بباب مسجد الحسين ، وكان الزحام قد اشتد داخل المسجد وخارجه ، والجميع يرنون بأبصارهم نحو القادم العثمانى فلما شاهدوا بونابرت استبد بهم الغضب ،وصاحوا بكلمة واحدة انطلقت من حناجرهم فى صوت رهيب دوى كالرعد : « الفاتحة » فشخص بونابرت إليهم ، واستفسر من مترجميه عن معنى كلمة« الفاتحة »، فلطفوا له القول وقالوا له : « إن المصرين يدعون لك ، وذهب إلى داره ، وكانت نكتة غريبة ، وساعة اتفاقية عجيبة ، كاد ينشأ منها فتنة »(١) .

نخلص من هذا كله إلى أن ثورة أكتوبر ١٧٩٨ كانت ثورة دينية تنادى

= ويستخدم الجبرتى لفظة إيلجى فى يومياته بمعنى رسول صاحب مقام رفيع ، موفد من قبل السلطان ، أو الصدر الأعظم ، فى مهمة رسمية خطيرة .

انظر :

Barbier de Meynard, Dictionnaire turc-français, Paris, 2 vols., 1881-1886, vol I ,p. 105, et p. 235.

Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes.2 éd., Leyde-Paris, 1927. t. I, p. 33.

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ص ١٧ — ١٨ .

إليها رجال الأزهر ، واعتمدوا على الإثارة الدينية ، وكانت الدعوة إلى المشاركة فى الثورة مقصورة على المسلمين ، وقام الأزهريون بالدور الرئيسى فيها ، سواء فى التخطيط لها ، أو فى زعامتها ، أو فى المشاركة فى أحداثها مشاركة إيجابية فعالة ، وهم الذين تحملوا نصيبهم موفوراً من ويلاتها ، كما استهدف معهدهم العتيد — الجامع الأزهر — لقصف المدفعية الفرنسية قصفاً شديداً ، ثم انتهك جنود الجيش الفرنسى حرماته .

ثورة القاهرة ثورة نظيفة :

وكما كانت ثورة القاهرة التى اشتعلت فى أكتوبر ثورة دينية ، كانت أيضاً ثورة نظيفة ، لم يتطاول الثوار المسلمون فيها على إخوانهم الأقباط ، ولم تقع اعتداءات على أموالهم ، أو ممتلكاتهم ، أو أشخاصهم ، بل وجه الثوار طاقتهم كلها لمحاربة الفرنسيين ، وهذه ظاهرة جديرة بالتسجيل ، لأن المجتمع فى مصر كان مجتمعاً دينياً متزمتاً ، ولكن كانت هناك مظاهر تعاطف بين المسلمين والأقباط ، أشار الجبرتى إلى بعضها(١) ،ولذلك اختلفت ثورة أكتوبر عن الثورة التى اندلعت فى القاهرة فى (١٦ من شوال ١٢١٤ — ٢٠ من مارس ١٨٠٠) ضد الفرنسيين ، إذ وقعت فيها اعتداءات طائفية مؤسفة ، ومراد هذا الاختلاف إلى أن قيادة الثورة الأولى كانت مصرية خالصة ، تمثلت فى رجال الأزهر ، بينما كانت قيادة الثورة الثانية يتقاسمها العثمانيون والمماليك والمصريون ، وكان موقف الزعماء المصريين مثل الشيخ محمد السادات ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ الجوهرى ، والسيد أحمد المحروقى ، والحاج مصطفى البشتيلى موقفاً سليماً ونبيلا : وجهوا الشعب لمحاربة الفرنسيين دون سواهم ، ووزعوا الثوار على مختلف مواقع العاصمة وأطرافها ، ووراء المتاريس ، وقاموا بالإنفاق عليهم ، وبدت من الزعماء المصريين

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ .

صور رائعة من التكافل الاجتماعى(١)، أما العثمانيون والمماليك مثل ناصف باشا ، ونصوح باشا ، والأمير إبراهيم بك ، ومحمد بك الألفى ، وحسن بك الجداوى ، وعثمان بك الشرقاوى ، وعثمان بك الأشقر ، فكانوا يأمرون الثوار بالأعتداء على الأقباط ، وقد ذكر الجبرتى أن نصوح باشا صاح فى العامة : « اقتلوا النصارى ، وجاهدوا فيهم(٢) » ، وهى دعوة منكرة ، لم يصدر مثلها عن زعماء الثورة المصريين .

العلاقة بين الشيخ السادات والفرنسيين :

وتجرنا أحداث ثورة القاهرة الأولى إلى شرح العلاقة بين الشيخ محمد السادات رئيس لجنة الثورة وبونابرت . كان السادات على رأس علماء الأزهر الذين رفضوا عضوية الديوان منذ اليوم الأول الذى أصدر فيه بونابرت قراراً بتشكيل ديوان القاهرة ، ومع ذلك فقد كان موضع رعاية خاصة من بونابرت . أهدى إليه بونابرت فى أوائل شهر سبتمبر ١٧٩٨ خاتماً من الماس(٣)، كما كان يتردد عليه فى داره القريبة من المشهد الحسينى . ولكنه كان يتوجس خيفة من نشاطه ، ويحسب حساباً كبيراً لمكانته العالية فى المجتمع القاهرى بالذات ، وكان يعتقد أنه على صلات وثيقة بالأمراء المماليك ، وبعملاء السلطان ، وأنه يتلقى منهم رسائل سرية . وفى مذكرات بونابرت ما يشير إلى أن هذا الاتهام كان صحيحاً ، وأنه كان ضالعاً مع

---

(١) يقول الجبرتى : (باشر السيد أحمد المحروق ، وباقى التجار ، ومساتير الناس الكلف والنفقات ، والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر ، كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضاً ، وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة) .

ج ٣ ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ٩١ – ٩٢ .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٧ .

خصوم الحكم الفرنسى(١) ، ومع ذلك لم يكف بونابرت عن التودد إليه ، رغبة فى استمالته ، وقد أصدر بونابرت قراراً فى ٢٣ من أغسطس ١٧٩٨ بتشكيل لجنة برياسة الشيخ محمد الساداتوعضوية كارلو دى روستى Carlo de Rosetti قنصل النمسا العام ، والجنرال جونو Junot من قادة الجيش الفرنسى للنظر فى الظلامات التى يتقدم بها الأفراد من مصادرة ممتلكاتهم وأموالهم . ونص القرار على أن تعقد هذه اللجنة جلساتها يومياً من الساعة الثامنة صباحاً حتى الظهر(٢) . وقد رفض الشيخ السادات عضوية اللجنة . ولم يرد فى المصادر الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة باشرت مهمتها . ويهمنا أن تعيين الشيخ محمد السادات رئيساً لهذه اللجنة دليل على ما كان يكنه بونابرت له من تقدير وإجلال عميقين . كما يوجد بين أوراق بونابرت أمر أصدره فى السابع عشر من شهر سبتمبر ١٧٩٨ إلى بوسيلج Poussielgue مدير الشئون المالية بالجيش الفرنسى ، بوصيه خيراً بالشيخ محمد السادات ، ويطلب منه الإبقاء على جميع امتيازاته ، ومنها جميع القرى الداخلية فى التزام الشيخ السادات ، والأراضى الزراعية ، والمرتبات المقررة له من قبل من ديوان الروزنامة(٣) . وعلى الرغم من مظاهر الاحترام التى أوصى بونابرت بإضفائها عليه فقد ظل ثابتاً على مبدئه ، لم يبدله تبديلا ، فرأس لجنة الثورة فى أكتوبر ١٧٩٨ .

---

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., op. cit., t. I, pp. 244-245.

(2) Correspondance de Napoléon; t.IV, doe. no. 3083. en date du 6 fructidor, Vl année de la République, (23 aout 1798).

(3) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3332. le I jour complémentare, Vl année de la République. (17 septembre, 1798).

ولما تم إخماد الثورة استجوب الفرنسيون الشيخ محمد السادات ، فنفى عن نفسه تهمة التحريض على الثورة ، وقرر أنه كان مريضاً ، فلم يشترك فى أحداثها . ولم يأخذ بونابرت بهذا الدفاع ، وفكر فى توقيع عقوبة الإعدام عليه ، ولكنه عدل عن هذا الرأى ، لأنه أدرك أن الضرر من إعدامه أكثر من نفعه ، إذ أن إعدامه يجعل منه شهيداً فى نظر الشعب ، وكان يظفر بالاحترام العميق ، والتقدير البالغ فى كافة بلاد الشرق (١).

وذكر بونابرت حديثاً مثيراً ، دار بينه وبين الجنرال كليبر ، وكان الأخير قد جاء من الإسكندرية ، وذهب لمقابلة بونابرت فى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى ٢٢ من أكتوبر ١٧٩٨ ، ووقع بصره على الشيخ السادات ، وكان يبدو على الشيخ أنه شبه مقبوض عليه .

بونابرت : إنه زعيم الثورة .

كليبر : ولماذا لا تعدمه رمياً بالرصاص ؟

بونابرت : إن هذا الشعب يختلف عن شعبنا ، وعاداته تختلف عن عاداتنا . يجب أن يكون لهذا الشعب زعماء ، وإنى أفضل أن يكون زعماؤه من مثل هذا الطراز الذى لا يستطيع أن يركب حصاناً ، أو يمسك سيفاً ، إنى أفضل هذا الطراز من الزعماء ، على طراز زعماء مثل مراد بك وإبراهيم بك ، وإن إعدام هذا الرجل العجوز الضعيف لن ينجم عنه أى نفع ، بل سيكون له نتائج مؤسفة ، بالنسبة لنا ، غير ما تظن(٢) » .

• • •

وتأزمت العلاقات مرة أخرى بين الشيخ السادات وبونابرت ،

(1) Napoléon I ; Guerre d'Orient, etc., op. cit., t. I., p. 254.

(2) Loc. cit., p. 257.

حين أمر الأخير فى ٢٦ من يونيو ١٧٩٩ بعزل ملا زادة ابن القاضى العثمانى، واعتقاله فى القلعة. اعترض الشيخ السادات على القرار أمام رسول بونابرت وقال : إذا كان القاضى العثمانى قد انضم إلى وكيل الباشا، وغادر معه مصر، فيجب ألا يؤخذ الابن بما فعله الأب، وهذا الابن من أبناء العائلات الكريمة وهو بعيد عن موطنه الأصلى، ووالدته وسائر أفراد أسرته فى قلق زائد وحزن عظيم، وأضاف إلى ذلك قائلا : إن الفرنسيين يقولون دائماً إنهم أصدقاء للعثمانيين، ولكن اعتقال ابن القاضى العثمانى يعصف بهذا الادعاء، ويسىء الظن بالفرنسيين، ويكذب أقوالهم فى نظر المصريين.

ولما عاد الرسول إلى بونابرت، وترجم إليه ما قاله الشيخ السادات اشتد حنقه عليه، وأمر بإحضاره، وأنبه على موقفه، وحجزوه إلى ساعة متأخرة من الليل، وتدخل كل من الشيخ محمـــد المهدى والمندوب الفرنسى (القوميسير) بديوان القاهرة، واسمه جاوتيه Gloutier، واستطاعا تهدئة بونابرت، وسمح للشيخ بالانصراف. قال الجبرتى «فتكلم بينهما الشيخ محمد المهدى ووكيل الديوان الفرنساوى بالديوان حتى سكن غيظه، وأمره بالانصراف إلى منزله بعد أن عوقه (١) حصة من الليل»(٢).

واستمر الشيخ السادات تتمثل فيه أروع صور المقاومة للاحتلال الفرنسى. ولقى الكثير من صنوف الاضطهاد والتعذيب على أيدى الفرنسيين. ولكن لم تلن له قناة فكان من زعماء الثورة الثانية فى القاهرة واعتقل عقبها عدة مرات كما سنرى فى الفصل التالى.

بونابرت يوصى خلفه كليبر خيراً بعلماء الأزهر :

تطورت الأحداث فى فرنسا لغير مصلحتها فى أثناء وجود بونابرت فى

---

(١) عوقة معناها هنا حجزه.

(٢) انظر تفاصيل هذه الأزمة فى الجبرتى، ج ٣ ص ص ٧٢–٧٣.

مصر ، فاستقر رأيه على الرحيل إلى فرنسا سراً من بقعة مهجورة على ساحل سيدى جابر فى الإسكندرية فى ظلمة الليل ، خوفاً من أن يكشف الأسطول البريطانى أمره ويظفر به صيداً ثمينا ، ويغدو أخيذاً أسيراً ، يعيش فى ذل الإسار ، سنين عددا .

وفى ذات يوم رحيله ، ٢٢ من أغسطس ١٧٩٩ ، ترك رسالة ضافية إلى الجنرال كليبر الذى عينه قائداً عاماً للحملة ، شرح له فيها الخطة التى يسير عليها فى حكم مصر ، وكان مما جاء فى هذه الرسالة عن سياسة التعايش السلمى مع علماء الأزهر « وإنكم تعرفون ، أيها المواطن القائد ، نظرتى إلى السياسة الداخلية لمصر ، ومهما تفعلون فستجدون المسيحيين دائماً أصدقاءنا ، ولكن يجب منعهم من أن يتجاوزوا حدود الأدب مع مواطنيهم ، والاستخفاف بهم . . . . وإذا حصلتم على ثقة كبار مشايخ القاهرة كسبتم الرأى العام فى مصر كلها ، ومن بين الزعماء الذين يمكن أن يتخذهم هذا الشعب قادة له ، ليس هناك من هم أقل خطراً من المشايخ الذين هم قوم هيابون ، لا يعرفون القتال ، ولكنهم — شأنهم فى ذلك شأن القسيسين — يوحون بالتعصب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين »(١) .

وفى ذات اليوم الذى غادر فيه بونابرت مصر نهائياً ، وجه رسالة من الإسكندرية إلى أعضاء ديوان القاهرة ، وقد استهلها بهذه العبارة : « إلى ديوان القاهرة المختار من بين أكثر الناس استنارة ، وأكثرهم تعقلا » ، وذكر لهم أسباب سفره إلى فرنسا على النحو الذى أراد أن يصوره لهم ، وأخبرهم أنه سوف يعود إلى مصر ، ثم قرر أنه عهد بالقيادة العامة فى أثناء غيابه إلى الجنرال كليبر « وهو رجل ذو صفات ممتازة ، وقد أوصيته أن يحفظ للعلماء

---

(١) انظر الوثيقة رقم ٤٣٧٤ فى الجزء الخامس من مراسلات نابليون .
وانظر أيضاً :

Reybaud Louis et autres, op. cit., t VIII. pp. 2?? – 2??.

والمشايخ ما كنت أحفظه لهم من المحبة والود . فابذلوا ما في وسعكم ليثق به الشعب المصرى ثقته بى » ولدى عودتى بعد شهرين أو ثلاثة أشهر أكون راضياً عن الشعب المصرى، ولا أحمل للمشايخ إلا المديح وحسن الجزاء»(١)، ويختلف نص هذه الرسالة عن النص الذى أورده الجبرتى ، وينحصر هذا الاختلاف فى أن رواية الجبرتى لم ترد فيها إشارة إلى وصية بونابرت للقائد كليبر بمجاملة علماء الأزهر ، ومرد هذا الاختلاف إلى أن الجبرتى باعترافه ذكر « مضمون الكتاب» (٢) .

صفات كليبر تنذر بوقوع صدام مع علماء الأزهر :

ولكن كان من أبرز صفات كليبر الصرامة العسكرية . أما الأساليب الدبلوماسية فى معاملة الجماهير فلم يكن له منها نصيب . وقد دلت تصرفاته، فى أثناء قيادته للحملة الفرنسية بعد رحيل بونابرت إلى فرنسا ، على أنه كان يتسم بالغرور والميل إلى سياسة البطش والتنكيل بالشعب وإهانة العلماء والشغف بالمظاهر الشكلية . وقد لاحظ عليه علماء الأزهر هذه الصفات . ذهب وفدمنهم للسلام عليه بمناسبة تقلده منصبه الجديد ولكنه رفض مقابلتهم ووعدهم إلى اليوم التالى . ولما تمت المقابلة «لم يروا فيه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته ، فإنه كان بشوشاً يباسط الجلساء ويضحك معهم »(٢) وحتم على أن يؤدى له الناس ما كان يؤدى للباشوات العثمانيين والأمراء البكوات المماليك من مظاهر الإجلال والتكريم . وكان

---

(١) انظر الوثيقة رقم ٤٣٧٧ فى الجزء الخامس من مراسلات نابليون .

وانظر أيضاً :

De La Jonquière; op. cit , t. V, p· 607.

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

يحيط نفسه بمظاهر الأبهة والجبروت معتقداً أنها تؤثر فى نفوس الشرقيين(١). وكان يحرص على أن يمر فى شوارع القاهرة ممتطياً صهوة جواده فى موكب حافل « وأمامه نحو الخمسمائة قواس(٢) وبأيديهم النبابيت وهم يأمرون الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره . وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الإفرنج ، وبأيديهم السيوف المسلولة والوالى (٣) والأغا (٤) وبرطلمين(٥) بمواكبهم وكذلك القلقات (٦) والوجاقلية(٧) وكل من كان مولى من جهتهم ومنضماً إليهم » (٨) . وقد انعكست هذه الصفات مجتمعة على سلوكه وتعامله مع علماء الأزهر .

* * *

(١) الرافعى تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) القواس جمع قواسه أى رجال الشرطة المحليين .

(٣) الوالى هو رئيس للشرطة فى القاهرة .

(٤) الأغا هو محافظ العاصمة .

(٥) برطلمين هو اليونانى الشرس ، فرط الرمان ، وكان يشغل منصب وكيل المحافظ .

(٦) القلقات جمع قلق وهو مصطلح تركى معناه الحرفى أمراء الشرطة الذين يطوفون ليلا فى دورة عسس .

(٧) الوجاقلية هم العسكريون الذين ينتمون إلى أحد الأوجاقات وهى الفرق العسكرية .

(٨) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٨٠ .

الفصل الثامن عشر

دور الأزهر
فى الثورة الثانية للقاهرة

اندلاع الثورة الثانية :

اشتعلت ثورة فى القاهرة بدأت فى حى بولاق فى ١٦ شوال سنة ١٢١٤ (٢٠ مارس ١٨٠٠) وامتدت إلى سائر أحياء العاصمة على مدى ثلاثة وثلاثين يوماً ، واشترك فيها العثمانيون و الأمراء المماليك الذين عادوا إلى مصر عند التوقيع على معاهدة العريش التى نصت على جلاء الفرنسيين عن مصر . فلما نقضت بريطانيا المعاهدة ، دارت معركة عين شمس بين الفرنسيين من ناحية والعثمانيين والمماليك من ناحية أخرى . وانتصر فيها الفرنسيون . ولكن تسللت بعض القوات العثمانية والمملوكية و دخلت القاهرة تحرض المصريين على الثورة . فكان الأزهر بصفة عامة بعيداً عن الإسهام فيها ، وإن كان قد اشترك فيها عمر مكرم والشيخ محمد الجوهرى ابن الشيخ محمد الجوهرى وغيرهما .

القائد العام يلتمس وساطة علماء الأزهر :

ولما تفاقمت الثورة باتساع نطاقها واستبسال المصريين فى مقاتلة الفرنسيين رأى الجنرال كليبر القائد العام الجديد للحملة الفرنسية أن يستعين بعلماء الأزهر لوقف الثورة ، فأرسل إلى ناصف باشا وهو أحد القادة العثمانيين ، وإلى الأمراء المماليك يطلب وفداً من علماء الأزهر ليكونوا سفراء بينه و بين الجماهير .

فكان طلب الجنرال كليبر اعترافاً منه بالدور القيادى لعلماء الأزهر

فى الحياة السياسية المصرية . فأرسلوا المشايخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، ومحمد المهدى ، والسرسى ، والفيومى ، وغيرهم . وقابلوا الجنرال كليبر الذى عرض عليهم إنهاء الثورة ، وأن يعطى أهل القاهرة « أماناً وافياً شافياً » ، على أن يخرج ناصف باشا والجنود العثمانيون والمماليك ويلحقوا بزملائهم من فلول جيش يوسف باشا الصدر الأعظم ، ولمن شاء من المقاتلين المصريين أن يخرج معهم ، ولمن شاء أن يبقى . فقال علماء الأزهر إنهم يخشون إذا وقف القتال وخرج العثمانيون والمماليك من المدينة أن ينكل الفرنسيون بالمصريين . فأجاب كليبر « إذا قبلت شروطنا اجتمعنا بكم وبهم (العثمانيين والمماليك) ، وعقدنا صلحاً ، ولن نطالبكم بشئ ، والذى قتل منا فهو بمن قتل منكم » . فعاد العلماء يعرضون هذه الشروط على العثمانيين وزعماء الثوار . فرفض الأخيرون ، وبذلك أخفقت المساعى الحميدة التى بذلها علماء الأزهر . وأرجع الجبرتى هذا الإخفاق إلى غلبة الجهلاء على العقلاء وعلو صيحة الفتنة على صوت الحكمة والعقل .

وإزاء رفض زعماء الثورة التسليم أنذر كليبر العاصمة بالاستسلام ، فلم يزدد زعماء الثورة إلا إصراراً على مواصلة القتال . فأمر بالهجوم العام على حى بولاق وضربه بالمدفعية وإشعال النيران فى البيوت والمتاجر والوكائل . وتناثرت جثث القتلى ودفنت عائلات بأكملها تحت الأنقاض أو احترقت فى لهيب النيران حتى دمر الحى ، ثم تتابع هجوم الفرنسيين على سائر أحياء القاهرة مثل باب اللوق ، والمدابغ ، والفجالة ، وكوم أبى الريش ، وباب الشعرية ، والرويعى ، وباب البحر . وحاقت بالثوار الفظائع والأهوال .

استأنف علماء الأزهر مساعيهم لحقن الدماء ووقف عمليات الإحراق والتدمير . وانتهت مفاوضات الصلح باتفاق أبرم فى ٢٦ ذى القعدة ١٢١٤ (٢١ أبريل ١٨٠٠) ووقع عليه ناصف باشا والأمير إبراهيم بك . وفيه

تعهد العثمانيون والمماليك بالجلاء عن القاهرة فى خلال ثلاثة أيام حاملين أسلحتهم وأمتعتهم ماعدا المدافع ، وأن يتم جلاؤهم فى ٣٠ ذى القعدة ١٢١٤ (٢٥ أبريل ١٨٠٠) وتعهدوا بمواصلة الجلاء حتى حدود سورية. وتعهد كليبر فى الاتفاق بأن يعفو عفواً عاماً عن جميع سكان القاهرة وعن المصريين الذين اشتركوا فى الثورة ، ولكنه اشترط ألا يغادر المدينة أحد من المصريين بقصد اللحاق بالجيش العثمانى (١) .

تدهور العلاقات بين كليبر والمصريين بعامة وعلماء الأزهر بخاصة :

ازدادت نقمة كليبر على المصريين كنتيجة لثورة القاهرة الثانية . وكان أول ما اتجه إليه تفكيره هو إقامة عرض عسكرى ضخم فى ضاحية القبة دعا إليه علماء الأزهر وغيرهم من الأعيان . وبعد العرض سارت كتائب الجيش بأعلامها وموسيقاتها وأسلحتها فى شوارع القاهرة بين قصف مدافع القلاع . واستهدف كليبر من هذه المظاهرة العسكرية إشاعة الرهبة فى قلوب المصريين وإشعارهم أن الجيش الفرنسى لا يزال قوة ضاربة ، وأنه قدير على سحق أى ثورة يفكرون فى القيام بها من جديد . ثم أمر بإقامة الزينات ثلاثة أيام تضاء لياليها بالقناديل ابتهاجاً بالقضاء على الثورة . ولما انقضت هذه الأيام الثلاثة ، أقام كليبر وليمة لعلماء الأزهر ثم طلب فى نهايتها من المشايخ الحضور إليه فى صباح يوم الجمعة ٨ ذى الحجة ١٢١٤ (٣ مايو ١٨٠٠) وتظاهر بأن الغرض من هذه الدعوة هو « ترتيب الديوان لأجل تنظيم البلد وصلاح حالكم وحال الرعية » .

مقابلة عاصفة بين كليبر وعلماء الأزهر :

قابل علماء الأزهر كليبر فى الموعد المحدد ، وكانت مقابلة عاصفة . اتهمهم كليبر بأنهم يمالئون العثمانيين والمماليك ويفضلونهم على الفرنسيين .

---

(١) الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

ونافع علماء الأزهر عن أنفسهم ، فقالوا إنهم بذلوا النصح للثوار بالإخلاد إلى السكينة ، وتوسطوا فى إبرام الاتفاق على إنهاء الثورة . وفعلا عاد السلام إلى القاهرة. وأضاف العلماء قولهم إن الفرنسيين إذاعوا على الشعب نصوص معاهدة العريش متضمنة الاتفاق على جلاء الفرنسيين عن مصر « وعرفتمونا أننا صرنا فى حكم العثمانللى من ثانى شهر رمضان ، وأن البلاد والأموال صارت له ، وخصوصاً هو **سلطاننا القديم وسلطان المسلمين** ». وأكدوا له أنهم فوجئوا بقيام الثورة ، ولم يكن فى استطاعتهم إخمادها

فرض غرامات مالية فادحة على علماء الأزهر :

وقد أنهى كليبر المناقشة بقوله إن الفرنسيين يحترمون كلمتهم . ولما كانوا قد أعطوا الشعب الأمان ، فإنهم لن ينقضوا هذا الأمان ، ثم فاجأهم بمطالب تعسفية ، كان من بينها فرض ١٢ مليون فرنك بصفة غرامة حربية على أهل القاهرة . وقد ذكر الجبرتى أنها عشرة ملايين فرنك بينما أجمعت المصادر الفرنسية على أنها ١٢ مليوناً . وخص كليبر علماء الأزهر بنصيب كبير من هذه الغرامة وكان على رأسهم المشايخ محمد السادات ، ومصطفى الصاوى والعنانى ، ومحمد الجوهرى وفتوح الجوهوى .

ولما أراد المشايخ مغادرة المكان منعهم الحراس واستمروا متحفظين عليهم وحيل بينهم وبين صلاة الجمعة . واستقر الرأى على إطلاق سراح المشايخ الذين لديهم مدخرات مالية تكفى لتغطية نصيبهم المقرر عليهم أداؤه من الغرامة . فكان الواحد منهم ينصرف إلى ذويه لإحضار قيمة الغرامة وهو محاط بجنود مدججى السلاح يذهبون ويعودون به لاستيفاء المبلغ . أما غيرهم ممن عجزوا عن الدفع فقد اعتقلوا فى أماكن متفرقة فى القاهرة وامتهنت كرامتهم .

تعذيب الشيخ السادات :

أما الشيخ محمد السادات فكان نصيبه من الغرامة الحربية مائة وخمسين ألف ريال فرانسة ، وذلك بعد أن أضيفت إليه الغرامة المقررة على الشيخ العنانى الذى كان قد هرب . وكانت داره قد احترقت . وسبق الشيخ السادات إلى القلعة حيث اعتقل فى أحد المخازن بها . وكان هذا الشيخ الجليل الطاعن فى السن ينام على التراب ويتوسد بحجر . وأمر كليبر الجنود الفرنسيين بضربه خمس عشرة مرة بعصا فى الصباح ومثلها فى المساء . وصعد إليه فى القلعة برتلمى اليونانى أو برطلمان أو « فرط الرمان » ، ومعه زين الفقار كتخدا بونابرت(١) ، فطلب منهما الإذن له فى النزول إلى داره ، لتدبير المال المطالب بدفعه ، وفاء للغرامة المفروضة عليه . قال الجبرتى وهو يصور هذه المشاهد الدامية : « ونزل الشيخ السادات وركب إلى داره ، فذهب معه عشرة من العسكر ، وجلسوا على باب داره ، فلما مضت حصة من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر أيضاً ، فأركبوه وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه فى مكان . فأرسل إلى عثمان بك البرديسى ، رتداخل عليه فشفع فيـه . فقالوا له : أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المـال فلا بد من دفعه ، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ، وقبضوا على فراشه ومقـدمه (٢) وحبسوهما ، ثم أنزلوه إلى بيت

---

(١) بمقتضى النظام الذى وضعه بونابرت لديوان القاهرة الجديد الذى أنشأه فى ٢١ من ديسمبر ١٧٩٨ بعد تعطيل الديوان الأول ، أنشئت وظيفتان لمندوبين ، أحدهما فرنسى وهو جلوتيه الذى سبق أن أشرنا إليه ، والآخر مسلم هو الأمير زين الفقار ، وكان يطلق عليه : كتخدا بونابرت أى وكيل بونابرت وجاء فى وثائق بونابرت أن اسمه ذو الفقار .

Correspondance de Napoléon; t. v, doc. no. 3785, en date du 1er Nivose an VII de la République (21 Decembre 1798).

(٢) المقدم : هو وكيل أعمال شخص كبير ، له نشاط واسع ، وتستخدم أيضاً بمعنى وكيل دائرة أعمال ، كما تستخدم فى مجالات الطوائف والطرق الدينية بمعنى الشخص الموكل بإعطاء العهد بالنيابة عن شيخ الطريقة .

قائمقام (١) ، فمكث به يومين ، ثم أصعدوه إلى القلعة ثانياً ، وحبسوه فى حاصل (٢) ، ينام على التراب ويتوسد بحجر ، وضربوه تلك الليلة ، فأقام كذلك يومين ، ثم طلب زين الفقار كتخدا ، فطلع إليه هو وبرطامان. فقال لهما أنزلونى إلى دارى حتى أسعى وأبيع متاعى وأشهل حالى (٣) ، فاستأذنوا له ، وأنزلوه إلى داره ، فأحضر ما وجده من الدراهم ، فكانت تسعة آلاف ريال معاملة ، منها ستة آلاف ريال فرانسة ، ثم قوّموا (٤) ما وجدوه من المصاغ والفضيات ، والفراوى والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن ، فبلغ ذلك خمسة عشر ألف فرانسة ، فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات إحدى وعشرين ألف فرانسة ، والمحافظون عليه من العسكر ملازموه ، لا يتركونه يطلع إلى حريمه ولا إلى غيره ، وكان وزع حريمه وابنه إلى مكان آخر ، وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ، ويحفرون الأرض على الخبايا ، حتى فتحوا الكنيفات(٥) ، ونزلوا فيها فلم يجدوا شيئاً ، ثم نقلوه إلى بيت قائمقام ماشياً ، وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا فى الصباح ، ومثلها فى الليل ، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما ، فأحضروا محمد السندوبى تابعة وقرروه (٦) حتى عاين الموت ، حتى عرفهم بمكانهما ، فأحضروهما وأودعوا ابنه عند أغات الإنكشارية ، وحبسوا زوجته معه ، فكانوا يضربونه بحضرتها وهى تبكى وتصيح ، وذلك زيادة فى الإنكاء . ثم إن المشايخ وهم : الشرقاوى ، والفيومى ، والمهدى ، والشيخ محمد الأمير ، وزين الفقار كتخدا ، تشفعوا فى نقلها من عنده ،

(١) حاكم القاهرة العسكرى ، وقائد حاميتها .

(٢) الحاصل ، هو الغرفة التى تستخدم لخزن البضائع .

(٣) انظر ما ذكره نقولا ترك عن ختم بيته وعلاقاته ، وكيف باع الفرنسيون أمتعته ، ص ص ٩٠ من الأصل العربى ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيت .

(٤) قوموا ، أى قدروا قيمتها أو ثمنها .

(٥) معناها المراحيض ، ومفردها كنيف أى مرحاض ، وهى تجمع كنف بضم الكاف والنون

(٦) معناها أكرهوه على الاعتراف ، عن طريق التعذيب البدنى .

فنقلوها إلى بيت الفيومى ، وبقى الشيخ على حاله ، وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا ....» (١) .

وأضاف الجبرتى صورة أخرى من الاضطهاد الذى تعرض له الشيخ السادات فى الشهر التالى وهو المحرم ١٢١٥ (٢٥ مايو — ٢٣ يونيو ١٨٠٠) : فقال« أصعدوا فى الخامس من محرم الشيخ السادات إلى القلعة ،وكان أرسل إلى كبار القبط بأن يسعوا فى قضيته ورهن حصصه ، ويغلق الذى عليه (٢) ، فردوا عليه بأنه لا بد من تشهيل قدر نصف الباقى أولا ، ولا يمكن غير ذلك ، وأما الحصص فليست فى تصرفه ، ولما تكرر إرساله للنصارى وغيرهم ، نقلوه إلى القلعة ، ومنعوه الاجتماع بالناس ، وهى المرة الثالثة » (٣) .

وقد أكد هذه الواقعة وزاد عليها الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وهو يتناول وقائع ثورة القاهرة الثانية ، فقال إن الفرنسيين « باعوا جميع متاع الشيخ السادات ، فلم يف بثاث ما طلب منه ، فأخذوا منه فى نظير الباقى التزامه وتعلقاته ، ماعدا العقار والرزق ، والتزام الحريم » (٤) .

ولبونابرت رأى خطير وصريح ، سجله فى مذكراته ، إذ قرر أن سوء المعاملة التى لقيها الشيخ السادات كانت سبباً غير مباشر فى قتل الجنرال كليبر . انتقد بونابرت إسراف الفرنسيين فى تعذيب هذا الشيخ وإهانته ، عقب إخمادهم ثورة القاهرة الثانية ، وقال إنهم تغافلوا عن مركزه الممتاز ، وتناسوا أنه ينتمى إلى الأسرة النبوية الشريفة . وقد كان للقسوة التى لقيها

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .

(٢) معناها يسدد ما عليه .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

(٤) الشيخ عبد الله الشرقاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٧ — ٥٨ .

صدى أليم فى نفوس الشعب بعامة ، ورجال الأزهر بخاصة ، فلم ينسوا ما فعله كليبر بالشيخ السادات . ولما جاء سليمان الحلبى إلى مصر معتزماً قتل كليبر ، أقام فى الأزهر ، واستطالت إقامته فى الجامع قرابة ثلاثين يوماً : ولكن تجاهل الأزهريون نية القاتل ، ووقفوا موقفاً سلبياً ، فلم يخطروا السلطات الفرنسية بما يبيته سليمان الحلبى من الخطط لاغتيال كليبر ، لأنهم كانوا يرجون انتقاماً ذريعاً من كليبر (١) .

وتعرض بونابرت مرة أخرى فى مذكراته لهذا الموضوع ، فقرر أن ضرب الشيخ محمد السادات بالعصا أثار السخط العام بين علماء الأزهر ، وامتد هذا السخط إلى سائر قطاعات الشعب المصرى ، ومالبثت أن احتدمت غضباً بلاد الشرق بأجمعها ، وقد دفع كليبر الثمن غالياً ، وانتقم مشايخ الأزهر منه انتقاماً قاسياً (٢) . ولايزال إلى اليوم بعض المؤرخين الفرنسيين يشاطرون بونابرت رأيه ، وينسبون اغتيال الجنرال كليبر إلى ســوء معاملته للشيخ محمد السادات (٣) .

وللمرة الرابعة اعتقل الفرنسيون الشيخ محمد السادات ، وتم هذا الاعتقال فى أوائل شهر مارس ١٨٠١ عقب وصول الحملة البريطانية إلى الإسكندرية فى أول مارس ، وكانت بقيادة أدميرال لورد كايث Keith(٤) ، واستبد

---

(١) Napoléon Ier; Guerre d'Orient: etc., op. cit., t. I. p. 257.

(٢) Ibid. t. t. II, pp. 349-350.

(٣) Bainville J; op. cit., p. 151.

(٤) كانت هذه العمارة تحمل جيشاً بريطانياً بقيادة الجنرال سير رالف أبركومبى : «Sir Ralf Abercomby» وتصحبها بعض سفن المدفعية العثمانية ، وقوة برية عثمانية ، وقد ظهرت العمارة تجاه الإسكندرية ، فى أول مارس ، وألقت مراسيها فى خليج أبى قير فى صباح اليوم التالى ، وأنزلت جنودها إلى شاطىء أبى قير فى ٨ مارس .

الانزعاج والاضطراب بالفرنسيين : واستفسر الشيخ السادات عن سبب اعتقاله فى هذه المرة الرابعة ، فكانت الإجابة ، أنه اشتهر بمقته الشديد للفرنسيين ، وبمقدرته على إثارة عواطف الجماهير ، واستجابة الشعب له ، وهى ذرائع انتحلها الفرنسيون لتبرير اعتقاله . وقد ظل فى الاعتقال إلى أن تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة . ويقرر الجبرتى أن اعتقاله الأخير قد تم «من غير إهانة» (١) ، ونختلف مع الجبرتى على هذا الوصف ، لأنه ليس من الضرورى أن تلحق الإهانة بجسم الإنسان ، فهناك ما هو أبلغ من الإهانة الجسدية : وهو إيلام النفس ، لقد تعرض الشيخ السادات فى أثناء اعتقاله لمحنة أليمة ، إذ توفى ابنه ، فلم يفرج الفرنسيون عنه ، وكل مافعلوه أنهم سمحوا له بالاشتراك فى تشييع الجنـــازة ، ونزل من القلعة وهو تحت الحراسة ، ولما انتهت الجنازة أعيد إلى المعتقل ، وهو يبكى ابنه وفلذة كبده ، وقد كان يعلق عليه أعذب الآمال ، ذكر الجبرتى وهو يترجم للشيخ محمد السادات ، «ومات ولده الذى كان سماه محمد نور الله ، وهو معوق (٢) وممنوع ، فأذنوا له فى حضوره جنازة ولده ، فنزل وصحبته شخص حرس منهم ، فلازمه حتى واراه ، وعاد به ذلك الحرسى (٣) إلى القلعة ، وكان هذا الولد مراهقاً ، له من العمر اثنتا عشرة سنة ، كان فى أمله أن يكون هو الخليفة فى بيتهم من بعده ، ويأبى الله إلا ما يريد» (٤) .

وبينما كان الشيخ السادات فى معتقله يعانى آلام الوحدة والحزن ، إذا به

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

(٢) معناها معتقل ، وهناك مصطلح تاريخى كان أكثر شيوعاً فى ذلك الوقت هو : «وضع الإنسان تحت اليسق» .

(٣) معناها : الحارس .

(٤) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .

ينقل إلى مسجد سـارية بالقلعة (١) ، وفوجىء بوجود أربعة من كبار المشايخ علماء الأزهر معتقلين فيه ، وهم : الشرقاوى ، شيخ الجامع الأزهر ورئيس ديوان القاهرة ، والمهدى ، والصاوى ، والفيومى ، وكان الأمر قد صدر باعتقالهم فى الساعة الرابعة من صباح ٢٥ من مارس ١٨٠١ بعد أن تأكدت الأنباء بتدهور مركز الفرنسيين الحربى فى مصر ، ثم صدر أمر لاحق فى أواخر مايو ، باعتقال الشيخ محمد الأمير .

إغلاق الأزهر :

لما وقع حادث اغتيال الجنرال كليبر فى ٢١ محرم ١١٢١ (١٤ يونيو ١٨٠٠) قام الفرنسيون بتفتيش الجامع الأزهر ، فقد ثبت من التحقيق أن القائل ، سليمان الحلبى ، طالب سابق كان ينزل فى رواق الشوام بالجامع الأزهر أقام فيه ثلاثة أعوام وسافر إلى بلاده ، ثم جاء من غزة فى إحدى قوافل التجار ونزل فى رواق الشوام حيث أقام فيه نحو ثلاثين يوما ، وأفضى

---

(١) هو مسجد فى قلعة الجبل ، بالقرب من زاوية الشيخ محمد الكعكى ، ويسميه على مبارك جامع سيدى سارية ، وتطلق عليه مصلحة الآثار مسجد سارية الجبل ، والشائع على الألسنة أن هذا المسجد ينسب إلى صحابى جليل هو سارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله بن جابر بن محمية ، وينتهى نسبه إلى كنانة . وقد استعرض ابن جبير فى رحلته مشاهدة الصحابة فى مصر ، فذكر منها مشهد سارية الجبل ، وقرر المقريزى فى خططه عند ذكر موضع القلعة ، نقلا عن كتب المزارات ، أن أبا الحسن الردى دفن بخط سارية ، شرقى تربة الكيروان بالقلعة ، وفى طبقات الشعرانى أن الشيخ محمد الكعكى مدفون بزاوية بالقرب من سيدى سارية ، ولكن لم ترد فى كتب التاريخ أن هذا الصحابى الجليل جاء إلى مصر ، أو مات بها ، أو دفن فيها ، وسارية الجبل هو صاحب القصة المشهورة ، المنسوبة إلى عمر بن الخطاب . وقد وردت هذه القصة فى كتاب « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » . ويجمع فريق من الباحثين على إن إنشاء هذا الجامع يرجع إلى العصر الفاطمى على أقل تقدير ، وأنه كان موضع رعاية الملوك والخلفاء والسلاطين لانتسابه إلى صحابى جليل ، فكانوا يذهبون إليه للتبرك به ولحل قضاياهم العامة . وقد جدد بناءه سليمان باشا الخادم الوالى العثمانى من قبل السلطان سليمان المشرع سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) ، وهذا المسجد مسجل فى مصلحة الآثار المصرية تحت رقم ١٤٢ (انظر : فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة طبعة سنة ١٩٥١) .

إلى أربعة من طلبة الرواق بعزمه على اغتيال كليبر . وكان التحقيق يتجه فى أحيان كثيرة إلى تصيد القرائن أو الأقوال التى تثبت علم الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر أو علم غيره من كبار العلماء بمشروع الاغتيال . ولكن لم يسفر التحقيق فى النهاية عن شىء من ذلك. وعلى الرغم من هذه الحقيقة، لم تطمئن قلوب الفرنسيين إلى سلامة موقف علماء الأزهر وطلبته . وكان تقديرهم للموقف أن إقامة القاتل ثلاثين يوماً فى الأزهر ينسج خيوط فعلته دليل على أن الأزهر هو المكان « الصحى » الذى تدبر فيه المؤامرات لاغتيال كبار القادة وللإطاحة بالحكم الفرنسى .فزاد ارتيابهم فى الأزهر . وبدت من الجنرال مينو فى مستهل عهد القيادة الثالثة للحملة تصرفات استفزازية ، فقدذهب ومعه الجنرال بليار Bélliard الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة ، والأغا (المحافظ) فى ٢٨ محرم (٢١ يونيو) وطافوا بأرجاء الجامع ،وأمروا بحفر بعض الأماكن بداخله ، بحجة التفتيش على الأسلحة، ثم عملوا حصراً لعدد طلبته ، وكتبوا أسماءهم فى قوائم ،ثم أمروا بالايبيت أحد من الغرباء فى الجامع ، وألا يأوى إليه أفاق ، وأخرجوا منه الطلاب العثمانيين ومنهم الشوام . واشتم سائر الطلاب أن السلطات الفرنسية تبيت لهم أمراً . ورأوا أن يفسدوا عليها خطتها ، فشرعوا فى نقل متاعهم وكتبهم وإخلاء الأروقة ، ونقل الكتب الموقوفة بها إلى أماكن خارجة عن الجامع (١) .

ورأى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وزملاؤه أن بقاء الجامع مفتوحاً فى مثل هذه الظروف العصيبة التى تجتازها البلاد أمر لايخلو من أخطار . فقر رأيهم على أن من الأفضل إغلاق الجامع كلية . وكان يترتب على هذا الإغلاق إيقاف الدراسة وتعطيل الصلاة . وفى عصر ذات اليوم ذهب وفد من العلماء يتكون من المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

إلى الجنرال مينو ، واستأذنوه فى إغلاق الجامع وشرحوا له وجهة نظرهم ، فقالوا إنهم يهدفون إلى «منع الريبة بالكلية ، فإن للأزهر سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت به ، واحتج بذلك على إنجاز غرضه ، ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيين بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطناً» (١) . وفى صباح اليوم التالى تم إغلاق الجامع وتسمير أبوابه من جميع الجهات . وكإجراء وقائى تكميلى تم إغلاق وتسمير جامع محمد بك أبى الذهب المواجه للجامع الأزهر ، وأخرج من المدرسة القائمة فيه الطلبة الأتراك(٢) .

اعتقال جماعى لشيخ الأزهر وكبار العلماء مائة يوم :

وبينما كان الاحتلال الفرنسى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، صدرت أوامر القادة الفرنسيين باعتقال شيخ الجامع الأزهر وكبار العلماء فى معتقل القلعة. وفى هذا الصدد يقول الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر «وقد حبسونا فى القلعة مع إخواننا من العلماء ، خوفاً من قيام أهل البلد عليهم ، كما وقع منهم سابقاً . فمكثنا فى القلعة مائة يوم ، من تسعة ذى القعدة إلى أواخر صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف(٣) . وسبب خروجنا من الحبس وقوع الصلح بين المسلمين وبين الفرنسيين» (٤) . وقد تخللت فترة الاعتقال وقفة عرفات ، وأيام عيد الأضحى ، ورأس السنة الهجرية . ويوم عاشوراء ، قضوها فى غياية المعتقل . وهكذا ظلت أزمة عدم الثقة تخيم على العلاقات بين الأزهر والسلطات الفرنسية حتى آخر أيام الاحتلال .

وظلت نظرة الفرنسيين إلى الأزهر تشوبها الشكوك والظنون والتربص بعلماء الأزهر ، على أساس أنهم الهيئة القديرة على تحريك الشعب ثورياً ،

---

(١) المصدر السابق .

(٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٣) كانت هذه المدة تقابل فى التاريخ الميلادى الفترة من ١٣ مارس إلى ١ يوليو ١٨٠٢ .

(٤) الشيخ عبد الله الشرقاوى : مرجع سابق ، ص ٥٨ .

و إثارة مزيد من المتاعب فى وجه الحكم الفرنسى . وخيم على القاهرة جو كئيب . واجتمعت على سكانها أهوال الحرائق ، والقتل ، والتدمير ، والمجاعة ، والاعتقال ، والتعذيب ، وفرض الغرامة الحربية الباهظة ، وغير ذلك من صنوف التنكيل والرغبة فى التشفى . وحل عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٢١٤ (٥ من مايو ١٨٠٠) « ومضى ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يشعر به أحد . ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف... وضاق خناق الناس ، وتمنوا الموت فلم يجدوه »(١) . ولكن من ناحية أخرى أثبت الصراع المرير الذى خاضه الأزهر ضـــد الفرنسيين أنه يحتفظ بحيوية دافقة تظهر عند الملمات وأنه كان يشكل مركز الصدارة فى الحياة العامة ، فى شتى جوانبها السياسية والدينية والتعليمية والفكرية.

إعادة فتح الأزهر عند شروع الفرنسيين فى الجلاء عن مصر :

ظل الأزهر مغلقاً زهاء عام ، ولما أذيعت أنباء الصلح وشرع الفرنسيون فى الجلاء بادر أولو الأمر بفتح أبوابه وكنسه وتنظيفه (١٩ صفر ١٢١٦ ٢ يوليو ١٨٠١) . وقد حرص يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم على زيارة الجامع الأزهر فى ذات الأسبوع الذى أعيد فيه افتتاحه ، وطاف بمقصورته وأروقته ، وأنعم على خدم الأزهر بالعطايا ، ثم رجع إلى معسكره بناحية الحلى بشاطئ النيل فى بولاق ، بعد أن قضى فى رحاب الجامع الأزهر «ساعة لطيفة »(٢) . وعادت الحياة الدينية والعلمية سيرتها الأولى إلى الأزهر ، وأخذ طلبة الأروقة يتوافدون على أروقتهم . ومضى الأزهر يواصل مسيرته العلمية فى خدمة الدين واللغة العربية .

* * *

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .

الفصل التاسع عشر

حقيقة العلاقات

بين الأزهر والاحتلال الفرنسى

يرى البعض أن الأزهر كان أول هيئة دينية إسلامية تعاونت مع الاحتلال الفرنسى عقب دخول الفرنسيين القاهرة فى يوليو ١٧٩٨ ، تأسيساً على أن فريقاً من كبار المشايخ علماء الأزهر قد قبلوا عضوية ديوان القاهرة الذى أنشأه بونابرت . كان تفوق الفرنسيين عسكرياً هو العامل الأهم الذى أدى إلى تمكينهم من البلاد ، وواجه علماء الأزهر ، بصفتهم زعماء الشعب ، الموقف على علاته بعد دخول الفرنسيين القاهرة ، وهم لايستطيعون لهم دفعاً ، وظهرت عدة بواعث أملت على هذا الفريق من كبار علماء الأزهر قبول عضوية ديوان القاهرة . كان « النظام الجديد Le nouveau régime الذى جاءت به الحملة الفرنسية ينبثق عن دولة مسيحية أوروبية ، هى الجمهورية الفرنسية ، وكان على رأس النظام الجديد فى مصر الجنرال بونابرت ، وهو مسيحى أوروبى ، ويعاونه فى حكم البلاد ، كبار القادة الفرنسيين ، وهم على شاكلته ، وكان لامناص من تطعيم هذا « النظام الجديد » بلقاح إسلامى ، وتمثل هذا اللقاح فى كبار المشايخ علماء الأزهر ، الذين وقع عليهم الاختيار لعضوية ديوان القاهرة ، ليشاركوا فى حكم الشعب المصرى عن طريق إبداء المشورة وبخاصة فى مسائل الشريعة الإسلامية . أدرك بونابرت هذه الحقيقة ، كما أدركها علماء الأزهر ، وقد أفصح بونابرت عن هذا الاتجاه فى مذكراته التى أشرنا إليها من قبل ، وأفصح عن هذه الحقيقة أيضاً الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وهكذا التقى علماء الأزهر وبونابرت عند ضرورة إيجاد حلقة اتصال بين السلطات الفرنسية والشعب المصرى . وقد ذهب الشيخ الشرقاوى إلى القول بأن إنشاء الدواوين ، سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم وإشراك علماء الأزهر فى عضويتها ، إنما كان رحمة بالشعب المصرى .

وكما تركنا بونابرت يعبر عن رأيه فى هذه المسألة، ندع الشيخ عبدالله الشرقاوى يفصح عن وجهة نظره فيها ، وقد مهد لها برأيه فى الفرنسيين من حيث نزعتهم نحو الإباحية ،وابتعادهم عن المسيحية الحقة . قال عنهم : «إنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية (١)، يقال لهم نصارى قاتوليقية (٢)، يتبعون عيسى — عليه السلام — ظاهراً،وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ويقولون إن الله واحد ، لكن بطريق التعليل ، ويحكمون العقل. ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ، يضعونها بعقولهم ، ويسمونها شرائع ، ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم، تناسب أهل زمانهم(٣) . ولذا جعلوا فى مصر(٤) وقراها الكبار (٥) دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، **وكان ذلك رحمة بأهل مصر ،فإنهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ ، وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع»** (٦) .

وهناك باعث آخر لعلماء الأزهر على قبول عضوية ديوان القاهرة ، فقد كانوا مدفوعين برغبتهم فى أن يكونوا فى مركز رسمى يسمح لهم بالتدخل لدى سلطات الاحتلال ، لدفع أذى الفرنسيين عن الشعب . وكان قيام كبار المشايخ وعلماء الأزهر بهذا الدور إبان الحكم الفرنسى استمراراً للدور الذى قاموا به من قبل فى أثناء الحكم العثمانى، بصفتهم زعماء الشعب،

---

(١) أى ذوو طباع تتسم بالإباحية .

(٢) أى كاثوليك .

(٣) يلاحظ أن معظم هذه الآراء التى رددها الشيخ الشرقاوى قد وردت فى منشور السلطان سليم الثالث إلى الشعب المصرى يأمره بالجهاد الدينى ضد الفرنسيين .

(٤) يقصد بمصر مدينة القاهرة .

(٥) القرى الكبار : يقصد بها عواصم المديريات .

(٦) تحفة الناظرين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

من التدخل لدى الحكام البغاة ، وبخاصة الأمراء المماليك لرفع المظالم التى كانت تنهال على الشعب من يمين ويسار ، وقد تمثلت آنذاك فى الغالبية العظمى من كبار علماء الأزهر الزعامة الشعبية ، الحانية ، العطوفة ، النظيفة التى كانت لاتبغى من وراء تدخلها لدى الحكام جزاء ولاشكوراً . وفى خلال سنوات الاحتلال الفرنسى الذى استطال ثلاثة أعوام وبعض عام، قام علماء الأزهر بدورهم التقليدى، واستطاعوا فى وسط الأزمات السياسية والحربية التى تزاحمت فى هذه الفترة أن يدرأوا عن الشعب الكثير من أذى الفرنسيين ، وإن لم يسلم كبار علماء الأزهر أنفسهم من هذا الأذى فى بعض الأوقات العصيبة الحالكة السواد التى مرت بالفرنسيين ، وبخاصة فى الفترات التى صحبت أو أعقبت قيام المصريين بالثورات عليهم . ولكن كان هناك فارق كبير بين دور علماء الأزهر فى العصر العثمانى المملوكى ، ودورهم على عهد الحملة الفرنسية . كان تعاونهم مع الأمراء المماليك يقوم على التعاون الاختيارى ، بينما كان دورهم أيام الاحتلال الفرنسى هو خضوع ضرورة(١) وكانت صلات علماء الأزهر أعضاء الديوان بالسلطات الفرنسية صلات تقوم على مداراة الفرنسيين والتظاهر بمجاملتهم ، ولكن كانت قلوبهم نافرة من الحكم الفرنسى (٢).

كان علماء الأزهر الذين قبلوا عضوية الديوان يشعرون فى قرارة نفوسهم أن هذه العضوية لاتشرفهم ، وأن الشعب قد ظن بهم الظنون ، ولم يكن لهذا الديوان سلطة قطعية فى أى مسألة تعرض عليه ، وكانت السلطة العسكرية ، الممثلة فى قيادة الجيش الفرنسى ، هى المرجع الأعلى فى كل المسائل التى تعرض

---

(1) Dr. Afaf Loutfi El Sayed.

فى البحث الذى تقدمت به إلى مؤتمر لندن لتاريخ مصر الحديث فى أبريل ١٩٦٥ ، ونشر فى مجلد بحوث المؤتمر ، ص ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(2) Rifaat M.; The Awakening of Modern Egypt. London 1947, pp. 8–9.

على الديوان وكان نشاط المشايخ مقيداً بتعهدهم بألايتصرفوا تصرفاً يضر بمصالح الفرنسيين ، ولذلك كانوا يعملون تحت رقابة مستمرة دقيقة من رجال المخابرات الفرنسية . ومما هو جدير بالذكر أن بونابرت لم يهدف إطلاقاً إلى إقامة حياة نيابية فى مصر ، كما يظن بعض الباحثين ، فإن هذا الحاكم العسكرى لم يكن يطمئن إطلاقاً إلى الأنظمة النيابية، وهولم يطبقها فى فرنسا ، فمن باب أولى ألا ينشئها فى مصر .

كان بونابرت من ناحية أخرى حريصاً على أن يختار لعضوية الديوان أكثر العلماء منزلة ، وأعظمهم جاهاً ، وأكثرهم مهابة ، وأوفرهم نفوذاً ، ليضفوا على الديوان أهمية ومكانة فى نظر الجماهير ، وكان فى تأليفه من كبار العلماء تنويه ظاهر بأهمية الجامع الأزهر ،ومكانة علمائه ، والاعتراف بزعامتهم(١)، وكان يقابل هذا الإصرار من ناحية بونابرت تحرج من جانب علماء الأزهر . حدثت مشادة عنيفة بين بونابرت والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ورئيس ديوان القاهرة . كان بونابرت قد طلب أعضاء هذا الديوان للحضور فى أول سبتمبر ١٧٩٨ إلى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية ، ولما استقر بهم المقام نهض بونابرت وغادر الصالون الكبير ، ثم عاد وبيده طيالسة(٢) ، يحمل كل طيلسان منها ثلاثة ألوان : الأزرق ، والأبيض ، والأحمر ، وهذه الألوان الثلاثة هى شعار الثورة الفرنسية : وغدت ألوان العلم الفرنسى ، وأراد بونابرت أن يضع علماء الأزهر هذا الرداء المثلث الألوان على أكتافهم وفوق ملابسهم. ورأى بونابرت من باب التكريم أن يضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى ، فاحمر وجه الشيخ واستشاط غضباً . ورمى به إلى الأرض .

---

(١) عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ١٥٥ .

(٢) يذكرها الجبرتى : طيلسانات ، فى صيغة جمع المؤنث السالم ، وهذا خطأ ، ومفردها طيلسان ، ويقصد به « شال » أى قطعة كبيرة من القماش ، توضع على الكتفين وتغطيهما .

وغضب بونابرت من هذا التصرف ، وقال إن الشيخ الشرقاوى لا يصلح للرياسة . وقد حاول عبثاً المستشرق فانتور Venture كبير مترجمى الحملة أن يقنع سائر المشايخ بأن ارتداءهم الطيلسان تكريم لهم ، يرفع منزلتهم فى أعين الفرنسيين ، ويجعل الجنود يؤدون لهم التحية العسكرية كلما مروا بهم. وكان مما جاء على لسان هذا المستشرق قوله : « يا مشايخ، أنتم صرتم أحباباً لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم ، وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم . » فقالوا له جملة معبرة، تصور مدى الحرج الذى كانوا يشعرون به : « ولكن قدرنا يضيع عند الله ، وعند إخواننا المسلمين » (١) ، ورأى بونابرت أنه إذا أصر المشايخ علماء الأزهر على رفض ارتداء الطيلسان ذى الألوان الثلاثة ، فلا مناص من أن يضعوا فوق صدورهم « الجوكار (٢)، وهى العلامة التى يقال لها الوردة ، فقالوا أمهلونا حتى نتروى فى ذلك ، واتفقوا على اثنى عشر يوماً » . وقد أراد بونابرت من حمل علماء الأزهر [أعضاء الديوان على وضع شارة الجمهورية ترغيب الشعب فى الاقتداء بزعمائه ، ووضع هذه الشارة المثلثة الألوان(٣) ، وإن كثرة الأوامر التى كان يصدرها

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٢) الجوكار . كلمة فرنسية ، كتبها الجبرتى باللغة العربية كما سمعها ، وقد وردت فى كتابه فى أكثر من موضع (ج ٣ ، ص ٣ ، ١٦ ، ١٧ على سبيل المثال) والأصل الفرنسى للكلمة هو «la cocarde» بمعنى شارة أو علامة أو شريط أو وردة من حرير .

أما نقولا ترك فيكتب هذه اللفظة « كوكاردا » ويشرحها بأنها « النيشان الفرنساوى » .

انظر : مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فييت ، ص ١٦ .

(٣) أصدر بونابرت أمراً يحتم على جميع سكان مصر حمل الشارة المثلثة الألوان ، وأمر بألا تسمع السلطات الفرنسية ابتداء من أول شهر فانديمير Vendémiaire من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨) أى شكوى أو مظلمة ، أو طلب من أحد أفراد الشعب المصرى ، إلا إذا كان حاملا هذه الشارة . وقد أنف المصريون من وضع الشارة اقتداءاً بعلماء الأزهر ، وتراجع بونابرت . يقول الجبرتى : إن بونابرت أمر بإلغاء هذا الأمر بالنسبة لعامة الشعب ، وألزم بعض الأعيان ، ومن يريد الدخول عند الفرنسيين لحاجة من الحاجات بوضعها.

بونابرت تباعاً فى هذا الصدد ، مما يدل على اهتمامه الزائد بإلزام المصريين بحمل شعار الجمهورية . وفى أحد الأوامر التى أصدرها إلى الجنرال مينو فى رشيد طلب من أعضاء الديوان أن يضع كل منهم على كتفه طيلساناً ، أى شالا مثلث الألوان ، وأن يضع الأغوات حول عمائمهم شريطاً مثلث الألوان(١) ولكن أمام إصرار علماء الأزهر على رفض وضع الشارة على أية صورة من الصور ، صرف الفرنسيون النظر عن هذه المسألة جملة وتفصيلا .

وكان حضور علماء الأزهر أعضاء الديوان الحفلات التى كانت السلطات الفرنسية تقيمها فى المناسبات الدينية الإسلامية ، وفى المناسبات القومية الفرنسية نوعاً من الرغبة فى مجاملة الفرنسيين ، أو فى مداراتهم . وإن عضوية علماء الأزهر فى الديوان قد سمحت لهم بالتدخل لدى بونابرت لوقف تنكيله بسكان القاهرة فى أعقاب ثورتهم الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨ ، كما نجحت وساطتهم فى إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين الذين رابطوا بداخله ، وانتهكوا حرماته بعد إخماد هذه الثورة .

= فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم ، ويرفعونها إذا خرجوا من عندهم ، واستمر هذا النظام معمولا به بضعة أيام ، ثم صرف النظر عنه » .

انظر كلا من :

الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٧ .

وجريدة :

Courrier de l'Egypte No. 6. Le 2éme jour complémentaire Vl année de la République.

ومجموعة مراسلات نابليون .

Correspondance de Napoléon t. IV.

وثيقة رقم ٣٢٣٩ مؤرخة فى ١٩ من شهر فركتيلور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٤ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) .

(١) وثيقة رقم ٣٢٥٤ مؤرخة فى ٢١ من شهر فركتيدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٧ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) فى :

Correspondance de Napoléon. t. IV

وقد استخدم بونابرت المشايخ أعضاء الديوان فى كتابة المنشورات « وتنميقها » لمطالبة الشعب بالإخلاد إلى السكينة ، أو لإذاعة أنباء انتصاراته العسكرية ونحو ذلك من وسائل الإعلام والدعاية، وكان الشعب يدرك تماماً أن هذه المنشورات لاتصور الحقيقة . وأنها لاتعبر عن رأى علماء الأزهر أعضاء الديوان ، وأنهم إنما كتبوها رغبة فى مداراة الفرنسيين ، وأن تأييد المشايخ للسلطات الفرنسية إنما هو تأييد شكلى .

ولابد أن نشير إلى موقف علماء الأزهر أعضاء الديوان فى أثناء مقدمات ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، فقد كان رسل السلطان العثمانى وأحمد باشا الجزار ، والأمير إبراهيم بك ومن إليهم ، يحملون سراً إلى القاهرة منشورات ومكاتبات تطلب من المصريين القيام على الفرنسيين . وعلم علماء الأزهر أعضاء الديوان بأمر هذه المنشورات ، وكانوا فى ذات الوقت يقابلون بونابرت باستمرار ، ولكنهم التزموا الصمت حيال تداول هذه المنشورات وحيال إذاعتها ، بمعرفة أئمة المساجد ، فلم يخبروا بونابرت بأمرها . ويحمل بعض الباحثين على علماء الأزهر أعضاء الديوان ، ويقولون إن هؤلاء العلماء قد غرروا بالفرنسيين ، وأن تصرفهم كان تصرفاً غير أخلاقى(١) . وقد فات هذا الفريق من الباحثين أن علماء الأزهر لم يكونوا من رجال المخابرات الفرنسية ، ولم يدخل فى اختصاصاتهم كأعضاء فى ديوان القاهرة التجسس على مواطنيهم ، وإبلاغ السلطات الفرنسية بما يحدث فى العاصمة ، ومن الثابت تماماً أن هؤلاء العلماء أعضاء الديوان لم يسهموا إسهاماً إيجابياً فى تحريض سكان القاهرة على الثورة ، وإنما اكتفوا بمثل هذا الموقف السلبى . وقد ذكر بونابرت فى مذكراته أن أعضاء الديوان زادت هواجسهم بعد صدور فرمان السلطان ، وخشوا مغبة تحالف الإنجليز والروس والعثمانيين ضد الفرنسيين ، واعتقدوا أن الدائرة سوف تدور على الجيش الفرنسى

---

(١) كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر ، ص ٢٦٣ .

فى الشرق(١). وإن كل ما نستطيع أن نخلص إليه من هذا الموقف ومن غيره، هو أن علماء الأزهر أعضاء الديوان لم يظهروا ولاء قلبياً لبونابرت ولا للفرنسيين . وأن التأييد الذى كان يظهره هؤلاء العلماء كان تأييداً شكلياً ، وأن نجاح بونابرت معهم كان نجاحاً خداعاً .

أما عن موقف الشيخ السادات من ثورة أكتوبر ١٧٩٨ فقلنا إن بونابرت عدل عن إعدامه ، حين أدرك أن إعدامه يضر بمركز الفرنسيين ، أكثر مما ينفعهم ، ونضيف هنا أن ضباط الجيش الفرنسى وجنوده نعوا على بونابرت تسامحه وتساهله مع هذا الشيخ ، وغيره من كبار رجال الأزهر ، وقد وصفهم الضباط والجنود بأنهم أس البلاء الذى نزل بالفرنسيين ، وأنهم مسئولون عن الدم الفرنسى الذى أريق فى الثورة ، وأن مسلكهم لم يكن سليماً ، وخلصوا من هذه الاتهامات إلى أن المشايخ علماء الأزهر رجال « عواجيز منافقون» (٢) ، من وجهة النظر الفرنسية بطبيعة الحال .

ومن الأدلة على أن ولاء علماء الأزهر أعضاء الديوان للفرنسيين لم يكن ولاء نابعاً من أعماق قلوبهم ، أن عضويتهم فى الديوان لم تمنعهم من إبداء حقيقة مشاعرهم غير الودية نحـو الفرنسيين كلما واتتهم الفرص . كانت الدولة العثمانية قد أرسلت جيشاً نزل إلى الشاطىء فى أبى قير فى ١٤ من يوليو ١٧٩٩ بقيادة « كوسه لى مصطفى باشا سر عسكر الروملى » وتتابعت انتصارات العثمانيين فى المراحل الأولى للحرب : قصفوا الاستحكامات الفرنسية ، ونالوا من الفرنسيين منالا عظيما ، وقتلوا القومندان جودار Godard قائد القوات الفرنسية فى أبى قير ، واحتلوا البلدة ، وحاصروا القلعة ، واضطر قائدها ، واسمه الكابتن ڤيناش Vinache ، إلى التسليم ، على الرغم من وفرة الذخائر فى القلعة ، ومتانة موقعها ، وكثرة عدد أفراد

---

(١) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., op. cit., t. I, p. 245.

(٢) Loc. cit., p. 256.

حاميتها . وقد نقل العثمانيون القائد الفرنسي وجنوده إلى بارجة من قطع الأسطول البريطانى بقيادة سير سدنى سمث Sir Sidney Smith ، واحتل العثمانيون القلعة فى ١٧ من يوليو ، واستفاضت الأنباء فى القاهرة منذ ٢٢ يوليو بالانتصارات الخاطفة التى أحرزها الجيش العثمانى . قال الجبرتى : « وفى ثامن عشر من صفر ١٢١٤ (بدأ شهر صفر ١٢١٤ فى الخامس من يوليو ، وانتهى فى الثانى من أغسطس ١٧٩٩) ، وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الأعيان والتجار وكلها على نسق واحد تزيد عن المائة ، مضمونها بأن المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملكوا الإسكندرية(١) فى ثالث ساعة من يوم السبت سادس عشر صفر . فصار الناس يحكى بعضهم لبعض ....(٢) » .

وقد غمرت موجة من الابتهاج علماء الأزهر أعضاء الديوان بهذه الانتصارات العثمانية ، واعتبروها بداية النهاية للحكم الفرنسي فى مصر ، ولم يتحفظوا فى إبداء ابتهاجهم ، وتناسوا مراكزهم الرسمية التى كانت تتطلب منهم مجاملة الفرنسيين ، أو على الأقل التظاهر بالمجاملة . وسرعان ما لاحظت السلطات الفرنسية فى القاهرة أن التصرفات التى تصدر عن المشايخ أعضاء الديوان يغلب عليها الطابع غير الودى نحو الفرنسيين ، بل إنها تتعارض مع المصالح الفرنسية ، ففضلاً عن الابتهاج الذى لم يحاولوا إخفاءه ، وقع صدام بين أعضاء الديوان ومحافظ القاهرة ، واسمه مصطفى أغا ، وكان معروفاً عنه أنه من عملاء الفرنسيين ، ومن أعوان الحكم الفرنسي (٣) . أراد أن يقتل كل يوم عدداً من الأهلين بدون أدنى سبب ،

---

(١) كان إيراد الخبر على هذا النحو لا يخلو من المبالغة ، لأن العثمانيين لم يقتربوا من الإسكندرية ، بل ظلوا مرابطين فى أبى قير ، بعد أن أحرزوا الانتصارات الخاطفة .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٣) كان الفرنسيون قد عزلوا فى ١٤ من أكتوبر ١٧٩٨ المحافظ السابق محمد المسلمانى الذى كان قد عين بناء على اقتراح أعضاء ديوان القاهرة فى أول إنشاء هذا الديوان ، وصدر قرار —

سوى إشاعة الإرهاب فى نفوس سكان القاهرة، حتى لا يقوموا بثورة على الفرنسيين فى أثناء اشتباك الأخيرين فى الحرب ضد العثمانيين فى أبى قير ، ووقف المشايخ فى وجه المحافظ يطالبونه بإطلاق سراح المعتقلين قبل أن يتم قتلهم ، وتصدى الشيخان محمد المهدى و مصطفى الصاوى للمحافظ ، وأخذا يعنفانه على تصرفاته ، وينذرانه بسوء العاقبة ، وتدخل الجنرال دوجا Dugua بين أعضاء الديوان والمحافظ . وازدادت مخاوف الجنرال حين نقل إليه البعض أن سكان القاهرة يتأهبون للثورة على الفرنسيين ، فأرسل الجنرال دوجا فى طلب الشيخ المهدى « وتكلم معه فى شأن ذلك وحاججه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان ، فقام المهدى خطيباً ، وتكلم كثيراً ، ونفى الريبة ، وكذلك أقوال الأخصام ، وشدد فى تبرئة المسلمين عما نسب إليهم » ، ويعلق الجبرتى على موقف الشيخ المهدى بقوله : « وهذا المقام من مقاماته المحمودة »(١) .

ويقرر الفرنسيون أن الصدر الأعظم كان متصلا بعلماء الأزهر أعضاء الديوان ، وكان هؤلاء المشايخ يطلبون منه أن يعتذر نيابة عنهم للسلطان عن مظاهر الود الذى يبدونه فى العلن للفرنسيين ، ويؤكدون للصدر الأعظم فى خطاباتهم أن هذا العطف الظــاهرى يخفى وراءه فكرة مسبقة بتأييد السلطان ونبذ الفرنسيين ، كما كانت توجد مراسلات سرية بين معظم مشايخ الأزهر أعضاء الديوان ، وقادة الجيش العثمانى الذى كان يتجمع فى دمشق .

ووقع اختيار السلطات الفرنسية فى القاهرة على بوسيلج Poussielgue مدير الشئون المــالية للجيش ، ليراقب عن كثب تصرفات علماء الأزهر

حتى ذات اليوم بتعيينه وكيلا لأمير الحج ، وعين الفرنسيون مكانه مصطفى أغا محافظاً للقاهرة ، وظل فى منصبه حتى لقى مصرعه فى ثورة القاهرة الثانية .

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

أعضاء الديوان ، ويوافى بها بونابرت فى أبى قير ، ويصفه أحد كبار المؤرخين والسياسيين الفرنسيين بأنه مراقب ذو نظر ثاقب ، ورأى سديد (١)

وفى خطاب بعث به فى السادس من أغسطس ١٧٩٩ إلى بونابرت فى أبى قير عبر بوسيلج عن رأيه فى علماء الأزهر أعضاء الديوان فقال : إن معظمهم خونة أو متعصبون ، وتكلم ريبو Reybaud عن مسلك أعضاء الديوان إبان الفترة العصيبة التى واجهها الفرنسيون بنزول العثمانيين فى أبى قير فقال : « وفى كل يوم كانت تقع حوادث جديدة ، تكشف عن هذا التغير فى مسلك الديوان ، وفى اتجاهه ضد الفرنسيين ، فتارة كان يتجاوز اختصاصاته ، ويسىء استغلال سلطته بصورة لا يمكن احتمالها ، وتارة أخرى . كان يحدث صدام بين أعضاء الديوان ورؤساء الشرطة من أجل إطلاق سراح مسلم مذنب ، وتارة ثالثة كان يعمد إلى تخفيض الضرائب المقررة على مشايخ البلاد ، للإضرار بمصالح جامعى الضرائب الأقباط . وفى كل مناسبة كانت تبدو على أعضائه روح جديدة كانت تتسم بالعداء للغزاة الذين استولوا على مصر ، وكانت مصالح أخرى هى التى أوحت بهذه الروح الجديدة المعادية » .

وقابل علماء الأزهر بفتور ووجوم شديدين الأنباء التى تعاقبت بعد ذلك عن النكسة التى حلت بالعثمانيين فى موقعة أبى قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ووقوع مصطفى باشا القائد العثمانى فى الأسر ومعه ثلاثة آلاف جندى ، عدا ثمانية آلاف جندى بين قتيل وغريق وجريح ، واستيلاء الفرنسيين على مدافع الجيش العثمانى وذخيرته . ولاحظ الفرنسيون الكآبة التى علت وجوه أعضاء الديوان ، فازدادت نقمتهم عليهم ، وأمرت السلطات الفرنسية فى القاهرة بإطلاق المدافع من القلعة ، وعرض كتائب الجيش فى شوارع

---

(١) Reybaud Louis et autres, op. cit., t. IV, p. 229.

القاهرة وإقامة حفلات ابتهاجاً بانتصار الفرنسيين فى معركة أبى قير البرية ، ومع ذلك فقد ظل علماء الأزهر على حالتهم النفسية المكتئبة (١) .

وكان بونابرت قد أمر بترحيل الأسرى العثمانيين من أبى قير إلى القاهرة ، فلما بلغوها أشار بعرضهم فى الأزبكية ، ليراهم سكان العاصمة (٢) ، ثم أمر بأن يطاف بهؤلاء الأسرى فى طرقات القاهرة ، ليبدد أى شك خامر القاهريين فى انتصار الفرنسيين ، ويقول نقولا ترك : « حصل عند أهل القاهرة قهر عظيم » (٣) ، أى انتابهم حزن شديد عندما تأكدوا من هزيمة العثمانيين .

وقف بونابرت ، عقب وصوله إلى القاهرة ، على حقيقة مشاعر المصريين بعامة ، وعلماء الأزهر أعضاء الديوان بخاصة ، وكان بوسيلج قد أوضح له ما أجمله فى تقاريره إليه ، من ظهور الروح العدائية على المشايخ العلماء ، وانتهز فرصة حضورهم إليه للسلام عليه بعد عودته من الإسكندرية كما يقضى عليهم واجبهم كأعضاء فى الديوان ، فوجه إليهم قارص الكلم ، وأنحى باللائمة على الشيخين الصاوى والمهدى . وأمامنا صورتان لهذا المشهد المثير بين بونابرت وأعضاء الديوان ، كتبهما معاصران للحملة ، هما الجبرتى

---

(١) Loc. cit., pp. 226–228.

(٢) رأى بونابرت لدواعى الأمن ألا يدخل مصطفى باشا القائد العثمانى الأسير مدينة القاهرة ، فأرسله مع ابنه إلى الجيزة ، حيث أقاما فى قصر مراد بك ، وأمر بونابرت بمعاملتهما معاملة كريمة .

انظر :

Daressy (G.) Moustapha pacha; le prisonnier d'Aboukir, (Bulletin de l'Institut d'Egypte, t. XI, session 1928–1929, pp. 43–70.

أما سائر الأسرى فقد اقتيد بعضهم إلى قلعة الجبل ، والبعض الآخر إلى قلعة سلكوسكى (جامع الظاهر) ، وأبقى الفرنسيون البعض الثالث فى الإسكندرية .

(٣) مذكرات نقولا ترك ، ترجمة ونشر وتعليق الأستاذ فييت ، ص ٥٩ .

والمعلم نقولا ترك . أما الأول فيقول : «ولما استقر سارى عسكر فى منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن سارى عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه ، وأما فى هذه المرة فليس كذلك ، لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون ، بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحانين ومستبشرين ، وكنتم تعارضون الأغا فى أحكامه ، وأن المهدى والصاوى ما هم بونو ، أى ليسوا بطيبين ونحو ذلك .... »(١) . أما نقولا ترك فيذكر أن بونابرت قال لهم إنه كان يظن أن المصريين يكنون له حباً ، ويفرحون لانتصاره ، ويتألمون لهزيمته ، ولكنه لمس عكس ذلك تماماً ، ومضى يقول فى حديثه للمشايخ إنه قدم لهم كل مظاهر الحب ، وإنه أكد لهم مراراً أنه يحب النبى — صلوات الله عليه — لأنه بطل صنديد ، قاد غزوات حربية ناجحة . وخلص من حديثه إلى القول بأنهم يشعرون بنفور من الفرنسيين ، ويظنون بهم الظنون ، «وسوف يأتى يوم تنبشون فيه الأرض بحثاً عن عظام الفرنسيين ، وتسقونها بدموعكم(٢) » . فالروايتان العربيتان متفقتان فى وصف مشاعر الاستياء التى استحوذت على بونابرت من مسلك المصريين بعامة ، وعلماء الأزهر بخاصة إزاء الحكم الفرنسى ، وكيف كانوا يستبشرون بكل أزمة يتعرض لها الفرنسيون ، أملا فى اهتزاز مركزهم ، والإطاحة بحكمهم .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ص ٧٧ — ٧٨ . وكلمة بونو هى Bon بالفرنسية .

(٢) النص الحرفى لنقولا ترك هو : «فسوف يأتيكم زمان الذى به تفتشون على عظا الفرنساوية وتبكون عليها » ، ص ٥٩ .

وقد أثبتنا فى المتن ترجمتنا للنص الفرنسى الذى كتبه الأستاذ فيت ، وهو :

"Un jour viendra où vous déterrerez les ossements des Français pour les arroser des vos larmes''. p. 78.

وانظر بخصوص هذا الحديث الذى دار بين بونابرت وبين وعلماء الأزهر .

Chauvin; op. cit., pp. 20-21.

ومن الأدلة على أن علمــاء الأزهر كانوا يرون أن عضوية الديوان لا تشرف صاحبها ، أن الاختيار وقع على الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ليكون عضواً فى ديوان القاهرة ، عندما أعيــد تشكيله على نسق جديد ، على عهد الجنرال مينو ، وأشار الجبرتى إلى هذا التشكيل الجديد لديوان القاهرة فى حوادث شهر جمادى الآخرة ١٢١٥ (٢٠ أكتوبر — ١٧ نوفمبر ١٨٠٠) ، وذكر اسمه بطريقة ملتوية مبهمة ، بعيــدة عن الصراحة التى عرفت عنه . قال « شرعوا فى ترتيب الديوان على نسق غير الأول ، من تسعة أنفار متعممين لاغير ، وليس فيهم قبطى ولا وجاقلى(١) ، ولا شامى ولا غير ذلك ، ولبس فيه خصوصى وعمومى على ما سبق شرحه ، بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء ، هم : الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، والمهدى كاتب السر ، والشيخ الأمير ، والشيخ الصاوى ، وكاتبه ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ خليل البكرى ، والسيد على الرشيدى نسيب سارى عسكر ، والشيخ الفيومى .... » وبدلا من أن يذكر الجبرتى اسمه صريحاً عمد إلى التعمية ، وعبر عن اسمه بكلمة « كاتبه » . وقد وردت هذه اللفظة بعد اسم الشيخ الصاوى . وقد يختلط الأمر على البعض ، إذ يظنون أن المقصود هو كاتب الشيخ الصاوى ، ولا يمكن أن يكون هذا الأسلوب فى التعبير عن نفسه مظهراً من مظاهر تواضع العلماء ، إنما كان شعوراً منه بالحرج يفتعل فى أعماق نفسه .

أزمة عدم ثقة

والحق أنه كانت هناك أزمة عدم ثقة بين الأزهر والاحتلال الفرنسى ، وقد أظهر الفرنسيون شعوراً عدائياً سافراً نحو علماء الأزهر ، بعد إخماد ثورة القاهرة الثانيــة التى اشتعلت فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، ونعى عليهم كليبر مسلكهم إبان الثورة ، وقرر أن ضررهم على الفرنسيين أكثر من نفعهم

---

(١) وجاقلى : جمعها وجاقلية ، مشتقة من الكلمة التركية ، أوجاق ، بمعنى الموقد ، ثم استخدمت بمعنى فرق عسكرية ، والوجاقلى أحد العسكريين .

لهم ، « لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم ، وكنتم وإياهم علينا ، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين ، فكان جزاؤكم أن نفعل معكم ، كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم ، وحرق بلدكم ، وسبى حريمكم وأولادكم » ، ودافع علماء الأزهر عن تصرفاتهم على النحو الذى شرحناه من قبل . وقد أنهى كليبر المناقشة بأن أبلغهم أنه قرر فرض غرامة حربية على سكان القاهرة ، حددها باثنى عشر مليون فرنك ، وخص علماء الأزهر بنصيب موفور من هذه الغرامة الفادحة (١) .

فجيعة الأزهر فى بعض طلابه :

وتلبد الجو بين الأزهر والفرنسيين مرة أخرى بعد أن اغتال سليمان الحلبى فى ١٤ من يونيو سنة ١٨٠٠ الجنرال كليبر القائد العام للحملة الفرنسية فى حديقة مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية ، إذ ضربه بخنجر عدة طعنات متوالية فشق بطنه وسقط على الأرض مدرجاً فى دمائه وقضى نحبه قبل أن ينطق بكلمة واحدة . وكان القاتل أحد طلبة الأزهر القدامى قضى فى رحابه ثلاث سنوات يطلب العلم ثم عاد إلى حلب . ورجع إلى القاهرة فى ١٤ من مايو سنة ١٨٠٠ معتزماً قتل الجنرال كليبر بتحريض من الرؤساء العسكريين العثمانيين الذين أوضحوا له أن هذا العمل يعد جهاداً فى سبيل الله . ونزل فى رواق الشوام بالجامع الأزهر وأقام فيه شهراً يدرس خطوات وتحركات كليبر وأفضى إلى أربعة من طلاب الرواق بعزمه على اغتيال كليبر .

وتم القبض على القاتل . وكان الجنرال مينو قد عين بصفة مؤقتة قائداً عاماً للحملة لأنه أقدم ضباطها فى هذه الرتبة إلى أن يصدر بونابرت قراراً بتعيينه نهائياً فى هذا المنصب . فكان مينو هو القائد الثالث والأخير للحملة

(١) انظر ما سبق ص ص ٤٨٩ — ٤٩٤ .

الفرنسية . وقد أصدر فى ١٥ من يونيو قراراً بتشكيل محكمة عسكرية تتكون من تسعة أعضاء من كبار العسكريين لمحاكمة المتهم . وعقدت جلستها فى ذات اليوم وكان اتجاه أعضائها إلى اتهام المشايخ علماء الأزهر الذين عرفوا بالتحريض على الثورة الثانية التى اشتعلت فى القاهرة . وعهدت المحكمة إلى بعض الضباط بالبحث عنهم . وتطوع جماعة من المماليك برياسة حسين كاشف مندوب الأمير مراد باك حليف الفرنسيين للبحث عن أولئك المشايخ واستصحبهم عدد من كبار الضباط العاملين فى مكتب كبير ياوران القائد العام ، وفتشوا منازلهم ولكنهم لم يجدوا فيها ما يدينهم أو يبعث على الاشتباه فيهم . ثم اتجهت ظنونهم إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وبعض كبار العلماء .

وفى أثناء المحاكمة اعترف القاتل ، تحت تأثير التعذيب ، بأنه هو الذى قتل الجنرال كليبر ، وذكر أسماء الطلبة الأزهريين الأربعة الذين أفضى إليهم بعزمه على اغتيال كليبر . فصدر الأمر بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ أحمد العريشى قاضى القضاة وحجزوهما إلى منتصف الليل ، ثم ألزموهما بإحضار الأشخاص الذين وردت أسماؤهم على لسان المتهم . فذهب الشيخان فى صحبة الأغا ، وهو المحافظ ، إلى الجامع الأزهر حيث تم القبض على ثلاثة من الطلبة المطلوب القبض عليهم ولم يجدوا الرابع الذى كان قد نجح فى الهرب . وتبين من مناقشات المحكمة اهتمامها بتصيد القرائن أو الأقوال التى تثبت علم هذين الشيخين أو غيرهما من كبار علماء الأزهر بنية القاتل . ولكن لم يقم أى دليل أو قرينة يثبت شيئاً من ذلك .

وصدر حكم المحكمة العسكرية بإعدام القاتل والطلبة الأربعة لأنهم علموا بنية القاتل ولم يبلغوا السلطات بنيته . وكان الحكم بالنسبة للطالب الرابع غيابياً مع مصادرة أمواله ولم يكن له مال . ونص الحكم على وسائل تنفيذ

أحكام الإعدام من الخازوق (١) إلى قطع الرءوس إلى إحراق بعض الجثث وترك البعض الآخر تفترسها الجوارح . فبالنسبة للمتهم الأول سليمان الحلبي نص الحكم على أن تحرق يده اليمنى التي قتل بها القتيل ، ثم « يتخوزق » أي يعدم فوق الخازوق ، وتترك جثته في العراء تفترسها الجوارح . وأن يعدم شركاؤه الأربعة بقطع رءوسهم ثم توضع الرءوس فوق نبابيت ، ثم تحرق بقية جثثهم بعد الإعدام . وأن تنفذ جميع هذه الأحكام علناً أمام الجنود والأهالي . وجاء في حيثيات الحكم أيضاً أن المحكمة وهي تحدد طريقة تنفيذ الإعدام في المتهمين قد وضعت في اعتبارها طريقة الإعدام التي تستخدم في مصر في قضايا الجنايات الكبرى والتي تتناسب مع شخصية المجني عليه . وقد نشر الفرنسيون محاضر جلسات المحاكمة باللغة الفرنسية (٢) ثم ترجموها إلى اللغتين التركية والعربية . وقد نشر الجبرتي النص الكامل باللغة العربية كما وضعه المترجمون الفرنسيون (٣) .

وبعد أن تم تشييع جنازة كليبر في ١٧ من يونيو سنة ١٨٠٠ شرعت السلطات الفرنسية فوراً في تنفيذ أحكام الإعدام في سليمان الحلبي والطلبة

---

(١) كان الأتراك العثمانيون يستخدمون الخازوق كوسيلة من وسائل ثلاث في إعدام المتهمين أو بعض الأسرى . أما الوسيلتان الأخريان فكانتا المنشار والسيف . وكان السلطان محمد أبو الفتوح يستخدم الوسائل الثلاث . فكانت أوروبا تعرف طريقة الخازوق . وقد دخلت هذه الطريقة إلى مصر في عصر دولتي المماليك البحرية والشراكسة .

انظر عرضاً لطريقة استخدام الخازوق في الإعدام وشرح الوسيلتين الأخريين في مؤلفنا : « أوروبا في مطلع العصور الحديثة » القاهرة ، الجزء الأول ، ١٩٦٩ ، ص ٦٣٧ .

(٢) Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Solyman el-Halahy, assassin du Général en chef Kléber et traduction turc des pièces. Au Caire, an VIII.

وقد أعيد نشر حيثيات الحكم في :

Revue d'Egypte, II et III, 1895-1896.

(٣) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ص ١١٧ — ١٣٣ .

الثلاثة فوق تل العقارب بجهة الناصرية على مقربة من القلعة التى شيدها الفرنسيون فى هذه الجهة ، وعرفت باسم طابية قاسم بك بالناصرية أو طابية المجمع العلمى Fort de l'Institut .

ويعلق الأستاذ عنان على إعدام الطلاب بقوله « وهكذا فجع الأزهر مرة أخرى ، فى ظل الإحتلال الفرنسى ، فى عدد من طلابه ، بعد أن فجع فى ثورة القاهرة الأولى، فى عدد من علمائه . بيد أن الفجيعة كانت فى كل مرة عنوان زعامته » (١) .

* * *

---

(١) عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١ .

الفصل العشرون

الأزهـر

فى عهد الانقلابات السياسية

(١٢١٦ – ١٢٢٠هـ : ١٨٠١ – ١٨٠٥م)

عهد الانقلابات السياسية :

ابتهج المصريون بخروج الفرنسيين من البلاد سنة ١٢١٦هـ (١٨٠١م)، ولكنهم وجدوا أن بلادهم تموج بقوات بريطانية وعثمانية ومملوكية. جاءت القوات البريطانية بصفتها قوات حليفة للسلطان العثمانى سليم الثالث لتسهم فى إخراج الفرنسيين، ولكنها تباطأت كالعادة فى الجلاء حتى سنة ١٨٠٣م. أما القوات العثمانية فجاءت لإخراج الفرنسيين، وكانت تضم أخلاطاً شتى من الجنود الأكراد والألبانيين والأتراك والمغاربة والشوام وغيرهم. وسرعان ما أصبحوا عوامل فوضى واضطراب. كانوا فخورين بأنهم أنقذوا مصر من الحكم الفرنسى. واعتقدوا أن هذا الانقاذ يتيح لهم أن يفعلوا فى البلاد وأهلها ما شاءت أطماعهم وأدواؤهم. وانتشروا فى الشوارع يخطفــون أرزاق الناس، ويقتحمون المنازل، وينتهكون الأعراض والحرمات، ويرهقون المصريين بشتى أنواع الضرائب والإتاوات والقروض الإجبارية. ورأى الشعب إلى جانب العثمانيين الأمراء المماليك وأجنادهم يريدون الاستئثار بالحكم واغتصاب الأموال من المصريين. فالأمراء المماليك عادوا بقواتهم إلى مصر مع القوات العثمانية تسيطر عليهم عقلياتهم القديمة ولم يستفيدوا من الدرس القاسى الذى أنزله بهم الفرنسيون. وهكذا خرج الشعب من محنة الاحتلال الفرنسى ليواجه احتلالا ثلاثيــاً تلاحقت صوره على أيدى العثمانيين والمماليك والبريطانيين.

والحق أن مصر غدت مسرحاً لفوضى سياسية لامثيل لها . وحسبنا أن نذكر أنه تعاقب على حكم مصر ، خـــلال الفترة التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١م حتى قاد علماء الأزهر الثورة الشعبية الكبرى سنة ١٨٠٥ ، خمسة باشوات عثمانيون ، قتل منهم اثنان ، وأُخرج الثلاثة الباقون من البلاد إخراجاً غير كريم ، الأمر الذى يجعلنا نطلق على هذه الفترة « عهد الانقلابات السياسية » أو « عهد الاضطرابات السياسية ».

وتدهورت الفوضى السياسية والخلقية إلى الحضيض ، كما سنرى فى الفصل التالى ، حين زوّر أحد العثمانيين ، وهو أحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرية فرماناً سلطانياً بتعيينه والياً على مصر . واستطاع بهذا الفرمان المزيف وبمساعدة محمد على ، أن يتبوأ حكم مصر . واضطر السلطان إلى تثبيت خورشيد باشا فى موقعه الجديد .

واجتمع إلى هذه الاضطرابات السياسية تدهور خطير فى الشئون المالية والاقتصادية . فقد ترك الفرنسيون عند جلائهم خزائن الحكومة خاوية ، وكانوا يعانون فى سنتهم الأخيرة نقصاً فى الموارد المالية حتى إن ملابس جنودهم قد استهلكت وعجزوا عن أن يستبدلوا بالملابس الممزقة ملابس جديدة . وواجهت السلطات العثمانية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين عجزاً رهيباً فى الموارد المـــالية . وكانت العلاقات التجارية بين مصر وإستانبول وبلاد شمالى إفريقية والشام والحجاز واليمن وغيرها مقطوعة طوال فترة الاحتلال الفرنسى . وكان الحصار المحكم الذى فرضه الأسطول البريطانى على سواحل مصر الشمالية قد قطع الاتصال بينها والعالم الخارجى . وكان على مصر أن تدفع مرتبات القوات العثمانية المرابطة فيها والتى وفدت إليها. وكان تأخر الحكومة فى مصر عن دفع مرتبات العسكريين العثمانيين من أهم أسباب الاضطرابات السياسية . يضاف إلى ذلك أن الأمراء المماليك كانوا حريصين على تعويض ما فاتهم من دخول مالية طوال فترة الاحتلال

الفرنسى فاستولوا عقب عودتهم على أقاليم شاسعة من الأراضى الزراعية فى الصعيد والوجه البحرى واستأثروا بإيراداتها ومحاصيلها . ولم يجد الحكام أمامهم سوى الشعب الكادح يفرضون عليه الإتاوات الفادحة والقروض الإجبارية وغير ذلك من ضرائب جزافية تعسفية مختلفة المسميات .

لم يعمد المصريون إلى الاستكانة إزاء مظالم العثمانيين والمماليك ، بل تعددت انتفاضات الشعب فى القاهرة والأقاليم احتجاجاً على تلك المظالم . واستمر الصراع بين الشعب وحكامه أعنف ما يكون الصراع . وتعاقبت حوادث إغلاق الجامع الأزهر احتجاجاً على عسف الحكام . وكثرت تجمعات الجماهير فى الجامع الأزهر ومنطقته انتظاراً لإشارة علماء الأزهر بالتحرك استنكاراً لتصرفات هؤلاء الحكام وتحدياً لهم . واشتركت النساء مع الرجال فى هذه الحركات الشعبية . ولم يكن دور علماء الأزهر إبان فترة الاضطرابات السياسية مقصوراً على التوسط لدى الحكام لدرء المظالم عن أفراد الشعب المصرى ، بل تجاوز العلماء هذا الدور إلى مسائل ذات طابع سياسى بالدرجة الأولى .

التصاق تاريخ الأزهر بتاريخ مصر السياسى إبان الانقلابات السياسية وبضع سنين بعدها :

والواقع أن تاريخ الأزهر قد التصق التصاقاً شديداً بتاريخ مصر السياسى فى معظم سنوات فترة الاضطرابات السياسية بحيث أصبح من الصعوبة بمكان على أى مؤرخ أو باحث يتصدى لتاريخ الأزهر إبان هذه الفترة أن يغفل المعالم الرئيسية لتاريخ مصر السياسى . وحسبنا أن نسجل هنا خمس مسائل عن دور علماء الأزهر فى الحياة السياسية فى تلك الفترة .

المسألة الأولى :

كان دور علماء الأزهر فى التوسط بين الحكام والمحكومين لرفع

المظالم عن الآخرين استمراراً للدورهم التقليدى الذى برز بروزاً واضحاً قوياً فى أواخر العصر العثمانى المملوكى و إبان الحكم الفرنسى :

المسألة الثانية :

وهى حقيقة جانبية تتمثل فى أن علماء الأزهر ظلوا فى تقدير الحكومة الفرنسية بعد جلاء الفرنسيين عن مصر عنصراً هاماً من عناصر الحياة السياسية فى البلاد إبان فترة الاضطرابات السياسية . وقد وضحت هذه النظرة إبان بعثة الكولونيل هوراس سباستيانى Horace Sébastiani التى أوفدها القنصل الأول فى فرنسا بونابرت (١) إلى مصر فى أواخر سنة ١٨٠٢ لاستعجال جلاء القوات البريطانية وتقصى الحقائق عن الموقف الداخلى فى مصر وما يحف به من تيارات سياسية .

المسألة الثالثة :

تجاوز علماء الأزهر نطاقهم التقليدى إلى مجال ذى طابع سياسى بحت ، فتدخلوا باسمهم لمصلحة الشعب بين الوالى العثمانى على برغل باشا من ناحية ومحمد على المتحدث وقتذاك باسمه وباسم الأمراء المماليك من ناحية أخرى لدعوته إلى الحضور من الإسكندرية إلى القاهرة مقر منصبه وبصفته الممثل الشرعى للسلطان العثمانى إبتغاء انهاء الاضطرابات السياسية التى يكتوى الشعب بنارها وللاستعداد لموسم الحج فى وقت مبكر وما يتطلبه هذا الاستعداد من سرعة إنجاز كسوة الكعبة المشرفة واعداد قافلة الحج المصرى .

---

(١) كان بونابرت عقب وصوله إلى فرنسا من مصر قد قام بانقلاب يسمى انقلاب بروميرفى نوفمبر سنة ١٧٩٩ . وتقرر وضع دستور جديد لفرنسا تركزت بمقتضاه السلطة التنفيذية فى يد ثلاثة قناصل ينتخبهم مجلس الشيوخ لمدة عشر سنوات . وتقرر للمرة الأولى ، استثناء ، أن تعهد هذه السلطة إلى بونابرت واثنين آخرين ، على أن يكون بونابرت قنصلا أولا ، ويكون له حق اعلان الحرب وتوقيع المعاهدات وقيادة الجيش وانتخاب الوزراء . وكان القنصلان الآخران بمثابة مساعدين له فقط .

المسألة الرابعة :

انغماس علماء الأزهر فى مجالات السياسة العليا حين يئسوا من إصلاح الأوضاع المتردية فى مصر بسبب الإرهاب الذى نشره الجنود الألبانيون والدلاة فى القاهرة على عهد الوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا . فذهب وفد من علماء الأزهر فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٠٤ إلى تابرنا Taberna سكرتير البعثة البريطانية فى القاهرة ، فى أثناء غياب ميست Misset القنصل البريطانى العام فى مصر لتواجده وقتذاك فى الإسكندرية . وقد شكا علماء الأزهر لسكرتير البعثة اضطراب الأمن فى القاهرة وشرحوا أسبابه والتمسوا عرض الموضوع على ملك بريطانيا الذى تستطيع حكومته أن ترسل جنوداً إلى مصر لإنقاذ أهلها من الفناء . وأضافوا إلى ذلك وهم إنهم لا يمتنعون عن طلب هذه الحماية من فرنسا إذا لم يحصلوا عليها من بريطانيا . وهذه المسألة موضع شك وسنناقشها فى موطن قادم فى هذا الفصل .

المسألة الخامسة :

انتقال علماء الأزهر إلى مرحلة جديدة كان لها نتائج بعيدة وخطيرة فى مصر ومنطقة الشرق العربى الآسيوى حين قاموا بتحريك وتزعم ثورة شعبية فى القاهرة وضواحيها ضد الوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا لعزله من منصبه والمناداة بمحمد على باشا والياً على مصر .

وسنناقش فى هذا الفصل المسائل الأربع الأولى . أما المسألة الخامسة فسنفرد لها فصلاً مستقلاً هو الفصل التالى .

الشعب يلوذ بعلماء الأزهر لوقف اعتداءات العسكريين عليه :

تعددت حوادث اعتداءات العسكريين العثمانيين وأجناد الأمراء المماليك على الشعب الكادح . وكانت كثرة الاعتداءات نتيجة طبيعية لضعف الولاة

الذين تعاقبوا على حكم البلاد وقيام الصراع بين العناصر العسكريتو العنصرية. وقد كثر تدخل علماء الأزهر لدى الولاة العثمانيين تارة ، ولدى الأمراء المماليك تارة أخرى لوقف هذه الاعتداءات .

ففى منطقة الأزهر وكنوع من التحـــدى كثرت عربدة الجنود فى ١٠ شعبان سنة ١٢١٨ (٢٥ نوفمبر سنة سنة ١٨٠٣) ، فخطفوا عمائم المارة ، واستولوا على ما فى جيوبهم من نقود ، وجردوهم من ملابسهم . يقول الجبرتى « فانزعج الناس ، وحصلت فيهم كرشة وصلت إلى بولاق ومصر القديمة ، وأغلقوا الدكاكين . واجتمع الناس وذهبوا إلى الشيخ الشرقاوى والسيد عمر نقيب الأشراف والشيخ محمد الأمير ، فركبوا إلى الأمراء ، وعملوا جمعية ، وأحضروا كبار العسكر وتكلموا معهم ، ثم ركب الأغا والوالى (محافظ العاصمة ومدير الأمن فيها) ، وأمامهما عدة كبيرة من عسكر الأرنؤود وخلافهم ، والمنادى ينادى بالأمن والأمان للرعية . وإن وقع من العسكر أو المماليك خطف شىء يضربوه ، وإن لم يقدروا عليه فليأخذوه إلى حاكمه » (١) . والواقع أن هذا التوجيه لم يكن عملياً ، وإن دلّ على شىء ، فإنما يدل على أن الأمر قد خرج من يد السلطات العثمانية والمملوكية فى مصر لكبح جماح الجنود .

• • •

وانتهز علماء الأزهر الأعضاء فى ديوان القاهرة فرصة اجتماعه ٢٠ شوال سنة ١٢١٨ (٢ فبراير ١٨٠٤) بمناسبة ورود فرمانات سلطانية من إستانبول ، وأبدوا شجاعة أدبية كبيرة فى مهاجمة موجات العنف والمظالم التى عمت البلاد وما ترتب عليها من الدمار والخراب وإغلاق الحوانيت .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

وطالبوا بضرورة الضرب على أيدى المفسدين والالتزام بالعدل . وكان الشيخ محمد الأمير من أبرز المتحدثين فى هذا الاجتماع (١) .

* * *

وتعرضت السيدة نفيسة المرادية أرملة الأمير مراد بك لإهانات متتالية من قِبَل خورشيد باشا فى شهر صفر سنة ١٢١٩ (مايو ١٨٠٤) ، إذ أمر بالقبض عليها وتحديد إقامتها فى دار أحـد علماء الأزهر ، وهو الشيخ السحيمى ، بجوار القلعة كرهينة « فتكدرت خواطر الناس لذلك» ثم أحضرها إلى القلعة فى ٢٢ مايو ١٨٠٤ وكان من بين الاتهامات التى وجهها إليها خورشيد قيام صلات سياسية ومالية مشبوهة مع الأمراء المماليك كى يمضوا فى نشاطهم الحربى ضده، وتعهدها لرؤساء الجنود الألبانيين بدفع مرتباتهم المتأخرة فى مقابل تأييد المماليك عسكرياً فى حربهم ضد خورشيد . وخفّ إلى قصر الباشا فى القلعة من علماء الأزهر المشايخ محمد السادات ومحمد الأمير والمهدى والفيومى والسيد عمر مكرم والقاضى العثمانى . وطلبوا عدم أخذ هذه السيدة بالشبهات ، وإن البينة على من أدعى . واتضح أن خورشيد كان يريد مصادرة أموالها بغير حق . وقد أفاض العلماء فى الدفاع عنها كما أفاضت هى فى تفنيد الاتهامات الموجهة إليها . وهدد الشيخ الأمير بأن « هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد ، وبعد ذلك يتوجه اللوم إلى المشايخ ، فإن كان كذلك فلا علاقة للمشايخ بشىء مما قد يحدث من جانب الأهالى المتذمرين بسبب هذا الحادث » . ولكن أصرّ خورشيد على رأيه .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

وأمام إصرار الحاضرين على براءتها ، وافق خورشيد على تحديد إقامتها فى دار الشيخ محمد السادات (١) .

* * *

ودعا خورشيدباشا علماء الأزهر إلى اجتماع خاص عقد فى ٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٩ (١١ أغسطس سنة ١٨٠٤) بسبب رسالة وردت من الأمراء المماليك يطلبون فيها الإذن لهم بحكم الصعيد إبتداء من إسنا إلى أقصى الجنوب . ووافق الباشا على طلبهم . فطلب من المشايخ أن يكتبوا الرد للأمراء المماليك . ولكنهم رفضوا (٢) . وقد أثبت علماء الأزهر أنهم كانوا أبعد نظراً وأكثر حصافة من الوالى العثمانى ، إذ كانوا يعرفون الأمراء المماليك على حقيقتهم . كانوا قوماً مَرَدُوا على النفاق والنكث بالعهود واستغلال الجماهير وإيذائها وحبس المحاصيل الزراعية عن سكان القاهرة . فعلماء الأزهر فى رفضهم الكتابة إلى الأمراء المماليك كانت تدفعهم الرغبة فى رفع المعاناة عن الشعب . والأمثلة عديدة على تدخل علماء الأزهر لدى الحكام لوقف المظالم التى انهالت على الجماهير بكثرة لم يشهد لها الشعب من قبل مثيلا . وتفيض يوميات الجبرتى بهذه الاعتداءات والمظالم . ونحيل إليها القارئ الذى يلتمس الوقوف على مزيد منها .

السلطات العثمانية توالى الأزهر برعايتها :

وفى غمرة الاضطرابات السياسية وما صحبها من اعتداءات العسكريين العثمانيين على أفراد الشعب من نهب المحلات التجارية والاعتداء على المارة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ .
وكذلك الدكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، ج ١ ، ص ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٢) الجبرتى : ص ٣٠٩ .

وخطف ما بأيديهم وما إلى ذلك ، كان الأزهر موضع رعاية السلطات الحاكمة . فقد أمر الوالى العثمانى خسرو باشا فى ١٥ رجب سنة ١٢١٧ (١١ نوفمبر سنة ١٨٠٢) بإرسال ألف أردب من القمح إنعاماً منه على طلبة أروقة الأزهر ، ثم أنعم بعد أيام قليلة بألف أردب أخرى . ويعلق الجبرتى على هذا الإنعام المكرور فى فترة قصيرة ببيت من الشعر :

وإنها خطرات من وساوسه   يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرماً (١)

ويبدو أن الأوقاف المرصودة على الأزهر وأروقته تعذر الحصول على إيرادها بسبب الأزمات المالية الخانقة التى صحبت فترة الاضطرابات والفوضى السياسية . فقد انخفض النيل ، وارتفعت أسعار المواد التموينية ، ووقعت مجاعات ، وثار الجنود بسبب التأخر فى دفع مرتباتهم ، وأسرفت حكومة المماليك — إبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى — فى فرض ضرائب جزافيــة تعسفية على الشعب مما كان له أثره فى انكماش حصيلة الإيرادات التى تغلهــا الأوقاف « واجتمع علماء الأزهر (١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٣) ٤ رجب سنة ١٢١٨ وتحدثوا مع إبراهيم بك الكبير فى موضوع جراية طلبة أروقة الأزهر « فأعطاهم نقوداً تعطى للمجاورين يعملون بها خبزاً » (٢) . ولم يحدد الجبرتى مقدار النقود التى قدمها الأمير إبراهيم بك الكبير ، ولكنها كانت على كل حال إسهاماً من هذا الأمير فى تخفيف أزمة الجراية ، وأنه آثر طلبة أروقة الأزهــر وفضّلهم على الجنود المشاغبين . وكان إبراهيم بك يتميز بالحكمة والتعقل . كما تدل مفاتحة علماء الأزهر لإبراهيم بك على حرصهم على مصالح طلبة الأروقة فى الجامع الأزهر .

---

(١) الجبرتى : ج ٣ ، ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

مقابلات بعثة فرنسية يرأسها وزير مفوض مع علماء الأزهر :

كانت فرنسا و بريطانيا قد توصلتا إلى عقد صلح أميان Amiens فى ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ ، ومن بين شروطه جلاء القوات البريطانية عن مصر . ولكن تباطأت بريطانيا فى الجلاء . وأقلقت القنصل الأول بونابرت هذه المماطلة . واتخذ عدة وسائل كى تسرع بريطانيا فى الجلاء . وكان من بينها أنه أوفد إلى مصر الكولونيل هوراس سباستيانى(١) Horace Sébastiani لتقصى الحقائق عن نيات بريطانيا ولدراسة الموقف السياسى على الطبيعة . ويلاحظ أنه لم يكن لفرنسا تمثيل قنصلى فى مصر فى ذلك الوقت على الرغم من أن بونابرت كان شديد الرغبة فى أن يرسل مندوباً عاماً commiss aire général إلى مصر يساعده مندوبون تجاريون فى أمهات المدن المصرية . ولكنه رأى أن شغل منصب المندوب العام عمل يمس كرامة فرنسا فى وقت كانت القوات البريطانية لاتزال تحتل مصر . وتضمنت التعليمات التى أصدرها بونابرت فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٠٢ إلى سباستيانى أن يدون مذكرات وافية عما قد يجده فى ميناء الإسكندرية من سفن حربية وعن القوات البريطانية فى منطقة الإسكندرية وكذلك القوات العثمانية ، وأن يجمع معلومات مفصلة عن الحالة الراهنة فى البلاد . وطلب بونابرت أن تصحب الفرقاطة التى تحمل سباستيانى إلى الاسكندرية مركب بريد حتى يتسنى له إبلاغ حكومته كافة المعلومات عن مركز القوات البريطانية وكل مايهم الحكومة الفرنسية معرفته عن الأوضاع فى مصر .

بلغ سباستيانى الإسكندرية فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢ بصفته وزيراً مفوضاً فرنسياً من قبل القنصل الأول بونابرت . وأعدت السفن البريطانية

---

(١) أصدر بونابرت قراراً بترقيته إلى رتبة جنرال وشغل منصب سفير فرنسا فى الدولة العثمانية . وظل فى هذا المنصب حتى سنة ١٨٠٧ .

فى ميناء الإسكندرية استقبالا رسمياً بإطلاق المدافع تحية لسباستيانى وأعضاء البعثة المرافقة له من فرنسا .

ودارت محادثات هامة مع قائد القوات البريطانية فيها ، الجنرال ستيوارت ، ومع حاكم الإسكندرية أحمد خورشيد باشا ، ومع حسين بك قبطان قائدالقوات البحرية العثمانية فى الثغر ، والشيخ محمد المسيرى كبيرعلماء الإسكندرية ، ثم غادر سباستيانى الإسكندرية فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ فى طريقه إلى القاهرة فى حراسة ضابطين فرنسيين من الفرقاطة التى أحضرته وخمسة من أعضاء البعثة . ووصلوا إلى ساحل بولاق فى ٢٥ أكتوبر وأرسل لهم الوالى العثمانى خسرو باشا خزنداره ، وقوة من ثلاثمائة فارس ومائتى جندى وبأيديهم السيوف المسلولة وأطلقت المدافع طلقاتها من بولاق والأزبكية والجيزة . وركبوا إلى دار أعدت لهم بحارة البنادقة ثم ذهبوا إلى الباشا العثمانى وتبادلوا معه الهدايا « وصاروا يركبون فى هيبة وأبهة معتبرة وكان فيهم جبير ترجمان بونابرته »(١)

ودارت محادثات هامة بين خسرو باشا ورئيس البعثة الذى أبلغه عقد الصلح بين فرنسا والباب العالى واستئناف صلات المودة والصداقة والعلاقات التجارية بينهما ، وأن بونابرت قد كلفه بأن يؤكد لخسرو باشا حسن نواياه ، وأن يخبره بقرب وصول المندوبين التجاريين الفرنسيين إلى مصر (٢) .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ص ٢٢٩—٢٣٠ . وجبير الذى ذكره الجبرتى هو جوبير « Jaubert » أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون التى اصطحبها بونابرت فى حملته على مصر سنة ١٧٩٨ .

(٢) أنظر التقرير الضافى الذى بعث به الجنرال سباستيانى إلى القنصل الأول بونابرت والخاص بمصر ، وقد نشر فى مجموعة الوثائق الفرنسية عن مصر بعنوان :

Douin G. L. Egypte de 1802 à 1804. op. cit. date presumée (janvier 1803) Rapport No. 8. pp. 11 – 26.

وهذا المجلد من مطبوعات الجمعية الجغرافية المصرية .

وبعد محادثاته مع خسرو باشا اتصل رئيس البعثة الفرنسية بالشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر لينظم له اجتماعاً فى داره يحضره كبار علماء الأزهر. وتم الاتفاق على أن يعقد الاجتماع فى اليوم التالى — ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٢ فى دار الشيخ الشرقاوى، فكان علماء الأزهر أول من قابلهم سباستيانى من كبار المسئولين فى القاهرة. ودار الحديث حول اهتمام بونابرت بمصر وعظم قوته والانتصارات السياسية والحربية التى أحرزها فى أوروبا، وتقديره واحترامه لعلماء الأزهر وتحسن العلاقات بين السلطان سليم الثالث وبونابرت، ورغبة الأخير فى نمو العلاقات الودية مع مصر. وقد أظهر علماء الأزهر فى حديثهم مقدار مايكنونه لبونابرت من ود ومحبة. وأسرف بعض المشايخ فى تصوير عمق هذه المحبة. وفى أثناء الاجتماع أهدى رئيس البعثة لكل شيخ صورة بونابرت فتقبلوها بحماس شديد. ولم يقنع سباستيانى بذلك، بل كان يهدى صورة بونابرت لكل عالم من علماء الأزهر قابله فى المدن التى مربها فى طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة ومن القاهرة إلى دمياط. ومما هو جدير بالذكر أن عمر مكرم نقيب الأشراف لم يحضر الاجتماع الذى عقد فى دار الشيخ الشرقاوى واعتذر عن عدم حضوره بمرضه. ويبدو أنه كان مرضاً سياسياً وليس مرضاً جسمانياً، فإن عمر مكرم لم يتعاون قط مع الفرنسيين سواء كرهاً أو طوعاً، وقد زاره سباستيانى فى داره فى اليوم التالى — ٢٨ أكتوبر — ومع ذلك لم يقابله عمر مكرم وقابله أحد أقربائه نيابة عنه(١).

ولنا ملحوظتان على نشاط البعثة الفرنسية. أما الأولى فقد حرص رئيسها وأعضاؤها على أن يذيعوا فى مقابلاتهم مع الشخصيات المصرية فى الإسكندرية والمدن التى مروا بها فى طريقهم إلى القاهرة مثل رشيد وفوه والرحمانية ومنوف وغيرها على أن البعثة قد جاءت مصر لتستعجل الإنجليز

---

(١) الوثيقة السابقة فى المصدر السابق.

فى الجلاء عن البلاد ، فقوبلت البعثة بمظاهر الحفاوة والإكرام . وخاض المصريون فى النوايا الطيبة التى تظهرها فرنسا نحو مصر . ولاشك أن هذا التصرف من جانب البعثة كان ينم عن براعة فى الدبلوماسية .

أما الملحوظة الثانية فهى الاهتمام الزائد من جانب البعثة بمقابلة علماء الأزهر سواء فى الإسكندرية أو المدن التى مروا بها أو أقاموا فيها حتى يخيل للباحث أن الهدف الأوحد للبعثة هو اكتساب مودة علماء الأزهر . والتقرير الذى وضعه رئيس البعثة يفيض بأنباء هذه المقابلات مع الأزهريين . ويدل هـذا المسلك أيضاً على دبلوماسية بارعة فى اجتذاب شريحة هامة فى قطاع المجتمع الإسلامى فى مصر نحو فرنسا .

وغادرت البعثة القاهرة فى ٣ نوفمبر فى طريقها إلى دمياط . وانتقلت من محل إقامتها فى القاهرة إلى ساحل بولاق فى موكب رسمى يصفه الجبرتى وصفاً طريفاً فيقول «وفى ٥ رجب سنة ١٢١٧ سافر الإلجى (١) الفرنساوى وأصحابه ، فنزلوا إلى بولاق ، وأمامهم مماليك الباشا بزينتهم ، وهم لابسون الزروخ والخوذ ، وبأيديهم السيوف المسلولة ، وخلفهم العبيد المختصة بالباشا ، وعلى رءوسهم طراطير حمر ، وبأيديهم البنادق على كواهلهم ، فلم يزالوا بصحبتهم حتى نزلوا ببيت راشتو(٢) ببولاق ، ثم رجعوا ثم نزلوا المراكب إلى دمياط ، وضربوا لهم المدافع عند تعويمهم السفن »(٣) . ووضع الوالى العثمانى خسرو باشا الكنجة الخاصة به(٤). ومرت البعثة بسمنود ثم المنصورة حيث قابلت الشيخ محمد الشناوى كبير علمائها وسائر علماء الأزهر

---

(١) إلجى وتكتب إيلجى أيضاً ، كلمة تركية معناها سفير .

(٢) راشتو : هو روزتى « Rosetti » قنصل النمسا العام فى مصر .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٤) الكنجة : وتكتب باللغة الفرنسية « Kange » ومعناها « الذهبية » وهى يخت أى سفينة فاخرة كانت مخصصة للباشا العثمانى يستقلها فى رحلاته فى النيل .

العاملين فى هذه المدينة وأعاد عليهم أعضاء البعثة ماسبق أن رددوه لعلماء الأزهر. وفى شربين قابلت البعثة الشيخ ابراهيم البهلول. وفى دمياط قابل رئيس البعثة الشيخ على خفاجى وزملاءه علماء الأزهر.

أهداف مقابلة البعثة الفرنسية لعلماء الأزهر :

ومن المعانى السياسية لزيارة البعثة الفرنسية لعلماء الأزهر، وقد تمت هذه الزيارة بناء على تعليمات بونابرت، أنه لم يتغير رأى بونابرت فى علماء الأزهر بعد تجربة الاحتلال الفرنسى لمصر. فقد ظل بونابرت وهو رجل فرنسا الأول فى موقعه الجديد، ينظر إليهم على أنهم عنصر هام فى الحياة السياسية المصرية. فقد لمس فيهم الزعامة الشعبية المثقفة، وخبر فى معظمهم حسن الخلق والأنفة والترفع عن الصغائر والتصاق الجماهير بهم. وكان بونابرت، وهو يخطط للسياسة الفرنسية فى منطقة الشرق الأدنى، قد أراد أن يكسب علماء الأزهر إلى جانب فرنسا إذا تطور التنافس الفرنسى البريطانى على مصر. وكان الموقف فيها يموج بشتى الاحتمالات والصراع يدور فيها أعنف مايكون الصراع بين العثمانيين والمماليك، كل منهم يريد الاستئثار بالنفوذ على ضفاف النيل. واتسمت سياسة الباب العالى بالاضطراب وعدم الاستقرار، فتارة يصفح عن المماليك، وتارة أخرى يعلن عليهم حرب إبادة. وكان فريق من المماليك يميل إلى فرنسا، وينحاز فريق آخر إلى جانب بريطانيا. وأهم من ذلك كله، وفوق ذلك كله، كان بونابرت يعتقد أن صلح أميان الذى عقد بين فرنسا وبريطانيا هو هدنة مسلحة وأن الحرب وشيكة الوقوع وأن العداء سيعود إلى سيرته الأولى مستحكم الحلقات. ولم يكن بونابرت بعيداً عن كبد الحقيقة فى زكنه وحسابه، فقد تجددت الحرب بين فرنسا وبريطانيا فى ١٦ مايو ١٨٠٣ بعد مرور شهرين على جلاء القوات البريطانية عن مصر. ولم ينته هذا الصراع الهائل بين هاتين القوتين العظميين إلا فى معركة ووترلو Waterloo فى ١٨ يناير ١٨١٥. وتخرج

من هذا الموضوع بأنه كان لعلماء الأزهر مكان بارز فى تخطيط السياسة الفرنسية بعد تدهور العلاقات الفرنسية البريطانية . وكان فى رأى القنصل الأول بونابرت أن يكون علماء الأزهر متجاربين مع نفوذ فرنسى يفضلونه على نفوذ بريطانى .

دور علماء الأزهر فى الصراع بين العثمانيين والمماليك :

أزمة على باشا برغل :

زج علماء الأزهر بأنفسهم فى غمار السياسة المحلية فى مصر ابتغاء وقف الاضطرابات وإنهاء المظالم التى يتعرض لها الشعب على أيدى الحكومة الثلاثية فى القاهرة . وكانت تتألف من الأمير إبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى ، ومحمد على بصفته قائد الجنود الألبانيين . ولكن أخفق علماء الأزهر فى هذا الدور أمام خديعة محمد على ومكره ودسائسه . كان من بين الباشوات العثمانيين فى فترة الاضطرابات والانقلابات السياسية على باشا برغل ويطلق عليه على الجزائرلى باشا(١) أو على الطرابلسى باشا(٢) . جاء من إستانبول ونزل فى الإسكندرية فى ٨ يوليو ١٨٠٣ تصحبه قوة من الجنود المشاة والفرسان العثمانيين وتباطأ فى الذهاب إلى القاهرة مقر منصبه مدة استطالت أكثر من خمسة شهور مارس فيها جنوده سياسة السلب والنهب والقتل ضد المصريين والأجانب فى الإسكندرية(٣) . جمع محمد على علماء الأزهر وعمر مكرم نقيب الأشراف وخطب محمد على فى المجتمعين منددآ بالمظالم التى يتعرض لها الشعب وبسياسة الأمراء المماليك وسوء حكمهم . وأنهى محمد على خطبته بأن طلب من علماء الأزهر أن يكتبوا خطاباً إلى على

---

(١) يطلق عليه الجزائرلى لأنه كان من أصل جزائرى مملوكاً لأحد حكامها .

(٢) أطلق عليه الطرابلسى لأنه كان والياً على طرابلس الغرب سنة ١٧٩٢ وأوقع بأهلها المظالم فطردوه منها

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

باشا برغل بصفته الممثل الشرعى للسلطان فى مصر يوجهون إليه الدعوة للحضور إلى القاهرة . واستجاب علماء الأزهر ووضعوا مذكرة فى ٨ رجب سنة ١٢١٨ (١٧ أكتوبر ١٨٠٣) وطالبوه بالحضور إلى القاهرة «ليحصل الاطمئنان والسكون وتأمين الطرقات وفتح وسائل المواصلات بين القاهرة والإسكندرية وإنهاء العمليات العسكرية والتخلص من اعتداءات الجنود التى لا أمل فى وقفها ، ولأجل تشهيل أمور الحج . وإن تأخرتم عن الحضور ربما تعطل الحج فى هذه السنة ، وتكون أنت المسئول عن ذلك»(١).

استجاب على باشا الطرابلسى لدعوة علماء الأزهر وغادر الإسكندرية فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٣ إلى القاهرة تصحبه قوات بلغت ٢,٥٠٠ من المشاة وخمسمائة من الفرسان بعد أن عين له الأمراء المماليك الطريق الذى يسلكه فى ذهابه إلى القاهرة وبعد أن حددوا له حجم القوة العسكرية التى تصحبه . وكان من بين «أسانيدهم» الحرص على سلامته وتوفير المواد التموينية للقوة العسكرية التى تصحبه ، فإن القاهرة تعانى نقصاً فى الأغذية وقد أخل الباشا العثمانى بهذين الشرطين . ونجح المماليك فى قتله فى ٢٧ يناير ١٨٠٤ عند قرية القرين بين بلبيس والصالحية . وكان محمد على قد نجح فى اقناع الأمراء المماليك باستدعاء هذا الباشا التعس إلى القاهرة للحد من نشاطه المعادى لهم ووضعه تحت الرقابة حيناً من الزمن ثم القبض عليه وإرساله إلى إستانبول ، ثم قام محمد على بالحلقة الثانية من مؤامرته فطالب من علماء الأزهر أن يوجهوا الدعوة إلى الباشا للحضور إلى القاهرة . ولم يكن هؤلاء العلماء يدرون ما بيته محمد على والأمراء المماليك لهذا الوالى العثمانى . والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم السرائر . واختتم الأمراء المماليك المؤامرة فأسرعوا بقتل على الطرابلسى باشا وهو فى الطريق قبل

---

(١) المصدر السابق ، ذات الصفحة .

أن يبلغ القاهرة . وأظهر محمد على حلفاءه وشركاءه فى الحكم فى أعين الجماهير والدوائر العليا فى إستانبول على حقيقتهم : سفاحين خارجين على القانون تتعطش نفوسهم إلى سفك الدماء .

محمد على يتخذ من علماء الأزهر ركيزة سياسية فى الأزمات التالية :

يهمنا فى هذه الدراسة الحادث المزدوج : التجاء محمد على إلى علماء الأزهر كى يكتبوا مذكرة إلى على باشا الطرابلسى يطلبون فيها حضوره إلى القاهرة ، والاستجابة الفورية لهؤلاء العلماء بوضع المذكرة المرتجاة ، لأنه ، بصرف النظر عن بواعثهم الطيبة فى الكتابة إلى الباشا العثمانى ، اتخذ محمد على من هذا الحادث المزدوج سابقة كررها فى جميع الأحداث والأزمات التى واجهها بعد ذلك سواء لتحقيق مطمحه فى تعيينه والياً على مصر سنة ١٨٠٥ ، أو مواجهة الأزمات التى تلاحقت بعد تعيينه مثل أزمة نقله إلى سالونيك سنة ١٨٠٦ ، وأزمة العدوان البريطانى على مصر سنة ١٨٠٧ .

مناقشة أسطورة تشهّر بعلماء الأزهر وتزعم أنهم طلبوا من بريطانيا احتلال مصر :

بعد أن رفع الأمراء المماليك الحصار عن القاهرة بسبب حلول موسم فيضان النيل فى صيف سنة ١٨٠٤ وبالتالى بعـد أن أخفقت محاولاتهم الاستيلاء عليها ثم انسحابهم إلى الصعيد ، ظن أهل القاهرة أنهم يستطيعون أن يتنفسوا الصعداء . ولكن خاب ظنهم ، إذ نشر الجنود الألبانيون والدلاة إرهاباً حقيقياً فى العاصمة باعتداءاتهم المروعة على سكانها المصريين والأجانب على حد سواء . وكتب تابرنا Taberna سكرتير البعثة البريطانية فى القاهرة خطاباً مؤرخاً فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٠٤ إلى ميست Misset القنصل العام لبريطانيا فى مصر والذى كان موجوداً فى ذلك الوقت فى

الإسكندرية قال فيه إن حوادث القتل أصبحت ترتكب يومياً فى القاهرة ، ويكثر نهب البيوت ، وغدا من الخطورة أن يغادر إنسان مسكنه إلى الشارع ، بل ولا يأمن الأهاون على أنفسهم وهم قابعون فى بيوتهم . وذكر حادث قتل تعرض له أحد الرعايا البريطانيين ، وقرر أن حياة الفرنسيين وسائر الأوروبيين معرضة للأخطار فى القاهرة . ثم قرر أن مما يجعل فيها الموقف أشد خطراً وأكثر حرجاً أن العسكريين العثمانيين — أى الأرنؤد والدلاة — يصرحون علناً أنهم لا يعترفون بسلطة السلطان العثمانى سليم الثالث ولا بسلطة خورشيد باشا ، ولا حتى بسلطة رؤسائهم عليهم (١) .

وفى ٢٦ أغسطس ١٨٠٤ أرسل هذا السكرتير إلى القنصل العام البريطانى فى الإسكندرية خطاباً قرر فيه أن وفداً من كبار علماء الأزهر قد زاره فى اليوم السابق — أى فى ٢٥ أغسطس — وشرحوا له فى أسلوب مؤثر المآسى التى تتعرض لها الجماهير ، وأنه ليس لديهم أمل يرتجى فى إنهاء المذابح التى يرتكبها يومياً أفراد الفرق العسكرية . وطلب المشايخ من السكرتير أن يبلغ القنصل العام البريطانى بهذا الموقف التعس كى يضع فكرة عامة عن هذا الموضوع أمام جلالة ملك بريطانيا ، وأن علماء الأزهر يتوقعون من حكومة جلالته بمفردها إنقاذ الشعب المصرى . وطلب المشايخ من الحكومة البريطانية « أن ترسل جنداً إلى مصر لإنقاذ أهلها من الفناء » وأوضحوا لسكرتير البعثة البريطانية « أنهم لا يمتنعون عن طلب هذه النجدة من فرنسا إذا تعذر عليهم الحصول عليها من بريطانيا العظمى »(٢) .

---

(١) Douin, G.; L'Angleterre et, L'Egypte. La Politique Mameluke (1803 – 1807)., tome deuxième. Le Caire, 1930. p. 188.

(٢) Loc cit., pp. 188 – 190.

Cairo, August 20th, 1804

Yesterday the principal Sheiks of the Mahometan religion called upon me. They drew a most deplorable picture of their sufferings, and having observed that they had no prospect of seeing an end to the atrocities daily committed by the troops, they intreated me in the most humble manner to inform you of their wretched situation. with a request that you will be pleased to lay it before His Majesty, from whose government alone they expect relief..... They expressed the warmest wish that His Majesty might be pleased to send troops to Egypt to save the inhabitants from total destruction. They seemed not disinclined to apply to the Government of France for protection if they could not obtain it from Great Britain(١).

دراسة تحليلية لهذه الوثيقة :

والدراسة التحليلية المحايدة لهذه الوثيقة تلقى عليها ظلالاً كثيفة من الشك . وهى تشمل جانبين :

الجانب الأول ويتمثل فى كبار علماء الأزهر الذين — كما قيل — التمسوا من بريطانيا أن ترسل جنوداً بريطانيين إلى مصر لاحتلالها وانقاذ المصريين من الفناء . لقد تجسدت فى هؤلاء العلماء الزعامة الشعبية الحانية والنظيفة . وليس من المعقول ، على أى نحو من الأنحاء ، أن يسعوا إلى احتلال دولة مسيحية لمصر . والمجتمع فى مصر ، كما قلنا مراراً فى هذه الدرسة ، كان مجتمعاً إسلامياً متزمتاً . وقد أفصح علماء الأزهر للجنرال كليبر القائد العام الثانى للحملة الفرنسية عقب إخماد الثورة الثانية للقاهرة سنة ١٨٠٠ عن مشاعر ولائهم للسلطان العثمانى بصفتيه خليفة المسلمين

(١) Loc. cit.

وسلطان أكبر دولة إسلامية فى العالم فى ذلك الوقت(١) ، وعلى ذلك فإن التماسهم الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٠٤ كان أمراً غير معقول ، لأنه خروج صارخ على هذا المبدأ وخيانة للدولة العثمانية وطعنة للسلطان تزيد الدولة وهناً على وهن بضياع أهم ولاياتها العربية الإسلامية منها . تضاف إلى ذلك محاولة بونابرت التودد إلى علماء الأزهر بعد رحيل الفرنسيين بإرسال بعثة سباستيانى إلى مصر سنة ١٨٠٢ ، فإذا كان لابد فى نظر علماء الأزهر التماس مساعدة دولة أوروبية مسيحية ، فمن باب أولى أن يكون التماس هذا الاحتلال من فرنسا وليس من بريطانيا . وهناك دليل ثالث هو أن علماء الأزهر هددوا بريطانيا - كما جاء فى الوثيقة - بأنها إذا لم ترسل قوات بريطانية لاحتلال مصر فسيطلبون من الحكومة الفرنسية بسط حمايتها على البلاد . ومن المعروف أن بريطانيا لم تستجب لهذا الطلب ، ولم يطالب علماء الأزهر من فرنسا إرسال قواتها إلى مصر . فهذه الأدلة الثلاثة تعصف بمحتوى الوثيقة الإنجليزية عصفاً تاماً .

أما الجانب الثانى للدراسة التحليلية لتلك الوثيقة الإنجليزية فتتمثل فى الرسالة التى بعث بها فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٠٤ سكرتير البعثة الإنجليزية تابرنا من القاهرة إلى ميست القنصل البريطانى العام فى الإسكندرية الذى بادر بدوره بإرسالها إلى الحكومة البريطانية فى ٣ سبتمبر ١٨٠٤ . ومن المعروف للمتعمقين فى تاريخ مصر الحديث أن هذا القنصل العام كان من أنصار احتلال بريطانيا لمصر عقب جلاء الفرنسيين عنها . وظل هذا الأمل يراوده سنين عدداً ، حتى إذا جاءت الحملة البريطانية إلى مصر سنة ١٨٠٧ لاحتلال مدينة الإسكندرية وحدها ، وجد القنصل العام أن هذه الحملة فرصة ذهبية لتحقيق أمله ، فضغط على قائد الحملة الجنرال ماكينزى

فريزر Mackenzie Fraser كى يوسع الأخير نطاق عملياته الحربية باحتلال رشيد ثم دمياط ثم الزحف على القاهرة على طول فرعى رشيد دمياط . واستطاع القنصل العام بوسائل مصطنعة وحجج واهية أن يحمل قائد الحملة على الأخذ برأيه . ومن ثم تعرضت الحماة الصغيرة العدد نسبياً لكارثتين عسكريتين فى رشيد وقرية الحماد . وأخفقت الحملة ، وأخذ قائدها والقنصل العام يتبادلان الاتهامات عن مسئولية هذا الفشل الذى حاق بالحملة ، وغدا نقطة سوداء فى التاريخ العسكرى البريطانى .

فالقنصل البريطانى العام فى مصر كان يخطط منذ سنوات لبسط الحماية البريطانية على مصر وكان على نصيب موفور من الحماقة والغرور . وهو ضابط برتبة رائد فى الجيش البريطانى . وكان سكرتير البعثة البريطانية فى القاهرة تابرنا ضابطاً على شاكلته برتبة نقيب . فليس من المستبعد أن يكون الاثنان — الرئيس والمرءوس — قد اتفقا على نسج خيوط هذه المسألة وتحديد دور كل منهما فيها . يؤيد هذا التفسير أن القنصل العام البريطانى فى ذات الخطاب الذى أرسله إلى الحكومة البريطانية فى ٣ سبتمبر التمس ترقية سكرتير البعثة تابرنا وزيادة مرتبة استناداً إلى الخدمات الجليلة التى أداها فى مصر وإلى معرفته اللغتين العربية والتركية . ويلاحظ أيضاً أن سكرتير البعثة قد أغفل ذكر أسماء وفد علماء الأزهر الذين زاروه . ولم يشر حتى إلى اسم رئيس هذا الوفد . ولعل هذا السكرتير النقيب كان هو الآخر من أنصار احتلال بريطانيا لمصر ، أو لعل القنصل العام فى مصر هو الذى أوحى إليه بهذه الفكرة فنقلها فى رسالته المؤرخة فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٠٤ . وقد بحثنا فى الوثائق الإنجليزية اللاحقة فلم نجد رداً أو تعقيباً عليها من الحكومة البريطانية ، كما لم نجد أى إشارة لهذا الموضوع فى الوثائق الفرنسية . وكان مقيماً فى القاهرة فى ذلك الوقت ماتيو لسيس Mathieu Lessers بصفته نائباً للمندوب العام للعلاقات التجارية للجمهورية الفرنسية بالقاهرة .

نخرج من هذه الدراسة التحليلية لمسألة التماس علماء الأزهر من بريطانيا أن ترسل قواتها لاحتلال مصر بأنها إسطارة أو أسطورة وضع خيوطها القنصل العام لبريطانيا فى الإسكندرية وسكرتير البعثة الإنجليزية فى القاهرة . ربما أكثر ماتحوى الوثائق من زيغ وأباطيل . وقد ناقشنا هذا الموضوع حتى لايقال إننا أغفلنا فى هذه الدراسة اتهاماً خطيراً أريد إلصاقه بعلماء الأزهر لتحقيق مصلحة قومية بريطانية على حساب سمعة علماء الأزهر .

* * *

الفصل الحادى والعشرون

دور علماء الأزهر

فى الثورة الشعبية الكبرى بالقاهرة

(١٢٢٠ هـ : ١٨٠٥ م)

خورشيد باشا يتولى حكم مصر بفرمان مزوّر :

دون انتظار صدور فرمان من السلطان العثمانى بتعيين وال جديد بعد مقتل على باشا برغل ، تم تفاهم واتفاق بين محمد على وأحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرية(١) على أن يتولى الأخير ولاية مصر بمقتضى فرمان مزوّر ينسبان صدوره إلى السلطان بتعيين خوشيد والياً على مصر . وقد أرسل خورشيد هذا الفرمان المزوّر مع بعض خاصائه إلى القاهرة فوصلوا إليها ليلة الانقلاب الذى قام به محمد على فى ١٢ - ١٣ مارس ١٨٠٤ والذى تم فيه طرد الأميرين المملوكين ابراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى من القاهرة وعصف فيه محمد على بحكومة المماليك فى القاهرة . واستكمالا لهذا المخطط أرسل محمد على جماعة من العسكر ومعهم هذا الفرمان المزوّر إلى القاضى وأطلعوه عليه ، فأرسل الأخير إلى علماء الأزهر يدعوهم للاجتماع فقالوا لا يعقد الاجتماع فى مثل هذا اليوم مع قيام الفتنة ، فأرسل القاضى الفرمان إلى المشايخ واطلعوا عليه ، وسرعان ما أشيع هذا النبأ بين جماهير الشعب . ولم تمض أيام ذات عدد حتى وصل إلى القاهرة أحمد خورشيد

---

(١) كانت الإسكندرية خارجة إدارياً عن ولاية مصر ، ويتولى إدارتها حاكم عثمانى لا يخضع لحكومة القاهرة . وظل هذا النظام الإدارى قائماً حتى أواخر سنة ١٨٠٧ عقب انسحاب حملة فريزر البريطانية من مصر فى ذلك العام ، فألحقت مدينة الإسكندرية وتوابعها بحكومة القاهرة.

باشا بصفته والياً على مصر بموجب الفرمان المزوّر (١). فكانت المؤامرة محكمة الإعداد والتوقيت . كان منصب والى مصر شاغراً بقتل على برغل باشا . وكانت فى القاهرة الحكومة الثلاثية وأركانها إبراهيم بك والبرديسى بك ومحمد على ، واتفق على أن يتم وصول الفرمان المزور إلى القاهرة فى الوقت الذى يطيح فيه محمد على بحكم الأميرين المملوكيين .

وتلاحقت الأحداث سراعاً فى هذه الفترة ، إذ رى سلطان الدولة العثمانية ، سليم الثالث ، ، أن أفضل حاكم يعين والياً على مصر يكون فى مكنته القضاء على الفتن والاضطرابات التى وصلت إلى حد الفوضى هو أحمد باشا الجزار والى عكا ، فأصدر فرماناً سلطانياً بتعيينه والياً على مصر . ولكن حدث ما لم يكن فى حسبان السلطان ، إذ قضى أحمد باشا الجزار نحبه فى تلك الفترة الحرجة . ورأى السلطان أن ينتهج سياسة الأمر الواقع ، فأصدر فرماناً بتثبيت خورشيد والياً على مصر ، وبذلك بدأت ولاية خورشيد الرسمية والقانونية على هذه البلاد (٢) .

---

(١) عن الفرمان المزور انظر كلا من :

– الوثائق الفرنسية التى نشرها

Douin G. ; L'Egypte de 1802 à 1804, op. cit.

– الوثائق التى تحمل أرقام ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٣

– الوثائق الإنجليزية التى نشرها

Douin G., L'Angleterre et L'Egypte. La Politique Mameluke (1803 – 1807), t.2

– الوثائق المذكورة فى صفحات ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٤ وغيرها .

– دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، ج ١ ، ص ٢٤٥ — ٢٦٣

(٢) فيما يختص بتعيين أحمد باشا الجزار والياً على مصر وملابسات وفاته انظر : الأنواع الثلاثة من الوثائق والمراجع المذكورة فى الحاشية السابقة . وتضاف إليها وثائق إنجليزية مذكورة فى ذات المصدر السابق ، ص ١١٨ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

كان خورشيد على شاكلة من سبقوه من ولاة عهـد الانقلابات السياسية : ظلوماً جهولا . اسرف اسرافاً بعيداً فى ظلم الشعب . ولكن ، والحق يقال ، كانت تحيط به الأخطار والمتاعب من يمين ويسار منذ وصوله إلى القاهرة ، وكان من بينها وجود قوات عسكرية ذات بأس شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . وكانت خزائن الحكومة خاوية . استقدم جنوداً أشداء من الأكراد عرفوا باسم الدلاة (١) لتدعيم مركزه . وسرعان ما عجز عن دفع مرتبات الجنود ، فلجـأ إلى فرض ضرائب جزافية وقروض إجبارية على الشعب ، واستخدم فى جمعها وسائل تعسفية ، فكان يعتقل فى القلعة الأعيان وكبار التجار ، المسلمين والأقباط واليهود ، ولا يطلق سراحهم إلا بعـد سداد ما قرره عليهم ، ثم فرض على صغار التجار خمسمائة كيس (٢) .

نذر الثورة وموقف عمر مكرم :

استقر رأى التجار وأرباب الحرف على إغلاق حوانيتهم كمظهر عملى من مظاهر الاحتجاج على مظالم خورشيد وفرضه الضرائب الجزافية عليهم ، وسرعان ما نفذوا ما تعاهدوا عليه ، وظلوا مترقبين متحفزين ، وذهبوا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء . وقام الأغا والوالى — محافظ العاصمة ورئيس الشرطة بها — بجولة فى شوارع القاهرة يأمران التجار بفتح محلاتهم . ولكن لم يمتثل أحد منهم لأوامرهما ، ذلك أن روحاً جديدة دبت فى نفوس المصريين .وكان خورشيد قد صعد فى ٢٠ مايو سنة ١٨٠٤ إلى القلعة مع حاشيته للاقامة بها حفاظاً على سلامته بعد أن أدرك أن بقاءه

---

(١) الدلاة أو الدلاتية كلمة تركية معناها المجازين ، ومفردها دلى . وأطلقت هذه اللفظة على الجنود الأكراد لشهرتهم بالبسالة والتهور والاندفاع الذى يصل إلى حد الجنون .

(٢) كان الكيس يساوى فى ذلك الوقت خمسة جنيهات .

فى القاهرة معرضة للمخاطر . وفى ٢٩ مايو ١٨٠٤ كانت القاهرة كمرجل يغلى استعداداً للثورة . واجتمع الكثير من العامة وكذلك الأطفال بالجامع الأزهر ، ومعهم طبـول ، وصعدوا إلى منارات الجامع ، يصرخون ويطبلون ، وتحلقوا بمقصورة الجامع ، يدعون ويتضرعون ويقولون « يالطيف » ووصل الخبر إلى خورشيد باشا .

استنجد خورشيد بعمر مكرم لتهدئة الشعب الثائر ، فأرسل إليه رسولا يقول له إن الحكومة قررت إعفاء الفقـراء من دفع الضرائب المستحدثة . فأجابه عمر مكرم قائلا إن أرباب الحرف والصناعات أصبحوا فى عداد الفقراء . ويكفى ما يعانون من حالة الكساد ووقف المعاملات التجارية وقلة البضائع المعروضة . فلا يحق للحكومة أن تطالب منهم الاسهام فى تحمل مرتبات الجنود . وتساءل عمر مكرم عن العلاقة بين التجار وتدبير الاعتمادات المالية لمحاربة المماليك . وعاد الرسول إلى خورشيد يحمل اجابة عمر مكرم . وذهب محافظ العاصمة فى حشد من الجنود إلى الغورية يأمر التجار بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف . ولكن لم يحضر أحد من التجار ولم يرهبهم وعد أو تهديد . واضطر خورشيد ، إزاء رفض عمر مكرم التعاون معه ، وإزاء تضامن أصحاب الحوانيت إلى إصدار فرمان محلى فى ذات اليوم « برفع الغرامة عن المذكورين ، ونادى المنادى بذلك ، فاطمأن الناس وتفرقوا وذهبوا إلى بيوتهم » وأفرج عن الأقباط بعد أن دفعوا ألفاً ومائتين وخمسين كيساً ، وتغاضى عن المائتين وخمسين كيساً المتبقية عليهم من الغرامة . وتم إطلاق سراحهم ليلا وغادروا معتقل القلعة على ضوء المصابيح (الفوانيس) . وفى اليوم التالى صدرت الأوامر باعتقال اليهود وسيقوا إلى معتقل القلعة ، وتقرر التحفظ عليهم حتى يدفعوا ألف كيس (خمسة آلاف جنيه) .

اسفاف الجنود الدلاة فى الاعتداء على الجماهير :

رابط فى حى مصر القديمة الجنود الدلاة الذين استقدمهم خورشيد باشا . وانقلبوا وحوشاً كاسرة بعد أن تأخرت مرتباتهم ثلاثة أشهر ، وأخذوا يهاجمون الشعب . وبدأوا اعتداءاتهم بالأسلوب التقليدى ، وهو خطف العمائم من رءوس المارة ، ثم انقلبوا مجرمين عتاه ينهبون ويقتلون ويقتحمون البيوت ويرتكبون جرائم خلقية . وما أن علم علماء الأزهر بهذه الجرائم حتى عملوا على تعبئة الرأى العام ضد هؤلاء الدلاة . وأمروا طلبة الأزهر بالمرور فى الطرقات الرئيسية وإذاعة أنباء هذه المآسى . ولم تمر ساعة واحدة حتى أغلقت الحوانيت والوكائل واقفرت الأسواق من روادها . وتدفقت الجماهير على حى الأزهر تطلب من المشايخ بصوت جهير الإذن لها فى الزحف على حى مصر القديمة والانقضاض على الدلاة(١) .

وعلم خورشيد بهذه الحركة وخشى أن يتفاقم الموقف ، فأرسل وكيله ومعه قائد فرقة المستحفظان فى حراسة قوة من الجند إلى الجامع الأزهر للتفاهم مع العلماء على تهدئة الجماهير . ولكن انهال عليهم الطوب من أسطح المنازل . وتعذر عليهم الوصول إلى الجامع ، فعادوا من حيث أتوا .

وقف علماء الأزهر من خورشيد موقف المحتج الغاضب ، فصعدوا إليه فى القلعة وخاطبوه فى هذا الإجرام الإرهابى الذى يمارسه جنوده الدلاة . فأصدر أمراً إلى الدلاة بعدم التعرض للأهلين . فلم يمتثلوا . وخاطب العلماء خورشيد مرة ثانية ، فأجاب بأنهم مسافرون بعد ثلاثة أيام ، فزاد ضجيج

---

(١) Achille de Vaulabelle; Histoire Scientifique et Militaire de l'Epédition française en Egypte. Paris, 1832, 10 vols. t. 9. pp. 206-207.

الشعب . واجتمع المشايخ فى الجامع الأزهر فى صباح الخميس ٢ مايو سنة ١٨٠٥ ، وأمروا بوقف الدراسة فيه . وخرج طلبة الأزهر إلى الأسواق يصرخون ويأمرون التجار بغلق الحوانيت. ورأى خورشيد باشا أن يخطو خطوة فى سبيل علاج الموقف . فأرسل وكيله إلى الجامع الأزهر يعرض على العلماء عقد هدنة مدتها ثمانية أيام تنتهى فى ١٠ مايو ، ويبذل المشايخ نفوذهم كى يركن الشعب الصاخب إلى الهدوء وتعود الحياة إلى مجراها الطبيعى ، على أن يتعهد خورشيد من ناحيته باتخاذ الاجراءات الكفيلة بردع الجنود الدلاة . ولكن لم يجد وكيل الباشا أحداً فى الجامع ، فتوجه إلى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع ،وعقدا اجتماعاً شهده علماء الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف . ولما نقل وكيل الباشا إلى المجتمعين رغبة خورشيد فى عقد الهدنة اشترطوا للموافقة عليها أن يطهر خوشيد مدينة القاهرة وضواحيها من الجنود الدلاة كلية فى خلال ثلاثة أيام . ولما انصرف الوكيل بعد أن انفض الاجتماع فوجىء بالجماهير تقذفه بالطوب وتوسعه سباً وشتماً (١) . وعلى الرغم من عقد الهدنة ، ظلت الدراسة معطلة فى الجامع الأزهر ، وبقيت معظم الحوانيت مغلقة .

خورشيد يزيد الموقف اشتعالا بتصرفاته :

كان فى ظن خورشيد باشا أن فى مكنته توفير الأسباب لتهدئة خواطر الأهلين . ولكنه أخفق فى علاج الموقف بالحكمة ، إذ أعلن أن المركز المالى للحكومة يضطره إلى فرض مزيد من الضرائب ليدفع من حصيلتها مرتبات الجنود. ففرض فى ١٠ مايو ١٨٠٥ ألفى كيس على جرجس جوهرى ومحمد المحروقى ، ثم أعلن فى ذات اليوم عن عزمه على فرض ضريبتين جديدتين .

---

(٢) Mengin Felix; Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly. Paris, 2 vols., 1828, t. 1, p. 159.

انتشرت هذه الأنباء بسرعة البرق بين سكان القاهرة . واحتوى أفراد الشعب شعور جارف بتحدى خورشيد باشا ، فأعلنوا أنهم لن يدفعوا أى ضريبة يفرضها عليهم . وأمضوا ليلتهم فى هرج ومرج شديدين . وكانت الصورة التى ظلت عالقة فى أذهانهم مفزعة رهيبة تمثلت فى أمرين ، وهما : الجرائم المنكرة التى يرتكبها الجنود الدلاة فى وضح النهار وفى ظلمة الليل ، وعجز خورشيد باشا عن وضع حد لها ، ثم إصرار هذا الوالى على المضى فى سياسته الضريبية الجائرة .

علماء الأزهر يختصمون الباشا فى مجلس شرع :

أخذ علماء الأزهر يتبادلون الرأى فى الخطة العملية التى يجب عليهم انتهاجها . وانتهت بهم المداولات إلى أن يطلبوا من القاضى عقد مجلس شرع يختصمون فيه الوالى أحمد خورشيد باشا . فلما أصبح يوم الأحد ١٢ مايو نزل المشايخ إلى دار المحكمة الكبرى وطلبوا عقد مجلس شرع واختصام الباشا فيه . وطلبوا من القاضى استدعاء «المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع» أى كبار رجال الحكومة لمصارحتهم بما استقر عليه رأى علماء الأزهر . فحضر من طرف الباشا خمسة مندوبين .

ولم يكد يعلم الشعب بما استقر عليه رأى زعمائه حتى كانت الشوارع المؤدية إلى دار المحكمة تموج بجموع زاخرة من الجماهير تدفقت من كل حدب وصوب على دار المحكمة . واجتمع حولها حشود «المتعممين والعامة والأطفال» وأخذوا يرددون هتافات عدائية وموجهة ضد الوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا . وكان من بينها «شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ، يالطيف ، يارب يامتجلى ، اهلاك العثملى ، حسبنا الله ونعم الوكيل».

ولما اكتمل عقد مجلس الشرع . أعلن علماء الأزهر فى مواجهة مندوبى الباشا أن أحداً لن يدفع الضرائب التى قررها الباشا فى ١٠ مايو ،

وأنهم لن يعترفوا بسلطته كوال على مصر ما لم يخضع للشروط التى يرى علماء الأزهر أنها كفيلة بإعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد ، وإنهاء الجرائم التى يرتكبها الجنود ، ووضع حد لمظالم الباشا . فطلب مندوبو الوالى أن يكتب علماء الأزهر « عرضحالا » أى مذكرة تتضمن الوسائل العملية لتحقيق رغبات الشعب .

مجلس الشرع فى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية :

تذكر وثائق وزارة الخارجية الفرنسية أن مطالب علماء الأزهر بلغ عددها واحداً وعشرين مطلباً ،كان أهمها حسب ترتيب ورودها فى نشرة الوكلاء الفرنسيين بمصر والمؤرخة فى ٢٠ مايو سنة ١٨٠٥ .

١ ـ عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة وضرورة انتقالها إلى الجيزة .

٢ ـ عدم السماح لأى جندى بدخول القاهرة حاملا سلاحاً معه .

٣ ـ الامتناع عن فرض أى ضريبة على سكان القاهرة بدون موافقة علماء الأزهر والأعيان .

٤ ـ إعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى .

أما بقية الشروط فتقول الوثيقة الفرنسية إنها شروط أقل أهمية ، وهى تتعلق بالإجراءات التى يجب اتخاذها لإعادة الهدوء والأمن إلى القاهرة والأرياف ، والمحافظة على حياة السكان ، ثم العودة إلى النظام القديم فيما يختص بإعداد كسوة الكعبة الشريفة وسفر قافلة الحج المصرى إلى الأقطار الحجازية(١) .

---

(١) مجموعة الوثائق الفرنسية التى نشرها دوا :

Douin G.; Mohamed Aly, Pacha du Caire (1805 – 1807). Correspondance des Consuls de France en Egypte. Le Caire. 1926

وثيقة رقم ٢٦ مؤرخة فى ٢٠ مايو ١٨٠٥ ، ص ص ٢٦ — ٢٧ .

وانظر أيضاً : Achille de Vaulabelle, op. cit. t. 8, pp. 210–211

مجلس الشرع فى وثائق وزارة الخارجية البريطانية :

أما الوثائق الإنجليزية فتزيد على هذه المطالب فى بعض موضوعات ، منها تخصيص جزيرة الروضة فى القاهرة لإنشاء الحانات والمحال العامة المعدة للترفيه عن الجنود . كما أنهـا ذكرت أن حظر فرض الضرائب بدون موافقة علماء الأزهر والأعيان يمتـد إلى سائر أنحاء القطر المصرى ، ولا يكون الحظر مقصوراً على مدينة القاهرة وحدها كما جاء فى الوثائق الفرنسية (١) .

الجبرتى وروايته عن مجلس الشرع :

لم يسجل الجبرتى جميع البنود التى تضمنتها مذكرة علماء الأزهر ، بل أوردها فى صورة عامة ، وهذا ما نسجله على الجبرتى كمؤرخ عملاق أهمل الكتابة فى موضوع هام وفريد فى تاريخ الأزهـر وتاريخ مصر الحديث ، وهو مطالبة علماء الأزهر بعقد مجلس شرع يختصمون فيه الوالى . قال عن مجلس الشرع « وحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك ، وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر ، والإيذاء منهم للناس ، وإخراجهم من مساكنهم ، والمظالم والفرد ، وقبض مال

---

(١) مجموعة الوثائق الإنجليزية التى نشرها دوا :

Douin G., L'Angleterre et L'Egypte. La Politique Mameluke (1803 – 1807). Le Caire, 1930. 2 vols., t. 2, pp. 231 – 233.

وثيقة رقم ١٦٥ مؤرخة فى ١٩ يوليو ١٨٠٥ ويعتذر مرسلها عن تأخير إرسالها لمرض القنصل العام ميست «Misset» .

أما الجزء الأول من مجموعة الوثائق الإنجليزية فقد اشتركت معه فيه السيدة فوتير جونس «Mme Fawtier Jones» وهو يحمل نفس عنوان الجزء الثانى ، ويغطى حوادث السنوات من ١٨٠١ حتى ١٨٠٣ ، وقد طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٩ .

الميرى المعجل ، وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك» (١) .

علماء الأزهر يرفضون دعوة خورشيد لمقابلته :

وقد أخذ مندوبو الباشا عريضة علماء الأزهر لتقديمها إليه ، ووعدوا بالعودة إليهم ومعهم الرد عليها فى اليوم التالى . وكان موقف خورشيد باشا حرجاً ، فلم يكن فى مقدوره الاستجابة لما جاء فى عريضة العلماء . لم يكن لديه فائض من المال يستغنى عنه لدفع المرتبات المتأخرة للجنود حتى يخلدوا إلى الهدوء ، وليس له نفوذ على الجنود حتى يأتمروا بأمره ويرحلوا عن القاهرة إلى الجيزة ، وهو يريد أن يتجنب مواجهة عسكرية مع الجماهير خوفاً من اندلاع ثورة شعبية ضده قد تسئ إلى مركزه فى الدوائر العليا فى إستانبول . وكان الأمير المملوكى محمد الألفى بك قد اقترب من الجيزة حيث استقر بالمنصورية قــرب الأهرام (٢). وخشى خورشيد أن ينتهز الألفى الفرصة ليهاجمه ، وتناثرت الشائعات بأن محمد على باشا يعمل بالاتفاق مع المماليك للقضاء على خورشيد ، وأن محمد على يعمل جاهداً ليكسب ود وتأييد علماء الأزهر . وفى وسط هذا الموقف المتعدد الاحتمالات والمخاطر ، بعث خورشيد إلى القاضى العثمانى يطلب منه الحضور مع علماء الأزهر إليه فى القلعة « ليعمل معهم مشورة » . ولكن أحداً من المشايخ لم يجد من الحكمة قبول هذه الدعوة خوفاً من غــدره بهم . ثم ما لبثت أن تأكدت ظنونهم عند ما « حضر بعد ذلك من أخبرهم أنه – أى خورشيد باشا – كان قد أعدّ أشخاصاً لاغتيالهم فى الطريق ، وينسب

(١) الجبرتى ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، ج ٣ ، ص ٣١٣ .

ذلك الفعل لأوباش العسكر فيما لو عوتب بعد ذلك (١)، وفضلاً عن ذلك لم يكن فى نية أحد من علماء الأزهر الاتفاق أو التفاهم مع خورشيد (٢) ، بل كثر الكلام واللفظ عقب الفراغ من إعداد المذكرة مباشرة بين علماء الأزهر والقاضى والوجاقلية فى موضوع واحـــد هو عزل خورشيد والمناداة بمحمد على والياً على مصر ، كما دار الكلام فى ذلك بين بعض أفراد الشعب .

خورشيد يعلن رفضه مطالب علماء الأزهر :

ولما علم خورشيد باشا برفض علماء الأزهر قبول دعوته ، أخذته العزة بالإثم ، وأعلن رفضه مطالبهم جملة وتفصيلا . وقد حسمت هذه الإجابة مصيره المرتقب ، ودفعت العلماء وفيهم عمر مكرم إلى العمل الجدى السريع . والحقيقة أن المشايخ كانوا قد يئسوا تماماً من أى اصلاح يأتى على يد خورشيد ، واعتقدوا فيه العجز عن احداث أى تغيير يقضى على المظالم التى تزاحمت على عهده . وعلى الرغم من أنهم كانوا واضعى العريضة وموقعيها ، كانوا قد بيتوا النية على ضرورة عزله والمناداة بمحمد على والياً على مصر . وصرحوا فيما بينهم بهذا الاتجاه ، وتسربت إلى بعض الأفراد أنباء ما اعتزموه ، فتناقلته الألسن . ووجد هذا التغيير المرتجى هوى فى نفوس الشعب ، ومن ثم حدث اللقاء والتجاوب بين أفراد الشعب وزعمائه . وفى ١٣ من مايو ١٨٠٥ . ذهب العلماء إلى دار المحكمة ، وحولهم جموع الشعب تظاهرهم . ولكن القاضى ، وقد أدرك أن ثورة الشعب تدخل مرحلتها الحاسمة وخشى عاقبتها ، أمـــر باغلاق أبواب المحكمة . وعندئذ جاهر علماء الأزهر بعزل أحمد خورشيد باشا وتولية

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، ج ٣ ، ص ٣١٣ .

محمد على مكانه . فتعالت هتافات الجماهير بضرورة سقوط خورشيد لكثرة مظالمه والمناداة بمحمد على والياً على مصر . وعلى أثر ذلك قرر علماء الأزهر الذهاب إلى محمد على فى داره بالأزبكية وعرض منصب ولاية مصر عليه بذات الشروط التى ضمنوها مذكرتهم السابقة إلى أحمد خورشيد .

علماء الأزهر ينادون بمحمد على والياً على مصر :

ويصف الجبرتى المقابلة التى تمت فى ذات اليوم بين علماء الأزهر ومحمد على ، فيقول « ركب الجميع وذهبوا إلى محمد على ، وقالوا له لانريد هذا الباشا (خورشيد) حاكما علينا ، ولا بد من عزله من الولاية . فقال : ومن تريدونه يكون والياً ؟ قالوا لا نرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير . فامتنع أولا ثم رضى ، وأحضروا له كركاً وعليه قفطان (١) . وقام إليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر . ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة . وأرسلوا إلى أحمد باشا (خورشيد) الخبر بذلك ، فقال : إنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ، ولاأنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة » وجدير بالذكر أن علماء الأزهر التزموا بالدقة فقد نادوا بسقوط خورشيد وبتولية محمد على والياً أو قائمقاماً أى والياً بالنيابة حتى يصدر سلطان الدولة العثمانية ، وهو مناط الاختصاص ، فرماناً بتثبيت محمد على والياً على مصر أو يختار والياً آخر عليها .

وعاد الجبرتى فقدم صورة أكثر وضوحاً وأدق تفصيلا عن مقدمات هذا الاجتماع التاريخى الذى نادى فيه علماء الأزهر بمحمد على والياً على مصر ، وذلك فى معرض ترجمته لمحمد بك الألفى وهو يتكلم عن وفيات

---

(١) كان الكرك والقفطان من شارات الحكم فى ذلك الوقت .

سنة ١٢٢١هـ (١٨٠٦ م) ، فقد تحدث الجبرتى عن الاتصالات السرية التى كان يتم بعضها فى غسق الليل بين محمد على وعمر مكرم . فكان « محمد على يداهن السيد عمر سراً ، ويتملق إليه ، ويأتيه ويراسله ، ويأتى إليه فى أواخر الليل وفى أوساطه ، متردداً عليه فى غالب أوقاته ، حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة على سيره بالعدل واقامة الأحكام والشرائع ، والإقلاع عن المظالم ، ولا يفعل أمراً إلا بمشورته ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه ، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن . فيتورط المخاطب (أى عمر مكرم) بذلك القول ، ويظن صحته . وكل ذلك لم يشعر به خلافهم إلى أن عقد السيد عمر مجلساً عند محمد على وأحضر المشايخ والأعيان . وذكر لهم أن هذا الأمر وهذه الحروب ما دامت على هذه الحالة لا تزداد إلا فشلا ، ولا بد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية . فانظروا من تجدوه وتختاروه لهذا الأمر ليكون قائم مقام حتى يتعين من طرف الدولة من يتعين . فقال الجميع : الرأى ماتراه . فأشار إلى محمد على . فأظهر التمنع ، وقال أنا لا أصلح لذلك ، ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة . فقالوا جميعاً : قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة ، والعبرة رضا أهل البلاد . وفى الحال أحضروا فروة وألبسوها له ، وباركوا له وهنئوه ، وجهروا بخلع خورشيد أحمد باشا من الولاية ، وإقامة المذكور فى النيابة حتى يأتى المتولى أو يأتى له تقرير بالولاية . ونودى فى المدينة بعزل الباشا واقامة محمد على فى النيابة إلى أن كان ماهو مسطور قبل ذلك فى محله . . . »(١) .

نخرج من هاتين الصورتين اللتين رسمهما الجبرتى لموضوع مناداة علماء الأزهر بمحمد على والياً على مصر بعدة حقائق ، منها :

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٣٢ — ٣٣ .

أولا : إن اجتماع علماء الأزهر فى دار محمد على والذى قرروا فيه تعيينه والياً على مصر قد سبقته اتصالات سرية تمت فى غسق الليل بين عمر مكرم ومحمد على . وقد أسفر الثانى عن تملق عمر مكرم وكسب ثقته ، إذ تعهد فيها باحترام أحكام الشريعة الإسلامية ، والابتعاد عن ظلم الشعب ، وأنه سيخضع فى حكمه لمشورة علماء الأزهر ، وأنه إذا نقض أياً من هذه الشروط كان على علماء الأزهر أن يخلعوه من منصب الولاية ، واعترف محمد على بأنهم قادرون على خلعه . وقد انطوى هذا التعهد المتعدد الجوانب على منتهى البراعة فى الخداع والدهاء والمقدرة على كسب ثقة عمر مكرم فى حسن نواياه. وقد رأى الجبرتى فى الأيمان التى عقدها محمد على فى هذا الصدد أنها أيمان كاذبة ، وذلك فى ضوء ما أسفر عنه حكم هذا الوالى لمصر . وقد عاصر الجبرتى حكم محمد على وأخذ يدون تاريخه حتى شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٦ هـ (سبتمبر سنة ١٨٢١ م) كما وصف الجبرتى موقف عمر مكرم فى أثناء أحاديثه السرية مع محمد على بأنه قد تورط وأنه أحسن الظن بصحة ادعاءات محمد على .

ثانياً : إن عمر مكرم هو الذى دعا إلى عقد اجتماع علماء الأزهر والأعيان فى دار محمد على بالأزبكية وإن الاثنين — عمر مكرم ومحمد على — كانا مطمئنين إلى النتيجة التى ينتهى إليها هذا الاجتماع المرتقب ، وإنه قد تفاهم مع علماء الأزهر بدليل أنه أحضر معه كسوة التشريفة وهى شارة الحكم ، وأن الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر تعاون مع عمر مكرم فى الباس محمد على هذه الكسوة .

ثالثاً : إن تعيين محمد على كان بصفته والياً بالنيابة ، وهو ما كان يطلق عليه فى مصطلح ذلك العصر قائمقاماً ، حتى تستصدر حكومة إستانبول ، وهى مناط الاختصاص ، فرماناً بتعيينه بصفة نهائية ، أو أن تعين عثمانياً آخر والياً على مصر .

رابعاً : إن علماء الأزهر كانو يرون أن والى مصر يجب أن

يكون عثمانياً . وسنناقش هذه المسألة الهامة فى موطن قادم فى نهاية هذا الفصل .

خامساً : إن محمد على وافق على آراء عمر مكرم والتى عرضها عليه منفرداً ثم عرضها عليه مع علماء الأزهر فى اجتماعهم به . وكانت هذه الآراء هى الشروط التى رفضها من قبل خورشيد باشا . وقد كتب ميست قنصل بريطانيا العام فى مصر رسالة مؤرخة فى ١٨ يونيو سنة ١٨٠٥ من الإسكندرية إلى حكومته قال فيها إن علماء الأزهر والأعيان صمموا قبل المناداة بمحمد على والياً على مصر على أن يوقع الأخير على تصريح أو إعلام يتضمن نفس الشروط التى رفضها خورشيد ، وكان أهمها فى نظر القنصل العام ، عدم السماح للجنود بدخول القاهرة بسلاحهم ، وأن يستثنى من هذا الحظر رجال الشرطة ، وعدم فرض أى ضريبة غير قانونية فى أى بقعة من بقاع مصر ، وبعض شروط أخرى أقل أهمية فى نظر القنصل العام ، ولكن تهدف جميعها إلى المحافظة على أرواح الشعب (١) .

خورشيد يتحدى قرار علماء الأزهر بعزله ويستعلى على الشعب :

ولما وصل إلى خورشيد قرار عزله أبى أن يرضخ له ، ووقف موقف العناد والتحدى ، فأعلن تصميمه على البقاء فى منصبه . وقال كما ذكرنا « إنه مولى من طرف السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة »(٢) . ويدل أساوبه على مبلغ تعاليه على الشعب وازدرائه له . ومن ثم قرر المقاومة واعتصم بالقلعة . وسارع إلى اتخاذ تدابير سياسية وعسكرية ، فنقل إلى القلعة ذخائر حربية ومواد تموينية استعداداً لتلقى

---

(١) Douin G.; L'Angleterre et L'Egypte etc., op. cit t. 2, doc. no., 103. from Misset E. to Earl Canden. pp. 229-230.

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ .

الحصار إذا اضطرته الظروف إلى ذلك . وكان يعتمد على القوة العسكرية المرابطة فى القلعة والتى كانت تدين له بالولاء ، وكان عددها ألفاً وخمسائة جندى . وعول فى ذات الوقت على الاستفادة من انقسام ظهر فى صفوف زعماء الألبانيين حقداً على (الوالى) محمد على وراوده الأمل فى مناصرة فريق منهم له مثل عمر بك الألبانى الذى غادر مسكنه فى بولاق صبيحة الانقلاب وصعد إليه فى القلعة يشد أزره ، ونهج هذا النهج صالح أغا قوش. وبعث خورشيد فى طلب سلحداره على باشا بجيشه من المنيا . وعقد آمالا كباراً على مساعدة الجنود الدلاة له وكانوا فى ذلك الوقت فى القليوبية. وبعث إلى الحكومة العثمانية فى إستانبول يطلب تأييدها له فى موقفه تأسيساً على أنه نائب السلطان فى حكم مصر . واعتقد خورشيد أنه بهذه الوسائل يستطيع وأد هذه الثورة الشعبية معتقداً أنها ليست إلا وميض نار لا يلبث أن يخبو وشيكا .

فشل الوسائل السلمية مع خورشيد لاحتواء الأزمة :

وإزاء رفض خورشيد قبول مطالب علماء الأزهر ، رأى الأخيرون أن يسلكوا بادئ ذى بدء طريق المسالمة ، لعله يتذكر أو يخشى ، فوضعوا مذكرة وقع عليها معهم محمد على وأرسلوها إلى عمر بك الألبانى وصالح أغا قوش المناصرين لخورشيد ، وأوضحوا فيها ما اجتمع عليه رأى الشعب من عزل خورشيد وأنه لا ينبغى مخالفة هذه الرغبة الجماعية تجنباً للنتائج الخطيرة التى تؤدى إلى خراب البلاد . فرد هذان الألبانيان وطالبا بسند شرعى يجيز عزل خورشيد . فاجتمع المشايخ فى ١٦ صفر ١٢٢٠ (١٦ مايو ١٨٠٥) فى بيت القاضى . ووضعوا سؤالا فى صورة استفهام وكتبوا الإجابة عليه وأرسلوه إليهما فعرضاه على خورشيد . ولكنهم « لم يتعقلوا ذلك واستمروا على خلافهم وعنادهم » (١) .

---

(١) المصدر السابق .

أراد خورشيد أن يستعين بالقاضى العثمانى فى الحصول على مرتباته ، فبعث إليه فى منتصف شهر مايو ١٨٠٥ رسالة كى يرسل له مستحقاته المالية ومرتبات الجنود المرابطين معه فى القلعة حتى ترسل حكومة إستانبول قراراً تحسم به الموقف . وأخذ خورشيد يدافع فى رسالته عن موقفه ، فقال إن اقامته فى القلعة لا تنطوى على إضرار بالرعية أو خراب البلاد . وقد رد القاضى العثمانى عليه ، فقال عن استحقاقاته المالية إنه سبق أن تناولها فى أثناء توليه الحكم . أما عن رفضه مغادرة القلعة ، فقال له القاضى « فإن اقامتكم بالقلعة هى عين الضرر . فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة وطالبون نزولكم أو محاربتكم . فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور . وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم ، والسلام» (١) .

وإزاء فشل المساعى السلمية وإزاء إصرار خورشيد على موقفه ، رأى علماء الأزهر مقابلة تحدى خورشيد بتحد مثله ، فقرروا بالاتفاق مع محمد على محاصرة القلعة ، وأن يشترك الجنود الألبانيون مع المصريين فى قتال خورشيد . وكان عمر مكرم هو أول من دعا الشعب إلى ضرب الحصار على القلعة وتضييق الحصار على خورشيد فيها ، فأكثر من الطواف بأنحاء القاهرة لتعبئة المشاعر ودعوة الجماهير إلى تأييد الثورة والانضمام إليها . كما تقرر تعطيل الدراسة فى الأزهر .

الأزهر مركز التجمعات الشعبية :

كان الأزهر هو مركز التجمعات الشعبية ، ثم يقودها عمر مكرم وعلماء الأزهر إلى دار محمد على فى الأزبكية بصفته الوالى الذى نادى به العلماء حاكماً للشعب ، ثم يخرجون بهذه الجموع إلى القلعة لتعزيز القوات التى تحاصرها وإقامة المتاريس فى الشوارع المحيطة بها . يقول الجبرتى « واجتهد السيد

---

(١) المصدر السابق .

عمر أفندى النقيب ، وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد. وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد على ، ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية ، والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت. ولازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات ، ويسرحون أحزاباً وطوائف ، ومعهم المشاعل ويطوفون بالجهات والنواحى والسور » (١) . وأصبحت المواكب الشعبية الثائرة وتحركاتها الصاخبة فى شوارع القاهرة من الجامع الأزهر إلى الأزبكية إلى القلعة منظراً مألوفاً وقتذاك ، وعمت القاهرة موجة ثورية حتى إن دروفتى Drovetti قنصل فرنسا العام فى مصر قرر أن هياج الشعب فى القاهرة قد أعاد إلى ذاكرته صورة الأيام المجيدة التى شهدتها باريس فى مطلع الثورة الفرنسية (٢) . أما مانجا Mengin الدبلوماسى والمؤرخ الفرنسى فيقول « إن المظاهرات الحربية التى كان يقوم بها عمر مكرم مجتازاً أحياء القاهرة ، وما أبداه الشعب المصرى من روح القوة والتحلى كان لها أثرها فى نفوس جنود خورشيد فانكمشوا أمام هذه المظاهرات »(٣) .

قام جنود خورشيد فى ليلة ٢٤ مايو سنة ١٨٠٥ بهجوم مفاجئ على متاريس الثوار من جنود محمد على وأفراد الشعب. واستطاع الثوار أن يردوا جنود خورشيد إلى القلعة خاسرين . ولجأ خورشيد إلى الخديعة ، ففى صبيحة هذا الهجوم الفاشل نزل عمر بك الألبانى من القلعة ، وأطلق شائعة تقول إن خورشيد قد آثر التسليم ومغادرة القلعة . وكان الهدف من هذه الشائعة أن يركن الشعب إلى الإسترخاء العسكرى من ناحية ، وليغزل أنصار خورشيد من القلعة إلى المدينة ليتزودوا بمزيد من المواد الغذائية من ناحية

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٢) Shafik Ghorbal ; The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. London, 1928, p. 227.

(٣) Mengin, F. ; op. cit., t 1, p. 164.

ثانية ، وليتصل عمر بك الألبانى بعلماء الأزهر كى يتباحث معهم ويسبر غورهم من ناحية ثالثة . ولكن الشعب لازم المرابطة فى مواقعه «والأمر مستمر من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل واتخاذهم لأسلحة والنبابيت» .

حوار مثير بين علماء الأزهر وأحد أنصار خورشيد :

تمت مقابلة هامة بين علماء الأزهر وعمر بك الألبانى ، وهو كما سبق أن ذكرنا ، من مؤيدى خورشيد ومن خاصة مستشاريه . وكان الشيخ محمد السادات والسيد عمر مكرم ممن حضروا هذه المقابلة . وتمت المقابلة فى منزل حسن بك أخى طاهر باشا القائد الألبانى القتيل . ودار حديث طويل حول حق الشعب فى عزل الحاكم الظالم ومحاربته . وأظهر عمر بك الألبانى حنقه الشديد على الشعب المصرى ، لأنه ، فى نظر هذا الألبانى ، قد تجاوز حدوده وأعلن عزل خورشيد متحدياً فى ذلك ارادة السلطان العثمانى الذى أصدر مرسوماً بتعيينه والياً على مصر . واختصر الجبرتى الحديث الذى دار بين عمر مكرم وعمر بك الألبانى على النحو التالى :

عمر بك الألبانى :

كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» .

عمر مكرم :

أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل . وهذا رجل ظالم . وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة . وهذا شىء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه »

عمر بك الألبانى :

وكيف تحصرونا ، وتمنعون عنا المـاء والأكل ، وتقاتلونا ؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟

عمر مكرم :

نعم ، قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة .

عمر بك الألبانى :

إن القاضى هذا كافر .

عمر مكرم :

إذا كان قاضيكم كافراً فكيف بكم ؟ وحاشاه الله من ذلك ، إنه رجل شرعى لايميل عن الحق (١) .

ومن المؤسف أن الجبرتى لم يذكر شيئاً عن الحديث الذى دار بين الشيخ محمد السادات وعمر بك الألبانى ، مع أن السادات كان من كبار علماء الأزهر وقام بدور كبير فى تاريخ الأزهر وتاريخ مصر السياسى منذ العصر العثمانى المملوكى وعهد الحملة الفرنسية وسنوات الاضطراب السياسى . واكتفى الجبرتى بقوله « وخاطبه الشيخ السادات فى مثل ذلك ، فلم يتحول (عمر بك الألبانى) عن الخلاف والعناد » وانتقل الجبرتى إلى موضوع آخر هو ظهور روح المقاومة التى بدت فى أسمى درجاتها فى أفراد سكان القاهرة « من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل واتخاذهم الأسلحة والنبابيت حتى إن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا » ثم شرح الجبرتى دور عمر مكرم فى إثارة حمية القتال بين المصريين بعد أن استأنفوا حصار القلعة . وكان الضرب من القلعة على منطقة الأزهر ودار محمد على عنيفاً ، ولكن لم ينزعج الأهالى لأنهم كانوا قد اعتادوا

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .

سماع قصف المدافع وإلقاء القنابل أيام الحملة الفرنسية . وابتعد بعض كبار السن والنساء عن منطقة الأزهر وذهبوا إلى الحسينية وبولاق وسائر أطراف المدينة . وحدث أن تعرض أحد مواقع المصريين لهجوم مفاجىء من جنود خورشيد الذين نجحوا فى الاستيلاء على الموقع بعد أن جردوا المصريين من أسلحتهم وخطفوا عمائمهم . وما أن سمع ثوار المواقع الأخرى بهذا الهجوم حتى سارعوا إلى الانتقال إلى مكان الحادث وقتلوا جنود خورشيد المرابطين فيه . وبرز من بين صفوف المصريين بطلان من سكان الرميلة هما حجاج الخضرى واسماعيل جودة .

السلطان يرسل مبعوثا إلى مصر لحسم الموقف :

ومضى المصريون فى حصار خورشيد باشا فى القلعة ، واستمر عمر مكرم وزملاؤه علماء الأزهر يشرفون على توجيههم وسد الثغرات فى مواقع الثوار والطواف عليهم بالليل والنهار . وأخيراً تحركت حكومة إستانبول خوفاً من ضياع مصر من الدولة نتيجة الحرب والانقسامات والفوضى . وكان أتباع حركة محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية ينتقلون من نصر إلى نصر مما أقلق الباب العالى الذى كان يريد أن ترسل مصر جزءاً من القوات المرابطة فيها لشد أزر القوات العثمانية فى بلاد العرب . فأرسل السلطان إلى مصر مندوباً عنه هو قابجى باشى صالح أغا(١) لإنهاء الانقسامات الداخلية فيها . وقد وصل إلى الإسكندرية فى ٢٤ يونيو ، وبلغ الخبر القاهرة فى ٢٨ يونيو ، وأذيع أن . . على يده جوابات بالراحة . . وأنه يحمل أوامر فى صالح سكان القاهرة الثائرين على خورشيد .

واضطر القابجى باشى وسلحدار السلطان الذى جاء معه من إستانبول

---

(١) القابجى مصطلح تركى معناه مبعوث السلطان إلى ولاية من ولايات الدولة فى أمر هام . ويسافر بحراً من استانبول إلى الولاية ، أما إذا جاءها براً فيطلق عليه الططرى .

إلى التوقف بعض الوقت فى رشيد وهما فى طريقهما إلى القاهرة خوفاً من وقوعهما فى أيدى المماليك والعربان والدلاة المنتشرين فى الوجه البحرى . وفى أول يوليو أرسل محمدعلى وعلماء الأزهر (١) والأعيان وفداً لاستقبالهما ومرافقتهما مع قوة عسكرية لخفارتهما . ودخل قابجى باشى وزميله القاهرة فى ٩ يوليو . وفى ذات اليوم وفى دار محمد على قرىء فى حضور علماء الأزهر والأعيان « المرسوم الذى معه . ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى جدة سابقاً ووالى مصر حالا من ابتداء ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٢٠ (١٨ مايو ١٨٠٥) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن أحمد باشا (خورشيد) معزول عن مصر ، وأن يتوجه إلى الإسكندرية بالإعزاز والإكرام حتى يأتيه الأمر بالتوجه إلى بعض الولايات » (٢) . وأما العبارة التى وردت فى المرسوم « حيث رضى بذلك العلماء والرعية » فكانت إقراراً من الحكومة المركزية فى إستانبول بدور علماء الأزهر وسكان القاهرة فى الثورة الشعبية ونزولا على رغبة العلماء وأهل القاهرة فى عزل خورشيد وتعيين محمد على مكانه .

المبعوث السلطانى يحمل فرمانين مختلفين :

ومن الغريب حقا أن المبعوث السلطانى كان يحمل فرمانين مختلفين : أحدهما فى صالح خورشيد باشا ، والثانى فى صالح محمد على باشا . وقد ترك الباب العالى للمبعوث السلطانى تقدير الموقف ، فكان له أن يبرز الفرمان الذى يتلاءم مع الظروف التى يجدها فى القاهرة . وقد كشفت الوثائق

---

(١) يطلق الجبرتى عليهم المتعممين ، وكانوا : الشيخ محمد الدواخلى ، وابن الشيخ الأمير ، والشيخ بدوى الهيثمى ، وابن الشيخ العروسى ، أما عمر مكرم فقد أوفد باشجاويش نقابة الأشراف نيابة عنه .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

الفرنسية(١) والإنجليزية(٢) عن ازدواجية الفرمانين اللذين كان يحملهما القابجى باشى . أما الجبرتى فلم يشر إليهما قط . والأرجح أنه لم يعلم عنهما شيئاً ، فهو فى الأحداث التى يذكرها كان يتناول جوانبها الداخلية دون أن يشير إلى جوانبها الخارجية . ويلاحظ أن السفارة الفرنسية فى إستانبول كانت أسبق معرفة بازدواجية الفرمانين من القنصلية البريطانية العامة فى مصر . أما السبب الذى جعل المبعوث السلطانى يبرز القرار الصادر فى مصلحة محمد على فيتلخص فى أن هذا المبعوث قد وقع تحت ظروف سواء كانت طبيعية أو مصطنعة من جانب محمدعلى وعمر مكرم . فقد حشدا أكبر عدد ممكن من أهل القاهرة فى جميع النواحى والجهات ، ومن كافة الطوائف وأصحاب الحرف . كان بعضهم يحمل البنادق ، والبعض الآخر يحمل النبابيت ، والبعض الثالث يحمل الطبول والزمور . وازدحمت بهم شوارع القاهرة التى مر بها كل من القابجى باشى وسلحدار السلطان . واستغرقت مسيرة موكبهما ثلاث ساعات من زاوية الدمرداش إلى الأزبكية حيث اتجها إلى دار محمد على (٣) . وكان مجتمعاً فيها كبار علماء الأزهر والأعيان ورحبوا بالضيفين الكبيرين .

---

(١) رسالة من ريفان « Ruffin » من رجال السفارة الفرنسية فى إستانبول إلى تاليران وزير خارجية فرنسا ومؤرخة فى ٢٢ يونيو ١٨٠٥ . وهذه الوثيقة تحمل رقم ٤٥ فى مجموعة الوثائق التى نشرها .

Douin G. ,' Mohamed Aly, Pacha du Caire, pp – 51 – 52

(٢) رسالة من ميست إلى لورد كامدن «Camden» مرسلة من الإسكندرية ومؤرخة فى ٢٣ يوليو ١٨٠٥ . وهذه الوثيقة تحمل رقم ١٦٦ فى مجموعة الوثائق التى نشرها

Douin G. ,' L . Angleterre et L'Egypte , op. cit., pp . 233 – 235 .

(٣) لم ينزل الضيفان فى دار محمد على بل خصص الأخير لقابجى باشى دار الخواجة محمود حسن بالأزبكية ، وخصص لسلحدار السلطان دار السيد محمد المحروقى شاهبندر التجار . وقد ذهب كل منهما إلى مسكنه بعد انتهاء زيارتهما لمحمد على .

وبعد عبارات الترحيب تناول الحديث سوء حكم خورشيد وثورة الشعب وتأييد علماء الأزهر والأعيان لها . وفى ضوء ما شاهده مبعوث السلطان من مظاهر التأييد الشعبى لمحمد على فى شوارع القاهرة ، وفى ضوء المناقشات التى دارت فى بيت محمد على اقتنع المبعوث برجحان كفة محمد على . وفى اليوم التالى قام عمر مكرم بمجاملة اجتماعية أملتها عليه ظروف الموقف . يقول الجبرتى «وفى يوم الثلاثاء ركب عمر مكرم فى جمع كثير من العسكر ومن أولاد البلد والمغاربة والصعائدة والأتراك ،والكل بالأسلحة ، وذهب إلى عند محمد على باشا وجلس عنده حصة ، (١) وذهب إلى القابجى وسلم عليه ، ، ذهب إلى السلحدار أيضاً وسلم عليه ورجع » (٢) .

خورشيد يرفض قرار عزله :

ولما أرسل القابجى باشى إلى خورشيد فى القلعة القرار الذى تلى فى دار محمد على بعزله من منصبه رفض الإذعان بحجة أنه معين بمقتضى « خطرط شريفة » من السلطان ، وليست مجرد أوامر ، وأنه لايعزل بمثل هذه الورقة ، وأنه لن يغادر مقره فى القلعة قبل أن يصله رد على مكاتباته التى بعث بها إلى الحكومة المركزية فى إستانبول ، على أن يكون إرسال هذا الرد عن طريق القنوات الشرعية (٣) . ثم طلب مقابلة القابجى باشى

---

(١) حصة معناها هنا فترة زمنية .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

(٣) الوثائق الإنجليزية التى نشرها دوان فى

L'Egypte et L'Angleterre de 1803 à 1807; etc. ; op. cit. t 2 ; doc . no . 166 pp . 233 235.

والرسالة مرسلة من الإسكندرية من « ميست » إلى لورد كامدن « Camden» ومؤرخة فى ٢٣ يونيو ١٨٠٥ .

وسلحدار السلطان للتحدث معهما. ولكن رفض علماء الأزهر ومحمد على صعودهما إليه إمعاناً منهم فى فرض العزلة على خورشيد .

انقسام فى الرأى بين علماء الأزهر

وقع ذلك فى الوقت انقسام فى الرأى بين علماء الأزهر . رأى عمر مكرم أن يستمر تعطيل الدراسة فى الأزهر ، وأن يستمر الشعب فى حصار خورشيد والتصدى لجنوده طالما أن الأمر لم يحسم بصفة نهائية لصالح محمد على ، بينما رأى معظم علماء الأزهر الذى عقدوا اجتماعاً حضره « الشيخ الشرقاوى ومحمد الأمير وغالب المتعممين » أن دور العلماء قد كلل بالنجاح بوصول فرمان من إستانبول بعزل خورشيد وتولية محمد على ، وأن على الأخير ، بصفته والياً على مصر ، أن ينفذ هذا الفرمان ، ولا شأن لعلماء الأزهر فى اتخاذ الوسائل التنفيذية لتطبيق الفرمان ، « واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة ، وينادون بالأمان ، وأن الناس يفتحون حوانيتهم ويجلسون بها ، وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ، ويتقيدون بقراءة الدروس وحضور الطلبة . وركبوا إلى محمد على ، وقالوا له أنت صرت حاكم البلدة ، والرعية ليس لها مقارشة فى عزل الباشا ونزوله من القلعة . وقد أتاك الأمر فنفذه كيف شئت . وأخبروه رأيهم ، فأجابهم إلى ذلك . وركب الأغا وصحبته بعض المتعممين ، ونادوا فى المدينة بالأمن والأمان ، والبيع والشراء ، وأن الناس يتركون حمل الأسلحة بالنهار ، وإذا وقع من بعض العسكر قباحة رفعوا أمره إلى محمد على ، وإن كان من الرعية رفعوه إلى بيت السيد عمر النقيب ، وإذا دخل الليل حملوا الأسلحة ، وسهروا فى أخطاطهم على العادة ، وتحفظوا على أماكنهم(١). وقد

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣٢ .

أنكر فريق من الشعب هذا الرأى واجتمعوا عند السيد عمر مكرم ، فاعتذر وأخبرهم أنه لايقر رأى المشايخ . وفى يومى الخميس والجمعة عقدت اجتماعات صاخبة فى دار عمر مكرم حضرها المؤيدون لرأيه ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، لأنه « فى يوم السبت فتح الناس بعض الحوانيت ، ونزل المشايخ إلى الجامع الأزهر وقرأوا بعض الدروس . ففترت همم الناس ورموا الأسلحة ، وأخذوا يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيلهم إياهم .. وشمخ عليهم العسكر ، وشرعوا فى أذيتهم وتعرضوا لقتلهم وإضرارهم » . وضج المصريون وأغلقوا المحلات وذهبوا إلى عمر مكرم الذى أشار عليهم بالتوجه إلى الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير ، فهما اللذان أمرا الناس برمى السلاح . ولما زادت الشكوى « نادوا فى الناس بالعودة إلى حمل السلاح والتحذير » (١) .

وصول عمارة بحرية عثمانية إلى الإسكندرية لتعيين محمد على والياً على مصر :

فوجئت القاهرة بنبأ فى ١٩ يوليو عن وصول سفن حربية عثمانية بقيادة القبطان باشا إلى الاسكندرية ، وكانت تضم ثلاث بوارج وفرقاطة وسفينة كبيرة ذات أشرعة من النوع المعروف باسم Brig كانت قد ألقت مراسيها فى أبى قير فى ١٤ يوليو . ولما علم علماء الأزهر بهذا النبأ قرروا «كتابة عرضحال» يشرحون فيه الأسباب التى دعتهم إلى المطالبة بعزل خورشيد والمناداة بمحمد على « يرسلونه إليه مع بعض المتعممين ، ثم اختلفت آراؤهم فى ذلك . فلما كان يوم الإثنين (٢٣ يوليو) ورد الخبر بورود سلحدار القبطان باشا إلى شلقان فأعرضوا عن ذلك » . وقد علق ميست

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٣٨ .

قنصل بريطانيا العام فى مصر على وصول الحملة العثمانية تعليقاً كشف فيه عن نواياه الاستعمارية ورغبته القوية فى أن تحتل بريطانيا مصر. فكتب إلى حكومته من الإسكندرية فى ٢٨ يوليو يقول إن أى قوات برية يكون القبطان باشا قد أحضرها معــه لن تستطيع إنهاء حالة الفوضى والاضطراب فى مصر. وإن أهل الإسكندرية مجمعون على عجز الباب العالى عن إنهاء الكوارث التى حلت بمصر من غير مساعدة قوة أجنبية، وأنهم مجمعون على طلب إرسال جيش بريطانى لإنقاذهم من حالة البؤس العميق التى انحدروا إليها (١). ولكن خيبت الأحــداث اللاحقة ظنونه، فلم يطلب أحد من المصريين أن تحتل بريطانيا مصر. وكان وصول سلحدار القبطان باشا إلى القاهرة بداية انفراج الأزمة. كان يحمل مرسومين واضحين غير متعارضين: أولهما إلى خورشيد يحتوى على أمره بالنزول من القلعة فوراً وبدون تأخير وذهابه إلى الإسكندرية تمهيداً لرحيله من مصر. والمرسوم الثانى كان موجها إلى محمد على بتثبيته والياً «حيث ارتضاه الكافة والعلماء، والوصية بالسلوك والرفق بالرعية». واشتمل المرسوم أيضاً على أمر لمحمد على بأن يرسل قوات عسكرية إلى الحجاز، وأن يمدها بكافة الأسلحة والذخائر وغيرها من الاحتياجات (٢).

رحيل خورشيد:

ولما تلقى خورشيد مرسوم عزله طلب أولا أن يصعد إليه فى القلعة السلحدار ويخاطبه مشافهة. وتمت المقابلة بينهما وحضرها القابجى باشى صالح أغا. وصرح لهما خورشيد بأنه ليس «بعاص ولا مخالف للأوامر»

---

(١) الوثيقة السابقة، رقم ١٦٦، من الوثائق الإنجليزية.

(٢) الجبرتى، ج ٣، ص ٣٣٩.

وإنما هو مدين بمبلغ خمسمائة كيس لعمر باك الألبانى وصالح أغا قوش ، وأنه اقترض هذا المبلغ لدفع مرتبات الجنود المحاصرين معه فى القلعة ، واستطرد فقال .. ولم يبق عندى شيء سوى ما على جسدى من الثياب ، وقد أخذ العسكر المحاربون موجوداتى جميعاً » ، ثم أضاف قائلا إنه مستعد للنزول من القلعة فوراً إذا بذل له العون فى سداد ديونه(١) .

ودارت اتصالات ومحادثات متثاقلة متباطئة بين مندوبى خورشيد ومحمد على واشترك فيها السلحدار وبعض كبار العثمانيين انتهت بأن دفع محمد على خمسمائة كيس إلى خورشيد . وتم الاتفاق على أن يغادر الأخير القلعة نهائياً فى ٥ أغسطس . واستعانوا بعمر مكرم الذى جمع مائتى جمل لحمل أمتعة خورشيد من القلعة إلى بولاق (٢) . وفى ٦ أغسطس نزل خورشيد من قصره فى القلعة ، وصحبه وكيل محمد على وعمر بك الألبانى وصالح أغا قوش .

وكان عمر مكرم خصماً شريفاً ، قبل عن طيب خاطر أن يستضيف فى داره ببولاق أحمد خورشيد الوالى المعزول ليحميه من غضب الشعب ريثما تتم عملية شحن أمتعته فى السفن (٣) . ولكنه كان حريصاً فى ذات الوقت على عدم تعريض الشعب لانتقام الجنود الذين كانوا مع خورشيد فى القلعة لأنهم تغلغلوا فى داخل المدينة وانتشروا فى أحيائها . فأطلق عمر مكرم المنادين يطلبون من سكان القاهرة « الاستمرار على الحذر والسهر وضبط الجهات ، فإن القوم لا أمان لهم » .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، عمر مكرم ، صص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٣) Mengin, F. ; op. cit., t. 1, p. 180.

وفى ١١ أغسطس غادر خورشيد دار عمر مكرم متجهاً إلى ميناء القاهرة النهرى فى بولاق . وأقلعت السفن تحمله وأتباعه وأمتعتــه متجهة إلى الإسكندرية حيث أقاموا بعض الوقت فى ضيافة القبطان باشا . وكان السلطان قد أصدر فرماناً بتعيين خورشيد والياً على سالونيك ببلاد اليونان . وغادر القبطان باشا الإسكندرية فى ١٢ أكتوبر ليبحر منها إلى إستانبول فى اليوم التالى ، وأبحر معه خورشيد باشا . وبذلك خلص حكم مصر لمحمد على .

انتصار إرادة علماء الأزهر ونجاح ثورة الشعب :

على هذا النحو المتعدد الجوانب قام علماء الأزهر بتحريك ثورة سنة ١٨٠٥ ومتابعة مراحلها عن كثب بالتوجيه والإرشاد والقيادة الحكيمة . وفى ذات الوقت شاركوا مشاركة إيجابية فى الجوانب السياسية منها سواء مع خورشيد باشا وأنصاره مثل عمر بك الألبانى أو مع القابجى باشى صالح أغا أو مع سلحدار السلطان أو مع القبطان باشا . فكان دور علماء الأزهر إيجابياً وقيادياً . ونجحت ثورة الشعب بفضل بسالته وتضحياته وإصراره على بلوغ هدفه .

وتعد ثورة سنة ١٨٠٥ من أخطر الأحداث وأبعدها أثراً فى تاريخ مصر الحديث . فقد كان من بين نتائجها أن خلصت مصر لمحمد على الذى استغل مواردها البشرية والاقتصادية وموقعها الجغرافى المتميز ، وأسس فيها دولة أخذت بأسباب القوة والحضارة . فأنشأ نظاماً جديداً للتعليم ، وأدخل الصناعات الثقيلة والزراعة المتطورة ، وعمل على النهوض بالتجارة ، وفوق ذلك كله ، بنى قوات مسلحة برية وبحرية بحيث غير وجه مصر التى امتد نفوذها إلى أصقاع شتى فى شــبه الجزيرة العربية ، والسودان ،

وجزيرة كريت وبلاد الشام حتى بلغت قواتها المظفرة مشارف إستانبول . وأنشأ حكماً وراثياً فى أسرته مارسه أبناؤه وحفدته قرابة قرن ونصف قرن من الزمان .

وهكذا فإن فضل علماء الأزهر على محمد على وأسرته كان عظيما .

سؤال يفرض نفسه :

بقى سؤال يتبادر إلى الذهن ، بل إنه يفرض نفسه فرضاً فى هذه الدراسة بعد أن استعرضنا بعض أحداث الثورة الشعبية فى سنة ١٨٠٥ . وهذا السؤال هو : لماذا لم يعمد علماء الأزهر إلى المناداة بواحد منهم والياً على مصر بدلا من محمد على ؟

كانت الثورة موجهة ضد أحمد خورشيد باشا بصفته الوظيفية على أساس أنه أسرف إسرافاً بعيداً فى الظلم . ولم تكن الثورة موجهة ضد لسلطان العثمانى . ولم يكن الشعب المصرى ينظر إلى السلطان على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر ، بل نظر إليه على أنه سلطان الإسلام والمسلمين . فكان الشعب متشبعاً بفكرة الوطن الإسلامى أكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومى . وكان مفهوم الوطنية ملحقاً بمفهوم الدين ، وبعبارة أخرى كانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث كان يصعب الفصل بينهما . والواقـــع أن الحكم العثمانى لمصر وغيرها من الولايات العربية قد ساعد على تأكيد الحياة الدينية للسكان ، وذلك بتمسكه بأحكام الشريعة الإسلامية مع جعلها أساساً لحكم هذه الولايات ، والحرص على احترام التقاليد الإسلامية والمحافظة على إقامة الشعائر الدينية . فمضت الحياة تطبع المصريين بالطابع الدينى البحت . وكان السلطان جد حريص على تأكيد صفته الدينية كسلطان الإسلام وخليفة المسلمين مع الدول الأوروبية منذ أواخر القرن الثامن عشر حين واجهت الدولة العثمانية ضغطاً متزايداً من

بعض الدول الأوروبية التى تروم اقتطاع أجزاء عثمانية وضمها إليها (١).
وفضلاً عن ذلك كانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ تقضى بأن يكون والى مصر تركياً عثمانياً صرفاً ، بمعنى أن يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية . فإذا نادى علماء الأزهر بعالم من بينهم والياً على مصر ، فإن مثل هذه المناداة تعد فى ضوء مفاهيم هذا المجتمع الدينى نقضاً لامبدأ الذى أخذت به الدولة وعصفاً بمبدأ أساسى وضعه سلطان الإسلام وخروجاً على طاعته (٢) .

ومن ناحية أخرى فإن السلطان العثمانى ماكان ليقر تعيين أحد علماء الأزهر والياً على مصر ، وقد تفسر دوائر الباب العالى فى إستانبول ثورة سنة ١٨٠٥ فى مصر بأنهـا حركة استقلالية أو حركة فردية استهدف متزعموها المصريون تحقيق مآرب شخصية لهم . ولذلك حرص عمر مكرم والشيخ الشرقاوى منذ المرحلة الأولى للثورة على أن يجنباها أسباب الفشل ، فاشترطا أن يكون الوالى الذى ينادى به علماء الأزهر « شخصاً من جنس القوم » أى يكون تركياً عثمانياً . فلم يتطلع علماء الأزهر إلى إحداث تغيير جذرى فى وضع مصر السياسى ، ولم ينادوا باستقلال بلادهم عن الدولة العثمانية . وفى رأى أحد الباحثين النابهين كان عمـــر مكرم زعيم الثورة

---

(١) كان أول ظهور هذا الاتجاه فى معاهدة كتشك كينارجى سنة ١٧٧٤ ، وبمقتضاها بسطت الروسيا نفوذها على بلاد القرم وهى بلاد إسلامية . فنصت المعاهدة على أن يـ ل المسلمون فى القرم تحت السيادة الروحية للسلطان ، وأصبح من حقه أن يعين القضاة والمفتى فى هذه البلاد . وتقرر مثل هذا الحق للسلطان عندما ضمت النمسا ولا يتى البوسنة والهرسك إليها سنة ١٩٠٨ ، كما تقرر مثل هذا الحق للسلطان عندما احتلت إيطاليا ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية برقة سنة ١٩١١ .

(٢) لم تخرج الدولة عن هذه القاعدة إلا مرة واحدة حين عين السلطان سليم الأول أحد الأمراء المماليك وهو خاير بك والياً على مصر مكافأة له على خيانته لسيده وولى نعمته السلطان الغورى . وقد ظل هذا الخائن يشغل هذا المنصب حتى وفاته .

« يقبض على زمام الشعب ويسيطر عليه تماماً ، ولكن ما عساه أن يفعل ؟ إنه يرجو الخلاص ممن ولاّه السلطان ، لامن السلطان نفسه . إنه يسعى للإنقاذ ، ولكنه لا يريد أن يكون ملكاً أو أميراً . فليس هذا من خلق علماء الدين ولاحماة الشرع . إن عليهم أن يولوا على الناس أصلحهم ، وأن يشدوا أزر الصالحين ، ويحـــولوا بينهم وبين الظلم إذا مالت بهم نفوسهم إلى الطغيان »(١). وعلى ذلك فإن مناداة علماء الأزهر بأحد العثمانيين والياً على مصر كان أمراً طبيعياً فى ضوء المفاهيم السياسية والدينية وقتذاك . فمفهوم الانفصال عن الدولة العثمانية لم يكن من الأمور التى تخطر بالبال أو تتطرق إلى الذهن .

• • •

(١) دكتور حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث . القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٨ ، ص ١١٥ .

الفصل الثانى والعشرون

مساندة علماء الأزهر لمحمد على
فى أزمة نقله إلى سالونيك سنة ١٨٠٦م

تغيير الوضع السياسى الداخلى فى مصر :

أصدر السلطان سليم الثالث فى ٣ من يونيو سنة ١٨٠٦ فرماناً بنقل محمد على من مصر إلى ولاية سالونيك ، كما أصدر فرماناً ثانياً بالعفو عن الأمراء المماليك والسماح لهم بتأسيس نفوذهم فى مصر من جديد بزعامة محمد بك الألفى وتعيينه شيخاً للبلد . وكان شاغل هذا المنصب يعدّ ثانى شخصية فى مصر بعد الباشا العثمانى ، كما يعدّ كبير الأمراء المماليك، وكان أحياناً يحل محل الباشا المخلوع حتى يحضر الباشا الجديد ، كما أصدر السلطان فرماناً ثالثاً بنقل موسى باشا والى سالونيك والياً على مصر . وأمر السلطان بإرسال أسطول يتكون من اثنتى عشرة قطعة بقيادة صالح باشا قبودان إلى الإسكندرية للإشراف على تنفيذ الوضع السياسى الجديد لمصر . وقد وصل الأسطول فى ٢٧ من يونيو إلى الإسكندرية ووصل بعده موسى باشا الوالى الجديد فى ١٩ يوليو . وجدير بالذكر أن هذا السلطان كان قد أصدر فرماناً بتثبيت محمد على والياً لمصر ، وأرسل هذا الفرمان وخلعة هى فروة سمور مع مندوب خاص وصل القاهرة فى ٣ من المحرم سنة ١٢٢١ ، (٢٣ من مارس سنة ١٨٠٦) ، وأمر محمد على بأن يعقد الديوان الكبير اجتماعاً فى داره بالأزبكية حضره علماء الأزهر ونقيب الأشراف والأعيان(١) ولما قرىء « التقليد » أطلقت مدفعية القلعة والأزبكية طلقاتها وشهدت ميادين القاهرة عروضاً موسيقية ، عسكرية وشعبية ، ولما سجا الليل أطلقت الصواريخ

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢ .

ابتهاجاً بهذه المناسبة . ولعل السلطان قد أراد أن يعطى محمد على فرصة لتنفيذ وعده بإرسال حملة عسكرية إلى بلاد الحجاز تسهم فى القضاء على الحركة التى قام بها أتباع محمد بن عبد الوهاب ، أو لعله ابتغى التستر على ما بيته من إقصاء محمد على وجنوده من مصر بنقله إلى ولاية أخرى .

امتياز جديد لعلماء الأزهر :

ونذكر بادىء ذى بدء أن السلطان اشترط أن يكون علماء الأزهر ضامنين لأن تسير الأمور فى مصر فى ظل الوضع السياسى الجديد على أكمل وجه . وكان هذا الاشتراط امتيازاً جديداً ظفر به علماء الأزهر كعنصر من عناصر الحكم فى السياسة المصرية . واستند السلطان إلى سابقة قريبة الشبه كانت لا تزال عالقة فى الأذهان ، وهى مساندة علماء الأزهر لمحمد على فى ارتقائه منصب الولاية فى السنة السابقة . ويبدو أن السلطان لم يكن مرتاحاً للطريقة التى تم بها تعيين محمد على والياً على مصر ، لأن ترشيحه والمناداة به والياً على مصر قد صدرا أولا عن علماء الأزهر ثم أقر السلطان هذا الوضع. وفى هذه المرة أراد السلطان ، بصفته مناط الاختصاص ، أن يجىء التعيين منذ أولى مراحله من الجانب السلطانى .

موقف محمد على من أزمة نقله من مصر :

كان محمد على قد وقف من عيونه فى إستانبول على أسباب وتفاصيل هذا التغيير السياسى ، وصحت عزيمته على التمسك ببقائه فى مصر ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ولا يدخل فى نطاق هذه الدراسة عرض الأسباب العديدة التى جعلت السلطان يقرن نقل محمد على إلى ولاية سالونيك فى بلاد اليونان بعد عام أو بعض عام(١) . ولكن من الأهمية بمكان أن نذكر أن محمد على قد وضع فى تقديره للموقف احتمال خوض صراع حربى ضد الدولة ،

---

(١) انظر عرضاً تفصيلياً لهذه الأسباب فى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر للدكتور محمد فؤاد شكرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ — ٤١٤ .

فقد صرح قبل وصول الأسطول العثمانى إلى الإسكندرية بثلاثة أيام ، عن تصوره لحجم هذا الصراع الحربى وتحديد القوات العسكرية التى ستشارك فيه ودوره فيه قائلا :

« .. إنى قد استحوزت على مصر بحد السيف ، ولن أسلمها إلا بحد السيف أيضاً .. ولن يفلح الباب العالى مهما أصدر من فرمانات فى جعلى أترك هذا المكان .. وليرسل ما شاء من الجنود ، فإنى لا أعبأ بذلك ، لأنى أعرف العثمانيين ، فالأمر لا يتطلب منى سوى رشوتهم وسوف أرشوهم. ولا أخشى إلا أمراً واحداً هو رؤية الجنود الإنجليز يحضرون لتأييد قرارات الباب العالى ، ولكنى حينئذ سوف أدعو الفرنسيين للمجىء إلى البلاد ، وسوف أتركها لهم . وحتى يحدث ذلك ، سوف أدافع عن أطراف القاهرة شبراً شبراً .. فإذا أرغمت على الارتداد اعتصمت بالقلعة ودافعت عن نفسى حتى النهاية .. ومع ذلك لقد استطعت إحداث ثورة وضعتنى على رأس الحكومة ، ولم يكن أتباعى وقتئذ سوى نفر قليل .. أما الآن فلدى عشرة آلاف من الجند .. وإنى قوى ، وسأعمل جاهداً لهزيمة الألفى »(١) .

واتجه محمد على فى تفكيره أيضاً منذ هذا الوقت المبكر إلى الاستعانة بالزعامة الشعبية ممثلة فى علماء الأزهر على النحو الذى حدث فى العام السابق ، وبخاصة لأن السلطان أدخل علماء الأزهر كعنصر يستند إليه الوضع السياسى الداخلى الجديد فى مصر . واستقر رأياً على أن يفضى فى الوقت المناسب إلى المشايخ وعمر مكرم نقيب الأشراف برغبته فى عدم تنفيذ الفرمان ، والاستعانة بهم ، وتعبئة الرأى العام ، واتخاذ إجراءات عسكرية فى قلعة الجبل وغيرها لمواجهة تطورات الموقف ، والتظاهر فى ذات الوقت أيضاً بالامتثال لأوامر السلطان .

---

(١) الوثائق الفرنسية التى نشرها « Douin » فى مجلد باسم
Mohamed Aly, Pacha du Caire 1805–1807. Le Caire, 1926. doc. no. 104, de Drovetti à Talleyraud en date du 20 juin 1806, pp. 104–112.

قائد الأسطول يناشد علماء الأزهر التعاون مع الوالى الجديد والأمراء والمماليك :

ولما وصل الأسطول العثمانى إلى الإسكندرية كان الشيخ محمد المسيرى كبير علماء الإسكندرية فى مقدمة الذين ذهبوا للسلام على قائده صالح باشا قبودان ، وصعد إليه على ظهر بارجة القيادة . وكان الشيخ المسيرى يتمتع بنفوذ شعبى كبير فى الإسكندرية . وقد التقينا به عند كلامنا عن سياسة بونابرت الإسلامية .. وقد طلب صالح باشا إلى الشيخ المسيرى أن يكتب إلى زملائه علماء الأزهر فى القاهرة يدعوهم إلى التعاون مع الوالى الجديد والأمراء المماليك ليكون سلوكهم دليلا على ولائهم للسلطان وتنفيذاً لقراراته(١). ولم يكرر الشيخ المسيرى زيارته للقبطان باشا بعد ذلك ، ثم عهد الأخير إلى الشيخ إبراهيم باشا عبد الله ، وهو من أعيان الإسكندرية وزوج إبنة الشيخ المسيرى بإرسال خطاب من قبل القبطان باشا إلى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى القاهرة ويتضمن نسخاً من فرمانات الباب العالى ، ويطلب من علماء الأزهر والأهالى حمل السلاح فى وجه محمد على والألبانيين إذا رفضوا الجلاء بسلام عن القاهرة . وتلقى الشيخ المسيرى خطاباً من محمد الألفى يرجوه فيه أن يؤكد هو على لسانه لسائر زملائه أنه لا يوجد شىء أحب إلى قلبه من توفير السعادة لكل أهل مصر ، وأنه سيبذل قصارى جهده حتى يظفر الوضع السياسى الجديد المنتظر إقامته بثنائهم وتفضيلهم على حكم محمد على .

محمد على يضمر البقاء فى مصر بكافة الوسائل :

أرسل قائد الأسطول صالح باشا رسولا إلى محمد على يبلغه الفرمانات الصادرة بنقله من مصر وتعيين وال جديد وعودة الأمراء المماليك إلى المشاركة فى حكم مصر . وتظاهر محمد على باستعداده لتنفيذ أمر النقل .. ولكنه انتحل

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

العذر التقليدى ، وهو أنه عليه أولا أن يدفع قبل رحيله المرتبات المتأخرة للجنود ، وكانت تبلغ فى تقديره عشرين ألف كيس ، أى مائة ألف جنيه ، وهو مبلغ لا يخلو من المبالغة .. وقرر أن موارد الحكومة تعجز عن تدبير هذا المبلغ الكبير فى أمد وجيز. وكان فى قرارة نفسه يضمر أمراً آخر ، هو عدم تنفيذ أمر النقل — كما سبق أن ذكرنا — ومن ثم عقد عدة اجتماعات مع عمر مكرم ، وعلماء الأزهر ورؤساء الجند ، وعرض عليهم أبعاد الموقف السياسى ، كل طائفة على حدة . ولما استوثق من معاونتهم ، شرع فى جمع الحدادين والنجارين ومن إليهم من العمال وأصعدهم إلى القلعة لصنع المدافع والقنابل والعربات واستولى على الأخشاب الموجودة فى الأسواق ، كما نقل إلى القلعة المواد التموينية كإجراء وقائى إذا اضطرته الظروف إلى خوض صراع حربى ضد الدولة ، وحتى يستطيع مقاومة حصاره فى القلعة ، ثم بعث فى طلب قوة من فرسان الدلاة من الشام وحدد عددها بألف فارس .

ورأى المؤرخ الجبرتى فى هذه الإجراءات « علامات العصيان وعدم الامتثال » .. وكثر صعوده إلى القلعة وهبوطه منها .. وارتدى البرنس ، وهو جلباب واسع يرتديه عامة المصريين ، وأكثر من الطواف بأحياء القاهرة وهو بهذه الصورة ليكتسب شعبية واسعة بين الجماهير .

اتفاق محمد على مع علماء الأزهر على وضع مذكرة للسلطان يلتمسون إبقاءه فى مصر :

يهمنا هنا أنه فى اجتماع محمد على بعمر مكرم ثم العلماء ، قد أوعز إليهم بأن يكتبوا مذكرة فى صورة التماس إلى السلطان يرجون إبقاءه فى مصر استناداً إلى أن كفالتهم للأمراء المماليك عديمة الجدوى ، لأن هؤلاء الأمراء سيعبثون بها إن عاجلا وإن آجلا .. وكانت هذه الكفالة شرطاً أساسياً من شروط الباب العالى لإقامة الوضع السياسى الجديد فى مصر . وطلب محمد على إليهم أن يفكروا ملياً فى الموضوع ووعدهم بأنه سيرسل إليهم مسودة للمذكرة المقترح إرسالها .

مذكرة علماء الأزهر الأولى للسلطان :

وانقضى يوم وبعض يوم ثم ذهب إلى السيد عمر مكرم كل من ديوان أفنديسى أى سكرتير ديوان القاهرة وعبد الله أغا بكتاش المترجم ومعهما مشروع « عرضحال » أى مذكرة تكتب عن لسان علماء الأزهر فى شأن أزمة نقل محمد على . وقضى الثلاثة سحابة النهار فى مناقشة الموضوعات التى وردت فى مشروع المذكرة ، ثم انصرف السكرتير والمترجم .. وحضرا فى صبيحة اليوم التالى إلى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر حيث كان كبار علماء الأزهر مجتمعين . وصدرت لهم تعليمات بتنظيم العرضحال وترصيعه ووضع أسمائهم وأختامهم عليه ليرسله الباشا إلى الدولة ، فلم تسعهم المخالفة ، ونظموا صورته ثم وضعوه فى كاغد كبير .

وجاءت المذكرة التى وقع عليها علماء الأزهر ضافية جداً مليئة بالعبارات المترادفة المسجعة .. وقد نشر الجبرتى نصها الحرفى كاملا .

ونكتفى بذكر أهم الموضوعات التى اشتملت عليها وكانت ثمانيـــة موضوعات ، هى :

أولا : إن الفرمان الصادر بنقل محمد على هو أمر شريف واجب القبول والتشريف .

ثانياً : إن العداوة التى استطالت بين محمد على والأمراء المماليك قد عادت على مصر بعواقب وخيمة ، فتوقف إرسال مخصصات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات ، وتعطل سفر قافلة الحج المصرى خلافاً لما جرت به العادة . وهذه الالتزامات الدينية لها الأفضلية والأسبقية على سائر المطلوبات من الحكومة .

ثالثاً : كثرة عدد الجنود فى مصر أدت إلى زيادة الإنفاق العسكرى . وقد ترتب على هذا الوضع انتشار الدمار فى مصر وتدهور أحوال الرعايا .

رابعاً : قضية الأمراء المماليك ورغبتهم التي عرضوها على الباب العالي في استرداد مركزهم السابق في حكم مصر . وكانت هذه القضية وما تفرع عنها من مسائل هامة هي لب المذكرة وأساسها وهدفها ، كما كانت هي الثغرة التي نفذ منها علماء الأزهر لتحقيق أمنية محمد علي في البقاء والياً على مصر .

وقد تناولت المذكرة هذه القضية من أربعة جوانب :

أولها — رغبة الأمراء المماليك في استعادة مركزهم السابق في حكم مصر وإعادتهم عنصراً من أجهزة الحكم ، والعفو عن جرائمهم السابقة ، وتعهدهم في مقابل ذلك بالوفاء بالواجبات المفروضة عليهم مثل دفع المخصصات المالية والعينية للحرمين الشريفين في الحجاز وإعداد قافلة الحج المصري ، ودفع الجزية المقررة على مصر للدولة ، وأن يكون دفعها بصفة منتظمة ، وتنفيذ جميع الأوامر التي تصدرها حكومة إستانبول .

أما الجانب الثاني فهو قبول الباب العالي استرداد الأمراء المماليك وضعهم السابق في حكومة مصر وبالتالي موافقته على تعهداتهم .

وتناولت المذكرة الجانب الثالث وهو شروط الباب العالي لقبول تعهداتهم وتتلخص هذه الشروط في أن يتكفل علماء الأزهر والرؤساء والأعيان في مصر بتنفيذ تعهدات الأمراء المماليك .

أما الجانب الرابع والأخير فهو موقف علماء الأزهر من هذه الشروط . وقد التمسوا من السلطان « العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم .. فإن شرط الكفيل قدرته على المكفول ، ونحن لا قدرة لنا على ذلك .. » بسبب ما ارتكبه المماليك من أفعال مشينة .. وسردوا أمثلة على هذه الأفعال مثل قتلهم والي مصر علي باشا برغل في أثناء سفره من الإسكندرية إلى القاهرة بعد موقفهم المشين من طاهر باشا ، وقتلهم الحجاج القادمين من البلاد العثمانية ، وسلب الأموال .

خامساً : تعرضت المذكرة للانحلال الخلقي الذي طرأ على المجتمع في

مصر بحيث أصبح « الصغير لا يسمع كلام الكبير ، والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصغير .. » .

سادساً : دافعت المذكرة عن موقف محمد على من هجوم المماليك فى فجر أحد أيام السنة السابقة(١) على بعض أحياء القاهرة ، فردهم محمد على باشا على أعقابهم خاسرين « وقتل منهم جملة كبيرة فكانت واقعة شهيرة ، فهذا شىء لا ينكر ، فحينئذ لا يمكننا التكفل والتعهد ، لأننا لا نطلع على ما فى السرائر ، وما هو مستكن فى الضمائر .. فنرجو عدم المداخلة فى الأمور التى لا قدرة لنا عليها ، لأننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم .. ونحن ممتثلون لولاة أموركم فى جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية » .

سابعاً : دافعت المذكرة عن السياسة الضريبية التى انتهجها محمد على وعن الفروض الإجبارية التى فرضها على الموسرين ، فقالت إن هدفها كان دفع مرتبات الجنود ورفع روحهم المعنوية حتى يدفعوا عن الجماهير شرور الأشقياء والمفسدين امتثالا لأوامر الدولة العلية .

---

(١) وقع هذا الهجوم فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ (١٦ من أغسطس ١٨٠٥) وهو اليوم المحدد للاحتفال بوفاء النيل حيث يكون محمد على وكبار رجال حكومته فى مصر القديمة لكسر السد وفتح الخليج . وعلم محمد على بما دبره المماليك من هجوم غادر استهدف الإطاحة بحكومته . فلما جاءت قوات المماليك اقتحموا بعض أبواب القاهرة واستقبلهم جنود محمد على بالنار ودارت مقتلة رهيبة .. وذهب وفد من بعض بكوات المماليك مع جنودهم إلى الأزهر ، ثم اتجهوا إلى دار السيد عمر مكرم فرفض مقابلتهم . فاتجهوا إلى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وحضر إليهم عمر مكرم وطلبوا « منهم النجدة وقيام الرعية » ولكن دون جدوى . انظر تفاصيل هذه المقتلة فى كل من :

— الجبرتى ، ج ٣ ، ص ص ٣١١ — ٣١٢ ، حوادث شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ .

— د. محمد فؤاد شكرى: مصرفى مطلع القرن التاسع عشر، ج ١ ، ص ص ٣٣٠ — ٣٣٢ .

— الوثائق الإنجليزية : نشر دوان

Douin G.; L'Angleterre et L'Egypte. La Politique Mameluke. doc. 171 from Misset to Earl Camden, 20 August, 1805, pp. 237–239.

ثانياً : لم يرد فى المذكرة ما يشير صراحة إلى رغبة العلماء فى إلغاء نقل محمد على من مصر وإن كان المعنى العام يوحى بهذه الفكرة . واختتمت المذكرة بهذه العبارة « إن الأمر مفوض لجلالة السلطان ، والملك أمانة الله تحت أيديكم »(١) .

وكتب علماء الأزهر فى ١١ يوليو ١٨٠٦ من هذه المذكرة نسختين ، إحداهما بعث بها هؤلاء ومعهم محمد على إلى الباب العالى . وحمل الرسول الذاهب بها إلى إستانبول مبلغ ألفى كيس جمعها محمد على من الرؤساء الأرنؤود لتوزيعها على أعضاء الديوان العثمانى . أما النسخة الثانية فقد أرسلت إلى صالح باشا فى الإسكندرية . وفى ذات الوقت أرسل محمد على إلى الأخير رسالة قال فيها إن جنوده قد قضوا سنوات عديدة فى مصر وهم يرفضون مغادرتها ، وأنهم مصممون على حجز محمد على رهينة لضمان حصولهم على مرتباتهم المتأخرة. أدرك صالح باشا أن محمد على يلجأ إلى أساليب المكر والخديعة للتهرب من تنفيذ أمر النقل ، فأرسل يطلب تعليمات جديدة من إستانبول فى ضوء موقف محمد على وعلماء الأزهر . وقرر فى ذات الوقت إرسال مذكرة ثانية إلى علماء الأزهر ومحمد على يطالب تنفيذ أمر النقل. وأراد من إرسال هذه المذكرة أن يؤكد لهم إصراره على تنفيذ الفرمانات التى حملها معه من إستانبول ، كما استهدف كسب الوقت حتى تصل إليه التعليمات الجديدة التى بعث فى طلبها من الباب العالى . وحاول صالح باشا أيضاً استنهاض همة البكوات المماليك لتوحيد صفوفهم . وأخذ يراقب الصراع المحتدم بين محمد على ومحمد الألفى الذى كان يحاصر دمنهور. ومضى يتسلم الهدايا التى انهالت عليه من محمد على والألفى تقرباً منهما إليه .

رسالة ثانية يرسلها صالح باشا إلى علماء الأزهر :

أوفد صالح باشا سلحداره ، شاكر أغا ، يحمل رسائل إلى علماء الأزهر

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ١٢ — ١٣ .

يطلب منهم الضغط على محمد على للإذعان لأوامر السلطان . ووصل إلى بولاق مساء يوم ١٣ يوليو سنة ١٨٠٦ . وفى اليوم التالى بعث برسالة فى هذا المعنى إلى المشايخ عموماً ، ورسالة أخرى إلى الشيخ محمد السادات ، ورسالة ثالثة إلى عمر مكرم . وكلها مكتوبة باللغة العربية وعليها الختم الكبير وتحمل معنى واحداً هو الإخبار بعزل محمد على من ولاية مصر ونقله إلى ولاية سالونيك ، وتعيين موسى باشا والى سالونيك والياً على مصر ، وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للأوامر ، والاجتهاد فى المعاونة ، وتزويد محمد على باشا بما يحتاج إليه من السفن ولوازم السفر ليتوجه هو وحسن باشا أمير جرجا عن طريق دمياط بالإعزاز والإكرام وصحبتهما جميع العساكر من غير تأخير حسب الأوامر السلطانية(١) . وأرفق قائد الأسطول بهذه الرسائل الثلاث صوراً من الفرمانات السلطانية مكتوبة باللغة التركية . ولعل تعدد هذه الفرمانات السلطانية والصراع السياسى الذى دار حولها بين الحكومة المركزية فى إستانبول وصالح باشا وموسى باشا والبكوات المماليك من ناحية ومحمد على وعلماء الأزهر من ناحية أخرى كانا من الأسباب التى جعلت أحد الدبلوماسيين الفرنسيين ، وهو دروفتى ، يطلق متهكماً على هذا الصراع السياسى « حرب الفرمانات »(٢) La Guerre de Firmans ولكنه اعتمد فى هذه التسمية على سبب مادى هو أن القبطان باشا أحجم عن خوض صراع حربى ضد محمد على لحمله على تنفيذ الفرمان السلطانى بنقله من مصر .

وكانت مهمة شاكر أغا أن يقنع علماء الأزهر باستخدام ما توهم أنه

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٣ .

(٢) الوثائق الفرنسية التى نشرها دوا

Douin, G.; Mohamed Aly, Pacha du Caire etc., op. cit.

وثيقة رقم ١٠٦ ، ص ص ١١٥ — ١١٨ ، رسالة من دروفتى قنصل فرنسا فى مصر إلى تاليران وزير الخارجية الفرنسية ، ومؤرخة فى ١٠ يوليو سنة ١٨٠٦ من الإسكندرية .

لديهم من نفوذ على محمد على باشا فى إقناعه بتسليم منصب الولاية للباشا الجديد الذى عين بإرادة السلطان . ولكنه لم يحصل منهم إلا على وعود غامضة ريثما تتم مقابلتهم لمحمد على(١) .

علماء الأزهر يرسلون عريضة ثانية إلى صالح باشا :

عقد علماء الأزهر اجتماعاً فى دار عمر مكرم يوم ١٤ يوليو سنة ١٨٠٦ وناقشوا الموقف . واتضح أنه لم تكن لديهم الجرأة على توجيه الأزمة وجهة قانونية سليمة ، بل ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أداة طيعة فى يد محمد على يوجههم حيث شاء لتحقيق مصالحه الشخصية فقط . فبعد هذا الاجتماع ركب علماء الأزهر وعمر مكرم بغالهم وذهبوا إلى قصر محمد على الذى استهل الاجتماع بسؤالهم عما إذا كانت قد وصلتهم الرسائل التى بعث بها إليهم صالح باشا . . فلما أجابوه بالإيجاب سألهم عن رأيهم ، فرد الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر رداً مهيناً له ولزملائه ، إذ قال :

« .. ليس لنا رأى ، والرأى ما تراه ، ونحن الجميع على رأيك » .

فقال لهم : « فى غد أبعث إليكم صورة تكتبونها فى رد الجواب »(٢) .

بر محمد على بوعده ، فبعث فى اليوم التالى صورة مذكرة يرسلها علماء الأزهر وعمر مكرم إلى صالح باشا جاء فيها أن الأوامر الشريفة وصلت إلينا وتلقيناها بالطاعة والامتثال ، إلا أن أهل مصر ورعيتها قوم ضعاف ..! وربما عصت العساكر عن الخروج فيحصل لأهل البلدة الضرر وخراب الدور وهتك الحرمات .. وأنتم أهل للشفقة والرحمة والتلطف » . ورد صالح باشا على هذه الرسالة برسالة أخرى وصلت القاهرة فى ٥ جمادى الأولى ١٢٢١ هـ (٢١ من يوليو ١٨٠٦) قال فيها إنه لا يقبل هذه الأعذار ولا ما نمقوه من

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ١٣ - ١٤ .

التمويهات التي لا أصل لها. ولا بد من تنفيذ الأوامر، وسفر الباشا ونزوله هو وحسن باشا وعساكرهما وخروجهم من مصر وذهابهم إلى ناحية دمياط وسفرهم إلى الجهة المأمورين بالذهاب إليها. ولا شيء غير ذلك أبداً »(١).

وفى ذات الوقت تقريباً وصل إلى الإسكندرية الوالى العثمانى الجديد موسى باشا فى ١٩ يوليو وكانت القوة التى حضر بها ضئيلة العدد لم تزد عن أربعمائة رجل مسلحين تسليحاً رديئاً وفى حالة سيئة بوجه عام(٢). وأراد أن يباشر مهام منصبه فعين نائباً عنه بصفة مؤقتة يحكم القاهرة لحين حضوره إليها وجعل فى مقدمة اختصاصات هذا القائمقام ضبط الإيرادات والمصروفات الحكومية، واعترض محمد على وعلماء الأزهر وعمر مكرم على هذا « التدخل » وازداد الموقف الداخلى فى مصر تعقيداً .. وحاول محمد على توسيع شقة الخلاف بين البكوات المماليك المرابطين فى الصعيد ومحمد الألفى بك الذى كان يحاصر دمنهور. وكان القبطان باشا يعلق آمالا كباراً على اتحاد المماليك فى جبهة واحدة ضد محمد على، ويكون من إحدى نتائج إنهاء خلافاتهم سهولة نقل محمد على إلى سالونيك.

إخفاق القبطان باشا فى مهمته :

فى رسالة بعث بها من الإسكندرية فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٠٦ دروفتى قنصل فرنسا العام إلى تالبران « Talleyrand » وزير الخارجية الفرنسية جاء فيها : « إن القبطان باشا، سواء بسبب أوامر معينة قد وصلته من الباب العالى، أو لأنه رأى استحالة تنفيذ المهمة التى كلف بها، قد دخل فى مفاوضات مع محمد على. ومن المتوقع أن يصل غداً إلى الإسكندرية ابن محمد على، وهو إبراهيم باك، محملا بالهدايا إلى القبطان باشا ...

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤.

(٢) كانت القوة التى جاء بها القبطان باشا تتكون من ثلاثة آلاف تفكجى، ولكنهم كانوا يتميزون بأنهم من (النظام الجديد) أى من الجيش النظامى الجديد.

إن كل شيء هادئ في الصعيد .. والقاهرة على حالها ، ولو أن مرضاً وباثياً منتشر بها »(١) .

كانت هذه الفقرات من خطاب قنصل فرنسا العام ذات أهمية بالغة ، فقد دلت على أن الأزمة فى طريقها إلى الحل لصالح محمد على ، وأن القبطان صالح باشا قد أخفق فى مهمته التى عهد إليه الباب العالى بتنفيذها وهى نقل محمد على والياً على سالونيك ، وتعيين موسى باشا مكانه ، وإعادة سلطة البكوات المماليك إلى ماكانت عليه ، وتعيين محمد الألفى بك شيخاً للبلد ، واستيفاء مبلغ السبعمائة والخمسين ألف قرش من الألفى ، وكان قد وعد بدفعها . وكان مرد إخفاق صالح باشا إلى عدة عوامل تشابكت وتضافرت على بلوغ هذه النتيجة .. نذكر من بينها :

أولا : إن القوات التى جاء بها من إستانبول لم تزد عن ثلاثمائة جندى ، وهو عدد قليل جداً لا يستطيع الدخول به فى معركة حربية ناجحة ضد محمد على أو انتزاع القاهرة بقلعتها من يده .

ثانياً : إن البكوات المماليك قد تخلوا عن قضيتهم مع أنهم أصحابها والمستفيدون منها ، وكان تخليهم عن قضيتهم راجعاً إلى تنافسهم وتنافرهم وتحاسدهم ، وبخاصة بين البكوات المرابطين فى الصعيد ومحمد الألفى بك الذى كان يحاصر دمنهور . وقد رفض الأولون قبول مشيخة محمد الألفى بك ورياسته عليهم .. وكان على رأس المعترضين إبراهيم بك الكبير ، وعثمان بك البرديسى ، وعثمان بك حسن . وكان بعضهم من أنصار بريطانيا ، بينما كان البعض الآخر من أنصار فرنسا ، وامتناعهم عن تحمل نصيبهم فى دفع السبعمائة والخمسين ألف قرش وإصرارهم على أن يتحملها الألفى بك بمفرده.

---

(١) الوثائق الفرنسية التى نشرها دوان
Douin, G.; Mohamed Aiy, Pacha du Caire (1805–1807).
وثيقة رقم ١١٨ ، ص ص ١٣٥ — ١٣٦ .

ثالثاً : المذكرتين اللتين بعث بهما علماء الأزهر وعمر مكرم إلى القبطان باشا بتاريخ ١١ ، ١٥ من يوليو سنة ١٨٠٦ ببقاء محمد على والياً على مصر . وقد فسرت هاتان المذكرتان بأنهما تعبران عن رغبة جامحة لدى الشعب المصرى فى الاستمساك بمحمد على حاكماً عليه .

رابعاً : الأموال التى بذلها محمد على فى إستانبول وللقبطان باشا فى الإسكندرية مستهدفاً استمالة المسئولين إلى جانبه فى الأزمة . ومما يذكر أن القبطان باشا كان نهوماً بالمال ، شغوفاً بالحصول عليه بأى وسيلة سواء الهدايا أو المال السائل ، دؤوباً على اكتنازه .

وقد بعث ميست « Misset » قنصل بريطانيا العام فى مصر رسالة من الإسكندرية فى ٨ سبتمبر إلى الوزير وندهام « Windham » جاء فيها أن الباشا قد أرسل مؤخراً مبلغاً كبيراً من المال إلى إستانبول لكسب أنصار له فى الديوان العثمانى (١) . ثم عاد فى رسالة أخرى مؤرخة فى ١٠ سبتمبر بعث بها إلى السفير البريطانى فى إستانبول يقول : « إذا أحدثت الأموال التى بعث بها محمد على إلى استانبول تغييراً هناك فى صالحه ، فإن العرائض التى كتبها علماء الأزهر سوف تتخذ سنداً لتبرير هذا التغيير .... وفى الحقيقة متوقع محمد على أن يصله قريباً فرمان بتثبيته فى ولاية مصر حتى إنه طلب من وكيلى بالقاهرة منذ أيام قليلة إبلاغى بذلك بمجرد حدوثه »(٢) .

مبررات الباب العالى فى تراجعه عن موقفه :

كان من السهولة بمكان على الباب العالى أن يجد مبررات لوقف تنفيذ الفرمانات التى أصدرها بنقل محمد على إلى سالونيك وتعيين وال جديد

---

(١) الوثائق الإنجليزية ، نشر وتعليق دوا

Douin, G., L'Angleterre et L'Egypte etc., ep. cit.

وثيقة رقم ٢١٨ ، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ، وثيقة رقم ٢٢٠ ، ص ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

على مصر وإسناد منصب شيخ البلد إلى محمد الألفى بك وغير ذلك .. كان عجز الألفى عن تنفيذ ما تعهد به نحو الباب العالى قد أعطى الحكومة المركزية فى إستانبول مسوغاً لتخلبها هى الأخرى عن الالتزامات التى ارتبطت بها نحوه . كما أن عجز صالح باشا عن تنحية محمد على عن حكم مصر بالطرق السلمية قد أعطى حكومة إستانبول مسوغاً ثانياً لسحب الفرمان الصادر بنقله من مصر . وكان تبدد كل أمل فى قيام صالح باشا وموسى باشا والأمراء المماليك بعمليات حربية مشتركة ضد محمد على لقلة القوات التى تحت إمرة الأولين ولتفرق كلمة المماليك قد جعل إرسال نجدات عسكرية عثمانية إلى مصر أمراً لا مفر منه إذا أصرت حكومة إستانبول على إخراج محمد على وجنوده الأرناؤود من مصر ، وهو أمر لم يكن فى استطاعة الدولة العثمانية الإقدام عليه نظراً لتدهور علاقاتها مع الروسيا فى شهرى أغسطس وسبتمبر سنة ١٨٠٦ ، ولكنه على كل حال أعطى الدولة مسوغاً ثالثاً لوقف تنفيذ الفرمانات الصادرة فى ٣ يونيو سنة ١٨٠٦ والتى نجم عنها اشتعال الأزمة .. ووجدت الدولة فى عريضتى علماء الأزهر والمرسلتين إلى القبطان باشا بتاريخ ١١ و١٥ يوليو سنة ١٨٠٦ مسوغاً رابعاً لتراجعها فى سياستها تجاه مصر .

شروط ثلاثة للباب العالى أولها أن يضع علماء الأزهر مذكرة ثالثة :

وتمشياً مع هذه المبررات بعث الباب العالى إلى القبطان باشا يقول إن الحكومة المركزية قد أصبحت أكثر تنوراً عن ذى قبل بشأن حقيقة الموقف فى مصر ، ولذلك قررت أن تترك للقبطان باشا مطلق الحرية فى تعديل أو سحب الفرمانات الصادرة فى ٣ يونيو سنة ١٨٠٦ وجعلها فى مضمون جديد يكفل فى رأيه إنهاء الخلافات التى أنهكت مصر واستنفدت قواها . وكان معنى هذا التبليغ أن حكومة إستانبول قد خولت صالح باشا الاتفاق مع محمد على باشا على أساس تثبيته والياً على مصر(١) .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

وعلى أثر وصول هذا التبليغ بدأت المحادثات بشكل جادى بين محمد على وصالح باشا الذى اشترط ثلاثة شروط لبقاء محمد على والياً على مصر بصفة موقتة إلى أن يأتيه من إستانبول فرمان سلطانى بتعيينه فى منصبه . وكانت هذه الشروط هى :

أولا : أن يكتب علماء الأزهر عريضة جديدة يؤيدون فيها مطالبهم الذى ذكروه فى عريضتيهم السابقتين فى ١١ ، ١٥ يوليو سنة ١٨٠٦ وهو بقاء محمد على فى حكم مصر ، على أن يبعث القبطان باشا هذه المذكرة إلى الديوان العثمانى . وكان الغرض من هذا الاشتراط أن يكون الفرمان السلطانى بتثبيت محمد على فى ولايته منبثقاً فى ظاهر الأمر عن استجابة السلطان العثمانى لرغبات رعاياه فيبدو تصرفه عملا إرادياً هدفه توفير الأمن والاستقرار والرفاهية للشعب المصرى بتحقيق مطلبه الذى أفصح عنه علماء الأزهر(١) .

ثانياً : أن يدفع محمد على أربعة آلاف كيس فى مقابل تثبيت السلطان له حاكماً على مصر .

ثالثاً : أن يبقى إبراهيم بك ابن محمد على باشا رهينة فى إستانبول حتى يتم سداد ذلك المبلغ .

ووصل « الأفندى المكتوبجى(٢) من طرف القبودان صالح باشا إلى بولاق » فى مساء ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٢١ (٢ سبتمبر سنة ١٨٠٦) وذهب فى صباح اليوم التالى إلى قصر الباشا حيث عقد اجتماع شهده الدفتر دار وسعيد أغا بصفتيهما ممثلين للباب العالى فى القاهرة(٣) . ووافق الباشا على شروط القبطان باشا جملة وتفصيلا .

---

(١) المرجع السابق ، ذات الصفحة .

(٢) المكتوبجى هو الموظف المختص بتحرير الفرمانات والاتفاقيات وسائر الوثائق الهامة . وكان يوجد فى كل ولاية عثمانية مكتوبجى ويشهد اجتماعات دواوين الولايات كما كان يوجد عدد منهم فى الديوان الإمبراطورى العثمانى فى إستانبول .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ١٦ — ١٧ .

مذكرة علماء الأزهر الثالثة :

استمرت مهزلة العرائض التى كان يكتبها علماء الأزهر وعمر مكرم منذ بداية هذه الأزمة حتى نهايتها . وإذا كانوا قد كتبوا العريضتين الأوليين بتوجيه محمد على وتدخله فى وضع النقاط الرئيسية فى هاتين المذكرتين ، فإن المذكرة الثالثة كانت الشرط الأول الذى وضعه صالح باشا لإنهاء الأزمة على النحو الذى كان يبتغيه محمد على .. واستجاب علماء الأزهر وعمر مكرم على عادتهم لرغبة محمد على . وما كان فى مكنتهم أن يمتنعوا عن وضع مذكرات تدافع عن سياسته فى حكم مصر وتتغاضى عن أساليبه التعسفية فى مجال الضرائب الطارئة التى كان يفرضها من وقت إلى آخر على طوائف من الشعب وقد جاء ملخص المذكرة الثالثة كما نشرها الجبرتى على النحو التالى :

« إن محمد على باشا كافل الإقليم ، وحافظ ثغوره ، ومؤمن سبله ، وقامع المعتدين . وإن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته ، وأحكامه ، وعدله .. والشريعة مقامة فى أيامه ، ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها فى أيام المماليك المصرية المعتدين الذين كانوا يتعدون عليهم ويسلبون أموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بأخذ الفرض(١) والكلف(٢) الخارجة عن الحد . أما الآن فجميع أهل القطر المصرى آمنون مطمئنون بولاية هذا الوزير . ويرجون من مراحم الدولة العلية أن تبقيه والياً عليهم ، ولا تعزله عنهم ، لما تحققوه فيه من العدل وإنصاف المظلومين وإيصال الحقوق لأربابها ، وقمع المفسدين من العربان الذين كانوا يقطعون الطرقات على

---

(١) الفرض بضم الفاء ، وفتح الراء مفردها : فرضة بضم الفاء وسكون الراء وفتح الضاد . معناها الضريبة يفرضها الحاكم عادة خارج الضرائب المقررة .

(٢) الكلف بضم الكاف وفتح اللام ، مفردها : كلفة بضم الكاف وسكون اللام . ومعناها ضريبة يؤديها الممول عملا أو نقداً على مشقة وتطلق أيضاً على الغرامات .

المسافرين ، ويتعلون على أهل القرى ، ويأخذون مواشيهم وزرعهم ؛ ويقتلون من يعصى عليهم منهم . وأما الآن فلم يكن شيء من ذلك .. وجميع أهل البلاد فى غاية من الراحة والأمن براً وبحراً بحسن سياسته وعدله وامتثاله للأحكام الشرعية ، ومحبته للعلماء وأهل الفضائل والإذعان لقولهم ونصحهم ، ونحو ذلك من الكلمات التى عنها يُسألون ولا يؤذن لهم فيعتذرون»(١)

طرق ملتوية فى كتابة مذكرة علماء الأزهر :

كان علماء الأزهر طرائق قدداً فيما يتصل بمذكرتهم الثالثة . كان منهم فريق يغمرهم حماس دافق للمذكرة . وقد سمح لهم بالاطلاع عليها وكتابة أسمائهم عليها وختمها بأختامهم. ويطلق الجبرتى عليهم تارة «الأفراد المتصدرون» وتارة أخرى « مشايخ الوقت » وتارة ثالثة « أشياخ العصر » . وكان هناك فريق ثان يخشون محمد على باشا ويتجنبون مناصبته العداء علناً .. فكان يحال بينهم وبين قراءة المذكرة قراءة متأنية ، وكان المكتوبجى يكتب أسماءهم ويأخذ منهم أختامهم ليختم بها المذكرة تحت اسم كل منهم . وكان هناك فريق ثالث من ذوى الورع والتقوى ، ولكن لم تكن لهم الصدارة فى نظر السلطات الحاكمة فى القاهرة . كانوا يرفضون إعطاء أختامهم للمكتوبجى ، فيبادر المتحمسون وهم أفراد الفريق الأول إلى استخدام أختام تحمل أسماء قريبة الشبه من أسماء الرافضين ويختمون بها المذكرة تحت اسم كل رافض . ويبدو أن الجبرتى كان من بين الفريق الثانى ، إذ قرر أن هذا السبب هو الذى حال بينه وبين كتابة النص الكامل للمذكرة فى كتابه ، فاكتفى بكتابة مضمو وسجل أحداث هذا الاجتماع على النحو التالى :

« ولما كتبوا ذلك — أى العرضحال — لم يطلع عليه إلا بعض الأفراد المتصدرين . ويكتب كاتبه جميع الأسماء تحته ويخطه .. ولا يمكنون البواقى

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٧ .

الذين يضعون إمضاءهم وأسماءهم من قراءته ، بل يطالب منهم الخاتم ، فيختمون به تحت اسمه ، إذ لا يمكنه الشذوذ والمخالفة لحرصه على دوام ناموسه وقبوله عند سلطانه ودائرة أهل دولته. وإن كان متورعاً، وليس له كبير صورة فيهم ولا صدارة مثلهم، وأبى أن يسلم خاتمه ليفعل به كغيره: ختموه بخاتم موافق لاسمه تحت إمضائه . وهذا هو السبب فى عدم نقلى هذه الصورة ، بل فهمت المضمون فقط ، والله ولى التوفيق . »(١) .

ويتضح من رواية الجبرتى أنه كان هناك ضغط مارسه بعض الملتصقين بمحمد على ، ومن بينهم عمر مكرم بالذات ، على بعض علماء الأزهر المترددين الرافضين لضم أسمائهم إلى المذكرة ووضع أختامهم عليها .

ومهما يكن من أمر هذا الضغط غير المشروع ، فقد شرع محمد على فى إتخاذ الإجراءات المترتبة على هذه المذكرة ، ففى ٦ من رجب سنة ١٢٢١ (١٩ من سبتمبر سنة ١٨٠٦) سافر إبراهيم بن محمد على إلى الإسكندرية يحمل مذكرة علماء الأزهر إلى القبطان باشا ومعه هدايا ثمينة من الحرير الهندى والخيل المسرجة وغير ذلك . وهكذا حققت المذكرة الثالثة التى وضعها علماء الأزهر وعمر مكرم الهدف الأول للباب العالى بعد تراجعه « وتلفت طبخة الألفى والتدابير ، ولم تسعفه المقادير »(٢) .

محمد على يحدد إقامة الشرقاوى ويفرض ضريبة باهظة على الشعب :

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن محمد على ، قبل أن يصله تبليغ من القبطان باشا بتثبيته والياً على مصر ، أصدر قرارين فى اليوم التالى لسفر ابنه إلى الإسكندرية ، كان فى أولهما مساس بعلماء الأزهر . وكان الثانى تحد للشعب وتعارض لما جاء فى مذكرة هؤلاء العلماء . فقد حدد إقامة الشيخ

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .

عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى داره ، لا يغادرها ولو إلى صلاة الجمعة . ويذكر الجبرتى أن سبب التحجير عليه « أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه كعمر مكرم ومحمد المواخلى وسعيد الشامى ، فأغروا به الباشا ففعل ما ذكر ، فامتثل الأمر ، ولم يجد ناصراً ، وأهمل أمره»(١) ..

ويبدو من تتابع الأحداث فى هذه الفترة أن الشرقاوى لم يكن من المتحمسين لكتابة المذكرة الثالثة ، أو أن بعض الحاقدين عليه وشوا به لمحمد على نكاية فيه ، فاستمع إليهم . وهكذا تنكر محمد على للشيخ الشرقاوى وتناسى مركزه كأكبر شخصية دينية وإسلامية فى البلاد ، وأنه وقف إلى جانبه خلال الأزمات وألبسه الرداء الرسمى يوم نودى به والياً على مصر فى العام السابق .. ويلوح أن الجحود كان صفة بارزة فى أخلاق محمد على وخلفائه فى حكم مصر .

أما القرار الثانى ، وقد أصدره فى ذات اليوم ، فكان يتناول كما يقول الجبرتى « تقرير فرضة عظيمة على البلاد والقرى والتجار ونصارى الأروام والأقباط والشوام ومساتير الناس(٢) ونساء الأعيان والملتزمين وغيرهم ، وقدرها ستة آلاف كيس ، وذلك برسم مصلحة القبودان ، وذكروا أنها سلفة لمدة ستة أيام ، ثم ترد إلى أربابها ، ولا صحة لذلك .. »(٣) . وكان معنى فرض هذه الضريبة أن محمد على عول على أن يتحمل الشعب فى مصر بشتى طوائفه جزءاً من المبالغ المتفق عليه مع القبطان باشا فى مقابل إبقائه فى حكم مصر . وهنا إذا كان يريد مواجهة النفقات العاجلة مثل سداد جزء من المرتبات المتأخرة للجنود .

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٨ .

(٢) مساتير : لفظة يكثر الجبرتى من استخدامها . وهى مشتقة من مستور أى الشخص الذى لديه من المال ما يجعله فى غنى عن طلب مساعدة مالية من الغير .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ١٨ — ١٩ .

القبطان باشا يرسل تبليغاً مشروطاً لمحمد على ببقائه فى حكم مصر :

فى مساء الأحد ٨ رجب سنة ١٢٢١ (٢١ سبتمبر سنة ١٨٠٦) وصل كتخدا القبودان باشا(١) إلى ساحل بولاق حيث أعد له محمد على استقبالا رسمياً اشترك فيه ابنه طوسن وكبار موظفى الحكومة .. وسار فى موكب حافل إلى قصر محمد على ، وعقد ديوان القاهرة اجتماعاً حضره عمر مكرم والمشايخ المتصدرون .. ولم يحضره الشيخ الشرقاوى ومن يلوذ به ، وسأل عنهم القاضى العثمانى ، فأجيب أنه من المحتمل أن يكون ضعفه ومرضه قد حالا دون حضوره . وقرىء التبليغ الوارد مع وكيل القبطان باشا ، وكان مضمونه « إبقاء محمد على باشا واستمراره على ولاية مصر حيث أن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس . وقبلنا رجاءهم وشهادتهم ، وأنه يقوم بالشروط التى منها طلوع الحج ولوازم الحرمين وإيصال العلائف والغلال لأربابها على النسق القديم . وليس له تعلق بثغر رشيد ولا دمياط ولا الإسكندرية ، فإنه يكون إيرادها من الجمارك يضبط إلى الترسخانة(٢) السلطانية بإسلامبول . ومن الشروط أيضاً أن يرضى خواطر الأمراء المصريين ويمتنع من محاربتهم ويعطيهم جهات يتعيشون بها .. » . وكان تعليق الجبرتى على هذه الشروط « وهذا من قبيل تحلية البضاعة »(٣) .

وابتهاجاً بهذه المناسبة أطلقت المدافع من القلعة والأزبكية وبولاق طاقات مكرورة ، وأقيمت الزينات ، وطاف المبشرون ببيوت الأعيان يفرضون عليهم « البقشيشات » . وعلى مدى ثلاث ليال متعاقبات كانت تطلق الصواريخ

---

(١) كتخدا القبودان باشا أى وكيل القبطان باشا .

(٢) الترسخانة : كلمة تركية تقابلها فى اللغة العربية ترسانة والمعنى الحرفى لها دار بناء السفن أو إصلاحها أو مكان تجمعها . وكان مقرها أول الأمر غاليبولى ثم نقلت سنة ١٥١٦ على عهد السلطان سليم الأول إلى إستانبول . وكان فى منطقتها مقر قائد الأسطول قبودان باشا . انظر فى هذه الدراسة : ج ٢ ، ص ٨٦٧ — ٨٦٨ ، ٨٧٠ — ٨٨٢ .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٩ .

والألعاب النارية فى سماء القاهرة من الأزبكية . وأبحر فى ٥ شعبان سنة ١٢٢١ (١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٦) القبودان صالح باشا من الإسكندرية عائداً إلى إستانبول بصحبة موسى باشا وإبراهيم بك بن محمد على باشا . وتخلف فى مصر كتخدا القبطان باشا ليتعجل تسلم مال المصالحة . وانتهزها محمد على فرصة لفرض ضرائب على مياسير الناس على سبيل القرض مستعيناً فى جمعها بعمر مكرم .

السلطان يصدر فرمانين لمحمد على يستندان إلى شفاعة العلماء :

وصل إلى القاهرة مندوب من السلطان فى ٢٩ أكتوبر واتجه فى موكب حافل من بولاق يشق وسط المدينة إلى قصر محمد على فى الأزبكية حيث نصب محمد على خيمة كبيرة فى فناء القصر لجلوس المشايخ والأعيان ، والاختيارية(١) وأعضاء ديوان القاهرة .. وفى هذا الاجتماع قرىء فرمانان حملهما من إستانبول مندوب السلطان . كان أولهما يتضمن « تقرير الباشا على ولاية مصر بقبول شفاعة أهل البلدة والمشايخ والأشراف »(٢) . وكان ثانيهما ينص على « إجراء لوازم الحرمين وطاوع الحج وإرسال غلال الحرمين والوصية بالرعية ، وتشهيل غلال قدرها ستة آلاف أردب وتسفيرها على

---

(١) اختيارية : لفظة تركية مفردها : اختيار ، ومعناها : الرجل الطاعن فى السن ، وتستخدم بمعنى أحد العسكريين الذين قضوا سنوات طوالا فى الحياة العسكرية . ويطلق على أكبرهم سناً « باش اختيار » .

انظر :

Wiet, Gaston; Nicolas Turc. Chronique d'Egypte (1798–1804) Editée et Traduite par Wiet G. Le Caire, 1950, p. 280.

(٢) يقصد بالأشراف عمر مكرم بصفته نقيب الأشراف . فعلى الرغم من أنه جاور بالأزهر واقتنى مكتبة كبيرة ، لم يكن فى عداد المشايخ علماء الأزهر ، لأنه انصرف أكثر ما انصرف إلى الاشتغال بالشئون العامة والمسائل السياسية . وكان الشيخ محمد أبو الوفا السادات والشيخ خليل البكرى ينافسانه فى منصب نقيب الأشراف استناداً إلى أنهما أقرب انتساباً إلى البيت النبوى الشريف .

طريق الشام معونة العساكر المتوجهين إلى الحجاز (١) ، والأمر بعدم التعرض للأمراء المصريين وراحتهم وعدم محاربتهم ، لأنه تقدم العفو عنهم »(٢) .

ويلاحظ أن الوثائق الثلاث ، تبليغ القبطان باشا لمحمد على بتثبيته فى حكم مصر والفرمانين السلطانيين الصادرين فى هذا الشأن ، قد استندت إلى رضاء الشعب المصرى بكافة طبقاته عن حكم محمد على بشهادة علماء الأزهر مما جعل بعض الباحثين يقررون بصريح العبارة أن الزعامة الشعبية كانت العامل الأكبر فى توطيد مركز محمد على وإحباط المؤامرة واسعة النطاق التى كادت تقتلعه عن العرش . وكان من بين هؤلاء الباحثين المرحوم الأستاذ الرافعى(٣) والحقيقة أن تصويرهم لدور الزعامة الأزهرية لا يمثل الحقيقة التاريخية تمثيلا دقيقاً مما يدفعنا إلى مناقشة دور علماء الأزهر فى هذه الأزمة مناقشة علمية موضوعية بعيدة عن التحيز أو التحامل .

تقييم دور علماء الأزهر فى الأزمة :

كان علماء الأزهر قد طابت لهم زعامتهم للثورة الشعبية التى قامت فى مايو سنة ١٨٠٥ ونادوا فيها بخلع أحمد خورشيد باشا من حكم مصر وتعيين محمد على باشا والياً عليها . وجاء فرمان السلطان العثمانى بإقرار هذا التغيير ، فاستمرأوا الإسهام فى الحياة السياسية المصرية على الرغم من قلة درايتهم

---

(١) كان السعوديون أو الوهابيون قد فتحوا الرياض والقصيم والأحساء وكربلاء ، وهزموا القوات التى بعث بها سليمان باشا والى العراق . ثم دخلوا مكة المكرمة سنة ١٨٠٣ ، وبعد عامين استولوا على المدينة المنورة ، ثم اتجهوا شمالا إلى حوران والكرك ، وأوقعوا الهزيمة بالقوات العثمانية التى خرج بها والى الشام عبد الله العظم للحج سنة ١٨٠٥ ثم طلب الباب العالى من محمد على أن يتقدم بنفسه لإنقاذ الحرمين الشريفين . وكان الباب العالى قد طلب من مصر إرسال نجدات لمحاربة السعوديين على عهد خسرو باشا ، منذ منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٠٢ ، وعلى باشا برغل والأمراء المماليك سنة ١٨٠٤ . ولم يبدأ محمد على فى محاربتهم إلا فى سنة ١٨١١ .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٠

(٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠ .

بأساليب السياسة ، وإن كانوا أساتذة أفذاذاً فى علوم الدين والفقه واللغة وضرب معظمهم المثل الأعلى فى الصلاح والتقوى والاستقامة الخلقية .

فلما ظهرت فى أفق السياسة المصرية أزمة نقل محمد على إلى ولاية سالونيك سنة ١٨٠٦ زجوا بأنفسهم فى غمار هذه الأزمة مؤيدين ومناصرين له فى موقفه ومطالبين ببقائه فى مصر . وجاءت المبادأة من جانب محمد على ولم تبدأ من جانب علماء الأزهر . فلم يكد يعمد محمد على إلى التلويح لهم برغبته فى مساندتهم له فى موقفه بالاعتراض على نقله من مصر حتى استجابوا له . وكانت استجابتهم سريعة بل وفورية وعلى النحو الذى ابتغاه محمد على وكانت تدفعهم ثلاثة عوامل ، هى :

العامل الأول : ونطلق عليه فى هذه الدراسة تبادل المصالح . ويتمثل فى نجاح محمد على نجاحاً بعيداً فى استمالة علماء الأزهر إليه بما أسبغه عليهم من نعم ظاهرة وباطنة . فقد وزع عليهم القرى التى كانت فى حوزة الأمراء المماليك بعد أن طردهم من القاهرة عقب انقلاب ١٢ و١٣ مارس سنة ١٨٠٤ ، وأصبح للعلماء حصص التزام يظفرون بفائظها(١) ، ثم استكثر لهم هذه الميزة بعد أن نادوا به والياً على مصر فى مايو سنة ١٨٠٥ . فارتبطت مصالحهم ببقاء محمد على فى حكم مصر . وأصبحت هذه المصالح تقتضى من علماء الأزهر مناصبة الأمراء المماليك العداء وعدم استرجاع نفوذهم السليب . وكان الفرمان السلطانى الصادر فى ٣ يونيو سنة ١٨٠٦ قد نص على العفو عنهم والسماح لهم بالإسهام فى حكم مصر .. فكان فى مقدمة أهداف علماء الأزهر وعمر مكرم الحفاظ على ما ظفروا به من منافع رفضوا التخلى عنها .. وقد كتب قنصل بريطانيا العام فى الإسكندرية « ميست » رسالة مؤرخة فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٠٦ إلى السفير البريطانى فى إستانبول « شارل آربثنوت »

---

(١) الفائظ : هو المصطلح التاريخى لكلمة فائض ، وهو الإيرادات الصافية التى تبقى لهم بعد سداد الضرائب الحكومية المقررة عليهم ، والتى تسمى « الميرى » .

« Charles Arbuthnot » كان مما جاء فيها أن محمد على « ورط فى مكر ومهارة فى نزاعه مع الباب العالى جماعة من المتصدرين فى القاهرة بأن جعلهم يظفرون بنصيب كبير من أملاك المماليك المسلوبة ، فصار من صالح هؤلاء عدم عودة البكوات المماليك لممارسة السلطة مرة أخرى . وكان ، بناءاً على ما طلبه منهم محمد على باشا ، أن كتبوا جملة التماسات فى صالح محمد على بعثوا بها إلى ديوان إستانبول وإلى القبطان باشا .. فإذا كانت الأموال التى بعث بها مؤخراً محمد على إلى إستانبول قد أحدثت تغييراً فى مشاعر أعضاء الوزارة التركية تجاه مصر ، فإن الالتماسات التى بعث بها المتصدرون فى القاهرة ، أى علماء الأزهر وعمر مكرم ، ستكون سبباً لتغيير سياسة الباب العالى نحو محمد على »(١) .

العامل الثانى : رغبة علماء الأزهر والأشراف فى الاستمرار فى المشاركة فى تصريف شئون الحكم ، إذ كان محمد على يلجأ إلى استشارتهم فيما يواجهه من مشكلات وبخاصة فى مجالات الضرائب سواء الضرائب الطارئة أو طلب قروض إجبارية يزعم أنه سيردها إلى أربابها بعد فترة وهو لا يعتزم سدادها . ونذكر على سبيل المثال ماكتبه الجبرتى وهو يستعرض حوادث أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٢٠ (سبتمبر سنة ١٨٠٥) إذ قال :

« .. احتاج محمد على باشا إلى باقى علوفة العسكر (٢) ، فتكلم مع المشايخ فى ذلك ، وأخبرهم بأن العسكر باق لهم ثلاثة آلاف كيس لا نعرف لتحصيلها طريقة . فانظروا ما رأيكم فى ذلك ، وكيف يكون العمل ، ولم يبق إلا هذه النوبة(٣) . ومن هذا الوقت إذا قبض العسكر باقى علائفهم

---

(١) الوثائق الإنجليزية التى نشرها دوا :

Douin, C.; L'Angleterre et L'Egypte, op. cit.

وثيقة رقم ٢٢٠ ، صص ٣٠١ — ٣٠٢ .

(٢) علوفة ، وجمعها علائف ، هى مرتبات العسكريين والبدلات التى تصرف لهم علاوة على المرتبات . ويدخل فى العلائف بدل تعيين طعام سواء للإنسان أو الخيل .

(٣) النوبة : أى المرة .

سافروا إلى بلادهم . ولم يبق منهم إلا المحتاج إليهم وأرباب المناصب ، ولا يأخذون بعد ذلك علائف . فكثر التروى فى ذلك ، ولغط الناس بالفردة وتقرير أموال على أهل البلد ، وانحط الأمر بعد ذلك على قبض ثلث الفائظ من الحصص والالتزام . فضج الناس ، وقالوا هذه تسير عادة ، ولم يبق للناس من معايش .. فقال نكتب فرماناً ونلتزم بعدم عود ذلك ثانياً ، ونرقم فيه (لعن الله من يفعلها مرة أخرى) ونحو ذلك من التمويهات الكاذبة إلى أن رضى الناس .. واستقر أمرها وشرعوا فى تحريرها وطلبها »(١) .

ومرة أخرى ذكر الجبرتى حادثاً مشابهاً للحادث الأول . فقال : « ... إن محمد على فرض فى أواخر شهر رجب سنة ١٢٢٠ (أواخر شهر أكتوبر سنة ١٨٠٥) على أهل رشيد إتاوة بلغت أربعين ألف ريال توزع على ثلاثة عشر من تجار المدينة . فحضر إلى القاهرة وفد من سكان المدينة يتظلمون من فرض الإتاوة .. وقابل الوفد عمر مكرم وعلماء الأزهر ، وتمت اتصالات بينهم وبين محمد على وتشاوروا فى تخفيض الإتاوة .. وكانت النتيجة أن استقر الرأى على تخفيضها إلى عشرين ألف ريال(٢) . يضاف إلى ذلك أن علماء الأزهر وعمر مكرم قد وضعوا مذكراتهم بمنأى عن الشعب ، فلم يرجعوا إليه قبل كتابتها وهى تتناول مسألة هامة وحيوية فى المستقبل السياسى لمصر وبخاصة لأن قطاعاً كبيراً من الشعب كان معارضاً لأسلوب محمد على فى الحكم(٣) .

وقد اعتقد علماء الأزهر وعمر مكرم أنه إذا اجتاز محمد على بسلام أزمة نقله إلى سالونيك فإن دورهم كعنصر سياسى فى حكم مصر سيظل قائماً ومستمراً ويعظم قدرهم فى نظر الشعب . وبعبارة أخرى كانوا يتطاعون

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ .

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٤٢ ، ص ٤٦١ .

إلى أن يكون الطابع الدينى الإسلامى بارزاً فى حكومة يرأسها محمد على ، ويشاركون فيها بالرأى والتوجيه .. ولم يكونوا يتوقعون أنه حينما تستقر دعائم الحكم لمحمد على فإنه يقصيهم عن هذا الدور كما أقصى الأمراء المماليك من قبل. وكان هذا التوقع من جانب علماء الأزهر دليلا على قصر نظرهم ، إذ لم يأخذوا حذرهم منه . وكان فى تصرفه مع الأمراء المماليك وغدره بهم خير عظة وعبرة لهم . .

العامل الثالث : الطيبة المتناهية التى وصلت إلى حد السذاجة فى أخلاق علماء الأزهر وعمر مكرم جعلتهم أداة طيعة لينة فى يد محمد على يوجههم كيفما شاء . فلم يكتبوا مذكراتهم الثلاث بدافع ذاتى كان يفتعل فى نفوسهم تنديداً بالمظالم التى كانت تتعرض لها الجماهير ، بل وضعوا المذكرتين الأولين تنفيذاً لرغبة محمد على ، وسطروا المذكرة الثالثة خضوعاً لشرط أساسى اشترطه القبطان باشا لعقد مصالحة عثمانية بين محمد على والباب العالى .. وكانت على حساب مصر . إذ اقترنت مذكرتهم بشرط تال هو دفع مبلغ أربعة آلاف كيس ، أى عشرين ألف جنيه جمعها محمد على من الشعب فى صورة ضرائب طارئة وقروض إجبارية ، وكان معنى ذلك أن ينفذ علماء الأزهر وعمر مكرم الشرط الأول وهو كتابة المذكرة الثالثة ، وأن ينفذ الشعب الشرط الثانى وهو دفع ثمن المصالحة . فكأن علماء الأزهر وعمر مكرم قد أسهموا بطريقة غير مباشرة فى إضافة أعباء مالية طارئة تتحملها الجماهير .

وقد ندد الجبرتى فى مواطن كثيرة وهو يؤرخ لأزمة النقل إلى سالونيك بمواقف علماء الأزهر وعمر مكرم . فذكر أن محمد على أراد أن يستوضحهم رأيهم فى الموقف ، فى أثناء الاجتماع الذى عقد فى قصره فى ١٤ يوليو ١٨٠٦ فبادر الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر إلى القول بأنه ليس لهم رأى ، وأن الرأى هو رأى محمد على ، وأنهم جميعاً ينفذون رأيه . وفى موطن آخر قال معلقاً على ما جاء فى مذكرتهم الثالثة « وغير ذلك من التمويهات والكلمات

التى عنها يُسألون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون » . ، كما أن الأساس الذى ارتكزت عليهم مطالبهم ببقاء محمد على فى باشوية مصر تحليه « بالعلم والعدل » الأمر الذى زاد من حنق الجبرتى عليهم ، لأن محمد على لم يكن فى تقديره عالماً ولا عادلا .

ومجمل القول إن الدور الذى قام به علماء الأزهر وعمر مكرم فى أثناء الأزمة كان مشيناً ومذلا لا يتفق مع مركزهم الدينى وتمتعهم بالصدارة فى المجتمع الإسلامى فى مصر والعالم الإسلامى قاطبة . كانت غالبية الأسانيد التى كتبوها فى مذكراتهم الثلاث تتعارض تعارضاً صارخاً مع الواقع السياسى الذى كان قائماً فى مصر قبل الأزمة وصحبها ثم لحقها . ولم تكن لديهم الجرأة أو الشجاعة الأدبية كى يرفضوا إدراجها فى مذكراتهم أو كى يوجهوا الأزمة وجهة معينة ، فإن محمد على لم يقنع فحسب بأن يكون هو صاحب الفكرة فى أن يضع علماء الأزهر وعمر مكرم المذكرتين الأوليين ، بل أملى عليهم نقاطهما الرئيسية وترك لهم صياغتهما فى أسلوب عربى سليم يتمشى مع مستوى اللغة العربية فى ذلك الوقت . وكان الباب العالى والقبطان باشا يعلمان حقيقة هذه المذكرات . وإذا كان الباب العالى قد طلب وضع المذكرة الثالثة ، فإن هدفه كان انتحال ذريعة لتراجعه عن موقفه فى أزمة النقل .

دعم ولاية محمد على فى مصر :

وجدير بالذكر أنه وصل إلى القاهرة فى أول المحرم سنة ١٢٢٢ ، (١١ مارس سنة ١٨٠٧) مندوب من قبل السلطان يحمل فرماناً بتجديد ولاية محمد على لمصر للسنة الهجرية الجديدة . فأطلقت مدفعية القلعة طلقاتها فى كل وقت من أوقات الصلاة الخمسة ثلاثة أيام سوياً .. وكان هذا الفرمان السلطانى دعماً لمركز محمد على فى مصر بعد أزمة نقله إلى سالونيك ، واعتقد المعاصرون أن مصر قد صفت له ، ولكنه لم يلبث أن فوجىء بوصول حملة عسكرية بريطانية فى ذات الشهر إلى الإسكندرية .. وهب علماء الأزهر وعمر مكرم يسهمون فى تعبئة الجماهير لحمل راية النضال .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

موقف الأزهر
من الحملة البريطانية على مصر
(١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م)

الحملة تحتل الإسكندرية دون قتال .

تعرضت مصر سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) لحملة بريطانية أبحرت من جزيرة صقلية التى اتخذتها بريطانيا إحدى قواعدها العسكرية فى حروبها ضد نابليون الأول فى حوض البحر المتوسط .. وكانت الحملة تتكون من أخلاط شتى من الجنود الإنجليز ، وجنود مرتزقة إيطاليين ، والمهاجرين الفرنسيين من خصوم الثورة الفرنسية .. وكانت الأوامر التى أعطيت لقائد الحملة «فريزر» أن تكون العمليات الحربية مقصورة على احتلال الإسكندرية(١) كوسيلة للضغط على الدولة العثمانية لنبذ صداقتها مع فرنسا التى تصاعد نفوذها فى إستانبول منذ وصول السفير الفرنسى الجديد « سبستيانى » إليها فى يوم ١٠ من شهر أغسطس سنة ١٨٠٦(٢) . وكانت هذه الحملة البريطانية الغزو العسكرى الأوروبى المسيحى الثانى لمصر فى التاريخ الحديث بعد حملة

---

(١) الوثائق الإنجليزية عن الحملة التى نشرت بعنوان فرنسى ، هو :

L'Angleterre et L'Egypte. La Campagne de 1807.; par Douin, G. et Mrs. E. C. Fawtier-Jones. Le Caire, 1928.

وثيقة رقم ١ مؤرخة فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٠٦ من وزير الحربية وندهام إلى القائد العام للجيش البريطانى فى صقلية ، الجنرال فوكس « Fox » ص ص ١ - ٢ .

ووثيقة رقم ٩ مؤرخة فى ٢ فبراير سنة ١٨٠٧ من الجنرال فوكس إلى فريزر ، ص ص ٧ - ٨ .

(٢) كانت هناك عوامل مساعدة وأخرى مشجعة على إرسال هذه الحملة بعيدة الصلة بهذه السياسة ، ولذلك أغفلنا ذكرها .

بونابرت على مصر ، لأن القوات البريطانية التى احتلت مصر (١٨٠١ — ١٨٠٣) قد جاءتها بصفتها قوات حليفة للسلطان العثمانى للإسهام فى إخراج الفرنسيين من مصر . وعلى غرار ما فعله بونابرت ، وجه فريزر إلى حاكم الإسكندرية وسكانها إعلاناً تطلق عليه الوثائق الإنجليزية « Manifesto » كتبه على ظهر البارجة « Tiger » فى ١٦ مارس سنة ١٨٠٧ شرح فيه أهداف الحملة ، وهى : الاستيلاء على ميناء ومدينة الإسكندرية وقلاعها ، وأن البريطانيين لم يحضروا لفتح مصر ، وإنما لمنع الفرنسيين من احتلالها مرة أخرى ، وتمكين بريطانيا من تقديم حمايتها لبعض الطوائف التى تكون لديها رغبة صادقة فى إقامة علاقات ودية مع بريطانيا(١) . وقد تسلل أحد العربان ، بمساعدة قنصل بريطانيا ، إلى فريزر الذى سلم الإعلان إليه فأذاعه على سكان الإسكندرية .

وصادفت الحملة أول أمرها نجاحاً لم تكن تتوقعه ، إذ احتلت الإسكندرية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧ دون قتال ، لأن حاكمها العثمانى ، أمين أغا ، الذى يتبع رأساً قبودان باشا الأسطول العثمانى فى إستانبول ، كان ضعيف الخلق سلمها دون مقاومة لقاء رشوة غلفتها شروط هزيلة أملى معظمها قائد الحملة لتأمين سلامتها فى الإسكندرية(٢) .

مد العمليات الحربية إلى رشيد :

وقد أغرى نجاحها السريع قنصل بريطانيا العام فى الإسكندرية ، الرائد « ميست » على أن يطالب من قائد الحملة أن يمد عملياتها الحربية إلى رشيد تأسيساً على أن الإسكندرية تعتمد فى تموينها بالمواد الغذائية على مدينة رشيد وأن القطاع وصول هذه المواد سيعرض سكانها وجنود الحملة لأخطار

(١) الوثائق الإنجليزية لتاريخ الحملة ، مصدر سبق ذكره ، وثيقة رقم ٢٦ ص ص ٢٢ — ٢٣
(٢) المصدر السابق ، وثيقة رقم ٢٧ ، ص ص ٢٣ — ٢٤ .
والجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٤٥ — ٤٦ .

المجاعات . وتعزيزاً لطلبه وتحمساً له ، سجله القنصل العام فى مذكرة أرسلها إلى فريزر فى ٢٣ مارس ، وكان مما جاء فيها أن كميات القمح الموجودة فى الإسكندرية ، وقت استيلاء الحملة عليها ، لاتكاد تكفى سكانها مدة أسبوعين ، وأن المشرف على تموين الحملة قد استحال عليه أن يحصل على إمدادات من النقالات التى اضطرت للبقاء فى خليج أبى‌قير بسبب الرياح المعاكسة . فاضطر إلى أخذ كميات من القمح المخصصة أصلا لاستهلاك سكان الإسكندرية. وكان بشىء من الصعوبة أن حصل من اللحم على ما يكفى الجنود يوماً واحداً فقط . وبناء عليه فلن تنقضى أيام ذات عدد حتى يجد الإسكندريون أنفسهم وقد حرموا من غذائهم . وسوف لا يجد الجيش مفراً من الاعتماد فى غذائه على المواد المحفوظة المملحة ، وهى غذاء غير صحى فى الجو الحار . وبسبب هذه الظروف قال القنصل العام إنه يجد لزاماً عليه أن يلح على قائد الحملة بصورة قاطعة بضرورة احتلال ثغر رشيد فوراً وكذلك موقع الرحمانية . فمن هذا الثغر تأخذ الحملة حاجتها من القمح والأرز . وباستيلاء الحملة على الرحمانية تصبح لها السيطرة على إقليم البحيرة الذى يمون الإسكندرية بالشعير والأغنام والثيران الصغيرة والجاموس . ولم يقنع القنصل العام بأن تحتل الحملة رشيد والرحمانية فحسب ، بل تطلع إلى دمياط أيضاً تأسيساً على أن فرقاً من الأرنؤود تتدفق باستمرار على مصر وتنزل فى دمياط(١) .

على هذا النحو كشف القنصل العام عن نواياه التوسعية فى مصر : وقد كان من غلاة المستعمرين العسكريين ، وكان أيضاً على نصيب موفور من الغرور والحماقة والجهالة ، كان يتوق نفساً إلى أن تحتل بريطانيا مصر . ظل بضع سنوات يلح فى رسائله للحكومة البريطانية على أن تحتل مصر مستنداً إلى الفوضى السياسية التى تعم البلاد المصرية ، مثيراً مخاوف حكومته من احتمال احتلال فرنسا لمصر ، مما جعل الدوائر السياسية فى لندن تعتقد أن مصر ، وقد عجز أصحاب السيادة عليها وهم العثمانيون ،

---

(١) الوثائق الإنجليزية عن الحملة « La Campagne de 1807 » ،

عن دعم سيادتهم عليها ، وأن المنازعات الداخلية قد أرهقت المصريين من أمرهم عسراً ، وأنهكت قوى الطوائف المتصارعة على الحكم ، فقد أصبح لزاماً على بريطانيا أن تتأهب لمنع العدوان الفرنسي عليها(١) . ولما جاءت حملة فريزر واستولت على الإسكندرية اعتقد ، لحمقه وللانتصار الرخيص الذى أحرزته الحملة بالاستيلاء على الإسكندرية ، أنه فى مقدور هذه الحملة ذات القوة الضئيلة ، وهى خمسة آلاف جندى ، أن تواصل انتصاراتها وتزحف فى اتجاه الجنوب نحو القاهرة . وغفل عن حقيقة هامة هى أن الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت على مصر ، وكان عدد جنودها ٣٥,٠٠٠ جندى ، لم تستطع أن تبسط النفوذ الفرنسى بصورة فعالة ودائمة على ضفاف النيل . وكانت أحداث هذه الحملة لا تزال عالقة بأذهان المعاصرين لها ، ومن بينهم القنصل العام « ميست » . ومع ذلك استجاب فريزر لرغبته ، وجرد للضرورة الحربية قوة عسكرية بقيادة الجنرال « ووكوب » « Wauchope » لاحتلال مدينة رشيد ، وبلغت فى ٣٠ مارس مشارفها ، ورابطت فوق مرتفعات «أبو منصور»(٢) جنوبى المدينة . ونترك مؤقتاً الحملة فى هذا الموقف لنتكلم عن موقف علماء الأزهر أولا ثم نوضح أصداء الحملة فى شتى الأوساط العثمانية فى مصر وفى موقف محمد على تبياناً لعمق الفروق بين موقف علماء الأزهر وموقف الطوائف العثمانية .

الموقف السلبى لعلماء الأزهر وعمر مكرم :

كانت الظاهرة البارزة التى تشد انتباه الباحث فى المراحل الأولى للعدوان البريطانى على مصر سنة ١٨٠٧ هى عدم تدخل علماء الأزهر وعمر مكرم فيها على الرغم من خطورة هذا العدوان وتهديده للأوضاع السياسية القائمة وقتذاك فى مصر . فكان موقفهم السلبى يتنافى مع تقاليدهم التى درجوا عليها

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ص ٥٩٥ — ٥٩٦ .

(٢) تكتب فى بعض المراجع «أبو مندور» .

إن خطأ وإن صواباً ، بالتدخل فى كل أزمة سياسية مرت بالبلاد ابتداءاً بالحملة الفرنسية بقيادة بونابرت سنة ١٧٩٨ ومروراً بعهد الانقلابات السياسية وما بعد هذا العهد مثل أزمة نقل محمد على إلى سالونيك .. وليس هناك سبب قوى لتفسير هذه السلبية التى اتسم بها موقفهم . وكل ما يمكن أن يقال هو مبررات لا ترقى إلى درجة السببية الجادة ، مثل الانشقاق الذى دب بين صفوفهم بسبب ظاهرى هو تنافسهم على منصب ناظر الجامع الأزهر . وقد انتهز محمد على فرصة هذا الانشقاق فأصدر قراراً فى ٢٠ سبتمبر ١٨٠٦ بتحديد إقامة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى داره ومنعه من مغادرتها حتى ولو كان يريد أداء صلاة الجمعة كما سبق أن ذكرنا . وقد تدخل القاضى العثمانى أكثر من مرة لرأب الصدع فى صفوفهم ، وأذن له محمد على فى ١٤ أكتوبر فى مصالحتهم ، وأقام لهم القاضى وليمة غذاء فى داره دعاهم إليها « وصالحهم وقرءوا بينهم الفاتحة ، وذهبوا إلى دورهم ، **« والذى فى القلب مستقر فيه »**(١) . والعبارة الأخيرة التى ذكرها الجبرتى فى غنى عن كل تعليق . وحسبنا أن نذكر أن الضغائن بين علماء الأزهر ظلت قائمة ، وكانت عاملا هاماً فى تعميق انقساماتهم ، وأدت بالتالى إلى سلبيتهم التى استمرت حتى منيت الحملة البريطانية بهزيمة ساحقة فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ وهى تحاول احتلال رشيد ، وظهرت فى الأفق السياسى بوادر إخفاق الحملة البريطانية وقرب جلائها عن مصر . وعندئذ بدأ تدخل علماء الأزهر وعمر مكرم بعد أن كان هناك « فراغ سياسى » من جانبهم ، وبعد أن كانت قد تدخلت طوائف عثمانية فى مصر ، وتلاحقت وتزاحمت مظاهر تدخلها على الصعيد الداخلى منذ وصول الحملة واستيلائها على الإسكندرية حتى هزيمتها فى رشيد .

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٩ .

موقف الطوائف العثمانية فى مصر من الحملة :

موقف الطوائف العثمانية فى الإسكندرية :

كان الجنود العثمانيون فى الإسكندرية أول الطوائف العثمانية التى تلقت صدمة الحملة .. وقد استحوذ عليهم الفزع والاضطراب واعتزم أكثرهم الرحيل من مصر . يقول الجبرتى « وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام ، وشرعوا فى قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التى أعطوها للمتضايقين والمستقرضين بالربا . وإبدال ما بأيديهم من الدراهم والقروش والفرانسة التى يثقل حملها بالذهب البندقى والمحبوب الذر لخفة حملها حتى أنها زادت فى المصارفة بسبب كثرة الطلب لها .... واستمرت تلك الزيادة بعد ذلك ، وسيزيد الأمر فحشاً ، وسعوا فى مشترى أدوات الارتحال والأمور اللازمة لسفر البر ، وفارق الكثير منهم النساء ، وباعوا ما عندهم من الفرش والأمتعة(١) وقامت قلة من الجنود العثمانيين فى الإسكندرية بالهرب إلى دمنهور . وكانت لهم فيها تصرفات مخزية انتقلت إلى السلطات العثمانية فى هذه المدينة .

٢ — الموقف المتخاذل لكاشف دمنهور :

كشفت عن مخازى العثمانيين فى دمنهور رسالة أرسلها أهل هذه المدينة إلى عمر مكرم نقيب الأشراف فى ٢٣ المحرم سنة ١٢٢٢ (٢ أبريل سنة ١٨٠٧) وكان يقطن دمنهور عدد كثيف من الأشراف ، لهم الصدارة فى المجتمع الدمنهورى ويدينون بالولاء والطاعة للسيد عمر مكرم طبقاً لقانون نقابة الأشراف . وقد جاء فى رسالتهم أنه « لما دخلت المراكب الإنكليزية إلى الإسكندرية هرب من كان بها من العساكر وحضروا إلى دمنهور ، فعندما شاهدهم الكاشف(٢) الكائن بدمنهور ومن معه من العسكر انزعجوا انزعاجاً شديداً ،

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٥٤ .

(٢) الكاشف لقب يطلق على حاكم إقليم أقل مساحة وتعداداً وأهمية من المديرية ، وكان يطلق على الإقليم الذى يحكمه كاشف : « كشوفية » أما المديرية فكان يطلق عليها « سنجقية » ، ويحكمها صنجق . وقد تغيرت هذه الأسماء بعد أن استقرت دعائم الحكم فى مصر لمحمد على وخلفائه .

وعزموا على الخروج من دمنهور ، فخاطبهم أكابر الناحية قائلين لهم : كيف تتركونا وتذهبوا ؟ ولم تروا منا خلافاً وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفى(١) من أعظم المساعدين لكم فكيف لا نساعد الآن بعضنا بعضاً فى حروب الإنكليز ؟ فلم يسمعوا لقولهم لشدة ما داخلهم من الخوف وعبوا متاعهم ، وأخرج الكاشف أثقاله وجبخانته ومدافعه ونزلها وذهب إلى فوه من ليلته ثم أرسل فى ثانى يوم من أخذ الأثقال فهذا ما حصل ، أخبرناكم به »(٢) وهكذا لم يكتف كاشف دمنهور بالهروب منها ، بل حال بين سكانها وبين استخدام أسلحة وذخيرة الحامية فى الدفاع عن المدينة . وكان الاعتقاد السائد بينهم أن الحملة البريطانية ستسير على خطة قريبة الشبه بالخطة الحربية التى انتهجتها الحملة الفرنسية ، بمعنى أن سكان دمنهور كانوا يتوقعون أن يزحف البريطانيون على دمنهور ومنها إلى شبراريس فى طريقهم إلى القاهرة .

٣ — موقف كبار العثمانيين فى القاهرة :

وصلت إلى القاهرة عصر يوم الخميس ٩ المحرم (١٩ مارس) أنباء وصول الحملة البريطانية واحتلالها الإسكندرية فكان لها ردود فعل واسعة . اجتمع عقب صلاة مغرب هذا اليوم كتخدا بك ، وهو وكيل محمد على ، وحسن باشا ، وطاهر باشا ، والدفتردار(٣) ، والروزنامجى(٤) « وباقى أعيانهم » ولم يذكر الجبرتى أن علماء الأزهر وعمر مكرم قد حضروا هذا الاجتماع وقد تداول الحاضرون أبعاد الموقف واستقروا رأياً على

---

(١) كان أهل دمنهور يشيرون إلى الحصار طويل الأمد الذى فرضه محمد الألفى بك سنة ١٨٠٦ على مدينتهم فى أثناء أزمة نقل محمد على إلى سالونيك (انظر الفصل السابق) .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٤٦ — ٤٧ .

(٣) الدفتردار : هو رئيس الديوان الدفترى الذى يقابل ديوان المالية أو وزارة المالية .

(٤) الروزنامجى : هو رئيس ديوان الروزنامه وكانت اختصاصات هذا الديوان جمع الأموال الأميرية وصرفها فى وجوهها تحت إشراف الديوان الدفترى .

إبلاغ محمد على بأنباء الحملة ، وطلبوا عودته إلى القاهرة « هو ومن بصحبته من العساكر ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام ، ففعلوا ذلك وانصرفوا إلى منازلهم بعد حصة من الليل . وأرسلوا تلك المكاتبة إليه فى صبيحة يوم الجمعة صحبة هجانين . وشاع الخبر ، وكثر لغط الناس فى ذلك »(١) .

٤ – موقف محمد على :

أما محمد على ، فلما بلغته أنباء الحملة ، تملكه فزع شديد وصفه الجبرتى فى أكثر من موطن فقال « داخله وهم كبير ، ارتباك فى أمره ، انحلت عزائمه » وعزم على العودة متثاقلا متباطئاً فى السير ظناً منه أن البريطانيين يسبقونه إلى القاهرة ، فيسير مشرقاً إلى الشام . ويكون غيابه عن القاهرة والوجه البحرى مبرراً له أمام الباب العالى فى عدم اشتباكه حربياً مع البريطانيين . ولكنه لم يستسلم تماماً لليأس .. فعاودته نزعته المتأصلة فى نفسه ، فبعث برسالة إلى العثمانيين فى القاهرة ذكر فيها « عزمه على الرجوع إلى مصر – أى القاهرة – قريباً ، فإن العساكر يطالبونه بالعلائف ، ويأمرهم بتحصيل ذلك وتنظيمه ليسلموها عند حصولهم بمصر ويتجهزوا لمحاربة الإنكليز »(٢) . كما أرسل إلى علماء الأزهر وعمر مكرم يطلب إليهم القيام بدور الوساطة فى الصلح بينه وبين الأمراء القبالى ، أى الأمراء المماليك فى الوجه القبلى ، وأنه يقبل كل ما يشترطونه « ولا يخالفهم فى شىء يطلبونه أبداً » .

٥ – موقف أحد الأمراء القبالى :

وصل فى ١٧ المحرم (٢٧ مارس) ياسين بك ، وهو أحد الأمراء القبالى من الفيوم وعسكر بقواته فى دهشور – وأرسل خطاباً إلى كل من عمر مكرم والقاضى العثمانى ، ووكيل دار السعادة (إستانبول) سعيد أغا ، قال فيه إنه لما علم بوصول الحملة البريطانية ، أخذته الحمية الإسلامية ، وحضر

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٤٤ .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

« وصحبته ستة آلاف من العسكر ليرابط بهم فى الجيزة أو قليوب ، ويجاهد فى سبيل الله » . وارتاب المرسل إليهم فى أهداف ياسين بك تأسيساً على أنه اختار لمرابطة قواته أحد إقليمين قريبين من القاهرة ، يقع أحدهما فى جنوبها ، والآخر فى شمالها ، فيسهل عليه دخول القاهرة بقواته وإسقاط حكومة محمد على . فكتبوا إلى ياسين بك رسائل قالوا فيها « إن كان حضوره بقصد الجهاد ، فينبغى أن يتقدم بمن معه إلى الإسكندرية . وإذا حصل له النصر تكون له اليد البيضاء والمنة والذكر والشهرة الباقية ، فإنه لا فائدة بإقامته بالجيزة أو قليوب »(١) .. وهكذا أراد ياسين بك الإطاحة بحكم محمد على منتهزاً فرصة وجود الحملة البريطانية ، ومحققاً لمصلحته هدفاً من أهدافها ...

وكان كل من قائدها فريزر والقنصل البريطانى ، ميست ، قد بعثا برسائل إلى الأمراء المماليك يطلبان منهم الانضمام إلى بريطانيا وإسقاط حكومة محمد على. وكان محمد الألفى بك كبير البيت الألفى المملوكى قد قضى نحبه قبل وصول الحملة بأربعين يوماً ، فأرسل القنصل العام رسالة إلى خليفته شاهين بك الألفى يخطره بقدوم الحملة البريطانية إلى الإسكندرية ، وأن بريطانيا تزمع تمكين المماليك من حكم مصر . وطلب منه أن يرسل على جناح السرعة وفداً منهم إليه لتنسيق تعاونهم مع الإنجليز(٢) .

٦ - موقف جنود القاهرة :

كانت فى القاهرة قوات قليلة العدد نسبياً من الجنود الأرناؤود والدلاة بعد أن أخذ محمد على معه قوات كثيفة العدد منهم إلى الوجه القبلى لمحاربة الأمراء القبالى . وبدلا من أن تتجه قوات القاهرة إلى الإسكندرية أو رشيد

(١) المصدر السابق ، ذات الجزء ، ص ٤٥ .

(٢) عن الرسائل التى تبودلت بين القنصل العام البريطانى « ميست » وقائد الحملة « فريزر » من ناحية ، وزعماء المماليك ، انظر الوثائق الإنجليزية التالية أرقامها على سبيل المثال لا الحصر « وهى منشورة فى مجلد وثائق « حملة سنة ١٨٠٧ » ، مرجع سبق ذكره .

١٤ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ .

ولخوض معركة ضد البريطانيين ، انتهزت فرصة اضطراب الأفكار فى العاصمة وعاثت فيها فساداً . واستباح الجنود لأنفسهم أموال المصريين ، وجاسوا خلال الأسواق يغتصبون السلع من المحلات ويخطفون ما يحمله المارة وما إلى ذلك من جرائم النهب والسلب .

هزيمة الحملة فى رشيد :

تركنا القوة البريطانية تتأهب لاحتلال مدينة رشيد عقب وصولها إلى مرتفعات (أبو منضور) ، ونعاود دراسة الأحداث التى تلاحقت سواء على الحملة أو على موقف علماء الأزهر وعمر مكرم .

كانت تعسكر فى مدينة رشيد حامية عثمانية تراوح عدد أفرادها بين ٤٥٠ و ٥٥٠ جندياً . وكان تسليحهم رديئاً ، وتعوزهم الذخائر الكافية ، كما كانت روحهم المعنوية هابطة .. ومع ذلك قرر حاكم رشيد ، وهو على بك السلانكلى(١) مقاومة القوة البريطانية ، وكانت تتألف من ألفى جندى يترأسهم بعض كبار القادة من رتبة جنرال — أى لواء — ويرأسهم جميعاً الجنرال ووكوب . واعتمد على بك فى خوض المعركة على عنصرين :أفراد الحامية ، ومشاركة سكان رشيد فى الدفاع عن مدينتهم .. كما قامت خطته على تراجع الحامية إلى داخل المدينة وأن يعتصم أفرادها والسكان داخل المنازل ، وأن يكون الجميع متأهبين لإطلاق النار بمجرد إعطاء الإشارة لهم بالبدء فى إطلاق النـــار .

فلما وصلت القوة البريطانية إلى مرتفعات (ابو منضور) لم تجد أثراً للمقاومة خارج مدينة رشيد. واعتقد قائد القوة ،الجنرال ووكوب ، أن حامية المدينة قد اعتزمت تسليمها دون قتال على غرار ما فعل أمين أغا حاكم

---

(١) يرد اسمه فى المراجع الفرنسية والإنجليزية على هذا النحو : على بك السنانكلى « Aly Bey Al-Sananikly » . وتذكره المراجع العربية على بك السلانكلى أو السلانكلى ، أما الجبرتى فيذكره : على بك حاكم رشيد .

الإسكندريه . فقرر دخول المدينة بجميع قواته دون أن يحتفظ بقوة احتياطية على مرتفعات (أبو منصور) التى تطل على المدينة ، ومن غير أن يستكشف الموقع مسبقاً(١) . ودخلها الجنود وطافوا بشوارعها ووجدوها خالية ولجأوا إلى أماكن يستريحون فيها . ولكن لم تكد المدينة تحتويهم حتى أعطى على باك إشارة البدء فى إطلاق النيران ، وأخذ أفراد الحامية والسكان يصلون البريطانيين ناراً حامية من نوافذ البيوت وسطوحها . وسقط كثيرون من البريطانيين صرعى فى الشوارع . وكان من بينهم القائد البريطانى ووكوب والكثير من ضباطه وعدد من المهاجرين الفرنسيين . كما أصيب فريق ثان من الضباط والجنود بجراح خطيرة ، كان من بينهم القائد الذى يليه فى القيادة وهو ميد « Meade » الذى تعذر عليه عملياً الاستمرار فى القيادة ، فتولى القيادة ضابط ثالث هو بروس « Bruce » ، ووقع فى الأسر فريق ثالث ، وارتد فريق رابع عن رشيد وهم فى حالة ذعر شديد ، وأمر قائد الحملة بإرسال قوارب لنقلهم عبر بحيرة إدكو إلى أبى قير وهناك تولى فريزر قيادتهم إلى الإسكندرية .. وفى رسالة بعث بها من الإسكندرية فى ٣ أبريل سنة ١٨٠٧ القنصل الإسبانى إلى وزير إسبانيا المفوض فى إستانبول ، الماركيز دالمينارا « D'Almenara » جاء فيها أن عدد القتلى البريطانيين بلغ مائتين ، والجرحى ١٥٠ ، والأسرى ١٠٠ . أما خسائر الحامية العثمانية وسكان رشيد فقد بلغت أربعين قتيلا وحوالى مائة جريح(٢) . وفى تقرير هام أرسله فريزر إلى وندهام وزير الحربية فى ٦ أبريل نصح فيه بأن تبادر بريطانيا بالجلاء عن مصر بعد أن قرر أن هزيمة رشيد كانت بلا شك ضربة قاسية وغير متوقعة أصابت بريطانيا ، وألقى المسئولية على عاتق القنصل العام(٣) الذى سجل انطباعاته فى

---

(١) الوثيقة رقم ٤٠ ، ص ص ٤٠ - ٤٣ من الوثائق الإنجليزية المنشورة فى مجلد : « حملة سنة ١٨٠٧ » السابق الإشارة إليه .

(٢) الوثيقة رقم ١٤١ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ فى
Douin, G.; Mohamed Aly, Pacha du Caire

(٣) الوثيقة رقم ٤٠ المشار إليها سابقاً فى مجلد « حملة سنة ١٨٠٧ » .

تقرير أرساله إلى فريزر فى ٢٢ أبريل قال فيه إن العالم ستعتريه دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروبى حديث(١) :

وصول الشحنة الأولى من رءوس القتلى والأسرى البريطانيين إلى القاهرة :

وصلت أنباء هزيمة البريطانيين فى رشيد إلى الإسكندرية فى ٣١ مارس ، أى فى ذات اليوم ، كما بلغت أخبارها القاهرة . لأول مره يوم ٣ أبريل « وسارع المبشرون من أتباع العثمانيين ، وهم القواسة(٢) الأتراك ، بالسعى إلى بيوت الأعيان يبشرونهم ويأخذون منهم البقاشيش والخلع . وصار الناس ما بين مصدّق ومكذب »(٣) . فلما كان يوم ٥ أبريل تأكد الخبر عندما وصلت إلى ساحل بولاق الشحنة الأولى من رءوس القتلى البريطانيين مثبتة فى نبابيت يحملها السعاة « وقد تغيرت وانتنت رائحتها » . وكان عدد رءوس هذه الدفعة أربعة عشر رأساً وبلغ عدد الأسرى خمسة وعشرين أسيراً ، وكان من بينهم فسيال كبير(٤) ، وآخر كبير فى السن ، وهما راكبان على حمارين ، والبقية مشاة فى وسط العسكر » . وسار هذا الموكب فى الشوارع الرئيسية حتى بركة الأزبكية حيث علقت رءوس القتلى ، ثم « طلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة » . وابتهاجاً بهذا الانتصار العسكرى المبين على البريطانيين وتأكيداً له أصدرت السلطات الحاكمة فى القاهرة أوامر إلى سلاح الطوبجية — المدفعية — « فضربوا شنكاً ومدافع »(٥) كما أصدرت هذه السلطات الأوامر إلى : « كبار العسكر ومعهم طوائفهم بالركوب إلى ساحل بولاق لملاقاة القادمين فطلعوا بهم إلى البر ، وصحبتهم جماعة العسكر المتسفرين معهم » .. وهرع

(١) الوثيقه رقم ٥١ ، ص ص ٦١ — ٦٣ فى المصدر السابق .

(٢) القواسه : هم رجال الشرطه ومفردها : قواس ، وهى كلمه تركيه .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٤٧ .

(٤) فيسيال : كلمة تركية تطلق على ضباط الجيوش الأوروبية ، وهى مشتقة من اللفظة الإيطالية « uffiziale » وتجمع فى عدة صيغ نذكر منها : فيسيالية ، وفيسيالات .

(٥) شنك : مشتقة من الكلمة التركية شنلك وهى عبارة عن صواريخ نارية تطلق متصاعدة فى السماء وتنبعث منها شتى الألوان فى نظام هندسى رتيب تعبيراً عن الابتهاج والعظمة . وتجمع شنكات .

سكان القاهرة زرافات ووحدانا لمشاهدة موكب الأسرى ورءوس القتلى . وتوالى فى الأيام التالية وصول شحنات من رءوس القتلى وأفواج من الأسرى. وفى كل مرة كانت تطلق المدافع وتضرب الشنك .

تدخل علماء الأزهر و عمر مكرم فى الأزمة بعد سلبيتهم :

بدأ تدخل علماء الأزهر وعمر مكرم بصورة فعلية فى أزمة الحملة البريطانية فى ذات اليوم الذى وصلت فيه إلى القاهرة الشحنة الأولى من رءوس القتلى والأسرى البريطانيين ، وهو ٥ أبريل ، مؤكدة الهزيمة التى حاقت بالبريطانيين فى معركة رشيد ، وهى هزيمة تعرض بسببها مركز الحملة للاهتزاز الشديد فى أعين المصريين ، وألهبت مشاعرهم وزادتهم ثقة فى أنفسهم .. وجعلت الأمراء المماليك يرثرون موقف الترقب والتريث انتظاراً لما قد يطرأ على مركز البريطانيين فى مصر .

تعطيل الدراسة فى الأزهر وإجراءات أخرى :

لم ينتظر عمر مكرم عودة محمد على من الوجه القبلى ، بل تولى فى ٥ أبريل قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها . فطالب من الجماهير التأهب لقتال الإنجليز وأمرهم بحمل السلاح .. كما أمر فى ذات اليوم بتعطيل الدراسة فى الأزهر كى يتفرغ المشايخ المدرسون ومجاورو الأزهر ، أى طلابه ، للجهاد فى الإنجليز(١) . وكانت دعوة عمر مكرم رجال الأزهر إلى المشاركة فى القتال دليلا على أن الشعب لم يكن ينظر إليهم على أنهم رجال دين وعلم فحسب ، بل رجال قتال وجهاد ودفاع عن الذمار أيضاً(٢) .

---

(١) Dr. Mohammed Sabry; L'Empire Egyptien Sous Mohammed Ali et La Question d'Orient. (1811 – 1849), Paris, 1930. p. 28.

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

وفى اليوم التالى — ٦ أبريل — تزايدت همة عمر مكرم والمشايخ حين وصلت ساحل بولاق « جملة من الرءوس والأسرى ، فطاعوا بهم على الرسم المذكور ، وعدتهم مائة رأس وإحدى وعشرون رأساً ، وثلاثة عشر أسيراً وفيهم جرحى مات أحدهم على بولاق ، فقطعوا رأسه ورشقوها مع الرءوس (على النبابيت) وشقوا بهم من وسط المدينة آخر النهار »(١) .

وعقد اجتماع كبير فى ٧ أبريل فى بيت القاضى العثمانى حضره عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى ، وكان محمد على قد ألغى قرار تحديد إقامته ، كما حضر الاجتماع الشيخ محمد الأمير وغيرهما من كبار المشايخ والدفتردار وبعض الضباط الألبانيين مثل عمر بك . وفى هذا الاجتماع طلب عمر مكرم أن يمتنع الجنود العثمانيون الذين آثروا البقاء فى القاهرة عن أعمال النهب والسلب وإيذاء الشعب ، وأن يقف الجنود مع الشعب كتلة واحدة متراصة أمـام البريطانيين ، وأن يستعد الجميع لحربهم وقتالهم وطردهم ، فإنهم أعداء الدين والملة ، وقد صاروا أيضاً أخصاماً للسلطان فيجب على المسلمين دفعهم »(٢) . وناقش الحاضرون موضوع تحصين القاهرة واتجه تفكيرهم إلى حفر خنادق . فقال بعضهم إن الإنجليز لا يزحفون على القاهرة إلا من البر الغربى ، والنيل حاجز بين الفريقين . وإن الفرنسيين كانوا أعلم بالحروب ، وأنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل من الباب الحديد إلى البر ، فينبغى الاهتمام بإصلاحه ، ولو لم يكن كوضعهم وإتقانهم ، إذ لا يستطيع القاهريون محاكاة الفرنسيين . واتفقوا على أن يبدأ تنظيم عمليات حفر الخندق فى اليوم التالى .

الشروع فى حفر الخندق :

اجتمع عمر مكرم بكبار علماء الأزهر والقاضى العثمانى وعدد من أعيان القاهرة فى اليوم التالى — ٨ أبريل — وركبوا جميعاً البغال إلى بولاق لترتيب

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٤٧ — ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ذات الجزء ، ص ٤٨ .

العمل فى حفر الخندق . وذهب معهم دروفتى قنصل فرنسا العام(١) ، كما صحبتهم جموع غفيرة من الشعب . وظهرت فى هذا الوقت العصيب روح التعاون والتساند رائعة قوية بين أفراد الشعب على اختلاف طبقاته ودياناته . ويُستدل على هذا الشعور الدافق من التكافل الاجتماعى مما سطره الجبرتى ، إذ قال « وشرعوا فى حفر الخندق المذكور ، ووزعوا حفره على مياسير الناس ، وأهل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجى . وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة ، وعلى البعض الآخر أجرة خمسين وعشرين ، وكذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس(٢) ، والنصارى والأروام والشوام والأقباط ، واشتروا المقاطف والغلقان والفوس والقزم آلات الحفر . وشرعوا فى بناء حائط مستدير أسفل تل قلعة السبتية »(٣) . واطمأن بال قنصل فرنسا العام . وقد ذكر الجبرتى أن هذا القنصل هو الذى أشار على المشايخ وعمر مكرم بفكرة الخندق .

حاكم رشيد يطلب النجدة من القاهرة :

كان على بك السلانكلى حاكم رشيد يتوقع أن يستأنف الإنجليز هجومهم على رشيد ، فأرسل هو وأحمد بك الخازندار الشهير باسم بونابرته(٤) يطلبان النجدة من القاهرة .. ووصل خطابهما يوم ٧ أبريل وفيه يقولان « إن الإنكليز

---

(١) كان « دروفتى » فى الإسكندرية وقت وصول الحملة البريطانية إليها ، فغادرها خشية أن يقع أسيراً فى أيدى جنود الحملة . واتجه إلى رشيد وأعلن أنه يعتزم السفر إلى بلاد الشام ولكنه أبحر فى النيل إلى القاهرة حيث أقام بها واشترك فى تنظيم وسائل الدفاع عنها مع علماء الأزهر وعمر مكرم . ولما عاد محمد على من الصعيد كان دروفتى ذراعه الأيمن . وتعد تقاريره التى أرسلها تباعاً إلى وزارة الخارجية الفرنسية مصدراً هاماً للحملة البريطانية على مصر . وقد نشرت هذه التقارير بمعرفة دوا

Douin, G.; Mohamtd Ali, Pacha du Caire (1805 – 1807) Le Caire, 1926 .

(٢) ديوان المكس هو الجمارك .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٥٠ .

(٤) انظر ترجمته فى الجبرتى ج ٤ ، ص ٢٦٤ .

لما حضروا إلى رشيد ، وحصل لهم ما حصل من القتل والأسر ورجعوا خائبين حصل لباقيهم غيظ عظيم .. وهم شارعون فى الاستعداد للعود والمحاربة ، والقصد أن تسعفرنا وتمدونا بإرسال الرجال والمحاربين والجبخانة بسرعة وعجلة . وإلا فلا لوم علينا بعد ذلك ، وقد أخبرناكم وعرفناكم بذلك » وكان هذا الخطاب يحمل تاريخ ٣ أبريل .

فبادر المسئولون والمشايخ على الفور بإرسال « عدة من المقاتلين » فى ذات اليوم الذى وصلهم فيه خطاب على بك . ثم « كتبوا مكاتبات إلى البلاد والعربان الكائنين ببلاد البحيرة يدعونهم للمحاربة والمجاهدة .

خطاب حسن كريت نقيب الأشراف فى رشيد إلى عمر مكرم :

كانت توقعات حاكم رشيد على بك صائبة ، ففى اليوم الذى بعث فيه على باك وبرنابرته الخازندار خطابهما بتاريخ ٧ أبريل ، كان فريزر قد وجه حملة ثانية إلى رشيد وشرع الإنجليز فى حصارها . فأرسل السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد رسالة إلى عمر مكرم تسلمها يوم ٩ أبريل جاء فيها : « إن الإنكليز لما وقع لهم برشيد ورجعوا فى هزيمتهم إلى الإسكندرية ، استعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد قبلى رشيد ، ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر إلى الجبل عرضاً . وذلك ليلة الثلاثاء ثامن عشرينه (٢٨ محرم الموافق ٧ أبريل) ، فهذا ما حصل أخبرناكم به ، ونرجو الإسعاف والإمداد بالرجال والجبخانة والعدة والعدد ، وعدم التأنى والإهمال »(١) .

نائب محمد على يرفض سفر عمر مكرم مع المتطوعين :

ولما تلقى عمر مكرم خطاب نقيب الأشراف برشيد قرأه على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد ، فامتثلوا لأمره وتزودوا بالأسلحة . وجمع إليه

---

(١) المرجع السابق ذات الجزء والصفحة .

طائفة المغاربة وأتراك خان الخليلى ، وكثيراً من العلوية(١) والأسيوطية وأولاد البلد . وركب صباح هذا اليوم (١٠ أبريل) إلى كتخدا بك ، نائب محمد على فى أثناء غيابه فى الصعيد ، يستأذنه فى السفر مع المتطوعين إلى رشيد . فرفض « وقال حتى يأتى أفندينا الباشا ويرى رأيه فى ذلك » فظل عمر مكرم فى القاهرة « وسافر من سافر ، وبقى من بقى » . وهكذا حيل بين عمر مكرم والسفر فى الوقت الذى كان الموقف الحربى فى منطقة رشيد حرجاً بالنسبة للمصريين والعثمانيين على السواء ، إذ وردت فى اليوم التالى (١١ أبريل) رسالة من حاكم رشيد ، وأحمد أغا (بونابرته الخازندار) ، وطاهر باشا يذكرون فيها أن « الإنكليز ملكوا أيضاً كوم الأفراح وأبو منضور » .. وأن الثلاثة يستعجلون إرسال نجدة عسكرية مزودة بأسلحتها وذخائرها .

ذلك هو مدى نشاط أو تدخل عمر مكرم وعلماء الأزهر فى أزمة العدوان البريطانى على مصر منذ هزيمة البريطانيين فى معركة رشيد فى ٣١ مارس حتى ١١ أبريل ، وهو اليوم الذى وصل فيه محمد على إلى القاهرة قادماً من الوجه القبلى . وعندئذ اتخذ نشاطهم أو تدخلهم اتجاهاً آخر . وعلى الرغم من قصر هذه الفترة كان نشاطهم حافلا بشتى الإنجازات الوطنية مثل تولى قيادة المقاومة الشعبية ، وتعطيل الدراسة فى الأزهر ليتفرغ المشايخ المدرسون ، والمجاورون للإسهام فى الدفاع عن البلاد ، وعقد الاجتماعات ، والشروع فى حفر الخندق وما إلى ذلك مما ذكرناه من قبل .

محمد على يصدم عمر مكرم وكبار المشايخ برأيه فى الموقف:

ذهب عمر مكرم وكبار علماء الأزهر ورجال الحكومة إلى قصر محمد على فى الأزبكية للسلام عليه . وكان موضوع العدوان البريطانى أهم الموضوعات التى تناولوها فى حديثهم معه . وأبدى المجتمعون رغبتهم فى الخروج إلى رشيد

---

(١) العلوية : أى سكان بنى علي من أعمال أسيوط ، وكانت أسيوط مسقط رأس عمر مكرم الذى اعتمد على الرابطة الإقليمية فى ضمهم إلى صفوف المتطوعين .

« للجهاد مع الرعية والعسكر » ، ولكنه استهجن هذه الرغبة ، وقال : « ليس على رعية البلد خروج ، وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر » وكانت هذه الإجابة رهيبة ومفزعة لعمر مكرم وكبار العلماء ، وإعلاناً صريحاً منه بأنه لا يريد من الشعب أو زعمائه تدخلا فى شئون الحكم أو قياماً بواجب الدفاع عن البلاد ، وأن على أفراد الشعب — أو الرعية بتعبيره وهو تعبير يدل على الاستعلاء — أن يدفعوا ما يطلب منهم من أموال إلى خزانة الحكومة التى تقوم هى بالدفاع عن البلاد(١) . وكانت هذه الإجابة هى نهاية الحديث وانفض المجتمعون . وفى ذات تلك الليلة بعث محمد على يستدعى عمر مكرم « وألزمه بتحصيل ألف كيس » ، أى خمسة آلاف جنيه ، لتغطية نفقات الجند الذين يعتزم إرسالهم إلى رشيد لمقاتلة البريطانيين . وترك محمد على لعمر مكرم توزيع هذا المبلغ على الأهالى وتحصيله منهم . . ووافق عمر مكرم على القيام بهذه المهمة بشقيها .

رسالة أخرى من نقيب الأشراف برشيد الى عمر مكرم :

تصاعدت خطورة موقف المصريين والعثمانيين بعد قيام البريطانيين ، بهجومهم الثانى على رشيد التى حاصروها وضربوها بالمدافع منذ ٧ أبريل سنة ١٨٠٧ ، فبعث حسن كريت من رشيد فى ١١ أبريل رسالة موجهة إلى « عمر مكرم النقيب والمشايخ » تلقوها يوم ١٤ أبريل قال فيها « إن الإنكليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله ، ويضربون على البلد بالمدافع والقنابر . وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية ومات كثير من الناس . وقد أرسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الإعانة والنجدة فلم تسعفونا بإرسال شىء . وما عرفنا لأى شىء هذا الحال ، وما هذا الإهمال فالله الله فى الإسعاف . فقد ضاق الخناق ، وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر على المتاريس »(٢) .

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى، عمر مكرم ، مرجع سبق ذكره ص ١٩٢ ، ١٩٤

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٥١ .

وقد قام عمر مكرم بإبلاغ محمد على مضمون هذه الرسالة ، فأمر بإرسال أجناد كثيرين إلى رشيد . ولكنهم لم يتجاوزوا ضواحى القاهرة وعادوا إليها ، بل إن بعضهم لم يذهب إلى أبعد من بولاق وجزيرة بدران ، أما الذين أوغلوا فى مسيرتهم إلى الضواحى الأكثر بعداً مثل شبرا أو المطرية والأميرية والزاوية الحمراء ، فقد ارتكبوا ، قبل عودتهم إلى القاهرة ، الكثير من الآثام . أكلوا مزروعات الفلاحين وخطفوا مواشيهم واعتدوا على نسائهم . وعلق الجبرتى على سوء خلقهم تعليقاً لاذعاً ، إذ قال « وهكذا تفعل المجاهدون »(١) وكان الجنود الذين اقترفوا هذه الجرائم هم قوات محمد على التى جاءت من المنيا . واضطر محمد على إلى البقاء فى القاهرة خشية امتداد فضائحهم إليها . وكانوا يطالبون برواتبهم المتأخرة . واعتمد محمد على باشا على حملة أكثر نظاماً وتسليحاً . كان يقودها كتخدا بك (طابوز أوغلى) واشترك فيها حسن باشا ولما وصلت الحملة إلى منوف ، انقسمت إلى فريقين ، فعبر حسن باشا بفريق منها النيل وسار على شاطئه الأيسر ، بينما استمر كتخدا بك يسير على الشاطىء الأيمن . ووجهة الجيشين رشيد(٢) .

قنصل فرنسا يشيد بالروح العالية لدى علماء الأزهر :

كان دروفتى قنصل فرنسا العام حريصاً على مقابلة محمد على عقب عودة الأخير من الصعيد ، واستطالت المقابلة ساعتين . وأشاد القنصل ، فى تقرير بعث به إلى السفير الفرنسى فى إستانبول ، سبستيانى ، فى ١٤ أبريل بالإجراءات الحربية التى اتخذها محمد على سواء فى إرسال حملة كتخدا بك أو فى إنشاء خط التحصينات لحماية بولاق والطريق الممتد منها إلى القاهرة . وقال القنصل فى تقريره إن علماء الأزهر يبدون روحاً عالية ويحذو الأهالى حذو مشايخهم

---

(١) المرجع السابق ، ذات الجزء ، ص ٥٢ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن .. إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٥٦ .

وإن الباشا قد اتخذ كل ما يمكن من تدابير ليكذب إدعاء القائد الإنجليزى الذى قال إن فتح مصر لا يتطلب مشقة أكثر مما تطلبه فتح بيونس أيرس (١) « Buenos Ayres » فى الأرجنتين . واختتم تقريره بقوله إن محمد على يبدى عواطف طيبة نحو الإمبراطور نابليون الأول ونحو فرنسا(٢) .

والواقع أن هذا القنصل قد بذل فى تلك الأيام نشاطاً موفوراً فى تدبير تحصين القاهرة متعاوناً مع محمد على . وقد وصفه الجبرتى بقوله : « طلع الباشا إلى القلعة وصحبته قنصل الفرنساوية بهندس معه الأماكن ومواطن الحصار ، والقنصل المذكور يظهر الاهتمام والاجتهاد ويسهل الأمر ويبذل النصح . ويكثر من الركوب والذهاب والإياب . وأمامه الخدم وبأيديهم الحراب المفضضة ، وخلفه ترجمانه وأتباعه »(٢) . وبفضل الجهود المشتركة بين محمد على والقنصل وجماهير الشعب التى استنفرها عمر مكرم وعلماء الأزهر ، أصلحت الأسوار وأعيد ترميم خط التحصينات أو الخندق الذى كان الفرنسيون قد أقاموه أيام حملتهم ، وأنشئت المتاريس على طول الخط من قلعة كامان « Camin » (باب الحديد) حتى بولاق ، ثم أقيم متراسان كبيران نصبت بجوارهما مدافع الحصار لحماية الأماكن المكشوفة(٣) .

محمد على يطلب من عمر مكرم وعلماء الأزهر التوسط لدى المماليك :

وفى ذلك الوقت طلب محمد على من عمر مكرم وعلماء الأزهر التوسط لدى الأمراء المماليك يستحثونهم على الإسراع بالحضور إلى الجيزة لإبرام الصلح النهائى . واستجاب الزعماء لرغبته وكتبوا إلى الأمراء المماليك ..

---

(١) كانت بريطانيا قد أرسلت حملة إلى أمريكا الجنوبية استولت على بيونس أيرس فى يونيو سنة ١٨٠٦ ، ولكن لم تلبث أن فقدتها فى فبراير من العام التالى .

(٢) الوثيقة رقم ١٤٤ ، صص ١٦٨ — ١٦٩ فى الوثائق الفرنسية :
Douin, G.; Mohamed Aly, Pacha du Caire, 1805 – 1807), op. cit.

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥٧ .

فأرسل الأخيرون رداً وصل القاهرة فى ٢٠ أبريل عمدوا فيه إلى المماطلة والتسويف . وكان يدفعهم إلى ذلك رغبتهم فى عدم التورط مع محمد على فى إبرام صلح نهائى قد يفوت عليهم الانضمام إلى الحملة البريطانية إذا قدر لها النجــاح .

كان تطور القتال فى معركة الحماد نهاية الحملة البريطانية على مصر :

أراد الإنجليز الانتقام لهزيمة القوة البريطانية فى رشيد ، وعزموا على استرداد سمعتهم التى طاحت بها هذه الهزيمة ، كما رغبوا فى تبديد الفكرة التى تكون قد استقرت فى أذهان الأمراء المماليك عن إخفاق الحملة فى تحقيق أهدافها مما يجعل الأخيرين ينصرفون عن الانضمام إلى قوات الحملة فى مجهود حربى مشترك لطرد الأرناؤود ومحمد على من مصر وتأسيس حكومة مملوكية فيها تحت نفوذ بريطانيا . وتلاقت رغبة قائد الحملة والقنصل البريطانى العام فى إعادة المحاولة لاحتلال رشيد . وأعد فريزر قوة أخرى مزودة بالمدافع والأسلحة والذخائر ، وتحركت من الإسكندرية فى ٣ أبريل سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال وليم ستيوارت « W. Stewart » . وفى طريقها إلى رشيد احتلت القوة قرية الحماد التى تقع جنوبى رشيد بين النيل وبحيرة إدكو . وكان الهدف من احتلال هذه القرية تطويق رشيد ومنع وصول تعزيزات إليها من الجنوب . وصادفت هذه القوة نجاحاً ملموساً فى مراحلها الأولى ، فاحتلت مرتفعات « أبو منضور » وأقامت عليها مدافع لضرب رشيد بالقنابل مما أدى إلى هدم البيوت وقتل كثيرين من السكان وأفراد حامية المدينة . وظن الجنرال « ستيوارت » أن التخريب والتقتيل سيلقيان الرعب فى قلوب السكان وأفراد الحامية العثمانية ويضطرهم إلى التسليم . وأرسل قائد القوة البريطانية أكثر من مرة عدة إنذارات إلى على بك السلانكلى (الحاكم المدنى والعسكرى) لرشيد وإلى سكانها يطالب منهم التسليم ، ولكنهم رفضوا ، وكانوا يخرجون من وقت إلى آخر لمناوشة البريطانيين واستمر الحصار والضرب بالمدفعية نحو اثنى عشر يوماً دون أن يجرؤ القائد البريطانى على اقتحامها ، لأنه لم تكن لديه قوة كافية

من الفرسان وكان سلاح الفرسان كما اعترف (١) ذا أهمية قصوى فى المعارك التى تدور فوق جبهات منبسطة كالدلتا . وآثر الانتظار حتى يصل إلى رشيد المماليك بفرسانهم ولكى يشتركوا معه فى اقتحام المدينة . فكانت خطة البريطانيين فى هجومهم الثانى على رشيد تقوم على الحذر الشديد بدلا من خطة الحماقة والاندفاع التى اتبعوها فى هجومهم الأول على رشيد ..

ولكن كان الأمراء المماليك على موقفهم يراقبون تطور الأحداث . وبدلا من أن يصل رشيد فرسان المماليك جاءتها الحملة التى كان محمد على قد أرسلها بقيادة كتخدا بك ، طابوز أوغلى ، واشترك فيها حسن باشا كما ذكرنا من قبل .. وكان سلاح الفرسان يمثل القوة الرئيسية فيها إذ كانت تضم ١,٥٠٠ من الفرسان و ٥٠٠ من المشاة . وبوصولها تغير الموقف الحربى تغيراً جوهرياً لصالح المصريين والحامية العثمانية . إذ لما وصلت الحملة عبر طابوز أوغلى بجنوده النيل ليلا على قوارب إلى الشاطىء الأيسر عند إدفينا . . وتصادف أن بلغت رشيد فى ذلك الوقت نجدات من المتطوعين المصريين خرجوا من دمنهور والجهات المجاورة ، كما جاءت إلى المدينة فى ذات الوقت المؤن على الرغم من الحصار المفروض عليها . وقد وجدت قوات المتطوعين والمؤن طريقها إلى رشيد من ناحية الشاطىء الأيمن للنيل . وبهذه الحشود تهيأت الظروف لوقوع اشتباكات بين الطرفين المتقاتلين . ورأى البريطانيون ضرورة الإسراع بها خوفاً من وصول قوات جديدة من المتطوعين ومن جنود محمد على وكفاهم تأخراً فى الهجوم ومضيعة للوقت أخذاً بخطة الحذر التى انتهجوها

---

(١) لمزيد من المعلومات الوافية جداً عن تطور القتال فى معركة الحماد ، انظر الوثائق الإنجليزية فى مجلد حملة سنة ١٨٠٧ والتى نشرها دوان « Douin » :

وثائق رقم : ٥٢ (ص ٦٤ — ٦٥) ، ورقم ٥٥ (ص ٦٨ — ٧٣) ، ورقم ٥٦ (ص ٧٣ — ٧٤) ، ورقم ٥٧ (ص ٧٤ — ٧٦) ، ورقم ٥٨ (ص ٧٦ — ٧٨) ، ورقم ٥٩ (٧٩ — ٨٢) ، ورقم ٦٠ (ص ٨٣ — ٨٤) ، ورقم ٦١ (ص ٨٤ — ٨٩) .

وقد كتب هذه التقارير القادة والضباط الذين اشتركوا فى المعركة .

فى بداية القتال ، وكانت السبب الرئيسى فى هزيمتهم خلال المرحلة الأخيرة للمعركة كما سنرى . ووقع صدام فى ٢٥ أبريل ثم فى اليوم التالى فى أكثر من موطن ، ولقى البريطانيون الهزيمة فى كل مرة . أحاط المصريون وجنود محمد على بقوة القلب وانهال عليها الرصاص من كل صوب فقتل معظم رجالها وكان من بين القتلى الكولونيل ماك ليود « Mac Lecd » قائد القـوة البريطانية التى تحتل القرية ، وأحاطوا أيضاً بالميمنة وقتلوا قائدها ومعظم جنوده ولم ينج من القتل سوى خمسين فرداً وقعوا فى الأسر . أما الميسرة فقد رأى قائدها التسليم هو والبقية الباقية من رجاله . وانتهت المعركة فى ذات اليوم بهزيمة القوة البريطانية فى الحماد واسترداد هذه القرية ولم ينج من معركة الحماد أحد ، فمن لم يدركه القتل وقع فى الأسر . وبلغت خسائر البريطانيين ٤١٦ قتيلا و ٤٠٠ أسيراً . أما الجنرال ستيوارت قائد القوة فقد كان مرابطاً أثناء هذه الاشتباكات جنوبى رشيد . فلما أدرك هول الهزيمة التى منيت بها قواته فى الحماد سارع إلى رفع الحصار عن رشيد وبادر إلى الانسحاب قبل أن تتجه إليه القوات المعادية . وتراجع إلى طريق أبى قير . وعلى الرغم من كتمانه تدابير الانسحاب تعقبه أهالى رشيد والبلاد المجاورة فى انسحابه إلى أن وصل إلى بحيرة إدكو حيث وقعت مناوشات على شاطىء البحيرة ، ثم واصل ستيوارت ارتداده حتى بلغ مع أفراد قوته « أبو قير » ومن هناك انتقلوا السفن إلى الإسكندرية .

وهكذا أنهت هزيمة القوة البريطانية فى معركة الحماد مرحلة دقيقة من مراحل النضال ضد الحملة . وخرج منها محمد على مظفراً ليس فى الميدان العسكرى فحسب ، بل وفى الميدان السياسى الداخلى أيضاً بعد أن نجح عمر مكرم وعلماء الأزهر فى إلهاب المشاعر الدينية لدى سكان القاهرة للتطوع لمحاربة البريطانيين وخروجهم إلى رشيد وإقبالهم بكل همة ونشاط تحت إشراف زعمائهم على تحصين القاهرة ، وحصول محمد على بفضل تآزر هؤلاء الزعماء على حاجته من المال لتدبير شئون الدفاع ودفع جزء لا يستهان به من المرتبات المتأخرة للجنود .

الدور البطولى للجماهير والترابط الإسلامى فى معركة الحماد :

والأمر الجدير بالتسجيل هو أن جنود الحملة الأرنؤود والدلاة الذين أرسلهم محمد على لم يكونوا وحدهم الذين واجهوا القوة البريطانية فى معركة الحماد ، إذ كانت هذه المعركة تضم ، كما قرر الجبرتى « الجم الكثير من أهالى بلاد البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور . وصادف وصول كتخدا باك واسمعيل (كذا) الطوبجى (١) إلى تلك الناحية فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة . وأسروا من الإنكليز طائفة ، وقطعوا منهم عدة رؤس »(٢) . وتكلم الجبرتى فى موطن آخر وهو يصف ارتفاع الروح المعنوية لدى الجنود وجماهير الشعب فى الفترة بين هزيمة البريطانيين فى معركة رشيد الأولى وقبيل معركة الحماد وفى أثناء المعركة الأخيرة فقال : « وتراجعت نفوس العساكر وطمعوا عند ذلك فى الإنكليز وتجاسروا عليهم ، وكذلك أهل البلاد قويت هممهم وتأهبوا للبروز والمحاربة ، فاشتروا الأسلحة ، ونادوا على بعضهم بالجهاد . وكثر المتطوعون ، ونصبوا لهم بيارق وأعلاماً ، وجمعوا من بعضهم دراهم ، وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء . وخرجوا فى مواكب وطبول وزمور . فلما وصلوا إلى متاريس الإنكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم ، وصدقوا فى الحملة عليهم ، وألقوا أنفسهم فى النيران ، ولم يبالوا برميهم ، وهجموا عليهم ، واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم ، فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الأمان ، فلم يلتفتوا لذلك ، وقبضوا عليهم ، وذبحوا الكثير منهم ، وحضروا بالأسرى والرؤس على الصورة المذكورة . وفر الباقون إلى من بقى بالإسكندرية » .

ولا ريب فى أن هذه الروح العالية لدى المتطوعين كان مردها إلى ما بثه

---

(١) الطوبجى ، هو أحد العسكريين فى سلاح المدفعية .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

عمر مكرم فى نفوسهم قبل خروجهم من القاهرة ، وقبيل عودة محمد على إليها من الصعيد ، فقد أوضح عمر مكرم لهم ، كما سبق أن ذكرنا ، أن هذه الحرب هى حرب دينية إسلامية « ضد أعداء الدين والملة ، وقد صاروا (أى الإنجليز) أيضاً أخصاماً للسلطان ، فيجب على المسلمين دفعهم .. » .

عدم اعتراف السلطان بدور علماء الأزهر وعمر مكرم فى رد العدوان البريطانى :

اختتم الجبرتى وصفه إسهام الشعب المصرى فى معركة الحماد بعبارة تفيض بالحسرة على إنكار فضل الشعب فى هزيمة البريطانيين فى معركة الحماد ، فقال : « وليت العامة شُكروا على ذلك ، أو نُسب إليهم فعل ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره ، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك »(١)

وكان السبب فى تألم الجبرتى أن السلطان أوفد مبعوثاً من طرفه يسمى نجيب أفندى وقَدّم لمحمد على هدية من السلطان ، وكانت عبارة عن « قفطان وسيف وشلنج(٢) ، وخلع لكبار العسكر مثل حسن باشا ، وطاهر باشا ، وعابدين بك ، وعمر بك — وهو عمر بك الألبانى ، وغير عمر مكرم — وصالح قوج »(٣) تقديراً لجهودهم فى دفع العدوان البريطانى عن مصر . ولم يكن لعمر مكرم وعلماء الأزهر نصيب من هذه الهدايا ، أما الجنود الذين أبلوا بسالة فى النضال ضد البريطانيين فقد كوفئوا بنياشين فضية عاقوها على عمائمهم(٤) .

وكان من جملة المتطوعين فى معركة الحماد تاجران من أهل مكة يقيمان فى القاهرة ، كان أحدهما يسمى أحمد النجارى ، وكان الآخر وهو أخوه يسمى سلامة . ويبدو أنهما كانا من الأشراف ، لأن الجبرتى ذكر اسميهما

(١) المصدر السابق ، ذات الجزء ، ص ٥٥ .
(٢) الشلنج : غطاء يوضع على الرأس مرصع بالجواهر .
(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٦٥ .
(٤) دكتور فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع .. إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ص ٨٦٠ .

مسبوقين بكلمة السيد ، استقدما معهما إلى ميدان القتال فى الحماد مائة من البدو المغاربة وغيرهم ، وكان هذان التاجران ينفقان على المصريين الذين اشتركوا فى المعركة ، ويقاتلان بنفسيهما ، وبذلا جهوداً فى ذلك . وبعد هزيمة البريطانيين وارتدادهم إلى الإسكندرية ، وزع التاجران ما غنماه من أنفال ، وما بقى معهما من أشياء على من خرج يتعقب فلول القوة البريطانية . ولما علم محمد على بأمرهما استدعاهما إليه وشكرهما ، وخلع عليهما ، وقرر لهما مرتباً ووعد بتعيينهما فى منصبين حكوميين . وفى ذات اليوم تناولا طعام العشاء مع عمر مكرم فى داره مما يؤكد أنهما من أشراف مكة المكرمة(١) .

مواكب الأسرى البريطانيين ورءوس قتلاهم فى القاهرة :

كان على بك السلانكلى حاكم رشيد يبعث تباعاً الأسرى والجرحى البريطانيين ورءوس قتلاهم إلى القاهرة . وصل بعضهم فى السفن إلى ساحل بولاق بعد رحلة استغرقت بستة أيام ، وكان هذا الفريق يضم بعض الجرحى . ولم يكن يصحبهم أطباء أو جراحون ، فساءت حالتهم ، وأشرفوا على الموت ومات فعلا عدد منهم . وسافر بقية الأسرى سيراً على الأقدام مسافة تراوحت بين ١٣٠ ميلا و ١٤٠ ميلا . وقدمت للجرحى منهم الحمير لركوبها . ولكن الأسرى الأصحاء كانوا معتادين المشى مسافات طويلة . وأحسن العثمانيون معاملتهم فى أثناء الرحلة ، فكانوا يقدمون لهم الماء والخبز والنقود التى تراوحت بين خمس بارات وخمس عشرة بارة يومياً(٢) .

وقد اهتم الجبرتى بذكر تعاقب وصولهم إلى القاهرة ، فقال فى يوميات ١٥ صفر سنة ١٢٢٢ (٢٥ أبريل سنة ١٨٠٧) إن عددهم بلغ ١٩ أسيراً وثلاثين رأساً موضوعة على نبابيت رشقوها بوسط بركة الأزبكية مع الرءوس الأولى التى وصلت عقب هزيمتهم فى معركة رشيد (٣١ مارس) وهرع

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

(٢) وثائق الحملة البريطانية ، ص ٨٢ بعنوان « Extract dated 8th May 1807 »

الأهالى لمشاهدتها . ثم وصل فى ٢٧ أبريل تسعة أسرى . وفى اليوم التالى وصل نيف وستون ، فيهم رأس واحدة ، وبعد الظهر مروا بثلاثة وعشرين أسيراً وثمانية رءوس . وبعد العصر سار موكب ثالث يتكون من ثلاثة وعشرين رأساً وأربعة وأربعين أسيراً . وفى أول مارس « وصل إلى ساحل بولاق مراكب وفيها أسرى و قتلى وجرحى فطلعوا بهم إلى البر على طريق باب النصر ، وشقوا بهم من وسط المدينة إلى الأزبكية ، فرشقوا الرءوس بالأزبكية مع الرءوس الأولى وبلغ المجموع الكلى لأسرى معركتى رشيد والحماد أربعمائة وستة وستين أسيراً كان من بينهم عشرون ضابطاً . أما رءوس القتلى فقد قفز عددها إلى نيف وثلاثمائة وأربعين رأساً(١) :

واستغل محمد على استغلالا إعلامياً واسع النطاق فى القاهرة وإستانبول وصول أفواج الأسرى ورءوس القتلى .. فكانت المدافع تُطلق من قلاع القاهرة فى كل مرة تصل فيها هذه الأفواج ابتهاجاً بالنصر المبين فى معركة الحماد . وتمر مواكبهم فى الشوارع الرئيسية ،وتترك رءوس القتلى معلقة فى صفين فى بركة الأزبكية . ثم أمر رجاله فدفنوا فى ١٧ صفر سنة ١٢٢٢ هذه الرءوس بعد أن قطعوا أذانها « ودمغوها وملحوها » ووضعوها فى صندوق أرسلوه فى ٢٦ صفر على طريق بلاد الشام إلى إستانبول مع مندوب خاص سافر بصحبته إثنان من الضباط الإنجليز ، وكتبوا « عرضاً بصورة الحال من إنشاء السيد اسماعيل الخشاب وبالغوا فيه »(٢) :

وقد أقلق الحكومة البريطانية موضوع الأسرى . وأرسل فريزر خطاباً فى ٧ أبريل إلى محمد على يستفسر فيه عن عددهم « والوصية بهم وإكرامهم » ورد عليه الأخير فى ٩ أبريل مؤكداً له أنهم موضع رعايته التامة .. وكان هذا الرد أحد العوامل التى ساعدت على خلق جو من التفاهم مهد للمفاوضات

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، ذات الجزء ، ص ٥٦ . وانظر ترجمة الخشاب فى ذات الجزء ، ص ص ٢٣٨ - ٢٤١ وقد توفى ٥ نوفمبر ١٨١٥ .

بن محمد على والإنجليز من أجل جلاء الحملة عن مصر(١) . وقام دروفتى قنصل فرنسا العام بجهود طبية لتوفير أسباب الرعاية الطبية والنفسية للأسرى ، فكان يصعد إلى القلعة ومعه الأطباء « لمعالجة الجرحى ، ومهد لهم أماكن ، وميز الكبار منهم والفسيالات(٢) فى مكان يليق بهم ، وفرش لهم فرشات ، ورتب لهم تراتيب ، وصرف عليهم نفقات ولوازم .. واستمر يتعاهدهم فى غالب الأيام ، والجرائحية(٣) يترددون إليهم فى كل يوم لمداواتهم كما هى عادة الإفرنج مع بعضهم ... »(٤) . وقد دفع هذا المسلك الإنسانى قائد الحملة فريزر إلى إرسال خطاب فى ٧ مايو من الإسكندرية إلى قنصل فرنسا العام يشكره فيه شكراً عميقاً . وقال إن هذا الشكر ليس موجهاً إليه باسم الجيش البريطانى فقط ، وإنما باسم الشعب البريطانى أيضاً(٥) .

أهالى رشيد يرجون عمر مكرم التدخل لوقف جرائم الجنود العثمانيين :

وفى أعقاب معركة الحماد انتشر الجنود الأرنؤود والدلاة فى هذه البلدة واستباحوا أموالها ونساءها وماشيتها زاعمين أن هذه البلدة أصبحت دار حرب بنزول البريطانيين فيها ، ثم انتقلوا إلى رشيد وفرضوا على سكانها الإتاوات وصادروا محصول الأرز .. فخرج إليهم السيد حسن كريت نقيب الأشراف بها ومعه صدور المدينة وتحدث مع رؤساء الجنود وقال لهم : « أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العساكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم ، وما قاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال ، وتجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل ؟ فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ، ولا نأخذ معنا شيئاً

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن .. إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٧٣٣ .

(٢) انظر ما سبق .

(٣) الجرائحية ، هم الجراحون .

(٤) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

(٥) الوثيقتان رقم ٦٨ ، ٧٣ من الوثائق الإنجليزية فى مجلد الحملة البريطانية على مصر .

ونترك لكم البلدة ، افعلوا بها ما شئتم »(١) .. هكذا هان على أهل رشيد أن يهاجروا من مدينتهم تجنباً لمظالم جنود محمد على ، وهم الذين لم يتركوها فراراً من مدافع البريطانيين وقنابلهم .. وكتبوا إلى عمر مكرم يلتمسون منه السعى لوقف عمليات النهب والسلب . وتدخل الأخير ، فأصدر محمد على أمراً إلى الجنود بإيقاف اعتداءاتهم على الأهالى .. ولم يأبهوا بهذا الأمر ومضوا فى غيهم سادرين . واضطرت جموع كثيرة من أهل رشيد إلى الهجرة منها بنسائهم وأولادهم إلى القاهرة وبلغوها فى ٧ من مايو(٢) .

المماليك يطلبون وفداً من علماء الأزهر وعمر مكرم لإجراء الصلح :

وعقب معركة الحماد أيضاً عبر محمد على النيل من بولاق وأقام معسكره فى إمبابه ، وأعلن اعتزامه الزحف على الإسكندرية لاستخلاصها من البريطانيين ولكنه أبطأ فى تحركه من إمبابة ، إذ أراد تسوية نزاعه مع الأمراء المماليك باستمالتهم لاتخاذ موقف الحيدة فى أثناء صراعه المرتقب مع البريطانيين ، لأنه كان يخشى أن يقوموا بهجوم على القاهرة فى أثناء غيابه عنها . وكانوا قد وصلوا من أسيوط والمنيا حتى بلغوا جنوبى بنى سويف بأربعة فراسخ . وطلب محمد على من قنصل فرنسا العام ، دورفتى ، التدخل رسمياً لدى الأمراء المماليك ، وانتدب الأخير أحد الدبلوماسيين الفرنسيين وهو مانجان « Mengin » لهذه المهمة بعد أن استأذن من السفير الفرنسى فى إستانبول فى إتخاذ هذه الخطوة(١) . ولكن تعثرت مباحثاته مع الأمراء المماليك وأبدوا

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٥٥ – ٥٦ .

(٢) المصدر السابق ، ذات الجزء ص ٥٧ .

(٣) ن مطالبه محمد على القنصل الفرنسى بالتدخل لدى الأمراء المماليك ثم تدخل مانجان، انظر الوثائق الفرنسية : رقم ١٥٢ (ص ١٨٥) ، ورقم ١٥٣ (ص ص ١٨٥ – ١٨٧) ، ورقم ١٥٥ (ص ص ١٨٧ – ١٨٩) ، ورقم ١٥٦ ، (ص ص ١٨٩ – ١٩٠) فى

Douin, G.; Mohamed Aly, Pacha du Caire, (1805 – 1807) op. cit.

رغبتهم فى أن يوفد محمد على إليهم وفداً يتكون من الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير وعمر مكرم « لإجراء الصلح على أيديهم » . وقد حمل رسالتهم هذه غالب أغا إلى القاهرة . واستجاب محمد على لرغبتهم من حيث المبدأ ، لأنه بدلا من أن يوفد هؤلاء الثلاثة استبدل بهم ثلاثة آخرين ، هم المشايخ سليمان الفيومى ، وإبراهيم السجينى ، ومحمد الدواخلى « لإجراء الصلح على أيديهم »(١) وزودهم بسلطات كاملة لعقد الصلح معهم ، وغادروا القاهرة فى ٢ يوليو فى طريقهم إلى الصعيد . ولكن لم تسفر مساعى هؤلاء العلماء لدى البكوات المماليك عن نتيجة إيجابية لتمسكهم بشروط كثيرة تعذر معها الوصول إلى الاتفاق المنشود من ناحية ، ولانقسامهم بعضهم على بعض وتحاسدهم وتنافرهم من ناحية ثانية ، ولكراهيتهم العميقة لمحمد على من ناحية ثالثة ، وتذبذبهم فى موقفهم تجاه الحملة البريطانية من ناحية رابعة .

ويهمنا فى هذا الموطن من الدراسة أن نذكر أن مطالبة الأمراء المماليك بأن يقوم علماء الأزهر وعمر مكرم بإجراء الصلح مع محمد على لم تكن ظاهرة جديدة على اشتراكهم فى الحياة السياسية المصرية ، لأنهم درجوا على الاعتراف بهذا الدور القيادى لهم فى أثناء حكومتهم فى أواخر القرن الثامن عشر وعهد الحملة الفرنسية وعصر الانقلابات السياسية . وجاءت استعانة البكوات المماليك بهم إبان الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ تأكيداً لاستمرار المشايخ فى دورهم التقليدى القيادى .

طوائف الحرف فى القاهرة تطلب إلى عمر مكرم التدخل لوقف المظالم :

لما اعتزم محمد على التحرك بقواته من إمبابة نحو الإسكندرية فرض على التجار ألفى كيس أى عشرة آلاف جنيه على سبيل القرض . ووزعت قيمة هذا القرض على الأعيان وتجار البن وأهل وكالة الصابون ووكالة التفاح

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٦١ .

ووكالة القيرتب وغيرها . كما أمر بتزويد الحملة بمطالبها من دواب الحمل وقرب الماء والمواد التموينية وما إلى ذلك . وقد أعطى الجبرتى صوراً أليمة للوسائل التعسفية التى لجأ إليها محمد على فى تحصيل القروض والمغارم والفرض وحق الطريق وغير ذلك من ضرائب طارئةوكذلك اقتحام الجنود الأرناؤود والدلاة للبيوت وانتهاك حرماتها وإخراج سكانها ، فإذا اشتكى الأخيرون لمحمد على والكتخدا كانت إجاباتهما على غرار واحد ، إذ كانا يقولان إن هؤلاء الجنود « أناس قاتلوا وجاهدوا أشهراً وأياماً ، وقاسوا ما قاسوا فى الحر والبرد والطل حتى طردوا عنكم الكفار وأجلوهم عن بلادكم ، أفلا تسعونهم فى السكنى ؟ ونحو ذلك من القول »(١) .

وشرح الجبرتى معاناة الجماهير خلال الأيام القليلة التى سبقت تحرك محمد على بحملته نحو الإسكندرية ، وفرضه ضرائب عينية تمثلت فى الاستيلاء على الغلال والسمن والشعير والفول . وكان مما سطره قلمه فى هذا الصدد قوله إن الجنود « طفقوا يأخذون ما يجدونه من البغال والحمير والجمال . واستمروا على الدخول والخروج ، والذهاب والمجىء والرجوع والتعدية أياماً وهم على ذلك النسق من خطف البهائم . وامتنعت السقاءون عن نقل الماء من البحر (أى النيل) حتى شح الماء وغلا سعره ، وعطش الناس ، وامتنع حمل البضائع ... وطلبوا أيضاً خيول الطواحين لجر المدافع والعربات حتى تعطلت الطواحين عن طحن الدقيق .. وطلبوا أيضاً دراهم من طوائف القبانية والحطابة(٢) وباعة السمك القديد المعروف بالفسيخ . فكان القدر المطلوب من طائفة القبانية مائة وخمسين كيساً ، فأغلقوا حوانيتهم وهربوا ، والتجئوا إلى الجامع الأزهر ، وكذلك الحطابة وغيرهم ، منهم من هرب ، ومنهم من التجأ إلى السيد عمر مكرم . واستمر كذلك ثلاثة أيام ، وركب

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٦٨ .

(٢) طائفة الحطابة ، كان يعمل أفرادها فى قطع الحطب وفى جمعه . ويطلق على أفرادها

السيد عمر ، وعلى إلى الباشا ، وتشفع فى الطوائف المذكورة ، فرفعوا عنهم غرامتهم ، وكتبوا لهم أماناً بذلك»(١).

جلاء الحملة البريطانية عن مصر :

قررت بريطانيا الجلاء عن مصر لأسباب كانت أكثر ارتباطاً بالموقف الدولى فى أوروبا منها بالموقف العسكرى فى مصر . وليست هذه الدراسة مجالا لعرضها . ودارت محادثات طويلة ومتقطعة كان من بين مراحلها قدوم وفد بريطانى برياسة ريفارولا « Rivarola » (٢) فى ١٠ من أغسطس إلى محمد على وهو لا يزال فى معسكره فى إمبابه . وارتاح محمد على لهذه الخطوة ، إذ كان أكثر ميلا إلى جلاء الحملة البريطانية سلمياً بدلا من خوض معركة مع بريطانيا كان لا يعلم نتيجتها . وأكرم وفادة الوفد وأمر بإطلاق إحدى عشرة طلقة من مدفعية الحملة ، كما أنزل الوفد فى « خيمة بمخيمه بإنبابه » . وبكل أسف اكتشف رئيس الوفد وأعضاوءه عند استيقاظهم من النوم أن بعض اللصوص قد تسللوا إلى خيمتهم و سرقوا ملابسهم وأمتعتهم. فأرسل محمد على بعض أتباعه إلى القاهرة حيث اشتروا « من حارة الفرنساوية» ثياباً وأمتعة جديدة بدلا من المسروقات . وقد ذكر الجبرتى حادث هذه السرقة فى حوادث ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٢ الموافق ١٠ من أغسطس سنة ١٨٠٧ (٣) . ومن المحتمل أن اللصوص كانوا من الجنود الدلاة لأنهم كانوا أكثر عراقة فى الإجرام من الجنود الأرناؤود. وكانت خيمة أعضاء الوفد تقع فى مخيم محمد على ، وفى منطقة عسكرية لا يرتادها إلا العسكريون .

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٦٣ .

(٢) كان هذا الضابط من مواليد جزيرة كورسيكا ، والتحق بخدمة الإنجليز فى صقلية ، وأثبت أنه مفاوض سياسى قدير بجانب صفاته العسكرية العالية .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٦٢ — ٦٣ .

ودارت المباحثات على أساس جلاء بريطانيا عن مصر وتسليم الإسكندرية لمحمد على فى مقابل إطلاق سراح الأسرى البريطانيين الذين فى حوزته ، وشروط أخرى . وعاد الوفد إلى الإسكندرية يحمل مشروع الاتفاق لعرضه على فريزر . وأكد لمحمد على أنه سوف يعود لمقابلته بمجرد اقترابه من الإسكندرية . وارتحل محمد على فى ٢١ أغسطس إلى دمنهور . وبذل قنصل بريطانيا العام ، ميست ، قصارى جهده لإحباط المباحثات وإثناء الحكومة البريطانية عن قرارها بالجلاء . وكان هذا القنصل أكبر داعية لاحتلال مصر كلها ، وأكبر خصم لمحمد على وجنوده الألبانيين ، وأكبر نصير للأمراء المماليك .

وفى الإسكندرية وضع مشروع الاتفاق وحمله ريفارولا إلى محمد على فى دمنهور . وقبل الباشا الأساس الذى قام عليه الاتفاق ، ولكنه أثار بعض نقاط جاءت فيه ، مما تطلب استدعاء اثنين من كبار الضباط من الإسكندرية وظل معهما ريفارولا ، وبحث ثلاثتهم مع محمد على نقاط الخلاف . وتم التوقيع على الاتفاق النهائى فى معسكر محمد على بالقرب من دمنهور فى ١٤ سبتمبر . واشترك فى التوقيع محمد على والفريق شربروك Major - General J.C. Sherbrooke ممثلا للجيش البريطانى ، والكابتن فيلوز « G. Fellowes » ممثلا للأسطول البريطانى الراسى فى مياه الإسكندرية . واشتمل الاتفاق الذى أطلق عليه معاهدة ، على خمس مواد ، نذكر منها أربعاً :

المادة الأولى : توقف فوراً الأعمال العدائية من جانب الطرفين المتحاربين وأن يخلى القادة البريطانيون الإسكندرية فى خلال عشرة أيام من تاريخ التوقيع على المعاهدة ، مع ترك جميع القلاع والمتاريس والمدافع والمهمات وما إلى ذلك بالحالة التى هى عليها الآن ، ويسلم محمد على إلى القادة البريطانيين مصطفى بك صهر الباشا ، واسحاق بك عم الباشا ، وسليمان أفندى المهردار أى حامل أختام الباشا ، لينقلوا إلى سفينة حربية بريطانية يبقون بها كرهائن إلى أن يتم نهائياً تنفيذ المعاهدة .

المادة الثانية : يطلق فوراً سراح جميع الأسرى البريطانيين في مصر بما فيهم أولئك الذين قد يكونون رقيقاً في أيدى الأفراد(١) ، ويرسلون بطريق النيل إلى بوغاز رشيد حيث يستقلون سفينة بريطانية .

المادة الثالثة : يصدر عفو عام عن سكان الإسكندرية وغيرهم من أهل البلاد ، دون نظر إلى الماضي فيما يتعلق بمسلكهم السابق في أى شيء منه ، ويؤمّنون على أرواحهم وأموالهم ، حيث أن الظروف وحدها هي التي اضطرّتهم إلى اتخاذ الطريق الذي سلكوه .

المادة الرابعة : خاصة بأمين بك الألفي .

المادة الخامسة والأخيرة : على الرغم من أن محمد على قد قطع على نفسه عهداً التزم بتنفيذه من حيث تسليم كل أسرى الحرب البريطانيين ، وكذلك أولئك الذين صاروا رقيقاً في هذه البلاد فوراً . . ولكن نظراً لأن كثيرين من هؤلاء الأخيرين مبعثرون ، ومن المحتمل أن بعضهم موجودون في أماكن بعيدة بعداً كبيراً ، فقد تقرر بقاء وكيل بريطاني في الإسكندرية بعد إخلائها ليتسلمهم كلما صار العثور عليهم وإحضارهم . ولهذا الوكيل أن ينال من محمد على كل حماية ومساعدة في الحصول على الرقيق . ويسمح له بأن يرسل كل من يوجد منهم إلى أى سفينة حربية بريطانية في هذا الميناء ، أو يرسلهم بأى وسيلة أخرى من وسائل النقل قد تتيسر له إما إلى صقلية وإما إلى مالطة(٢) .

ويلاحظ أنه لم يرد في هذه المعاهدة نص صريح على أن ينتقل حكم

(١) وردت هذه الفقرة في صلب المعاهدة لأنه حدث أن استولى البعض على أسرى بريطانيين من المرد الذين أبطأ نبات وجوههم أو لم تنبت لحاهم ، واتخذوهم رقيقاً .

(٢) انظر النص الكامل لهذه المعاهدة باللغة الإنجليزية في الوثائق الإنجليزية التي نشرها دوان « Douin » بالاشتراك مع السيدة فوتيير جونز « Fawtier — Jones » في مجلد حملة سنة ١٨٠٧ المشار إليه سابقاً ، وثيقة رقم ١٢٧ ، ص ص ١٦٤ — ١٦٥ .

الإسكندرية إلى محمد على ، لأنها كانت تابعة رأساً إلى الباب العالى ... ولم يكن لبريطانيا الحق فى تقرير الوضع القانونى لهذه المدينة ، وإنما كان ذلك الحق من اختصاص السلطان . ولكن وردت فى المادة الخامسة إشارة عابرة إلى أن محمد على هو صاحب الأمر والنهى فى المدينة بخصوص تقديم محمد على للوكيل البريطانى فيها كل مساعدة وحماية وهو يمارس اختصاصاته .

تنفيذ الجلاء البريطانى عن مصر :

كان محمد على والقادة الإنجليز مخلصين فى تنفيذ المعاهدة نصاً وروحاً ، بل إن محمد على ، اعتقاداً منه أن المباحثات التى جرت فى دمنهور ستتوج بإبرام المعاهدة ، أرسل إلى كتخدا بك طابوز أوغلى فى القاهرة يطلب منه الاستعداد لنقل الأسرى البريطانيين بطريق النيل إلى رشيد ، كسباً للوقت ولتحقيق جلاء البريطانيين عن الإسكندرية . وما وافى يوم ١٩ سبتمبر حتى كانت آخر ناقلة جنود تشق طريقها من خليج أبى قير قاصدة مسينا فى صقلية بعد احتلال دام ستة أشهر .

وكان محمد على لرغبته فى امتلاك الإسكندرية دون إبطاء قد عين كتخدا بك حاكماً لها .. وأمضى الأخير بضعة أيام ببركة غطاس مع طليعة جيش محمد على المعد لاحتلال المدينة ، ثم احتل القطع(١) –بين مريوط والمعدية– يوم ١٧ سبتمبر . وفى ذات اليوم دخل الإسكندرية وأرسل خبر احتلاله إلى محمد على الذى غادر دمنهور فوراً على رأس ألفين من جنوده . وواصل السير طوال الليل حتى بلغ بحيرة المعدية ، ووجد عند القطع الضابط الإنجليزى هالويل « Hallowell » بصفته القائد البحرى بالإسكندرية جاء ينتظر فى قارب وصول محمد على لزيارته تحية له . وعسكر محمد على فى هذا المكان . وفى صبيحة اليوم التالى (٢٠ سبتمبر) دخل الباشا الإسكندرية على دوى

(١) يرد ذكر هذا المكان فى المراجع الفرنسية La Coupure وفى الإنجليزية The Cut.

المدافع التى أطلقت من قلاعها تحية له .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها الإسكندرية . وبادر القناصل والأعيان والمشايخ والعلماء وكبار التجار ورؤساء الجند بتقديم التحية ، ثم نزل الباشا يزور المدينة ويفحص قلاعها وتحصيناتها وأبوابها ومخازنها(١) . وفى أثناء وجوده ن الإسكندرية وصل إلى دمياط أحد ضباط الباب العالى بصفته مبعوثاً كبير المقام من لدن السلطان أى قابجى باشى ، يصحب إبراهيم بك ابن محمد على باشا ، وقد دلت إعادة إبراهيم إلى أبيه على رضاء السلطان عن الباشا وتقديره لجهوده. وقد بلغ إبراهيم القاهرة بصحبة الضابط يوم ٢٦ سبتمبر (٢) .

تقييم مراكز القوه فى مصر إبان الحملة البريطانية :

على هذا النحو طويت صفحة الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ ؛ وقد أكد علماء الأزهر وعمر مكرم ، على نحو ما ، زعامتهم الشعبية واستجاب المصريون لنداءاتهم وتوجيهاتهم . فعطلت الدراسة فى الأزهر ، ورفعوا راية النضال ، ونفروا خفافاً وثقالا متطوعين لمقاتلة البريطانيين فى رشيد والحماد ، وإقامة الاستحكامات فى القاهرة وضواحيها زوداً عن بلادهم وانتصاراً للإسلام بعد أن أوضح لهم زعماؤهم أن محاربتهم البريطانيين هى حرب دينية ضد أعداء الإسلام وضد خصوم السلطان العثمانى .

أما محمد على فقد أضفى هالة مبالغاً فيها من المجد على شخصه فى الدوائر العليا فى حكومة إستانبول . اعتقدت هذه الدوائر أنه هو الذى تصدى للحملة البريطانية ، وأنه صاحب الفضل الأول فى إيقاع الهزيمة بها .. وكانت هذه الصورة غير الدقيقة هى التى أوحت إلى السلطان بأن يغدق عليه ألواناً من التكريم .. فقد أمر أن تصبح الإسكندرية وضواحيها تابعة من الناحية الإدارية

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن .. إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٦٠ .

لحكومة القاهرة بعد أن كانت تتبع الباب العالى مباشرة فى شخص القائد العام للأسطول العثمانى. وبذلك دخلت الإسكندرية فى حوزته، وكان الباب العالى يتخذها قاعدة عسكرية ومركزاً سياسياً ينفذ فيها المؤامرات ضده. وأذن السلطان لإبراهيم بن محمد على فى العودة إلى مصر، وكان رهينة فى إستانبول حتى يؤدى محمد على الأربعة آلاف كيس كاملة والتى التزم بأدائها فى مقابل إلغاء قرار نقله إلى سالونيك. كما أنعم السلطان على محمد على وقادة الأسلحة العثمانية بهدايا ثمينة.

وعمد محمد على إلى تعزيز قواته العسكرية، فاستقدم قوات من الجنود الدلاة البواسل، كان بعضهم من جزيرة قبرص نزلوا فى دمياط، لأن الإنجليز لم يضعوا إحدى سفنهم الحربية أمام دمياط للحيلولة دون وصول النجدات إليه، وكان البعض الآخر من الشام. وجعلهم تحت قيادته المباشرة بحيث لا يتلقون الأوامر من الباب العالى وإنما منه شخصياً.. ولذلك تكفل بنفقات هذه النجدات التى كان يطلبها مباشرة من غير وساطة الباب العالى. وقد لخص الجبرتى الموقف العام فى مصر بعد جلاء الحملة عنها فقال: «انقضى هذا الأمر، واستقر الباشا، واطمأن خاطره، وخاص له الإقليم المصرى وثغر الإسكندرية»(١).

وهذه المكاسب التى ظفر بها محمد على جعلت دوا «Douin» وهو أحد الفرنسيين الذين توفروا على دراسة تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر يقرر أن محمد على كان الشخص الوحيد الذى استفاد من الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧(٢). ولكننا لا نأخذ بهذا الرأى وحده، بل نضيف

---

(١) الجبرتى، ج ٤، ص ٦٨.

(٢) صفحة ٧٠ من المقدمة التى وضعها «دوا» للكتاب الذى نشر فيه مع السيدة الإنجليزية وثائق الحملة البريطانية Douin, G. et E C. Fawatier – Jones ; L'Augleterre et L'Egypte. La Campagne de 1807.

إليه رأياً آخر هو أن هزيمة الحملة كانت فصلا هاماً فى تاريخ مصر القومى كشفت عن أصالة الشعب الإسلامى فى مصر والطوائف الإسلامية المستوطنة فيها ، وقد استطاع هؤلاء وأولئك بفضل صلابتهم أن يقفوا فى وجه أكبر دولة استعمارية فى العالم فى ذلك الوقت .. لم ترهبهم مدفعية بريطانيا وأسلحتها الفتاكة ، وتحمل المصريون فى بسالة الخسائر الفادحة فى الأرواح وتخريب البيوت والضرائب الباهظة التى فرضها محمد على تحت ذريعة الإنفاق على المجهود الحربى . ويزيد من خسائر الشعب وتضحياته إذا وضعت فى الاعتبار الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية العصيبة التى كان يعيش الشعب فيها وقتذاك ، بالإضافة إلى افتقاره إلى الأسلحة الحديثة وحرص الحكام على إقصائه عن الحياة العسكرية فى ذلك الوقت .

أما الحملة البريطانية فقد كان عدد أفرادها قليلا نسبياً ، ثم زادت وهناً على وهن بانكماش عددها نتيجة خسائرها فى القتلى والأسرى فى معركتى رشيد والحماد .. واعتقد قائد الحملة أن مصيرها هو الفشل واقترح على حكومته بعد معركة رشيد أن توافق على جلائها عن مصر . وعالجت الحكومة البريطانية الموقف الحرج للحملة بإرسال تعزيزات لها من صقلية . وقبع قائدها فى الإسكندرية يعزز تحصيناتها الدفاعية خشية أن يقوم جنود محمد على أو المتطوعون المصريون بمهاجمتها على حين غفلة .. وقد اهتز مركز بريطانيا العسكرى فى أعين الشعب المصرى نتيجة الفشل المكرور الذى حاق بالحملة . وكان يراود قائدها فريزر أعذب الآمال فى شد أزرها بانضمام البكوات المماليك القابعين فى الصعيد إليها وزحفهم على القاهرة لإسقاط حكومة محمد على .

أما الأمراء المماليك ، وقد اشتهروا باسم الأمراء القبالى لمرابطتهم فى الوجه القبلى أو الصعيد ، فإنهم كانوا مركز قوة ذات بأس شديد نظراً لقواتهم الكثيفة العدد والمسلحة بأسلحة حديثة وفتاكة ، وذات نظام عسكرى رتيب . ولكن بقيت قواتهم بدون فاعلية ، لأن البكوات رفضوا أو ترددوا فى الانضمام

إلى الحماة وآثروا موقف التريث حتى ينجلى الموقف العسكرى للحماسة البريطانية والذى اهتز اهتزازاً عنيفاً نتيجة هزيمتها فى معركتى رشيد والحماد. وفى ذات الوقت رفضوا إبرام صلح مع محمد على بسبب تنافسهم على الرياسة ومن ثم ظلوا منقسمين على أنفسهم متحاسدين فيما بينهم « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » فضاعت منهم إلى الأبد فرصة استعادة نفوذهم السابق وإقامة حكومة مملوكية فى مصر.

أزهريون وغير أزهريين من أعوان الاحتلال البريطانى :

والتزاماً منا بالحيدة والموضوعية نذكر أن بعض الأزهريين قد تعاطفوا مع الحملة البريطانية ووضعوا أنفسهم فى خدمتها إلى حد أنهم غدوا من أعوان الاحتلال وأنصاره ، نذكر من بينهم الشيخ محمد المسيرى كبير علماء الإسكندرية . وكان من ألمع الشخصيات الإسلامية فى المجتمع الإسكندرى وتمتع بنفوذ لا حد له على سكان المدينة .. وقد شد هذا النفوذ الواسع اهتمام قنصلى فرنسا وبريطانيا العاملين فى الإسكندرية به ، وحرص كل منهما على أن يكسبه لصفه . وكان قنصل فرنسا دروفتى ، عند انتقاله من الإسكندرية إلى القاهرة حريصاً على مقابلته كى يسبر غوره . وكان الشيخ المسيرى فى أثناء الحملة الفرنسية على صلات طيبة بقائدها بونابرت وبحاكم الإسكندرية كليبر . وعينه الفرنسيون رئيساً لديوان الإسكندرية. وفى أثناء مقابلة قنصل فرنسا له، حثه الأول على تحريض سكان الإسكندرية على الدفاع عن مدينتهم. ولمس القنصل تحفظاً من المسيرى ، إذ أنه لم يعطه جواباً صريحاً عن موقفه من الحملة البريطانية . فعلى الرغم من أنه صرح له بأنه من المعارضين للحماة البريطانية ، قال له إن من السابق لأوانه أن يقف على ما تسفر عنه الأيام القادمة من حوادث(١) . أما قنصل بريطانيا « ميست » فقد اتصل

(١) الوثيقة رقم ١٣٦ ، (ص ص ١٥٤ — ١٦٠) ، تقرير من دروفتى إلى سباستيانى السفير الفرنسى فى إستانبول فى مؤلفه Douin, G. ; Mohamed Aly, Pacha du Caire 1806 – 1807. op. cit.

بالشيخ المسيري عدة مرات قبيل وصول الحملة وبعد احتلالها الإسكندرية.
كانت المرة الأولى عند وصول السفينة الحربية البريطانية وزارد « Wizard »
في ١٣ مارس ١٨٠٧ إلى الإسكندرية تحمل نبأ قرب حضور الحملة .
واطمأن القنصل البريطاني إلى موقف المسيري الذي أكد له أن سكان الإسكندرية
سيرحبون بقدوم الحملة ، ورفض المسيري ومعه أمين أغا حاكم الإسكندرية
دخول قوة من الجنود الأرناؤود حضرت وقتئذ بقيادة سليمان أغا لتعزيز حامية
الإسكندرية . كما رفض الإثنان من قبل تعزيز الاستحكامات الدفاعية في
المدينة تنفيذاً لأوامر الباب العالي . فلما جاءت الحملة واحتلت الإسكندرية
كان الشيخ المسيري في مقدمة الذين ذهبوا إلى قائدها لتحيته . ولما استقرت
الحملة البريطانية في الإسكندرية أسفر المسيري عن هويته : نصيراً للاحتلال
البريطاني ضالعاً معه . كان على رأس وفد الأعيان الذي طالب من فريزر أن يمد
عملياته الحربية إلى رشيد استناداً إلى أن الإسكندرية تعتمد في تموينها بالمواد
الغذائية على رشيد . وهي ذات الذريعة التي ساقها القنصل البريطاني لفريزر
من قبل وهو يحرضه على احتلال رشيد والرحمانية .

وهكذا ارتضى المسيري لنفسه أن يكون بوقاً للقنصل يردد آراءه ؛
ولما هزمت القوة البريطانية في معركة رشيد في ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ ،
تبددت الآمال المرتجاه من احتلال رشيد، والرحمانية من بعدها، في تموين
الإسكندرية والحملة البريطانية بالقمح من الأولى لصنع الخبز وباللحوم من
الثانية . تطوع الشيخ المسيري بابلاغ البريطانيين أنه في مكنة أهل الإسكندرية
أن يعتمدوا في طعامهم على الخبز المصنوع من الأرز والشعير لمدة شهر
أو شهرين، وهو الأمر الذي يفضلونه كثيراً على تسليمهم إلى أيدي الأرناؤود
من جنود محمد علي . وكانت توجد في ذلك الوقت كميات كبيرة من الأرز
مودعة بطون عدة سفن راسية في ميناء الإسكندرية . ولكن لم يأخذ البريطانيون
برأي المسيري بمقولة إنه لا يمكن أن تكون الحكومة البريطانية قد أرادت
عندما أرسلت جيشاً إلى مصر ، أن يكون الحرمان من الخبز واللحوم نصيب
أهل الإسكندرية طوال احتلال بريطانيا هذه المدينة . وعندئذ طالب الشيخ

المسيرى البريطانيين ببذل محاولة ثانية لاحتلال رشيد(١) . وتعددت مظاهر النفاق من جانب المسيرى للبريطانيين(٢) .

وقد نظرت الدوائر العليا فى إستانبول إلى أمين أغا حاكم الإسكندرية والشيخ المسيرى نظرة ارتياب واعتقدت هذه الدوائر أنهما من أعوان الاحتلال البريطانى لمصر ، عمد الأول إلى تسليم الإسكندرية للحملة البريطانية دون قتال. وزين الثانى لقائد الحملة مد عملياته الحربية إلى رشيد . فلما عقدت معاهدة الجلاء عن الإسكندرية بين محمد على والإنجليز هاجر منها الشيخ المسيرى وترك فيها قصره وأملاكه .. ولما عين محمد على كتخداه طابوز أوغلى حاكماً على الإسكندرية نزل فى قصر الشيخ المسيرى .

• • •

وهناك شخصية إسلامية أخرى تمثلت فى الشيخ إبراهيم باشه عبد الله ، وهو أزهرى . وكان زوجاً لكريمة الشيخ محمد المسيرى . كان من الموقعين على وثيقة شروط تسليم الإسكندرية للحملة البريطانية فى ٢٠ مارس سنة١٨٠٧ واشترك معه فى التوقيع عليها الحاج محمد خطاب بصفتهما يمثلان أعيان الإسكندرية ولما وصل محمد على إلى الإسكندرية عقب التوقيع على معاهدة الجلاء عنها ، آثر هذا الشيخ الأزهرى تقبيل قدمى محمد على التماساً للصفح عنه(١) مفضلاً ارتكاب هذه الفعلة الشنعاء التى تتنافى مع كرامة علماء الدين على الهجرة من الإسكندرية . فعفا عنه محمد على ، وأمنه على حياته وخلع عليه فروة ثمينة . ولا يزال يوجد فى الإسكندرية مسجد جامع كبير يحمل اسمه .

• • •

---

(١) أشاد قنصل بريطانيا العام فى الإسكندرية بالمشاعر الودية التى أبداها الشيخ المسيرى نحو الحملة وتعاونه معه وذلك فى عديد الرسائل التى كان يبعث بها إلى القادة العسكريين . انظر على سبيل المثال :

وثيقة رقم ٢٥ ص ص ٢٠ — ٢٢ ، وثيقة ورقم ٣٦ ص ٣٤ — ٣٦ .

— الدكتور محمد فؤاد شكرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦١٤ .

(١) وثيقة رقم ١٦٣ وملحقها ص ٢٠٢ — ٢٠٥ من دروفتى إلى سباستيانى فى :

Douiu G., Mehamed Aly etc. op. cit.

وهناك شخصية أزهرية ثالثة تمثلت فى قاضى القضاة فى الإسكندرية وهو قاسم الغريانى. وكان أهل المدينة يذكرون اسمه مسبوقاً بكلمة سيدى فكانوا يقولون سيدى قاسم غريانى. التصق التصاقاً شديداً بقيادة الحملة Sidi البريطانية ابتغاء خدمتها فى تحقيق أهدافها. قام أولا بالدور التقليدى الذى قام به غيره من أعوان الاحتلال المصريين. وطلب إلى القنصل البريطانى العام، باسم سكان الإسكندرية ، الاستيلاء على رشيد خوفاً من انتشار المجاعة فيها (١).

ولم يقف الشيخ قاسم الغريانى عند هذا الحد ، بل قام بدور دنىء فى أثناء اقتتال القوة البريطانية بقيادة الجنرال ستيورات فى معركة الحماد. حدث أن غادر ميست ، متعللا بسوء صحته ، معسكر القوة البريطانية ، كما أن اعتلال صحه فريزر منعه من الاشتراك الفعلى فى هذه المعركة ، فبقى على ظهر السفينة «كلنوب» على مسافة بعيدة جداً فى خليج أبى قير من ميدان العمليات. وترتب على ذلك أن جميع المخابرات والرسائل كانت تتم بين الجنرال ستيوارت قائد القوة المحاربة وبين فريزر عن طريق الأسطول فى الإسكندرية. وتطرع قاسم الغريانى للقيام بهذه المهمة بالاشتراك مع القنصل ميست. وكان من بين الأخبار التى نقلها الغريانى خبر هام أبلغه إلى الأسطول فحواه أن محمد على يجمع قواته ويستعد لنجدة رشيد وأنه جهز فعلا عدداً من المدافع الثقيلة وزوارق مدفعية وسفناً لنقل الذخائر والمدافع (٢) وغير ذلك من أسرار حربية نقلها الغريانى لقاء دراهم معدودة. وكانت تتصل بالحملة التى أنقذها محمد على إلى رشيد بقيادة كتخدابك طابوز أوغلى واشترك فيها حسن باشا على النحو الذى شرحناه من قبل.

---

(١) الوثيقة رقم ٤٧ ، ص ص ٥٤–٥٦ من الوثائق الإنجليزية التى نشرها دوا «Douin» بالاشتراك مع السيدة فوتير جونز فى مجلد حملة سنة ١٨٠٧ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن .. إلخ ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٧٩ .

وقد اضطر قاسم الغرياني ، بسبب صداقته ومساعداته للإنجليز ، إلى الهجرة من الإسكندرية عند جلاء الحملة ، وترك أمواله وأملاكه التى صادرتها حكومة محمد على . وقد انبرى ميست ، بعد رحيله هو الآخر مع فلول الحملة إلى صقلية . للدفاع عن قاسم الغرياني ، فبعث فى ٢١ أكتوبر ١٨٠٧ برسالة إلى كاسلريه Castlereagh وزير الحربية(١) كشف فيها ، عن غير قصد ، عن أنه كان لهذا الرجل أفضال سابقة على الإنجليز فى مصر . فكان مما جاء فى هذه الرسالة « إن الحكومة البريطانية كانت قد منحت سيدى قاسم غرياني عشرة شلنات معاشاً يومياً ، مكافأة له على الخدمات التى أداها فى أثناء الحملة البريطانية الأولى على مصر (١٨٠١ — ١٨٠٣) . وأجد من العبث محاولة إيفائه كل حقه من المديح والثناء بسبب الجهود المتصلة التى بذلها إبان وجود الجنود البريطانيين بقيادة الميجور جنرال فريزر بالإسكندرية . ولكنى أستطيع أن أقرر باطمئنان تحت مسئوليتى أن الفضل إنما ينسب إليه وإلى ما أبداه من همة فى حصول الجيش على المؤن والأغذية التى حصل عليها أخيراً بكثرة ووفرة . ولقد وعد الليفتنانت جنرال سير جون مور Moore سيدى قاسم غرياني بمضاعفة المعاش المعطى له ابتداء من يوم ٢٥ سبتمبر . ولا أشك فى أنكم سوف توفون وعد سير جون مور . والحق أن عشرين شلناً يومياً لا تكاد تكفى لإعالة رجل فى مثل مكانته مع أسرته . وأرجو أن ترى الحكومة البريطانية أنه مما يتفق مع كرامتها أن تعوض هذا الشيخ تعويضاً مناسباً عن الأضرار التى لحقت به نتيجة لما أظهره من ولاء نحو المصالح البريطانية »(٢) .

* * *

وهناك شخصية رابعة غير أزهرية ألقت بنفسها فى أحضان الحملة البريطانية فى أثناء معركة الحماد ، هى شخصية الشيخ اسماعيل عبد اللطيف شيخ دسوق . بعث

---

(١) عين فى هذا المنصب فى ٢٥ مارس ١٨٠٧ خلفاً لوندهام « Windham » .

(٢) الوثيقة رقم ١٣٣ (ص ص ١٧٤ — ١٧٥) من الوثائق الإنجليزية التى نشرها دوا والسيدة فورتيو جونز فى مجلد وثائق حملة سنة ١٨٠٧ .

برسالة في ٧ صفر سنة ١٢٢٢ الموافق ١٦ أبريل إلى الجنرال سيتوارت قائد القوة البريطانية في المعركة. قال فيها إنه إنما بعث إليه بهذه الرسالة ليعبر له عما يكنه من عواطف المحبة الصادقة للإنجليز، وما يشعر به من كراهية عميقة وحنق عظيم على الأتراك والأرنؤود الذين ساموا الأهالي الخسف وأرهقوهم بالمظالم إرهاقاً شديداً. وأكد أنه أصبح عدواً لهم منذ أن تسلموا مقاليد الحكم عقب خروج الفرنسيين من مصر. ثم مضى يقول: والملك كان فرحي عظيماً عند ما بلغني أن الجيش الإنجليزي قد جاء مصر؛ لعلمي أن الإنجليز يحكمون حكماً طيباً ويشفقون على الأهالي التعساء. وقد أعلنت الآن أني عدو للأتراك والأرناؤود. ورفضت أن أزودهم بالمؤن والإمدادات التي طلبوها مني. وفي عزمي إذا مر الجنود الأتراك بالقرب من قريتي أن أدفعهم عنها وأطردهم بالقوة. ويحزنني جداً أن تظل رشيد ممتنعة عليكم كل هذه المدة الطويلة، فإن سكان الدلتا يعانون كل سوء ويلحق بهم كل أذى على أيدى الأتراك. وأدعو الله سبحانه وتعالى أن تسقط رشيد في قبضتكم سريعا جداً حتى أتحرر من الظلم والاستبداد الواقعين علىّ، وتلك هي رغبات الأهلين جميعهم. ولدى ألف من الرجال المسلحين. فإذا شئتم جئتكم وانضممت إليكم. وأنتم تعرفون الآن أن لكم صديقاً في شخصي، وإني مستعد لتنفيـذ أى أوامر ترون إصدارها إلىّ»(١).

وقد أحيلت هذه الرسالة إلى قنصل بريطانيا العام ميست فأشر عليها بخط يده «إن الجنرال سيتوارت ليس مخولاً لقبول عروض من النوع

---

(١) الوثيقة رقم ١٣٥ (ص ١٧٦ — ١٧٧) وهي مترجمة من العربية إلى الإنجليزية في المصدر السابق، وانظر أيضاً ما جاء على لسان تابرنا سكرتير قنصلية بريطانيا في القاهرة في أثناء استجوابه في مسينا في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٧ عن موضوع الشيخ عبد الطيف. وثيقة رقم ١٣٧ (ص ص ١٧٨ — ١٨٠) في مجلد وثائق حملة سنة ١٨٠٧.

الذى قدمه الشيخ عبد اللطيف وليست هناك فائدة من مشاعره الودية »(١).

ويبدو أن مرد هذا الرفض من جانب القنصل العام إلى رغبته فى ألا تتجاوز الحملة النطاق الذى حددته لها الوزارة البريطانية. وحسبه المجادلة التى أثيرت على أعلى المستويات حين مدت الحملة عملياتها الحربية إلى رشيد وعدم التزام قائدها بالأوامر الصادرة إليه باحتلال الإسكندرية فقط.

وقد أدى موقف الشيخ إسماعيل عبد اللطيف إلى وقوع صدام مسلح استمر أياماً ذات عدد بين هذا الشيخ وأتباعه من ناحية وجنود محمد على من ناحية أخرى. وكان من بين نتائج هذا الصدام ذبح عدد من المجاورين الذين كانوا يطلبون العلم فى جامع إبراهيم الدسوقى. ففى أثناء الرحلة التى قام بها محمد على من معسكره فى إمبابة مع جنوده إلى دمنهور مر بالرحمانية حيث أرسل قوة من جنوده لاستدعاء الشيخ عبد اللطيف، فرفض الأخير الذهاب إليه. « وقال ما يريد الباشا منى ؟ أخبرونى بطلبه وأنا أدفعه، إن كان غرامة أو كلفة. فقالوا لا ندرى، وإنما أمرنا بإحضارك. نشاغلهم بالطعام والقهوة، ووزع بهائمه وحريمه والذى يخاف عليه. وفى الوقت وصلت مراكب وبها عساكر، وطلعوا إلى البر. فركب شيخ البلد خيوله وخيالته، واستعد لحربهم. وحاربهم وأبلى معهم، وقتل منهم عدة كبيرة، ثم ولى هارباً. فدخل العسكر إلى البلد، ونهبوها وأخذوا ما وجدوه فى دور أهلها. وعبروا مقام السيد الدسوقى، وذبحوا من وجدوه من المجاورين، وفيهم من طلبة العلم العواجز »(٢).

والحق أن هذه الحوادث كانت فردية وقليلة. ولم يكن لها أثر على موقف علماء الأزهر وجماهير الشعب من الحملة البريطانية. فإن المجتمع المصرى بشتى طوائفه، كما قلنا مراراً فى هذه الدراسة، كان مجتمعاً دينياً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الجبرتى، ج ٤، ص ٦٥.

إسلامياً متزمتاً . ولم يكن من المعقول أن يستبدل حكماً مسيحياً أوروبياً إنجليزياً بحكم إسلامى عثمانى .

بقى أن نذكر أن بعض المصريين من المسلمين والأقباط قد هاجروا من مصر مع فلول الحملة البريطانية . ولجأ بعضهم إلى الإنجليز ليحملوهم على سفنهم معهم . وقصد بعضهم إلى نيابات شمالى إفريقية ، كما هاجرت عائلات لبنانية إلى بلاد الشام . وكان المهاجرون يعتقدون أنهم موضع كراهية شديدة بسبب صداقتهم ومعاونتهم للإنجليز (١) . ونزحت أفواج من فقراء الإسكندرية إلى الصحراء ليعيشوا مع البدو فى خيامهم (٢) . وحذا حذوهم بعض أهالى رشيد . ويبدو أن الدافع للمهاجرين الذين اتجهوا إلى الصحراء أنهم آثروا السلامة على التعرض للجرائم التى كان يرتكبها جنود محمد على من الدلاة والأرنؤود (٣) .

---

(١) وثيقة رقم ٢٥٦ (ص ٣٤١ — ٣٤٢) تقرير من « ميست » مسينا إلى كاننج فى بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٧ فى :

Douin, G., L. Angleterre et L. Egypte. La Politique Mamel uke. op. cit

(٢) وثيقة رقم١٢٩ (ص ص١٦٧—١٧٠) تقرير من فريزر إلى كاسلريه فى السفينة تايجر فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٠٧ منشورة فى الوثائق الإنجليزية التى نشرها دوا « Douin » والسيدة فوتير جونز .

(٣) كان من بين المهاجرين أيضاً أعضاء البعثة القنصلية البريطانية فى مصر ، وعلى رأسهم القنصل العام « ميست » والنقيب « تافرنا » سكرتير القنصلية ، ويوسف عزيز الترجمان الأول . وقد أبحروا مع الجيش البريطانى إلى مسينا فى صقلية ، فبلغوها فى ١٦ أكتوبر . وكان فريزر قد سبقهم إليها منذ ١١ أكتوبر . ووجد ميست متسعاً من الوقت فى مسينا يدافع عن الذين تعاونوا مع الحملة ونظر إليهم على أنهم أصدقاء لبريطانيا ومنهم قاسم البريهى وأمين بك الألفى . كما أيد قضية الأمراء المماليك . ولم يعد ميست إلى مصر إلا فى أواسط سنة ١٨١١ وبقى بها حتى سنة ١٨١٥ يمثل مصالح دولته وكانت صحته قد تدهورت ينتقل على كرسى متحرك . وكان غريمه محمد على قد تدعم مركزه وقضى على المماليك فى مذبحة أول مارس سنة ١٨١١ .

الأزهر على عهد حملتين :

ونختم هذا الفصل بدراسة مقارنة سريعة للأزهر على عهد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) وعلى عهد الحملة البريطانية سنة ١٨٠٧ . ففى أثناء الاحتلال الفرنسى لمصر كان الأزهر مركزاً سياسياً حيث كانت تجتمع فيه لجنة قيادة الثورة للإعداد لثورة القاهرة الأولى ، ثم غدا قلعة حربية ومقراً لاجتماع الحشود الثورية . وتعرض لقصف مدفعية الجيش الفرنسى واقتحمه الجنود الفرنسيون بخيولهم وارتكبوا فيه الآثام . وتعطلت فيه الدراسة ثم أغلقت أبوابه وتوقفت فيه إقامة الصلاة . أما على عهد الحملة البريطانية ، فقد أمر عمر مكرم بتعطيل الدراسة فيه كى يتفرغ مدرسوه وطلبته للتطوع لمحاربة البريطانيين فى رشيد أو بناء الاستحكامات الدفاعية فى القاهرة . ولكن ظلت تقام فيه شعائر الصلاة . وعمل عمر مكرم وعلماء الأزهر على تعبئة مشاعر الجماهير للتصدى للعدوان البريطانى . ولم يمسس أفراد الحملة الأزهر بسوء ، لأنه لم يصل إلى القاهرة إلا أسراهم . سيقوا زمراً من ساحل بولاق إلى معتقلهم فى القلعة وهم فى ذل الأسر . ثم سيقوا زمراً مرة أخرى بعد إطلاق سراحهم إلى رشيد بالطريق النهرى وغادروا مصر . وبقى الأزهر جامعاً وجامعة بمنأى عن اعتداءات البريطانيين الذين قبعوا فى الإسكندرية بعد محاولتيهم الفاشلتين فى احتلال رشيد .

• • •

الفصل الرابع والعشرون

إقصاء الزعامة الأزهرية

عن الحياة السياسية فى مصر

الخلاف على مبدأ :

اجتاز محمد على الأزمات التى واجهها تباعاً منذ المناداة به والياً على مصر سنة ١٨٠٥ . فلما تم جلاء الحملة البريطانية ونجح فى التغلب على حركة عصيان الجند والتى يطلق عليها المصطلح التاريخى «أزمة تطويع الجند» ، وقد عالجها بعنف مقرون بحزم(١) ، أراد أن يرسى دعائم حكمه بعيداً عن أى تدخل أو تهديد من مراكز القوة التى كانت لاتزال فى مصر . ومن بينها علماء الأزهر والأمراء المماليك . كان الأولون يعتمدون على تأييد شعبى واسع وعريض ، بينما كان الأخيرون يستندون إلى قوات عسكرية مدربة ومسلحة وتدين للبكوات المماليك بالطاعة .

أراد علماء الأزهر أن يرجع إليهم محمد على فى تصريف شئون الحكم تأسيساً على أنهم هم الذين نادوا به والياً على مصر ، وأن هذه المناداة كانت مقرونة بشرط وافق عليه محمد على وهو استشارتهم فى المسائل الكبرى قبل أن يبت فيها . وأراد محمد على من ناحية أخرى أن يمارس الحكم دون طلب المشورة منهم . وتمسك كل فريق بموقفه . ويلاحظ أن محمد على كان قد

---

(١) عن أزمة تطويع الجند ، انظر الوثائق الفرنسية فى مجلد :

Douin, G.; Mohamed Aly, Pacha du Caire. op. cit.

الوثائق رقم ١٦٥ (ص ص ٢٠٧ – ٢٠٨) ، ورقم ١٦٦ (ص ص ٢٠٩ – ٢١١) ، ورقم ١٦٧ (ص ص ٢١١ – ٢١٣) .

استبدت به الأطماع السياسية فى هذا الوقت المبكر ، فتطلع إلى أن يكون حكمه لمصر وراثياً فى أسرته وفى نطاق الدولة العثمانية بحيث لاتربطه بها سوى سيادة اسمية تتمثل فى أداء جزية سنوية وبعض مظاهر شكلية على غرار النظام المتبع فى نيابات شمالى إفريقية مثل طرابلس الغرب حيث كانت تحكمها وراثياً أسرة أحمد بك القره مانلى منذ سنة ١٧١١ ، وكان حاكمها المعاصر لمحمد على هو يوسف باشا القره مانلى (١٧٩٥ — ١٨٣٥) ومثل نيابة تونس حيث كانت تحكمها وراثياً الأسرة الحسينية نسبة لمؤسسها حسين بن على. وكان حاكمها حمودة باشا (١٧٨٢ — ١٨١٤) وكان هو الآخر معاصراً لمحمد على. وكان الأخير قد أفصح عن رغبته هذه فى أواخر أيام الحماة البريطانية لكل من قنصلى بريطانيا وفرنسا(١) . ورفضت هاتان الدولتان تأييد مطلب محمد على فى هذا الصدد حرصاً على استرضاء الباب العالى(٢)، كما عرض محمد على بعد ذلك مشروع استقلال مصر استقلالا ذاتياً ومنحه حكم مصر وراثياً فى أسرته على الباب العالى فى رسالة ضافية مؤرخة فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨١٠ أرسلها إلى محمد نجيب أفندى كتخداه فى إستانبول — أى نائبه فيها وممثله لدى حكومتها . ولكن اشترط السلطان لقبول هذا المشروع أن يقوم محمد على أولا وقبل كل شىء بإرسال حملة الحجاز وقد سماها « المسألة الخيرية »(٣) .

وفى محاولة محمد على إقصاء علماء الأزهر عن الحياة السياسية كانت

---

(١) انظر تقريراً أرسله من القاهرة فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٠٧ دروفتى قنصل فرنسا العام إلى سباستيانى السفير الفرنسى فى إستانبول . وثيقة رقم ١٥٩ (صص ١٩٥ — ١٩٩) فى مجلد
Douin, G. ; Mohamed Aly, Pacha du Caire (1805-1807) ; op. cit.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع .. إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٠٨٣ .

(٣) المرجع السابق ، ذات الجزء ، صص ١٠٢٢ — ١٢٤٠ . هذا وقد تتابعت الرسائل التى تبودلت بين محمد على ومحمد نجيب أفندى حول هذا المشروع بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٨١٠ ، ٩ يناير ١٨١١ ، ١٦ يناير ١٨١١ ، ٢٦ يناير ١٨١١ .

كفته ترجح كفتهم . فقد كان على نصيب موفور من الدهاء السياسى . استغل أبرع استغلال انقسام العلماء على أنفسهم وتنافسهم على منصب ناظر الأزهر والتنظر على أوقاف الأمير عبد الرحمن كتخدا ، كما كانت تحت إمرته قوات عسكرية تدين له بالطاعة بعد أن نجح فى تطويعها . وكانت صلاته فى ذلك الوقت بالباب العالى طيبة بما كان يغدقه على رجاله من هدايا إلى حد أنه قام برحلة ، كما يذكر الجبرتى فى حوادث يوم ٥ رجب ١٢٢٣ (٢٧ أغسطس ١٨٠٨) ، إلى المنصورة ودمياط وسمنود والمحلة والإسكندرية وغيرها ، وفرض إتاوات بوسائل تعسفية لإرسال هدايا إلى السلطان الجديد محمود الثانى ، وقد اشتملت فيما اشتملت عليه ستين جملا وأربعين من الخيل المسومة والأقمشة الهندية وأقمشة المحلة الكبرى وعدة قناطير من البن وسبعمائة أردب من الأرز الأبيض الفاخر استولى عليها من بلاد الأرز فى رشيد ودمياط ، فضلا عن أموال سائلة لم يذكر الجبرتى عدد أكياسها ، واكتفى بالاسهاب فى وصف الوسائل التعسفية التى اتبعها محمد على فى فرض المغارم المالية والعينية . وقد أرسل الهدية من الإسكندرية إلى إستانبول صحبة إبراهيم أفندى الخازندار . ثم عاد الباشا فى منتصف شعبان ١٢٢٣ (٦ أكتوبر ١٨٠٨) إلى القاهرة حيث ضربت له المدافع وأطلقت الشنك(١) .

بداية الاحتكاك :

حدث أول احتكاك بين محمد على وعلماء الأزهر حين جردهم أول الأمر من بعض الامتيازات المالية التى جعلت معظمهم من قبل أداة طيعة لينة فى يديه يوجههم حيث شاء من ناحية ، وجعلت هذا البعض يعيش عيشة مترفة من ناحية أخرى . بدأ الصراع بين الفريقين قبل قيام محمد على برحلته إلى الوجه البحرى ببضعة أيام ، إذ قرر فرض ضريبة مقدارها أربعة فى المائة على كافة أنواع الحبوب والمأكولات التى تباع فى الأسواق

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٨١ — ٨٢ .

والميادين والشوارع . فحدث هرج ومرج شديدان خصوصاً فى القاهرة . ثم ازدادت هواجس الأهلين لما جاء فيضان النيل فى ذات الشهر شحيحاً جداً . واجتمع كبار العلماء فى ٢٣ أغسطس وصعدوا إلى القلعة وطلبوا إلى محمد على تخفيف ضائقة الشعب بإلغاء الضريبة الجديدة . فأشار عليهم محمد على بالتوجه إلى الصحراء ومعهم الفقراء والضعفاء والأطفال لأداء صلاة الاستسقاء . فقال الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر « ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم » . وقد أثارت هذه العبارة محمد على، فرد محتداً موجهاً الحديث إلى الزعماء « أنا لست بظالم وحدى . وأنتم أظلم منى . فإنى رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم إكراماً لكم ، وأنتم تأخذونها من الفلاحين . وعندى دفتر محرر ماتحت أيديكم من الحصص تبلغ ألفى كيس — أى عشرة آلاف جنيه — ولابد أنى أفحص عن ذلك . وكل من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحينه (كذا) أرفع الحصة عنه . فقالوا له : لك ذلك »(١) .

نشر علماء الأزهر بين القاهريين ضرورة أداء صلاة الاستسقاء ، واختاروا جامع عمرو بن العاص « لكونه محل الصحابة والسلف الصالح » . وفى ضحى اليوم التالى « ركب عمر مكرم والمشايخ وأهل الأزهر وغيرهم الأطفال واجتمع عالم كثير ، وذهبوا إلى الجامع المذكور » . وأدوا صلاة الظهر ثم صلاة الاستسقاء ثم رجعوا . وبات عمر مكرم هناك . وفى تلك الليلة ارتفع ماء النيل . ثم أشار بعض الناس فى ٢٥ أغسطس بإحضار الأقباط إلى الجامع « وحضر المعلم غالى ومن يصحبه من الكتبة الأقباط وجلسوا فى ناحية فى المسجد يشربون الدخان ثم انفض الجمع » (٢) وفى تلك

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٨٠ ، وتوجد معلومات مسهبة عن هذه المقابلة فى :
Gouind Edouard, op. cit., pp. 205–206.

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٨٠ .

الليلة أيضاً زاد ارتفاع مياه الفيضان ، ونودى بالوفاء . وذهب محمد على والقاضى واجتمع الناس وكسروا السد وجرى الماء فى الخليج وهكذا انقضى بسلام أول احتكاك بين محمد على وعلماء الأزهر ، وإن كان هذا الاحتكاك قد ترك فى نفوسهم رواسب من السخط على تهديد محمد على لهم بحرمانهم من حصصهم فى نظام التزام الأراضى وبالحد من نفوذهم فى حكومته .

الاحتكاك بين محمد على وعمر مكرم :

حدث الاحتكاك بين محمدعلى وعمر مكرم الذى كانت له الصدارة على علماء الأزهر فى حكومة الباشا نظراً للعلاقات الوثيقة بينهما منذ المناداة به والياً على مصر سنة ١٨٠٥ بل وقبل هذه المناداة . وكانا يعقدان اجتماعات سرية فى جوف الليل يخططان لمواجهة الأزمات التى تلاحقت على الباشا على النحو الذى شرحناه من قبل . ولكن بعد أن صحت عزيمة الباشا على طرح استشارة الأزهريين فى مسائل الحكم جانباً ، أراد أن يتخلص من عمر مكرم الذى أراد بدوره أن يملى عليه إرادته فى ضرورة الرجوع إليه وفى طلب المشورة منه . ومن ثم كان الصدام بينهما أمراً لامفر منه . . وبدأ الصدام من جانب محمد على ، إذ كان لايقابله إلا لماماً فى المناسبات الرسمية مع العلماء والأعيان بصفته نقيباً للأشراف لحضور اجتماعات الديوان لقراءة الفرمانات الواردة من إستانبول أو احتفالات وفاء النيل وما إلى ذلك .

عمر مكرم يغفل عن حقيقة الأوضاع الجديدة :

غفل عمر مكرم عن معنى تباعد محمد على عنه بحيث تركه كما مهملا ، كما غفل عن عدة اعتبارات أخرى ، منها أن الأوضاع فى مصر قد تغيرت تغيراً كلياً عما كانت عليه من قبل . فقد أصبح لمصر سيد واحد هو محمد على بعد أن تخلص من أزمة نقله إلى سالونيك ، وبعد انتهاء الاحتلال

البريطاني لمصر ، وبعد القضاء على عصيان الجنود ، وأن محمد على أصبح في مقدوره أن يستغني عن خدمات عمر مكرم في جمع الضرائب والقروض الإجبارية والإتاوات وغيرها من الشعب بعد أن عهد بهذه المهمة إلى الجنود عقب تطويعهم . ولم يفطن عمر مكرم أيضاً إلى حقيقة هامة أخرى هي أن علماء الأزهر بسبب حقدهم عليه لن يقفوا إلى جانبه إذا احتدم صراع بينه وبين محمد على . وكان معظم المشايخ قد انكبوا على مباهج الدنيا واكتناز الأموال ، وكانوا لا يتحدثون إلا عن الحصص والالتزام وحساب الميرى والفائض . وظهرت فيهم روح التنافس والتحاقد على الرياسة والتطاع للأكل في ولائم الأغنياء والمعاتبة عليها إن لم يدعوا إليها وغير ذلك من مظاهر التدهور الذى أفاض الجبرتى في شرح صوره وأشكاله (١) .

عمر مكرم يستغل حادثاً كيداً لمحمد على :

كان عمر مكرم مسرفاً في الاعتداد بنفسه ، واعتقد أن في استطاعته تحريك الشعب ثورياً ضد محمد على ليحمله على طلب المشورة منه ، ومن ثم أراد أن يكيد لمحمد على كلما وجد إلى الكيد سبيلا ، فاستغل حادث الشيخ سليمان البنهاوى . وهو شيخ مجذوب ظهر في بنها العسل ونصب له أتباعه خيمة ، وتوالت عليه النذور والهدايا وعلا صيته . وطلب من القرى مقادير من الحبوب بحجة إطعام الفقراء وعيّن مريدين لجمعها . وحرض الشيخ ومعاونوه الأهلين على التوقف عن دفع الضرائب للحكومة ، وأعلنوا « لا ظلم اليوم ، ولا تعطوا الظلمة شيئاً من المظالم التى يطلبونها منكم . ومن أتاكم فاقتلوه » . واتضح أنه من مدعى التصوف ومصاب بالشذوذ

---

(١) أفاض الجبرتى وهو يلوّن حوادث هذه الفترة في وصف مظاهر الحياة المترفة التى عاشها علماء الأزهر وانصرافهم إلى التمتع بملذات الحياة وحرصهم على حضور حفلات لسماع أغانى النساء وغير ذلك من أفعال نضرب صفحاً عن ذكرها .

(انظر الجبرتى ج ٤ ، ص ص ٦٨ — ٦٩) .

الجنسى الإيجابى . جمع لديه عدداً كبيراً من المردان ، وعمل لهم عقوداً من الخرز الملون فى أعناقهم ، ولبعضهم أقراطاً فى آذانهم » .

وتزايدت أطماع الشيخ سليمان ، فلم يقنع بمنطقة بنها ، وأراد الانتقال إلى القاهرة ودخلها على حين غفلة « برجاله وغلمانه ، ومعهم طبول وكاسات ، وبأيديهم فراقل (أى الكرابيج) يفرقعون بها فرقعة متتابعة وصياح وجلبة ، ومن خلفهم الغلمان والبدايات ، وشيخهم فى وسطهم واتجهوا إلى مسجد الإمام الحسين حيث جلسوا يذكرون ، ثم انفصل عنهم جماعة من حملة الفراقل فقصدوا إلى دار عمر مكرم ودخلوه ، وهم يفرقعون بما فى أيدهم من الفرقلات . وظلت جماعة منهم أمام داره يفرقعون بهله الفرقلات طول النهار ، ثم ارتدوا إلى المسجد الحسينى حيث أقام سليمان وأتباعه إلى العصر . ودعاهم إلى المبيت عنده أحد الأجناد ويسمى « اسماعيل كاشف أبو متاخير » . وفى صباح اليوم التالى ركب الشيخ وأتباعه إلى ضريح الإمام الشافعى فجلسوا يذكرون . وعلم كتخدا بك نائب محمد على بحضور الشيخ سليمان ومريديه والصحبة التى أحدثوها ، فأرسل قوة من الجنود بقيادة صالح أغا قوج للقبض عليهم ، فأثار البعض مخاوفه وقالوا له « لا ينبغى لك التعرض له فى ذلك المكان ، فإذا خرج فلوناث وإياه ، فانتظره بقصر شويكار (١) ، فتباطأ الشيخ إلى قريب العصر وأشاروا عليه بالخروج من الباب القبلى . وتفرق عنه الكثير من المجتمعين عليه . فذهب إلى مقام الليث ابن سعد ، ثم سار من ناحية الجبل . وذهب بغلمانه إلى دار اسماعيل كاشف التى باتوا فيها .

وكان كتخدا بك حين أمر بإلقاء القبض على الشيخ وأتباعه ، قد أرسل إلى عمر مكرم باستدعاء الشيخ إليه بحجة التبرك به . وأدرك عمر مكرم أن هدفه هو الفتك به . وبدلاً من أن يتعارن مع كتخدا بك فى القبض على الشيخ أو يمتنع عن التدخل ، أرسل عمر مكرم مبعوثاً من لدنه يحذره من دعوة

---

(١) كانت شويكار محظية على بك الكبير ثم تزوجها مراد بك . انظر ترجمة حياتها فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ .

كتخدا بك ، ولحق المبعوث بالشيخ بعد خروجه مع أتباعه إلى الصحراء، وأبلغه رسالة عمر مكرم ، ثم رجع إلى الأخير فوجد عنده كتخدا بك ورجب أغا يسألان عن الشيخ . فأخبرهما المبعوث أنه لم يلحق بالشيخ . فاستقر رأيهما على أن يعهدا إلى كاشف القليوبية بالقبض عليه . وهاجم الجنود دار اسماعيل كاشف وقبضوا على الغلمان . أما الشيخ سليمان فجاءت نهايته سريعة ، إذ دل على مكانه أحد المقربين إليه. وكان قد ذهب إلى بهتيم ثم إلى نوب . وسيق إلى بولاق «وأنزلوه فى مركب ، وانحدروا به ، ثم غابوا حصة وانقلبوا راجعين . ثم بعد ذلك تبين أنهم قتلوه وألقوه فى البحر (النيل) ، وانقضى أمره »(١)

ووقف محمد على من رجال حكومتـــه على تفاصيل الدور الذى قام به عمر مكرم فى حادث الشيخ سليمان ومحـــاوله إنقاذه من القبض عليه ، وتضليله موظفى الحكومة بإعطائهم بيانات غير صحيحة عن مكان الشيخ . وبعبارة أخرى تيقن محمد على أن عمر مكرم أراد تصعيد الحادث ابتغاء إثارة مزيد من المتاعب أمام حكومة محمد على . وقد أسرّ الأخير فى نفسه موقف عمر مكرم وتجاهله ، فلم يفاتح عمر مكرم فى شأنه ، لأنه كان يبيتّ أمراً آخر .

مركز محمد على يزداد توطداً فى مصر وإستانبول :

وفى أثناء محاولات محمد على إقصاء الزعامة الأزهرية عن الحياة السياسية، وقع حادثان فى خلال شهر واحد ، هو شوال ١١٢٢ (٢ ديسمبر — ٣٠ ديسمبر ١٨٠٧) ازداد بهما مركز محمد على توطداً سواء فى مصر أو فى الدوائر العليا فى إستانبول . ففى مصر وصل محمد على فى ٨ ديسمبر إلى عقد اتفاق مع شاهين بك الألفى أعطاه الباشا بمقتضاه إقليم الفيوم وكشوفيته ، وثلاثين بلدة من إقليم البهنسا مع كشوفيتها ، وعشر بلاد من الجيزة ، وضم له كشوفية البحيرة إلى حدود الإسكندرية ، وأطلق له

(١) انظر القصة الكاملة للشيخ سليمان ، فى الجبرتى ج ٤ ، صص ٦٣ — ٦٥

له حرية التصرف فى جميع تلك الأقاليم (١) . وبذلك اطمأن محمد على من ناحية هذا الأمير الذى كان زعيم الألفية بعد وفاة محمد بك الألفى . واستطاع الباشا أن يتفرغ للمهمة الأساسية وهى التخلص من الزعامة الأزهرية وإبعادها عن الحياة السياسية فى مصر .

وكان الحادث الثانى هو وصول قابجى ، أى مبعوث خاص من قبل الباب العالى ، إلى القاهرة فى ٢٤ ديسمبر يحمل عدة فرمانات . كان الفرمان الأول خاصاً بتجديد ولاية محمد على باشا لولاية مصر سنة أخرى . وكان الفرمان الثانى يتعلق بتعيين إبراهيم بك ابن محمد على فى منصب الدفتر دار . وكان هذا المنصب من أكبر المناصب يشرف شاغله على الشئون المالية ويرأس الديوان الدفترى ويشرف على ديوان الروزنامه . وكان هذا المنصب مقصوراً على طبقة الأمراء المماليك . وكان معنى الفرمان الثانى إطلاق يد محمد على ، عن طريق إبنه إبراهيم ، فى جمع شتى الضرائب ومراقبة المباشرين الأقباط وعلى رأسهم جرجس الطويل مباشر باشا الأقباط ، وزميله المعلم غالى ، وفعلا « سافر إبراهيم على طريق القليوبية وصحبته طائفة من مباشرى الأقباط وأفندية من ديوان الروزنامه وكتبة مسلمين للكشف على الأطيان التى رويت من ماء النيل والشراقى . فأنزلوا بالقرى النوازل من الكلف وحق الطرقات » (٢) . أما الفرمان الثالث فقد نص على العفو عن جميع العسكر مكافأة لهم على جهودهم فى التصدى للحملة البريطانية سنة ١٨٠٧ . وكان الفرمان الرابع يطالب محمد على بإرسال حملة لمحاربة الوهابيين فى إقليم الحجاز واستخلاص الحرمين الشريفين منهم والرحمة بالرعية والتجار (٣) .

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٧٣ . وانظر أيضاً الوثائق الفرنسية ، وثيقة رقم ١٦٣ وملحقها ، ص ص ٢٠٢ — ٢٠٥ فى مجلد :

Douin G. ; Mohamen Aly, Pacha du Caire. op. cit.

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

(٣) هذه الفرمانات الأربعة مذكورة فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

وكان مبعوث السلطان يحمل هدايا عبارة عن خلع وشانجات (١) . وركب فى ضحى اليوم التالى « وصعد إلى القلعة وقرئت المراسيم المذكورة بحضرة الباشا والمشايخ وكبار العسكر وشاهين بك وخشداشينه (٢) الألفية ، وضربوا مدافع وشنكا » ويلاحظ أن الجبرتى لم يذكر اسم عمر مكرم من بين الذين حضروا هذه الجلسة التى عقدها الديوان وتليت فيها الفرمانات السلطانية الأربعة . وقد يكون أغفل ذكر اسمه سهواً أو عمداً .

محمد على يكشف الزعامة الأزهرية :

دعا محمد على إلى جلسة عقدها الديوان فى أول المحرم سنة ١٢٢٣ (٢٨ فبراير سنة ١٨٠٨) حضرها معه إبنه إبراهيم بك الدفتردار وعمر مكرم بصفته نقيب الأشراف ومشايخ الأزهر والمعلم غالى . وتكلم محمد على فى هذا الاجتماع ، فأشار إلى الفرمان الرابع الذى حضر به من إستانبول مع الفرمانات الثلاثة الأخرى القابجى ، واسمه بيانجى بك ، والخاص بإنفاذ حملة لمحاربة الوهابيين . وقال إن الأوامر السلطانية واجبة الامتثال والتنفيذ . ولكن إرسال هذه الحملة يتكلف فى تقديره أربعة وعشرين ألف كيس ، أى مائة وعشرين ألف جنيه « فاعملوا رأيكم فى تحصيلها ، فحصل ارتباك واضطراب ، وشاع ذلك فى الناس وزاد بهم الوسواس ، ثم اتفقوا على كتابة عرضحال ليصحبه ذلك القابجى معه (إلى إستانبول) بصورة نمقوها » (٣) . ولم يذكر الجبرتى محتوى هذا العرضحال ، وكذلك لم تشر إليه الوثائق الفرنسية أو الإنجليزية . ولكن يمكن أن نقف بصورة عامة من مناقشات محمد على فى

---

(١) شلنجات : جمع شلنج . انظر ما سبق .

(٢) الخشداشية : هى رابطة الزمالة بين الأمراء الذين نشأوا مماليك عند أستاذ أو سيد واحد ومفردها خشداش .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

الاجتماع على الخطوط الرئيسية التى وردت فى العرضحال ، إذ قال للحاضرين إن إعداد مثل هذه الحملة ليس بالأمر السهل « ولا يتم بالعجلة ويحتاج إلى استعداد كبير » ، واستيراد أخشاب من الخارج لبناء السفن فى القاهرة ونقل أجزائها مفككة إلى السويس حيث يتم تركيبها وتعويمها لتبحر إلى الحجاز محملة بالجنود والأسلحة والذخائر . وقال الجبرتى إن محمد على « لم يــزل يخادع القابجى ويعده بإنفاذ الأمر . . . » إلى أن ارتحل الأخير عائداً إلى إستانبول دون أن يظفر بوعد صريح من محمد على بإرسال الحملة سريعاً إلى الحجاز ، بل أعطاه رداً فى صورة « عرضحال » يحمل معنى التسويف . وبهذا التصرف نجح محمد على فى تغطية موقفه من عدة جوانب. فالعرضحال نمقه علماء الأزهر وعمر مكرم . وكان إشراكهم فى تنميق « العرضحال » نجاحاً له ، لأنه حمل معنى موافقتهم على ما جاء فيه مع المختصين بالشئون المالية فى الحكومة وهما الدفتردار والمعلم غالى . ونجح ثانياً فى إيهام الجماهير بأنه عرض الموضوع على الزعامة الأزهرية ولم يتخــذ أفرادها خطوة تنفيذية عاجلة فى مهمة دينية هى استخلاص الحرمين الشريفين من الوهابيين . ثم نجح ثالثاً فى الاستناد إلى هذه الذرائع ، فمضى فى سياسته الضريبية الجائرة وأشبع هوايته فى « استنضاح » الأموال من شتى أفــراد الشعب المسلمين والأقباط فى فرض العديد من الضرائب وابتكار أسماء جديدة لها . ثم أحرز نجاحاً رابعاً حين وقفت الزعامة الأزهرية موقفاً سلبياً أول الأمر من سياسته الضريبية الظالمة والمتعسفة حتى إذا جاوز محمد على فى ظلمه المدى ، فاجأته الزعامة الأزهرية بتحرك جماعى . وقبل مناقشة هذا التحرك نمر مروراً سريعاً بموقف الباب العالى من سياسة المماطلة ثم بالجديد من الضرائب المبتكرة والوسائل التعسفية التى لجأ إليها محمد على فى قهر الأهالى على دفعها دون أن تحرك الزعامة الأزهرية ساكناً لوقف هذه المظالم التى انهالت على الشعب من يمين ويسار .

تسويف محمد على فى إرسال حملة الحجاز :

و تأسيساً على النزائع التى وردت فى العرضحال الذى حمله بيانجى بك مبعوث السلطان ، لم يقم محمد على بإرسال حملة الحجاز على الرغم من الفرمانات المكرورة التى كانت ترد إليه فى هذا الصدد ، وعلى الرغم من أن السلطان جدّد ولايته على مصر سنة أخرى فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٢٣ (فبراير سنة ١٨٠٩) ، وأبلغه أن « يوسف باشا المعدنى الصدر الأعظم السابق تعين بالسفر على جهة الشام لتنظيم بلاد العرب والحجاز ، وأن يقوم محمد على بلوازمه وما يحتاج إليه من أدوات وذخيرة وغير ذلك»(١). وقد نجم عن عدم إرسال الحملة أن تعطل فى تلك السنة سفر قافلة الحج المصرى وقافلة الحج الشامى ، وحرمان أهل الحجاز من إيرادات أوقاف الحرمين الشريفين مما أنزل بهم ضائقة مالية شديدة . ثم أرسل السلطان فرماناً آخر فى أواخر المحرم سنة ١٢٢٤ (أوائل مارس سنة ١٨٠٩) أكد فيه تجديد ولايته السابقة ، وقدم له هدية كانت خلعة وسيفاً ، وجاء فى هذا الفرمان « الأمر بالسفر والخروج إلى فتح الحرمين وطرد الوهابية عنهما «وأن يوسف باشا الصدر السابق المعروف بالمعدن تعين بالسفر للحرمين على طريق الشام ، وكذلك سليمان باشا والى بغداد متعين أيضاً بالسفر من ناحيته على الدرعية(٢) ولم تجد رغبة السلطان أذناً صاغية من محمد على الذى أوغل إيغالا بعيداً فى فرض ضرائب مبتكرة على الشعب فى أثناء السلبية التى التزمت بها الزعامة الأزهرية .

محمد على يفرض ضرائب ابتكارية أثناء سلبية الزعامة الأزهرية :

روع الشعب بسيل متدفق من الضرائب والإتاوات والقروض الإجبارية

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٨٤ .
(٢) المصدر السابق ، ذات الجزء ، ص ٨٩ .

فرضها محمد على فى غير هوادة علنا المصادرات والاستيلاء على قوافل التجارة وإجبار أصحابها على افتدائها بالمال . واستحدث أنواعاً من الضرائب ابتكر لها مسميات جديدة مثل كلفة الذخيرة ، والترويجة ، والقراسة ، بالإضافة إلى فرضة البشارة . ثم غيّر وزن ونسبة المعادن الثمينة فى العملة الذهبية والفضية المتداولة . واعتبر الشيخ الجبرتى الإجراء الأخير وسيلة من وسائل اختلاس أموال الشعب . وحدث أن علم محمد على أن الحكومة الفرنسية تحتكر تجارة الدخان وتعدها مصدراً هاماً من مصادر الإيراد الحكومى ، فعمد إلى تقليدها باحتكار تجارة التبغ . وقابل الشعب هذا الاحتكار (١) بالحد من استهلاك الدخان . فألغى هذا النظام وفرض رسوماً جمركية عالية على التبغ المستورد من تركيا . ثم احتكر النشوق وألزم الأهلين بشرائه بأسعار حددها وسواء كان الشخص يستنشقه أو ليست له إليه حاجة . واحتكر النطرون وأجبر القرى على أخذ مقادير منه . وحاول إكراه الأهلين على شراء شراب العرقى بمقولة أن تعاطى هذا الشراب المسكر يبعث القوة فى أجسامهم ويجعلها أكثر تحملا على مشقات الزراعة والحرث . كما فرض ضرائب عالية على الأرز والكتان والحطب والملح ، فارتفعت أسعار السلع عموماً ارتفاعاً فاحشاً . ورد الشعب على هذه الإجراءات ، فى الحدود المتاحة له ، رداً عملياً ، فامتنع بتاتاً عن تناول شراب العرقى تأسيساً على أنه من المسكرات التى حرمها الدين الإسلامى وعن تناول طعام الأرز ، وقلل من استخدام الملح ما استطاع إلى هذا الإقلال سبيلا .

وكان من الحيل التى لجأ إليها فى ابتزاز أموال الشعب أنه كان يتظاهر بالشفقة على الفقراء وأصحاب الدخول الضعيفة ، فأمر التجار بتخفيض أثمان بضائعهم إلى النصف . وتعذر على التجار تنفيذ هذا الأمر . فأمر

---

(١) بدأت هذه المحاولة الاحتكارية سنة ١٨٠٨ ، وكانت تجربة قائمة بذاتها ولا علاقة لها بنظام الاحتكارات التى استنه بعد ذلك .

باعتقالهم ولم يتم الإفراج عنهم إلا بعد أن دفعوا مال « المصالحة » . وعند خروجهم من المعتقل كانوا يضيفون إلى أثمان البضائع أموال المصالحة ليعوضوا خسائرهم . ولم يحرك محمد على ساكناً لهذا الارتفاع فى الأسعار ، مما يدحض تظاهره بالحدب على جمهور المستهلكين . وكانت النتيجة أن الجماهير المكدودة هى التى تحملت عبء هذه الضريبة المقنعة التى فرضها على التجار وأصحاب الحرف .

واسترعى نظر محمد على الحياة المترفة التى كان يعيشها المباشرون ، وهم الأقباط أصحاب الحول والطول ، والمكلفون بجمع الضرائب ، فعمل على استنضاح المال منهم . وسيق المعلم غالى ، والمعلم جرجس الجوهرى ، والمعلم جرجس الطويل ، وأخوه ، وفلتاوس ، وغيرهم من كبار المباشرين ثم عامتهم . والجميع فى حالة منكرة إلى معتقلات القلعة زمراً حتى إذا جاءوها حوسبوا حساباً عسيراً . وانتزع محمد على منهم مبالغ كبيرة مصالحة على أنفسهم وفى مقابل رضائه عنهم . ويقول الجبرتى فى حوادث يوم ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ (٢٨ يونيو سنة ١٨٠٩) « طلب الباشا ألف كيس أى خمسة آلاف جنيه من المعلم غالى وألزمه بها ، فوزعها على المباشرين والكتبة وجمعها فى أقرب زمن » .

وحدث أيضاً فى ذات الشهر أن قرر محمد على ضريبة على تجار الأقمشة « وباعة النعالات التى هى الصرّم والبُلَغ » ، فكانت تختم بخاتم خاص دليلاً على أن الحكومة قد استوفت الضريبة المقررة عليها . وبدون هذا الختم لا تكون صالحة للعرض فى المحلات التجارية أو الأسواق وتتعرض للمصادرة . فأثارت هذه الضريبة عامة الناس من الباعة (١) .

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٩٥ .

الزعامة الأزهرية تتحرك لمواجهة محمد على دفاعاً عن مصالحها :

التزمت الزعامة الأزهرية بالسلبية تجاه الإجراءات المالية التعسفية التى اتخذها محمد على نحو الشعب طالما كانت هذه الإجراءات بعيدة عن المساس بالمصالح المادية لعلماء الأزهر . فلما شرع فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٠٩ فى اتخاذ إجراءات رأوا فيها تهديداً لأسباب الحياة المترفة التى ألفوها تحركوا للاحتجاج على سياسته الضريبية . وهبوا للتصدى له ومعارضة أساليبه فى الحكم .

كان مثار الصدام بين محمد على وعلماء الأزهر عموماً مسألتين رئيسيتين حدثتا فى يوم واحد . كانت المسألة الأولى مشاركة محمد على للملتزمين فى نصف الفائض(١) ، فاختص نفسه أو الحكومة ، وكلاهما شيء واحد ، بنصف حصيلة الفائض ، وترك النصف الآخر للملتزم(٢) . ومعنى ذلك هبوط إيراد الملتزم من هذا الإيراد إلى النصف . وكان معظم علماء الأزهر من المستفيدين من نظام الفائض ، لأنهم كانوا ملتزمين . كما فرض ضرائب على أراضى الوسية –أى الأوسية –كان الملتزمون يحتفظون بهذه الأراضى ويزرعها لهم بطريق السخرة الفلاحون المقيمون فى دائرة الالتزام . وكانت هذه الأطيان تتمتع بالإعفاء الضريبى تمكيناً للملتزمين من استضافة موظفى الحكومة عند مرورهم بجهات الالتزام . وتأثر علماء الأزهر من الإلغاء الضريبى على هذه الأطيان بحكم كونهم من أصحاب الالتزام .

أما المسألة الثانية فكانت أكثر أهمية ، لأنها كانت مصدراً هاماً للغاية من مصادر الإيراد لعلماء الأزهر ، وهى الرزق الإحباسية ، أى الأراضى

---

(١) الفائض أو الفائظ : مصطلح تاريخى سبق شرحه .

(٢) عن نظام الالتزام فى مصر انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ص ص ١٤٥–١٧٠

الزراعية والعقارت المبنية التي حبست للانفاق من إيرادها على المساجد والأسبلة والمدارس والتكايا والخوانق(١) وطلبة أروقة الأزهر واليتامى والأرامل وغير ذلك من وجوه البر . وكانت معفاه من الضرائب، ولا يستطيع الوارث أن يتصرف فيها على أي نحو من الأنحاء. وكان معظم نظار الأوقاف من علماء الأزهر يجمعون إيرادها بمعرفتهم ، وينفقون جزءاً من حصيلة الإيراد على الأغراض التي اشترطها الواقف ، ويئول إليهم الجزء الباقي من إيرادها . فكانت مصدر رزق وخير للمنتظرين عليها . وبدأ محمد على سنة ١٨٠٩ يفرض ضرائب عليها تمهيداً لاستيلائه عليها ، إذوضع يده عليها دون أن يمس مبدأ نظام الوقف ، فيتولى هو تحصيل إيرادها والصرف منه فى الأوجه التي خصصها الواقف ، ويضم الباقي إلى خزانة الحكومة(٢).

وحدث أيضا من قبيل المصادفة أن ألقى القواصة :— رجال الشرطة — القبض على شخص من أهل العلم من أقارب السيد حسن البقلى . وتدخل علماء الأزهر لدى رجال الشرطة للإفراج عنه ، فلم يستجيبوا لوساطتهم ، وصعدوا به إلى القلعة حيث ألقوا به فى غيابات المعتقل . وازداد تذمر علماء الأزهر من هذا الحادث(٣) .

أشياخ الأزهر يعقدون اجتماعين :

توافد فى ٣٠ من يونيو سنة ١٨٠٩ الرجال والنساء وأهل الطالب المعتقل إلى الجامع الأزهر يستغيثون بعلمائه للتدخل لدى محمد على لرفع المظالم التي تكدست عليهم بسبب ضرائبه الابتكارية ولإطلاق سراح الطالب المعتقل

---

(١) الخوانق ويرد ذكرها أيضاً الخانقاوات . ومفردها خانقاه وهو بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر .

(٢) من الإجراءات التنفيذية والتكميلية التي اتخذها محمد على فى نظام الأوقاف ، انظر : الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٩٣ — ٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٩٥ .

« فوعدوهم بالتكلم فى شأن ذلك بعد التثبت » وكان معظم علماء الأزهر مستعدين نفسياً للتحرك ضد محمد على لإلغاء الإجراءات التعسفية التى اتخذها بشأنهم مثل مشاركتهم فى نصف الفائض وفرضه ضرائب على أطيان الأوسية وأراضى الأوقاف المتنظرين عليها. كان العلماء منصرفين فى ذلك الوقت إلى إلقاء دروسهم . فلما احتوى الجامع هذه الحشود فض العلماء حلقات الدراسة واجتمعوا بقبلة الجامع ، وأرسلوا فى استدعاء عمر مكرم . فأسرع إليهم لأنه وجد الفرصة التى ينتظرها قد واتته . واعتقد أن فى مكنته إجبار محمد على باشا على رفع المظالم عن الشعب والعلماء ، وحمله على طلب المشورة منه ومن العلماء ، وتنفيذ الوعد الذى أخذه منه منذ أربع سنوات خلت . يقول أحد الفرنسيين الذين عايشوا هذه الأحداث « إن السيد عمر مكرم كان يعيش منذ مدة طويلة فى عزلة عميقة ، لأنه منذ أن توطد حكم محمد على ، عمل هذا على إقصائه بصورة متزايدة عن الإسهام فى أى عمل من الأعمال العامة ، ولكن لم تغير هذه العزلة شيئاً من أخلاق ومبادىء هذا الشيخ . فكان يرى وهو بداخل صومعته ازدياد النفوذ المطلق الذى انفرد به الحاكم وقد كان هو أول من ألبسه الفرو ونادى به والياً على مصر . . . »(١) :

تداول عمر مكرم مع الزعماء علماء الأزهر فى الموقف واتفقت كلمتهم على نبذ خلافاتهم الشخصية والوقوف صفاً واحداً فى وجه الطاغية . كما استقر رأيهم على الامتناع بتاتاً عن الذهاب إليه والتباحث معه ، وكفاهم وعوده الكاذبة . وقرروا الاكتفاء بتقديم مذكرة ترسل إليه يطلبون فيها إلغاء الضرائب الابتكارية والإجراءات المستحدثة وإطلاق سراح الطالب الأزهرى المعتقل . فإذا استجاب لمطالبهم فلا حرج عليهم إذا هم ترددوا عليه كسابق عهدهم معه . وانصرف الزعماء إلى منازلهم على أن يستأنفوا

Achille de Vaulabelle ; op. cit. t 9, pp. 413 – 414. (١)

اجتماعهم فى اليوم التالى لوضع المذكرة المقترحة . وتم اجتماع الزعماء فى الموعد المحدد - أول يوليو سنة ١٨٠٩ - وفرغوا من صياغة المذكرة وقد سجلوا فيها مطالبهم . وكان هذا الاجتماع صاخباً تحمس فيه الأشياخ وأعلن بعضهم أنه إذا أصر الباشا على المضى فى طريقه الذى يسلكه ، وجب عليهم أن يكتبوا فى شأنه إلى الباب العالى ، وأن يثيروا الشعب على هذا « الطاغية الجديد ، وأن يخلعوه من العرش الذى أجلسوه عليه » .

محمد علي يوفد ديوان أفنديسى إلى أشياخ الأزهر :

نما إلى علم محمد على ما دار فى مناقشات كبار العلماء وعمر مكرم . وكان الباشا قد نجح فى اصطناع صنائع له من مشايخ الأزهر . فلجأ إلى الخديعة والدهاء والمكر السياسى . وأوفد إلى أشياخ الأزهر سكرتير الديوان ، وكان يطلق عليه المصطلح التاريخى « ديوان أفنديسى » وتحدث إليهم حديثاً جمع بين التملق والتهديد والخبث والخداع . طعن فى أخلاق محمد على ورماه بالجهالة والتهور والغرور والنزوع إلى الظلم . واستهدف ديوان أفنديسى استدراج الزعامة الأزهرية إلى الكشف عما يكنه كل منهم من مشاعر نحو محمد على ، وبذلك ينقل إلى مولاه صورة أمينة عنهم . ولكن فوّت الزعماء عليه غرضه ، فتناسوا موقتاً منافساتهم ، وظهروا أمامه فى إجماع رائع وتماسك قوى .

استهل ديوان أفنديسى حديثه مع الزعماء بأنه يحمل إليهم تحيات محمد على ، وقال إن الباشا يريد أن يعرف مطالبهم ، فشرحوا له ماسطروه فى مذكرتهم . ثم اقترح عليهم مقابلة محمد على قائلا « ينبغى ذهابكم إليه وتخاطبوه مشافهة بما تريدون ، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم ، وإنما القصد أن تلاطفوه فى الخطاب ، لأنه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم ولا تقبل نفسه التحكم . وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم إنفاذ الغرض » . ولكن تمسك الزعماء بموقفهم ، وقالوا إنهم بايعوا

الباشا على العدل ولم يبايعوه على الظلم ، ووعدوا بأنهم لن يؤلبوا الشعب عليه « بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنا . ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا »(١) .

وهكذا فشل ديوان أفنديسى فى مهمته . وانفض الاجتماع بعد أن أخذ معه عريضة الزعماء لعرضها على محمد على ، ووعدهم بالعودة إليهم يحمل رد الباشا عليها . ولكن تجاهل محمد على العريضة ، ومضت أربعة أيام وهو يترقب موقف الزعماء عن كثب . وكل مافعله هو أنه أطلق سراح الطالب الأزهرى المعتقل ، ليثبت للجميع أنه لاظلم ولاحبس ولاتعذيب .

دراسة تحليلية لموقف أطراف الصراع فى هذه المرحلة :

كانت العبارة الأخيرة التى وردت على لسان علماء الأزهر لديوان أفنديسى والتى ذكرناها بنصها الحرفى تلخص موقف الزعامة الأزهرية فى هذه المرحلة من الأزمة . ولايحمل هذا الموقف معنى السلبية المطلقة ، لأن الاعتكاف أمر جد خطير ، فهو بمثابة قطع علنى للعلاقات بين الزعامة الأزهرية ومحمد على ، وإعلان صريح بأنه قد خان أمانة الحكم ، وأنه قد نقض الميثاق الذى أخذه الزعماء عليه يوم أن نادوا به والياً على مصر . وكان الزعماء فى هذا الموقف مثلا طيباً للتضامن والتماسك فى الظاهر ، لأنهم سرعان ماتخاذلوا فيما بينهم بعد ذلك الاجتماع .

ولكن أخطأت الزعامة الأزهرية من ناحية أخرى فى تقدير الموقف ، لأن الأوضاع فى مصر ، كما ذكرنا من قبل ، كانت قد تغيرت بعد جلاء الحملة البريطانية ، وبعد أن دعّم محمد على أركان حكمه بنجاحه فى أزمة تطويع الجند . وأصبحت هذه الزعامة غير قادرة على تحريك ثورة جماهيرية

---

(١) انظر تفاصيل مناقشات علماء الأزهر مع ديوان أفنديسى فى هذا الاجتماع فى (الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٩٥) .

ضده ، وإن ظل الشعب يظهر احترامه للزعامة الأزهرية وهى تضم صدور الأشياخ . وإذا كان الرجال والنساء قد احتشدوا فى الجامع الأزهر يوم ٣٠ يونيو ١٨٠٩ ، فلم يكن معنى احتشادهم أنهم مستعدون للثورة على حكومة محمد على ، وإنما ذهبوا إلى الجامع ينشدون تدخل العلماء لدى محمد على لرفع المظالم عنهم بعد أن وقف هؤلاء العلماء موقفاً سلبياً تجاه الضرائب الابتكارية التى فرضها الباشا على الشعب . ولا عبرة بما ذكره الجبرتى عن استطاعة عمر مكرم كبير الزعماء تأليب الشعب ضد محمد على تأسيساً على أن الأخير كان « يخشى صولته • ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره ، إن شاء جمعهم ، وإن شاء فرقهم ، وهو الذى قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الإقليم . ويرى أنه إن شاء فعل بنقيض ذلك »(١) . لأن الجبرتى كان مخدوعاً فى الجماهير كما كان مخدوعاً إلى ذلك الوقت فى تضامن علماء الأزهر ، بدليل أن محمد على استطاع بعد أقل من أربعين يوماً أن يعزله من نقابة الأشراف وأن يبعده عن القاهرة بنفيه إلى دمياط وأن يبعث برسالة إلى الباب العالى يتهم فيها عمر مكرم اتهامات غير صحيحة ، ووقف الشعب موقف المتفرج دون أن يقوم بثورة احتجاجاً على ما رتكبه الباشا فى حق كبير الزعماء . ووقف معظم الأشياخ شامتين بعمر مكرم . وكان الجبرتى أيضاً لكراهيته لحكومة محمد على وتمنيه زوال حكمه لكثرة مظالمه ، يعلق أعذب الآمال على نجاح التحرك السياسى للزعامة الأزهرية ضد محمد على فى هذه المرحلة ، فخابت آماله فيها وفى الشعب :

أما محمد على فكان يعلم علماً يقينياً استحالة استمرار التضامن والتكتل بين أقطاب الزعامة الأزهرية ضده بسبب تنافر العلماء وتحاسدهم

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ص ٩٦ .

وتنافسهم على المناصب تحقيقاً لمزيد من المكاسب وبسبب تدهور أخلاقهم . وكان هؤلاء الأشياخ طرائق قددا . انتهز بعضهم فرصة هذا التحرك السياسي لتحقيق تطلعاتهم الشخصية والفوز بنفعهم الخاص على حساب زملائهم بالزلفى لدى محمد على ، والسعي في حق منافسيهم على مكان الصدارة الذي أرادوا الاستئثار به . ومن هذا الفريق على سبيل المثال الشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الدواخلي . ولم يكن من الصعب على الباشا التلويح لهم بتحقيق مطامعهم في المناصب والإغداق عليهم بالمزايا المالية والعينية .

وكان من بين الأشياخ جماعة من المستضعفين وكان من السهل على الباشا أن يشيع الخوف في نفوسهم ويجعلهم يتخذون موقف الحذر . ومن هذا الفريق الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر حرصاً على منصبه . ثم كان هناك قلة من الزعماء خيل إليهم الوهم أنه قد آن الأوان لمناقشة محمد على الحساب والحد من مظالمه ، وفرض المشورة عليه فرضاً وإجباره على اتباع النصيحة . وتزعم هذه القلة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، ولم يصعب على الباشا إسكات صوته بل واضطهاده حتى يعيش ما تبقى له في الحياة من خطوات منزوياً بعيداً عن الأضواء . وكانت مهمة محمد على هي تعميق التنافر بين عمر مكرم وزملائه من الفريق الأول . وأخيراً كان هناك شيخ من غير المتصدرين هو المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . كان يضمر السخط على الباشا . ولكنه آثر الصمت وعدم الجهر بتذمره إلا في وسط أصدقائه وخاصته ، فكان يمثل المعارضة الصامتة . ورأى محمد على أن يتركه مؤقتاً حتى يقضي عليه قضاء منكراً كما سنوضح فيما بعد . ونخلص من ذلك كله إلى أن محمد على كان مطمئناً من ناحية الشعب ، ومن ناحية الزعامة الأزهرية ، إلى أنه سيكسب الجولة الأخيرة في هذا الصراع .

بداية المؤامرة .

ذكرنا أن محمد على قد تجاهل الرد أربعة أيام على مذكرة علماء الأزهر والتى حملها إليه ديوان أفنديسى أخذ فيها يخطط لقصم عرا الزعامة الأزهرية واستمالة بعض الأشياخ إليه والائتمار بعمر مكرم . وفى اليوم الخامس ذهب الشيخ محمد المهدى والشيخ محمد الدواخلى ، وهما من أعلام المشايخ المتصدرين إلى محمد أفندى طبل ناظر المهمات العسكرية ومن المقربين إلى الباشا(١) . وعقد الثلاثة اجتماعاً مطولا يمكرون السيآت . وكان يجمع بينهم ، كما يقول الجبرتى ، حقد دفين على عمر مكرم ، ثم انفصل محمد طبل عن الشيخين ليذهبا بمفردهما إلى عمر مكرم ، وأبلغاه أن ناظر المهمات قد نفى لهما نفياً باتاً الأنباء التى ترددت حول فرض الضرائب الابتكارية . وأكدا له أن الباشا لا يعتزم تقرير ضرائب مستحدثة ، بل إنه حريص على عدم مخالفة أوامر المشايخ ، « وأنهم إذا اجتمعوا به وتحدثوا معه يحصل كل المراد » . ولكن انبرى لهما عمر مكرم مفنداً ادعاءاتهما ، وقال لهما إن لديه الدليل القاطع على صحة الأنباء التى استفاضت عن فرض الضرائب الجديدة ، وأبرز لهما أوامر مكتوبة صدرت من المباشرين لبعض الملتزمين مشتملة على تقرير الضرائب الابتكارية . وأخذ يذكر أنواعها وأسماءها . أما عن ذهاب الزعماء إلى محمد على ، فقال عمر مكرم « أما الذهاب إليه ، فلا أذهب إليه أبدا .. وإن كنتم تنقضون الأيمان والعهد الذى وقع بيننا ، فالرأى لكم » ... وأدرك عمر مكرم فى هذا الاجتماع الثلاثى أن الشيخين المهدى والدواخلى قد خرجا على وحدة الصف ، لأنهما قبلا الاجتماع بمحمد على وحبذا هذا

---

(١) كان اسمه محمد أفندى الودنلى وعرف أيضاً بطبل أى الأعرج لأنه كان به عرج . انظر مايلى فى الفصل السادس والعشرين .

الاجتماع ، فكان موقفهما صدمة له . وعلم محمد على بتصريحات عمر مكرم . فرأى أن يقرب إليه بعض الزعماء ملوحاً لهم ببعض المناصب هادفاً من ذلك إلى الفصل بين عمر مكرم وبقية الزعماء . فكان يدعوهم لزيارته فرادى في القلعة ويقضى مع كل منهم وقتاً طيباً ، فيغتر كل منهم بذلك ويرى أنه صار من المقربين ، وسيكون له شأن إن وافق ونصح ، فيفرغ له جراب حقده ، ويرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة ، . وكانت المعاونة التي ينشدها محمد على من الزعماء هي إسهامهم في هدم كبيرهم عمر مكرم . وكانت هذه إحدى الوسائل التي لجأ إليها محمد على ليضم إليه نفراً من الزعماء طلاب المنافع أخذ يعدهم ويمنيهم ، وما كان يعدهم إلا غروراً . وقد ضرب هؤلاء الزعماء بالمواثيق والقيم الخلقية عرض الحائط على النقيض من عمر مكرم الذى ثبت على مبدئه لم يرهبه وعيد ، بل صدق ما عاهد الله عليه ، وما بدل تبديلا .

أعاد الكرة الشيخان المهدى والدواخلى لإقناع عمر مكرم بالإقلاع عن موقفه وقررا الذهاب إليه وصحبهما ديوان أفنديسى وعبد الله بكتاش المترجم ، وضغطوا دون جدوى على عمر مكرم ليصعد معهم إلى القلعة ومقابلة الباشا . وطلب الشيخان أن يصحبهما الشيخ محمد الأمير إلى القلعة ، ولكنه اعتذر بأنه متوعك . وصعد الشيخان وديوان أفنديسى والمترجم إلى القلعة تاركين عمر مكرم وقابلوا الباشا .

محمد على يهدد الشعب بقطع الرقاب :

رحب محمد على بالشيخين وأكد الشيخ الدواخلى أنه حاضر عن نفسه وبالنيابة عن الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر . وكان معنى هذه الإنابة أن الشرقاوى كان من بين المتآمرين على عمر مكرم ، ولكنه خشى أن يظهر علانية في المؤامرة تفادياً من اللوم وسوء الظن به ، وأنه ترك للشيخين المهدى والدواخلى أن يحكما فصول المؤامرة إحكاماً دقيقاً .

واستطال الحديث الذى استهله محمد على بقوله أنه يستمع دائماً باحترام وتقدير لكل ما يريد العلماء إسداءه من نصح أو توجيه أو نقد .. ولن يهمل فى أى ظرف أن تكون تصرفاته مبعث ارتياح علماء الأزهر ، وسوف يقبل وساطتهم ولا يرد شفاعتهم . ولكنه يرفض رفضاً باتاً أن يعمد المشايخ إلى عقد اجتماعات عامة فى الجامع الأزهر لإثارة خواطر الأهلين وتحريضهم على الثورة ، وقد سماها « التهييجات الشعبية » . وقال إنه لايريدها لثلاثة أسباب . فهى لا نفع منها ولا طائل تحتها ، ولأنها لا تخيفه ولا تزعجه ، ولأنها إذا قامت فليس لديه إلا السيوف يقطع بها الرقاب . وأضاف محمد على إلى هذا التهديد أن فريقاً من العلماء تحدثوا فعلا عن تحريك ثورة ضده فى أثناء الحماس الذى طغى على اجتماعهم بالجامع الأزهر يوم أول يوليو سنة ١٨٠٩ حين كتبوا عرضحالهم ، ونفى الشيخان المهدى والدواخلى هذه الأقوال التى بلغت الباشا عن علماء الأزهر . وقالا أنه لم يكن يدور فى خلدهم بتاتاً التآمر عليه . وأكدا أنهم كانوا يفعلون فى ذلك اليوم ما اعتادوا عليه من قراءة البخارى عند شعورهم بالضيق رجاءاً من الله سبحانه وتعالى أن يفرج الكروب .

المهدى يتهكم على عمر مكرم :

مضى محمد على فى حديثه يلوم عمر مكرم بسبب تخلفه عن الحضور ، وتعنته فى موقفه ، ويثنى على الباقين الذين انفصلوا عنه . وقال عنه أنه : « فى كل وقت يعاندنى ويبطل أحكامى ويخوفنى بقيام الجمهور » . فقال الشيخ المهدى : « هو ليس إلا منا .. وإذا خلا عنا ، فلا يسوى بشىء .. إن هو إلا صاحب حرفة ، أو جابى وقف ، يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين » ولم يكن الشيخ المهدى فى تهكمه عاملا على هدم عمر مكرم فحسب ، بل كان مع الدواخلى والشرقاوى يهدمون أنفسهم وزملاءهم أعضاء الزعامة الأزهرية . وقد غفلوا تحت تأثير الحقد عن تقدير عواقب عملهم ، فصدق فيهم

قول الجبرتى فى أنهم كانوا غير مفكرين فى العواقب .. ويعلق الأستاذ الرافعى على تهكم الشيخ المهدى بقوله : « إن السيد عمر مكرم لم ينل ما نال من المكانة لتوليه نقابة الأشراف ، بل إن مكانته ترجع إلى شخصيته البارزة ، ونفسيته العالية ، وشجاعته ونزاهته ، وترفعه عن الدنايا وسفاسف الأمور ، ولو لم يكن نقيباً للأشراف لما نقصت مكانته عما صارت إليه من العظمة ورفعة الشأن »(١) .

وعاود محمد على الحديث فى أمر الاجتماعات التى تعقد فى الجامع الأزهر وطلب منعها ، ثم سأل عن السبب فى عقد اجتماع أول يوليو ، كما طلب معرفة أسماء العلماء الذين هاجموا محمد على فى هذا الاجتماع ، فعزا الشيخان عقد الاجتماع إلى الحشود الشعبية التى تقاطرت على الجامع وكان هياجها حافزاً عليه . ومع ذلك كان العلماء متخفظين مع هذه الجموع فوعدوها بالتدخل لدى الباشا لرفع الضرائب المستحدثة بعد التثبت من صحة ادعاءات الجماهير . وزعم الشيخان أنهما تهربا من الإجابة على السؤال الثانى ، كما قالا بعد ذلك لعمر مكرم ، وهو قول بعيد عن الصحة ، لأن معظم الحديث كان يدور فى المجال الشخصى لعمر مكرم والتهكم عليه وتجريده من كل فضل .. فلابد أنهما ذكرا اسمه صراحة ، وما كان محمد على فى حاجة إلى معرفة اسم الزعيم المحرض . وإنما كان سؤاله من قبيل التهديد وإثارة الرعب فى قلوب بقية أعضاء الزعامة الأزهرية ، وقد استبان للشيخين المهدى والدواخلى فى أثناء هذه المقابلة هدف محمد على ، وهو تحطيم نفوذ عمر مكرم. وتلاقت هذه الرغبة مع رغبة معظم الزعماء ، وانفض الاجتماع . وانصرف الشيخان إلى دار عمر مكرم ونقلا إليه جزءاً من حديث محمد على معهما ، وأضافا إلى ذلك أنه وعد بإلغاء ضريبة التمغة على المصوغات الذهبية والفضية ، وكانت هذه الضريبة من الضرائب المستحدثة . كما أنه وعد بتخفيض نصيبه

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٢ .

من الفائض إلى الربع بدلا من النصف . وأنه أنكر الطالب بضرائب أطيان الأوسية والضريبة التى قررها على إقليم البحيرة على أراضى الرزق الإحباسية . ولم يقتنع عمر مكرم بهذه الأقاويل . وانصرف الشيخان من دار عمر مكرم دون أن ينجحا فى ضمه إليهما .

استطال النزاع بين محمد على وعمر مكرم أسابيع ذات عدد ، ولم يبد فى الأفق بارقة أمل فى إنهاء النزاع على نحو مرض للطرفين ، فعمر مكرم مُصر على رأيه . ويطالب بأن يبادر محمد على أولا وقبل كل شىء إلى إلغاء جميع الضرائب الابتكارية فوراً . أما محمد على فكان متمسكاً بعدم المساس بسياسته الضريبية كى يستطيع تنفيذ مخططه السياسى الذى أشرنا إليه . وكان وجه الخطأ فى تقدير محمد على للموقف أن عمر مكرم على شاكلة زملائه العلماء الوصوليين الانتهازيين ، وتدهورت العلاقات بينهما سريعاً ، وكان لمعظم الزعماء دورهم فى تصاعد النزاع ، إذ « انفتح بينهم باب النفاق ، واستمر القيل والقال ، وكل حريص على حظ نفسه ، وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما فى ضميره »(١) .

اجتماع كبير صاخب يدلى فيه عمر مكرم بتصريحات خطيرة :

أوفد محمد على مرة أخرى ديوان أفنديسى ومعه عبد الله بكتاش المترجم وقابلا عمر مكرم فى داره حيث عقد فى ١٤ يوليو سنة ١٨٠٩ اجتماع هام شهده الزعماء . وحاول الجميع أن يزحزحوا عمر مكرم عن موقفه وأن يستميلوه لمقابلة محمد على . فانفجر فيهم مستنكراً محاولتهم ومذكراً إياهم بالقسم الذى أقسموه بالتضامن ، وانتقل إلى مهاجمة محمد على ، فقال عنه إنه حاكم ظلوم جُبل على استنزاف أموال الشعب ، وتنبأ بأنه إذا طال بمحمد على حكم مصر فإن المظالم ستشتد وطأتها على الشعب . وكان مما رواه الجبرتى عن هذا الحديث الصاخب « فحلف السيد عمر مكرم أنه لا يطلع إليه ،

(١) يوميات شهر جمادى الأولى ١٢٢٤ فى (الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٩٦ — ٩٧) .

ولا يجتمع به ، ولا يرى له وجهاً إلا إذا أبطل هذه الأحدوثات . وقال إن جميع الناس يتهمونى معه ، ويزعمون أنه لا يتجارأ على شىء يفعله إلا باتفاقى معه ، ويكفى ما مضى . ومهما يتقادم يتزايد فى الظلم والجور وتكلم كلاماً كثيراً »(١) . وقد التزم الجبرتى الصمت إزاء هذا الكلام الكثير ، ولكن ذكره المعاصرون ، إذ قرر مانجا أن عمر مكرم أضاف إلى هذا الكلام النارى تهديده بإحالة الموضوع إلى الباب العالى إذا أصر على المضى فى سياسة الظلم ، كما توعد بتحريك الشعب للثورة عليه وخلعه من الولاية كما فعل مع خورشيد باشا من قبل(٢) ، وأضاف عمر مكرم ، فى رواية جوا ، Gouin أنه قال : «وكما أصعدته إلى الحكم ، فإنى قدير على إنزاله منه »(٣) .

كانت هذه الاتهامات التى وجهها عمر مكرم إلى سياسة محمد على ، والشجاعة الأدبية التى أبداها فى مواجهة ديوان أفنديسى وعبدالله بكتاش ، وكانا منلوىْ الباشا ، كفيلة بأن تحمل علماء الأزهر على تنسيق خططهم مع خطة عمر مكرم بالامتناع عن الذهاب إلى محمد على حتى يلغى كافة الضرائب المستحدثة ويعود إلى مشاورتهم فى مسائل الحكم . ولكن كان هؤلاء الزعماء ، أو مشايخ الوقت ، أضعف من أن يقفوا مثل هذا الموقف . فقد كان يسيطر على تصرفاتهم الحقد والتنافس والرغبة فى التقرب إلى محمد على وصولا إلى المناصب الكبرى . وكان محمد على من الدهاء والخداع والخبث بحيث استطاع أن يغذى هذه الفرقة . فأصبح الزعماء النفعيون فى جانب ، وعمر مكرم فى جانب آخر ، مما جعل بعض الباحثين يصورون عمر مكرم فى صورة الزعيم الذى كان يعوزه بعد النظر والحكمة والمرونة والحصافة السياسية(٤) .

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٩٧ .

(٢) Mengin, F.; op. cit., t. 1. 234.

(٣) Gouin, E.; op. cit., p. 206.

(٤) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن إلخ ، ج ٣ ، ص ١٢٢٥ .

وفد من كبار العلماء يذهب إلى محمد على :

ولما أخفقت محاولات المجتمعين فى استمالة عمر مكرم للذهاب إلى محمد على ، قرروا أن يقوموا بهذه الزيارة . وتألف وفد من المشايخ عبد الله الشرقاوى ، ومحمد المهدى ، ومحمد الدواخلى ، وسليمان الفيومى ، وهكذا انضم طوعاً وعلانية شيخ من المتصدرين النفعيين إلى موكب العلماء الوصوليين . وأرسلوا مرة أخرى إلى الشيخ محمد الأمير لينضم إليهم فى ذهابهم إلى محمد على فاعتذر بأن صحته لا تقوى على ركوب دابته والصعود إلى القلعة .

وفى ذات اليوم تمت مقابلة أولئك العلماء الأربعة مع محمد على فى جو يسوده النفاق « وقد فهم كل منهم لغة الآخر الباطنية » . وتطرق الحديث إلى موضوع الضرائب المستحدثة ، وصوح لهم بعزمه على إلغاء ضريبة التمغة وضريبة الأطيان على الأراضى الأوسية وتخفيض ضريبة الفائض إلى الربع . وعاد العلماء إلى عمر مكرم وأخبروه بهذه القرارات التى أزمع إصدارها . فقال لهم : « وهل أعجبكم ذلك ؟ وهل اقتنعتم بما قاله لكم محمد على؟» . ومضى يقول للزعماء إن محمد على كان قد بعث إليه يخبره بأمر تخفيض ضريبة الفائض إلى الربع ، فرفض عمر مكرم ، وأبى إلا إلغاءها إلغاءً تاماً ، لأنه فى العام السابق — ١٨٠٨ — لما أراد استحداث هذه الضريبة بمقدار الربع عارضه عمر مكرم خشية أن تكون سابقة تعتمد عليها الحكومة فى فرضها فى السنوات التالية ، فأقسم محمد على أن هذه الضريبة لن تفرض إلا فى ذلك العام (١٨٠٨) وذلك لمواجهة دفع المرتبات المتأخرة للجنود ، وقال محمد على يومئذ إنه إذا فرضها مستقبلا يكون ملعوناً ومطروداً من رحمة الله ، وعاهد عمر مكرم على ذلك . وقال عمر مكرم للزعماء موبخاً إنهم يعلمون هذه الحقائق تمام العلم ، فلم يسعهم إلا الاعتراف .

وانتقل عمر مكرم يجادل الزعماء فيما ذكره محمد على لهم عن إلغاء ضريبة الأوسية ، فقال إن هذا الإلغاء ليس إلا زعماً لا أساس له . وقال إن لديه

مستندات تثبت أنه شرع بجمع هذه الضريبة من مديرية البحيرة ، وكانت تضم بلداناً داخلة فى دائرة التزام عمر مكرم ، فرد الزعماء بأنهم أثاروا هذا الموضوع مع محمد على فأنكره أولا ثم اعترف به ثانياً حين أخبروه أن لدى عمر مكرم مستندات. وقد برر فرض هذه الضريبة تبريراً غريباً ، فقال إن إنشاءها إنما هو إجراء عقابى وتأديبى لأهالى البحيرة لتدليسهم على موظفى الحكومة ، إذ كان الأهالى يقدمون لهم معلومات مزورة . فإذا كان فى البلدة خمسمائة فدان تروى رياً عادياً ، قالوا عنها إنها مائة فدان فقط ، فأجاب عمر مكرم مستنكراً هذا التبرير قائلا « وهل ذلك أمر واجب فعله ؟ أليس هو مجرد جور وظلم أحدثه فى العام الماضى وهو فرضة الأطيان التى ادعى لزومها لإتمام العلوفة وحلف أنه لا يعود لمثلها . فقد عاد وزاد وأنتم توافقونه وتسايرونه ، ولا تصدونه ، ولا تصدعونه بكلمة .. وأنا الذى صرت وحدى مخالفاً وشاذاً ؟؟ » . وهكذا أثبت عمر مكرم لهم أنهم فى مقابلتهم لمحمد على لم يكونوا يمارونه إلا مراءاً ظاهراً غير متعمق ، وأنهم وهنوا وضعفوا واستكانوا أمامه حتى خدعهم خدعاً ؛ وألقى فى أذانهم بمفتريات يعلمون جيداً كما يعلم هو أنها كاذبة . فكان محمد على فى قرارة نفسه يسخر منهم ويسخر بعقولهم .

وغادر الزعماء دار عمر مكرم . ويصف الجبرتى حالهم بعد اجتماعهم بزعيمهم « .. وانفض المجلس وتفرقت الآراء ، وراج سوق النفاق ، وتحركت حفائظ الحقد والحسد ، وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار »(١) .

محمد على يحاول رشوة كبير الزعامة الأزهرية :

ظن محمد على أنه من المحتمل أن يكون سبب تعنت عمر مكرم معه هو سعيه إلى المال ، فحاول أن يجرب معه هذا السلاح . وأرسل إليه كتخداه ،

---

(١) من يوميات شهر جمادى الآخرة ١٢٢٤ فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٩٧ .

أى نائبه ، واسمه محمد أغا لاظ(١) « ليترفق به » على حد تعبير الجبرتى ، ويعرض عليه عطاء غير مجنوذ ، فيرتب له كل يوم كيسا أى خمسة جنيهات ، وهو مبلغ كبير بالنسبة للقوة الشرائية للعملة فى ذلك الوقت ، وأن يقدم له عطاءاً معجلا قدره ثلاثمائة كيس أى ألف وخمسمائة جنيه(٢) . فرفض عمر مكرم ، ولم يطلب إلا أن يرفع محمد على المظالم عن الشعب بإلغاء كافة الضرائب المستحدثة إلغاءاً فورياً . وهذا ما لم يستطع محمد على قبوله ، لأنه كان فى صدد تنفيذ مشروعات كبرى يتطلب الإنفاق عليها إطلاق يده فى سياسته الضريبية .. وأدرك الباشا أن الباعث الرئيسى لمعارضة عمر مكرم هو رغبته فى المشاركة فى الحكم عن طريق التشاور معه . ولم يكن فى مكنة محمد على طلب المشورة منه أو من بقية أفراد الزعامة الأزهرية ، لأن هذا الطلب يتنافى مع رغبته فى الانفراد بالسلطة وهو قاعدة بنى عليها برنامج حكمه فى سياسة شئون البلاد الداخلية والتى اندرجت تحت برنامجه الأعلى واستقراره فى باشويته والظفر بالحكم الوراثى فى مصر(٣) . ولكن يهمنا هنا أن محمد على أراد شراء عمر مكرم بالمال بعد أن أخفق فى محاولاته العديدة فى مصالحته بتدخل الوسطاء ، كما أن عمر مكرم كان يعلم علماً يقينياً أن محمد على غير صادق فى وعوده سواء بالإلغاء الفورى للضرائب المستحدثة أو بطلب النصح والمشورة من الزعامة الأزهرية .

عمر مكرم يتهم محمد على بالاختلاس والتزوير :

حدث أنه أوفدت حكومة إستانبول رسولا يطالب بأربعة آلاف كيس كانت متبقية لها على مصر من المبالغ الذى خصصه القبطان صالح باشا فى أثناء

---

(١) هو غير أحمد أغا لاظ ، ولو أنه من بلده ، وكان أحمد هذا حاكماً على قنا ونواحيها . ولكنه اشترك فى مؤامرة ضد محمد على ، فاستدعاه إلى القاهرة وأمر بذبحه فى ليلة ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٧ (٣/٤ أكتوبر ١٨١٢) .

(انظر الجبرتى ، ج ٤ ، ص‌ص ١٤٧ — ١٤٨) .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن .. إلخ ، ج ٣ ، ص ١٢٣٧ .

أزمة النقل إلى سالونيك . وقد وصل الرسول إلى القاهرة فى ٢٨ يونيو ١٨٠٩ أى قبل أول اجتماع للزعامة الأزهرية بالجامع الأزهر بيومين اثنين فحسب. وأراد محمد على أن يتنصل من سداد هذا المبلغ ، فعقد اجتماعاً حضره أعضاء الزعامة الأزهرية عدا عمر مكرم الذى رفض الحضور . وقد وضعت فى هذا الاجتماع مذكرة حشدت بالأكاذيب ليرسلها محمد على إلى إستانبول . وبلغت به الجرأة على الحق أنه قرر فيها أن خزانة الحكومة خاوية نتيجة إنفاق إعتمادات مالية ضخمة خصصت لمشروعات التعمير مثل سد ترعة الفرعونية(١) وإقامة منشآت عسكرية فى القلعة ، وترميم القناطر وحفر الترع ، وأنه أنفق ثمانمائة كيس على تجهيز الحملات لمحاربة المماليك . وقرر أيضاً فى المذكرة أن ضريبة الأطيان قد انخفضت حصيلتها بسبب انخفاض فيضان النيل فى العام السابق . وقد وقع علماء الأزهر على المذكرة ومهروها بأختامهم(٢) . ثم حمل المذكرة رسول إلى عمر مكرم للتوقيع عليها وختمها بصفته نقيباً للأشراف قبل إرسالها إلى إستانبول. فامتنع ولم يتشكك فى صحة الأرقام فحسب، بل طعن بالتزوير فى البيانات التى تضمنتها باباً باباً، وقال للرسول «أما ماصرفه فى سد الترعة الفرعونية ، فإن الذى جمعه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافاً كثيرة، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له . وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر »(٣) .

---

(١) كانت هذه الترعة تصل بين فرعى النيل مبتدئة من بير شمس ومارة بمنوف ثم تصب فى فرع رشيد . وكان الهدف منها تغذية مياه هذا الفرع من مياه فرع دمياط . ولكنها أضرت بالأراضى الواقعة على فرع دمياط والتى تروى منه وبخاصة من المنصورة وما يليها شمالا ، إذ طغت مياه البحر عليه واختلطت بماء النيل وأفسدته بملوحتها إلى قبلى فارسكور وحرمت زراعة الأرز من ماء الرى العذب. ولما اشتكى الأهالى سدها محمد على بجسر من الأحجار يمنع انسياب مياه فرع دمياط إلى الفرع الآخر. وحفر ترعاً أخرى تعوض الأراضى ما كان يجيئها من ترعة الفرعونية قبل سدها. وقد أشار الجبرتى إلى سد هذه الترعة فى ج ٤ ، ص ٨٨ ، ص ٩١ .

(٢) الخطط التوفيقية لعلى مبارك ، ج ١ ، ص ٦٨ .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٩٨ .

فلما نقل إليه الرسول هذه الاتهامات الخطيرة اشتد حنقه ، وأرسل المذكرة إلى الباب العالى فى ١٤ يوليو ١٨٠٩ دون توقيع عمر مكرم .

وطلب محمد على الاجتماع بعمر مكرم ، واشترط كبير الزعماء قبل أن يتم الاجتماع أن يلغى محمد على فوراً جميع الضرائب المستحدثة . ولما أكثر محمد على من التراسل ، قال عمر مكرم إذا كان لا مناص من الاجتماع به فتتم المقابلة فى منزل الشيخ السادات لتكون المقابلة على سواء « أما طلوعى إليه فلا يكون » . وبلغت الأزمة منتهاها ، إذ رأى محمد على هذا الشرط الجديد تحقيراً لشأنه ، وقال « إنه باغ به (بعمر مكرم) أن يزدرينى ويرذلنى ويأمرنى بالنزول من محل حكمى إلى بيوت الناس »(١) . وكان هذا الشرط هو بداية الكارثة التى أنزلها محمد على بكبير الزعامة الأزهرية .

محمد على يعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف وينفيه إلى دمياط :

اعتزم محمد على الاقتصاص من عمر مكرم ، ولكنه رفض أن يكون العقاب من النوع الذى كان مألوفاً فى ذلك الوقت والذى ألفه هو وبرع فيه من الذبح أو القتل أو السجن . واتجه تفكيره إلى عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط ، ولجأ إلى طريقة ظاهرها التمسك بقواعد الشرع ، وباطنها استغلال النفوذ وشراء ذمم الزعماء ضعاف النفوس ، فيكون عقابه فى نطاق الأوضاع الشرعية المألوفة وقتذاك ، بأن يدعوه إلى الاحتكام فيما شجر بينهما من خلاف أمام مجلس شرع يتألف من القاضى وكبار علماء الأزهر الوصوليين . وكان مطمئناً من قبل إلى تحيزهم له . وبهذا الإجراء يضيق الخناق على عمر مكرم . فإذا هو استجاب للدعوة بالحضور وقبل حكم مجلس الشرع خرج منه مغلوباً ، وحينئذ يكون لمحمد على الحق فى أن ينفذ حكمه المزدوج المسبق جزاء خروجه بدون حق على ولى الأمر . وإن لم يحضر

---

(١) المصدر السابق ، ذات الجزء ، وذات الصفحة .

كان امتناعه فى ذاته خروجاً على السلطة الشرعية (١) . فالمؤامرة كانت محكمة التدبير اشترك فيها مع محمد على مشايخ الوقت ، ولولا تخاذلهم و نقضهم للعهود لما استطاع محمد على أن ينال من خصمه منالا .

نزل محمد على من القلعة إلى دار ابنه إبراهيم بك الدفتردار بالأزبكية فى صباح ٩ أغسطس ١٨٠٩ ، وطلب القاضى والشيخ محمد السادات الطامع فى نقابة الأشراف منذ أمد بعيد والشيخ الشرقاوى وسائر العلماء المتصدرين لعقد مجلس الشرع . وتقرر إرسال مندوبين إلى عمر مكرم ، أحدهما من طرف الباشا ، والآخر من طرف القاضى يدعوانه إلى الحضور ، وأدرك عمر مكرم أبعاد المؤامرة . ورأى أن من العبث أن يذهب إلى مجلس شرع يعلم من رأى أعضائه ومن تواطئهم مع خصمه ما يجعل الاحتكام إليهم عديم الجدوى ، فآثر الامتناع عن إجابة الدعوة ، واعتذر لأنه شرب دواء وليس فى مقدوره الحضور فى هذا اليوم ، فأثبت القاضى فى محضر المجلس امتناع عمر مكرم عن الحضور . وكان محمد على قد أحضر معه خلعة ، فألبسها للشيخ محمد السادات رمزاً لتعيينه نقيباً للأشراف بدلا من عمر مكرم الذى عزله من النقابة . وأمر فى ذات الوقت بكتابة فرمان محلى بنفى عمر مكرم إلى دمياط (٢) . وكانت هذه المدينة منفى للمغضوب عليهم .

وتظاهر مشايخ الوقت بالعطف على عمر مكرم نفاقاً ورياءاً ، فتشفعوا لدى محمد على لإمهاله ثلاثة أيام حتى يقضى أشغاله ، فأجيبوا إلى ذلك . ثم سألوه فى أن يذهب إلى أسيوط مسقط رأسه . فرفض الباشا وقال : إما الإسكندرية أو دمياط . وتلقى عمر مكرم هذه الضربة متجلداً ، وقال : « أما منصب النقابة فإنى راغب عنه زاهد فيه ، وليس فيه إلا التعب ،

---

(١) Paton, A.A.; A History of the Egyptian Revotuion, from the period of the Mamelukes to the death of Mohammed Aly. 2 vols., 2nd edition, London, 1870. vol. 2. pp. 27-28.

(٢) أمين سامى ، تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

وأما النفى فهو غاية مطلوبى وأرتاح من هذه الورطة .. ولكن أريد أن يكون فى بلدة لم تكن تحت حكمه إذا لم يأذن لى فى الذهاب إلى أسيوط . فليأذن لى فى الذهاب إلى الطور أو إلى درنة(١) (فى طرابلس الغرب) . ولما نقلت هذه الرغبة إلى محمد على رفضها ، ولم يرض إلا بذهابه إلى دمياط ، وأمر عمر مكرم باشجاويش النقابة أن يأخذ الشاويشية الذين يقفون على باب دار النقابة ويذهب بهم إلى دار نقيب الأشراف الجديد الشيخ محمد السادات وأخذ يستعد للسفر .

لمسة وفاء :

وبدت لمسة وفاء من أحد أعيان القاهرة وهو محمد المحروقى ابن شاه بندر التجار ، أى كبير التجار ، أحمد المحروقى المتوفى منذ نوفمبر سنة ١٨٠٤. فقد ذهب فى ١٠ أغسطس ١٨٠٩ ، وهو اليوم التالى لاجتماع مجلس الشرع ، إلى محمد على وأخبره أن عمر مكرم قد أقامه وكيلا على أهل بيته وتعلقاته « فأجازه بذلك وقال هو آمن من كل شيء ، وأنا لم أزل أراعى خاطره ، ولا أفوته » . وطلب محمد المحروقى ابن ابنة عمر مكرم وقابله بالباشا وطيب خاطره ، ولكنه أصر على ضرورة سفر جده إلى دمياط . ولما ذاع بين الجماهير نبأ صعود الغلام إلى القلعة لمقابلة الباشا أحسنت الظن بمحمد على . واعتقد الشعب الطيب القلب أنه عدل عن قراره واحتواه شعور دافق بالابتهاج الشديد . وكان أفراد أسرة عمر مكرم أكثر الناس ابتهاجاً بطبيعة الحال ، وأطلقت نساؤها الزغاريد. واستمر الجميع سادرين فى الوهم والخيال ، حتى إذا عاد الغلام من القلعة وعرفوا الحقيقة انقلبت أفراحهم أتراحاً(٢) .

---

(١) جاءت فى كتاب الجبرتى ، طبعة بولاق (ورنه) ، وهى خطأ مطبعى ، وقد صححه كل من الدكتور فؤاد شكرى (ج ٣ ، ص ١٢٣٩) والرافعى فى (عصر محمد على ، ص ٧٥) والشناوى فى (عمر مكرم ، ص ٢٤٤) .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

ترحيل عمر مكرم إلى دمياط :

حدد محمد على أول رجب ١٢٢٤ (١٢ أغسطس ١٨٠٩) موعداً لترحيل عمر مكرم ، وندب أحد الضباط ليصحبه فى رحلته إلى دمياط . واجتمع المودعون لتحية كبير الزعماء ، وحضر الضابط إلى داره فقام عمر مكرم فى الحال وركب دابته فى حراسة عسكرية ، وذهب إلى بولاق حيث استقل سفينة أعدتها له الحكومة وأبحرت به ليلا إلى دمياط . ووصف الجبرتى وداع القاهريين له وحزنهم على فراقه لهم بقوله : « وشيعته الكثير من المتعممين وغيرهم ، وهم يتباكون حوله حزناً على فراقه . وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر « القاهرة » ، لأنه كان ركناً وملجأ ومقصداً للناس ، ولتعصبه على نصره الحق »(١) . وفى ١٩ أغسطس عاد الضابط من دمياط إلى القاهره بعد « تشييع عمر مكرم ووصوله إلى دمياط واستقراره بها » . وكان هذا النفى هو النفى الأول لعمر مكرم والمرحلة الأولى والهامة لمأساته وأفول نجمه السياسى .

سلبية الجماهير :

والأمر الجدير بالذكر أن الجماهير اتخذت موقفاً سلبياً تجاه مأساة عمر مكرم . فلم تتحرك إلى ثورة أو على الأقل إلى انتفاضة اعتراضاً على نفى كبير الزعامة الأزهرية ، لأن هذه الزعامة كانت قد اهتزت فى نظر القاعدة الجماهيرية التى رأت عمر مكرم وأقرانه علماء الأزهر المتصدرين يلتزمون الصمت تجاه المظالم التى أنزلها محمد على بها فى سنوات ١٨٠٥ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ ، ١٨٠٨ حتى منتصف ١٨٠٩ ، ولذلك لم يتحرك أحد من (الرعية) للتمسك ببقاء عمر مكرم والحيلولة دون نفيه ، لأنه وإن كان موضع الاحترام عند الجميع ، فإن هذا الاحترام لم يكن معناه تعاق الجماهير به إلى الدرجة التى تدفعها إلى ثورة أو انتفاضة من أجله . فكان كل ما ظفر به عمر مكرم

(١) المصدر السابق ، ذات الجزء وذات الصفحة .

من حقوق الزعامة أن « اغتم الناس على سفره وخروجه ؛ » كما ذكر الجبرتى .

ولم يشمت الجبرتى بعمر مكرم ، فعلى الرغم من التقدير العميق الذى كان يكنه الجبرتى له ، لم يتمالك نفسه من إبداء الحق عليه ، لأنه كان السبب فى تولية محمد على حكم مصر . فقال إن الضيم الذى نزل بعمر مكرم على يد الباشا هو بعض ما يستحقه . ونورد هنا النص الحرفى لتعليق الجبرتى على النهاية المؤسفة التى انتهت إليها الحياة السياسية لعمر مكرم « وأما السيد عمر فإن الذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحداً »(١) .

أكاذيب صارخة يلصقها محمد على ومعظم علماء الأزهر بعمر مكرم بعد نفيه :

كان محمد على يشعر فى قرارة نفسه أن الإجراءات التى اتخذها ضد عمر مكرم إنما هى إجراءات تعسفية ، وخشى أن تراجعه فيها دوائر الباب العالى فى إستانبول ، أو قد تطالب منه إيضاحاً عن حقيقة الموضوع .. وخشى أيضاً أن يرفع عمر مكرم التماساً إلى السلطان يتظلم فيه من قرار محمد على بعزله من نقابة الأشراف ونفيه . فأراد أن يحتاط لمثل هذه الاحتمالات. ويلاحظ أن قرار تعيين عمر مكرم نقيباً للأشراف كان قد صدر فى المرة الثالثة من إستانبول فى أبريل ١٨٠٢ بعد أن عزلت الحكومة العثمانية أفندياً تركياً أقام نفسه نقيباً للأشراف فى مصر(٢) .

واتجه تفكيره إلى إرسال « عرضحال » إلى الحكومة المركزية فى إستانبول يبرر فيه تصرفاته . وأمر علماء الأزهر بكتابته وتنميقه والتوقيع عليه ، ويسوقون فيها اتهامات كاذبة ضد عمر مكرم .. وهذا الاتجاه يدحض تصريحات

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

(٢) انظر ملابسات تعيين هذا الأباف فى منصب نقيب الأشراف فى مصر وعزله فى : (دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم إلخ ، ص ص ٩٢ – ٩٧) .

محمد على لمحمد المحروق بأنه لم يزل يراعى خاطر خصمه وأنه آمن من كل شيء ، كما أن هذا الاتجاه يدل على أن محمد على اتخذ من علماء الأزهر أدوات يستغلهم أسوأ استغلال فى الكذب والتضليل من ناحية أخرى ، إذ صدع المشايخ بالأمر وجاء عرضحالهم مليئاً بمجموعة من الأراجيف ، والاتهامات الباطلة دليلا على أن علماء الأزهر أو معظمهم قد انحدروا إلى الإسفاف فى الخصومة الجارحة لزعيمهم السابق .

قرر المشايخ فى عرضحالهم أن عمر مكرم أدرج فى سجلات الأشراف أفراداً ممن أسلموا من الأقباط واليهود . ومن المعلوم أن الأشراف هم الذين من نسل النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقالوا إنه استبعد فريقاً من الأشراف وأوقف صرف استحقاقاتهم فى الأوقاف ووجهها إلى الأقباط واليهود الذين أسلموا . ومضى المشايخ فى اتهاماتهم ، فقالوا إنه أضاف أيضاً إلى سجلات الأشراف عدداً من أشرار الناس ، وأنه أغرى الأمراء المماليك على استدراج على باشا الجزائرلى الوالى العثمانى من الإسكندرية إلى القاهرة ، وقتله فى صحراء الشرقية ، ونسبوا إلى عمر مكرم أيضاً أنه استولى على رشا من محمد بك الألفى قبل موته لتمكينه من احتلال القاهرة فى أثناء حكم والى مصر أحمد خورشيد باشا ، وأنه تواطأ مع المماليك ، وسماهم علماء الأزهر فى عرضحالهم ، البغاة المصريين ليدخلوا القاهرة على حين غفلة من أهلها يوم الاحتفال بوفاء النيل ، وكانوا يشيرون إلى حادث ١٦ أغسطس ١٨٠٥ .
كما اتهم المشايخ عمر مكرم بأنه سعى لتدبير انقلاب يعصف بحكم محمد على وليولى أحداً غيره . وهذا الاتهام يثير الباب العالى على عمر مكرم ، لأنه يظهره فى صورة السياسى المحترف الذى أصبح خبيراً فى إسقاط الولاة وتعيين غيرهم دون استئذان السلطان بصفته صاحب السيادة على مصر .
وانتقل الزعماء فى عرضحالهم إلى اتهام آخر فزعموا أن عمر مكرم قام باتصالات سياسية عرّضت أمن الدولة للخطر ، إذ تخابر مع أعداء الدولة وقت الحرب حين قدمت حملة فريزر البريطانية إلى مصر سنة ١٨٠٧ واحتلت مدينة

الإسكندرية ، ولكن نصر الله عليهم العساكر الإسلاميـــة وغير ذلك من عبارات عكس القضية وتحقيق الأغراض النفسانية » وخلص زعماء الأزهر من هذه الاتهامات فى عرضحالهم إلى القول بأن عمر مكرم هو السبب فى خراب مصر وإثارة الفتنة ، وأنه يعمل على تكوين عصبيات من أهل الصعيد ومن المغاربة والعامة ليكونوا عدته وعشيرته فى تنفيذ مخططاته السياسية(١) .

وإذا كان هذا العرضحال وما حواه من تهم باطلة قد كتب بإرشاد محمد على وتوجيهاته ، فإن الجبرتى يذكر صراحة أن الشيخ محمد السادات هو الذى وضع صياغته ، فهو يقول فى ترجمته الضافية له «.. أظهر الشيخ السادات الكامن فى نفسه ، وصرح بالمكروه فى حق السيد عمر ومن ينتمى إليه أو يواليه . وسطر فيه عرضاً مختصراً إلى الدولة نسب إليه فيه أنواعاً من الموبقات »(٢) . وهكذا كان أحد كبار الزعماء المتصدرين قد دفعه حقده على عمر مكرم إلى أن ينحرف عن جادة الحق والصواب فيكيل التهم الباطلة فى مذكرة رسمية ترفع إلى الباب العالى . وكان أسلافه زعماء مصر من علماء الأزهر فى القرن الثامن عشر قدوة طيبة فى الورع والتقوى والترفع عن الصغائر والزهد فى الدنيا ، كما كانوا أصحاب جرأة فى الحق يعظون الحكام ويغلظون لهم فى القول ويتوعدونهم بعذاب جهنم إذا سدروا فى غيهم .

وبعد أن وُضع هذا العرضحال كتبت عليه أسماء جميع المشايخ ثم حُمل إليهم ليضعوا عليه أختامهم ، ورفض بعض المشايخ من ذوى الضمائر أن يختموا عليه ، وقالوا إن هذه الاتهامات لا سند لها من الحقيقة . وحدث هرج ومرج بين المتحمسين لإرسال العرضحال إلى إستانبول ، وهم أبواق محمد على وصنائعه ، والممتنعين . وقال الأولون إنهم لا يقلون ورعاً وتقوى وتديناً

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٠٠ ، وتكملة العرضحال ، فى ص ص ١٩٣– ١٩٤ .
(٢) المصدر السابق ، ذات الجزء ، ص ص ١٨٥ – ١٩٧ .

عن الممتنعين ، ثم تطاولوا عليهم بالسب والضرب ، وانتهى بهم الأمر إلى وضع صياغة لفظية أخرى أخف فى أكاذيبها وتحاملها على عمر مكرم وختم عليها بعض الممتنعين . وأرسل محمد على هذه « الفتوى الشرعية » إلى الباب العالى فى إستانبول مستنداً إليها فى الإجراءات التى اتخذها ضد عمر مكرم « حسماً لما هو حاصل من المداخلة فى شئون الولاية »(١) .

التنكيل بأحد المشايخ الممتنعين :

كان الممتنع عن ختم العرضحال «أولا وآخراً» هو الشيخ أحمد الطحطارى (٢) مفتى الحنفية ، لم تخذله شجاعته فاستنكر ما سطر فيه . وكان موقفه الرائع مدعاة لتحامل معظم المشايخ عليه وبخاصة الشيخ السادات والشيخ محمد الأمير . وتهدده الزعماء بعزله من منصبه ، ولكنه لم يخش غضبهم ولم يرهبه جبروت محمد على ، ولم يمر أسبوعان حتى اجتمعت كلمة محمد على والزعماء النفعيين على عزل الشيخ الطحطاوى من إفتاء الحنفية فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٩ ، وعينوا مكانه الشيخ حسين المنصورى . وركب معه بعض العلماء المتصدرين دوابهم وصعدوا به إلى القلعة حيث خلع عليه محمد على خلعة الإفتاء ، ثم نزلوا به وطافوا على بقية الزعماء للسلام عليهم ، وخلعوا هم أيضاً عليه الخلع .. ولما بلغ الشيخ أحمد الطحطاوى نبأ عزله لم يكترث لهذا النبأ ، وطوى الخلع التى كانوا قد ألبسوها له عندما تقلد الإفتاء . وكان الشيخ السادات قد ألبسه وقتذاك فروة . فلما ردها عليه استاء من تصرفه وعده إهانة كبرى له ، « وأخذ يسبه ويذكر لجلسائه جرمه ويقول انظروا إلى هذا الخبيث كأنه يجعلنى مثل الكلب الذى يعود فى قيئه ، ونحو ذلك »(٣) .. وما كان الطحطاوى بالخبيث ولا بالمنافق ، فقد احتفظ لطائفة علماء الأزهر بقبس من جلالها وروعتها وسط دياجير الظلام . وبعد عزله اعتكف فى داره لا يبرحها إلا إلى جامع الشيخونية بجوار منزله . واعتزل المشايخ وآثر التباعد عنهم ، وكانوا لا ينفكون

---

(١) أمين سامى ، تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

(٢) ذكر الجبرتى اسمه بعد ذلك «أحمد الطهطاوى» .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .

عن الإسفاف فى ذمه والحط من قدره لأنه « لم يوافقهم فى شهادة الزور »(١). ثم أكد الجبرتى هذه الحقيقة مرة ثانية وهو يترجم للشيخ السادات، إذ قال إن الزعماء أوسعوا الشيخ الطحطاوى سخطاً ومقتاً وعزلوه من الإفتاء لأنه « تنحى عن الشرور ، وامتنع عن شهادة الزور »(٢) . ولما مات الشيخ المنصورى أعيد الشيخ الطهطاوى إلى مشيخة الحنفية فى غرة صفر سنة ١٢٣٠ (١٣ يناير ١٨١٥) وارتدى الخلع من الشيخ الشنوانى شيخ الجامع الأزهر وقتذاك، ثم من الباشا وكأنه أراد أن يكفر عن فعلته معه . ثم قاده « باقى المشايخ أرباب المظاهر ، ولم يختلف عليه اثنان »(٣) .

ويلاحظ أن إعادة الشيخ الطحطاوى إلى منصبه قد تمت بعد وفاة الشيخ السادات الذى أسرف فى اللدد فى خصومته للطهطاوى فقد مات السادات فى ٢١ مارس سنة ١٨١٣ ، أما الطحطاوى فقد استقر فى منصبه إلى أن جاز إلى ربه فى يونيو سنة ١٨١٦(٤) .

* * *

---

(١) المصدر السابق ، ذات الجزء وذات الصفحة .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٤) انظر ترجمة حياة الشيخ أحمد الطهطاوى فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

الفصل الخامس والعشرون

تصفية بقية الزعامة الأزهرية

محنة أخلاق :

بعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط النفى الأول ، تخلص محمد على من كبير الزعامة الأزهرية وخلا له الجو ليتخلص تباعاً من بقية الزعماء علماء الأزهر الذين اعتقدوا عن غفلة أن الوقت قد صفا لهم(١). وكانت مهمة محمد على فى التخلص منهم أكثر سهولة من مهمته فى التخلص من عمر مكرم . لأن هؤلاء الزعماء هدموا أنفسهم بتصرفاتهم من ناحية ، ولأن الموت لاحقهم الواحد بعد الآخر فى هدوء من ناحية أخرى . . فحملوا إلى قبورهم سراعاً دون إثارة أزمات أو إرسال مذكرات دبلوماسية إلى إستانبول باستثناء عالم آخر تشابهت نهايته مع عمر مكرم .

لم تكد تتم مؤامرة عزل عمر مكرم عن نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط حتى ظهرت أخلاق معظم علماء الأزهر على حقيقتها ، فإذا هى تنضح بالوصولية وتنشح بالنفعية والتسابق على اقتناص المكاسب المالية أو تقلد المناصب القيادية من قبيل المكافأة على اشتراكهم فى المؤامرة التى عصفت بعمر مكرم .

الشيخ محمد المهدى :

وكان من أسبقهم فى هذا المضمار الشيخ محمد المهدى ، ففى ضحى ١٣ أغسطس ١٨٠٩ ، وهو اليوم التالى لترحيل عمر مكرم إلى دمياط . ذهب المهدى على غير استحياء إلى محمد على وطلب أن يقلده وظائف عمر

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ .

مكرم ، فأنعم عليه بالتنظر على أوقاف الإمام الشافعى ووقف سنان باشا فى بولاق . وكان هذان الوقفان تحت يد عمر مكرم(١) . ولم يقنع المهدى بذلك ، بل طلب مكافأة مالية معجلة لم يصعب عليه أن يجد لها تبريراً . فقال إنها المتأخر له من الغلال عن أربع سنوات خلت ، غاب فيها عن القاهرة كان يجوس فيها خلال الديار التى تحت التزامه فى طنطا والمحلة الكبرى والإسكندرية وغيرها . ولا يتبادر إلى الذهن أن المهدى كان غافلا عن هذه المتأخرات ، فلم يتذكرها ولم يطالب بها إلا بعد ترحيل عمر مكرم إلى المنفى ، بل إن ملابسات الموقف تدل على أن هذه المتأخرات كانت مستحقة له فعلا ، وكان محمد على يسوف فى سدادها ، فأراد المهدى انتهاز الفرصة للمطالبة بها بعد أن تم الإيقاع بعمر مكرم . وعرف المهدى كيف يستغل الوقت والمناسبة . واستجاب محمد على لرغبة الشيخ الانتهازى ، وأمر بأن تدفع له قيمة المتأخرات نقداً . وقام المهدى بتقديرها بنفسه فبلغت خمسة وعشرين كيساً . فهذا الفيض من الإنعامات والكرم إنما كان ، على حد تعبير الجبرتى : « فى نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر »(٢) . وعند ذلك عاد يزاول نشاطه السابق الذى انقطع عنه بعض الوقت فى قضاء حاجات الناس فى مقابل أجر يتقاضاه منهم . فكثر تردده على الباشا وكبار موظفى الحكومة فى القضايا ومشكلات الالتزام وما إلى ذلك . وشرع فى ذات الوقت فى تصدر الحلقات الدراسية فى الأزهر ، ولكنه كان كثير التغيب عن إلقاء دروسه «فإذا حضر اجتمع حول دروسه طابق من الناس ، فإذا فرغ تكبكب عليه أرباب الدعاوى والفتاوى ، فيكتب لهذا ، ويوعد ذاك ، ويسوف آخر ، يذهب من يريد أن يذهب معه لحاجته ، فيقطع نهاره وليله طوافاً وسعياً وذهاباً وإياباً ، لا يستقر بمكان ، ولا يبيت فى بيت من بيوته إلا فى الجمعة مرة أو مرتين .. وكان يقول إن بيتى ظهر بغلتى .. » . ولما أرسل محمد على أولى حملاته

---

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ١ ، ص ٦٨ ، ج ١٧ ، ص ١١ .
(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

الحربية إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين فى ٣ سبتمبر ١٨١١ وقع اختياره على الشيخ محمد المهدى ليصحب الحملة بصفته ممثلا للمذهب الشافعى مع ثلاثة علماء آخرين يمثلون المذاهب الثلاثة الأخرى(١) . ومنح كلا منهم عدة أكياس لنفقاتهم الشخصية ، ولما منيت الحملة بهزيمة فادحة فى معركة الصفراء(٢) عاد المهدى إلى مصر مع العائدين .

وحدث أن شغر منصب شيخ الجامع الأزهر بوفاة الشيخ عبد اللهالشرقاوى فى ٩ أكتوبر ١٨١٢ فتطلع الشيخ المهدى إلى تقلد المنصب الرفيع آملا فى مساعدة محمد على له ، ولكن كان الباشا لا يشعر فى قرارة نفسه بتقدير له . ولما تحدث المشايخ إلى محمد على فى شغل المنصب ترك لهم حرية اختيار الشيخ الجديد ، ولكنه اشترط ضرورة توفر شرط واحد فى المرشح ، يقول الجبرتى « ولما مات المترجم (الشيخ الشرقاوى) ومضى على موته ثلاثة أيام . اجتمع المشايخ فى يوم الأحد وطلعوا إلى القلعة ، ودخلوا إلى الباشا وذكروا له موت المترجم ، ويستأذنونه فيمن يجعلونه شيخاً على الأزهر . فقال لهم الباشا اعملوا رأيكم ، واختاروا **شخصاً يكون خالياً عن الأغراض** وأنا أقلده ذلك ، فقاموا من مجلسه ونزلوا إلى بيوتهم»(٣) . كان هناك مرشحان سلطت عليهما الأضواء ، كان أحدهما قد اشتهر بالورع والزهد هو الشيخ محمد الشنوانى ، وكان الآخر هو الشيخ المهدى الذى استطاع بوسائله الخاصة أن يجتذب نفراً من العلماء تحمسوا له وانطلقوا ينشرون له دعاية عريضة .

طلب محمد على من كبير القضاة ، بهجت أفندى ، أن يجمع علماء الأزهر عنده لاختيار الشيخ الجديد وفقاً للشرط الذى وضعه . وكان أنصار المهدى

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص ١٠٢ — ١٠٣ .
(٢) تقع الصفراء بين المدينة المنورة وبدر .
(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ١٦٣ — ١٦٤ .

أكثر عدداً وأحدثوا هرجاً ومرجاً فى الاجتماع الذى انتهى باختيار المهدى شيخاً للجامع الأزهر وكتبوا إعلاماً شرعياً بتعيينه ورفعوه إلى الباشا للتصديق عليه . وهنأ الحاضرون المهدى وقرءوا الفاتحة « وركب الشيخ المهدى إلى بيته فى كبكبة ، وحوله وخلفه المشايخ وطوائف المجاورين ، وشربوا الشربات وأقبلت عليه الناس للتهنئة »(١) . وانتظر موافقة الباشا على تعيينه . ومضى يومان والموقف يزداد غموضاً . وفى صبيحة اليوم الثالث أصدر محمد على قراراً بتعيين الشيخ محمد الشنوانى شيخاً للجامع الأزهر . فكان قراره مفاجأة أليمة للشيخ المهدى وأنصاره « حصل لهم كسوف وبطلت مشيخته » ، ولو أن الجبرتى عاد وهو يترحم للشيخ المهدى فقال إنه « لم يظهر إلا الانشراح وعدم التأثر من الانكساف » .

وأول معنى يتبادر إلى الذهن لرفض محمد على تعيين المهدى شيخاً للجامع الأزهر هو أنه لم يكن مستوفياً للشرط الذى وضعه وهو أن يكون المرشح خالياً من الأغراض . وكان محمد على قد عرفه حق المعرفة : فإذا هو رجل استبد به حب المال حتى طغى على تفكيره ومناهجه فى الحياة . وحسبه أنه كان أسبق الزعماء مبادرة إلى مطالبة محمد على بثمن تآمره على السيد عمر مكرم . ورأى محمد على أن الميدان الطبيعى للشيخ المهدى هو اقتناء الثروات ، فتركه يمارس هوايته فى دنيا المال . والمعنى الثانى هو أن مكانة المهدى كانت قد تهاوت فى عين محمد على فتخلى عن حليف الأمس بعد أن أدى المهدى دوره فى الوقيعة بعمر مكرم خير ما يكون الأداء . فلم تعد له حاجة به .

ومضى الشيخ المهدى بقية حياته يكنز الذهب والفضة ويقتنى مزيداً من العقارات . واشترى فى أواخر أيامه داراً فى جهة الكعكيين بالقاهرة وعمل على توسيعها وتجديدها . وكانت تجاورها زاوية قديمة بها مدافن ،

---

(١) انظر ترجمة حياة الشيخ محمد المهدى فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٧ .

فهدمها وضمها إلى الدار بعد أن أخرج عظام الموتى من قبورهم ونقلها إلى قرافة المجاورين . وأبدع فى تنظيم الدار وجعلها مسكنا لزوجتين له .

ومات الشيخ المهدى فى سن الخامسة والسبعين . وآخر عمل أقدم عليه قبل وفاته مباشرة كان عقب عودته إلى داره فى منتصف الليل . ولم يكد يفرغ من هذا العمل حتى استلقى على ظهره بجانب زوجته ، وفاضت روحه وهو جُنُبٌ . وكان ذلك ليلة ٢ صفر ١٢٣٠ (١٤ يناير سنة ١٨١٥م) ، وقد اختتم الجبرتى ترجمة حياة الشيخ المهدى بعبارات تصور حياته وافتتانه بالمال وتعلقه بالدنيا أدق تصوير « فسبحان الله الحق الذى لا يموت ، ورحم الله عبداً زهد فى الحياة الفانية ، وعمل لما بعدها ، ونظر إلى هذه الدار بعين الاعتبار . نسأله التوفيق والقناعة وحسن الخاتمة » . ولعل الجبرتى كان يقصد من كلمتى « حسن الخاتمة » أن الشيخ محمد المهدى قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يغتسل من الحدث الأكبر .

٢ — السيد محمد السادات :

أما السيد محمد أبو الأنوار السادات فكان قد عين نقيباً للأشراف فى ذات الوقت الذى تم فيه عزل عمر مكرم من هذا المنصب . وتدل الملابسات على أن هذا التعيين كان أمراً متفقاً عليه بين محمد على وبينه ، لأن الباشا قد أحضره إلى مجلس الشرع فى ٩ أغسطس ١٨٠٩م ، ثم أعلن تعيينه نقيباً للأشراف وألبسه خلعة النقابة مكافأة له على إسهامه فى المؤامرة على عمر مكرم . وبهذا التعيين ، فإن الشيخ السادات « بلغ مأموله » بوسيلة ملتوية . وكان يصرح بأن منصب نقيب الأشراف من الوظائف القديمة المحصورة فى أسرة السادات . ولم يكد يمر عامان حتى شيد داراً كبيرة نقل إليها ما أخذه من قصور الأمراء المماليك المتخربة . وألحق بالدار بستاناً غرس فيه أنواعاً من الأشجار المثمرة ، ثم أضاف إلى البستان بستاناً مجاوراً أخذه بأبخس الأثمان . ويذكر الجبرتى أن السيد السادات « أفنى

غالب عمره فى تحصيل الدنيا وتنظيم المعاش والرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش(١) والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس ، واستخراج الأدهان والعطريات والمركبات المنعشة للقوة ، وتعاظم فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه . . » وترفع عن الذهاب إلى الجامع الأزهر للمشاركة فى الاحتفال بليلة الإسراء . وقد سجل عليه الجبرتى استعلاءه وعنفه فى معاملة الناس ، وبخله . « ولم يزل كلما طال عمره زاد كبره ، وقل بره ، وتعدى شره » . ولما ثقل عليه المرض « أوصى ألا يغسّل إلا على سريره المندى الذى كان ينام عليه فى حياته ليكون مخالفاً للعالم حتى فى حال الموت » .. وقد جاز إلى ربه فى ٢١ مارس ١٨١٣ .

وعلى الرغم من المثالب التى ذكرها الجبرتى عن السيد السادات ، أشاد هذا المؤرخ بمواقف نبيلة وعديدة له تمثلت فى شجاعته فى الرأى وجرأته فى الحق ونزعة إسلامية عميقة وذلك إبان الحكم الثنائى الذى مارسه الأميران إبراهيم بك الكبير ومراد بك قبيل الحملة الفرنسية وفى أثنائها أيام ثورتى القاهرة الأولى والثانية واعتقاله أربع مرات فى القلعة على عهد القيادتين الثانية والثالثة للحملة الفرنسية . فهذه المواقف وغيرها فى مجموعها كفيلة بأن تغفر له شطراً من مواطن الضعف والتآمر .

أما محمد على فقد أبدى رأيه بصراحة جارحة فى الشيخ السادات عقب موته بأيام معدودة . فقد كان فى الفيوم حين حُمل إليه نبأ وفاته ، فأمر بألا يتعرض أحد لورثة المتوفى حتى يعود إلى القاهرة . وظل الموقف معلقاً أربعة عشر يوماً حتى رجع إليها . وأصدر أمره بالتحفظ على دار الشيخ السادات . وفوجئ أهل داره بقوة عسكرية تقتحم الدار ، وكان يصحبها عدد من موظفى بيت المال . ووضعوا الأختام على خزائنه وعلى حجرات الدار . وألقوا القبض على كاتب حساباته القبطى ولقبه عبد القدوس ، وعلى أحد سعاة النقابة . وأقيمت حراسة قوية حول الدار . وفى صبيحة

اليوم التالى ذهب إليه العلماء ، وتحدثوا معـــه فى رفع التحفظ على أمواله وقالوا له « إن بيوت الأشياخ مكرمة ، ولم تجر العادة بالختم على أماكنهم ، وخصوصاً أن هذا المتوفى كان عظيماً فى بابه ، وأنتم أخبر به . وكان لكم به مزيد عناية ومراعاة . فقال : نعم ، إنى لا أريد إهانة بيتهم ، ولا أطمع فى شىء مما يتعلق بمشيختهم ولا وظائفهم القديمة » ثم استطرد قائلا :

ولا يخفاكم أن المتوفى كان طماعاً وجماعاً للمال ، وطالت مدته . وحاز التزامات وإقطاعات . وكان لا يحب قرابته ، ولا يخصهم بشىء . بل كتـــب ما حازه لزوجته ، وهى جارية ، نهاية ثمنها ألفاً قرش ، أو أقل أو أكثر . ولم يكتب لأولاد أخيه شيئاً . فلا يصح أن أمة تختص بذلك كله . والخزينة أولى به لاحتياجات مصاريف العساكر ، ومحاربة الخوارج واستخلاص الحرمـــين وخزينـــة السلطان . وأنا أرفع الختم رعاية لخواطركم » .

محمد على يصادر أموال السادات ويهدد أرملته بإغراقها فى النيل :

كان محمد على يراوغ علماء الأزهر ويخادعهم بهذا الكلام حتى ينفضوا من عنده ، لأنه لم يتحول قيد أنملة عن رأيه . ومضى فى إجراءاته . فأرسل فى اليوم التالى قوة من الجنـــود رفعت الأختام عن دار الشيخ السادات واستدعت سقاء الحريم ، واستخدمت معه وسائل التعذيب ليدلها على أماكن الخبايا . كما أحضر الجنود البناء الذى شيد الدار ليكشف لهم عن المخابئ السرية التى كان يعرفها بحكم عمله وهو يبنى الدار .

وقام الجنود بتفتيش دقيق عن جميع أماكن الدار . واستمرت عملية التفتيش عدة أيام رابط فيها الجنود داخل المسكن وخارجه . وأسفر التفتيش عن مخابئ كدست فيها مقادير وفيرة من الأوانى الصينية والقطن والصابون والبن والعسل والنحاس ، ثم عثروا على خزانة بها ١٢٧ كيساً

أى ٦٣٥ جنيهاً . ورفض محمد على الاعتراف بهذه التركة . وهدد أرملة الشيخ السادات بإغراقها فى النيل إذا لم تفصح عن حقيقة التركة . وأصدر أمراً إلى كاتب الحسابات عبد القدوس بتقديم كشوف دقيقة توضح الإيرادات والمصروفات عن السنوات السابقة كى يستطيع فى ضوئها تقدير التركة . وبذل السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة جهوداً مضنية لدى محمد على، حتى قبل أخيراً مصالحة الأسرة على ألف وخمسة وخمسين كيساً أى ٥٢٧٥ جنيهاً . وأن يترك لها باقى الأموال تتصرف فيها .

ولم يحترم محمد على وصيته الشيخ السادات ، إذ كان قد أوصى بأن يخلفه ابن أخيه الشيخ أحمد يوسف فى نظارة أوقاف المشهد الحسينى ، ومشيخة السادات . ونقابة الأشراف . فوزع محمد على هذه المناصب . فاستبقى فقط مشيخة السادات ، فى ابن أخى المتوفى . وقلد السيد محمد المحروقى نظارة أوقاف جامع الإمام الحسين . أما منصب نقيب الأشراف فقد عين فيه الشيخ محمد الدواخلى (١) .

٣ — الشيخ محمد الدواخلى :

كان تعيين الشيخ محمد الدواخلى نقيباً للأشراف فى مارس ١٨١٣ مكافأة له على تآمره بعمر مكرم . وقد امتلأت حياته بالعبر والعظات . وبدا كأن القدر قد نسج خيوطاً دقيقة للمأساة التى انتهت بها حياته ليجعل منها صورة أخرى لمأساة عمر مكرم فى ملابساتها ومعقباتها .

اعتقد الشيخ الدواخلى أن الوقت قد صفا له بعد أن ظفر بمنصب نقيب الأشراف . وقد أضفى عليه هذا المنصب الكثير من مظاهر الوجاهة . وكان له ولع شديد بها . تقرب إلى محمد على الذى سمح له بهذا التقرب إلى حين . ومارس فى ظلال هذه الحظوة نفوذاً ارتاحت إليه نفسه .. وركب الخيول،

---

(١) انظر ترجمة حياة الشيخ محمد السادات فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٨٥ — ١٩٧

ولبس التاج الكبير . ومشت أمامه الشاويشية والمقدمون وأرباب الخدم . وازدحم بيته بأرباب الدعاوى والشكاوى . وعمّر دار سكنهم القديمة بكفر الطماعين ، وأدخل فيها دوراً ، وأنشأ تجاهها مسجداً لطيفاً ، وجعل فيه منبراً وخطبة ، وعمّر داراً ببركة جناق . وأسكنها إحدى زوجاته ، وداخله الغرور ، وظن أن الوقت قد صفا له » .

ولم يكد تمر عليه أربعة عشر شهراً وهو فى وضعه المرموق الجديد حتى فجع فى ابنه فى مايو ١٨١٤ ، ولم يكن له من الأولاد الذكور سواه . وكان هذا الابن قد جاوز سن البلوغ . فوجد عليه وجداً شديداً خرج به عما يجب أن يتجمل به المؤمنون إذا ابتلوا بنقص فى الأموال أو الأنفس أو الثمرات . فكان يتفوه بعبارات أنكرها الناس عليه . وبنى لابنه مقاماً وأقام مقصورة على غرار المقامات التى تقصد للزيارة . وكان حرياً به بعد فجيعته فى ابنه أن يمشى على الأرض هوناً ويتجرد من صفات الغرور والاستعلاء . ولكنه سدر فى غيه . وكأن هذه الصفات المرذولة قد صبت فى دمه فلم يستطع منها فكاكا . ويلوح أن محمد على قدّر فجيعة الدواخلى فى ابنه ؛ وأراد أن يجامله ليخفف من وقعها فى نفسه . فكان يمضى معه أوقاتاً طويلة يسامره ويظهر له لين الجانب ورقيق الشعور . فلما آنس منه هذه الروح الطيبة ازداد غروراً . وزاد طمعه فى الباشا . وتقدم الدواخلى بمطالب شخصية توالت بعضها فى إثر بعض . وكان محمد على يستجيب لهـا . ويقول أحد الباحثين « واشترك هؤلاء الزعماء فى اقتسام الغنائم بعد الإيقاع بزميلهم النبيل (عمر مكرم) . ولعلنا لانكون سابحين فى الخيال إذا تصورنا الباشا البعيد الغور ، وهو يبتسم لهم ، إذ يعطيهم ما يشاءون ، وينفذ لهم ما يريدون . وهو فى قرارة نفسه يسخر من بخس أثمانهم وهوان أقدارهم » (١) . وكان الدواخلى يصعد كل يوم إلى القلعة . واعتقدت الجماهير أن الدواخلى هو الناطق

---

(١) محمد فريد أبو حديد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٧ .

بلسان الباشا . وانطلق ينشر أنباء غير صادقة عن اعتزام محمد على العودة إلى نظام الالتزام وإعادة الأراضى الموقوفة إلى نظارها القدامى . وكانت كل هذه أراجيف . كما كان يطلب إليه تارة أن يعيد له حصص الالتزام ، ويطلب إليه تارة أخرى تعيينه ناظراً على بعض الأوقاف . ويعتقد الدواخلى أن الباشا قد وافق على منحه هذين الامتيازين . ويهبط من القلعة ويذيع فى مجالسه أمثال هذين النبأين مما أحدث بلبلة فى أفكار الجماهير التى اعتقدت أن محمد على قد عاد إلى احترام تقاليد البلاد وعاداتها وقوانينها . وبلغ من غرور الدواخلى أنه كان يتطاول على كبار القوم ، مسلمين وأقباط ، حيناً بالسب ، وحينا آخــر بالضرب . وارتفعت شكاياتهم منه إلى محمد على مما أوغر صدره عليه وضاق ذرعاً بتصرفاته ، وبخاصة عندما أكثر من تعرضه لقاضى القضاة فى الأحكام التى يصدرها . فصحت عزيمته على التخلص منه بعزله من نقابة الأشراف ونفيه من القاهرة على غرار ما وقع لعمر مكرم . واتجه تفكيره إلى السيد محمد المحروقى وعرض عليه منصب نقيب الأشراف . ولكنه اعتذر وقال « أنا متقيد بخدمة أفندينا ومهمات المتاجر والعرب والحجاز » واقترح عليه إسناد النقابة إلى الشيخ البكرى ، لأنها كانت مضافة إليه ، وهو أولى بها من غيره .

وفى ١١ فبراير ١٨١٦ طلب محمد على المشايخ ، وفيهم الشيخ البكرى ، إلى الاجتماع به فى القلعة . ولم يوجه الدعوة إلى الشيخ الدواخلى . ولما اكتمل جمعهم أعرب لهم محمد على عن رغبته فى عزل الدواخلى من نقابة الأشراف ونفيه من القاهرة وتعيين الشيخ البكرى نقيباً للأشراف . فاستصوب العلماء رأيه ، وما كانوا يستطيعون غير ذلك ، وألبسوا البكرى خلعة النقابة . ولم يكد ينقضى الاجتماع حتى أصدر محمد على قراراً بإخراج الدواخلى من القاهرة منفياً إلى دسوق . وحمل قرار النفى الترجمان أحمد الملا وصحبه أحد جنود الشرطة الأتراك . وذهبا إلى دار الدواخلى ودخلا إليه على حين غفلة ، وكان معه حريمه . ولم يكن يعلم شيئاً مما جرى . فخرج إليهما .

وقدم له الترجمان أمر النفى فكان صدمة عنيفة له . وتبخر غروره وأصيب بذهول . يقول الجبرتى « فلما قرأه غاب عن حواسه ، وأجاب بالطاعة . وأمروه بالركوب ، فركب بغلته ، وسارا به إلى بولاق إلى المنزل الذى كان شراه بعد موت ولده . وانسل مما كان فيه كانسلال الشعر من العجين ، وتفرق الجمع الذى كان حوله » .

ولم تقف المأساة بالدواخلى عند هذا الحد ، بل عمل الأشياخ على تجريحه فى مذكرة رسمية تُرفع إلى إستانبول كما فُعل من قبل مع عمر مكرم . فشرعوا « فى تنميق عرضحال عن لسانهم بأمر الباشا بتعداد جنايات الدواخلى وذنوبه وموجبات عزله . وإن ذلك بترجيحهم والتماسهم عزله ونفيه » . وقد نسب المشايخ فى عريضتهم عدة مآخذ على الشيخ الدواخلى ؛ منها أنه تطاول بالسب على حسين أفندى شيخ رواق الأتراك بالأزهر وحبسه على الرغم من أنه رجل طاعن فى السن ضليع فى علمه ويقوم بالتدريس فى الأزهر . ومنها أن فتوى شرعية أصدرها أحد الفقهاء ولم ترق هذه الفتوى الشيخ الدواخلى ؛ فتطاول على الفقيه بالسب والضرب وانتزاع عمامته من على رأسه ؛ ومنها أن الدواخلى أقحم نفسه فى مسائل تدخل فى اختصاص شيخ الجامع الأزهر ، وأنه يعترض على الأحكام التى يصدرها القاضى ، وأنه يكتب فى داره مستندات القضايا ويسب أتباع القاضى ورسل المحكمة . ثم وقع الأشياخ على العرضحال ووضعوا عليه أختامهم . وبعث محمد على بهذا العرضحال إلى نقيب الأشراف بدار السلطنة فى إستانبول . ويسمى الجبرتى الاتهامات التى وردت فى عرضحال المشايخ نكات فارغة ، ويقرر أن هناك أسباباً أعمق بكثير من هذه النكات الفارغة هى التى جعلت محمد على يصدر قراراً بعزله ونفيه من القاهرة .

وبلغ من تدهور الزعماء وحقد بعضهم على بعض أنهم لم يستطيعوا إخفاء

ابتهاجهم بالنكبة التى حلت بالشيخ الدواخلى ،فقد «أظهر الكثير من نظرائه المتفقهين الشماتة والفرح ، وعملوا ولائم وعزائم ومضاحكات » .

وقضى الدواخلى شهراً فى منفاه فى مدينة دسوق ، ثم نقل بشفاعة السيد محمد المحروقى إلى المحلة الكبرى . وفى منفاه لم يسأم من الكتابة إلى المحروقى متوسلا إليه كى يتدخل لدى محمد على لاستصدار قرار بالعفو السياسى عنه. وكان يدعم التماساته المكرورة تارة بحرصه على أداء فريضة الحج ، وتارة أخرى باشتداد وطأة المرض عليه ورغبته فى أن يموت بين ذويه فى القاهرة. ولم يستجب محمد على لالتماساته المتتالية . وأمضى البقية الباقية من حياته فى منفاه شارد الذهن حزين الفؤاد حتى مات فى المحلة الكبرى فى منتصف ربيع الأول ١٢٣٣ (٩ يناير — ٧ فبراير ١٨١٨) . وكان عمر مكرم على مسافة قريبة منه لاتتجاوز بضعة كيلو مترات ، إذ كان لايزال منفياً فى طنطا بعد نقله من دمياط . وقد دفن الشيخ الدواخلى فى المحلة الكبرى . ويعلق الجبرتى على نهاية الدواخلى تعليقاً ينم عن شماتته به ، لأنه ، والحق يقال ؛ كان قوام الوقيعة بعمر مكرم ، فيقول « إن الذى وقع لهذا الدواخلى إنما هو قصاص وجزاء فعله فى السيد عمر مكرم ، فإنه كان من أكبر الساعين عليه إلى أن عزلوه وأخرجوه من مصر (القاهرة) . والجزاء من جنس العمل »(١)

٤ — الشيخ عبد الله الشرقاوى :

وأخيراً نذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى نهاية هذه النماذج من علماء الأزهر متعمدين ، لأنه كان ينتمى إلى الفريق الذى دب الخوف فى قلبه حرصاً على منصبه من أن يعصف به محمد على الذى نجح فى بث الخوف فى نفسه وبخاصة بعد أن أصدر فى ٢٠ سبتمبر ١٨٠٦

---

(١) انظر ترجمة حياة الشيخ محمد الدواخلى فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٩٤ ٢٩٦

قراراً بتحديد إقامته فى داره لا يغادرها حتى ولو كان يريد الخروج لأداء صلاة الجمعة . ولم يرفع محمد على عنه هذا «التحجير » إلا بعد تدخل قاضى القضاة(١) وكان فى موقفه متزاملا مع الشيخ سليمان الفيومى . وكانت مهمتهما مقصورة على حضور الاجتماعات التى كان يعقدها محمد على مع المشايخ المتآمرين على عمر مكرم مثل المهدى والسادات والدواخلى . فلما تمت الوقيعة بعمر مكرم وقف الشرقاوى موقفاً حيادياً خلال السنوات القليلة التى عاشها بعد نفى عمر مكرم ، وهى لم تتجاوز ثلاث سنوات . ويبدو أن محمد على هو الذى أبعده عنه لإقصائه فى غير عنف عن الحياة السياسية .

تلقى الشرقاوى العلم فى رحاب الأزهر على صدور الأشياخ . ونشأ فى ضيق من العيش . وكان فى مطلع حياته يحضر المآتم وليالى الجمعة والإنشاد الدينى فى بيوت الكبراء . ولما عرفه الناس واشتهر أمره ، واصله بعض التجار الشوام فى القاهرة بالهدايا وأموال الزكاة . ثم اشتغل بالتدريس فى الجامع الأزهر ومدرسة السنانية بالصنادقية والمدرسة الطيبرسية . وأفتى فى مذهبه الشافعى . وتميز فى الإلقاء والتحرير والتبحر فى العلم ، فراج حاله وتجمل بالملابس . واشترى داراً بحارة كتامة «وساعده فى ثمنها بعض من يعاشره من المساتير ، وترك الذهاب إلى البيوت إلا نادراً» . وعين شيخاً للجامع الأزهر سنة ١٧٩٣ عقب وفاة الشيخ أحمد العروسى . وبتقلده مشيخة الأزهر «زاد فى تكبير عمامته وتعظيمها حتى صار يضرب بعظمها المثل» . وعاصر ، شيخاً للجامع الأزهر ، عدة فترات من تاريخ مصر السياسى إبتداء من حكم الأميرين إبراهيم بك الكبير ومراد بك ، ومروراً بالحملة الفرنسية وعهد الانقلابات السياسية وإنتهاء بالسنوات الأولى من حكم محمد على إلى أن جاز إلى ربه فى ٩ أكتوبر ١٨١٢ . وترك بصماته أقوية حيناً ، وباهتة حيناً آخر ، فى تاريخ مصر . وحسبه أنه قاد الانتفاضة

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ص ١٨ ، ص ١٩

الشعبية الكبرى فى ١٧ يوليو ١٧٩٥ ضد الأميرين المملوكيين إبراهيم باك الكبير ومراد باك حين أسرف محمد باك الألفى فى فرض ضرائب جزافية على سكان إحدى قرى بلبيس مسقط رأسه . وأمر بإغلاق الجامع الأزهر . وأسفرت هذه الانتفاضة عن صدور وثيقة سياسية هامة (١) . كما كانت له اليد الطولى فى إنشاء رواق الشرقاوية بالجامع الأزهر يقيم فيه الطلبة الوافدون من مديرية الشرقية على الرغم من أنه لجأ فى إنشائه إلى وسائل تعسفية » (٢) .

وكان من ألمع الشخصيات الأزهرية على عهد الحملة الفرنسية . شغل منصب رئيس ديوان القاهرة ثم رئيس الديوان العمومى مع رياسة الديوان الخصوصى فى ذات الوقت . واستمرت رياسته فى أيام كليبر ومينو ، مع احتفاظه طوال تلك الرياسات بمشيخة الجامع الأزهر . وزاد ثراؤه أيام الفرنسيين بتعدد موارد إيراداته التى كانت تتدفق عليه من المرتب الذى قرروه له ، ومما كان يحصل عليه من القضايا والشفاعات واستيلائه على التركات والودائع التى مات عنهـا أصحابها المماليك ، فاتسعت عليه الدنيا « وزاد طمعه فيها » واشترى الحوانيت والخانات والحمامات وداراً بمنطقة الأزهر ، وهى دار واسعة من مساكن الأمراء المماليك الأقدمين . وترك لزوجته إدارة أملاكه وشئونه المالية . فكانت « تدبر أمره وتحرز كل ما يأتيه وتجمعه ، ولا يروح ولا يغدو إلا عن أمرها ومشورتها » واجتهدت فى إنماء ثروته . فكانت تشترى من مدخراته مزيداً من العقارات المبنية .

وعلى أيام الفرنسيين أيضا تدخل الشيخ الشرقاوى فى ثورة القاهرة الأولى لتخفيف حدة الجو السياسى الملتهب بين بونابرت وزعماء الثورة . وأسفر تدخله عن جلاء الجنـود الفرنسيين عن داخل الجامع الأزهر .

---

(١) انظر فى هذه الدراسة ج ١ ، ص ٣١٥-٣١٩

(٢) انظر فى هذة الدراسة ج ١ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٧

وتعرض فى ثورة القاهرة الثانية للمهانة ، تارة على يد الثوار ، وتارة أخرى من كليبر . وعلى عهد مينو صدر الأمر باعتقاله فى القلعة . وطال إعتقاله مائة يوم . وكان يعدّ اعتقاله تشريفاً له .

وعلى عهد الانقلابات السياسية (١٨٠١ — ١٨٠٥) قلّ إلى حد ما تدخله فى أحداثها المروعة ، ولكنه كان ثانى اثنين ألبسا محمد على باشا خلعة الولاية رمزاً للمناداة به والياً على مصر .

وسعى الشرقاوى لتوطيد أركان حكم محمد على . فكان على رأس الموقعين على العرائض الثلاث التى كتبها علماء الأزهر إبان أزمة نقله إلى سالونيك (١٨٠٦) ، وأقر السياسة الضريبية الجائرة التى انتهجها محمد على ووقف إلى جانبه أيضاً فى أثناء العدوان البريطانى على مصر (١٨٠٧) . ولكن لم تكن له الصدارة فى هاتين الأزمتين فقد انتزعها منه عمر مكرم ، وأصبح الشرقاوى يشغل المرتبة الثانية فى الزعامة الأزهرية . واشترك بعد ذلك فى التوقيع على المذكرة التى وضعها عمر مكرم وعلماء الأزهر بأمر وتوجيه محمد على ليرسلها إلى إستانبول يبرر فيها تأخره فى إرسال حملة إلى الحجاز لاستخلاص الحرمين الشريفين من الوهابيين . وسافر بهذه المذكرة بيانجى بك القابجى باشى فى ١٨ فبراير ١٨٠٨ . فكان الشيخ الشرقاوى متعاوناً مع محمد على الى أن حدث اجتماعا ٣٠ يونيو وأول يوليو سنة ١٨٠٩ فى الجامع الأزهر (١) وصحت عزيمة الباشا على التخلص من عمر مكرم بادىء ذى بدء بصفته كبير الزعامة الأزهرية . وقد تخلف الشيخ الشرقاوى عن حضور الاجتماعات التى عقدها محمد على مع الشيخين المهدى والدواخلى ، ثم انضم إليهما مرة بالإنابة ، ومرات بالحضور شخصياً . فكان اشتراكه فى المؤامرة اشتراكاً مظهرياً مما آثار عليه حفيظة الباشا وعمل على إبعاده من الحياة السياسية ، فتجاهله فى غير عنف بعد نفى

---

(١) أنظر ما سبق .

عمر مكرم. ولم يلجأ إلى عزله من منصبه كشيخ للجامع الأزهر. وكان قد حدد إقامته فى داره وعدم دعوته لحضور اجتماعات الديوان. ولما استفسر قاضى القضاة فى أحد الاجتماعات عن سبب تخلفه، قيل له إنه مريض، ثم رفع عنه «التحجير» بتدخل قاضى القضاة كما سبق أن ذكرنا(١).

ولما حدثت مذبحة القلعة التى فتك فيها محمد على بالأمراء المماليك فتكاً جماعياً فى يوم الجمعة ٦ صفر ١٢٢٦ الموافق ٢ مارس ١٨١١(٢) حاول الشيخ الشرقاوى التقرب إلى محمد على. ففى صبيحة اليوم التالى للمذبحة عقد الشرقاوى اجتماعاً مع علماء الأزهر قرروا فيه الذهاب إلى محمد على «لملاقاته والسلام عليه والتهنئة بالظفر» والحق أن الانتصار الذى ظفر به محمد على بذبح المماليك كان انتصاراً رخيصاً قام على الغدر والخسة والجبن والمجافاة لقواعد الأخلاق. ومثل هذا «الظفر» لايستحق أن يتحرك له الشيخ الشرقاوى وعلماء الأزهر، وكان محمد على قد نزل فى ضحوة ذلك اليوم، ٣ مارس، من القلعة إلى المدينة لإيقاف عمليات النهب والسلب واقتحام البيوت وهتك الأعراض وغير ذلك من الجرائم التى كان يرتكبها الجنود. ونما إلى علمه فى أثناء طوافه أن علماء الأزهر مجتمعون، وفى نيتهم الصعود إلى القلعة. فقال «أنا أذهب إليهم. ولم يزل فى سيره حتى دخل إلى بيت الشيخ الشرقاوى وجلس عنده ساعة لطيفة».

وحدث فى أثناء هذه الزيارة حادث دل على أن محمد على لم يكن يشعر فى قرارة نفسه بأى تقدير للشيخ الشرقاوى، ولم يعد يسمع لشفاعته أو يقبل رجاءه. كان قد التجأ اثنان من الكشاف المماليك إلى دار الشيخ الشرقاوى

---

(١) الجبرتى، ج ٤، ص ١٨ - ١٩

(٢) يذكر الرافعى أن هذا التاريخ الهجرى كان يوافق اول مارس ١٨١١. ولكن طبقاً للتوفيقات الإلهامية والجداول التى وضعها المستشرق ف. ويستنفلد F. Wustenfeld كان التاريخ الهجرى يوافق ٢ مارس.

وتشفع الشيخ لدى محمد على كى يمنحهما الأمان ولا يقتلهما . وقال له الشيخ الشرقاوى كلاماً مؤثراً « لاتفضح شيبتى ياولدى ، واقبل شفاعتى ، وأعطهما حرمة الأمان» . فتظاهر محمد على بقبول شفاعته . ووعد بأن يرسل إليهما عند عودته إلى القلعة كتاباً يؤمنهما على حياتهما . وانصرف من دار الشيخ الشرقاوى مستأنفاً طوافه بأحياء القاهرة . ولما صعد إلى القلعة أرسل خطاباً يطلبهما إليه . واشتم الرجلان رائحة الغدر من هذا الخطاب ، وأفصحا للشيخ الشرقاوى عن مخاوفهما . واستبعد الشيخ الشرقاوى أن يضمر محمد على لهما شراً بعد أن تشفع فيهما ، فقال لهما « لايصح ذلك ولا يكون . كيف أنه يأخذكم من بيتى ويقتلكم بعد أن قبل شفاعتى ؟ » . فذهبا مع الرسول إلى القلعة حيث تم قتلهما(١) . وهكذا نكث محمد على بوعده واستهان بكرامة شيخ الجامع الأزهر بعد أن كان يخفض له ولسائر العلماء جناح الذل من الخوف . ويقول مانجا Mengin ، وهو أحد الدبلوماسيين الفرنسيين المقربين إلى محمد على ممن عاشوا فى مصر إبان هذه الأحداث « إن محمد على أصبح لايعير وساطة المشايخ أى اهتمام ، لأن معظمهم قد باعوا أنفسهم له . وكانوا يستجيبون لرغبته استجابة عمياء »(٢) . فكان حادث هذين الكاشفين المملوكيين درساً قاسياً للشيخ الشرقاوى وسائر الزعماء ، وأدركوا مغبة مسلكهم المعيب إزاء عمر مكرم ، وكيف نجح محمد على فى التلاعب بهم ، ففصلهم أولا عن عمر مكرم ، ثم أشركهم فى الإيقاع به . ولما بلغ مأربه استهان بهم ، وأقصاهم تباعاً عن الحياة السياسية . ولكن جاء هذا الدرس متأخراً وبعد فوات الأوان.

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ١٢٩–١٣٠

(٢) انظر تقريراً إضافياً مؤرخاً فى ٢٠ يناير ١٨١٢ وضعه مانجا عند وصوله إلى كورفو ، وبعث به إلى وزير الخارجية الفرنسية . وقد نشره :

Driault Edouard; Mohamed Aly et Napoléon. (1807–1814). Le Caire. 1925, pp. 157 – 162 .

ولم يمتد الأجل بالشيخ الشرقاوى بعد هذا الحادث إلا عاماً و بعض عام(١) .

هذه صور سريعة لمسلك أربعة من كبار علماء الأزهر ممن اشتركوا مع محمد على فى التآمر بعمر مكرم وكيف عملوا على الإفادة مادياً من المأساة التى حلت بعمر مكرم . ونذكر هنا تعليقاً للأستاذ محمد شفيق غربال ، إذ أطلق على المكافآت التى قدمها محمد على إلى المشايخ بأنها « شىء من فضلات الأرزاق »(٢) .

لقد نجح محمد على أولا فى إقصاء عمر مكرم عن الحياة السياسية ، ثم عمل على تصفية الزعامة الأزهرية . وأصبح الأشياخ المتصدرون الذين كانوا من قبل ملء السمع والبصر يعيشون على هامش الحياة إلى أن طواهم الموت الواحد بعد الآخر فى سنوات ذات عدد : سليمان الفيومى (٢٠ يناير ١٨١٠) ، ثم الشرقاوى (٩ أكتوبر ١٨١٢) ، فالمهدى (١٤ يناير ١٨١٥) ، فمحمد الأمير (٢١ سبتمبر ١٨١٦) ، ثم اللواخلى (٢٣ يناير ١٨١٨) وكان مصير الأخير العزل من نقابة الأشراف والنفى خارج القاهرة .

على هذه الصورة انتهت حياة الصف الأول من علماء الأزهر . أما علماء الصف الثانى من العلماء فما كان فى استطاعتهم أن يمارسوا فى ظل محمد على شيئاً من النشاط السياسى ، كما أن صفات معظمهم لم تكن تؤهلهم ليبلغوا مكاناً علياً . وقد وصفهم الجبرتى فى فبراير ١٨١٦ فقال إنهم « انهمكوا فى الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ، ومشاركة الجهال فى المآتم ، والمسارعة إلى الولائم فى الأفراح والمآتم ، ثم يتكالبون على

---

(١) انظر الترجمة الضافية التى كتبها الجبرتى للشيخ عبد الله الشرقاوى فى ج ٤ ، ص ١٥٩ — ١٦٥

(٢) محمد شفيق غربال : محمد على الكبير (سلسلة أعلام الإسلام) ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٤٤ ، ص ٥٧

الأسمطة كالبهائم ، فتراهم فى كل دعوة ذاهبين ، وعلى الخوانات (١) راكعين ، وللكباب والمحمرات خاطفين ، وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين » (٢) .

والحق أن الزعامة الأزهرية كانت ستلقى حتماً ، إن عاجلاً وإن آجلا ، مصيرها المحتوم على يد محمد على ، لأن هذا الحاكم ما كان يطيق وجود زعماء مصريين يراقبون أعماله أو يحدون ، على أى نحو من الأنحاء ، من تصرفاته فى الحكم . لأن إقصاء هذه الزعامة عن الميدان السياسى كان هدفاً سياسياً سعى إليه محمد على وضرورة سياسية فى نظره لتنفيذ المخطط السياسى الذى وضعه لنفسه ولأسرته منذ سنة ١٨٠٧ ، وقد سبق أن تناولنا هذا المخطط بالشرح . أما الخديعة التى قام بها محمد على فى غرس بذور الانقسام بين علماء الأزهر ، والتلويح لهم بالمناصب والمنافع ، وأما التحاسد والتباغض والتنافس الذى أصاب معظم هؤلاء العلماء ، فكانت عوامل ساعدته على الإسراع بخطى حثيثة للتخلص منهم .

إبراهيم يمتهن كرامة علماء الأزهر :

كان التدهور الذى لحـــق بالصف الثانى من علماء الأزهر قد جعل إبراهيم بن محمد على يقسو عليهم ويمتهن كرامتهم . وقد حدث أن ذهب هؤلاء العلماء فى ديسمبر ١٨١٩ إلى إبراهيم باشا يهنئونه بسلامة العودة من الحجاز بعد انتهاء الحروب الوهابية . وكانت زيارتهم بعد انقضاء الزعامة الأزهرية وموت الشيخ محمد الدواخلى . فلما وصل وفد العلماء إلى ديوان

---

(١) خوان كلمة معربة ، وهى ما يؤكل عليه . وتنطق بكسر الخاء وفتح الواو ، وهى الأكثر استعمالا . وتنطق أيضا بضم الخاء حيناً ، وبكسرها حيناً آخر : والكسر أفصح . وجمع الكلمة أخونة بهمزة مفتوحة وسكون الخاء وكسر الواو . أما جمع الكثرة فهو خون بضم الخاء .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٤٥ .

إبراهيم باشا ، أدخلوهم عليه ، ولكنه « لم يقم لهم ، ولم يرد عليهم السلام ، فجلسوا ، وجعلوا يهنئونه بالسلامة ، فلم يجبهم ، ولا بالإشارة ، بل جعل يحادث شخصاً عنده . وقاموا على مثل ذلك منصرفين ومنكسفين ومنكسرى الخاطر » .

وتكرر فى السنة التالية حادث امتهان إبراهيم باشا لكرامة علماء الأزهر حين وجهت الدعوة فى شهر شوال ١٢٣٥ (١٢ يوليو — ٩ أغسطس ١٨٢٠) إلى العلماء والشيخ البكرى نقيب الأشراف لحضور حفل فخم يقام بمناسبة ختان عباس باشا حفيد محمد على (والى مصر فيما بعد) . وأدخلوا إلى القاعة التى جلس فيها إبراهيم . وكان « كل من دخل منهم يجلسونه من سكوت . ولم يقم لواحـــد منهم . ولم يرد على من يسلم ولا بالإشارة السلام . ولم يكلمهم بكلمة يؤانسهم بها . وحضرت المائدة فتعاطوا الذى تعاطوه . وانقضى المجلس وقاموا وانصرفوا من سكوت » . ويقول أحد الباحثين تعليقاً على امتهان إبراهيم لكرامة علماء الأزهر إن احترامه لهم قد تبخر لما ظهر له من أخلاقهم وحقدهم وكراهة بعضهم لبعض . فكان محمد على وابنه أيضا فى غنية عن تملق العلماء بعد تثبيت الملك والانفراد بحكم مصر (١) .

باقة مضيئة ومشرقة من علماء الأزهر :

إلى جانب علماء الأزهر الذين تورطوا مع محمـــد على فى الإيقاع بعمر مكرم وأعطوا صوراً غير كريمة عن أنفسهم بتصرفاتهم وتهافتهم على الدنيا وعرضها الزائل وانصرافهم عن الوعظ والإرشاد ، وُجدت فى ذات الوقت قلة من علماء الأزهر اشتهروا بالورع والتواضع والزهد فى الدنيا والتفرغ الكلى لدراسة العلم وتدريسه ، فكانوا قدوة طيبة لما يجب أن

---

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر ، ج ٢ ، ص ١٥١

يكون عليه علماء الأزهر من الترفع عن الصغائر . وكان من بين هذه الفئة المتميزة بأخلاقياتها السامية المشايخ محمد الشنوانى شيخ الجامع الأزهر ، وأحمد الطهطاوى مفتى المذهب الحنفى ، وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ العملاق .

١ — الشيخ محمد الشنوانى :

جاور الشيخ محمد الشنوانى بالأزهر وعكف على مدارسة العلم ، وعين للتدريس فى جامع الفاكهانى بالقرب من مسكنه فى شارع خشقدم بجهة العقادين . وكان « مهذب النفس مع التواضع والإنكسار والبشاشة لكل أحد من الناس » . أقرأ الدروس وأفاد الطلبة فى الجامع المذكور . وكان من عادته عند فراغه من الدروس أنه كان يغير ملابسه ، ويكنس الجامع ، وينظف دورات المياه الملحقة بالجامع ، ويغسل القناديل ، ويضع فيها الزيت والفتايل استعداداً لإضاءة الجامع ليلا . ولما شغر منصب شيخ الجامع الأزهر بوفاة الشيخ عبد الله الشروقاى سنة ١٨١٢ ، أصدر محمد على أمراً إلى قاضى القضاة بأن يجتمع مع علماء الأزهر لاختيار شيخ آخر ، واشترط أن يكون المرشح مجرداً من الأغراض كما سبق أن ذكرنا . وكان هناك عدد من المرشحين ، من بينهم المشايخ الشنوانى ، والمهدى ، وبدوى الهيثمى ، ومحمد العروسى ، ومحمد الأمير . وتغيب عن الاجتماع بعض منهم ، وكان الشنوانى من بين المتغيبين . وسأل عنهم قاضى القضاة ، وأرسل رسولا لاستدعائهم . فحضر محمد العروسى والهيثمى . أما الشنوانى فقال عنه الرسول إنه اختفى فى مصر القديمة من أيام ثلاثة خلت ، وترك ورقة عند أهل منزله ، وقال لهم اذا حضر أحد يسأل عنه فليعطوه هذه الورقة . وناولها الرسول لقاضى القضاة الذى قرأها جهاراً وفيها اعتذر الشيخ الشنوانى عن عدم قبوله منصب شيخ الجامع الأزهر ، وتنازل عن هذا المنصب للشيخ الهيثمى . ولما سمع الحاضرون ما جاء فى هذه الورقة ، اعترضوا على هذا التنازل تأسيساً على أنه لم يعين شيخاً للجامع الأزهر حتى يتنازل

عن هذا المنصب للشيخ الهيثمى أو لغيره . وقالوا لايكون شيخاً للأزهر إلا من يدرس العلوم ويفيد الطلبة ، وزادوا فى اللغط ، وتطاولوا على الشيخ الشنوانى بعبارات جارحة . وانتهت المناقشات باختيار الشيخ محمد المهدى شيخاً للجامع الأزهر. وكتبوا إعلاناً شرعياً بما وقع فى الاجتماع ، ورفعوه إلى محمد على للتصديق عليه . لكن الباشا بعد تفكير عميق قرر فى اليوم الثالث تعيين الشيخ محمد الشنوانى شيخاً للجامع الأزهر. وذهب إليه بعض المشايخ «وأحضروه قهراً عنه» . وصعدوا به إلى القلعة حيث قابلوا به محمد على الذى خلع عليه خلعة المشيخة . وكان تعيين الشيخ الشنوانى فى مشيخة الجامع الأزهر اعترافاً من الباشا بسجاياه . ويلاحظ أيضاً أنه لم تكن للشيخ الجديد تطلعات سياسية أو شخصية . والحاكم المستبد يستريح عادة إلى هذا الطراز من الرجال ، فهو لم يطلب من محمد على أن يشاوره فى شئون الحكم . وكان أول عمل قام به بعد تعيينه أنه ذهب إلى الشيخ محمد المهدى لإزالة ما يكون قد علق فى نفسه من رواسب نتيجة إقصائه عن مشيخة الأزهر .

ولما كان الشيخ الشنوانى رجلا فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ذا بال ، وكانت داره صغيرة وضيقة لا تتسع لاستقبال المهنئين ، أفرد له السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة داراً رحبة «وقام له بجميع الاحتياجات ، وأرسل من الليل الطباخين والفراشين والأغنام والأرز والحطب والسمن والعسل والسكر والبن . وأوقف عبيده وخدمه لخدمة القادمين للسلام والتهنئة ومناولة القهوة والشربات والبخور وماء الورد . وازدحمت الناس عليه ، وأتوا أفواجاً إليه . . . وحصل ازدحام عظيم وخصوصاً للتفرج على الشيخ الجديد ، وكأنه لم يكن طول دهــره بينهم ، ولا يلتفتون إليه » .

وبقى الشيخ الشنوانى ، وهو شيخ للجامع الأزهر ، ملازماً لجامع الفاكهانى ، لم يتخل عن تنظيفه وإسراجه ، حتى حم فيه القضاء فى

٢٤ نوفمبر ١٨١٧ وصلى عليه بالجامع الأزهر فى مشهد عظيم ودفن فى مقبرة المجاورين . وترك مؤلفات كان من بينها حاشية جليلة على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرة مشهورة بأيدى الطلبة (١) . وتولى بعده مشيخة الأزهر الشيخ محمد العروسى ابن الشيخ أحمد العروسى من غير منازع .

٢ — الشيخ أحمد الطهطاوى

يذكر الجبرتى اسمه مصححاً وهو يترجم لحياة هذا الشيخ ، فقال إن اسمه هو الطهطاوى نسبة إلى مدينة طهطا فى محافظة (مديرية جرجا) بدلا من الطحطاوى . وقد التقينا به من قبل فى هذا الفصل عندما رفض الاشتراك فى التوقيع على المذكرة التى وضعها فى ١٤ أغسطس ١٨٠٩ علماء الأزهر وحشدوا فيها فيضاً من الأكاذيب طعناً فى عمر مكرم .

وصفه الجبرتى بأنه الشيخ العلامة والنحرير الفهامة السيد / أحمد بن محمد اسماعيل . وكان والده تركياً عثمانياً ، جاء مصر متقلداً منصب القضاء بمدينة طهطا فى الصعيد . وتزوج سيدة شريفة ، وأنجب منها بنتاً وولدين . وكان أحدهما أحمد هذا ، ولذلك يذكر اسمه مسبوقاً بلفظة « السيد » . واستمرت إقامة والده فى طهطا إلى أن أدركته الوفاة ، فانتقل أحمد إلى القاهرة سنة ١١٨١ هـ (١٧٦٧ — ١٧٦٨ م) . وجاور بالأزهر . وكان قد حفظ القرآن الكريم وتعلم شيئاً من النحو وهو فى طهطا . فلما التحق بالأزهر درس الفقه على يد طائفة من العلماء أمثال المشايخ : عبد الرحمن العريشى . وعلى الطائى ، والمقدسى ، والحريرى ، وحسن الجبرتى والد المؤرخ عبد الرحمن الذى اختلط به عن كثب سواء فى الجامع الأزهر أو فى دار الجبرتية نظراً

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، ٢٣٦ ، ٢٩٤ ومحمود الشرقاوى ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ، ص ١٣٨ .

لتقارب سنهما . ولما رشح للتدريس والإفادة ، وكان يسكن حي الصليبة ، جلس للإقراء بالمدرسة الشيخونية والصرغتمشية ، واحتفى به سكان هذه الناحية ، واهتموا به ، وأسكنوه داراً لائقة ، وقدموا له الهدايا ، وأكرموه . وكانت هذه الناحية عامرة بعلية القوم . وتميز الشيخ أحمد الطهطاوى بعدة مميزات ، فكان على مذهبهم الحنفى ، ولأن أصله من الأتراك العثمانيين ، ومن الأشراف عن طريق والدته ، كما أن الصليبة كانت خالية من أهل العلم وخصوصاً الأحناف ، ثم تصدر لوقف الشيخونيتين وإيرادهما واستخلاص أماكنهما ، وشرع فى تعميرهما ، فجدّد عمارة المسجد والتكية ، وأنشأ بها صهريجاً . ولم ينقطع السيد / أحمد الطهطاوى عن إلقاء دروسه فى الجامع الأزهر كل يوم ما عدا يوم الجمعة . ولما ازداد عدد أفراد أسرته انتقل إلى المدرسة العينية بالقرب من الأزهر . وحدث أن قام محمد أفندى الودنلى بتعمير الجامع المجاور لمنزله تجاه القنطرة المعروفة باسم عمارشاه والمكتب الملحق بالجامع ، فتعين السيد / أحمد الطهطاوى مدرساً لعلم الحديث . فكان يلقى دروسه فى هذا العام كل يوم بعد صلاة العصر ، وقرر له عشرة من الطلبة ، ورتب للطهطاوى وللطلبة مرتبات ثابتة ووفيرة تصرف من الديوان . ولما مات مفتى المذهب الحنفى الشيخ إبراهيم الحريرى تقلد الطهطاوى منصبه ، ثم ما لبث أن رفض أن يشترك مع علماء الأزهر النفعيين فى شهادة زور فى حق عمر مكرم ، وشنعوا عليه وبالغوا فى الحط من قدره . وكان أكثر المشايخ تحاملا عليه الشيخان محمد السادات ومحمد الأمير . ولكنه رفض أن يواكبهما ، ولم تلن له قناة . فاستصدروا قرارين فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٩ أولهما بعزله من منصبه ، والثانى بتعيين الشيخ حسين المنصورى . واعتكف فى داره لا يبرحها إلا إلى جامع الشيخونية . وآثر التباعد عنهم . وظل مبعداً عن منصب إفتاء الأحناف إلى أن توفى الشيخ حسين المنصورى ، فأعيد تعيينه فى منصبه السابق فى ١٣ يناير ١٨١٥ ، وارتدى الخلع من الشيخ الشنوانى شيخ الجامع الأزهر ، ثم من الباشا ، ثم من « باقى المشايخ أرباب المظاهر » .

وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى ١١ يونيو ١٨١٦ . ومن أوصاف الجبرتى له أنه كان يتحلى بالتباعد عما يخل بالمروءة ، وأنه يتميز بحدة الذكاء ، وانكبابه على العلم . ومن مؤلفاته حاشية على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ، فى أربع مجلدات جمع فيها المواد التى على الكتاب ، وضم إليه غيرها(١) .

٣ — الشيخ عبد الرحمن الجبرتى :

ينتسب الجبرتى إلى بلدة جبرت من بلاد زيلع بأرض الحبشة . ارتحل جده السابع زين الدين عبد الرحمن الجبرتى إلى جدة ثم انتقل إلى مكة المكرمة وجاور بها وحج مراراً ، ثم جاور بالمدينة المنورة سنتين وعاد إلى جده ، وارتحل إلى مصر فى القرن السادس عشر الميلادى وجاور بالأزهر. وكان يغلب على سكان بلدة جبرت الصلاح والتقشف . وكانوا يحجون مشاة . ولهم رواق بمكة ورواق ثان بالمدينة ، وأنشىء لهم رواق بالجامع الأزهر حيث تولى مشيخته فريق من أولاد وحفدة الشيخ زين الدين . ونشأ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ فى بيت دين وصلاح ومجد وثراء(٢) .

ولد الجبرتى المؤرخ سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٤ / ١٧٥٥ م) ، ودرس فى بعض الكتاتيب فى حى الأزهر ثم فى المدرسة السنانية بخطة الصنادقية ، ثم جاور بالأزهر حيث درس مذهب الإمام الحنفى وحضر مجالس ودروس الشيـــخ العلامة مرتضى الحسينى الزبيـــدى الحنفى (١٧٣٢ — ١٧٩١) الذى أتم شرح القاموس فى نحو أربعة عشر مجلداً سماه تاج العروس (٣) . وقد أخذ عن والده الشيخ نور الدين حسن الجبرتى العلوم الرياضية والفلكية ،

---

(١) انظر ترجمة الشيخ أحمد الطهطاوى فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٦٠ — ٢٦١

(٢) انظر الترجمة الضافية التى وضعها الجبرتى لأسرته فى ج ١ ، ص ٢٨٥ — ٢٩١

(٣) انظر ترجمة حياة الشيخ مرتضى الحسينى الزبيدى فى الجبرتى ، ج ٢ ص ١٩٦ — ٢١٠.

وانتفع بما كان يقصه عليه من أخبار العلماء والحكام . فجمع عبد الرحمن بين البراعة فى الفلك والحساب ، والتعمق فى المذهب الحنفى ، والإلمام بالدراسات التاريخية . ومات والده فى غرة صفر ١١٨٨ (٢٣ أبريل ١٧٨٤)، وعمّر عبد الرحمن دار الأسرة فى الصنادقية سنة ١٧٧٧ ، وأخذ يلقى دروسه فى الجامع الأزهر وفى داره بالصنادقية فى الفقه الحنفى ، والفلك والحساب والهندسة . وانتقل إليه الإشراف على إدارة الأملاك التى تركها له والده وكذلك التنظر على الأوقات التى كانت للأسرة فى القاهرة و مصر القديمة وبولاق وإدكو وغيرها من الجهات . ، لكن لم تصرفه هذه المسائل المالية عن مدارسة العلم .

كانت باكورة إنتاجه العلمى كتاب « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » بمناسبة جلاء الحملة الفرنسية عن مصر . وأهداه إلى الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا . وفيه هاجم الجبرتى الحكم الفرنسى فى مصر . ثم وضع كتاباً آخر باسم « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » فى أربعة مجلدات . وتركزت أهمية هذا الكتاب على الأحداث التى عايشها الجبرتى منذ العصر العثمانى المملوكى فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، ثم عهد الحملة الفرنسية ، وفترة الاضطرابات السياسية (١٨٠١ — ١٨٠٥)، وحكم محمد على حيث توقف عن التأريخ لحكمه عند نهاية سنة ١٢٣٦ هـ (٢٧ سبتمبر ١٨٢١) . وقد جاءت هذه الأحداث فى نهاية المجلد الثانى وغطت المجلدين الثالث والرابع . وكانت هذه الأحداث صحيحة فى جوهرها وتفاصيلها . ووجه الاختلاف بين ما دونه الجبرتى وبين ماكشفت عنه البحوث التاريخية الحديثة ، أن مرد ما قد يلاحظ من نقص فى استكمال بعض الأحداث ، أو فى استيفاء تفسيراتها أو بواعثها ، إلى أنه لم يكن فى مكنة الجبرتى معرفة أسرار السياسه العليا التى كانت معرفتها مقصورة على الحكام والمسئولين وحدهم فقط . ولم يكن هناك سبيل لمعرفتها إلا بالرجوع إلى الوثائق والتقارير . وهذه لم تكن فى متناول الشيخ . وكان هناك سبب

آخر هو أن الجبرتى لم يكن من المقربين من أصحاب الحكم سواء محمد على أو أعوانه . فاستقى الأحداث التى دونها عن عهد محمد على من أصدقائه وإخوانه ومن المشايخ المتصلين به ، أو من الأمراء المماليك . وقد كان الجبرتى على صلة بكثيرين منهم ، كما اعتمد على مشاهداته الخاصة ، أو كان يسجل الأحداث التى قدر لها الذيوع والانتشار بعد أن يتثبت من صحتها. وتفسر هذه الحقائق مجتمعة إغفال كتابه عجائب الآثار المسائل الخاصة بعلاقات محمد على السياسية والاقتصادية وغيرها بالدول الأوروبية ، إلا النذر اليسير منها (١) .

والجبرتى فى كتابه عجائب الآثار يتميز بالدقة والموضوعية فى ذات الوقت ، فهو يكتب للتاريخ والحقيقة المجردة (٢) دون أن يتطلع إلى التقرب إلى الحاكم طمعاً فى الظفر بمناصب أو منافع مالية . وقد أكد الجبرتى فى مقدمة الجزء الأول من كتابه هذا المنهاج التاريخى المحايد الذى التزم به ، فقال بعد أن نوه بقيمة علم التاريخ وكيف أن الإمام الشافعى قد أشاد بهذا العلم « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ؛ أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسانى أو غرض جسمانى » (٣) .

الفكر السياسى لدى الجبرتى :

تكونت لدى الجبرتى فكرة واضحة عن المثل الأعلى للحاكم تمثلت فى أن العلم والعدل ، بالمعنى المتفق عليه عند علماء الفقه والتفسير ، هما أساس

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع إلخ ، ج ٣ ، ١١٦٩ — ١١٧٠ .

(٢) دكتور محمد أنيس ، مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ص ٢٧ — ٤٥ .

(٣) الجبرتى ، ج ١ ، ص ٦

الحكم الصالح والسياسة الرشيدة وقوام المجتمع البشرى . وخلص من هذه الفكرة إلى أن المحكومين فى حاجة إلى سائس عادل وحاكم عالم. واستند إلى آيات وردت فى مواطن عديدة فى القرآن الكريم وإلى أحاديث نبوية وإلى أقوال الحكماء . وكانت هذه الفكرة نتاج عدة عوامل ، منها أن الجبرتى كان أحد عمالقة علماء الأزهر فى عصره، وكثرة اتصالاته بهم، وقد اعتبرهم فى عداد المسئولين ، وعلاقاته الوطيدة مع معظم البكوات المماليك ، ومراقبته الدقيقة والواعية لتصرفات الفرنسيين والباشوات العثمانيين ، وكان على رأس هؤلاء الأخيرين محمد على . وكان من بين هذه العوامل أيضا تأثر الجبرتى فى فكره السياسى بآراء ابن خلدون ومقدمة كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » . وكانت العظات التى استخلصها الجبرتى من ثقافته وتجاربه واتصالاته ومشاهداته مبنية على القيم والمثل التقليدية الذائعة فى الأوساط العلمية والفقهية فى التاريخ (١) .

نفور الجبرتى من حكم محمد على :

اعتقد الجبرتى ، فى ضوء الأحداث التى وقعت خلال الخمس عشرة السنة التى أرخ فيها حكم محمد على (١٨٠٥ — ١٨٢١) أن الأخير لم يتوفر فيه الشرطان الأساسيان للحاكم المسلم المثالى ، وهما العلم والعدل . وقد سجل فى كتابه عجائب الآثار أمثلة عديدة جداً لتصرفاته المنافية للعلم والعدل، وعلق عليها تعليقات لاذعة ، فهو منطبع على الظلم ، ومستبد ، وليس له صديق أو حبيب ، يغدر بأى إنسان ، يحب الشوكة ونفوذ أوامره فى كل مراد ، ولا يصطفى ولا يحب إلا من لا يعارضه ولو فى جزئية ، أو يفتح له باباً تهب منه ريح الدراهم والدنانير ، أو يدل على ما فيه كسب

---

(١) بسط الجبرتى المبادئ التى قام عليها فكره السياسى فى مقدمة كتابه عجائب الآثار ألخ ، ج ١ ، ص ص ٧—١٣ .

أو ربح من أى طريق أو سبب من أى ملة كان». وقال إن من صفة محمدعلى «الحقد والحسد والتطلع إلى ما فى أيدى الناس» . وشبهه بالغول فقال «لما استقل هذا الباشا بمملكة الديار المصرية استغول فى تحصيل الأموال بأى وجه » ولخص الجبرتى التجاء محمد على إلى الوسائل التعسفية فى جمع الضرائب الجزافية وفرض القروض الإجبارية على الشعب فى كلمات معبرة هى براعته فى « استنضاح المال من الرعية » . ولما عاد محمد على إلى مصر فى ٢٣ يونيو ١٨١٥ قبيل انتهاء الحروب الوهابية فى الحجاز أعلن أنه تاب عن الظلم وعزم على إقامة العدل ، وأنه نذر على نفسه أنه إذا رجع منصوراً واستولى على أرض الحجاز ، أفرج للناس عن حصصهم (أى حصص نظام الالتزام) ورد الرزق الإحباسية إلى أهلها» وكان تعليق الجبرتى : «فصدقه المغفلون». وقد بنى الجبرتى هذا التعليق على حادث وقع فى ذات الأسبوع . فقد تقاطرت وفود من المشايخ والأشراف والفلاحين ، ومعهم بيارق وأعلام مستبشرين وفرحين بما سمعوه وأشاعوه ، وذهبوا إلى الباشا... فلما رآهم ، وأخبروه عن سبب مجيئهم ، فأمر بضربهم وطردهم ، ففعلوا بهم ذلك ، ورجعوا خائبين » . كما ضرب الجبرتى الأمثلة على غدره وظلمه وابتعاده عن العدل فى القصاص . وكان من بين هذه الأمثلة مذبحة المماليك وقتل أحمد أغا لاظ حاكم قنا ونواحيها ، ليلة القدر فى رمضان ١٢٢٧ ، ومحمد أفندى طبل الودنلى (١٢٢٧) ، وشيخ طرهونة بجهة قبلى ، واسمه كريم ، أخذ منه الهدية وكان من بينها أربعون جملا ، ثم أمر بضرب عنقه فى الرميلة (١٢٣٠) وغيرهم(١) .

لهذه الأسباب انبثق عنيفاً نفور الجبرتى من حكم محمد على . ولم يكن هذا النفور العنيف صادراً عن اعتبارات شخصية أو مصالح ذاتية .

---

(١) انظر على سبيل المثال كلا من :

الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١١١ ، ص ١٧٠ ، ص ٢٢٤

دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع ألخ ، ج ٣ ، ص ١١٩٥

وإذا كان قد وقع على الشيخ ، كما وقع على غيره ، مظالم ، فقد كان له من الأملاك وغيرها من أسباب الثراء ما كفل له العيش فى بحبوحة . ولم يكن الطمع من شيمته ، وخلا كتابه من الإشارة إلى نفسه . ومع ذلك فقد حاول الجبرتى أن يكون عادلا فى نظرته إليه ، فقرر أن محمد على «كان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان . فلو وفقه الله لشىء من العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة ، لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه» .

كان الجبرتى يعلق آمالا عذبة على حكم محمد على فى إنهاء المظالم التى امتلأ بها عهد الانقلابات السياسية عقب جلاء الفرنسيين . وكان يرجو أن يكون حكمه مقروناً بنشر الرفاهية والاستقرار والعدالة للشعب . ولكن لم يتحقق فى نظره شىء من هذه الآمال . ولم يلق الأهلون ومتزعموهم من الأشياخ جزاء حسناً على سعيهم فى المناداة به والياً على مصر . فانقلب عليه ، لأنه خالف فكره السياسى بالابتعاد عن العدالة فى سياسته الضريبيـــة بفرض الضرائب المستحدثة والقروض الإجبارية والإتاوات المختلفة الأسماء والأنواع مما أرهق الشعب من أمره عسرا . فكان يرى فى سياسته تجويعـــاً للشعب ، وتشريداً للفلاحين ، واستبداداً بالرأى ، واستهانة بالعلمـــاء ، وتمكيناً لأسافل القوم من الجنود الدلاة والأرناؤود والانكشارية من الاستعلاء على المصريين وأكابرهم على الرغم من وضاعة أصل هؤلاء الوافدين وهوان مراكزهم الاجتماعية والاقتصادية فى أوطانهم قبل استدعائهم إلى مصر . وكانت كراهية الجبرتى لمحمد على إحدى بواعث حملته على علمـــاء الأزهر والأمراء المماليك ، لأن الأولين أسهموا فى توطيد حكمه ، بينما أضاع الآخرون فرصاً ذهبية لإنهاء حكمه فى أزمة نقله إلى سالونيك (١٨٠٦) ، وفى أزمة العدوان البريطانى على مصر (١٨٠٧) . ويلاحظ أن الجبرتى بسبب مقته لمحمد على كان لا يذكره فى أواخر الجزء الرابع من كتابه «عجائب

الآثار » وابتداء من سنة ١٢٣٢ هـ (نوفمبر ١٨١٦) إلا باسم « القوللى » نسبة إلى مدينة قولة مسقط رأسه . وكأنه كان يعده أحد العسكر الوافدين إلى مصر من بيئات وضيعة أو متواضعة .

محمد على ينجح فى إسكات صوت الجبرتى :

كانت معارضة الجبرتى لمحمد على ، كما ذكرنا من قبل ، معارضة صامتة ، فلم يعرف عن الشيخ أنه حاول أن ينقد بصورة علنية أساليب الباشا فى الحكم ، أو أن يوجه النصح لتقويمه ، كما فعل الشيخ عبد الله الشرقاوى مثلا فى حادثة صلاة الاستسقاء (أغسطس ١٨٠٨) ، أو الانضمام إلى المعارضة السافرة عند ظهورها . وعلى الرغم من صمت معارضة الجبرتى ، كانت معارضته خطيرة لأنها قامت على مبادئ معينة ، تتصل فى جوهرها بضرورة توفر العدل والعلم شرطاً أساسياً لوجوب الطاعة للحاكم(١) . وقد أفصح الجبرتى عن آرائه لأصدقائه والأشياخ الذين كان يجتمع بهم ويتبادل معهم الرأى فى الأحداث الداخلية . ويرى أحد كبار الباحثين أن أجزاء من مذكرات الجبرتى قد ذاع أمرها فى أوساط المشايخ(٢) . فلم يكن فى صالح النظام القائم أن تنتشر هذه الآراء وأن تجد لها صدى بين سائر الأوساط . ومن ثم استقر رأى محمد على وأقاربه ، أخذاً بالحيطة والحذر ، على إسكات صوت الجبرتى حتى فى معارضته الصامتة . فأجمع التواتر على أن صهر الباشا محمد بك الدفتردار قد فتك بخليل ابن المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى . وقد تم قتله فى يونيو ١٨٢٢ ، فقصم هذا البلاء ظهر والده ، وعزف عن تسجيل الأحداث . ولم يلبث أن ذهب الحزن ، بجانب إجهاده السابق فى القراءة والكتابة ، ببصره حتى جاز إلى ربه بعد قليل .

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن ألخ . ، ج ٣ ، ص ص ١١٧٢ — ١١٧٥
(٢) المرجع السابق ص ١١٩٦

ست ملحوظات :

من الأهمية بمكان أن نسجل فى ختام دراسة الزعامة الأزهرية الصامتة ست ملحوظات . الملحوظة الأولى أن الجبرتى لم يكتب جزءاً خامساً لكتابه عجائب الآثار ، كما يظن البعض استناداً إلى ما ذكره الجبرتى عند آخر ما كتبه فى نهاية الفصل الرابع ، وكان خاصاً بالثورة اليونانية على الدولة العثمانية طلباً للاستقلال وتعرض اليونانيين لسفن المسلمين وذبح ركابها المسلمين ، إذ قال إن هذا الهجوم اليونانى البحرى لا يزال باقياً ، وإن ما سينتهى حاله إليه فسيتلى عليك إن شاء الله تعالى بكماله فى الجزء الآتى بعد ذلك » . والحقيقة أنه وقف عند كتابة « طياراته »(١) عند شهر ذى الحجة ١٢٣٦ (٣٠ أغسطس ١٨٢١) . أما الملحوظة الثانية فتتصل بتحديد سنة وفاته . فيذكر بعض الرواة أنه قضى نحبه سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥/١٨٢٦ م) بينما يذكر شفيق بك منصور يكن(٢) أنه حقق سنة وفاته بمناسبة ترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية ، فكتب فى مقدمة الترجمة أنه توفى يوم ٢٧ رمضان ١٢٣٧ (١٨ يونيو ١٨٢٢) . وقال عن ذريته إنه توفى تاركاً غلاماً وبنتاً ، وإن الغلام مات عقب وفاة والده بسنوات قليلة . وأما الابنة فكانت لم تزل على قيد الحياة بالقاهرة حتى ظهور الترجمة الفرنسية للكتاب ، ولكنها كانت تعيش نسياً منسياً . أما الملحوظة الثالثة فهى أن كتاب عجائب الآثار قد طبع فى مطبعة بولاق فى جمادى الآخرة ١٢٩٧ (١١ أبريل — ١٠ مايو ١٨٧٩) أى قبل عزل الخديو اسماعيل بنحو شهر ونصف شهر . وكان قد تلقى برقية من السلطان عبد الحميد الثانى فى ضحوة ٢٥ يونيو من ذات السنة بعزله من حكم مصر . وقد طبع أولاً الجزءان الثالث والرابع الخاصان بتاريخ الحملة الفرنسية وعهد الانقلابات

---

(١) طياراته جمع طيارة بمعنى مذكراته أو أوراقه . وهذا الإسم عرفت به أوراق الجبرتى
(٢) انظر ما يلى عند الكلام على الملحوظة الخامسة .

السياسية وحكم محمد على . ثم طبع الجزء الأول فالجزء الثانى . وأما الملحوظة الرابعة فهى ترجمة الجزء الخاص بالحملة الفرنسية إلى اللغة التركية . والملحوظة الخامسة خاصة بترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية مرتين ، الأولى بقلم كاردا Cardin مترجم القنصلية الفرنسية العامة بمصر . وهذه الترجمة مقصورة على الجزء المتعلق بالحملة الفرنسية ، وهى تحوى أغلاطاً كثيرة . وقد طبعت سنة ١٨٣٨ . أما الترجمة الصحيحة الوافية فهى لنخبة من أدباء مصر برياسة المرحوم شفيق بك منصور يكن . وقد ظهرت فى تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ (على عهد الخديو توفيق) إلى سنة ١٨٩٦ على عهد الخديو عباس حلمى الثانى . والملحوظة السادسة والأخيرة هى أن قتل الشيخ خليل بن الجبرتى كان بعد أن تخلص محمد على من كل عناصر الزعامة الأزهرية بوفاة الشيخ الدواخلى . ثم عمر مكرم .

خاتمة المطاف بعمر مكرم :

ونختتم دراستنا عن الزعامة الأزهرية بعرض سريع لمصير عمر مكرم منذ نفيه إلى دمياط حتى وفاته . عاش فى منفــاه تحت حراسة مشددة « والحراس ملازمون له » لا يسمحون له بالاختلاط بأحد . وعاش سنوات مظلمة ينتظر الفرج الذى أبطأ عليه . وكان يقضى سحابة النهار فى السير على شاطىء النيل ترويحاً لنفسه عما كان يشعر به من ضيق وآلام نفسية مبرحة . ثم رأى أن يخلق لنفسه عملا يتشاغل به ، فشرع فى بناء خان (١) ليقصده التجار الذين يفدون إلى دمياط من موانىء الشام وبلاد الأناضول . وحدث أن زار دمياط قاضى القضاة فى أواخر شهر ربيع أول ١٢٢٧ (النصف

---

(١) الخان هو وكالة أو فندق يعد لاستقبال التجار وبضائعهم . وفى أعلاه مساكن للنازلين به تطل على ساحة تتوسط الخان . ويوجد بالخان عادة بئر ماء وميضأة ومسجد صغير . كما توجد به حظيرة للدواب .

الثانى من أبريل ١٨١٢) فطاب إليه عمر مكرم أن يفاتح محمد على فى نقله من دمياط إلى طنطا . واستجاب الباشا لرغبته ، وغادر عمر مكرم دمياط بعد أن أمضى فيها قرابة ثلاث سنوات .

وفى طنطا امتدت إقامة عمر مكرم منفياً زهاء سبع سنوات كان محمد على قد وطد خلالها مركزه . وكانت الأنباء قد بلغت القاهرة فى ٩ أكتوبر ١٨١٨ باستيلاء إبراهيم باشا على الدرعية عاصمة الوهابيين فى إقليم نجد . فأخذت القاهرة زخرفها ، وازينت سبع ليال متتابعات ابتهاجاً بهذا الانتصار وانتهاء الحروب الوهابية . وفى غمرة هذه الأفراح بعث عمر مكرم بخطاب إلى محمد على يهنئه فيه بالنجاح الذى أحرزه فى الحروب الوهابية . وكأنه يذكره بأن هذا المجد العسكرى والسياسى والدينى الذى ناله يجب ألا ينسيه الدور القيادى الذى قام به عمر مكرم فى تقليـــده حكم مصر ، كما يجب ألا ينسيه الخدمات الجليلة التى أسداها إلى الباشا فى ترطيد مركزه خلال السنوات الأولى من حكمه . وقد بعث بخطابه إليه مع حفيده السيد صالح . وكان محمد على مقيماً فى الإسكندرية ، فقابله بالترحاب وسأله عن جده . وأعاد عليه السؤال عدة مرات والحفيد يجيب « بخير ، ويدعو لكم. فقال له هل فى نفسه شىء أو حاجة نقضيها له ؟ فقال لا يطلب غير البقاء لحضرتكم » . ثم انصرف إلى المكان الذى نزل به . وأرسل إليه محمد على أحد أتباعه يستفسر منه عما يطلبه عمر مكرم ويجد حفيده حرجاً فى مفاتحة محمد على فيه . ولم يزل هذا المبعوث يلاطف الحفيد ويستدرجه فى الحديث حتى أفصح له عن رغبة جده فى أداء فريضة الحج . فلما علم محمد على ، أجابه إلى تحقيق رغبته . وأذن له فى العودة إلى القاهرة والإقامة فى داره حتى يحين موسم الحج . وترك له حرية اختيار وسيلة السفر إلى الحجاز إما براً وإما بحـــراً . وقال محمد على « أنا لا أتركه فى الغربة هذه المدة إلا خوفاً من الفتنة . والآن لم يبق شىء من ذلك . فإنه أبى ، وبينى وبينه

ما لا أنساه من المحبة والمعروف » . وكتب له خطاباً يفيض بأسمى مشاعر التقدير . وقد أورد الجبرتى النص الحرفى لهذا الخطاب (١) . وقد ناول محمد على هذا الخطاب إلى حفيد عمر مكرم ، كما سلمه صورة من خطاب بعث به إلى الكتخدا ، أى وكيله فى القاهرة . وقد وصل خطاب الكتخدا إلى القاهرة قبل وصول النبأ إلى أسرة عمر مكرم . فزف الكتخدا إليها البشرى . وانتشر النبأ بين أهل القاهرة . وكان الناس بين مصدق ومكذب ، حتى وصل عمـــر مكرم فى ١٢ ربيع أول ١٢٣٤ (٩ يناير ١٨١٩) إلى بولاق ، وقصد إلى مسجد الإمام الشافعى وزار ضريحه ، ثم صعد إلى القلعة وقابل الكتخدا وسلم عليه . ونظم الشعراء القصائد مرحبين بمقدمه . وقدم لهم العطايا فى حدود إمكانياته المالية .

وعلى الرغم من أن غيبة عمر مكرم فى المنفى قد استطالت عشر سنوات ، لم ينس الشعب زعامة عمر مكرم واستمر ازدحام الناس على داره ، الأمر الذى أثار مخاوف محمد على من جديد . وشعر عمر مكرم بذلك . فآثر الابتعاد عن الجماهير . واعتكف فى داره لايغادرها ، ولا يجتمع به فيها إلا ذووه . ورأى الجبرتى أن اعتكاف عمر مكرم قد دل على حصافته ، إذ قال « واستمر ازدحام الناس أياماً ، ثم امتنع عن الجلوس فى المجلس العام نهاراً ، واعتكف بحجرته الخاصة . فلا يجتمع به إلا بعض من يريده من الأفراد . فانكف الكثير عن التردد . وذلك من حسن الرأى » . والعبارة الأخيرة تدل على أن اعتكافه كان سياسياً . وكانت هذه الحادثة هى آخر ماكتبه الجبرتى عن عمر مكرم ، لأنه وقف فى تسجيل الوقائع عند نهاية سنة ١٢٣٦ (سبتمبر ١٨٢١) كما ذكرنا . ويهمنا أن نضيف هنا أن عمر

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٣٠٠-٣٠١

(٢) المصدر السابق

مكرم تعذر عليه أداء فريضة الحج ، لأنه كان قد غدا رجلا طاعناً فى السن ووهن العظم منه .

محمد على يصدر قرار بنفى عمر مكرم مرة أخرى :

ما كان محمد على ليدع عمر مكرم يمضى ما تبقى له فى الحياة من خطوات فى هدوء وطمأنينة . ولم يجد نفعاً الحذر الذى أخذ عمر مكرم نفسه به . فالاعتكاف السياسى ، والانزواء فى عقر داره فى ضاحية مصر القديمة ، والشيخوخة وتدهور صحته ، كل أولئك لم يجعله بمنجاة من ظنون ومخاوف وبطش محمد على . فقد عاودته سراعاً طبيعته القائمة على العنف والاستبداد والغدر والتنكر لأصحاب الفضل عليه . كان أهـــل القاهرة قد قاموا فى ٢٩ مارس ١٨٢٢ بانتفاضة معلنين سخطهم العميق على سياسة محمد على الضريبية الجائرة ، إذ كان قد فرض عليهم وقتذاك مزيداً من الضرائب . واعتقد محمد على أن لعمر مكرم يداً فى هذه الانتفاضة ، فأمر بنفيه من جديد إلى طنطا فى ٥ أبريل ١٨٢٢ وإخراجه من القاهرة فى ذات اليوم .

وإذا كان الجبرتى لم يدون أحداث هذه المحنة الجديدة التى تعرض لها عمر مكرم فى أواخر أيام حياته ، فإننا نتتبع ما كتبه فى هذا الصدد الدبلوماسى والمؤرخ الفرنسى مانجا ، فقد قال إن محمد على « خشى نتائج نفوذ رجل اعتكف اعتكافاً تاماً عن الناس . واتخذ إجراءات أملتها رغبته فى المحافظة على النظام القائم والإبقاء على سلطته وخشيته من تجدد قيام حركات مشابهة لتلك الانتفاضة . فأوفد أحد الضباط إلى دار عمر مكرم فى جهة أثر النبى بمصر القديمة لاقتياده إلى منفاه . وكان عمر مكرم مستريحاً فى فراشه بالدور العلوى بعد أن تناول طعام الغداء . فأيقظوه من نومه ، وهبط إلى المندرة ». فلما أقبل عمر مكرم وقف له الضابط وقبّـــل يده . فقال له عمر مكرم « خيراً إن شاء الله » . فقال له الضابط إن مولاه محمد على يريد منه أن يرحل إلى طنطا . فأجاب عمر مكرم بأنه مستعد للرحيل فى أى وقت يشاء

محمد على ، وأنه سيعد سفينه يرحل عليها . فقال له الضابط إن الحكومة قد أعدت له سفينة راسية فى مرسى السفن بمصر القديمة مستعدة للإبحار فوراً . وأدرك عمر مكرم أن محمد على مصمم على إخراجه من القاهرة فى ذات اليوم . فخرج مع الضابط يحيط به الحراس . وأبحرت بهم السفينة فى مساء ذات اليوم وهو ٥ أبريل ١٨٢٢ (١) .

وعلق هذا المؤرخ على نفى عمر مكرم للمرة الثانية قائلا « أراد الوالى إقصاء هذا الشيخ الطاعن فى السن ، لأنه اعتقد أنه هو الذى حرك الانتفاضة الشعبية التى اندلعت فى ٢٩ مارس ١٨٢٢ . إن هذا الرجل ، وهو على حافة القبر ، قد اختار له مسكناً فى الضاحية ليعيش فى هدوء بعيداً عن الجماهير وصخب المسائل العامة . ولم يكن يغادر منزله » (٢) . وهى شهادة رجل فرنسى كان من المقربين إلى محمد على ، وهى شهادة تدمغ هذا الباشا ، وتدل على أنه لم يكن هناك ما يبرر اتخاذ هذا الإجراء التعسفى . ولكن كان محمد على يتوجس خيفه من هذا الزعيم ، وظل إلى آخر أدوار حياة عمر مكرم يحسب له حساباً كبيراً ، لأنه كان فى شك منه مريب .

ولم تطل مدة نفى الزعيم هذه المرة إذ جاز إلى ربه فى ذات السنة (١٨٢٢) . وطويت صفحة زعيم أزهرى كان كبير الزعماء اتصف بالشجاعة الأدبية والصدق والصبر والثبات والترفع عن الصغائر والتنزه عن الأحقاد الشخصية ، لم يستهوه جاه أو مال ، ومن هنا كانت قيمته كزعيم وطنى أخلاقى . كانت حياته سلسلة من الكفاح ضد العدوان الفرنسى ثم العدوان البريطانى ثم استبداد محمد على . وكانت معظم سنى حياته مليئة بالمحن والمكاره صبر عليها صبر أولى العزم من الكرام المجاهدين .

---

(١) Mengin F. ; op. cit. t 2, pp 246 – 247.

(٢) Ibid.

وهكذا أسدل محمد على الستار على الزعامة الأزهرية بنوعيها السافرة والصامتة . وكان على الشعب المصرى أن ينتظر قرابة ستين عاماً لتظهر على ثرى مصر زعامة عسكرية جديدة من طراز جديد ولأهداف جديدة . وتمثلت هذه الزعامة فى أحمد عرابى ورفاقه الذين قادوا الثورة العرابية فى وجه الخديو توفيق ، وهو أحد حفدة محمد على . وقد شارك شيخ الجامع الأزهر وبعض كبار علمائه فى هذه الثورة .



الفصل السادس والعشرون

الأزهـــر

منذ إقصاء علمائه عن الحياة السياسية
حتى نهاية حكم محمد على

الأزهر جامعاً :

بعد أن نجح محمد على فى إقصاء الزعامة الأزهرية عن الحياة السياسية، اقتصر دور الأزهر على دوره التقليدى جامعاً تقام فيه الصلوات الخمس، وجامعة يتصدر علماؤه الحلق الدراسية فى رحابه يؤمها الطلبة الوافدون والمصريون، ويقيمون فى الأروقة المخصصة لهم. وكان قد تولى مشيخة الجامع، عقب وفاة الشيخ محمد الشنوانى فى ٢٤ نوفمبر ١٨١٧، الشيخ محمد أحمد العروسى وأعقبه فى هذا المنصب إبان حكم محمد على مشايخ أربعة آخرون. وكان الأزهر موضع اهتمام وتبجيل من محمد على. أنشأ فيه رواق السنارية ليستقبل الطلبـــة الوافدين من إقليم سنار فى السودان كما ذكرنا من قبل (١). وحدث أن انتاب محمد على القلق الشديد على ابنه إبراهيم لانقطاع الأخبار عنه وهو يخوض حرباً ضارية ضد الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية، فأصدر أمراً فى أوائل أكتوبر ١٨١٧ للفقهاء وطلبة الأزهر بقراءة صحيح البخارى كوسيلة لالتماس النصر من عند الله لابنه ابراهيم. « فاجتمع الكثير من الفقهاء والمجاورين، وفرقوا بينهم أجزاء وكراريس من البخارى يقرؤن بها فى مقدار ساعتين من النهار بعد الشروق، فاستمروا على ذلك خمسة أيام . . . ولما انقضت أيام قراءة

---

(١) انظر فى هذه الدراسة، ج ١، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ .

البخارى نزل للفقهـــاء عشرون كيساً فرقت عليهم . . . . »(١) . ومنذ ٢٧ ديسمبر ١٨١٧ تتابعت الأنباء بانتصار إبراهيم باشا على الوهابيين . ثم تحرج مركز إبراهيم بعد حصار دام شهرين لمدينة الدرعية ، فصدر أمر من محمد على مرة أخـــرى بقراءة البخارى فى الجامع الأزهر « فقرىء يومين ، وفُرق على مجاورى الأزهر عشرة أكياس »(٢) وصدرت الأوامر تباعاً فى شهر ذى القعدة ١٢٣٣ (٢ سبتمبر — أول أكتوبر ١٨١٨) بقراءة البخارى فى الجامع الأزهر بعد أن استعصت الدرعية على القوات المصرية ، وتبادل المصريون والوهابيون الهـــزيمة والانتصار حول هذه المدينة . واشتدت الهواجس بمحمد على خوفاً على ابنه « وانقضى شهر ذى القعدة ١٢٣٣ والباشا منفعل الخاطر لتأخر الأخبار وطول الانتظار . وكل قليل يأمر بقراءة صحيح البخارى بالأزهر . . . ولضيق صدره واشتغال فكره ، لا يستقر بمكان ، فيقيم بالقلعة قليلا ، ثم ينتقل إلى قصر شبرا ، ثم إلى قصر الآثار ، ثم الأزبكية ، ثم الجيزة وهكذا » . وكانت قراءة البخارى فى الجامع الأزهر تقترن بالدعاء بأن يؤيد الله بنصر من عنده إبراهيم باشا . وفى الشهر التالى ، وعلى وجه التحديد فى ٧ ذى الحجة ١٢٣٣ الموافق ٨ أكتوبر ١٨١٨ ، وردت إلى القاهرة أنباء عن استيلاء القوات المصرية على الدرعية بعد حصار استطال ستة أشهر ، « فانسر الباشا لهذا الخبر سروراً عظيماً ، وانجلى عنه الضرر والقلق ، وأنعم على المبشر ، وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية »(٣) . ويبدو أن محمد على قد ارتاح إلى هذه الوسيلة ، وهى قراءة البخارى فى الجامع الأزهر ، كلما واجه أزمة ، أو كان

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، يوميات شهر ذى القعدة ١٢٣٢ (١٢ سبتمبر — ١١ أكتوبر ، ١٨١٧) ص ٢٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، يوميات شهر جمادى الأولى ١٢٣٣ (٩ مارس — ٧ أبريل ١٨١٨) ص ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٣) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .

فى صدد تنفيذ مشروع خطير . قال الجـــبرتى وهو يسجل أحداث يوم ١٦ ربيع الآخر ١٢٣٦ الموافق ٢١ يناير ١٨٢١ ، وكان هذا التسجيل آخر مرة يتصل بالجامع الأزهر قبل أن يتوقف عن تأريخ حكم محمد على «أمر الباشا بقراءة صحيح البخارى بالجامع الأزهر ، فاجتمعوا فى يوم الاثنين سابع عشر وقروا فى الأجزاء على العادة ضحوة النهار أربعة أيام آخرها الخميس ، وفرقوا على أولاد المكاتب دراهم ، وكذلك على مجاورى الأزهر فى نظير قراءة البخارى » (١) . ولم يذكر الجبرتى المناسبة التى أمر محمد على فيها بقراءة البخارى فى الجامع الأزهر هذه المرة ، ولكن باستقراء الأحداث التاريخية التى تلاحقت فى هذه الفترة نخلص إلى أنه كان منصرفاً إلى تعزيز القوات التى تحركت بقيادة ابنـــه اسماعيل باشا لفتح السودان . وكانت قد استولت على دنقله وخاضت بنجاح معركة كورتى فى ٤ نوفمبر ١٨٢٠ .

وظفر الجامع الأزهر برعاية بعض أهل البلد من ذوى الثراء . كانوا يصلون طلبته طوال شهر رمضان بالأعطيات . وحسبنا أن نذكر محمد أفندى الودنلى الشهير بطبل أى الأعرج . كان قد قدم إلى مصر فى صحبة يوسف ضياء باشا فى مستهل عهد الانقلابات السياسية ، وعينه محمد خسرو باشا الوالى العثمانى كاشفاً لأسيوط . ثم انتقل إلى القاهرة إبان حكم محمد على الذى عينه ناظراً للمهمات العسكرية . وفيما عدا موقفه فى أزمة عمر مكرم وانضمامه إلى الشيخين محمد المهدى ومحمد الدواخلى (٢) ، وكان الدافع له هو إخلاصه العميق لمحمد على ، اشتهر بنزعة دينية خيّرة طاغية : أنشأ مسجداً نظم فيه دراسة قام بها الشيخ أحمد الطهطاوى مفتى المذهب الحنفى ، وأقام مكتباً لتحفيظ القرآن الكريم للأطفال مع صرف الكساوى لهم . وكان يرسل كل يوم فى شهر رمضان إلى طلبة أروقة جامع الأزهر عدة قصاع كبار مغطاة ، يحملها رجال أشداء ، ومملوءة بالثريد واللحوم .

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٣١٧ .

(٢) انظر ما سبق فى هذه الدراسة صفحة ٦٧٠ .

كما كان الودنلى يصل هؤلاء الطلبة فى عيد الأضحى بعدة كباش يذبحها ويبعث بلحومها إليهم . ومن المؤسف أن نهاية هذا الرجل الصالح السخى العطاء جاءت مؤلمة ، فقد قتل بحراً وبراً فى جهة رأس التين بالإسكندرية فى مارس ١٨١٢ (١) .

وظل الأزهر يعتمد فى مواجهة الإنفاق المالى للمشايخ والطلبة وسائر العاملين فيه والأروقة وأعمال الصيانة والإنارة وفرشة بالحصر ، على حصيلة الأوقاف الخيرية التى رصدها أتقياء المسلمين عليه (٢) . ولم يفكر محمد على

---

(١) علا شأن محمد أفندى الودنلى وعهد إليه محمد على بتقلد عدة مناصب فى وقت واحد مثل الإشراف على معمل البارود وقاعة الفضة ومدابغ الجلود فضلا عن منصبه الأول وهو ناظر المهمات العسكرية . وكثر تردده على محمد على حتى كان يدخل عليه دون استئذان ويمازحه ويتصدر فى الأمور مما أوغر صدر كتخدا بك ، فوشى به لدى الباشا ، فأمر بعزله من جميع مناصبه وقرر له مرتباً شهرياً تافهاً لا يكفيه . ثم أذن له فى السفر خارج مصر بناء على طلبه ، فباع جميع ما يملكه استعداداً للرحيل . ثم أمر بقتله وتناسى الخدمات التى أداها ، وكان من بينها أنه أدخل فى مصر صناعة الجوخ الملون الذى يرتديه الناس للتجمل وكان يستورد من أوروبا . وقبيل وصوله إلى الإسكندرية ليستقل منها السفينة ، تلقى خليل بك حاكم الإسكندرية أمراً من محمد على بقتله . وكان قد استقل السفينة ولكنها تأخرت فى الإقلاع انتظاراً لتحسن الجو . وتلقى دعوة من حاكم الإسكندرية لتناول طعام الغداء معه ، وكانت السفينة لا تزال راسية فى الميناء ، وأحس الرجل بالمؤامرة وطلب أن يمهلوه بعض الوقت حتى يتوضأ ويصلى ركعتين ، وبعد أن أداهما ألقى بنفسه فى البحر « من حلاوة الروح » فانهال عليه الجنود بوابل من الرصاص ثم أخرجوه من البحر وطرحوه أرضاً وذبحوه . واستولى حاكم الإسكندرية على أمواله ليرسلها إلى محمد على بعد أن أعطى جزءاً منها إلى ولد القتيل ، وسمح له بالسفر مع أسرته ، كما استولى على جميع كتبه ، لأن محمد على كان قد طلبها ، فأرسلت إلى قصر الباشا وأودعت عند ولى خوجا كاتب خزينة الباشا (انظر ترجمة الأخير فى الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ٢٨٦ — ٢٨٧) وتبدد معظم الكتب لأنها فرقت على غير أهلها .

انظر ترجمة محمد الودنلى فى (الجبرتى ، ج ٤ ، ص ص ١٦٥ — ١٦٩) .

(٢) انظر ثبتاً كاملا الأوقاف الخيرية المرصودة على الأزهر وإيراداتها ووجوه الإنفاق وأسماء واقفيها فى الكتاب الذى أصدرته وزارة الأوقاف بالقاهرة بعنوان « الأزهر تطوره وتاريخه سنة ١٩٦٤ ، ص ص ١٧٤ — ١٩١ .

فى مد يد العون المالى للأزهر . وكان استقلاله المالى عن الحكومة ، جامعاً وجامعة ، من أبرز سماته فى تاريخه عبر معظم العصور . وكانت المرتبات التى تصرف لمدرسيه وطلبته وغيرهم من العاملين فيه ضئيلة . وسنرى أن محمد على اعتمد على ضآلتها بحجة أن الأزهريين قوم زاهدون ، فرفض أن يسوى فى المرتبات خريجى الأزهر بخريجى المدارس العليا التى أنشأها . وستصبح هذه القاعدة المالية معمولاً بها إلى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين .

الأزهر كجامعة يواجه منافسة من المدارس العليا التى أنشأها محمد على :

كان الأزهر والمدارس الملحقة ببعض المساجد الكبرى فى بعض المدن مصدر التعليم والثقافة فى مصر . وكان له من رسوخ مركزه وتغلغله فى المجتمع المصرى ما مكنه من مواصلة مسيرته العلمية وسط ما انتاب البلاد من تعاقب الدول الحاكمة وعواصف الفتن . وكان الشعب المصرى مطمئناً إلى نوعية التعليم الذى يلقى فى الحلقات الدراسية وإلى مستواه العلمى . كل أولئك أعان الأزهر على البقاء وعلى التمكين له فى حياة المصريين . وبذلك وقف الأزهر حارساً للغة العربية والعلوم الدينية .

فلما بدأ محمد على فى وضع دعائم جديدة لدولة حديثة احتاج إلى طوائف من أهل البلاد تعينه على تنفيذ مشروعات جديدة لم تشهد لها مصر من قبل مثيلا ، بدلاً من اعتماده اعتماداً كلياً على الأوروبيين. ولم يكن الأزهر يدرّس الطب البشرى أو الصيدلة أو الطب البيطرى أو الهندسة أو الزراعة أو المحاسبة أو التعدين أو اللغات الأوروبية أو العلوم العسكرية وما إليها . وأدرك محمد على أن من العبث أن يتفقد أعوانه من الأزهر لتنفيذ مشروعاته. كانت الهوة سحيقة بين دراسات الأزهـــر وما يتطلبه المجتمع المصرى فى المجالات الجديدة . فلم يكن أمامه إلا أحد طريقين : إما تطوير الدراسة فى الأزهر على نحو يحقق أغراضه فى إعداد المصريين لتولى شئون بلادهم

فى المواقع الجديدة ، وإما أن يترك الأزهر يواصل مسيرته العلمية التقليدية وينشىء بجانبه نظاماً تعليمياً جديداً لتدريس العلوم الحديثة . وأدرك محمد على أن تحويل الدراسة فى الأزهر أو جانب منها إلى الدراسات الحديثة يتطلب جهوداً شاقة ووقتاً طويلا . وكان من أعز أمانيه أن يسرع دون إبطاء فى تنفيذ مشروعاته الجديدة . وأدرك أيضا أن الأزهريين قد لا يرتاحون إذا رأوا « دخلاء » يزحفون على معهدهم العتيد الذى نشأوا فيه جميعاً واعتبروا أنفسهم حراساً على نظمه وتقاليده . ومن ثم انصرف محمد على إلى إنشاء نظام تعليمى حديث يكون قائماً ، ومقتبساً من الدول الأوروبية ، ويكون هدفه الأول تزويده بموظفين فنيين وإداريين يسهمون فى إقامة دعائم الدولة الحديثة . وكان مما جذب اهتمامه ما بلغته معظم الدول الأوروبية من القوة والصدارة فى المجتمعات الدولية . وكان من أسباب مركزها المتميز ، فى تقديره ، النظم التعليمية الحديثة فيها . فالتعليم وحده لم يكن مظهراً للاتجاه نحو الحضارة الأوروبية والاقتباس منها أو ما عرف باسم Westernization أى الإتجاه نحو الغرب ، بل كان أحد هـذه المظاهر . بل إن التعليم فى تقدير محمد على لم يكن غرضاً يقوم به لترقية الشعب والنهوض به ، بل كان لغرض نفسى ووسيلة ليكون له منـه ما يبتغى من إعداد الموظفين فنيين (١) . أما التعليم القديم الذى يتمثل فى الأزهر فلم يصبه الفناء ، بل بقى النظامان من التعليم القديم والحديث جنباً إلى جنب يتقاسمان مهمة تربية وتعليم ناشئة البلاد .

ويلاحظ أن النظام التعليمى الحديث الذى أنشأه محمد على كان بعيداً عن الأزهر وعن المدارس الملحقة بالمساجد الكبرى فى بعض المدن وعن الكتاتيب المنتشرة فى طول البلاد وعرضها . ولو أن هـذه المؤسسات

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، رسالة ماجستير . الناشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ص ٥٥٥ — ٥٩٣ .

قد تأثرت بنظام محمد على وأثرت فيه كما سنبين فيما بعد . كانت الحكومة هى التى تضع خطط ومناهج الدراسة بمدارس النظام الحديث ، وتحدد عدد الطلبة والتلاميذ ، وتعين المدرسين ، وتدفع لهم المرتبات ، وتشرف إشرافاً دقيقاً ومستمراً على سير الدراسة ، فلم تكن تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ناقشتها مع المسئولين عن مدارسها . وكان النظام التعليمى الحديث يتدرج فى ثلاث مراحل : المرحلة الإبتدائية وتسمى مكاتب المبتديان أى المبتدئين ، المرحلة الثانوية ويطلق عليها المدارس التجهيزية وتلحق بها عادة المدارس الفنية المترسطة ، ثم المرحلة الثالثة وهى المدارس العليا ، وعرفت باسم المدارس الخصوصية .

ولكى نقف على حجم المنافسة غير المتكافئة التى لقيها الأزهر من هذه المدارس نمر مروراً سريعاً على أسماء بعضها .

١ — مدرسة الهندسة ، أنشئت سنة ١٨١٦ ، وكان مقرها القلعة ، وكانت أول مدرسة عليا . وكانت تدرس فيها علوم الهندسة والمساحة والقياسات والارتفعات . واستورد لها محمد على آلات هندسية متنوعة .

٢ — لما وجد أن المدرسة السابقة لم تف بحاجات البلاد إلى المهندسين أنشأ سنة ١٨٣٤ مدرسة المهندسخانة فى بولاق .

٣ — مدرسة الطب البشرى (١٨٢٧) . وكان مقرها أول الأمر فى أبى زعبل لوجود المستشفى العسكرى بها . وكانت تدرّس بها علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنية والطب الشرعى وعلوم الصحة والصيدلة الطبيعة والكيمياء والنبات . ثم نقلت المدرسة مع المستشفى إلى القصر العينى بالقاهرة (١٨٣٧) .

٤ — مدرسة الزراعة فى القاهرة (١٨٣٠) ، وشبرا الخيمة (١٨٣٣) ، ونبروه (١٨٣٦) ، وشبرا (١٨٣٩) .

٥ — مدرسة الطب البيطرى فى رشيد (١٨٢٧)، ثم نقلت إلى أبى زعبل (١٨٣١) ثم إلى شبرا (١٨٣٦).

٦ — مدرسة الصيدلة فى القلعة (١٨٣٠).

٧ — مدرسة الكيمياء بمصر القديمة (١٨٣٧).

٨ — مدرسة المعادن بمصر القديمة (١٨٣٤).

٩ — مدرسة الألسن بالأزبكية (١٨٣٥) لتخريج مترجمين لمصالح الحكومة من ناحية، وإمداد المدارس العليا بتلاميذ يعرفون اللغة الفرنسية من ناحية ثانية، وترجمة الكتب من ناحية ثالثة. وكانت تدرس فيها اللغات العربية والتركية والفرنسية والتاريخ والجغرافية.

١٠ — مدرسة المحاسبة بحى السيدة زينب (١٨٣٧). وقد أنشئت لتخريج موظفين كتابيين على أساس حديث منظم. وكان الأقباط يحتكرون الوظائف الكتابية، فكانوا كتبة الدواوين وجباة الأموال وصيارفة الأقاليم وملتزمى الجمارك. وكان محمد على لا يرتاح إلى احتكارهم هذه الوظائف. وكان خريجوها يعينون كتبة للخدمة فى فرق الجيش. وفى الدواوين. وبعد شهور من إنشائها ارتفع عدد طلبتها من ٣٠ إلى ٣١٦، عينوا جميعاً فور تخرجهم. وكانت الحاجة ماسة إلى أعداد أخرى وفيرة منهم.

١١ — مدرسة المارستان: سميت بهذا الاسم لأنها كانت ملحقة بالمارستان أى المستشفى. وكانت تعد الطلبة إعداداً ملائماً لدراسة الطب. وألحقت بمدرسة الطب البشرى فى السنوات الأولى من إنشاء المدرسة الأخيرة. ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات. فإذا نجح طلبتها فى الامتحانات التحقوا تلقائياً بمدرسة الطب. وعهد إلى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى بإدارتها.

١٢ — مدرسة الإدارة الملكية، ويقصد بلفظة الملكية معنى المدنية، أنشئت فى القلعة سنة ١٨٣٤ لتخريج موظفين فنيين يقومون بالإشراف على

المؤسسات والنظم الاقتصادية والمالية والتعليمية وغيرها ويوفرون لها أسباب القوة والنماء ، وبذلك يطمئن محمد على إلى أن العمل فى هذه المؤسسات والنظم يحقق أهدافه . وكانت الدراسة نظرية وعملية وتشمل التدريب على أعمال الإدارة .

١٣ — الدرسخانة الملكية ، أى المدنية ، خصص لها مكان مجلس المشورة وسمى الدرسخانة . أنشئت سنة ١٨٢٩ . وكان الهدف منها تحصيل فن الفلاحة وعلم الزراعة . ويكون طلبتها ممن لهم إلمام بالقراءة والكتابة . وكانت تضم عدداً كبيراً من الطلبة . ولكنها لم تكن مقامة فى وسط زراعى ، فتحولت عن غرضها الأول ليكونوا موظفين فى دواوين الحكومة ومصالحها .

١٤ — مدرسة العمليات ، ويقصد بها الفنون والصناعات ، أقيمت فى بولاق سنة ١٨٣٩ . وكان الهدف منها تعليم التلاميذ الحرف والصناعات كالخراطة والبرادة والحدادة والنجارة وأشغال البواخر وآلات الجراحة ، وبعض العلوم كالكيمياء والمكانيكا . وكانت الصبغة العملية غالبة على المدرسة . ولم تكن الحكومة تدقق فى اختيار تلاميذ المدرسة ، فكانت تأخذهم من الراسبين فى امتحانات مدرسة المهندسخانة . وعلى الرغم من ذلك كانت مدرسة العمليات تعد من المدارس العليا ، ويمنح خريجوها مرتبات خريجى المدارس العليا الأخرى . وقد تزيد عليها ، ويطاب لخريجيها رتبة الملازم الثانى .

محمد على ينافس الأزهر فى معاملته للطلبة :

وعلى هدى من تقاليد الأزهر ونظمه فيما يختص بمعاملة طلبته ، قرر محمد على مجانية التعليم فى جميع هذه المدارس . وكان يعد للطلبة مساكن فى داخل المدرسة يقيمون فيها ولا يبرحونها إلا حين تشاء الحكومة ، ويقدم لهم ثلاث وجبات من الطعام المطهى يومياً ، والكساء ، ويدفع

لهم مرتبات شهرية تتفاوت قيمتها من مرحلة إلى أخرى ومن فرقة دراسية إلى أخرى ، وتتراوح بين ثمانية قروش ومائة قرش . ويقوم بختان من لم يكن قد تم اختتانه من قبل . وكانت الحكومة تحرص على إحضار آلات الطرب وإرسال رجال الموسيقى العسكرية إلى المدرسة يوم الختان . وتتولى إدارة المدرسة قص شعر رءوسهم كل أسبوع مرة . وكان الطلبة فى مدارسهم يخضعون للنظام العسكرى فى تحركاتهم منذ استيقاظهم فى الصباح حتى عودتهم إلى حجرات النوم إذا سجا الليل ، وكانت تحركاتهم تتم على صوت الطبل أو البورى . ويؤدون التحية العسكرية . ويخضعون للإشراف الصحى والطبى . وكان خريجو المدارس يعينون فى المناصب الحكومية المرموقة فور تخرجهم . أما أوائل الدفعات فكانت توفدهم فى بعثات علمية إلى إيطاليا أو فرنسا أو النمسا أو إنجلترا ، وعند عودتهم يعينون فى مناصب قيادية . وهكذا بزّ محمد على الأزهر فى معاملته للطلبة ، لأن الموارد المالية للحكومة كانت تحت تصرفه ينفق منها كيفما شاء . فكانت إمكانياته المالية تفوق بكثير جداً مثيلاتها لدى الأزهر الذى ظل يعتمد اعتماداً كلياً على حصيلة الأوقاف الخيرية التى رصدها عليه أهل البذل من أثرياء المسلمين .

وإلى جانب هذه المدارس المدنية وجد الأزهر منافسة من المدارس الحربية والبحرية التى أنشأها محمد على ، فقد التحقت بها أعداد وفيرة من الشبيبة المصرية كان من الممكن أن تولى وجهها شطر الأزهر . وكان محمد على يبدى اهتماماً ساخناً بالتعليم العسكرى وفقاً للأساليب الأوروبية الحديثة بعد أن استقر رأياً على تجنيد المصريين وإنشاء قوات عسكرية برية وبحرية لتوطيد دعائم حكمه تجاه السلطان وتغنيه عن استخدام الأرناؤود والدلاة وغيرهم من العناصر المرتزقة التى جبلت على التمرد . وكانت قد باءت بالفشل محاولة تجنيد السودانيين . فأنشأ محمد على مدرسة السوارى (الفرسان) سنة ١٨٣١ وكان عدد طلبتها ٦٤٠ ، ومدرسة

الطوبجية (المدفعية) فى ذات السنة وعدد طلبتها ٣٠٠ ، ومدرسة البيادة (المشاة) سنة ١٨٣٢ وعدد طلبتها ٤٤٠ ثم زيد هذا العدد ، ومدرسة الموسيقى العسكرية سنة ١٨٣٢ وعدد تلاميذها ٢٠٠ . ومن المدارس البحرية المدرسة البحرية أنشئت سنة ١٨٢٩ فى ترسانة الإسكندرية جُمع تلاميذها من مكاتب البنادر والقرى ممن تتراوح أعمارهم بين العاشرة والعشرين . وكان يشترط فيهم أن يكونوا أصحاء الأجسام وملمين بالقراءة والكتابة (١). وقد زاد عدد تلاميذ المدرسة حتى بلغ ١,٢٠٠ ومنهم من كان يتعلم للخدمة فى الأسطول المصرى ، ومنهم من كان يعد للوظائف الإدارية . وإلى جانب هذه المدرسة كانت هناك مدارس أخرى على ظهر سفن الأسطول يتعلم فيها التلاميذ فن قيادة السفن ، ويتلقون دروساً فى علوم البحرية . وكان فى الاستطاعة أن يتجه معظم هؤلاء الناشئين إلى الأزهر يتلقون فيه التعليم ، لو تركتهم الحكومة وشأنهم .

وفى نطاق ضيق لقى الأزهر كجامعة أيضاً منافسة من المدارس التى أنشأتها الجاليات الأوروبية فى مصر على النظام الأوروبى نتيجة زيادة عدد الأجانب الوافدين إلى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إبان حكم محمد على لمزاولة نشاطهم الاقتصادى . وقد تسابقت الجاليات الإيطالية (١٨٢٥) والأرمنية (١٨٢٨) والفرنسية (١٨٤٠) والإنجليزية (١٨٤٥) واليونانية (١٨٤٧) فى إنشاء مدارس فى القاهرة والإسكندرية اجتذبت بعض الطلبة المصريين المسلمين ، إذ كانت هذه المدارس حرة وعامة لكل الأديان ، والتعليم فى معظمها بالمجان . أما مدارس الأمريكان فلم تبدأ نشاطها إلا بعد مصر محمد على من سنة ١٨٥٥ .

---

(١) أمين باشا سامى ، تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

وجاءت إلى مصر مع الأجانب البعثات التنصيرية(١) . وقد بدأت نشاطها بإنشاء الكنائس كل منها على مذهبها الديني ، ثم وسعت دائرة نشاطها فألحقت بهذه الكنائس مدارس يقوم المنصرّون بالتدريس فيها لأبناء مذهبهم ولمن يشاء من أبناء جاليات أخرى أو من المصريين . ولكن لم يكن إقبال المصريين — سواء الأقباط أو المسلمين — عليها إقبالاً واسعاً . فالأقباط أدركوا أن هذه المدارس لم تهمل الدعوة إلى تحويلهم إلى المذهب الكاثوليكي أو المذهب البروتستانتي . ولذلك لم يلتحق بها إلا فقراؤهم وبخاصة في أسيوط والقاهرة ، إذ كانت هذه المدارس عامة وحرة والتعليم فيها بالمجان . أما المسلمون فكان إقبالهم عليها ضعيفاً جداً لأن أغراضها الدينية كانت تصدهم عن الالتحاق بها . وقد رغب المنصرون في تخطي هذه الحواجز . فطلب أحد المنصرين ، وهو بارثلميو ، إنشاء مدرسة بالاكتتاب لتعليم الطلبة من جميع الأديان . فقبل محمد على باشا أن تقوم عنه الحكومة المصرية بجميع نفقاتها على ألا يلتحق بها إلا المصريون فقط بشرط عدم التدخل في دياناتهم(٢) . والواقع أن هذه المدارس ، سواء مدارس الجاليات الأجنبية أو مدارس البعثات التنصيرية ، بدأت في اتجاه يخالف مدارس محمد على ، لأن الأولى بدأت

(١) من الأخطاء التي يقع فيها معظم الباحثين المسلمين إطلاق أسماء « الإرساليات التبشيرية » و« المدارس التبشيرية » و« المبشرين » على هذه البعثات المسيحية والمؤسسات والعاملين فيها . فهذه الألفاظ قد صدرت إلى مصر وسائر أنحاء العالم العربي من مسيحيي الشام ، وأخذ بها الباحثون المسلمون عن غفلة وجهالة . ولا يمكن إطلاق كلمة « مبشر » على شخص يدعو مسلماً إلى اعتناق المسيحية . والآيات القرآنية الكريمة واضحة في هذا الشأن . نذكر منها على سبيل المثال : « يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » سورة الأحزاب : الآيات رقم ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ . و« إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا » سورة الفتح : الآيتان ٨ ، ٩ — ولذلك تقتضي الصياغة العلمية الدقيقة استخدام الألفاظ التالية ومشتقاتها : إرساليات تنصيرية ، مدارس تنصيرية ، منصرين .

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦٦٧ — ٦٧٣ .

تعنى بالدين المسيحى والتربية الدينية المسيحية ، بينما كانت مدارس محمد على مدارس إسلامية يعنى فيها أكبر العناية بالدين الإسلامى . كما أن المدارس الأجنبية بنوعيها كانت لا تمهد السبيل أمام المتخرجين فيها للالتحاق بالوظائف الحكومية . وقد ظل إقبال المصريين عليها ضعيفاً جداً إبان حكم محمد على . وسيزداد إقبالهم عليها منـــذ السبعينيات من القرن التاسع عشر حتى القرن العشرين نظراً لازدياد اتصال المصريين بأوروبا واقتباسهم الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية الأوروبية .

موقف محمد على من التعليم فى الأزهر :

التزم محمد على بسياسة من سبقوه من حكام مصر عبر العصور التاريخية ، باستثناء الأيوبيين ، فلم يتدخل فى شئون التعليم فى الأزهر ، سواء فى تجديد مواد الدراسة ومناهجها ، أو فى تعيين المشايخ الذين يقومون على تدريسها ، أو فى وضع الشروط التى يجب توفرها فى قبول الطلبة ، أو فى تحديد المـــدة التى يقضيها المجاورون فى رحاب هذه الجامعة العتيدة . وبعبارة أخـــرى لم يضع محمد على للأزهر نظاماً تعليمياً جديداً . فبقى الأزهر وروافده — إذا أجيز لنا استخدام هذه اللفظة ، ويقصد بها المدارس القائمة بجوار ، أو فى رحاب ، المساجد الكبرى فى بعض المدن ،والكتاتيب المنتشرة فى أنحاء البلاد — بعيداً عن رقابة الحكومة .

ونجم عن هذا الموقف السلبى أن استمرت الدراسة فى الأزهر مقصورة على علوم اللغة العربية والدين والفقه . ورأى فريق من علماء الأزهر من ناحيتهم ، طوعاً أو كرها ، أن بقاء الدراسة فيه مقصورة على هذه المجالات اللغوية والدينية وتمسكه بتقاليده مما يساعده على الاحتفاظ بشخصيته وزعامته للثقافة الإسلامية العليا فى مصر وسائر أنحاء العالم الإسلامى . وعلى الرغم من المدارس العليا والثانوية والابتدائية التى أنشأها محمد على ، ظل الأزهـــر كجامعة يجتذب إليه شطراً كبيراً من شبان المدن والبنادر والقرى . وتضافرت

عدة عوامل ساعدت الأزهر على استقطاب أعداد وفيرة من الطلبة ، نذكر منها :

أولا : تأصل النزعة الدينية فى نفوس المصريين . وكان المجتمع فى مصر ، كما ذكرنا مراراً فى هذه الدراسة ، مجتمعاً دينياً إسلامياً متزمتاً . وكان الآباء يحرصون على أن يحفظ أبناؤهم القرآن الكريم أو أجزاءاً منه فى الكتاتيب ، وعلى أن يدرسوا علوم الدين أو الفقه أو اللغة فى الأزهر أو فى المدارس الملحقة بالمساجد الكبرى . وكان المصريون ينظرون إلى علماء الدين على أنهم وحدهم صفوة العلماء .

ثانياً : لم ينشىء محمد على النظام التعليمى الحديث فى جميع أنحاء البلاد ، إذ كانت معظم المدارس العليا والثانوية مركزة فى القاهرة . وأصبحت هذه المدارس عاجزة عن استيعاب جميع الطلبة أو التلاميذ الراغبين فى الالتحاق بها . وظلت مدن وبنادر وقرى محرومة من مدارس التعليم الحديث ، بينما كان الأزهر يستقبل الطلبة دون شروط وكذلك المدارس الملحقة بالمساجد . أما كتاتيب الفقهاء فكانت منبثة فى طول البلاد وعرضها تفتح أبوابها للصبية دون قيود ، كما أن نفقاتها كانت ضئيلة للغاية تدفع مؤجلا فى معظم الأحوال عيناً من المحصول الزراعى وقت جمعه . وهكذا استفاد التعليم القديم من قلة عدد مدارس التعليم الحديث . وليس أدل على ذلك من أن عدد مكاتب المبتديان أى المبتدئين ، والتى أنشأها محمد على لم تبلغ سوى ٧٦ مكتباً ، وكان عدد تلاميذها ٥٠٠ر٥ ، بينما بلغ عدد تلاميذ الكتاتيب ٠٠٠ر٢٠ .

ثالثاً : كان طلبة الأزهر وتوابعه أحراراً فى الذهاب بانتظام إلى معاهدهم أو الانقطاع عنها نهائياً أو لفترة من الوقت . ولم يكن يحد من حريتهم إلا رغبة الآباء أو ضغطهم ، أو حث المشايخ . كانوا يغادرون الأزهر وأروقته متى شاءوا ثم يعودون متى أرادوا لاستكمال دراساتهم ، حتى إذا أصابوا منها

القدر الذى يبغون ، انقطعوا عنها نهائياً ، لأنه لم تكن للأزهر فى ذلك الوقت لوائح تحدد مناهج الدراسة أو الفرق الدراسية أو مدة الدراسة .

وكانت امتحانات الأزهر تتسم بالطابع العملى ، وتعقد للراغبين فى التصدى للتدريس ، وهم صفوة الطلبة الذين أنفقوا فى الأزهر سنوات طويلة من حياتهم . فيجلس الطالب فى مكان الصدارة ويلتف حوله زملاؤه ، وبعض المشايخ أحياناً . ويلقى درساً . فإذا ألقاه دون تلعثم أو اضطراب ، يوجه إليه زملاؤه العديد من الأسئلة والاستفسارات العلمية التى تتصل بموضوع الدرس . فإذا أجاب عليها بنجاح ، أجيز للتدريس ودخل فى عداد مدرسى الأزهر ، ويصدر شيخ الجامع قراراً بتعيينه ، ويصرف له مرتباً ونصيبه من إيراد أوقاف الأزهر . أما إذا أخفق فى الإجابة عن الأسئلة ، انفض الحاضرون من حوله ، وعاد الطالب إلى استكمال نقصه العلمى . وهناك فريق آخر من طلبة الأزهر كانوا يؤثرون اختصار بعض الوقت ، ويفضلون العودة إلى البندر أو القرية حيث يقومون بالإفتاء أو الوعظ والإرشاد وإمامة الصلاة فى أحد المساجد أو التدريس . وكانوا يجمعون فى العادة بين بعض هذه المهام . وكان تقدير كفايتهم العلمية يتمثل فى إجازة شيخهم يجيزهم فيها بالإفتاء، ويوصيهم بتقوى الله وتحرى العدل والدقة فى إصدار الفتاوى . وهذا النظام فى مجموعه هو ما درج عليه الأزهر فى عهوده السابقة . فلم يأت محمد على بجديد عليه .

ونجم عن الموقف السلبى لمحمد على من التعليم فى الأزهر أن التعليم الدينى واللغوى تمتع بحرية مطلقة فى وضع خططه ومناهجه وتدبير سائر شئونه من حيث تعيين المشايخ وقبول طلبته وتخريجهم . وقد ترك محمد على هذه الحرية كاملة . فاستطاع الأزهر أن يحتفظ بأغراضه ، وهى القيام على الثقافة الإسلامية العليا تعليماً ونشراً . ولم يهتم محمد على بأن يدخل تطويراً

عليه يؤهله لأداء قسط من الأغراض التى كان يتوخاها هذا الحاكم من إنشاء المدارس الحديثة . وقد أدت هذه الحرية بدورها إلى دعم الاستقلال الذى عرف عن الأزهر فى عصوره السابقة . ولكن لم ينل الأزهر هذا الاستقلال إبان حكم محمد على عن طريق سعى علمائه للدفاع عن هذا الاستقلال بقدر ما ناله من إهمال محمد على له والتهوين من شأنه فى مجالات التعليم الحديث .

ونشأ أيضاً عن الحرية التى تمتع بها الأزهر الاحتفاظ بأسلوبه فى الدراسة . وكان أساس هذا الأسلوب : الشيخ والكتاب . كان الطالب يُقبل على الدراسة التى تهفو إليها نفسه ، وعلى الشيخ الذى يرتاح إليه ، ينتظم فى الحلقة الدراسية التى يعقدها هذا الشيخ أو ذاك . ويقرأ الكتاب الذى يميل إليه . وقد ساعدت مطبعة بولاق الأميرية على طبع ونشر الكتب التى كان الطالب من قبل ينسخها .

والسلبية المطلقة من جانب محمد على تجاه تطوير التعليم فى الأزهر كانت تقابلها عناية بالغة من هذا الحاكم بمدارس التعليم الحديث التى أنشأها . والنجاح الذى يصيبها فى تحقيق رسالتها كان يسره بقدر ما كان يؤلمه ما قد تصادفه من إخفاق . ولذلك كانت الحكومة تحبب الأهالى لإرسال أبنائهم إلى مدارسها ، وتغريهم بالعطاء فى مختلف صوره وأشكاله على النحو الذى شرحناه من قبل ، وتزين لهم المستقبل الزاهر الذى ينتظرهم .

سياسة الباب المفتوح فى الأزهر وسياسة الباب المقيد دخوله فى مدارس محمد على :

كان الأزهر يقبل كل طالب يريد الالتحاق به ، أو بتعبير ذلك العصر يريد أن يجاور بالأزهر ، بصرف النظر عن سنه أو مستواه العلمى ،

أو مذهبه الديني من المذاهب الأربعة السنية . فالأزهر ، في رأى علمائه ، كفيل بأن يسد النقص في التكوين العلمي للطالب وبالارتفاع بمستواه العقلى . وهى سياسة يطلق عليها التعبير الحديث « سياسة الباب المفتوح » . فإذا لم يكن الطالب حافظاً لجميع أجزاء القرآن الكريم ، كان يطلب منه أولا حفظها واستظهارها جميعاً في أثناء مجاورته بالأزهر . فإذا فرغ من هذه القاعدة الأساسية ، بدأ في تلقى العلم عن الأشياخ سواء في الفقه أو الدين أو اللغة . وكان يترك للطالب الحرية التامة في اختيار نوع الدراسة التي يبتغيها .

أما مدارس التعليم الحديث ، بعد أن استقر هيكله العام ، فكانت الحكومة تختار لكل طالب الدراسة المناسبة في ضوء حاجاتها وفي ضوء قدرات الطالب العقلية . فهى تدفع الطالب الذكى إلى المدرسة الثانوية تمهيداً لإلحاقه بإحدى المدارس العليا . فإذا أظهر تفوقاً غير عادى في دراسته العليا ، أوفدته الحكومة في إحدى بعثاتها العلمية إلى أوروبا . أما التلميذ متوسط الذكاء فكان يقطع من التعليم ما يتفق وجهده . أما التلميذ الغبى ، أو التنبل كما كانو يسمونه ، فكانت تُقطع دراسته ، ويحول إلى الجندية أو إلى اصطبلات الحكومة . وهكذا كان التلميذ في يد حكومة محمد على مادة مرنة تشكلها كما تشاء . ولا يملى عليها في تشكيل هذه المادة سوى عاملين مجتمعين : حاجتها إلى نوعية معينة من الموظفين ، والمستوى العقلى للتلميذ . وقد توج محمد على عنايته في سبيل تمكين مدارسه من تحقيق أهدافها بإنشاء هيئة فنية تشرف على شئونها ، وهى مجلس شورى المدارس (فبراير ١٨٣٦) ثم ديوان المدارس (فبراير ١٨٣٧) .

تأثير الأزهر في مدارس محمد على :

كان الأزهر ومدارس محمد على يقتسمان فيما بينهما تعليم الناشئة من أهل البلاد كما ذكرنا . وكانت طبيعة وأهداف كلا النظامين متباينة . فأحدهما

أهلى والآخر حكومى ، وأحدهما حر ومستقل والآخر مقيد بسياسة الحكومة ، وأحدهما يعنى بالتربية الروحية واللغوية والآخر يعنى بالتربية المادية ، وأحدهما يمثل التعليم القديم ، والآخر يمثل التعليم الحديث ، وأحدهما يقبل كل طالب دون ضغط عليه ، والآخر يلجأ أحياناً إلى وسائل الضغط والقهر لإلحاق الطلبة به . ولكن هذا الاختلاف الشديد لم يحل دون أن يؤثر الأزهر فى مدارس التعليم الحديث . وقد استفاد محمد على من الأزهر ومن توابعه بالقدر الذى رأى فيه عوناً على تثبيت دعائم مدارسه . ومن هنا تسلل تأثير الأزهر وتوابعه إلى مدارس التعليم الحديث على اختلاف درجاتها من عدة قنوات .

كان محمد على متعجلاً فى تنفيذ مشروعاته ، شاعراً بحاجته السريعة إلى إعداد موظفين فنيين وإداريين يقومون على تنفيــذ خططه فى شتى المجالات . وقد دفعــه هذا التسرع إلى إنه بدأ نظامه التعليمى مقلوباً أو معكوساً ، بمعنى أنه شرع أولاً فى إنشاء المدارس العليا ثم الثانوية فالإبتدائية . ونجم عن هذا الوضع العلمى المعكوس أن بدأت المدارس العليا من فراغ علمى من حيث الطلبة الذين يلحقون بها . ولذلك كان لامندوحة له عن أن يولى وجهه شطر الأزهر يستعين به على مــلأ هذا الفراغ العلمى . ومن هنا تسلل تأثير الأزهر وروافده إلى مدارس محمد على عن طريق عدة قنوات .

القناة الأولى :

أخذ محمد على من الأزهر الطلبة الذين كان فى حاجة إليهم لمدارسه ، فاختار من طلبة الأزهر مائة طالب وألحقهم بمدرسة الهندسة التى أنشأها بالقلعة سنة ١٨١٦ . ثم أخذ من الأزهر أيضاً معظم طلبة الدفعة الأولى فى

القناة الثانية :

كانت تلقى على طلبة مدارس محمد على المحاضرات مترجمة إلى اللغة العربية . وكان مدرسو هذه اللغة فى مدرسة الألسن مجموعة من مشايخ الأزهر ممن عرفوا بالميل إلى البحث والتدقيق . وقد ذكر على باشا مبارك أسماء كثيرين منهم فى خططه (١) . وهكذا اعتمدت الحكومة على الأزهر فى تزويد مدارسها بطلبة الأزهر وعلمائه .

القناة الثالثة :

ولم ينتقل مدرسو الأزهر وحدهم إلى مدارس محمد على ، بل أخذوا معهم إلى مكاتب المبتديان والمدارس الثانوية والعليـا الكتب التى كانوا يدرسون فيها اللغة العربية وعلوم الدين . وكان محمد على مضطراً إلى الموافقة على هذا الإجراء ، لأنه لم يكن أمامه وقتذاك سوى هذه الكتب ، فقبلها وأمر بطبعها فى مطبعة بولاق التى أنشئت فى نوفمبر ١٨٢١ فطبعت منها لأول مرة آلاف النسخ وزعت على طلبة المدارس وتلاميذ مكاتب المبتديان وفى الأزهر نفسه . فكانت كتب الأزهر فى اللغة العربية وعلوم الدين وحدها هى الكتب المؤلفة . أما ما عداها من كتب المواد الحديثة فكان أكثرها معـــرباً .

القناة الرابعة :

ولم يحمل مدرسو الأزهر معهم إلى مدارس التعليم الحديث كتبهم فحسب ، بل حملوا معهم طريقة طلبة الأزهر فى استيعاب دروسهم ، وهى تقوم على الحفظ والاستظهار . وتعدى حفظ الكتب المؤلفة فى اللغة والدين إلى حفظ الكتب المعربة فى المواد الحديثة . وكان من بين الأسباب التى جعلت طلبة وتلاميذ المدارس الحديثة يلجأون إلى طريقة الحفظ

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

الأزهرية شدة اهتمام محمد على ومدارسه بالامتحانات . ولم يجدوا وسيلة يعتمدون عليها فى اجتياز الامتحانات بنجاح سوى الحفظ والاستظهار ، سواء كانا مقرونين بالفهم أو لم يكونا مقرونين بالفهم . فكان حفظ الكتب واستظهارها من أبرز السمات التى اقترنت بالتعليم فى مدارس محمد على وفى عصره بتأثير الأزهر

القناة الخامسة :

ولم يكن مدرسو الأزهر هم الوحيدين الذين استفاد منهم محمد على فى نظامه التعليمى ، بل كانت هناك طائفة أخرى منهم تطلبتها طرق التدريس بواسطة المترجمين فى معظم المدارس العليا وفى قلم الترجمة بعد إنشائه . وتمثلت هذه الطائفة فى المصححين ، وكان يطلق عليهم أيضاً المراجعون . ومن الخطأ اطـلاق اسم المحررين عليهم ، لأن هذه اللفظة حديثة شاع استعمالها بعد نشأة الصحافة وانتشارها . وقام هؤلاء المراجعون بمراجعة الكتب المعربة فى المواد الحديثة مثل الطب والهندسة والطبيعة والكيمياء والنبات وما إليهـا من الناحية اللغوية . وكانت الاستعانة بهؤلاء المشايخ المتضلعين فى اللغة العربية ضرورة علمية ، لأن المترجمين فى السنوات الأولى من إنشاء المدارس الحديثة كانوا من السوريين المسيحيين مثل الأب أنطون رفاييل زاخور ، وحنين عنحورى ، نسبة إلى عين حور فى سوريا (١) ، وجورج فيدال (٢) ، وهو مارونى من حلب ، وأوغسطين سكاكينى ،

---

(١) الأب لويس شيخو ، الآداب العربية فى القرن التاسع عشر . جزءان ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨—١٩١٠ ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٢) كان اسمه أول الأمر « جرجس نيطى » ثم تسمى « فيدال » . انظر : الخورى بولس قرألى ، السـوريون فى مصر . ج ١ علاقات سوريا ومصر من أول التاريخ إلى محمد على . المطبعة السورية ، مصر الجديدة ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ١١٢ ، وص ١٣٠ .

ويوسف فرعون وغيرهم (١) . ولم يكونوا على حظ موفور من الإلمام العميق باللغات الأوروبية أو باللغة العربية ، لأن معرفتهم باللغات التى يترجمون منها كانت معرفة ممارسة وليست معرفة دراسة . ولما كانوا مسيحيين فلم يقوّم القرآن أسلوبهم فى اللغة العربية ، ومن ثم كانت تعوزهم الصياغة اللفظية الدقيقة . ولم تكن مراجعة الكتب المعربة مقصورة على تصحيح أسلوبها وتهذيبه فقط ، بل تعدت مهمة المراجعين إلى البحث فى كتب العرب القديمة التى وضعت فى المواد العلمية لاختيار مصطلحات عربية صحيحة مرادفة لمثيلاتها فى الكتب المعربة . ونجح علماء الأزهر إلى حد بعيد فى اختيار مصطلحات عربية قديمة أضافت ثروة زاخرة وآفاقا جديدة إلى اللغة العربية لتعريب المواد العلمية الحديثة ودراستها ثم التأليف فيها . أما المصطلحات الفنية التى لم يجدوا لها مرادفات عربية فنقلوها كما هى إلى العربية .

ويجىء فى مقدمة هؤلاء المراجعين الأزهريين الشيخ محمد عمران الهوارى ، وهو أول وأقدم من عين من هذه الطائفة مصححاً فى مدرسة الطب البشرى . وقد راجع جميع الكتب الطبية التى ترجمها عنحورى ، وفيدال ، وسكاكينى . ولما عاد أعضاء البعثة الطبية الأولى من فرنسا إلى مصر راجع كتبهم المعربة . وقضى فى مدرسة الطب يمارس هذا العمل عشر سنوات ، ورقى إلى منصب باشمصحح برتبة يوزباشى (نقيب) بمرتب ٤٥٠ قرشاً فى الشهر . وكان يساعده مصححون آخرون برتبة ملازم ، وكان مرتب كل منهم ٣٠٠ قرش شهرياً . وكان من بينهم الشيخان أحمد حسن الرشيدى والشيخ غانم الرشيدى ، ويرد ذكرهما فى بعض المراجع « الرشيديان » وكانا أزهريين أيضاً ، يحضران دروس الطب مع طلبة المدرسة ، فأظهرا نبوغاً ، واختارهما كلوت بك ناظر مدرسة الطب البشرى ليكونا عضوين فى إحدى البعثات

---

(١) عن هؤلاء المترجمين انظر

دكتور جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على . الناشر دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ص ٧٣–٩٢ .

الطبية إلى فرنسا . فلما سافرا قرر مجلس الجهادية ، وكانت المدرسة تتبع ديوان الجهادية ، اختيار اثنين مصححيْن بمعرفة الباشمصحح الشيخ الهراوى من المشايخ : عبد الرحمن الصفتى ، ومحمد هدهد ، ومحمد عياد الطنطاوى وعبد المنعم الجرجاوى . وكان هؤلاء المرشحون من خيرة مشايخ الأزهر . عاون الشيخ محمد هدهد رفاعة رافع فى مراجعة الجزء الأول من كتاب الجغرافية العمومية تأليف مالطبرون Malte Brun وكان رفاعه قد عرب هذا الكتاب فى أثناء إقامته فى باريس .

أما الشيخ محمد عياد الطنطاوى فنفرد له كلمة نظراً للكسب العلمى الكبير الذى ظفر به لنفسه ولمصر وللأزهر لدى إحدى الدول الكبرى . كان هذا الشيخ من علماء الأزهر البارزين ومن تلاميذ الشيخ حسن العطار قبل أن يلى الأخير مشيخة الجامع الأزهر . اتصل الطنطاوى بعلماء الفرنجة فى مصر وبالمستشرقين من جنسيات مختلفة . وكان من بينهم مستشرق روسى يدعى ر . فرهن R. Frehn أعجب بعلمه الواسع إعجاباً شديداً . وأشاد به عقب عودته إلى الروسيا . فقررت وزارة الخارجية الروسية دعوته لتدريس اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية فى سان بطرسبرج ، كما كانت تسمى العاصمة الروسية وقتذاك . فسافر إليها سنة ١٨٤٠ ومعه زوجته وابنه . وظل يشغل منصب الأستاذية فى جامعة سان بطرسبرج ، حتى قضى نحبه سنة ١٨٦١ ، فدفن هناك . ولايزال قبره موجوداً بها . وقد ترك بعد وفاته مكتبة حافلة بها كثير من تآليفه بخطه . وهى لا تزل محفوظة إلى الآن فى مكتبة الجامعة فى لينينجراد(١) .

---

(١) عن الشيخ محمد عياد الطنطاوى انظر كلا من ،

Kratschovsky ; Encycl. of Islam. Art. Tantawi.

أحمد تيمور باشا : الشيخ محمد عياد الطنطاوى . مقال فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ج ٩ ، أيلول (سبتمبر) ١٩٢٤ ، صص ٣٨٧-٣٩٠ .

أما الشيخ عبد المنعم الجرجاوى ، فقد اختير فيما بعد ليكون مدرساً بمدرسة الألسن .

هؤلاء هم المشايخ المرشحون ليختار منهم الشيخ الهوارى مصححين لمدرسة الطب . ولكنه لم يختر واحداً منهم ، أو لعله اختار اثنين وكان الرفض من قبلهما . ووقع الاختيار على اثنين آخرين ، هما الشيخ سالم عوض القنياتى ، والشيخ محمد عمر التونسى . وكان الشيخ القنياتى من بلدة القنايات فى مديرية الشرقية ، ومن علماء الأزهر . استهل حياته الحكومية واعظاً لإحدى فرق الجيش ، ثم نقل مصححاً فى مدرسة الطب . واشترك فى مراجعة الكتب المعربة مع الشيخ التونسى .

أما الشيخ عمر التونسى فكان ألمع المصححين وزعيمهم فى ذلك العصر . علا علواً كبيراً بفضل ثقافة واسعة جناها من الكتب ومن رحلاته فى إفريقية وآسيا . كان من تونس أصلاً ومولداً ، وإن كانت أمه مصرية وعاش هو وأبوه وجده فى مصر وبلاد العرب والسودان أكثر مما عاشوا فى وطنهم الأصلى تونس . وعاد التونسى إلى مصر سنة ١٨٣٢ ، وهى السنة التى سافر فيها الرشيديان إلى باريس ، وعين مصححاً بمدرسة الطب حيث تعرف على ناظرها الدكتور برون Perron (١) وتعاونا معاً على مراجعة الكتب

— كراتسكوفسكى اغناطيوس ، تصحيحات لمقال تيمور باشا ، عن الشيخ الطنطاوى . مجلة المجمع العلمى العربى ، ج١٢ عدد كانون أول (ديسمبر) ١٩٢٤ ، ص ص ٥٦٢ — ٥٦٤ .

محب الدين الخطيب : الشيخ محمد عياد الطنطاوى . مقال فى مجلة الزهراء ، عدد رجب ١٣٤٣ ، ص ص ٤١٧—٤٢٨ .

(١) ظل دكتور كلوت بك مديراً لمدرسة الطب البشرى حتى سنة ١٨٣٤ ، وخلفه دكتور دفينو ، وكان أستاذ الباثولوجيا (علم الأمراض) ومشرفاً على العيادة الداخلية ، وفى سنة ١٨٣٩ عين دكتور برون مديراً لمدرسة الطب ، وبقى مديراً لها ست سنوات . واستقال سنة ١٨٤٦ : وعاد إلى فرنسا وأقام فى باريس ثمانى سنوات ، ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٥٣ حيث اشتغل طبيباً حراً فى الإسكندرية . ومات فى باريس فى ١١ يناير ١٨٧٦ .

الطبية المعربة لاختيار المصطلحات التى تيسر لهم ترجمة الكتب الفرنسية ، وقام التونسى فى مدرسة الطب بمراجعة ستة كتب (١) .

وقام الشيخ التونسى ، فضلا عن مراجعة هذه الكتب الستة ، بجهد مشكور فى وضع ومراجعة قاموس طبى . فقد رأى القائمون على مدرسة الطب أن كثرة الكتب الطبية التى ترجمت تتطلب ترجمة قاموس طبى . وكان كلوت بك قــد أحضر من فرنسا « قاموس القواميس الطبية Dictionnaire des Dictionnaires de Medicine تأليف فابر Fabre ويقع فى ثمانية أجزاء ، تشمل جميع المصطلحات العلمية والفنية فى الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى المتصلة بالعلوم والطبيعة . وتعاونت مدرسة الطب بكل هيئاتها على تعريب هذا القاموس . فوزع ناظر المدرسة إذ ذاك ، وهو الدكتور برون ، على مهرة مدرسيها المصريين المتخصصين فى الجراحة الكبرى ، والجراحة الصغرى ، والأمراض الباطنية ، والتشريح العام ، والتشريح الخاص ، والرمد ، والأقراباذين ، وسائر التخصصات . فترجموا ، كل منهم ، الجزء الذى أعطيه . ولم يكتف الدكتور برون بهذا ، بل أراد أن يكون القاموس الجديد متضمناً أيضاً الألفاظ والمصطلحات الطبية القديمة . فأتى بالقاموس المحيط ، ووزعه على أفراد هذه الهيئة ، وأشرك معهم مصححى المدرسة : المشايخ محمد عمر التونسى ، وسالم عوض القنياتى ، وعلى العدوى . وأمر كلا منهم أن يراجع الجزء الذى بيده ، وينتقى منه كل لفظة دلت على مرض أو أعراض مرض ، وكل اسم نبات أو معدن ، أو حيوان . ولم يقف الدكتور برون عند هذا الحد ، فكتب الشيخ التونسى يقــول : « ثم خصنى الناظر المذكور (الدكتور برون)

---

(١) من أسماء هذه الكتب ، انظر :

دكتور جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٨٠ — ١٨١

باستخراج ما فى القاموس من التعاريف ، وما فى تذكرة داوود من كل معنى لطيف . وزدت على ذلك ما فى فقه اللغة ومختصر الصحاح وما فى الهروى من التعاريف الصحاح ، وضممت لذلك أسماء الأطباء المشهورين ، وأسماء عقاقير كنت رأيتها فى بلاد السوادين » (١) . ولما تمت كل هذه الجهود ، عهد بهذا القاموس الجديد إلى الشيخ التونسى ، فرتب الألفاظ والمصطلحات على حروف المعجم ، وراجعه مراجعة دقيقة . ولم يأل جهداً ، كما قال — « فى تصحيح كلماته وتهذيب عباراته » . فلما فرغ من هذا كله ، راجعه معه وكيل مدرسة الطب محمد شافعى أفندى . وسماه التونسى « الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية » . ولم يقصره على الألفاظ العربية ، بل ضمنه « أسماء لاطينية (٢) ، وأخرى فرنساوية ، وأخرى فارسية ، سواء استعملتها العرب ، أو كانت محدثة ، ودخلت فى الألفاظ الطبية لأدنى سبب » (٣) . ولم يكد التونسى يفرغ من إعداد قاموسه حتى كان محمد على قد قضى نحبه . وأخذت الحياة العلمية على عهد عباس الأول تركد ويخمد نشاطها . وخشى كلوت بك ضياع القاموس فحمله معه إلى باريس.

---

(١) الشيخ محمد عمر بن سليمان التونسى ، الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية . مقدمة الكتاب ص ص ج — هـ . أما السوادين فيقصد بها بلاد السودان حيث كان قد زار دارفور ووادای .

(٢) لاطينية أى لاتينية .

(٣) التونسى ، الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية ، مقدمة المؤلف . وعن التونسى انظر البحث الذى نشره الدكتور جمال الدين الشيال بعنوان « دكتور برون والشيخان التونسى والطنطاوى » فى مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول (إسكندرية حالياً) ، العدد ٢ ، سنة ١٩٤٤ .

وفى ٩ سبتمبر ١٨٥١ قدمه هدية إلى المكتبة الأهلية La Bibliothèque Nationale فى العاصمة الفرنسية (١) .

ولا ننسى أن الشيخين رفاعة رافع وإبراهيم الدسوقى عملا فترة مراجعين بمدرسة الطب . ثم نقل رفاعة مصححاً بمدرسة المدفعية ، ونقل الدسوقى إلى المهندسخانة تمشياً مع سياسة جديدة اتبعها محمد على تجاه المراجعين الأزهريين للاستعانة بهم فى مجال أوسع .

القناة السادسة :

أدخل محمد على تعديلا على النظام الذى كان قائماً ، وهو قصر تعيين المراجعين على مدرسة الطب البشرى ، فقرر إلحاق مراجع أو أكثر من مراجع بكل مدرسة عليا لمراجعة الكتب التى تترجم فيها . وأصبح تعيين المراجعين الأزهريين فى جميع المدارس العليا تقليداً التزمت به هذه المدارس ، وحتى مدرسة الألسن فإنها خضعت لهذا النظام ، لأن الكثيرين من خريجيها لم يكونوا من أبناء الأزهر ، بل جمعوا من مكاتب الأقاليم ، فكانوا ، على الرغم من دراستهم اللغة العربية فى مدرسة الألسن على فطاحلها فى ذلك العصر ، فى حاجة إلى من يراجع كتبهم ، ويصحح لغتها ويهذب أسلوبها .

---

(١) فكرت مصر ثانية فى هذا القاموس فى مطلع القرن العشرين . وأحضرت نسختين شمسيتين منه أودعتا دار الكتب المصرية . وفى حدود سنة ١٩١٠ بدأت نظارة المعارف تفكر فى طبعه . وعهدت بالأمر إلى الدكتور أحمد عيسى بك ، فنشر منه مائة صفحة فقط ، انتهى فيها إلى لفظة « أزدران » أى أنه لم يستوف حرف الألف . ولم يقف جهد الدكتور عيسى بك عند هذا الحد ، بل ترجم كل لفظة من ألفاظ القاموس إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية . ونشره جامعاً اللغات الثلاث . وطبع هذا الجزء على نفقة دار الكتب فى مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة ١٣٢٢هـ (١٩١٤م) ، غير أنه وقف عند هذا الحد ، ولم يتم طبع بقية القاموس . انظر :
دكتور جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ، ص ص ١٩٣ — ١٩٤ .

ففى مدرسة الطب البيطرى ، عين الشيخ مصطفى حسن كساب ، وقام بمراجعة جميع كتب الطب البيطرى التى ترجمها يوسف فرعون . فكان أول كتاب قام بمراجعته « التوضيح لألفاظ التشريح » تأليف « جيرار » طبع فى مطبعة بولاق سنة ١٨٣٤ . وكان آخر كتاب راجعه هو « مجمع الغرر فى سياسة البقر » تأليف « روينديه » وطبع فى بولاق سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ / ١٨٤٨ م) .

وفى مدرسة الزراعة كان المراجع الوحيد هو الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني . قام على تصحيح كتاب « أجل الأسباب فى أجل الاكتساب » . وأثبت فى نهايته أنه انتهى منه سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) . وفى أواخر هذه السنة نُقل الهوارى مصححاً بقلم الترجمة بمدرسة الألسن . ثم اختاره محمد على سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) إماما لبعثة الأنجال التى أوفدت فى تلك السنة إلى فرنسا . ولما عاد إلى مصر اشتغل بالتدريس فى الأزهر ، ثم نقل مصححاً بمطبعة بولاق حيث أشرف على مراجعة وطبع كثير من كتب اللغة ، وأضاف إليها حواش وتعليقات ، وخاصة القاموس للفيروزبادى ، والصحاح للجوهرى ، والمزهر للسيوطى وغيرها . وقد وضع مؤلفات كثيرة . وظل الشيخ الهوريني موفور النشاط العلمى حتى توفى سنة ١٨٧٤م.

وفى مدرسة المهندسخانة ، كان المصحح الوحيد أيضاً هو الشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقى . ولد فى دسوق سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) ، وجاور بالأزهر ، ثم عين مراجعاً بمدرسة الطب البشرى سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ / ١٨٣٣ م) ، ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلا ، ثم نقل إلى مدرسة المهندسخانة حيث قام بمراجعة جميع الكتب الرياضية التى ترجمت بها .

وفى مدرسة الألسن كان رفاعة رافع يشرف بنفسه على مراجعة الكتب التى ترجمت فى المدرسة أول إنشائها . ولما كثر عدد الكتب المترجمة أشرك

معه فى مراجعتها المشايخ محمد قطه العدوى ، وأحمد عبد الرحيم الطهطاوى ، ومحمد الفرغلى .

فكان هؤلاء العلماء الأزهريون الذين استعان بهم محمد على فى مدارسه العليا كمراجعين أو مصححين أول من عمّق الصلة بين اللغة العربية وعلوم أوروبا الحديثة . وانتهى الأمر ببعضهم إلى أن أصبحوا من ذوى التخصصات فى العلوم التى كانوا يراجعون كتبها المعربة .

القناة السابعة :

واستعان محمد على بعلماء الأزهر وطلبته فى مجال آخر هو البعثات العلمية التى أوفدها إلى أوروبا . فاختار منهم أعضاء بعثات ومنهم أئمة ووعاظاً يؤمون الطلبة فى الصلاة ويقومون بوعظهم وإرشادهم ويكونون رقباء على تصرفاتهم من حيث تمسكهم بدينهم وسيرهم فى الطريق المستقيم وانصرافهم إلى الدراسة . فكانت البعثة الثالثة إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ تضم ثلاثة مشايخ كان من بينهم الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى أحد علماء الأزهر اختير إماماً للبعثة وواعظاً ثم عين عضواً بها وأقام فى باريس ست سنوات (١٨٢٦— ١٨٣١) واستطاع تعلم اللغة الفرنسية . واتجه إلى دراسة التاريخ والجغرافية والفلسفة والآداب الفرنسية . ومالت نفسه وهو فى باريس إلى التأليف والتعريب . وكان أهم إنتاجه العلمى « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » استعرض فيه نظام الحكم فى فرنسا وأورد فيه تعريباً لمواد الدستور الفرنسى الذى كان معمولا به حتى سنة ١٨٣٠ (١) . وقد ترجم هذا الكتاب إلى

---

(١) من أحدث الطبعات التى ظهرت لكتاب رفاعه بك رافع الطهطاوى الطبعة التى ظهرت باسم : دكتور محمود فهمى حجازى : أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى مع النص الكامل لكتابه تخليص الإبريز . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

وقد نقل دكتور حجازى نص كتاب تخليص الإبريز عن الطبعة الثانية (القاهرة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٩ م) باعتبارها آخر طبعة للكتاب فى حياة مؤلفه . وكانت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٨٣٤ بمطبعة بولاق الأميرية بالقاهرة ، والطبعة الثالثة سنة ١٩٠٥ ، والطبعة الرابعة سنة ١٩٥٨ . والكتاب مشهور باسم الفقرة الأولى من عنوانه « تخليص الإبريز » .

اللغة التركية سنة ١٨٣٩ ليستعين به أنصار الدستور فى الدولة العثمانية على نشر آرائهم (١) . وله كتب أخرى عديدة مؤلفة ومعربة . ولما عاد إلى مصر تولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب بأبى زعبل ، ثم انتقل إلى مدرسة المدفعية وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ، وعين ناظراً لمدرسة الألسن واختار لها عدداً من طلبة الأزهر ، وكان يتولى التدريس فيها بنفسه ، وعاونه فيها ستة من علماء الأزهر بالإضافة إلى طائفة من العلماء الأجانب . وأحيلت إليه بالإضافة إلى نظارة مدرسة الألسن نظارة المدرسة التجهيزية وألحقت بمدرسة الألسن . وفى سنة ١٨٤٢ أنشأ قلم الترجمة من أول فرقة تخرجت فى مدرسة الألسن . ورقى سنة ١٨٤٥ إلى رتبة أمير آلاى (عميد) إذ كانت الرتب العسكرية سارية فى السلك المدنى ، فصار يدعى رفاعة بك بعد أن كان الشيخ رفاعة . واستمر يتقلد مناصب حكومية عليا على عهد الوالى محمد سعيد باشا والخديو اسماعيل حتى قضى نحبه سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) .

وعين من علماء الأزهر ومدرسيه أيضاً الشيخ نصر أبو الوفا الهورينى إماماً لبعثة سنة ١٨٤٤ إلى فرنسا . وله خمس كتب مؤلفة . وكان يعمل قبل سفره مصححاً بقلم الترجمة الملحق بمدرسة الألسن . وعلى غرار الشيخ رفاعة عكف فى أثناء إقامته فى باريس على تعلم اللغة الفرنسية وبرع فيها . ولما عاد من مهمته عاود التدريس بالأزهر ، ثم التحق بخدمة المطبعة الأميرية فكان من أشهر مصححيها (٢) . وكانت البعثة الطبية إلى فرنسا سنة ١٨٣٢ مؤلفة من اثنى عشر عضواً من أوائل المتخرجين فى مدرسة

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٤ ، ص ص ١٧٢٣ — ١٧٢٤ .

(٢) الأمير عمر طوسون ، البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس وسعيد ، اسكندرية ، ١٩٣٤ ص ص ١٧٤ — ١٧٥ .

الطب البشرى ومن بعض المصححين بالمدرسة . وكانوا جميعاً من طلبة الأزهر قبل إلحاقهم بالطب ماعدا واحداً (١) . وذهب بهم الدكتور كلوت بك إلى جامعة باريس حيث امتحنهم أساتذتها . فأظهروا من الذكاء والمهارة ما دعا كبار أساتذة الطب فى باريس إلى الإعجاب بهم (٢) . وأراد محمد على سنة ١٨٤٧ إيفاد بعثة من خمسة طلبة من الأزهر للتخصص فى علم الوكالة فى أمر الدعاوى أى فن المحاماة . وقامت مدرسة الألسن بترشيح الطلبة واختارت أولا ثلاثة أرسلتهم إلى ديوان المدارس الذى رأى أن اثنين منهم لايصلحان لضعف بصرهما ، فطلب من مدرسة الألسن اختيار اثنين غيرهما مع طالبين آخرين . وقد تأخرت مدرسة الألسن شهرين فى ترشيح الطلبة الأربعة الباقين . وقد ثار خلاف بين بعض الباحثين حول مصير هذه البعثة . فرأى احدهم أنها ألغيت (٣) ، ورأى الآخر أنها أوفدت (٤) وكان من بين أعضاء بعثة الطب إلى باريس فى أواخر سنة ١٨٣٢ إثنان من المصححين الأزهريين درسا الطب فى فرنسا ، وأصبحا طبيبين .

وإذا كان الفشل قد حاق ببعض الأزهريين فى الدراسات الحديثة ، فإن هذا الإخفاق كان يعود بالدرجة الأولى إلى سوء اختيار الحكومة لنوع الدراسة التى وجهتهم إليها دون تقدير لإمكانياتهم العقلية . ومع ذلك كان كثير من النابغين فى عصر محمد على ، سواء فى الطب أو الآداب

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤١ — ٤٤٢ .

(٢) محمد لبيب البتانونى ، تاريخ كلوت بك . (معرب عن الفرنسية) ، القاهرة ، ١٣٠٨ هـ ، ص ١٤ .

(٣) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، ص ٤٤٩ .

(٤) الأمير عمر طوسون ، ص ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

أو الرياضيات ، من طلبة الأزهر ، أنفقوا جزءاً من شبابهم فى مستهل حياتهم العلمية فى رحاب هذه الجامعة ، وتأثروا بأشياخهم مما مكنهم من النجاح فى الدراسات الحديثة . . وأعانهم على هذا النجاح ما ذكرناه من قبل من أن طرق التدريس فى المدارس العليـا لم تكن تختلف كثيراً عن طرق التدريس التى ألفوها من قبل فى الأزهر ، وكانت تعتمد على الحفظ والاستظهار وعلى الكتاب . وبدلا من أن يتوفروا على دراسة كتب الدين والفقه واللغة ، انصرفوا إلى قراءة كتب الطب أو الطبيعة أو الكيمياء أو الزراعة أو الرياضة . وكان لما اتصف به هذا الفريق من الطلبة من ذكاء ورغبة جادة فى تحصيل العلم أكبر الأثر فى النجاح الذى أصابوه . والحق أن هؤلاء الأزهريين كانوا يمثلون مدرسة جديدة اشتقت عناصرها من كلتا الثقافتين : ثقافة الأزهر وثقافة أوروبا الحديثة . فطلبة الأزهر الذين درسوا أولاً فى الأزهر ثم فى مدارس محمد على ، أو فى هذه المدارس ثم فى أوروبا كانوا الصلة بين الثقافتين . نظروا إلى الأزهر نظرة الحب والاحترام والوفاء . ولكنهم لم ينسوا أن العلوم الحديثة هى التى تعد للحياة ويحظون بسببها من الحكومة وعامة الناس بأكبر تقدير . وكان إمام هذه المدرسة هو رفاعة بك رافع . يقول أمين باشا سامى فى هذا الصدد « وكان الفضل الأكبر فى أول الأمر لمن وقع الاختيار عليهم من طلبة العلم بالأزهر . وألحقوا بمدارس الطب والمهندسخانه كبيومى أفندى مؤلف كتب الجبر ، وإبراهيم أفندى رمضان مؤلف كتب الهندسة الوصفية ، والظل والمنظور ، وقطع الأخشاب ، ومحمد على باشا البقلى الحكيم مؤلف كثير من الكتب الطبية ، وأحمد أفندى الرشيدى مؤلف المـادة الطبية وغيرها ، الذى كلف باختبار سواحل البحر الأحمر للبحث عن المعادن حتى فبزوغلى ، وتوجه إلى المكسيك مع بعثة أسندت رياستها إليه لهذا الغرض . ولا تنسى واسطة العقد الذى ربط الشرق بالغرب بعلومه ومعارفه

المرحوم رفاعة بك رافع مربّى فحول المترجمين ، رحمة الله عليهم أجمعين » (١) .

القناة الثامنة :

ومن القنوات التى تسلل منها تأثير الأزهر فى النظام التعليمى الحديث الذى أنشأه محمد على، مكاتب المبتديان ، إذا لما بدأت الحكومة سنة ١٨٣٣ فى إنشاء هذه المكاتب لم تجد من المتعلمين عدداً كافياً لتعيينهم نظاراً لها ، فلجأت إلى تعيين شيخ القرية التى يُنشأ بها المكتب ناظراً له . وتركت لمدير المديرية التابع لها المكتب تقدير المكافأة التى تمنح لشيخ القرية الناظر . وكانت المكافأة المعتــادة هى مائة وخمسين قرشاً فى الشهر . ثم استبان للحكومة أن معظم هؤلاء النظار أميّون . وقد صححت الحكومة هذا الوضع فأعفتهم من هذا العمل الإضافى كنظار ، وعينت بدلا منهم أزهريين قضوا من حياتهم سنوات فى رحاب الأزهر. وقد أثبتوا أنهم أكثر من مشايخ القرى علماً وخلقاً . انصرفوا فى ضوء السياسة التى وضعتها الحكومة إلى تنظيم مكاتب المبتديان ودروسها ، وضبط أمورها الإدارية كصرف مرتبات التلاميذ وأغذيتهم وملابسهم والعناية بحالتهم الصحية ونظافة مبانيها ،مما ساعد هذه المكاتب على النهوض برسالتهــا . وإلى جانب ناظر المكتب عينت الحكومة رئيساً للمعلمين كان يطلق عليه « باش خوجه » . وكان هو ومعظم معلمى المكاتب من الفقهاء الذين قضوا شطراً من حياتهم فى الأزهر ، أو درسوا على شيخ من شيوخ الأزهر . وكانوا يدرسون للتلاميذ القرآن الكريم واللغة العربية ومبادئ الحساب . وساعدهم على ذلك أنهم لم يكونوا مدرسين من ذوى التخصصات الدقيقة ، فقد كانوا مدرسى فرق دراسية ، فمدرس الفرقة كان يدرّس لتلاميذها جميع المواد المقررة عليهم (٢) .

(١) أمين باشا سامى ، التعليم فى مصر ، القاهرة ، ١٩١٧ ، ص ٧٦ .
(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، ص ٥٧٥ .

وهكذا وضع محمد على الأزهر وروافده فى خدمة مدارسه كضرورة علمية ، لأنها كانت خلال حياتها المبكرة فى حاجة إلى دعم بشرى علمى سواء من المشايخ أو الطلاب الأزهريين وإلى الخدمات العلمية يؤدونها لتساعدها على المضى فى رسالتها التعليمية . وكان لهذا التأثير نتيجة هامة ، هى أنه باعد بين المدارس والنقل أو الاقتباس الحرفى من المدارس الأوروبية التى أنشئت مدارسه على غرارها . ولكن لم يستمر هذا التأثير أمداً طويلا ، بل تحرر النظام التعليمى الحديث رويداً رويداً من نفوذ الأزهر وتأثيره . ولم يتم هذا التباعد فى عصر محمد على ،وإن بدأ فيه . فبعد أن كانت المدارس الحديثة تأخذ فى غضون سنواتها الأولى حاجتها من طلبة الأزهر ، أخذت تستمد كفايتها من تلاميذ المدرسة الثانوية . ولم يعد محمد على يُلحق بالمدارس العليا طلاباً أزهريين . كذلك توقف محمد على عن إرسال طلبة أزهريين فى بعثات علمية إلى أوربا بعد سنة ١٨٣٦ ، فيما عدا بعثة الحاماة، إذا كانت قد أوفدت ، وقصر اختيار أعضاء البعثات على خريجى المدارس العليا المتخصصين فى الطب والميكانيكا والعلوم السياسية وما إليها فضلا عن استمراره فى إيفاد بعثات عسكرية . ولم يستبق محمد على من رجال الأزهر سوى مدرسى اللغة العربية والدين والمراجعين فى المدارس العليا وفى قلم الترجمة .

تأثير مدارس محمد على فى الأزهر :

كان للمدارس الحديثة تأثير فى الأزهر على عهد محمد على ، فقد أتاحت هذه المدارس لفريق من علماء الأزهر الذين عملوا فيها مدرسين ومصححين للكتب التى ترجمت ، وكذلك لطلبة الأزهر الذين التحقوا بها دارسين ، عديد الفرص للتزود بألوان شتى من علوم الطب والهندسة وغيرها وبالاتصال عن كثب بالحضارة الأوروبية ، سواء الذين اقتصروا على دراساتهم فى هذه المدارس ، أو أوفدوا بعد ذلك فى بعثات علمية

إلى دول أوروبا . وبذلك نشأت قنوات تصل الثقافة الدينية العربية التقليدية بالثقافة العلمانية المدنية مطعّمة بصبغة أوروبية حديثة . أما فيما عدا هؤلاء وأولئك ، فقد كانت هناك فئة قليلة العدد من علماء الأزهر المتحررين من قيود الماضي انصرفوا إلى قراء الكتب المعربة عن اللغات الأوروبية . وكان على رأسهم الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر الذى قال عنه تلميذه الشيخ رفاعة رافع إنه « كان يطالع دائماً على الكتب المعـــربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولع شديد بسائر المعارف البشرية » (١) . وسنرى بعد قليل فى هذا الفصل أن الشيخ العطار قد تجاوب مع حركة التعليم الحديث فى أثناء حكم محمد على ونادى علناً بإدخال بعض المواد الحديثة فى الأزهر ، وسبقه فى هذا المضمار الشيخ محمد أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر حين حاول إدخال بعض العلوم الطبية وغيرها فى الأزهر .

وجمل القول إن تأثير الأزهر فى مدارس محمد على كان أقوى من تأثير هذه المدارس فى الأزهر . وقد سبق أن ذكرنا ثمانى قنوات تسلل منها تأثير الأزهر إلى التعليم الحديث . وكان تأثيره مباشراً وقوياً ومؤثراً فى المدارس الحديثة إبان حكم محمد على .

دحض فرية حاول البعض إلحاقها بعلماء الأزهر وطلبته :

رأى بعض المتحاملين أن علماء الأزهر نظروا إلى رجال المدارس الحديثة على أنهم مرتدون ، فقدوا إيمانهم وباعوا ضمائرهم حتى أصبحوا يتكلمون لغات الأجانب ، ويرتدون ملابس على طراز ملابسهم ، ويتعلمون علومهم . قال يعقوب أرتين باشا وكيل نظارة المعارف العمومية « عندما بدأ هذا التعليم الدنيوى الدنّس فى الانتشار ، وأوشك أن ينتظم الشبيبة

(١) رفاعة رافع ، مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية . مطبعة شركة الرغائب ، القاهرة . ١٣٣٠ هـ (١٩١٢) ، ص ٣٧٦ .

المصرية على بكرة أبيها ، أظهر الشعب مقاومة عنيفة لهذا التعليم الأجنبي . فوجه الاتهامات إلى الأطباء والمهندسين ورجال الجيش ، وكل من درس هذه العلوم الواردة من أوروبا ، بأنهم باعـوا أرواحهم وأجسامهم للأوروبيين وأصبحوا مسيحيين . ولأنه لم يكن فى مقدورهم أن يثوروا على رغبة الباشا ، لجأوا إلى شتى الوسائل الممكنة ليمنعوا فقد أبنائهم من أن يقادوا إلى مدارس الباشا » . واستطرد أرتين باشا فقال إن المسلمين الأتقياء نظروا إلى الأزهريين الذين تجاوبوا مع النظام التعليمى الحديث على أنهم قد ضلوا السـبيل ، وأصبحوا منبوذين يستحقون طلب الرحمة لهم » (١) .

وردّد هذا الرأى فى منتصف القرن العشرين ، وعلى نحو مخفف ولكن قريب الشبه من رأى أرتين باشا ، الأستاذ محمد رفعت باشا وزير المعارف العمومية (٢) ، فقال إن الأمر قد اختلط على جماهير الشعب بين المدارس التى أنشأها محمد على وتجنيد الشبان فى الجيش ، فإن هذه المدارس والجيش كانا يتبعان جهة حكومية واحدة هى ديوان الجهادية (الحربية) ، ووجود الأجانب فى كلتا الهيئتين ، أى المدارس والجيش ، ووحدة هدفيهما ، كل ذلك كان كفيلاً بأن يكره الشعب الالتحاق بمدارس محمد على ، ولا يقبل الانخراط فى سلك الجندية بنفوس راضية مما اضطر محمد على إلى الضغط على المصريين المعاندين ، ويجندهم فى مدارسه كما يجندهم فى

---

(١) Artin, Yacoub Pacha, L'Instruction Publique en Egypte. Paris, 1890, p. 142.

(٢) تولى وزارة المعارف العمومية مرتين قبل قيام حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الأولى من ٢ مارس ١٩٥٢ حتى ٢ يوليو ١٩٥٢ . والمرة الثانية من ٢٢ يوليو حتى ٢٤ يوليو ١٩٥٢ .

الجيش . واضطر أيضاً إلى استمالتهم إلى الالتحاق بمدارسه بتقديم المسكن والملبس وحتى مصروف الجيب لهم (١) .

أما الأوروبيون ، فكانوا بصفة عامة مسرفين فى تحاملهم على الأزهر . ونذكر هنا مثالين صارخين لهذا الإسراف فى التحامل . أولهما دكتور برون مدير مدرسة الطب البشرى (١٨٣٩ — ١٨٤٦) ، كتب إلى صديقه جيل مول سكرتير الجمعية الآسيوية خطاباً قال فيه « هل تعتقد يا صديقى أن مشايخ الأزهر يقرأون كتبنا (أى الكتب المترجمة إلى العربية) ؟ كلا . إنهم يتحاشونها . ولكن من السهل أن يتهم الإنسان قبل أن يستمع . وإن كتبنا هذه مثلها كمثل التوراة والإنجيل . فالشيوخ يتحدثون دائماً عنها ، وليس بينهم من قرأ منها سطراً واحداً » وأخذ يروى قصصاً أخرى مبالغاً فيها حاول فيها أن يرمى مشايخ الأزهر بالعزلة عن المجتمع وبضيق الأفق العقلى (٢) . وليس أدل على تحامله من أنه حين جاء إلى مصر تتلمذ على شيخين أزهريين ، هما الشيخ محمد عياد الطنطاوى والشيخ محمد عمر التونسى . وبفضل هذين الشيخين الجليلين تعمق فى دراسة اللغة العربية . وعندما فكر

---

(١) Rifaat, M. ; The Awakening of Modern Egypt. London, 1947, p. 40.

(٢) Perron ; Lettre sur les écolès et l'imprimerie du Pacha d'Egypte.

dans :

Jonanal Asiatique, 1843, pp. 9 – 12.

وقد نشر ارتين باشا هذا الخطاب أيضاً مع خطابات أخرى أرسلها دكتور برون إلى صديقه مول ، وتمها مقدمة تحليلية سنة ١٩١١ تحت هذا العنوان .

Artin, Yacoub Pacha ; Lettres du Dr. Perron, du Caire et d'Alexandrie, à M. Jules Mohl, à Paris (1838 – 1854). Le Caire, 1911.

فى طبع القاموس كان كل اعتماده فى المراجعة على الشيخ التونسى . ولما فكر المستشرق الإنجليزى إدوارد لين فى ترجمة القاموس للإنجليزية لم يجد من يساعده على فهمه ومراجعته على القواميس والمعاجم الأخرى غير الشيخ إبراهيم الدسوقى .

وإنصافاً لرجال الأزهر مما أخذه عليهم دكتور برون حين قال إنهم لم يقرأوا سطراً واحداً من الكتب المترجمة ، نقول إن هذه الكتب كانت علمية فنية بحتة لايفقهها إلا المتخصصون فى مواد الطب مثـــل التشريح والأمراض وعلاجها أو الهندسة الوصفية أو الكيمياء الحديثة وما إليها . فهذه الكتب كانت تحتاج إلى خلفية علمية لم تتح الفرصة لمشايخ الأزهر وطلبته لتلقيها . ولكنهم قرأوا الكتب التاريخية والجغرافية ، المؤلفة والمعربة ، وكتابين من كتب الثقافة العامة قد ألفا باللغة الفرنسية بتوجيه محمد على ثم ترجما إلى اللغـــة العربية بأمر منه أيضاً . وكان هدفهما تثقيف الشعب ثقافة طبية ، وتعليمه مبادئ الصحة العامة وطرق الوقاية من الأمراض والأوبئة ، والعناية بصحة الأطفال . وقد لقى هذان الكتابان رواجاً كبيراً بين علماء الأزهر وطلبته وسائر أفراد الشعب . كان اسم الكتاب الأول «كنوز الصحة ويواقيت المنحة» ألفه كلوت بك باللغة الفرنسية ، ثم قام بتعريبه دكتور برون ، لأنه كان يعرف اللغة العربية ، واستعان بالشيخ محمد عمر التونسى فى مراجعته وتصحيحه . وتجنب الأخير التعمق فى الألفاظ اللغوية ، ولم يذكر فيه إلا ما اشتهر من الألفاظ ، وإن كانت عامية ، كما ذكر فى مقدمة الكتاب . وتنافس الجميع على اقتناء هذا الكتاب أو قراءته . وكانت تنفد نسخه حتى طبع عدة مرات فى مطبعة بولاق (١) ، كما طبع عدة طبعات أهلية

---

(١) كانت الطبعة الأولى سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤) ، والثانية سنة ١٢٦٥ هـ فى مستهل حكم عباس الأول ، والثالثة سنة ١٢٧١ هـ إبان حكم سعيد الأول ، والرابعة سنة ١٢٩٦ هـ فى عصر اسماعيل .

بعد ذلك(١) . وظل هذا الكتاب يتداوله المصريون على مدى ثلاثة أرباع قرن . أما الكتاب الثانى فكان عنوانه « الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال » . وقد ألفه كلوت بك باللغة الفرنسية ، وترجم أيضاً بتوجيه محمد على كما قال كلوت بك فى مقدمة الكتاب بسبب كثرة الوفيات بين الأطفال المصريين . وكان ينظر محمد على إليهم على أنهم ثروة بشرية لمصر . وقام وكيل مدرسة الطب البشرى الطبيب محمد شافعى أفندى بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ثم راجعه وصححه الشيخ التونسى ، وطبع فى مطبعة بولاق فى ربيع الآخر ١٢٦٠ (٢٠ أبريل — ١٨ مايو ١٨٤٤) .

أما المثال الثانى للإسراف فى التحامل على الأزهر فهو المستشرق فولرز Vollers فذكر أن الأزهريين كانوا يعتبرون كل من عاد من أعضاء البعثة فى باريس سفيهاً متكلفاً . وأن هذه الخصومة قد قوى أمرها حوالى سنة ١٨٣٠ ، فكان الأزهريون يسخرون من المصريين الذين تعلموا فى أوروبا ، ويقولون إنهم تعلموا تعليماً سطحياً ، وهم كالطائر الذى يحجل ويتهادى فى مشيته دون أن يحسن الطير »(٢) . وهذا الرأى يحمل فى طياته الحقد والتفاهة .

علماء أزهريون تجاوبوا مع حركة التعليم الحديث :

إن هذه الآراء التى رُددت فى القرنين التاسع عشر والعشرين والتى بسطناها آنفاً لا تصور الحقيقة تماماً ، فقد تجاوب أو تعاطف عدد من كبار علماء الأزهر فى أثناء حكم محمد على مع حركة المدارس الحديثة

---

(١) مطبعة شرف سنة ١٣٠١ هـ على عهد الخديو توفيق ، ومطبعة عثمان عبد الرازق سنة ١٣٠٤ هـ على عهد الخديو توفيق أيضا ، والمطبعة اليمنية سنة ١٣٢١ هـ على عهد الخديو عباس حلمى الثانى .

(٢) Vollers, K.; Encycl. of Islam. Art. Azhar.

التى أنشأها هذا الحاكم ، وتطلعوا إلى إدخال المواد العلمانية أو المدنية إلى الأزهر مما يدحض آراء الذين تحاملوا عليه ورموه بالجمود والعزلة عن المجتمع المصرى . ونذكر هنا من هذا الفريق على سبيل المثال بعضاً من أعلام الأزهر ، هم : المشايخ محمد أحمد العروسى ، وحسن العطار ، والمفتى أحمد التميمى ، ورفاعة رافع ، ونصر أبو فا الهورينى .

الشيخ محمد أحمد العروسى :

فاتح الشيخ محمد أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر كلوت بك مدير مدرسة الطب ورئيس مجلس شورى الأطباء فى إدخال بعض علوم الطب والكيمياء والطبيعة وعلوم الصحة فى الأزهر . وقد أسف كلوت بك لأن الموت عاجل الشيخ محمد العروسى سنة ١٨٢٩ قبل أن يحقق فكرته (١) . ولكن مالبث أن احتضن هذه الفكرة شيخ آخر من شيوخ الجامع الأزهر هو الشيخ حسن محمد العطار . وقد رأينا أن نخصه بشىء من الإسهاب تبياناً لجهوده العلمية فى هذا الصدد .

الشيخ حسن محمد العطار :

ولد بالقاهرة سنة ١٧٧٦ ، وجاور بالأزهر وحضر حلقات صدور علمائه ، وكان من بينهم المشايخ محمد الأمير ، ومحمد الصبان ، وأحمد العروسى ، وعبد الله الشرقاوى ، واسماعيل الخشاب . ولما غزا الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨ هرب إلى الصعيد خوفاً على نفسه من أذاهم ، ثم عاد إلى القاهرة بعد قليل . واتصل ببعض علماء الحملة الفرنسية ، وأفاد منهم وشاهد كتبهم وآلاتهم الهندسية والعلمية ، فكانت هذه الاتصالات والمشاهدات بدء اتجاهه إلى تقدير العلوم الحديثة والمناداة بضرورتها . وقام

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢٥٥ ، ص ٥٨٩ .

فى ذات الوقت بتعليم اللغة العربية لبعض علماء الحملة الفرنسية . واشتغل فى أثناء الاحتلال الفرنسى بالتدريس فى الأزهر ، فكان يقرأ على طلبته شرح الأزهرية للشيخ خالد فى علم النحو . ورأى أن يغادر مصر سنة ١٨٠٢ فى أوائل عهد الاضطرابات السياسية وذهب إلى إستانبول . واستطالت إقامته بها ثمانى سنوات زار خلالها بعض المدن التركية . ووصف إستانبول وصفاً طريفاً ، شعراً ونثراً ، استعرض فيه موقعها ومنتزهاتها ومعاهدها والكثير من معالمها(١) . ثم غادرها سنة ١٨١٠ إلى الشام حيث التمس منه علماء دمشق شرح الأزهرية ، فاستجاب لهم . وكان من طلبته فيها الشيخ حسن البيطار الذى استجازه فأجازه . وأقام الشيخ العطار بالشام خمس سنوات ثم عاد إلى مصر سنة ١٨١٥ بعد أن غاب عنها ثلاث عشرة سنة قضاها فى الظعن والإقامة . وكانت الأوضاع السياسية فى مصر قد استقرت وصارت ولاية البلاد لمحمد على . وعاد الشيخ العطار إلى التدريس فى الأزهر . وفى سنة ١٨٣٠ تولى مشيخة الجامع الأزهر . وكانت سنه قد أوفت على الخامسة والستين . وظل فى منصبه إلى أن جاز إلى ربه سنة ١٨٣٥ ، وترك مؤلفات عديدة وخاصة حواشيه على كتب النحو والتوحيد والأصول والبلاغة (٢) ، كما كان له ميل إلى العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب والتشريح والهندسة . وعُرف أيضا بقراءاته الواسعة والعميقة فى الكتب العربية المؤلفة والمعربة . ولم يكن يختص بعلم معين ، إذ كان حريصاً على الإفادة من كل علم. وقد أشاد رفاعة بك رافع الطهطاوى بولوع الشيخ العطار بسائر المعارف البشرية (٣).

---

(١) نشر هذا الوصف الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى كتابه حسن العطار . فى سلسلة نوابغ الفكر العربى العدد ٤٠ نشر دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ص ص ١٠٣ — ١٠٤

(٢) تجد ثبتاً كاملا لهذه المؤلفات فى المرجع السابق ، ص ص ٨٤ — ٨٧

(٣) رفاعة بك رافع الطهطاوى ، مباهج الألباب المصرية الخ ، ص ٣٧٥

وبهمنا أن نسجل هنا أنه ، بجانب الثقافة المتعددة الجوانب لدى الشيخ العطار ، عرف عنه التحرر الفكرى والبعد عن الجمود والدعوة المكرورة إلى إدخال العلوم الحديثة فى الأزهر مع استمرار العناية بعلوم الدين والفقه واللغة . وكان يشكو ، قبل أن يتولى مشيخة الجامع الأزهر من قصور دراسات الأزهر وكتبه عن مواكبة الاتجاهات العلمية الحديثة . والواقع أن رغبة شديدة كانت تجيش فى نفس الشيخ العطار فى إدخال العلوم الحديثة فى الأزهر . وذكر على مبارك قول الشيخ العطار « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة (وهى الفرنسية) من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة » (١) . وقد قام الشيخ العطار سنة ١٨٢٦ بترشيح الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى لدى محمد على لتعيينه إماماً للبعثة التعليمية التى أوفدها هذا الوالى إلى باريس فى تلك السنة . ثم مضى الشيخ العطار فأشار على الشيخ رفاعة بأن يسجل ما يشاهده فى فرنسا من الأمور التى يرى فيها نفعاً ثقافياً للمصريين بوقوفهم على جوانب الحضارة الأوروبية . واستجاب الشيخ رفاعة لتوجيه أستاذه . فكان أن وضع كتابه المشهور « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، ثم خطا الشيخ العطار خطوة أخرى فأوصى محمد على بطبع هذا الكتاب ، فقامت المطبعة الأميرية بطبعه ونشره .

وكان من المنتظر أن يتخذ الشيخ العطار خطوات عملية لتطوير الدارسة فى الأزهر بعد أن آلت إليه مشيخة الجامع سنة ١٨٣٠ . ولكنه أحجم عن ذلك واكتفى بأن وقف خطيباً فى الحفل الذى أقامه الدكتور كلوت بك(٢)

---

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

(٢) منحه محمد على فى ١٠ جمادى الأولى ١٢٤٧ الموافق ١٧ اكتوبر ١٨٣١ رتبة البكوية مع تعيينه نائباً لرئيس مجلس شورى الطب . وقد كتب كلوت بك فى مذكراته بالتفصـ

ناظر مدرسة الطب البشرى فى أبى زعبل Antoine Barthélemy Clot فى ٣٠ أبريل ١٨٣٢ بمناسبة عقد الامتحانات لطلبة الفرقة النهائية فيها . وقد رأس هذا الحفل مفتش عام الجيش المصرى أحمد باشا ، وحضره مع الشيخ العطار كل من مفتى المذهب الحنفى الشيخ منصور اليافى ، وممثل عن مفتى المذهب المالكى ، والشيخ محمد كون ، وغيرهم من كبار علماء الأزهر ، والشيخ رفاعة رافع ، وكبار موظفى الحكومة العسكريين والمدنيين. وكانت مدرسة الطب تتبع ديوان الجهادية ، كما حضر الحفل نائب قنصل فرنسا تييرى Thierri وقنصل بريطانيا باركر Barker وأعضاء هيئة الامتحان من الخارج ، وعددهم ستة من أساتذة كلية الطب بجامعة باريس ، وانضم إليهم كلوت بك كممتحن داخلى . وكان خطباء هذا الحفل ثلاثة : أولهم كلوت بك الذى رحب بالحاضرين وخصّ علماء الأزهر بالثناء ، ثم كان ثانيهم الشيخ حسن العطار ، وثالثهم نائب قنصل فرنسا . أما خطبة الشيخ العطار ، فقد أشاد فيها بأهمية تعلم العلوم الحديثة ، ووصف مدرسةالطب المصرية بأنها غدت محراباً le sanctuaire للدراسات الطبية البشرية فى مصر ، وقال إن حضوره الحفل مع عدد من زملائه كبار العلماء الأزهريين البارزين جداً فى تخصصاتهم دليل عملى على تقديرهم لهذه المدرسة وشعورهم بأهميتها فى بناء صرح النهضة العلمية التى أرسى دعائمها أفندينا محمدعلى باشا . ونوه الشيخ العطار بإسهام الأزهر فى إنشاء مدرسة الطب البشرى ، إذ استمدت الحكومة معظم طلبتها من طلبة الأزهر ، وبأنهم أظهروا فى دراسة الطب ذكاء واستعداداً كبيراً . وانتقل

= الفرنسية الترجمة الحرفية لهذه البراءة . وقد ظهرت فى مذكراته الفرنسية التى نشرت بعنوان :

Mémoires de A. – B. Clot Bey Publiés et Annotés par Jacques Tagher. Imprimerie de L'Institut Français d'Archéologie Orientale. Le Caire, 1949, pp 164–165.

فى خطبته إلى الدور الباهر الذى قام به مدرسو الأزهر فى مراجعة الكتب المؤلفة وفى تصحيح الكتب المعربة (١) .

وأخذ أحد الباحثين على الشيخ العطار إهماله تطوير التعليم فى الأزهر واكتفاءه بصوت خافت أرسله فى مواضع يصعب العثور عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع ، وكان يجب عليه ، فى رأى هذا الباحث ، أن يجهر بصوته عالياً بين جنبات الأزهر « لينبه أهاله من غفلتهم ويوقظهم من رقدتهم » ووجه هذا الباحث الاتهام إلى الشيخ العطار بأنه كانت تعوزه الشجاعة الأدبية « فلو رزق الروح القوية لأدخل الإصلاح فى الأزهر بالقوة ، كما أدخل محمد على الإصلاح فى مصر بالقوة » (٢) . ولعل الشيخ العطار قد خشى غضب محمد على عليه وانتقامه منه فيأمر بالتحجير عليه ، كما فعل من قبل بأحد شيوخ الجامع الأزهر وهو عبد الله الشرقاوى حسبما ذكرنا من قبل . وكان الشيخ العطار يدرك تماماً أن محمد على لم يكن فى نيته إدخال التعليم الحديث فى الأزهر . والأمر الجدير بالملاحظة أنه لم يكن فى مكنة الشيخ العطار أن يدلى برأيه فى حفل ٣٠ أبريل ١٨٣٢ أمام الحشد الحافل بكبار موظفى الحكومة المدنيين والعسكريين إلا إذا كان واثقاً من تأييد فئة من الأزهريين المستنيرين لرأيه ، أو على الأقل لا تناهض اتجاهه التحررى . وإذا كان كثير من رجال الأزهر عارضوا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حركة الإصلاح التى استهدفت إدخال بعض العلوم الحديثة كالرياضيات والتاريخ والجغرافية ، فإنها كانت معارضة مقصورة على أقلية « رجعية » كانت تدفعها عوامل أخرى فى معارضتها .

---

(١) Loc. cit. pp. 127 – 135.

(٢) الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، تاريخ الإصلاح فى الأزهر . القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٢ وص ٢٤ .

٣ — الشيخ أحمد التميمى :

وهناك أحد كبار علماء الأزهر فى عصر محمد على ، هو المفتى أحمد التميمى ، رأى أن الدراسة فى الأزهر باقتصارها على علوم الدين والفقه واللغة لم تعد تجدى فى الإعداد للحياة والمجتمع ، وأن مدارس التعليم الحديث تقوم عنها فى ذلك خير قيام . فنقل ابنه فى مطلع سنة ١٨٤٦ من الأزهر موئل الدراسات الدينية إلى مدرسة المبتديان « لتفضيله العلوم التى تدرس فى المدرسة على العلوم التى تدرس فى الأزهر » (١) .

٤ — الشيخ رفاعة رافع :

أما الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، فكان من أعلام الأزهر ، لم يتجاوب فحسب مع حركة التعليم الحديث ، بل أسهم فيها بنصيب موفور ، وقد سبق أن بسطنا فى هذا الفصل شطراً من نشاطه فى هذا المضمار منذ أن اختاره محمد على ، بترشيح من شيخ الجامع الأزهر حسن العطار ، إماماً وواعظاً لطلبة البعثة العلمية التى أوفدت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ثم عين عضوا فيها . وانقلب مراجعاً ومترجماً ومؤلفاً ومدرساً فى بعض المدارس العليا .

ونضيف هنا أن الشيخ رفاعة بعث برسالة فى ١٦ أغسطس ١٨٣١ إلى جومار بك « Jomard bey » عضو المجمع الفرنسى ومدير البعثة العلمية المصرية فى فرنسا ، ذكر فيها أن عدداً من علماء الأزهر يغبطون زملاءهم الأزهريين على ما أصابوا من العلوم الحديثة واللغة الفرنسية ، ويطلبون إلى رفاعة ، عقب عودته من البعثة فى ذات السنة أن يعلمهم اللغة الفرنسية (٢) .

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩٠ .

(٢) نشر جومار هذه الرسالة فى الجريدة الرسمية الآسيوية
Journal Asiatique; Vol. VIII, p. 534.
نقلا عن الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، ص ٥٩٠ .

٥ – الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني :

أما الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني ، فقد سبق أن تعرضنا في هذا الفصل أيضاً لإسهامه في حركة التعليم الحديث ، وأعانه على هذه المشاركة تعيينه إماماً وواعظاً لبعثة سنة ١٨٤٤ المعروفة ببعثة الأنجال أو الأمراء . وسار على نهج الشيخ رفاعة ، وحرص على تعلم اللغة الفرنسية في أثناء إقامته في باريس . وعين عقب عودته مراجعاً في مطبعة بولاق ، فكان من أبرز مراجعيها وعكف على مراجعة الكتب المصرية وعلى التأليف .

مثال بارز لفلاح التحق بمدارس محمد على ونجح علمياً وسياسياً :

باستمرار الأزهر جامعة تمارس نشاطها التعليمي بعيدة عن رقابة الحكومة وتدخلها ، وبقيام مدارس النظام التعليمي الحديث الذي أنشأه محمد على ، وُجدتْ ازدواجية في نظام التعليم ، وانقسم المجتمع المصري إلى فريقين : فريق استمر يولى وجهه شطر الأزهر ، يرسل أبناءه إلى هذه الجامعة العتيدة ينهلون منها ما شاءوا من دراسات دينية وفقهية ولغوية . وكان هذا الفريق مدفوعاً بأفضلية تعليم الأزهر لأسباب ثلاثة سبق أن بسطناها في هذا الفصل ، وفريق جذبته مدارس التعليم الحديث ، إذ رأى انصراف الأزهر عن مجال توظيف طلبته في المناصب الحكومية وعدم اتجاهه في دراساته الدينية واللغوية لتزويد طلبته بما يساعدهم على الظفر بوظائف حكومية مدنية ، فاتجه هذا الفريق إلى مدارس التعليم الحديث . فالمناصب المرموقة والقيادية في الحكومة كانت مقصورة على خريجي هذه المدارس . والثراء النسبي والاحترام العميق من سواد الشعب ، كل ذلك كان يستهويهم إلى المدارس الحديثة التي كانت تقدم لهم هذه المزايا .. ومن ثم بدأ اتجاه تلقائي إلى الالتحاق بالمدارس والاطمئنان إليها إبان حكم محمد على . وهناك القصة المشهورة والمعبرة التي رواها على مبارك عن نفسه وهو يجادل أباه الذي كان يحاول إقناعه بالالتحاق بالأزهر .. فقال على مبارك لأبيه : « وهل التعليم في الأزهر يؤدي إلى أن يكون الإنسان حاكماً ؟

ومَنْ خرج من الأزهر حاكماً ؟ إن الحكام إنما يؤخذون من المدارس »(١). وأبلغ والده صراحة أنه لا يريد دراسة الفقه الإسلامى . وكان مدفوعاً فى رغبته فى الالتحاق بالمدارس بحسن زى الحكام وهيبتهم ونفوذهم الواسع. وأثبتت الأيام أن على مبارك كان صادقاً فى حدسه وظنه ، التحق بمكتب المبديان فى منية العز ، ثم مدرسة قصر العينى الثانوية ، ثم مدرسة المهندسخانه ثم أوفد سنة ١٨٤٤ فى بعثة علمية إلى فرنسا . وبعد أن أتم سنتين فى باريس عين ضابطاً فى الجيش الفرنسى برتبة ملازم ثان فى مدرسة المدفعية والهندسة الحربية بمدينة متز « Metz » وقضى فيهـا سنتين أخريين تعلم خلالها فن الاستحكامات . واجتاز بنجاح امتحاناتها ، وعين فى الفرقة الثالثة من سلاح المهندسين بالجيش الفرنسى . ولما عاد إلى مصر تفتحت له أبواب المناصب المرموقة ثم القيادية تباعاً .. رقى على عهد عباس الأول إلى رتبة عميد (أمير آلاى) ، وناظراً لمدرسة المهندسخانه ، وعلى عهد محمد سعيد أُلحق بإحدى فرق الجيش كانت مسافرة إلى إستامبول للاشتراك فى حرب القرم ، ولبث فى هذه المهمة سنتين ونصف سنة تعلم خلالها اللغة التركية . وعلى عهد اسماعيل عين مهندساً للقناطر الخيرية ، وأظهر براعة فى توزيع الماء بين فرعى رشيد ودمياط ، وأشرف على عمليات تعميق رياح المنوفية وإقامة قناطره ومبانيه ، وعين كبيراً لمهندسى المعية السنية . ثم عين وكيلا لديوان المدارس فى سبتمبر ١٨٦٧ ، ثم مديراً له . واختير ناظراً أى وزيراً لوزارة الأشغال ، ووزيراً للأوقاف ، وأضيفت إليه مصلحة السكك الحديدية ثم وزيراً للمعارف . ولما تولى الخديو توفيق الحكم عُين على مبارك وزيراً للأشغال فى سبتمبر ١٨٧٩ . وفى أيام الاحتلال البريطانى دخل على مبارك وزارة رياض باشا وزيراً للمعارف . وقد بقيت هذه الوزارة فى الحكم من ١١ يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ ، وكان هذا التاريخ هو آخر عهد على مبارك بالمناصب الحكومية إلى أن جاز إلى ربه فى داره

---

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٩ ، ص ٣٨ .

بالحلمية الجديدة بالقاهرة فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ . وكانت حياته خصبة حافلة بجلائل الأعمال جعلت صاحبها طرازاً فريداً بين رجالات مصر (١) وتميزت حياته بالإنتاج العلمى والأدبى الغزير ، ففضلا عن موسوعته : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة .. والتى تقع فى عشرين جزءاً ، وضع عشراثنى كتابا (٢) » .

ولم يكن علياً مبارك هو وحيد عصره من المصريين الذين التحقوا بمدارس التعليم الحديث . فهناك أعداد كثيرة منهم اتجهوا هذه الوجهة وأوفدوا فى بعثات علمية إلى أوروبا وأصابوا نجاحاً كبيراً فى حياتهم الوظيفية . وقد أورد الرافعى تراجم لحوالى خمسين من العلماء والشخصيات السياسية والعسكرية . وقد حصل بعضهم على رتبة الباشوية والبعض الآخر على رتبة البكرية وازدان بهم حكم محمد على(٣) ، وما تلاه من عهود .

* * *

---

(١) Gabriel, Baer; Ali Mubarak's Khitat as a Source for the History of Modern Egypt.

وقد نشرت هذه الدراسة فى المجلد الذى أشرف على إخراجه الأستاذ هولت P.M. Holt فى لندن سنة ١٩٦٨ بعنوان Political and Social Change in Modern Egypt.., pp. 13-27.

ومؤلف هذا البحث يشغل منصب أستاذ تاريخ الدول الإسلامية بمعهد الدراسات الآسيوية والإفريقية بالجامعة العبرية بالقدس .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : الخطط التوفيقية لعلى مبارك ، تراث الإنسانية ، المجلد الرابع ، العدد ١١ ، ص ص ٨٤٩ - ٨٩٣ . الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

(٣) الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص ٣٨٢ - ٤٣٨ .

الفصل السابع والعشرون

تجميد التعليم فى الأزهر

كان أخطر قضية واجهها إبان حكم محمد على

ازدواجية نظام التعليم فى مصر :

كان إبعاد الأزهر كجامعة ، إبان حكم محمد على ، عن دائرة الضوء بعدم تحديث التعليم فيه ، أخطر قضية واجهها الأزهر عبر تاريخه الطويل لا يعادلها إلا ما لقيه الأزهر من اضطهاد وتعنت فى أثناء حكم الدولة الأيوبية (١١٧١ – ١٢٥٠ م) حين اندفع سلاطينها وأمراؤها وكبار موظفيها ونساؤها فى إنشاء مدارس أو كليات ذات كثرة عددية وافرة ، فبلغ عددها فى القاهرة خمساً وعشرين كلية للدراسة المذاهب السنية الأربعة طمساً للمذهب الشيعى الذى كان مقره الأول الأزهر كجامعة ، حتى استعاد مكانته جامعاً وجامعة فى خلال السنوات الأولى من قيام حكم دولة المماليك البحرية حسبما ذكرنا (١)! أما محمد على فأنشأ بدوره العديد من المدارس العليا لتدريس المواد الحديثة على النسق الأوروبى . وكان من نتائج سياسته أنه أوجد ما عُرف بمصطلح « ازدواجية نظام التعليم فى مصر » (٢) : الأزهر كموطن للدراسات القديمة الدينية واللغوية ، وهو

---

(١) انظر فى هذه الدراسة ، ج ١ ، ص ص ٩٢ – ١٠٩ ، وص ص ١١١ – ١١٣ ، وص ص ١٣٥ – ١٣٦ .

(٢) تطلق المراجع الفرنسية على هذا النظام الازدواجى «

La Dualité du Système Instructionnel en Egypte.

بينما تطلق المراجع الإنجليزية عليه :

The Bifurcation in the Egyptian Educational System.

ما كان موجوداً من قبل ، ثم النظام التعليمى الحديث ، وهم أركانه المدارس العليا التى أنشأها لتعليم الهندسة ، والطب البشرى ، والطب البيطرى ، والصيدلة ، والكيمياء ، والتعدين ، والزراعة ، والنظم السياسية والمحاسبة ، والعلوم العسكرية البرية والبحرية ، بالإضافة إلى البعثات العلمية التى أوفدها إلى دول أوروبا منذ سنة ١٨١٣ حتى سنة ١٨٤٨ .

موقف بعض المؤرخين :

وقد ساق بعض المؤرخين المصريين المحدثين. تفسيرات اجتهادية ، أو بعبارة أكثر دقة ، تبريرات لموقف محمد على السلبى من قضية التعليم فى الأزهر . وكانوا فى تعليقاتهم طرائق قدداً .. عمد بعضهم إلى تحميل محمد على المسئولية كاملة ، وألقاها البعض الآخر على علماء الأزهر ، ووقف البعض الثالث موقفاً « دبلوماسياً » مهادناً لمحمد على أملته الرغبة فى عدم إغضاب الملك فؤاد الأول والملك فاروق الأول . وهى سياسة درج عليها معظم الباحثين أيام حكم أسرة محمد على أو الأسرة العلوية كما كان يحلو لهم تسميتها . وكان من بينهم على مبارك باشا وأمين سامى باشا . ونحاول فى هذه الدراسة ، وهى دراسة علمية موضوعية محايدة ، أن نناقش آراء أربعة من المؤرخين طبقاً للترتيب الزمنى لظهور مؤلفاتهم ، ونوضح أوجه الصواب أو التحامل فيها على الأزهر . أما الباحثون الأجانب فكانوا فى مجموعهم متحاملين على الأزهر حسبما ذكرنا فى الفصل السابق . وأولئك المؤرخون هم الأساتذة : عبد الرحمن الرافعى (١٩٣٠) ، وأحمد عزت عبد الكريم (١٩٣٨) ، ومحمد عبد الله عنان (١٩٤٢) وجمال الدين الشيال (١٩٥٠) .

١ — الرافعى :

يقول الرافعى « ومما زاد فى تضاؤل نفوذ العلماء أن الأزهر ظل على نظامه القديم ، ولم يساير حركة التقدم والإصلاح التى نهض بها محمد على باشا فانتقل مركز الثقافة من الأزهر إلى المدارس والمعاهد والبعثات ، وانكمش

العلماء ولم يشتركوا فى حركة التجديد والإنشاء فى مختلف نواحيها ، فعجزوا عن الاشتراك فى حروب مصر ، أو فى إدارة حكومتها ، أو فى سياستها. وأعمال العمران التى قامت بها .. وبديهى أن انعكافهم على المسائل الدينية وعجزهم عن الاشتراك فى الأعمال العامة التى تمت فى عصرهم ، كل ذلك كان له أثره فى تضاؤل نفوذهم وإضعاف كلمتهم ، إذ ما من شك أن الفئة التى تخرجت فى المدارس الحربية والبحرية ، أو العلمية والهندسية هى التى اضطلعت بالأعمال العامة سواء فى خارج مصر ، أو فى داخلها ، وهم بحكم توليهم عبء الجهاد وسياسة الحكم وحملهم لواء النهضة ، قد امتازوا على طبقة العلماء وحجبوها بما نالوه من السلطان والنفوذ .. » .

ويقول بعد ذلك فى ذات الموطن « إن يد الإصلاح التى تناولت التعليم والإدارة والرى والحربية والبحرية لم تمتد إلى الأزهر ، بل تركه محمد على كما كان على نظامه القديم ، ولعل السبب فى ذلك أنه خشى أن يثير سخط العلماء والجماهير إذا هو عرض لنظام التعليم فيه ، أو أقدم على إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمى الحديث ، أو لعله لم يجد من بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ، ويعهد إليهم بها . ولو أنه وجد من بينهم مثل السيد جمال الدين الأفغانى أو الشيخ محمد عبده ، لنهض الأزهر منذ نيف وثمانين سنة نهضة علمية واجتماعية تؤتى أبرك الثمرات ، ولكن محمد على لم يفكر فى إصلاح الأزهر ، ولا فكر فيه علماؤه وأقطابه ، فوقفت حركته وانتقلت النهضة العلمية إلى المدارس النظامية التى أسسها محمد على » (١) .

وردنا على آراء الرافعى يتلخص فى النقاط الآتية :

أولا : حصر الرافعى ، فى الفقرة الأولى ، المسئولية فى بقاء الأزهر على نظامه القديم ، وفى ابتعاد علمائه عن محاولات التجديد فى مختلف نواحيها ، على علماء الأزهر وحدهم . وفى الفقرة الثانية أشرك معهم

---

(١) الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

محمد على فى هذه المسئولية . والواقع أن هذا الحاكم يتحمل القسط الأكبر من هذه المسئولية ، لأنه هو الذى أراد لعلماء الأزهر هذا الموقف السلبى ، وما ترتب عليه من نتائج حرص الرافعى على الإفاضة فيها .

ثانياً : كان من بين مشايخ الجامع الأزهر وكبار علمائه إبان حكم محمد على ، فئة مهما كان عدد أفرادها قليلا ، كانوا من ذوى الآراء التقدمية . نعوا على الأزهر جموده وتخلفه . وكانوا من أنصار إدخال المواد الحديثة فى الأزهر وقد ذكرنا بعضاً منهم مثل المشايخ محمد أحمد العروسى ، حسن العطار ، وكانا شيخين للجامع الأزهر ، وأحمد التميمى ورفاعة رافع ، والهورينى ، والتونسى .. وعلى ذلك فقول الرافعى إن محمد على لم يجد بين علماء الأزهر من يضطلع بتلك المهمة قول بعيد عن الحقيقة ، لأنه لم يمد يده إلى العلماء الراغبين فى إدخال بعض المواد الحديثة فى برامج الدراسة فى الأزهر .

ثالثاً : إن إشارة الرافعى إلى السيد الأفغانى والشيخ محمد عبده هى إشارة فى غير محلها . فقد تبوأ هذان المصلحان الجليلان مكانتهما السامية على عهد الخديو اسماعيل وعهد الخديو توفيق ، والمقارنة غير مُحكمة ، فهى افتراضية ، ولا تدخل الافتراضات فى الدراسات التاريخية المنهجية . والأهم من ذلك ، أنهما بلغا مكناً علياً فى عصر غير عصر محمد على بعد أن خطت البلاد خطوات واسعة وسريعة فى سبيل التقدم والتطور والعمران إبان حكم اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) . ومن المبادىء المقررة فى مناهج البحث التاريخى أنه فى مقارنة أحداث وقعت فى عصر سابق بأحداث تلاحقت فى عصر لاحق ، يجب أن توضع فى الاعتبار الأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لكلا العصرين حتى يخلص الباحثون إلى رأى صحيح وسليم قدر الاستطاعة . ولم يلتزم الرافعى بهذه القاعدة ، ولا يمكن أن نرميه بجهل هذه القاعدة المنهجية ، فقد اعترف بها صراحة ، وهو يختم تأريخه لمحمد على ، إذ قال « فلأجل أن نحكم على عظيم من العظماء ،

أو على عصر من العصور ، يجب علينا أن ندرس الرجل فى مجموعه ، والعصر بأكمله ، ثم نقارن بين ذلك العصر والعصر الذى سبقه ، ثم الذى تلاه ، وبذلك يكون الحكم صحيحاً ، والرأى فيه سديداً .. » (١)

وقد تجاهل الرافعى التطورات العميقة والبعيدة الأثر التى وقعت إبان حكم إسماعيل فى مجالات السياسة والتعليم والثقافة والمواصلات وغيرها . وحسبنا أن نذكر هنا المعالم البارزة لهذه التطورات . شهدت أداة الحكم إنشاء مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٣ ، وظهرت فى نفوس أعضائه روح المعارضة وأسدوا خدمات جليلة للشعب . ونالت مصر مزيداً من الامتيازات من الباب العالى تضمنها الفرمان الشامل سنة ١٨٧٣ ، وبدأ نظام الوزارة المسئولة سنة ١٨٧٨ . وفى مجال التعليم انتشرت المدارس الابتدائية فى أنحاء البلاد من الإسكندرية إلى المنيا ، ونُظمت المكاتب الأهلية تحت إشراف الحكومة . وأنشئت المدارس الثانوية والعليا ، فقامت مدرسة دار العلوم لإعداد مدرسى اللغة العربية ، ومدرسة للحقوق والألسن والإدارة ، ومدرسة اللسان القديم (الآثار واللغات القديمة) ، واتسع نطاق البعثات العلمية إلى أوروبا ، وبلغ عدد الطلاب المبعوثين ٢١٨ طالباً تلقى أكثرهم العلم فى فرنسا . ولقيت مدارس الجاليات الأجنبية ومدارس البعثات التنصيرية تشجيعاً مادياً ومعنوياً من جانب اسماعيل الذى كان يطلب من الهيئات الإدارية المحلية أن تمد يد المساعدة للقائمين على أمرها ، لأنها « من الأمور التى تجب المساعدة فيها » (٢) . وشهدت هذه الحقبة أولى المحاولات لإصلاح الأزهر والنهوض بشئون الدراسة فيه ، فأُلغى سنة ١٨٧٢ نظام الإجازات الذى كان معمولا به فى الأزهر ، واستبدل به نظام جديد صدرت به لائحة الشيخ المهدى العباسى لمن يبغى التصدى للتدريس فى الأزهر .

---

(١) المرجع السابق ، الفصل السادس عشر : شخصية محمد على والحكم على عصره ، ص ص ٥٠١ — ٥٠٩ ، والمتن الذى ذكرناه موجود فى ص ٥٠٩ .

(٢) جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ، ص ٣٨ .

وفى مجالات الثقافة أنشئت مؤسسات ثقافية كدار الكتب ، وقاعة المحاضرات العامـــة ، ومعمل الطبيعة بسراى درب الجماميز ، وأعيد تنظيم المتحف المصرى ببولاق ، وأنشـــئت دار الآثار العربية ، والجمعية الجغرافية ، وجمعية المعارف ، ودار الأوبرا ... وغيرها . وانتشرت الكتب المؤلفة والمترجمة بين الناس بعد أن انتعشت حركة التأليف والترجمة .

وأهم من ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، أعانت الصحف على يقظة الرأى العام . وقد قفزت أعدادها ، وتعددت أغراضها ، وتنوعت فنونها . فبعد أن كانت مقصورة على « الوقائع المصرية » وهى الجريدة الرسمية للحكومة ، ظهرت الصحف السياسية مثل وادى النيل والأهرام والوطن ، والصحف السياسية الهزلية مثل « أبو نضارة » والصحف العلمية مثل : « يعسوب الطب » والصحف الأدبية مثل « روضة المدارس » . وقد أورد الدكتور سامى عزيز ثلاث إحصائيات ، أولاها بأسماء ثلاث وثلاثين صحيفة مصرية صدرت فى السنوات العشر قبل الاحتلال البريطانى (١٨٧٢ — ١٨٨٢) ، وسنوات إصدارها ، وأسماء رؤساء تحريرها ، واتجاهها السياسى . وكانت جميعها صحفاً سياسية ما عدا واحدة عسكرية وأخرى أدبية .. أما الإحصائية الثانية فتشمل أسماء الصحف المصرية التى صدرت فى السنوات العشر الأولى من الاحتلال (١٨٨٢ — ١٨٩٢) . وكان عددها ثلاثاً وخمسين صحيفة ، منها ١٢ صحيفة سياسية ، والباقى علمية وأدبية وفكاهية وقضائية واجتماعية وتجارية وطبية وزراعية ودينية مسيحية . وعلى غرار ما فعل فى الإحصائية الأولى ، ذكرت الإحصائية الثانية البيانات التى جاءت فى الأولى . أما الإحصائية الثالثة ، فكانت مقارنة إجمالية بين صحف ما قبل الاحتلال وما بعد الاحتلال(١) .

---

(١) سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال البريطانى ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ص ٣٤٤ — ٣٤٨ .

وكان هناك عامل آخر ساعد على سهولة وازدياد اتصال المصريين بعضهم ببعض مما عاون على خلق رأى عام يتابع الأحداث على الرغم من بعد المسافات . ونعنى بهذا العامل التوسع فى مد السكك الحديدية ، فقد بلغ طول السكك الحديدية التى مدت فى عصر إسماعيل ١,٢٠٠ ميل فى الوجهين البحرى والقبلى ، وتعميم أسلاك البرق فى شتى البلاد ، وإنشاء مصلحة بريد تابعة للحكومة ، لها مكاتب فى الإسكندرية والقاهرة والأقاليم بلغ عددها ٢١٠ مكتباً ، وشقت عديد الترع وكان من أهمها ترعة الإسماعيلية وترعة الإبراهيمية .

ومن الناحية الاجتماعية شهد عصر اسماعيل نشاطاً مكثفاً فى حركة التعمير والإنشاء فى القاهرة والإسكندرية وبعض المدن بحيث تغير وجه البلاد . شقت فيها شوارع وميادين وأحياء جديدة ، وأضيئت الشوارع فى الإسكندرية والقاهرة بغاز الاستصباح ، ومدت أنابيب المياه فى أحياء المدينتين لتوزيع الماء العذب بعد أن كان يحمله السقاءون فى القرَب ، وبنيت حمامات حلوان لما تبين من مزايا مياهها المعدنية الكبريتية ، وأنشىء خط حديدى يصلها بالقاهرة ، وأقبل المصريون على سكنى هذه الضاحية . وأنشىء الطريق المعبد بين القاهرة وأهرام الجيزة ، وأقيم فى القاهرة كوبرى قصر النيل وكوبرى البحر الأعمى (كوبرى الجلاء حاليا) . وفى الإسكندرية عُمرت ضاحية الرمل وأصبحت المدينة مصيفاً ، وأنشئت حديقة النزهة على ضفاف ترعة المحمودية ، وجعلت منتزهاً ، وشيدت سراى الحقانية واتخذت مقراً لمحكمة الاستئناف المختلطة والمحكمة المختلطة الابتدائية يجلس فيها قضاة مصريون إلى جانب القضاة الأجانب . وشُيد عديد القصور مثل سراى عابدين ، وسراى الجزيرة ، وسراى الجيزة ، وسراى بولاق الدكرور ، وقصر القبة ، وقصر حلوان ، وسراى الاسماعيلية ، وسراى الزعفران بالعباسية ، وسراى الرمل بالإسكندرية ، وجُدّد القصر العالى

وقصر النزهة بشبرا ، وسراى المسافرخانة ، وقصر النيل ، وأنشئت قصور أخرى فى مختلف البنادر كالمنيا ، والمنصورة ، والروضة .

هذه العوامل مجتمعة جعلت عصر اسماعيل يختلف اختلافاً جذرياً فى شتى المجالات عن عصر محمد على الذى أراد الرافعى أن يقيس به عصر محمد على .

رابعاً : أرجع الرافعى موقف محمد على السلبى من الأزهر إلى خشيته من إثارة سخط العلماء والجماهير إذا هو أقدم على إصلاح الأزهر وجعله يساير حركة التقدم العلمى الحديث .. وهذا تبرير أكثر منه تفسير ، لأن محمد على لم يكن يخشى أحداً ، فهو الذى قضى على الزعامة الأزهرية فى مستهل حكمه ، وعزل اثنين من نقابة الأشراف ونفاهما خارج القاهرة ، وهو الذى تهدد الشعب بقطع الرقاب بحد السيف فى أزمة عمر مكرم كما مر بنا ، وهو الذى ارتكب مذبحة المماليك .

٢ — أحمد عزت عبد الكريم :

يقول عزت « إن الدرس الذى تلقاه محمد على حين حاول تنظيم فرقه الألبانية طبقاً للنظم الحربية الأوروبية ، فثاروا عليه ، واضطروه إلى انتهاج خطة أخرى على أساس جديد ، قد يكون هذا الدرس قد أفاده حين بدأ يضع نظامه التعليمى الحديث ، فخشى إثارة حفيظة العلماء وما يتبع ذلك من تهييج الشعور الدينى فى العامة ومن إليهم من سواد الناس . ولم يكن محمد على يريد أن تقوم عقبات من هذا النوع فى طريقه . وحسبه ما يلقى من العقاب فى نواح أخرى ، لهذا ترك التعليم القديم لأصحابه .. » .

وأكد هذا المعنى مرة أخرى إذ يقول « كان محمد على يدرك النفوذ الذى يتمتع به الأزهر وعلماؤه فى مصر والعالم الإسلامى : إذ كان مهبط التفقيه فى الدين للمسلمين الضاربين فى أقطار الأرض ومصدر النور الذى

ييممون شطره ليهديهم إلى الحق والخير . وكان يعلم أن تحويل الأزهر عن أداة لتبليغ الرسالة الدينية التى أنشىء لتبليغها إلى أداة مدنية مرنة فى يد الحكومة تشكلها على ما تشاء ، لم يكن مما يجذب إليه الرأى العام الإسلامى ويحببه إليه ، ولم يكن محمد على يميل إلى أن ينفر عنه جمهرة المسلمين وخاصتهم » .

ويطرح عزت عدة تساؤلات : هل فكر محمد على فى هذه العوامل تفكيراً جديا وانتهى به التفكير إلى أن يترك الأزهر يتابع سبيله الذى اتخذه من قرون ، وأن ينشىء نظاماً جديداً على أسس جديدة ؟ .. وهل قدر النتائج التى قد يتعرض لها إذا حاول تنظيم الأزهر وتوابعه على النحو الذى يحتق له أغراضه ، فهداه تفكيره إلى أن يترك نظامى التعليم القديم والحديث يحييان جنباً إلى جنب ؟ أم كان ذلك منه سياسة غير مقصودة لم يملها التفكير والتقدير ، وإنما أملتها محض الصدفة والظروف ؟ .. وبدلا من أن يجيب عن هذه التساؤلات ، يقول سواء أكان الإبقاء على التعليم القديم فى الأزهر وإنشاء معاهد التعليم الحديث بجانبه سياسة مقصودة أم كان سياسة غير مقصودة فقد عاش النوعان من التعليم جنباً إلى جنب .

ثم يطرح عزت تساؤلات جديدة هى : هل احتكرت حكومة محمد على التعليم فى مصر ؟ كما احتكرت حكومة نابليون (الأول) التعليم فى فرنسا ؟ وهل أصبح التعليم فى مصر وظيفة من وظائف الدولة تقوم به وحدها ، كما تقوم بمرفق القضاء وإعداد الجيش والأسطول ، فتنظم التعليم كما تشاء ، وتنشىء من معاهدة ما ترى فيه سبيلا لتحقيق أغراضها ؟ وهل جعلت حكومة محمد على معاهد التعليم جميعها فى يدها ، ورفضت أن تقوم فى البلاد هيئات أخرى تنازعها تربية أبناء البلاد ؟ ..

ويجيب هذا المؤرخ عن هذه التساؤلات الجديدة فيقول إن حكومة

محمد على لم تحتكر جميع معاهد التعليم فى مصر فى يدها ، بل تركت التعليم فى الأزهر وروافده فى أيدى فئة من الناس ينفذون ما يشاءون ويأخذون الطلبة والتلاميذ بألوان خاصة من الدراسة ، وأخذت فى قبضتها نوعاً آخر من التعليم هو التعليم الحديث ، لأن هذا التعليم هو « الجدير بعنايتها والخليق بأن تقوم به وحدها » استناداً إلى أن التعليم الحديث يحقق الأغراض التى توختها ، وهى إعداد الموظفين الفنيين لتنفيذ مشروعات فى شتى المجالات . ولهذا لم تتدخل الحكومة فى تطوير التعليم فى الأزهر وتجنبت أن تضع له نظاماً على الرغم من أنه كان يجتذب إليه شطراً كبيراً من شباب المدن وصبية القرى . ثم استطرد يدافع عن احتكار محمد على التعليم الحديث قائلا لم يكن التعليم الحديث وحده هو الذى احتكرته حكومة محمد على ، بل لقد احتكرت جميع مرافق البلاد ، وأهمها مواردها الاقتصادية ، ويقول « والواقع أن البلاد التى تقاسى من فشو الأمية فيها والتى ما تزال ترقى أولى درجات الحضارة تحتاج إلى زعامة قوية مستنيرة توجه القوات الكامنة فيها إلى طريق الحضارة . وهى لا يمكنها ذلك إلا إذا استغلت مرافق الدولة جميعاً لتنفق منها على أبواب النشاط الاقتصادى والتعليمى والحربى بالقدر الذى يستحقه كل منها . والاحتكار هو السبيل إلى هذا الاستغلال . ويختم آراءه بقوله « وهكذا مكن احتكار حكومة محمد على التعليم الحديث من إنشاء معاهده ، ومن تحقيق الأغراض التى توختها منها الحكومة ، ومن بقاء هيكل التعليم سليماً حتى نهاية عصر محمد على ، ومكنها فوق ذلك من منافسة التعليم القديم ، بعد أن كانت معاهده وحدها المشرفة على تربية أبناء البلاد الراغبين فى العلم . ولو لم يكن للحكومة هذا السلطان القوى فى شئون التعليم لعجزت عن أن تدفع التلاميذ إلى مدارسها على الرغم من إهمال الحكومة شأن التعليم القديم والتهوين من مقامه ، وقصر غايتها وعطفها وأموالها على شئون التعليم الحديث » .. ثم يمضى فيقول إنه على الرغم

من هذه المعوقات « ظل التعليم القديم قوياً يجتذب إليه عدداً من التلاميذ أكبر مما تجتذبه مدارس الحكومة » (١).

وتعليقنا على هذه الآراء يتلخص فى النقاط الآتية :

أولا : ليس هناك ، على أى نحو من الأنحاء ، وجه للمقارنة بين الجنود الألبانيين وعلماء الأزهر ، فالأولون كانوا قوات عسكرية فُطرت على التمرد والفوضى وارتكاب عمليات السلب والنهب من الشعب ، وأوتيت من أسباب القوة القتالية ما جعلها خطراً تهدد حياة محمد على الذى اضطر سنة ١٨١٥ إلى الهرب فى هزيع الليل من قصره فى الأزبكية إلى القلعة ، وسلك إليها طريقاً آخر ، هو طريق الناصرية ومرمى النشاب ، ودخل القلعة من طريق باب الجبل خوفاً وهلعاً ، واتخذها معقلا له وسط أبراجها ومدافعها وقوة من جنود طاهر باشا الموالين له ، بعد أن نقل إلى القلعة أمتعته الثمينة وخزائنه التى كانت فى قصر الأزبكية . وقد استمرت فتنة الجنود الألبانيين سبعة أيام تعرض فيها الشعب لألوان من الإيذاء حتى نسى الناس الاحتفال برؤية هلال شهر رمضان لسنة ١٢٣٠ ، ومن المعروف أن العسكريين هم الذين يقومون عادة بالانقلابات العسكرية فى الدول التى تُبتلى بحكم العسكريين إذا نجحت بعض هذه الانقلابات . وكان أمام محمد على مثال مروع حدث فى إستانبول سنة ١٨٠٧ ، وهو ما يعرف فى تاريخ الدولة العثمانية باسم « مذبحة ميدان سباق الخيل Hippodrome Massacre » حين قامت حشود عسكرية مساعدة تسمى « يَمَك » ، تحت قيادة كاباكشيو-شيوجلو مصطفى ، بالزحف على إستانبول ، وكان معه كشف يحوى أسماء أنصار

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ص ص ٥٥٩ — ٥٦٦ .

(٢) انظر تفصيلات ضافية عن هرب محمد على إلى القلعة فى : الجبرتى ، ج ٤ ، يوميات شهر شعبان ١٢٣٠ ، ص ص ٢٢١ — ٢٢٥ .

الإصلاح الذى قام به السلطان سليم الثالث ، وهاجمهم مع اليَمَك وجموع الشعب الصاخب وقتلوا بعضهم فى منازلهم ، وساقوا البعض الآخر إلى ميدان سباق الخيل حيث ذبحوهم .. وأعقب هذه المذبحة استصدار فتوى من شيخ الإسلام فى ٢٩ مايو سنة ١٨٠٧ بوجوب عزل سليم الثالث « دفاعاً عن الدين الإسلامى ورعاية لمصلحة البيت العثمانى الحاكم » ثم قتل هذا السلطان سنة ١٨٠٨ ، ولم يكن لهذه المذبحة والعزل والقتل تأثير على السلطان محمود الثانى الذى تولى العرش فى ٢٨ يوليو ١٨٠٨ .

أما علماء الأزهر فكانوا يتسمون بالهدوء والوداعة ، ولم تكن لديهم الوسائل الحربية التى تزعج محمد على فى مركزه أو فى حياته . وقد عبث محمد على بكراماتهم أكثر من مرة فى مستهل حكمه حين حدّد إقامة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى داره لا يبرحها حتى ولو أراد الخروج لأداء صلاة الجمعة .. وعزل عمر مكرم كبير الزعامة الأزهرية من نقابة الأشراف ونفاه إلى دمياط ، وعبث بكرامة الشيخ محمد السادات عقب وفاته ، وأمر جنوده بتفتيش داره وحفر أرضها بحثاً عن مدخراته المالية ، وعزل الشيخ محمد الدواخلى من نقابة الأشراف ونفاه إلى المحلة الكبرى ورفض الاستجابة لتوسلاته المكرورة بالسماح له بالعودة إلى القاهرة بسبب مرضه وليقضى فيها بقية حياته بين أفراد أسرته . ولم يعبأ محمد على بمشاعر العلماء أو طلبة الأزهر أو سائر أفراد الشعب ، إذ اطمأن إلى استكانتهم لتصرفاته .. وكان للجبرتى تعليق لاذع حين عاد هذا الباشا من الحجاز فى يونيو ١٨١٥ وأعلن أنه تاب عن الظلم فقال الجبرتى : فصدّقه المغفلون » .

ثانياً : يردد عزت التبرير التقليدى دفاعاً عن محمد على ، وهو حرص هذا الحاكم على تجنب إثارة الرأى العام فى مصر ، وقد ناقشنا هذا التبرير عند تعليقنا على ما ساقه الرافعى من مبررات . وقد زاد عزت على هذا المبرر قوله إنه كان يخشى إثارة الرأى العام فى العالم الإسلامى قاطبة ، وهو تزيد .

ثالثاً : أما التساؤلات الأولى التى طرحها حول الأصول الفكرية التى أوحت لمحمد على بازدواجية نظام التعليم ، وعما إذا كانت هذه الازدواجية نتاج سياسة تفكير جلى فى عواقب هذا الإجراء ، أو جاءت عفو الخاطر أملتها الصدفة المحضة ، فلم يحاول الإجابة عن هذه التساؤلات ، بل قنع بتقرير حقيقة واقعة ومعروفة للجميع ، وهى ازدواجية نظام التعليم .

رابعاً : أما المجموعة الثانية من تساؤلاته ، وهى : هل احتكر محمد على التعليم فى يده كما احتكر نابليون التعليم فى فرنسا ، بحيث أصبح التعليم فى مصر وظيفة من وظائف الدولة تقوم به وحدها كسائر مرافق الدولة ؟ فيجيب عنها إجابة معروفة للجميع أيضاً ، وهى أن محمد على لم يحتكر جميع معاهد التعليم ، وأخذ فى قبضته التعليم الحديث تأسيساً على أن هذا التعليم يحقق أهدافه فى السياسة التعليمية وفى تنفيذ مشروعاته المتعددة الجوانب والمجالات فى إنشاء الجيش والأسطول والزراعة والصناعة والصحة وما إلى ذلك

خامساً : يذكر عزت أن التعليم الحديث مكّن محمد علىّ من منافسة الأزهر ، ونحن بدورنا نتساءل هل كانت هذه المنافسة هدفاً من أهداف محمد على ؟ فإذا كان هذا الهدف صحيحاً ، فإنه يتعارض تعارضاً صارخاً مع ما ذكره عزت من أن محمد على كان حريصاً على تجنب إثارة الرأى العام فى مصر والعالم الإسلامى ..

سادساً : يقحم عزت مسألتين دفاعاً عن سياسة محمد على التعليمية ، فيقول عن المسألة الأولى إن محمد على احتكر التعليم فى مصر كما احتكر نابليون التعليم فى فرنسا . والمقارنة هنا غير محكمة ، إذ شتان بين الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية فى فرنسا عقب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩

---

(١) الأمير عمر طوسن : البعثات التعليمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد ، ص ١١ ، ص ١٢ — ٢٢ ، ٥٤ — ٦٤ ، ٧٠ — ٧٢ ، ٧٣ — ١٠١ ، ١٧٢ — ١٧٣ ، ٣٧٨ — ٣٧٩ .

وبين مثيلاتها فى مصر فى ذات الوقت . وحسبنا أن نشير هنا إلى أن فرنسا كانت فى مقدمة الدول الأوروبية ، بعد إيطاليا والتى انصرف عنها بعد فترة وجيزة — التى تطلع إليها محمد على لاقتباس العلوم والمعارف والنظريات السياسية والفنون العسكرية منها ، وأن معظم البعثات التى أوفدها إلى أوروبا كانت موجهة إلى فرنسا ابتداء من سنة ١٨١٨ ثم فى سنوات ١٨٢٦ ، ١٨٢٨ و١٨٢٩ ، ١٨٣٠ ، ١٨٣٢ ، ١٨٤٤ ، ١٨٤٧ . وكانت بعثة سنة ١٨٤٤ تسمى بعثة الأنجال أو الأمراء ، لأنها كانت تضم أربعة من أبنائه وحفدته .

سابعاً : أما المسألة الثانية التى يقحمها عزت دفاعاً عن محمد على احتكاره التعليم بحيث « أن التعليم فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان مرجع الأمر فيه إلى إرادة رجل واحد — وهذا القول ينطوى على خطأ لأن الأزهر كان لا يستوحى توجيهاً أو تدخلا من محمد على — فخاصة بنظام الاحتكار الذى اتخذه دعامة من دعائم سياسته فى الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والمواصلات وغيرها . ولا نريد أن نسترسل فى ذكر العيوب التى أسفر عنها هذا النظام الاحتكارى والتى ظهرت فى أثناء حكم محمد على وعانى الشعب منها أشد المعاناة ، فقد قلت السلع المعروضة فى الأسواق وارتفعت أسعار مواد المعيشة .. وانتهج محمد على سياسة تعسفية مع الفلاحين ، واضطروا إلى الهجرة من قراهم ، وخربت قرى عديدة بسبب هذه الهجرة .. أما الصناع الذين انتظموا فى مصانع الحكومة فقد عانوا مظالم متعددة سواء فى جمعهم أو فى دفع أجورهم أو فى معاملتهم . كما ساءت حالة الصناع فى الصناعات اليدوية الصغرى التى كانت موجودة من قبل بسبب نظام الاحتكار . وتراجعت طبقة التجار واضمحل شأنها بسبب احتكار محمد على التجارة الداخلية والخارجية ، وعادت ثمرة التجارة عليه وعلى الوسطاء الأجانب . ولم ينتفع من زيادة الحاصلات سوى الإسكندرية التى كان يصدر منها قطن مصر وحاصلاتها . أما المحلات التجارية فى القاهرة ودمياط ورشيد فقد هبط عددها عما كانت

عليه من قبل .. ويقول مانجا إن عدد التجار المصريين فى القاهرة قد تناقص إبان حكم محمد على(١) . ومما يلفت النظر ويؤيد هذا القول أنه لم يظهر فى ذلك العصر من التجار المصريين من تبوأ مكانة مرموقة مثل السيد أحمد المحروقى شاه بندر التجار وابنه السيد محمد المحروقى ، وهذا كله راجع إلى مساوىء نظام الاحتكار . وقد أسهب المؤرخون الأجانب المعاصرون لمحمد على فى ذكر هذه المساوىء وعدّوها أسود بقعة فى تاريخ محمد على لا تضارعها إلا مذبحة المماليك . ويقول مانجا « إذا صح أنه لا توجد فى العالم بلاد أغنى من مصر من الوجهة الزراعية ، فليس هناك بلاد أخرى أتعس منها سكاناً . وإذا بقى فيها العدد الذى بها من السكان (سنة ١٨٣٢) فالفضل فى ذلك يرجع إلى خصوبة أرضها وقناعة فلاحيها »(٢) . وفى الواقع إذا كانت الموارد المالية لحكومة محمد على قد زادت ، فإن أحوال الفلاحين والصناع والتجار كانت تدعو إلى الألم والإشفاق(٣) .

ثامناً : ليس صحيحاً ما يذكره عزت أن محمد على قد تأثر فى إنشاء المدارس الحديثة بحركة مماثلة فى تاريخ الدولة العثمانية . والخطأ يشمل ناحيتين شكلية وموضوعية ، أما الناحية الأولى فيقول إن السلطان عبد الحميد أصدر سنة ١٨٤٥ مرسوماً بإنشاء مدارس حديثة(٤)، والواقع أن السلطان الذى كان يحكم الدولة وقتذاك هو عبد المجيد الأول (١٨٣٩ — ١٨٦١) أما عبد الحميد فلم يذكر عزت هل هو عبد الحميد الأول أو عبد الحميد الثانى .. ومن المعروف أن السلطان عبد الحميد الأول حكم من سنة ١٧٧٤ إلى سنة ١٧٨٩ أى فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولم يكن محمد على قد جاء إلى مصر . أما السلطان عبد الحميد الثانى فقد تبوأ عرش الدولة سنة ١٨٧٦ ، وكان

---

(١) Mengin, F.; op. cit., t. 2, p. 227.

(٢) Loc. cit.; t. 2, p. 242.

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩٧ .

(٤) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ص ١٤٢ .

الموت قد طوى محمد على فى ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ قبل ارتقاء عبد الحميد الثانى العرش بسبع وعشرين سنة .. ومن المعروف تاريخياً أن السلطان عبدالحميد الأول أنشأ مدارس للمعلمين لإعداد مدرسين للمدارس الابتدائية.

أما من الناحية الموضوعية ، فإن تحديث التعليم فى الدولة العثمانية كان جزءاً أساسياً من حركة التنظيمات الخيرية ، وقد بدأت هذه الحركة إبان حكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) فى رأى ، وفى رأى آخر على عهد السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . ومهما كان تاريخ بداية هذه الحركة ، فإن السلطان سليم الثالث ولى اهتمامه بوجه خاص نحو تنظيم الجيش العثمانى على النسق الأوروبى الحديث ، أو ما سمى « النظام الجديد » . ولقى معارضة شديدة من الفرق الانكشارية ومن علماء الدين ، وانتهى الأمر بمذبحة ميدان سباق الخيل فى إستانبول فى مايو سنة ١٨٠٧ قامت بها فرق اليسمك حسبما ذكرنا ، واستصدر المعارضون فتوى من شيخ الإسلام بوجوب عزل السلطان وعزلوه سنة ١٨٠٧ ، وعينوا مصطفى الرابع سلطاناً سنة ١٨٠٧ ، ولكنه قتل فى العام التالى وفى ذات السنة التى قتل فيها سلفه ، وتولى السلطان محمود الثانى عرش الدولة فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٨ ، وكانت الحرب العثمانية الروسية قائمة ، ومنيت الجيوش العثمانية بهزائم فادحة مدة ثلاث سنوات متوالية من سنة ١٨٠٩ حتى انتهت الحرب بمعاهدة بوخارست (٢٨ مايو ١٨١٢) . وكان سكان الصرب قد قاموا بثورة سنة ١٨٠٤ بزعامة قره جورج طلباً للاستقلال عن الدولة العثمانية ، وظلت مشتعلة حتى سنة ١٨١٣ ، ثم تجددت ثورتهم بزعامة ميلوش سنة ١٨١٥ . وشُغِل محمود الثانى بإخضاع طبقة الأعيان فى الأناضول من سنة ١٨١٢ حتى سنة ١٨١٧ وبإخضاع طبقة الأعيان فى شمال بلاد الشام وأبلستان من سنة ١٨١٥ إلى سنة ١٨٢٠ ، وبالقضاء على أتباع الحركة السلفية المعروفة باسم الحركة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية والتى انتهت أولى مراحلها باستيلاء قوات محمد على بقيادة ابنه إبراهيم باشا على الدرعية عاصمة الوهابيين

فى أكتوبر سنة ١٨١٨ . وشُغِل السلطان بعد ذلك بالحرب التى أعلنها على فارس فى أكتوبر سنة ١٨٢٠ بسبب قيام الفرس بشن غارات على مناطق بغداد وشهرزور ، ومنيت فيها القوات العثمانية بهزائم ، وعقد اتفاق أرضروم فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٢٣ نظراً لاضطرار السلطان للتفرغ لمواجهة الثورة اليونانية التى اندلعت منذ سنة ١٨٢١ وما صحبها ولحقها من مشكلات سياسية وحربية مثل مؤتمر سان بطرسبرج الذى اقترح قيصر الروسيا إسكندر الأول عقده فى يونيو سنة ١٨٢٤ ، واتفاقية أبريل سنة ١٨٢٦ بين بريطانيا وقيصر الروسيا الجديد نقولا الأول (١٨٢٥ — ١٨٥٥) ، ومعاهدة لندن ١٨٢٧ ، ومحاصرة القوات العثمانية بواسطة أسطول دولى يقوده كودرنجتن نجح فى تحطيم الأساطيل العثمانية والمصرية والتونسية فى معركة نفارين فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ، وإعلان الروسيا الحرب على الدولة العثمانية فى أبريل ١٨٢٨ وإرغام محمد على باشا على الانسحاب من الموره ، وعقد معاهدة أدرنة فى سبتمبر ١٨٢٨ ، ثم منح اليونان الاستقلال التام سنة ١٨٣١ . وفى خلال الحرب اليونانية شغل السلطان بمحاربة الوالى الألبانى الثائر على باشا والى يانينا سنة ١٨٢٢ ، ونجح فى إبادة الفرق الانكشارية فى الجيش العثمانى سنة ١٨٢٦ وتشتيت شمل طائفة البكتاشية ، واحتلت فرنسا بلاد الجزائر سنة ١٨٣٠ فكانت أول نيابة فى شمالى إفريقية تسقط فى براثن الاستعمار الفرنسى .. وقضى على آخر حكام أسرة البوشاتلية فى ألبانيا وهو مصطفى باشا سنة ١٨٣٢ . وألقت حرب الشام الأولى (١٨٣١ — ١٨٣٣) ضد الجيش المصرى أعباءاً ثقالا على السلطان ، وهى الحرب التى انتهت باتفاقية كوتاهية (أبريل ١٨٣٣) ، وأعقبتها معاهدة هنكار إسكلسى التى عقدها قيصر الروسيا نقولا الأول مع السلطان محمود فى ٨ يوليو ١٨٣٣ ، وهى معاهدة دفاعية تعهدت فيها الدولتان بمساعدة الأخرى فى حالة هجوم على أراضى أى منهما لمدة ثمانية أعوام ، ثم نشبت حرب الشام الثانية سنة

١٨٣٩ وانتهت بهزيمة العثمانيين فى معركة نزيب (٢٤ يونيو ١٨٣٩) . ولم يلبث أن توفى السلطان فى أول يوليو سنة ١٨٣٩ قبل أن يبلغه نبأ الهزيمة إذ كان على فراش الموت ، فأسلم الروح دون أن يعلم بالكارثة العسكرية التى حلت بالدولة .

وهكذا تزاحمت على السلطان محمود الثانى عديد المشكلات الداخلية والخارجية ، حربية وعسكرية ، وسياسية ، إلى آخر أيام حياته .. ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أنه على الرغم من أن هذا السلطان كان غارقاً إلى أذنيه فى مواجهة هذه المشكلات العديدة على مستوى إمبراطورية شاسعة ، وجد أمامه من الوقت متسعاً لإدخال إصلاحات داخلية فى شتى المجالات العسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية بالقدر الذى استغرق وقته وجهده فى معالجة المشكلات الخارجية والداخلية . ويرى بعض المؤرخين أن حركة الإصلاحات الداخلية قد بدأت عقب القضاء على الفرق الانكشارية سنة ١٨٢٦ ، بينما يرى البعض الآخر أن السنوات العشر الأخيرة من حكمه هى التى شهدت نشاطاً ملموساً فى حركة الإصلاحات .. ويهمنا منها بطبيعة الحال حركة الإصلاح التعليمى التى قام بها السلطان محمود الثانى .

تاسعاً : بدلا من أن ينزلق عزت ، دفاعاً عن محمد على ، فى عقد مقارنة غير محكمة بين سياسة هذا الحاكم ونابليون فى احتكارهما التعليم ، وبدلا من أن يقحم عزت ، دفاعاً عن محمد على أيضاً ، سياسة الاحتكار التى انتهجها محمد على فى الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من المجالات ، وهى سياسة عارضها المصريون وألحقت بهم أضراراً بالغة ، وتهكموا عليها فأطلقوا عليها شتى النكات ، مثل كرنب الباشا ، ولفت الباشا ، وملوخية الباشا وفجل الباشا ، وقرنبيط الباشا (١) . وكانت النكات ولا تزال هى السلاح التقليدى للجماهير فى معارضتها للحكام يعبرون بها عن سخطهم ومعاناتهم . كان يجدر بعزت من باب أولى عقد مقارنة بين السياسة التعليمية التى

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٥٦ .

انتهجها كل من السلطان محمود الثانى ومحمد على . . فكلاهما كان معاصراً للآخر من ناحية ، وكان السلطان عاهل دولة إسلامية من ناحية ثانية ، وأنشأ كلاهما العديد من المدارس الحديثة مدنية وعسكرية من ناحية ثالثة ، وأوفد كلاهما البعثات العلمية إلى دول أوروبا من ناحية رابعة ، واستعان كلاهما بالمستشارين الأجانب فى المؤسسات التعليمية من ناحية خامسة ، وتماثلت أهداف كل منهما من سياستهما التعليمية من ناحية سادسة ، وتأثر كل منهما بالآخر فى السياسة التعليمية من ناحية سابعة .

كان السلطان محمود الثانى قد بدأ فى إصلاح الجيش ، لأنه كان يضمر التخلص من فرق الإنكشارية فى معركة سافرة أخلاقية بدلا من طريقة الغدر والخيانة والخسة التى اتبعها محمد على سنة ١٨١١ فى التخلص من المماليك فى مذبحة القلعة . فلما قضى السلطان على الإنكشارية سنة ١٨٢٦ مضى قدماً فى تدعيم النظام العسكرى الجديد «عساكرـى منصورهـ ى محمودى ـ ى» وأصدر فى صيف سنة ١٨٢٦ قانوناً تضمن عدّة لوائح لتنظيم الجيش الجديد واتسع المجال أمام السلطان بعقد معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٨ .

ولم يكن الطريق أمام السلطان معبداً ميسراً ، فقد واجه معارضة داخلية من عامة الشعب أول الأمر بسبب الإجراءات المالية والاقتصادية العنيفة التى تطلبتها الحروب العديدة التى خاضتها الدولة ، وبسبب الهزائم العسكرية والخسائر الإقليمية التى منيت بها تباعاً .. فقامت ثورات أو انتفاضات فى الأناضول والبوسنة ومقدونيا والعراق . ولكن استطاع السلطان أن يستخدم باكورة الجيش الجديد فى التصدى لهذه الثورات أو الانتفاضات .. ووقف علماء الدين أول الأمر موقفاً محايداً ، إذ تضاءل نفوذهم بعد أن قضى السلطان على الإنكشارية ، وشتت شمل أتباع الطريقة البكتاشية ، ومحق نفوذ الأعيان وقوات الدره بكرات (أمراء الوديان) فى الولايات البلقانية والأناضولية . ولم تبق فى الدولة قوات عسكرية سوى قوات العساكر المنصورة بحيث

لم يعد السلطان يخشى غضبة عامة الشعب . وأصبح الطريق أمامه شبه ممهد لإصلاح الجيش والمضى فى سياسته التعليمية وإدخال سائر الإصلاحات .

ولكن كان أكبر العقبات التى واجهها السلطان فى إصلاح الجيش هو حاجته إلى مدربين لتعليم الجنود ، وإلى ضباط عثمانيين من ذوى المستوى الرفيع ، وإلى أطباء ومهندسين وغيرهم من ذوى التخصصات لخدمة الجيش والأسطول . أما تجنيد جنود جدد وتزويدهم بالأسلحة الحديثة فأمكن تذليل العقبات . وكان السلطان قد تطلع إلى محمد على فى مصر بسبب نجاحه فى إنشاء جيش وأسطول مصريين ، فطلب منه سنة ١٨٢٦ أن يزوده بإثنى عشر مدرباً مصرياً للجيش العثمانى . واعتذر محمد على عن عدم تلبية طلب السلطان بعدة أعذار . ولجأ السلطان ، كما لجأ محمد على من قبل ، إلى أوروبا . وأصبح تقليد السلطان لمحمد على سياسة مقررة اتبعها السلطان ووزراؤه فى إصلاح الجيش والسياسة التعليمية ومعظم الإصلاحات الداخلية الأخرى .

اتجه السلطان محمود الثانى إلى إنجلترا التى وافقت سنة ١٨٣٥ على إلحاق بعض طلبة أتراك بكلية وولوتش العسكرية « Woolwich » ، كما وافقت على إرسال ثلاثة ضباط إنجليز للمساعدة فى إعادة تنظيم الجيش . وأرسلت أيضا بعثة عسكرية بحرية سنة ١٨٣٨ ، ولكنها لم تصادف نجاحاً بسبب نفوذ الروسيا فى إستانبول ،وكانت تعارض أى تقارب بين الدولة العثمانية وإنجلترا . واتجه السلطان أيضاً إلى بروسيا ، فوافقت على أن ترسل قائداً قديراً هو فون مولتكه « Helmuth von Moltcke » ، بلغ إستانبول فى أواخر ١٨٣٥ وقضى فيها أربع سنوات . وكانت إقامته فى إستانبول حافزاً للسلطان على الاتجاه إلى بروسيا والنمسا يطلب إليهما إرسال ضباط إليه وإلحاق طلبة أتراك بأكاديمياتهما العسكرية . فأرسلت بروسيا خمسة ضباط .. ووافقت النمسا على إلحاق عدد قليل من الطلبة الأتراك فى فينا . وعلى الرغم من ضآلة حجم المساعدة التى حصل عليها السلطان ، فإنها كانت بداية هامة لنفوذ

الألمانى القوى الذى تهيأ لألمانيا ، بعد إتمام الاتحاد الألمانى سنة ١٨٧١ ، على القوات المسلحة العثمانية والتقاليد العسكرية العثمانية بحيث أصبح هذا النفوذ ظاهرة واضحة فى التاريخ العسكرى العثمانى .

أما فيما يختص بحاجة الجيش إلى ضباط من ذوى المستوى الرفيع ، فكانت توجد أعداد قليلة من ضباط أوروبيين فى سلاح المدفعية وسلاح المهندسين ، وكانت عامة الشعب تنظر إليهم شذراً .. ولكن فيما عدا ذلك كانت بقية أسلحة الجيش تواجه نقصاً فى عدد الضباط القديرين .. وكان الجيش بعامة فى حاجة ماسة إلى أطباء ومهندسين ومترجمين ينقلون إلى اللغة التركية المحاضرات التى يلقيها بالفرنسية غالباً المدرسون الأوروبيون فى المدارس الحربية التى شرع السلطان فى إنشائها وإحيائها ، فقد شرع فى إنشاء مدارس طبية يكون خريجوها فى خدمة الجيش أولا ، ومن هذه المدارس :

١ — مدرسة طبية سميت « مكتبى شاهانى طبى » أى المدرسة السلطانية الطبية ، أنشئت فى إستانبول سنة ١٨٢٧ ، بعد شهر واحد من إنشاء محمد على مدرسة الطب البشرى التى ألحقها بالمستشفى العسكرى فى أبى زعبل ، وكان هدف مدرسة الطب فى إستانبول إعداد أطباء للخدمة فى الجيش الجديد . وألحق بهذه المدرسة قسما إعدادياً يزود الملتحقين به بدراسة مدنية على مستوى التعليمين الابتدائى والثانوى ، ثم يلحقون بمدرسة الطب . وكان هذا القسم هو الأول من نوعه فى تاريخ الدولة . وقد أعيد تنظيم مدرسة الطب عدة مرات حتى نقلت سنة ١٨٣٨ إلى جالاطه سراى ، مقر مدرسة القصر القديم ، لتدريب الغلمان ، كما كانت مركزاً هاماً للتعليم يرجع إلى حكم السلطان أبى يزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) وكانت الدروس فى مدرسة الطب يلقى بعضها باللغة التركية ، والبعض الآخر بالفرنسية ، إذ كان يوجد بها عدد من المدرسين الأوروبيين .

٢ — طب خانه أميرى ، أى المدرسة الأميرية للعلوم الطبية ، وتضم أقساماً للطب والجراحة والتشريح .

٣ — جراح خانه ، وهى مدرسة متخصصة فى الجراحة .

وقد صادفت المدارس الطبية بعض عقبات ، كان مردها إلى معارضة علماء الدين تشريح جثث الموتى ، ونقص المعدات الطبية ، وقلة المراجع العلميـــة .

ومن المدارس العسكرية التى أنشأها السلطان محمود أيضاً :

١ — «ميوزيكا ـ ى هومايون مكتبـ ـى» ، أى المدرسة السلطانية للموسيقى سنة ١٨٣١ ، لإعداد كتائب من رجال الموسيقى العسكرية .

٢ — «مكتب ـ ى عموم ـ ى حربية ـ ى» ، وهى مدرسة حربية جديدة للعلوم الحربية أنشئت سنة ١٨٣٤ لسد النقص فى عدد الضباط ذوى الكفاية . وقد نظمت على غرار مدرسة سان سير « St. Cyr » فى فرنسا ، وكانت ذات طابع فرنسى . وقام مدرسوها الأجانب بدور بارز فى تدريس علومها وفى تعليم اللغة الفرنسية ، وكان إنشاؤها بناء على اقتراح نامق باشا قائد قوات الحرس السلطانى وقتذاك . وألحق بهذه المدرسة قسم إعدادى يلتحق به التلاميذ لتلقى دراسة مدنية على مستوى التعليمين الابتدائى والثانوى تمهيداً لإلحاقهم بهذه المدرسة الحربية .

٣ — ٤ — ومن المدارس العسكرية التى أحياها السلطان محمود كانت توجد مدرستان : « مهندسى خانه ـ ى بحرى ـ ى هومايون » أى المدرسة السلطانية للهندسة البحرية ، كانت قد أنشئت سنة ١٧٧٣ ، و « مهندسى خانه ـ ى برى ـ ى هومايون » أى المدرسة السلطانية للهندسة البرية ، كانت قد أنشئت سنة ١٧٩٣ .. وصادفت هاتان المدرستان عقبات وتعثرتا فى سيرهما العلمية ، فأعاد محمود تنظيمهما لتزويد الجيش والأسطول بمهندسين عسكريين

وشرع محمود الثانى فى وقت متأخر من حكمه ، فى إنشاء مدارس مدنية تزود طلبتها بمواد علمية وأدبية حديثة ، ويعين خريجوها فى وظائف حكومية كتابية ، أو يلحقوا بالمدارس العليا الفنية .. ووجه عناية مكثفة إلى التعليم المدنى فى أواخر حكمه ، لأن الحروب والمسائل السياسية استغرقت معظم وقته . ولكنه لم يمس المكاتب (التعليم الأولى) ولا المدارس الابتدائية ، لرغبته فى تخفيف حدة معارضة علماء الدين ، لأنهم كانوا يحتكرون معظم التعليم ، حريصين على إبقاء هذا الاحتكار فى أيديهم لمنافع شخصية ، كان فى مقدمتها الإبقاء على النفوذ الراسع الذى كانوا يمارسونه على الشعب والحكام .. وكانت هذه المدارس قد دب إليها الإهمال ، فلم تعد تساير التطورات الحديثة . وارتفعت أصوات بعض علماء الدين ، فى نطاق ضيق ، تعارض إصلاحات محمود ومزجت بينها وبين الهزائم العسكرية ، وأرجعت الاثنين إلى ابتعاد السلطان عن الخط الإسلامى ، وإلى كثرة عدد الأجانب فى إستانبول . وكان الإنكشارية ، قبل إلغاء فرقهم سنة ١٨٢٦ يتصلون بأتباع الطريقة البكتاشية لتحريض طلبة المدارس الدينية على القيام بمظاهرات عامة . ولعل هذه المعارضة كانت من الأسباب التى جعلت السلطان يتريث فى إنشاء المدارس المدنية من ناحية ، ويتخذ مقر بعض هذه المدارس فى المساجد الكبرى فى إستانبول لامتصاص معارضة علماء الدين من ناحية ثانية ، كما أنه لم يتوسع فى إنشاء المدارس العليا المدنية كما توسع محمد على فى إنشائها من ناحية ثالثة ، لأنه بالإضافة إلى معارضة علماء الدين ، لم يتسع الوقت أمامه ، فأصبحت قليلة العدد نسبياً .

أنشأ السلطان المدارس الرشدية ، ومعنى الرشدية المدارس التى يلتحق بها التلاميذ الذين بلغوا سن الرشد ، وكانت أعمارهم تتراوح بين ١٢ و ١٦ سنة . فأنشأ « مكتب ـ ى معارف ـ ى عدليه » أى مكتب المعارف العدلية . ويقصد بلفظة العدلية : العادل وهو السلطان محمود الثانى . وجعل مقر هذا المكتب مسجد السلطان أحمد ، وهو المعروف باسم الجامع الأزرق ، وأنشأ

أيضاً « مكتب ـ ى علوم ـ ى أدبيه » أى مكتب العلوم الأدبية . واتخذ من مسجد السليمانية مقراً لهذا المكتب . وإذا كانت تدرّس فى هاتين المدرستين وغيرهما العلوم الدينية واللغوية التقليدية ، فإن السلطان محمود أدخل فيها أيضاً تعلم اللغة الفرنسية والمواد المدنية الحديثة مثل الجبر والهندسة وسائر الرياضيات والتاريخ ، وكان الهدف من إنشائها إعداد موظفين مدربين ومترجمين ، أو إلحاق خريجيهما بالمدارس الفنية العالية . وأنشأ أيضاً : « مكتب ـ ى عرفان ـ ى » أى مكتب العرفان أو المعرفة أو المعارف . ويلتحق به الموظفون فى شتّى أقلام الباب العالى لتزويدهم بثقافة علمانية مدنية رفعاً لمستوى أدائهم الوظيفى .

وأدرك السلطان محمود الحاجة الملحة لإعداد مترجمين يقومون بتدريس اللغة الفرنسية فى المدارس الرشدية ، أو بترجمة المحاضرات التى تلقى فى المدارس الطبية ، أو بترجمة المؤلفات العلمية إلى اللغة التركية ، أو يعملون فى المصالح الحكومية . وكان عدد الأتراك الذين دربوا على تعلم اللغة الفرنسية إبان حكم السلطان سليم الثالث قليلا . ولقى معظمهم حتفهم فى مذبحة ميدان سباق الخيل فى إستانبول فى مايو — آيار — سنة ١٨٠٧ . وكانت الحكومة تستعين أيضاً بالمترجمين اليونانيين من حى الفنار فى العاصمة العثمانية . فلما قامت الثورة اليونانية طلباً للاستقلال سنة ١٨٢١ طردهم السلطان جميعاً . وذبح كبير التراجمة الملحق بمكتب الريس أفندى أى وزير الخارجية ، وكانت تتم عن طريق هذا الترجمان جميع محادثات ومكاتبات الباب العالى مع سفراء الدول . وواجهت الدولة فراغاً علمياً فى مجال التراجمة . وازداد هذا الفراغ تفاقماً عندما أعاد السلطان محمود سنة ١٨٣٤ إنشاء السفارات التركية فى لندن وباريس وفينا . وكان قد تعثر العمل فى هذه السفارات وتوقف نشاطها بعد عزل السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٧ ، وكان السلطان محمود قد اتخذ عدة إجراءات مسبقة لملافاة النقص فى عدد المترجمين ، فأوفد بعثات علمية إلى أوروبا سنة ١٨٢٧ لإعداد المترجمين والمدرسين

والضباط . وكان محمد على قد سبقه فى هذا المضمار ، إذ بدأ بإرسال البعثات سنة ١٨١٣ كما ذكرنا . وأنشأ السلطان « ترجمه أوداسى » أى غرفة الترجمة فى الباب العالى سنة ١٨٣٣ ، أى قبل إعادة إنشاء السفارات العثمانية فى بعض العواصم الأوروبية الكبرى بسنة . ثم أنشأ عدداً من أقلام الترجمة على غرارها فى وزارة الحربية وإدارات أخرى فى الحكومة . . وليس معنى ذلك أن عصر السلطان محمود الثانى كان خالياً من المترجمين الأفذاذ ، فكان عطا الله محمد ، واشتهر باسم « شانيزاده » (١٧٦٩ — ١٨٢٦) ، تلقى تعليماً دينياً فى مستهل حياته ، وغدا من علماء الدين ، وكان ذا عقلية موسوعية . . عينه السلطان محمود مؤرخاً للدولة سنة ١٨١٩ ، ثم عزله من منصبه ونفاه سنة ١٨٢٦ عقب القضاء على الإنكشارية لشبهات حامت حوله عن اتصالاته بأتباع الطريقة البكتاشية . . ولم يكن رجعياً ، تعلم عدة لغات أوروبية ، ودرس الطب الأوروبى وعلوماً أخرى ، وأثرى المكتبة الطبية بكتب علمية ترجمها إلى التركيـــة . وكان من أهم إنجازاته العلمية ترجمة كتاب طبى طبع فى النمسا ووضع له بحثـــاً باللغة التركية عن علم وظائف الأعضاء وعن التشريح ، ثم ترجم كتاباً آخر عن التطعيم . وتعد كتبه الطبية المترجمة نهاية للطب التقليـــدى فى الدولة العثمانية ، وبداية للطب الحديث فيها . وقـــد نحت ألفاظاً طبية فى اللغة التركية . أما المترجم الآخر العملاق ، فكان خوجه اسحاق أفندى ، كان يهودياً ، ثم اعتنق الإسلام ، وتعلم اللغات الفرنسية واللاتينية واليونانية والعبرية والتركية والفارسية والعربية . عينه السلطان سنة ١٨١٥ مدرساً فى مدرسة الرياضيات ، ووضع مختصراً فى أربعة أجـــزاء فى العلوم الرياضية والطبيعية ، وأدخل فى اللغة التركية مقابلات للمصطلحات العلمية من اللغات الأوروبية . وترجم كتباً فى الهندسة والعلوم الحربية ، وقد مات سنة ١٨٣٤ فى مدينة السويس وهو فى طريق عودته من مكة المكرمة بعد أن أدى فريضة الحج . وكإجراء سريع لمواجهة نقص عدد المترجمين ، عمد السلطان محمود إلى نقل بعض الأساتذة فى المدارس العليا ، العسكرية والمدنية ، ممن يتقنون

اللغات الأجنبية ليعملوا مترجمين فى إدارات الحكومة . وكان من بينهم يحيي أفندى الأستاذ بمدرسة الرياضيات ، غينه السلطان مترجماً لوزير الخارجية . وقد عبّر شانيزاده عن ارتياحه العميق لتعيين هذا المترجم المسلم فى هذا المنصب الخطير ، مبرزاً أهمية وضع المناصب الحساسة للمترجمين فى أيدى المسلمين وتخليص الدولة من شراذم المترجمين المسيحيين . وكان ليحيي أفندى ابن يسمى محمد رشد الدين صحب السفير العثمانى فى باريس ، مصطفى رشيد باشا ، سنة ١٨٣٤ ، وكان هذا الابن يعمل مترجماً .

ومضى السلطان محمود الثانى قُدماً فى مشروعاته الإصلاحية عاملا على إزالة الفوارق بين رعايا الدولة . ويُعزى إليه قوله : « من الآن فصاعداً ، لن أعترف بالمسلمين إلا فى المسجد ، وبالمسيحيين إلا فى الكنيسة ، وباليهود إلا فى المعبد .. أما خارج هذه الأماكن التى يُعبد الله فيها كلها ، فإننى أرغب فى أن تتمتع كل هذه الطوائف بحقوق سياسية متساوية وبحمايتى الأبوية » (١) . ويرى بعض المؤرخين أن هذا السلطان ، من حيث الدور الذى قام به والإصلاحات التى أدخلها فى الدولة العثمانية ، يشبه قيصر الروسيا بطرس الأكبر (١٦٨٩ — ١٧٢٥) من حيث دوره وإصلاحاته (٢) . ولا عبرة بما ذهب إليه بعض المؤرخين المصريين « بأن إصلاحات محمود الثانى غير العسكرية كانت بصفة عامة عديمة الجدوى ، لأنه لم يكن مخلصاً فيها بل كان يبغى أن يصطنع أمام الدول الأوروبية مظهراً يخفى تحته ضعف الدولة العثمانية وتأخرها ، بل لم يكن يؤمن بما يفعل أو يحرص على اتباعه »(٣).

(١) Driault, E.; Question d'Orient, depuis ses origines jusqu'à la paix de Sèvres. Paris, 1921, p. 136.

(٢) Lewis, B; op. cit., p. 76.

(٣) دكتور حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، مرجع سبق ذكره ، صفحة ٢٥١ .

ودكتور السيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، مرجع سابق ، ص ص ١٩ — ٢٠ .

فهذه الآراء كانت ترديداً لأقاويل المؤرخين الأوروبيين المتحاملين على الدولة العثمانية ، والحق أن السلطان محمود الثانى يعدُّ من أعلام الإصلاح فى الدولة العثمانية .

هذه هى لمحات سريعة وعابرة عن الإصلاحات التعليمية التى أدخلها السلطان محمود والصعاب التى تزاحمت عليه إبان حكمه . وقد أفرد عزت فصلا ضافياً عن الأثر الغربى فى النظام التعليمى فى مصر(١) ، تكلم فيه عن مدى تأثير نظم التعليم الفرنسية ، ونشأة النظم التعليمية فى أوروبا ، والتعليم فى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقوانين نابليون ، وقانون سنة ١٨٣٣ ، وهو قانون وزير المعارف فى فرنسا جيزو ، والتعليم الثانوى فيها ، وحرية التعليم ، وأوجه الشبه بين التعليم فى مصر وفرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولقد كان لهذا الفصل أهميته فى توضيح المصدر الذى حاول محمد على أن يحتذيه فى إدخال نظامه التعليمى فى مصر . ولكن كان حرياً بعزت أن يضع فصلا فى كتابه السادس يوضح فيه مدى تأثر السلطان محمود الثانى ، فى إصلاحاته التعليمية والترجمة ، والحركة الثقافية بوجه عام ، بمحمد على فى هذه المجالات للأسباب السبعة التى ذكرناها فى مستهل هذا البند . وكان يخلص من هذه الدراسة المقارنة إلى نتائج عديدة وذات أهمية ، كان من بينها أن سلطان الدولة العثمانية محمود الثانى كان مقلداً لوالى مصر محمد على باشا فى معظم الخطوات التى اتخذها الأخير سواء فى إصلاح الجيش ، أو فى إنشاء المدارس الحديثة ، أو فى إيفاد البعثات العلمية ، أو موقف كل منهما تجاه معارضة فريق من علماء الدين ، وسياسة الملاينة التى اتبعها السلطان معهم والسياسة السلبية التى انتهجها محمد على حيال الأزهر بحيث تركه فى حالة عزلة وجمود وركود . ثم محاكاة السلطان لمحمد على فى مجال نشر الثقافة الطبية المبسطة لعامة الشعب ، وفى

---

(١) الفصل الثالث من الكتاب الأول ، ص ص ٥١ — ٧٨ .

السياسة الإعلامية فقد أصدر السلطان مطبوعات تحوى معلومات عن الأمراض والأوبئة وطرق الوقاية منها مسترشداً بما قام به محمد على فى مصر ، وأصدر جريدة رسمية للحكومة العثمانية « تقويم وقائعى » فى ٢٥ يوليو ١٨٣١ على غرار جريدة الوقائع المصرية التى أصدرها محمد على فى ديسمبر ١٨٢٨ .

٢ — محمد عبد الله عنان :

أولا : يقول عنان(١) « لما استقر العهد الجديد — عهد محمد على — لاح للأزهر أن العهد الجديد يأبى أن يفسح لنفوذه القديم مجالا ، وأنه يراد به أن يلزم السكينة ، والابتعاد عن الشئون العامة .. »

ثانياً : ينتقل عنان إلى موضوع آخر ، هو قرار محمد على وضع يده على الأوقاف المرصدة على المساجد والخيرات ، الكائنة بالقاهرة والصعيد ، واحتجاج علماء الأزهر على هذا الإجراء ، ومحاولتهم عبثاً مخاطبة محمد على فى إلغاء قراره ، ثم يخلص إلى هذا الرأى وهو أنه «كان للملك أثره فى اقتطاع موارد الأزهر ، وفى التضييق على الأساتذة والطلاب » تأسيساً على ما ذكره مستشرقان ، أولهما فولرز فى دائرة المعارف الإسلامية حيث قال : « لم يتردد محمد على فى أن يصادر الأراضى الموقوفة على الأزهر ، وهى واسعة الرقعة ، بالرغم من أنها موقوفة عليه ، وبذلك أوقع أضراراً بليغة بالأساتذة والطلاب » . أما ثانى هذين المستشرقين فهو إدوارد وليم لين الذى وفد على القاهرة بعد ذلك الحادث بقليل ، فقد ذكر فى كتابه : « أحوال وعادات المصريين المحدثين » أنه مذ نزعت ملكية الأراضى التى كانت مملوكة للأزهر ، قلّ عدد الطلبة الذين ينتمون إلى الأروقة قلة ظاهرة .

ثالثاً : يبدى عنان أسفه لأن « هذه الواقعة التاريخية » ، وهى استيلاء

---

(١) محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، الطبعة الثانية منقحة ومزيدة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ص ٢٢٩ — ٢٣١ .

محمد على باشا على أوقاف المساجد ومواردها ، وفى مقدمتها الجامع الأزهر « لم تلق صدى فى كل ماكتب عن تاريخ مصر فى هذا العصر ، ولم يذكرها أو يشير إليها بالأخص ، أحد من أولئك الذين كثيراً ما تحدثوا فى كتبهم ونشراتهم عن مآثر الأسرة العلوية على الجامع الأزهر » .

رابعاً : يشير عنان إلى نتائج الموقف السلبى الذى اتخذه محمد على من التعليم فى الأزهر ، ويشيد على نحو مخفف بسياسته التعليمية الجديدة فى نظامه التعليمى . ثم يعود عنان مرة أخرى إلى ذكر نتائج أخرى لعزوف محمد على عن تحديث التعليم فى الأزهر فيقول : « وهكذا شعر الأزهر أنه بعيد عن حظيرة العهد الجديد ورعايته . ومن جهة أخرى ، فقد كان للتطورات الفكرية والاجتماعية التى ترتبت على حوادث الغزو الفرنسى ، ويقظة الأمة من سباتها الطويل ، وتطلعها إلى آفاق أوسع ، وما تميز به العهد الجديد ، من تحول سير التعليم والثقافة إلى وجهات جديدة ، أقرب إلى روح العصر ومقتضياته ، كان لذلك كله أثره فى الرغبة عن العلوم الأزهرية ، وفى ضعف نفوذه وهيبته القديمة ، وبعده عن المشاركة فى الحياة العامة » .

خامساً : يخلص عنان من عرض جميع هذه الآراء إلى نتيجة نهائية هى « ولبث الأزهر زهاء نصف قرن فى حالة عزلة وركود ، بعيداً عن مجاراة التيارات الثقافية الجديدة التى اتجهت إليها مصر ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وانكمش نفوذه القديم انكماشاً ظاهراً » .

وتعليقنا على آراء عنان تتلخص فى النقاط الآتية :

أولا : أن محمد على رفض أن يفسح للأزهر مجالا لنفوذه القديم ، وأنه أراد به أن يلتزم الابتعاد عن الشئون العامة ، وهذا رأى صحيح وسياسى استهدف منه محمد على إقصاء الزعامة الأزهرية عن الحياة السياسية .

ثانياً : إن ما ذهب إليه عنان فى قوله إن محمد على وضع يده على جميع الأوقاف المرصدة على المساجد وجهات البر مما كان له أثره فى اقتطاع موارد الأزهر وفى التضييق على علمائه وطلابه ، هو قول يحتاج إلى مناقشة موضوعية .. كانت توجد فى مصر فى بداية حكم محمد على الأراضى الخراجية وسميت بعد ذلك أراضى الالتزام عقب تطبيق نظام الالتزام فى مصر سنة ١٠٦٩ هـ (١٦٥٨ م) ، وكانت تشمل أراضى الفلاحة ، وسميت فى الوجه البحرى أرض الأثر ، وفى الوجه القبلى أطلق عليها أرض المساحة ، ثم أراضى الأوسية (أو الوسية)(١) ، ثم أراضى مسموح المصطبة(٢) ، وأراضى إطلاق أو تلاق(٣) ، وأراضى الأوقاف . وكانت جميع هذه الأراضى ، ما عدا النوع الأخير ، قد انبثقت عن نظام الالتزام . وقد دخل عدد من مشايخ الجامع الأزهر ووفرة من علمائه ومن الأشراف ميدان الالتزام فى العصر العثمانى وتزايد عددهم فى أواخر هذا العصر حتى قفز إلى أكثر من ثلاثمائة ، عدا بقايا العسكريين التابعين لفرق الحامية العثمانية ، والبكوات والمماليك وكبار التجار ومشايخ البلاد ومشايخ العرب والخواتين وهن السيدات(٤) . وكان مرد هذه الزيادة فى عدد علماء الدين إلى أنهم انحدروا من آباء كانوا ملتزمين ، فورثوا حصص التزاماتهم ، ثم أضافوا مزيداً إليها .. فلما بدأ محمد على يمهد لإلغاء نظام الالتزام سنة ١٨٠٩ ، كخطوة أولى فى تطبيق سياسته الاحتكارية ، فرض مالاً على أطيان الملتزمين وهى

---

(١) كانت تبلغ مساحتها عشر مساحة حصة الالتزام يزرعها الملتزم لحسابه ويتمتع بريعها .

(٢) كانت تعطى لشيخ كل بلدة، وتبلغ مساحتها ٤ ./٠ من أرضها، وتعفى من الضرائب مساعدة له على استضافة موظفى الحكومة الذين يمرون ببلدته .

(٣) أراض معفاة من الضرائب خصصت أساساً لرعى خيل الباشا العثمانى والبكوات المماليك ، وقد سمح الباشوات فى القرن الثامن عشر للملتزمين الذين تقع هذه الأراضى فى دوائر التزامهم بضمها إلى أواسيهم والانتفاع بها فى مقابل مبلغ من المال يدفع للباشا .

(انظر ما جاء عن نظام الالتزام فى هذه الدراسة ، ج ١ ، ص ص ١٤٥ — ١٧٤) .

(٤) الخواتين جمع تكسير عربى لكلمة خاتون التركية .

الأوسية ، ثم طلب منهم أن يقدموا له كشوفاً بما يحصلون عليه من إيراد من حصص التزامهم ، وهو ما كان يسمى « الفائض » . وخشى الملتزمون أن يكون غرضه من هذا الطلب هو مشاركتهم فى هذا الفائض ، فقللوا فى تقدير دخلهم من الفائض جهد الاستطاعة . ولكنه وافق على تقديراتهم ليستخدمها سلاحاً ضدهم فيما بعد .. ثم ألغى نظام الالتزام كلية سنة ١٨١٤ . وكان هذا الإلغاء خليقاً بأن يثير معارضة شديدة من الملتزمين ، وفيهم علماء الدين . فعمل على استرضائهم بأن ترك لهم أراضى الأوسية يستغلونها مدى حياتهم كملك منفعة ، وأعفاهم من الضرائب عليها ، على أن تعود للحكومة هذه الأراضى بعد وفاتهم ، ولكنه لم يستطع صبراً على هذا الوضع لرغبته فى أن يكون المالك الوحيد لجميع الأراضى الزراعيه فى مصر(١) . فقرر للملتزمين معاشات سنوية تحتسب على أساس التقديرات التى قدموها له من قبل عن دخلهم من الفائض . وبذلك أصبح لعلماء الأزهر ولغيرهم من سائر الملتزمين دخل مالى سنوى نتيجة إلغاء نظام الالتزام ، وكانت هذه المعاشات تقل بكثير عن دخولهم السابقة ، وعلى هذا النحو أضير علماء الأزهر كبقية الملتزمين من إلغاء نظام الالتزام .

وكان هناك نوع آخر من الأراضى الزراعية يطلق عليه أراضى الوقف أو الرزق الإحباسية(٢) ، وهى أراض وقفها فى عصور سابقة السلاطين والأمراء وغيرهم من أهل البذل لأغراض دينية ولأعمال البر كالإنفاق على المساجد والأضرحة والمدارس ، ومقارىء تلاوة القرآن الكريم ، ومكاتب لتحفيظ اليتامى القرآن ، وبعض الأشراف من ذرية رسول الله — صلوات

---

(١) وجدت فى أواخر حكم محمد على الملكية الفردية للأراضى الزراعية ، وتمثلت فى الشفالك والأبعاديات ، وكانت الأولى أراضى يملكها أفراد أسرة محمد على ، وكانت الثانية أراضى أنعم بها على بعض القواد والمقربين إليه والموظفين الأجانب الذين أخلصوا فى خدمته وأعفاهم من ضرائبها ليشجعهم على استصلاحها . وكانت هذه الملكية الفردية محدودة .

(٢) الرزقة : هى غلة أرض يحبسها أى يوقفها أهل البذل على الأغراض الدينية وجهات الإحسان .

الله وسلامه عليه — وبعض طلبة العلم والفقراء والمساكين ، والتكايا ، وأسبلة لسقى الناس ، وأحواض لسقى الدواب وما إلى ذلك . وكانت هذه الأراضى معفاة من الضرائب لا تدفع عنها لديوان الروزنامة إلا ضريبة رمزية اسمها « مال حماية » فى مقابل حماية رجال الإدارة لهذه الأراضى من سرقة محاصيلها أو الاستيلاء عليها ، ويشرف عليها عادة علماء الأزهر وأرباب السجاجيد والسادة الأشراف استناداً إلى أنها أوقاف خيرية مخصص إيرادها للأغراض الدينية وجهات البر ، وهى تختلف بذلك عن الأوقاف الأهلية التى تحبس على ذرية الواقف ، وكان تنظر علماء الدين على الأوقاف الخيرية مصدر رزق لهم . التفت محمد على إلى أراضى الوقف ، فأمر سنة ١٨١٢ بفرض ضرائب عليها ، ثم سلخ إدارتها عن نظارها علماء الدين واستولى عليها . ولكنه لم يتعرض لمبدأ الوقف فى ذاته ، بل أراد أن يسيطر على إدارة أراضى الأوقاف بحجة رغبته فى تحسين أحوالها ، ودعم نظمها ، وزيادة دخلها . والحقيقة أنه كان يستهدف غرضين من استيلائه على أراضى الأوقاف : أولهما الإنفاق من إيرادها إنفاقاً سليماً على الأوجه التى خصصها الواقفون ، وثانيهما الحصول على فائض إيرادها بدلا من علماء الدين . ولكن عارضه الأخيرون فى ذلك فأجابهم محمد على إن الخليفة وهو السلطان العثمانى هو صاحب الحق فى إدارة الأوقاف وأمور المسلمين ، وهو — أى محمد على — نائب الخليفة والسلطان فى مصر ، فهو أولى بذلك منهم (١) . ثم أصدر محمد على قراراً بأنه صاحب الأراضى الزراعية وغيرها كلها فى مصر . ولكنه آثر أن يعلن هذا القرار بعد أن يسافر إلى الحجاز لقيادة قواته فى الحرب الوهابية ، وعهد إلى الكتخدا بك ، نائبه ، إعلان هذا القرار فى غيبته ، فأعلنه للجماهير فى أول فبراير سنة ١٨١٤ ، فثارت ثائرة الأهالى وعلماء الدين وطلبوا إلغاءه ، فرد عليهم الكتخدا بك ، بأن هذه أوامر سيد البلاد والتى لا يجرؤ أحد على رفضها . ولا مراء فى أن

قرار محمد على يتنافى مع مبادىء الشريعة الإسلامية التى كفلت حق الملكية الفردية . ولم يتناول قانون نامه سليمان فى مواده مصادرة الملكية الفردية أو اغتصابها من أهلها المصريين ، فالحكم العثمانى برىء من تهمة حرمان الفلاحين من أراضيهم .. وجدير بالذكر أن مبدأ احترام الملكية الفردية قد احترم فى معظم عهود التاريخ المصرى القديم(١) والوسيط(٢) .

لقد استقى عنان ما ذكره عن استيلاء محمد على باشا على أوقاف الجامع الأزهر من مصدر واحد هو الجبرتى ، ومرجعين لمستشرقين اثنين هما ستانلى لين بول ، وفولرز. أما الجبرتى فقد اتسمت عباراته بالغموض الشديد. إذ قال فى يوميات شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٧ (٦ ديسمبر ١٨١٢ — ٣ يناير سنة ١٨١٣) إنه : « لما انتظم له ملك بلاد الصعيد ولم يبق له فيه منازع(٣) ، وقلد إمارته لابنه إبراهيم باشا ، ورسم بأن يضبط جميع أطيان بلاد الصعيد حتى الرزق الإحباسية المرصدة على المساجد والخيرات الكائنة بمصر وغيرها ، وأوقاف سلاطين مصر المتقدمين وخيراتهم ومساجدهم ومكاتبهم وصهاريجهم ووظائف المدرسين والمقرئين وغير ذلك ، وراك (أى مسح) الأراضى بأسرها ، وشاع أنه جعل على كل فدان من أراضى

---

(١) دكتور عبد العزيز صالح ، الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية ، فى مجلد الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور ، إصدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٤ ، ص ص ١٧ — ٧٠ .

— دكتور إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج ٣ ص ص ١٥٧ — ٢١٨ .

— دكتور مصطفى كمال عبد العليم ، الأرض والفلاح فى مصر فى عهد البطالمة ، المرجع المذكور فى الحاشية رقم (١) فى هذه الصفحة ، ص ص ٨١ — ١٢٢ .

— دكتور مصطفى عبد الحميد العبادى ، الأرض والفلاح فى مصر الرومانية ، المرجع السابق ص ص ١١٣ — ١١٥ .

(٢) دكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، الأرض والفلاح فى مصر الإسلامية ، المرجع السابق ، ص ص ١٥٧ — ٢١٠ .

(٣) يقصد الجبرتى *مذبحة المماليك التى أوقعها* محمد على فى القلعة فى ٣ مارس سنة ١٨١١ .

الرزق والأوقاف ثلاثة ريالات لا غير ، وعلى باقى فدادين الأطيان ثمانية ريالات .. »(١) .

وليس فى هذه الفقرة ذكر صريح للجامع الأزهر ، ثم تلاحقت أقوال الجبرتى عن الأحداث الخاصة بنظام الالتزام والرزق الإحباسية دون أى إشارة لما ذكره عنان (٢) ، علماً بأن رقمىْ الصفحتين اللتين استند إليهما عنان بخصوص استيلاء محمد على باشا على أوقاف الجامع الأزهر أو غيره من المساجد ، وهما صفحتى ١٥١ ، ١٦٤ فى الجزء الرابع ، ليس فيهما أي إشارة لما قاله . أما المستشرقان فلا ترقى روايتهما عن هذه النقطة إلى المستوى الذى يطمئن إليه الباحث المحايد .

ولذلك يجب أن يؤخذ بحذر شديد ما ذكره عنان لعدة أسباب ، منها : ليس من المعقول أن يغفل الجبرتى ، وهو مؤرخ عملاق ومعاصر لمحمد على ، إغفالا تاماً وصريحاً استيلاء هذا الحاكم على أوقاف الأزهر ، وما يثيره مثل هذا الاستيلاء من تذمر علماء الأزهر وطلبته ومن ضيق ينزل بهم فى هذا الإجراء ، فإن مثل هذا الموضوع كان يجب أن يكون حديث الساعة وقت تنفيذه . وسكوت الجبرتى عنه يعنى أنه لم يحدث ، وبخاصة أنه كان حريصاً على ذكر عيوب محمد على فى الحكم . ومن المحتمل أن محمد على طبق هذا المبدأ على المساجد والزوايا والأضرحة فى الأقاليم . كما أن استيلاء محمد

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٥٣ .

(٢) تكلم الجبرتى فى مواطن كثيرة بعد ذلك عن نظام الالتزام ، وهو موضوع يختلف عن الرزق الإحباسية أو أراضى الوقف . انظر على سبيل الحصر :

(الجزء الرابع ، الصفحات ١٥٤ ، ٢٠٣ — ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٨) .كما تكلم الجبرتى عن الرزق الإحباسية فى عدة مواطن فى ذات الجزء فى الصفحات ١٥٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، و ٢٩١ . وليس فيها إشارة لما ذكره عنان ، وعلى العكس تكلم الجبرتى بما يؤيد بقاء الأوقاف على المساجد فى ص ٢٠٥ عندما ذكر بناء مسجد فى حوادث شهر ربيع الآخر سنة ١٢٢٩ ،

على باشا على أوقاف الأزهر كان يستتبع حتماً تقرير مرتبات شهرية منتظمة من الحكومة لعلماء الأزهر وطلبة أروقته . وهذا ما لم يحدث فى عصر محمد على ، وإنما حدث فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن كان فريق من علماء الأزهر إبان حكم محمد على يتقاضون معاشات مالية سنوية فى مقابل إلغاء حصصهم فى نظام الالتزام ، كما أن محمد على بنى رواق السنارية وألحقه بأروقة الأزهر وأفرده للطلبة الوافدين من سنار عقب فتح السودان وأنه اشترى عقاراً قديماً وأمر بهدمه ، وأقام على أرضه هذا الرواق ، وجعل أسفله حانوتين أوقفهما على هذا الرواق .. حسبما ذكرنا(١) .

ولم يذكر الرافعى شيئاً قط عن هذا الموضوع — استيلاء محمد على باشا على أراضى الأوقاف — ولا يمكن القول إنه أغفل ذكره متعمداً إرضاءاً للملك أحمد فؤاد الأول ، وقد ظهرت الطبعة الأولى من كتابه عن عصر محمد على سنة ١٩٣٠ ، لأن الرافعى ، طيب الله ثراه ، تميز بالشجاعة الأدبية . انتقد فى هذا الكتاب ، وفى الكتب اللاحقة عن خلفاء محمد على ، نواح كثيرة من حكم إسماعيل وتوفيق والملك فؤاد وابنه الملك فاروق . ولم تأخذه فى نقده لحكام هذه الأسرة لومة لائم .. وأخيراً فإن المجلد الضخم الذى أصدرته سنة ١٩٦٤ وزارة الأوقاف وشئون الأزهر عن تاريخ الأزهر وتطوره قد اشتمل على ثبت ضاف بأوقاف الأزهر وأسماء الواقفين وأوجه الإنفاق ، ويرجع كثير من هذه الأوقاف إلى عصر إسماعيل وما تلاه من عصور حتى الوقت الحاضر . وكان من بين الواقفين الأميرة فاطمة إسماعيل ، وأحمد منشاوى باشا ، ومحمد توفيق نسيم باشا ، وأحمد بدرواى باشا ، وعثمان ماهر باشا ، وإبراهيم أدهم باشا ، ومحمد أحمد براده ، وعمر باشا لطفى ، وأبو بكر راتب باشا ، ويعقوب باشا صبرى ، وأحمد بك راغب ، وأحمد بك وصفى ، وأحمد رشيد باشا ، والشيخ صالح أبو حديد ،[٦]

---

(٦) انظر فى هذه الدراسة ، ج ١ ، ص ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

وحسنى باشا عبد الرازق ، ومحمد سلطان باشا ، وإسماعيل باشا حمدى ، كما تضمن هذا الثبت الأوقاف المرصودة على المعاهد الدينية فى طنطا ، وكان من بين الواقفين عليه أحمد باشا المنشاوى ، ومصطفى الشيتى ، ومحمد بك شاكر ، وأحمد البدراوى باشا ، وعبد الرحمن الشاهد .. أما معهد أسيوط الدينى فكان من الواقفين عليه محمود بك خشبة ، وسيد محمد باشا خشبه ، ومحمد باشا حفنى الطرزى ، وأحمد جاد الرب باشا . أما معهد الزقازيق فكان من بين الواقفين سعد بك شاره الطحاوى ، وأربعة من أسرة الشربينى ، وحسن بك العربى ، وكذلك كانت الأوقاف المرصودة على معهدى دسوق ودمياط وفيرة ودارة ، مما يدل على أن عمليات رصد أوقاف على الأزهر والمعاهد الدينيه الإسلامية كانت مستمرة متصلة الحلقات .

ثالثاً : إن قول عنان إن الأزهر شعر أنه بعيد عن حظوة العهد الجديد — عهد محمد على — ورعايته ، فلا تصور جميع جوانب الحقيقة ، إذ كان يجب عليه أن يضيف إلى هذه القول أن محمد على وضع الأزهر فى خدمة نظامه التعليمى الذى أنشأه ، وأخذ من الأزهر فريقاً من طلبته وألحقهم بالمدارس العليا ، ثم استعان بمدرسى الأزهر فى تدريس اللغة العربية فى مدارسه وفى مراجعة الكتب العلمية المعربة ، واختار من الأزهريين أعضاء فى البعثات العلمية التى أوفدها إلى أوروبا .. فهذه الإضافات وغيرها كانت تعطى صورة أكثر شمولا لموقف العهد الجديد من الأزهر ، وهو موقف مزدوج متعارض : رفضه تحديث التعليم فى الأزهر ، أو على أقل تقدير إدخال بعض المواد الحديثة كالتاريخ والجغرافيا ومبادىء الهندسة وعلم الكيمياء وغيرها ، وخصوصاً لأن هذه المواد أو معظمها كانت تدرس فى الأزهر فى عصور سابقة ، ثم استعان محمد على فى ذلك الوقت بالأزهر ، مدرسيه وطلابه ، لدعم نظامه التعليمى .

رابعاً : إن قول عنان إن التطورات الفكرية والإجتماعية التى نجمت عن الغزو الفرنسى لمصر ، ويقظة الأمة من سباتها الطويل ، وتطلعها إلى

آفاق أوسع ، كل ذلك أدى إلى انصراف المصريين عن الاتجاه إلى الأزهر ، هو قول بعيد عن الصواب ، لأنه بعد جلاء الفرنسيين سنة ١٨٠١ دخلت مصر مسرعة حقبة كثيفة الإظلام ، بدأت بفترة الانقلابات أو الاضطرابات السياسية (١٨٠١ — ١٨٠٥) . وبعد المناداة بمحمد على والياً على مصر سنة ١٨٠٥ لم ينعم الشعب بالاستقرار السياسى ولا بنشوء تطورات فكرية أو اجتماعية بسبب الأزمات التى واجهها محمد على والشعب فى أزمة نقله إلى سالونيك سنة ١٨٠٦ ، والعدوان البريطانى سنة ١٨٠٧ ، وأزمة تطويع الجند سنة ١٨٠٨ ، وصراع هذا الحاكم مع الزعامة الأزهرية وما سبق وصحب ولحق هذا الصراع من صراعات كمذبحة القلعة سنة ١٨١١ واستعداده وإيفاده قوات مسلحة إلى الحجاز للقضاء على الحركة السلفية (الوهابية) ، وإذا كانت قد ظهرت شخصيات تدعو إلى محاكاة أوروبا فى بعض جوانب حضارتها مثل إسماعيل الخشاب ، ومحمد أحمد العروسى وغيرهما ، فإن دعوة هذه الشخصيات كانت فى نطاق ضيق وذات أثر محدود . كما أن التطورات الفكرية والاجتماعية كانت نتيجة ، وليست سبباً ، للنهضة التعليمية التى قام بها محمد على ، فهو صانعها ومنفذها . ولم تظهر هذه التطورات إلا فى أواخر حكم محمد على ، وكانت ضعيفة وباهتة ولم تظهر آثارها قوية وفعالة إلا فى حكم الخديو اسماعيل .. أما قول عنان إن الشعب انصرف عن التعليم فى الأزهر إلى مدارس محمد على فقول بعيد عن الحقيقة كل البعد، لأن شطراً كبيراً من ناشئة البلاد ظل يولى وجهه شطر الأزهر . بحيث كان عدد طلبته يفوق بكثير عدد الطلاب فى مدارس محمد على حسبما ذكرنا من قبل. واضطر محمد على إلى استخدام وسيلتى الوعد والوعيد لإلحاق الطلبة بمدارسه ، أما الأزهر فقد أقبل الطلبة عليه طواعية ونجح فى استقطابهم دون قسرهم على ذلك ، لأن المجتمع المصرى كان مجتمعاً دينياً إسلامياً متزمتاً .

خامساً : إن قول عنان إن ما تميز به حكم محمد على من تحول سير التعليم والثقافة إلى وجهات جديدة ، أقرب إلى روح العصر ومقتضياته ، فهو رأى سليم وصحيح ، وإن كان موجزاً أكثر من اللازم .

سادساً : يبين من جميع آراء عنان التى بسطناها ، ماعدا البند الخامس ، أنه كان معارضاً على طرل الخط لمحمد على وسياسته وأساليبه فى الحكم حيال الأزهر ، وحريصاً على تحميل هذا الحاكم المسئولية كاملة عن حالة العزلة والركود التى استنام إليها علماء الأزهر فلم يمسسهم عنان بنقد أو شبهة نقد .

٤ — جمال الدين الشيال :

تناول الشيال فى كتابه(١) موضوع النقل عن دول الغرب فى سياسة محمد على التعليمية ، وانتهى رأياً إلى أن هذا الحاكم وضع خطة مزج فيها بين الاستشراق والاغتراب . واستعرض الدول الغربية التى اتجه إليها محمد على عند تنفيذ خطته . ثم أفرد فصلا عن المدارس التى أنشأها ، وذكر منها تسع مدارس عليا عدا المدارس الحربية والبحرية وعددها ست مدارس ، كما أفرد فصلا آخر عن البعثات العلمية إلى أوروبا وأهداف هذه البعثات . وانتقل بعد ذلك ، فى عدة فصول ، إلى الأدوات المباشرة للترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، وهى مدرسة الألسن وقلم الترجمة ، والكتب والمؤلفين ، ثم تكلم عن المترجمين ، وقسمهم إلى طوائف : المترجمين السوريين ، والمترجمين من خريجى المدارس ومن أعضاء البعثات ، والمترجمين من موظفى الحكومة ، ثم المحررين والمصححين أو المراجعين ، وكانت غالبيتهم العظمى من علماء الأزهر ، وأثر هؤلاء المشايخ فى حركة الترجمة والتصحيح والمراجعة وما أفادوه من هذه الحركة ، وطبع الكتب المترجمة والمؤلفة . واختتم دراسته بفصل استعرض فيه أغراض الترجمة ، واللغات التى ترجمت منها ، وطرق الترجمة ، ومشكلة المصطلحات العلمية والفنية ،

(١) دكتور جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، الناشر دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥١ ، وهذا البحث رسالة ماجستير بمرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة الإسكندرية سنة ١٩٤٥ . ونال هذا البحث جائزة البحث الأدبى لسنة ١٩٤٦ من مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وأسلوب الترجمة وتأثيرها فى اللغة العربية وفى المجتمع المصرى . ومعظم هذه الموضوعات تتصل اتصالا وثيقاً بالموضوع الذى نبحثه فى هذا الفصل .

أولا : عرض الشيال عدة تساؤلات ، عما إذا كان محمد على محقاً عندما ترك الأزهر كما هو ، وأنشأ إلى جانبه المدارس الحديثة ، وإذا كان محقاً فى هذا التصرف ، فهل كان محقاً أيضاً عندما ترك التعليم القديم فى الأزهر على قِدَمه ؟ .. أم كان من الأفضل لو حاول تطعيمه بشىء من البرامج والدراسات الجديدة حتى يستطيع الأزهر أن يقترب ، بمضى الزمن ورويداً رويداً ، من المدارس الحديثة وحتى يأتى يوم يتقابل فيه القديم مع الحديث ؟ ..

ثانياً : قال الشيال « وغاية ما نستطيع أن نقرره أن هذا الجمود من شيوخ الأزهر وقف بهم وبالأزهر عن السير مع القافلة .. فتركزت العناية بالعلوم الحديثة وبالكتب المترجمة فى المدارس الجديدة وبتلاميذها ومدرسيها وخريجيها .. وبهذا احتلوا مقام الزعامة الفكرية فى مصر .

ثالثاً : أخذ الشيال على خريجى المدارس الحديثة إبان حكم محمد على تقوقعهم فكرياً ، فلم يسهموا فى الحياة الثقافية العامة بنصيب ، سواء فى التأليف أو الترجمة أو الموضوعات الثقافية .

رابعاً : انتحل الشيال الأعذار لتقوقع خريجى المدارس الحديثة فكرياً . فقال إنهم لم يجدوا الفراغ الكافى ليستجيبوا للثقافات التى تلقوها ، لأن ترجمتهم الكتب تارة ، وتأليفهم كتباً تارة أخرى ، كانا يصطبغان بالصبغة الرسمية ، فهم كانوا مترجمين ومؤلفين محترفين ، لا هاوين .. كانوا يترجمون أو يؤلفون ما يؤمرون بترجمته أو تأليفه ، لا ما يريدون ترجمته أو تأليفه . وكان إنتاجهم العلمى ، سواء ترجمة أو تأليفاً ، يندرج تحت عنوان العلوم الفنية العلمية الخالصة .. ولم يكن فى مقدور القراء العاديين ، على ندرتهم ، أن يتذوقوه ، وإذا فكروا فى قراءته لا يستطيعون فهمه .

خامساً : أبرز الشيال مدى إفادة واستفادة المحررين والمصححين الأزهريين من اشتغالهم بحركة الترجمة فقال « إنهم فهموا ما جاء فى الكتب العلمية المترجمة ، وكسبوا لأنفسهم معارف جديدة واسعة ، وأضافوا إلى ثروتهم اللغوية ثروة جديدة لكثرة ما قلبوا الكتب باحثين منقبين ، ولكثرة ما بحثوا واشتقوا واقتبسوا من بدائل الألفاظ ومصطلحات أوروبية . ولذلك كانوا يعلنون دائماً ، فيما كتبوه من مقدمات، عن هذه المعرفة الجديدة التى اكتسبوها».
وضرب مثالا بالشيخ التونسى فى مقدمته لكتاب « الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية » للدكتور برون .. فقد شحن التونسى مقدمته بمعظم المصطلحات الكيماوية التى وردت فى متن الكتاب .

سادساً : نوّه الشيال بوجه خاص بالدور المجيد الذى قام به الشيخ رفاعة رافع فى إعادة ترتيب جريدة الوقائع المصرية والإشراف على تحريرها حين عهد إليه محمد على فى ذى القعدة سنة ١٢٥٧ هـ (١٥ ديسمبر ١٨٤١ — يناير ١٨٤٢) بهاتين المهمتين . وأبرز فى ذات الوقت الأخطاء التى وقع فيها رفاعة فى ترجمة بعض الكتب الفرنسية إلى العربية .

وتعليقنا على هذه الآراء يتلخص فى النقاط الآتية :

أولا : تهرب الشيال من الإجابة عن التساؤلات التى طرحها وذكرناها فى البند أولا . وكان أحرى به أن يجيب عنها إجابات حاسمة ، لأنها تتعلق بعنصر مهم فى سياسة محمد على التعليمية تجاه الأزهر والتعليم فيه . ولكنه أخذ بمبدأ الحيطة والحذر .

ثانياً : اتهم الشيال مشايخ الأزهر بالجمود ، وما ترتب على هذا الجمود من توقفهم مع الأزهر عن السير مع القافلة .. وهذا القول مردود عليه بعدة أسانيد ، منها : لم يكن هذا الجمود عاماً بين جميع علماء الأزهر .
وقد رأينا أن بعض مشايخ الجامع الأزهر وكبار علمائه كانوا من أنصار التعليم الحديث وتنادوا علناً وصراحة إلى إدخال بعض المواد العلمية أو النفعية

كما كان يطلق عليها ، فى دراسات الأزهر ، وأن عدداً كبيراً من الأزهريين ومن خريجى المدارس العليا وأعضاء البعثات العلمية إلى أوروبا ، قد وقفوا بكل إخلاص إلى جانب محمد على ، وأسهموا إسهاماً فعالا فى سياسته التعليمية ، وأضافوا لبنات فى صرح بنائه التعليمى . ولكن كان محمد على مصمماً على إبعاد الأزهر عن دائرة التعليم الحديث . وإن كان قد وضع الأزهر وروافده فى خدمة مدارسه . فالشيال يريد أن يلقى المسئولية كلها على عاتق علماء الأزهر . وفى قوله هذا يجافى الحقائق التاريخية .

ثالثاً : وجه الشيال نقداً إلى خريجى المدارس الحديثة لأنهم تقوقعوا فكرياً ، ولم يستجيبوا للثقافة التى تلقوها ، فلم يسهموا فى الحياة الثقافية العامة بنصيب . وانتحل لهم بعض الأعذار بأنهم لم يجدوا من الوقت متسعاً لهذا الإسهام ، لأنه خارج عن نطاق عملهم الرسمى ، وأنهم كانوا مترجمين ومؤلفين محترفين ، ينفذون ما تأمر الحكومة بترجمته أو تأليفه . ومسألة الوقت هى تبرير أكثر منها تفسير ، فهى مسألة نسبية تتهاوى أمام السبب الرئيسى لتقاعسهم ، وهو أنه لم تكن قد تكونت فيهم الأصالة العلمية التى تجعلهم يقتطعون من أوقات فراغهم جزءاً للإسهام فى مثل هذا العمل الإضافى الذى يتصل أوثق الاتصال بمجال تخصصهم . اعتبروا أنفسهم موظفين حكوميين ، ينتهى عملهم بمغادرة مقر عملهم ، ولا يستأنفون العمل إلا فى صبيحة اليوم التالى .. والأصالة العلمية لا تتكون إلا بعد أن يكتمل نضجهم العلمى .. ولم يكن قد استقام لمعظم هؤلاء الخريجين هذا النضج فى عصر محمد على . والدليل على ذلك أن رفاعة رافع وضع كل مؤلفاته فى عصر الخديو إسماعيل كما ذكر الشيال (ص ٢٢٨) . وأمامنا فى الوقت الحاضر أمثلة مضيئة للأساتذة العمالقة فى الجامعات يوزعون أوقاتهم بين إلقاء المحاضرات والإشراف على إعداد رسائل الماجستير والدكتوراه ومناقشتها ، وعضوية اللجان العلمية الدائمة ، وحضور لجان وشعب المجالس القومية المتخصصة والمجلس الأعلى للثقافة ومجلس الكلية ، ويشتركون فى مؤتمرات دولية تعقد

تباعاً فى أوروبا وأمريكا وآسيا وإفريقية ويلقون فيها بحوثاً مبتكرة .. وفوق هذا كله وضع المؤلفات العلمية ذات المستوى الرفيع تسمو بمكانتهم فى الأوساط العلمية فى مصر وخارجها .

رابعاً : كان الشيال منصفاً فى تقدير الدور الذى قام به المحررون والمصححون الأزهريون فى مراجعة الكتب المترجمة وفى إثراء اللغة العربية بأسماء مصطلحات علمية جديدة مما ينفى صفة الجمود التى حاول الشيال إلصاقها بالأزهريين عامة .

خامساً : التزم الشيال بمنهاج البحث العلمى فى إبراز محاسن وعيوب الشيخ رفاعة رافع ، وقد أفرد له فصلا ضافياً . وكان من أكثر إسهامات رفاعة أهمية ، بجانب ترجمته العديد من الكتب الفرنسية إلى اللغة العربية ، دوره القيادى فى تطوير جريدة الوقائع المصرية ، إذ ارتفع بمكانة اللغة العربية فى الجريدة . فأصبحت العربية فى الناحية اليمنى تتصدر فى الجريدة صفحاتها الأربع ، وأخذت التركية مكان اليسار . وكذلك التطوير الذى أدخله فى موضوعاتها « التى انتقلت فجأة من توافه الأخبار والحوادث ، والافتتاحيات الثقيلة المحشوة مديحاً وثناء للوالى بمبرر وبغير مبرر إلى موضوعات رئيسية لها خطرها .. »(١) . وفى ذات الوقت أبرز الشيال الأخطاء العديدة التى وقع فيها رفاعة فى ترجمة كتاب الجغرافيا العمومية لمالطبرون إلى اللغة العربية حين أباح لنفسه التصرف فى أجزاء الجملة الواحدة بحيث لم يستطع صياغتها فى قالب عربى سليم . ولم يعن العناية الكافية التى تؤدى المعنى الصحيح لما يقابلها من الألفاظ الفرنسية ، كما كان فى بعض الأحيان يترك الألفاظ دون ترجمة . وهذه الأخطاء لم تعرف فى عصر محمد على .. وقد سبق لنا فى دراسة أخرى بيان الأخطاء التى وقع فيها رفاعة رافع فى

---

(١) دكتور ابراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية (١٨٢٨-١٩٤٢) ، بولاق ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ٥١ .

ترجمته مواد الدستور الفرنسي الذى وضعه لويس الثامن عشر فى ٤ يونيو سنة ١٨١٤ ، وظل معمولاً به حتى قيام ثورة يوليو فى فرنسا سنة ١٨٣٠ وضمّنه رفاعه كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز »(١) وكانت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٨٣٤ بالمطبعة الأميرية فى بولاق ، وقد ظفر رفاعة ، عن جدارة واستحقاق ، بالكثير من مظاهر التكريم والتقدير من حكام مصر ، فأنعم عليه محمد على برتبة أمير آلاى — أى عميد — لمناسبة فراغه من ترجمة المجلد الثالث من جغرافية مالطبرون . وأعطته هذه الرتبة العسكرية تلقائياً لقب بك ، كما أنعم عليه محمد على بمائتين وخمسين فداناً ، وأنعم عليه إبراهيم باشا بحديقة نادرة المثال فى الخانقاه تبلغ مساحتها ستة وثلاثين فداناً ، وأنعم عليه الوالى محمد سعيد باشا بمائتى فدان ، والخديو إسماعيل بمائتين وخمسين فداناً ، وإن دل هذا التكريم المتعاقب من أربعة من حكام مصر على شيء ، فإنما يدل على أن كبار علماء مصر كانوا يظفرون بتقدير الحكومة أكثر مما كانوا يلقون فى العصور التى تعاقبت بعد عصر إسماعيل .

سادساً : يبين من جميع آراء الشيال أنه التزم خطاً وسطاً بين محمد على وعلماء الأزهر . تجنب إبداء رأيه فى موقف محمد على السلبى من تحديث التعليم فى الأزهر ، وهذا ما يعاب عليه الشيال ، ورمى علماء الأزهر بصورة عامة بالجمود والاعتكاف . واتهم خريجى المدارس الحديثة بالتقوقع فكرياً .. ولكى يخفف من حدة غلوائه عليهم ، أبدى أعذاراً واهية لهم . وأشاد بدور المحررين والمصححين الأزهريين فى مراجعة الكتب المترجمة ، وأوفى حق الشيخ رفاعة رافع .. ولكن من بين ثنايا سطور الشيال كان مؤيداً على طول الخط لمحمد على تلميحاً حينا ، وتصريحاً أحياناً .

---

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٤ ، ص ص ١٧٢٣ — ١٧٣٠ .

الأزهر بمضى فى مسيرته الدينية والعلمية والسياسية :

إذا كان التعليم فى الأزهر ، كجامعة ، لم ينل تعديلا أو تطويراً فى عصر محمد على ، فقد فرض الأزهر نفسه بثقله الدينى والعلمى على الحياة الدينية والتعليمية والسياسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والقرن العشرين . وكان لمعظم علمائه من وطنيتهم وأخلاقهم وشجاعتهم الأدبية وتفتح أذهانهم ما جعلهم يُقبلون على مواكبة الحضارة الحديثة وتطوير التعليم فى الأزهر من ناحية ، والإسهام فى الأحداث السياسية الخطيرة التى واجهتها مصر مثل الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ من ناحية ثانية . وقد بدأت حركة التجديد والتطوير فى الأزهر منذ عصر الخديو إسماعيل .. فأدخل علماء الأزهر أول الأمر مسحة من التجديد عن طريق التشريع . وصدرت قوانين فى سنوات ١٨٧٢ ، ١٨٩٥ ، ١٨٩٩ ، ١٩٠٧ ، ١٩١١ ، ١٩٢٣ ، ١٩٢٧ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٦ وكانت هذه القوانين تنظم تعيين أعضاء هيئة التدريس وحياة الطلاب ، وإدخال بعض العلوم الحديثة ، وتجعل تعليم الطلبة وامتحاناتهم يسيران وفق الأساليب الحديثة بحيث لا يعيش الأزهر مبعداً أو منعزلا عن المجتمع المصرى . وكان من أعلام الإصلاح الإمام الشيخ محمد عبده ، والمشايخ محمد المهدى العباسى ، وحسونه النواوى ، وسليم البشرى ، والأحمدى الظواهرى ، ومحمد مصطفى المراغى وغيرهم .

أما عن الأحداث السياسية ، فقد شارك الأزهر فى الثورة العرابية ، ووقف شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ محمد الانبابى ، وجمهرة من علماء الأزهر إلى جانب عرابى ضد الخديو توفيق والإنجليز . وانضموا إلى المجلس العرفى الذى تولى سلطة الحكم فى أثناء الثورة .. وآزر الإمام محمد عبده الثورة بقلمه ولسانه . وتليت فى المجلس العرفى فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ فتوى شرعية وضعها المشايخ محمد عليش ، وحسن العدوى ، ومحمد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو توفيق عن الدين لانحيازه إلى الإنجليز الذين يحاربون البلاد ، كما قرر المجلس فى ذات الجلسة استمرار بقاء عرابى ناظراً الجهادية

والبحرية ، وتوقيف أوامر الخديو ونظاره الموجودين معه فى الإسكندرية ، وإبلاغ هذه القرارات إلى السلطان عبد الحميد الثانى فى إستانبول . ووقع على هذه القرارات شيخ الجامع الأزهر والمفتون وعدد كبير من علماء الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية وعدد من ضباط الجيش وكبار موظفى الحكومة المدنيين وأعيان البلاد . ولما أخفقت الثورة عزل الشيخ محمد الانبانى من مشيخة الجامع الأزهر ، وقدم الباقون إلى المحاكمة ، فصدرت عليهم الأحكام بالنفى خارج مصر وملحقاتها ، وكان عددهم ثمانية ، وكان على رأسهم محمد عبده . كما صدرت أحكام على سبعة عشر عالماً أزهرياً وقاضياً بالمحاكم الشرعية بتجريدهم من جميع رتبهم وعلامات شرفهم وامتيازاتهم . فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا . .

وفى ثورة سنة ١٩١٩ اشترك الأزهر بمشايخه وطلابه . وكان الأزهريون فى مقدمة صفوف المجاهدين وتساقطوا على أبواب الجامع الأزهر ، إذ كانت تقف على مقربة منها القوات البريطانية مدججة بأسلحتها .. وكثيراً ما كانت المظاهرات تبدأ من الأزهر أو تنتهى بداخله .. وغدا الأزهر قلعة مصرية تواجه البريطانيين ، وكانت الاجتماعات العامة تعقد غالباً فيه ، وعمل علماء الأزهر على تعميق الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط . وخطب على منبر الأزهر المشايخ محمود أبو العيون ، ومحمد عبد اللطيف دراز ، ومصطفى القاياتى ، وعلى سرور الزنكلونى ، وعبد ربه مفتاح ، وعبد الباقى سرور ، وكلهم من علماء الأزهر . ولكن وقف يخطب داخل الأزهر ومن فوق منبره أيضاً القمص مرقص سرجيوس ، والقمص بولس غبريال وغيرهما من الأقباط .. كما خطب الدكتور زكى مبارك ، والدكتور محجوب ثابت ، ويوسف الجندى ، وإبراهيم عبد الهادى ، وحسن ياسين ، ومحمد عبد المجيد . فكانت الخطب التى ألقيت فى رحاب الأزهر من علمائه ورجال الدين الأقباط والمحامين وغيرهم من شرائح المجتمع المصرى تجسيداً لدور الأزهر فى الثورة واتحاد عنصرى الأمة المسلمين والأقباط .

وفى سنة ١٩٥١ كان لأحد شيوخ الجامع الأزهر ، وهو الشيخ عبد المجيد سليم ، من الجرأة فى الحق ما جعله يقف فى وجه الملك فاروق الأول منددا بتبذيره ومجونه وفسقه ، فما كان من هذا الملك الخليع إلا أن أرسل برقية إلى القاهرة من مصيفه فى دوفيل « Deauville » بفرنسا بعزله من منصبه . فلما أُبلغ بقرار عزله صاح قائلا : الحمد لله ، ولما قامت حركة الجيش سنة ١٩٥٢ أعادته إلى منصبه فى ذات السنة .

ومن أهم الإصلاحات فى الأزهر فى القرن العشرين إلغاء نظام الجراية ، لأنه لم يعد يتفق مع روح العصر ، فصدر قانون سنة ١٩٢٩ واستبدل بهذا النظام العتيق نظاماً جديداً تقرر بمقتضاه صرف بدل نقدى بدلا من الخبز ، وأطلق عليه « بدل جراية » يوزع على شيخ الجامع الأزهر وعلمائه وبعض كبار موظفيه الإداريين وطلبته .

ولما ولى الدكتور مصطفى عبد الرازق مشيخة الأزهر (١٩٤٥ — ١٩٤٧) شيدت قاعة كبرى للمحاضرات تكمل رسالة الأزهر ، وأطلق عليها قاعة الشيخ محمد عبده ، تقام فيها ندوات دينية وأدبية وعلمية ، وتُلقى فيها محاضرات المواسم الثقافية التى ينظمها الأزهر ، وتعقد فيها مؤتمرات دولية ومحلية . وقد خصصت القاعة لإعداد الرأى العام بجميع فئاته لحل الأزمات الفكرية والنفسية والروحية التى تطرأ عليه من وقت لآخر ، كما تقام فيها حفلات تكريم رؤساء الدول الإسلامية عندما تمنحهم جامعة الأزهر الدرجات الجامعية الفخرية .

وعلى عهد الثورة ألغى نظام الأروقة واستبدل به إنشاء مدينة سكنية للطلبة الوافدين ، ووافق مجلس الوزراء على المشروع فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ وأقيمت على رقعة كبيرة تقع بأرض الغفير بالقرب من الدراسة ، ثم سمح للطلبة المصريين بالإقامة فيها ، ويتكفل الأزهر بنفقات أخرى لطلبة الوافدين بمنحهم مرتبات تصل إلى خمسة عشر جنيهاً شهرياً .

وعلى عهد الثورة أيضاً بلغت حركة تحديث الأزهر ذروتها بصدور القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بإنشاء كليات جديدة للطب ، والهندسة والصناعات ، والزراعة ، والمعاملات والإدارة ، وتطوير خطط الدراسة فى الكليات القديمة وهى كلية الدراسات العربية ، وكلية الشريعة ، وقد أضيف إلى اسمها فيما بعد كلمة « والقانون » ، وكلية أصول الدين ... وكان الهدف من صدور هذا القانون « تزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالعلماء العاملين الذين يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح والتفقه فى العقيدة والشريعة ولغة القرآن ، كفاية علمية وعملية ومهنية ، لتأكيد الصلة بين الدين والحياة ، والربط بين العقيدة والسلوك ، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أنواع النشاط والإنتاج والريادة والقدوة الطيبة ، وعالم الدنيا للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة » . ومضت عجلة الإصلاح قدماً ، فأنشئت تباعاً كلية البنات الإسلامية ، وكلية التربية ، وكلية الصيدلة ، ومعهد اللغات ، ومعهد الصحافة ، وشيدت مدينة جامعية لسكنى الطالبات ، وتوالى إنشاء فروع لجامعة الأزهر فى محافظات الجمهورية ، وازداد عدد روافد الأزهر بإنشاء مزيد من المعاهد الأزهرية على مختلف درجاتها فى المدن ، وإنشاء المعهد النموذجى للفتيات بالمعادى . وقفز عدد الأزهريين المنبعثين إلى العالم الإسلامى والوطن العربى يعملون مدرسين ووعاظاً .. وهكذا يمضى الأزهر فى مسيرته العلمية تعليماً ونشراً ، فى شتى أنحاء مصر وخارجها .

وأخيراً امتازت الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين حتى الوقت الحاضر بطائفة من نوابغ المفكرين والصحفيين والأدباء ممن درسوا فى الأزهر أو بدأوا حياتهم التعليمية فى رحابه من أمثال المشايخ حسين المرصفى ، وعلى يوسف ، ومصطفى لطفى المنفلوطى .. ومن الرعيل الأحدث عهداً الدكتور طه حسين ، وأحمد أمين ، وأحمد حسن الزيات ، وعبد العزيز البشرى ، وعبد العزيز جاويش ، والدكتور مصطفى عبد الرازق ،

وشقيقه على عبد الرازق .. وهؤلاء يمثلون معظم الأسماء التى ذكرها عنان فى كتابه (ص ٢٣٥) ويعلق على أصحاب هذه الأسماء بقوله : « إن الأزهر قد وقف عند هذا الرعيل الأحدث ولم تبد له حتى اليوم — سنة ١٩٥٨ — طلائع خلفائهم من المفكرين والكتاب اللامعين » . ولعله غفل عن باقة من نابهى الأزهر سواء من الرعيل الأول أو الأحدث أو المعاصر ، أمثال محمود شلتوت ، وعبد الحليم محمود ، ومحمد محيى الدين ، وعبد الجليل عيسى ، ومحمد حسن فايد ، ومحمد حسنين مخلوف ، وأحمد حسن الباقورى ، وزكريا البرى ... وغيرهم .

وسنتناول بمشيئة الله جميع هذه الموضوعات وغيرها بشئ من التفصيل فى الجزء الثالث والأخير من هذه الدراسة .

وبالله التوفيق ..

* * *

ثبت
بالمصطلحات التاريخية التى وردت
فى هذه الدراسة

حرف الألف

١ - اختيارية :

جمع اختيار . لفظة تركية ، مقتبسة من اللغة العربية . ومعناها الرجل الطاعن فى السن . وتستخدم بمعنى أحـد العسكريين الذين قضوا سنوات طوالا فى الخدمة العسكرية . ويطلق على أكبرهم سناً « باش اختيار » .

٢ - أخطاط :

جمع خط بضم الخاء ، ومعناها أقسام مدينة القاهرة .

٣ - أستاذ :

مصطلح مملوكى يطلق على السيد الذى يشترى المملوك بالمـال ويتعهده بالتربية حتى يشتد ساعده ويعتقه . وكانت رابطة الأستاذية التى تربط المملوك بأستاذه من أقوى الوشائج فى نظام المماليك.

٤ - أغا :

كلمة تركية ذات عدة مدلولات : منهـا أغا العاصمة أى محافظ القاهرة ، ومن معانيها رئيس أوجاق ، أى رئيس فرقـة عسكرية من فرق الحامية العثمانية فى مصر . وكانت تطلق فى الدولة العثمانية على العبيد الخصيان فى القصور السلطانية وغيرها . وتجمع أغـوات ، وترد أيضا أغاوات .

٥ - إلجى :

كلمة تركية ، تكتب بالجيم المعطشة ، وتنطـق بالشين . ومعناها سفير . ويرد ذكرها فى بعض المصادر العربية إيلجى .

٦ – أولو وزير :

لقب كان يطلق على رئيس الوزراء ، ومعنـــاه الوزير الأول ، ثم استبدل به لقب آخر هو الصدر الأعظم ، ثم أخيراً رئيس الوزراء .

حرف البـــاء

٧ – باشبوزق :

جنود غير نظاميين .

٨ – بدنات :

جمع بدنة . ومعناها جوانب أو حواف أو كتل صخرية .

٩ – بطالون :

جنود غير نظاميين .

١٠ – بيورديات :

كلمة تركية ، مفردها بيوردى . ومعناها أوامر صادرة من الصدر الأعظم أو من شخصية كبيرة مثل الوزير . وتظهر هذه الكلمة فى صور شتى ، سواء فى صيغة المفرد أو فى صيغة الجمع فى المصادر العربية على النحو التالى :

صيغة المفرد : بيوردى ، بيورلدى ، بيرولدى ، بيورولدى .

صيغة الجمع : بيورديات ، بيلورديات ، بيلوربديات ، بيورلايات.

١١ – بيوك :

كلمة تركية معناها كبير .

١٢ – بيوك باشى :

كمتان تركيتان معناهما الموظف الكبير أو الياور .

حرف التـــاء

١٣ — تحت اليسق :

محجوز أو معتقل .

١٤ — تحجير :

تحديد إقامة شخص فى مكان لا يغادره .

١٥ — تيفولى :

نادى ضباط الحملة الفرنسية ، وكان يقع فى حديقـــة الأزبكية ، بالقاهـــرة .

حرف الجـــيم

١٦ — جامدار :

مصطلح تركى معناه الموظف الذى يقوم بإلباس السلطان أو الأمير أو الباشا ثيابه .

١٧ — جرائحيه :

لفظة يستخدمها الجبرتى بمعنى « جراحون » .

١٨ — جوكار :

كلمة فرنسية ، كتبها الجبرتى كما سمعها . والأصل الفرنسى للكامة هو La Cocarde بمعنى شارة أو علامة ، أو شريط ، أو وردة من حرير .

أما نقولا ترك فكتبها كوكاردا وشرحها بأنها النيشان الفرنساوى .

حرف الحـــاء

١٩ — حاصل :

غرفة أو مخزن تودع فيه السلع ، أو البضائع ، أو خزين الأسرة .

٢٠ - حبوش :

مشتقة من بلاد الحبشة ، بمعنى وافدين منها ، وتستعمل عادة بمعنى العبيد .

٢١ - حرمى :

حارس ، أحد رجال الحرس .

٢٢ - حشيشة :

لفافة من القماش يغطى بها الرأس .

حرف الخاء

٢٣ - خشداشية :

رابطة الزمالة بين الأمراء الذين نشأوا مماليك عند أستاذ أو سيد واحد . مفردها خشداش .

٢٤ - خواجة :

اسم يطلق على التاجر الواسع الثراء سواء كان مسلماً أو غير مسلم .

٢٥ - خانقاه :

بيت ينقطع فيه الصوفية للعباده والذكر . وتجمع خوانق ، وخانقاوت . وهى كلمة فارسية .

٢٦ - خوان :

ما يؤكل عليه ، وهى كلمة معربة ، وتجمع أخونة . أما جمع الكثرة فهو خون بضم الخاء .

حرف الدال

٢٧ - دار سعيد السعداء :

دار كبيرة أطلق عليها أيام الحكم الفاطمى هذا الاسم ، وهو لقب

أحد الأساتذة المحنكين ، ثم عرفت باسم « الخانقاه الصلاحية » نسبة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد أن استولى عليهـا ٥٦٩هـ . وخصصها للمتصوفين الوافدين إلى مصر . وعرفت أيضا باسم « دويرة الصوفية » .

٢٨ — ديوان أفنديسى :

لقب يطلق على سكرتير ديوان القاهرة .

حـــرف الزاى

٢٩ — زعر :

قوم ذو شراسة ولا يقدرون الصنيع .

٣٠ — زغادة :

معطف ثمين ، مبطن بفرو يتدلى على ظهر مرتديه .

حـــرف السين

٣١ — سجل :

مصطلح تاريخي معنـــاه المرسوم أو القرار الذى يصدر مكتوباً عن الخليفة الفاطمى .

حـــرف الشين

٣٢ — الشرطة العليا والشرطة السفلى :

كانت إدارة الشرطة وقواتها منقسمة إلى إدارتين : الشرطة العليا فى مدينة العسكر ، والشرطة السفلى فى الفسطاط . فلما تأسست القاهرة وأصبحت العاصمة نقلت إليها إدارة الشرطة العليا . وظلت إدارة الشرطة السفلى فى الفسطاط .

٣٣ — شلنج :

غطاء يوضع على الرأس ومرصع بالجواهـــر . كان السلطان العثمانى يهديه إلى الباشوات ومن بينهم الباشا العثمانى فى مصر . تجمع شلنجات .

٣٤ - شنك :

مشتقة من الكلمة التركية « شنلك » وهى صواريخ نارية تطلق متصاعدة فى السماء ، وتنبعث منها شتى الألوان فى نظام هندسى رتيب تعبيراً عن الإبتهاج . وتستخدم فى الأعياد والمناسبات السعيدة . وتجمع شنكات .

٣٥ - شهبندر التجار :

معناها كبير التجار . وترد فى المراجع العربية شابندر . او الكلمتان مقتبستان من اللغة الفارسية .

حــرف الصاد

٣٦ - صرة :

الأموال السائلة التى تغلها الأوقاف المرصودة على أشراف الحجاز ، والحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وفقراء الأراضى المقدسة . وكانت ترسل هذه الأموال مع قافلة الحج المصرى .

٣٧ - صنجق ، صنجقية :

صنجقية إقليم كبير المساحة كان يقابل فى مصر لفظ مديرية ، وأصبح يطلق عليها محافظة بعد إدخال نظام الحكم المحلى .

أما كلمة صنجق فتطلق على حاكم الصنجقية . ولها معان أخرى مثل علَم أو لواء .

وتكتب صنجق أحياناً بحرف السين « سنجق » وكذلك ترد فى بعض المراجع صنجاق ، صانجاق . وتجمع صناجيق أو سناجيق . وهذه الكلمات مشتقة من اللغة التركية .

حرف الطــاء

٣٨ - طبلخانة :

صفة كانت تلحق بالأمراء المماليك ، فيقال « الأمراء الطبلخانة »

أى الذين يحق أن تدق لهم الطبول عند تحركاتهم لرفعة مقامهم . ولما فتح العثمانيون مصر أبطلوا هذه العادة .

٣٩ — ططرى ، قابجى :

مبعوث من السلطان إلى ولاية من ولايات الدولة فى أمر هام . فإذا سافر إليها براً أطلق عليه ططرى ، وإذا ذهب إليها بحراً سمى « قابجى » والكلمتان تركيتان .

٤٠ — طوبجى :

ضابط أو جندى ينتمى إلى سلاح المدفعية ، وهى كلمة تركية .

٤١ — طيارة :

تجمع طيارات . ومعناها مذكرات أو أوراق . وهذا الاسم عرفت به أوراق الجبرتى وهو يدون كتابه عجائب الآثار .

٤٢ — طيلسان :

هو شال ، وهو قطعة كبيرة من القماش توضع على الكتفين وتغطيهما . ويذكرها الجبرتى فى صيغة الجمع المؤنث السالم : طيلسانات ، وهذا خطأ .

حرف العين

٤٣ - علوفة :

تجمع علائف ، وهى مرتبات العسكريين والبدلات التى تصرف لهم . ويدخل فى العلائف بدل تعيين طعام سواء للإنسان أو الخيل .

حرف الفاء

٤٤ — فرض :

بضم الفاء وفتح الراء . ما يفرضه الحاكم ، أياً كانت درجته ، من إتاوات جزافية ومغارم على السكان مثل حق الطريق والبشرى وما إلى ذلك .

٤٥ — فرط الرمان :

اسم أطلقه أهل القاهرة إبان الاحتلال الفرنسي على رجل يوناني شرس عينه الفرنسيون في منصب كتخدا مستحفظان ، أي وكيل محافظة القاهرة ، وكان اسمه برتلمي . وكان معروفاً بكراهيته الشديدة للمصريين وهوايته في قتلهم . وقد أطلقوا عليه من باب التهكم « فَرْط الرُّمان » Grain – de – Grenade.

٤٦ — فرمن :

أصدر فرماناً ، وهو المرسوم . والفرمان نوعان فرمان سلطاني يصدره السلطان ، وفرمان ديواني يصدر عن رئيس الوزارة أو وزير أو باشا يحكم ولاية .

٤٧ — فسيال :

كلمة مشتقة من اللغة الإيطالية uffiziale ومعناها ضابط في جيش إحدى الدول الأوروبية . استخدمها الجبرتي في كلامه عن الضباط البريطانيين الذين وقعوا في الأسر في معركتي رشيد وحماد ، وسيقوا إلى القاهرة .

وتجمع فسيالية ، فسيالات ، أو فسيالية ، فصيان .

٤٨ — فضة :

منطقة فضة مذابة وموضوعة في صدر الجامع الأزهر . خلعها صلاح الدين الأيوبي بعد انقضاء حكم الدولة الفاطمية بسنتين .

حرف القاف

٤٩ — قابجي :

انظر كلمة ططري .

٥٠ — قبالى :

أمراء قبالى أى أمراء مماليك اعتصموا بالوجه القبلى ، وتحدوا محمد على ، ومن قبله الأميرين المملوكين ابراهيم بك الكبير ومراد بك قبل مجيء الحملة الفرنسية ومنعوا إرسال الغلال إلى القاهرة .

٥١ — قور :

استعمل الحاكم أو المحقق التعذيب مع المتهم حتى يحمله على الاعتراف.

٥٢ — قللقات :

مصطلح تاريخى ، مفرده قلق . وهذه اللفظة مأخوذة من اللغة التركية قوللق . ومعناها أحد أفراد الشرطة الذين يطوفون ليلا فى دورة عسس .

٥٣ — قنبر :

وتكتب أيضا قنابر ، بمعنى قنابل .

٥٤ — قواسة .

ويرد ذكرها فى بعض المراجع قراصة ، ومفردها قراس أو قواص . بمعنى أحد رجال للشرطة المحليين .

٥٥ — قياسر :

مفردها قيسارية ، وهى سوق مسقوفة . وكانت تطلق أيضا على الخان أو الوكالة ، أى المبنى الذى يحتوى على غرف ومخازن تودع فيها بضائع التجار الوافدين أو المارين بالقيسارية . ويعلو الدور الأرضى طبق بارتفاع دورين فى العادة ، وينزل فيها التجار والمسافرون والأغراب . ويلحق بها مسجد صغير وميضأة واسطبل للدواب .

حرف الكاف

٥٦ — كاشف ، كشوفية :

لقب يطلق على حاكم إقليم أقل مساحة وتعداداً وأهمية من الصنجقية

(المديرية) . وكان يطلق على الإقليم الذى يحكمه كاشف « كشوفية » وقد تغيرت هذه الأسماء بعد أن استقرت دعائم الحكم فى مصر لمحمد على وخلفائه .

٥٧ — كتخدا :

كلمة تركية معناها وكيل أو نائب . فكان يقال كتخدا الباشا فى مصر أى نائب محمد على فى أثناء غيابه عن القاهرة أو خلال تواجده خارج مصر .

٥٨ — كنجه :

معناها الذهبية . وهى تخت أى سفينة فاخرة كانت مخصصة للباشا العثمانى يستقلها فى رحلاته فى النيل . وهى مأخوذة من الكلمة الفرنسية Kange.

حرف الميم

٥٩ — مساتير :

لفظة أكثر الجبرتى من استخدامها وهى جمع مستور ، أى الشخص الذى لديه من المال ما يجعله فى غنى عن طلب مساعدة مالية من الغير أو طلب قرض .

٦٠ — مشاعلية :

جمع مشاعلى مشتقة من المشاعل إذا استخدموها ليلا . وكان يطلق عليهم « الضوية » نسبة إلى الضوء المنبعث من المشاعل ، وهم طائفة من المصريين كانوا يزاولون عدة أعمال ليلا ونهاراً . وكان من بينها :

(ا) قراءة الفرمانات السلطانية والديوانية التى ترى السلطات العثمانية إذاعتها على الشعب . وكذلك تعليمات والى القاهرة ، وهــو رئيس جهاز الشرطة فى العاصمة .

(ب) تنفيذ أحكام الإعدام باستخدام المشنقة .

(حـ) تنفيذ أحكام الجلد ، ويطلق عليهم فى هذه الحال الجلادون . وكانوا يجلدون التجار والباعة الذين يخالفون التسعيرة أو يطففون الميزان والمكيال . وكان هذا الفريق من المشاعلية يرافقون المحتسب فى جولاته اليومية فى الأسواق .

(د) كان من بينهم من يقوم بأعمال دنيئة مثل نزح آبار البيوت والحمامات العامة .

٦١ — مصرلى :

كلمة مشتقة من الكلمة العربية مصرى ، وجمعها مصرلية . والجبرتى يكتبها بالصيغة التركية فيقول مصرلى ، والأمراء المصرلية أى الأمراء المصريين ويقصد بهم الأمراء المماليك . وأخذاً بهذه القاعدة يستخدم الجبرتى كلمة عثمانلى أى عثمانى ، وعبارة العساكر العثمانلية أى الجنود العثمانيين .

٦٢ — معتادات إستانبول — إرسالية :

مصطلح تاريخى معناه الهدايا التى كان يتعين على الباشا العثمانى فى مصر إرسالها كل سنة إلى السلطان وحريمه وبعض أفراد أسرته ورجالات الباب العالى . وتتضمن كميات وفيرة من الأرز والسكر والبقول وماء الورد والشربات والعطور والعصافير والتوابل والأقمشة الحريرية الهندية والأقمشة الصوفية والجوخ . وكانت حكومة القاهرة تحصل على هذه السلع من الأسواق المحلية أو الخارجية أو من ملتزم منطقة دمياط أو من أمين جمرك البهار على طريق السويس — القاهرة الصحراوى .

وكانت تتضمن معتادات إستانبول أيضا الخيل والبغال والبارود للجيش العثمانى ، وخيوط القنب والأسلاك والشنابر الحديدية للأسطول ،

والقصدير لتنظيف الأواني في مطابخ القصور السلطانية . وكان يطلق على المعتادات اسم آخر هو الإرسالية . وكانت ترسل عادة بطريق البحر إلى إستانبول .

٦٣ — مقارشة :

معناها مجادلة أو منازعة .

٦٤ — مكتوبجي :

موظف مختص بتحرير الفرمانات والاتفاقيات وسائر الوثائق الهامة . وكان يوجد في كل ولاية عثمانية مكتوبجي أو أكثر . ويشهدون اجتماعات دواوين الولايات ، كما كان يوجد عدد وفير منهم في الديوان الإمبراطوري في إستانبول :

٦٥ — منازل العز :

كانت من دور الخلفاء الفاطميين في القاهرة . وقد شيدتها السيدة تغريد والدة الخليفة العزيز بالله . وكانت هذه الدور تطل على النيل . وكانت معدة لنزهة الخلفاء . وكان بجانب كل منها حمام يعرف بحمام الذهب .

٦٦ — منظرة الأزهر :

مكان فخم بناه الخليفة المعز لدين الله يليق بمركز الخليفة ، يشاهد منه المواكب الرسمية والاحتفالات الدينية ، مثل المولد النبوي الشريف وليالي الوقود . وكانت تقام الزينات وتضاء التنانير والقناديل والمشاعل على المبنى الخارجي للجامع الأزهر وسطحه وفي صحنه ومقصورته وسائر أجزائه الداخلية . وكانت جموع الشعب تتقاطر من شتى أحياء القاهرة نحو الجامع الأزهر للمشاركة في هذه الاحتفالات . وبنى المعز في قصره منظرة ليشاهد منها هذه الزينات ، وليطل منها على جموع المحتفلين ومواكبهم . وأطلق

عليها منظرة الجامع الأزهر . وكانت تستخدم أحيانا وفى بعض الأوقات العادية مكاناً يستروح فيه الخليفة .

حرف النـــون

٦٧ — ٦٩ ناظر الأزهر ، شيخ الجامع الأزهر ، شيخ الأزهر :

ناظر الأزهر منصب إدارى حل محل منصب المشرف على الجامع الأزهر الذى كان مستخدماً فى عصر الدولة الفاطمية ، ثم أنشىء منصب الناظر منذ عهد دولتى المماليك البحرية والشراكسة . وكان يختص بالشئون الإدارية وبعض المسائل المالية . وكان الناظر يرأس الجهاز الإدارى من الموظفين والخدم . وكان التعيين فيه مقصوراً على الأمراء المماليك . واستمر العمل بهذا النظام قائما طوال الحكم العثمانى . ولمـــا جاء الفرنسيون ألغوا منصب ناظر الأزهر . ثم أعيد هذا المنصب فى مطلع حكم محمد على واستحوذ عليه علماء الأزهر .

شيخ الجامع الأزهر :

أنشىء هذا المنصب فى العصر العثمانى . والرأى المتواتر أن أول من شغله كان الشيخ محمد عبد الله الخرشى المتوفى سنة ١١٠١ هـ (١٦٩٠م) . وكان هو الرئيس الأعلى للجامع الأزهر ، وله الإشراف المباشر على العلماء والطلبة . وله مخصصاته النقدية والعينية .

شيخ الأزهر :

طبقاً للقانون رقم ١٠٣ الصادر سنة ١٩٦١ استبعـــد من لقب شيخ الجامع الأزهر لفظ الجامع فأصبح لقبه شيخ الأزهر . وله رياسة المجلس الأعلى للأزهر ومجمع البحوث الإسلامية والإشراف العام على إدارة الثقافة والبحوث الإسلامية وجامعة الأزهر والمعاهد الأزهرية .

٧٠ — ناظر الجيش .

أهم وظيفة فى دولتى المماليك ، إذ كانتا دولتين عسكريتين فى المقام الأول . وكان يشرف على الطوائف العسكرية التى يتكون منها الجيش المملوكى .

٧١ — ناظر الخاص :

أحد كبار موظفى دولتى المماليك ، ويشرف على ديوان الخاص ويتولى لشئون المالية الخاصة بالسلطان .

٧٢ — ٧٣ نائب الحضرة ونائب الغيبة :

كان لسلطان دولتى المماليك نائبان : نائب الحضرة ويطلق عليه أيضاً النائب الكافل ، وهو ينوب عن السلطان فى أثناء وجوده فى مصر ، ويشترك معه فى إصدار القرارات ، ومنح ألقاب الإمارة ، وتوزيع الإقطاعات ، وتعيين كبار الموظفين .

أما نائب الغيبة فهو أقل درجة ، وينوب عن السلطان فى أثناء غيابه عند خروجه إلى حرب أو حج .

حرف الهاء

٧٤ — همايونى :

كلمة فارسيه أدخلت فى اللغة التركية ، ومعناها سلطانى .

حرف الواو

٧٥ — والى :

لها معنيان : المعنى الأول والى مصر وهو نائب السلطان العثمانى فى حكم مصر ورئيس الحكومة المصرية .

المعنى الثانى : والى القاهرة وهو رئيس الشرطة فى مدينة القاهرة .

٧٦ — وجاق :

كلمة تركية معناها موقد أو كانون . وتستخدم بمعنى فرقة عسكرية وتكتب فى صيغ مختلفـــة : وجاق ، أوجاق . وتجمـــع أوجاقات ، أوجاقلية ، وجاقية ، بجاقات .

٧٧ — ورديان :

كلمة مشتقة من اللغة الإيطالية guardiano بمعنى حارس أو ديدبان .

وتكتب فى اللغة التركيـــة غارديان ، ووارديان ، وغارديا ، بمعنى حرس .

٧٨ — وطاق :

كلمة تركية معناها خيمة يرفع عليها علم أو بنديرة . وتكتب وطاق ، وأوطاق ، وأوتاق .

حرف اليـــاء

٧٩ — يارن آلاى :

عبارة تركية معناها غداً موكب فخم .

كانت هذه العبارة وسيلة من وسائل الإعلام . يركب أحد الشاويشية حماراً عالياً وعلى جانبيه يسير أربعة جنـــود ، اثنان من كل جانب ، ويمسك كل منهم نبوتاً غليظاً طويلا . ويطوفون بشوارع القاهرة المكتظة . فإذا وصلوا إلى ناصية أحـــد هذه الشوارع توقفوا عن المسير . ويضرب الجنود الأربعة أرض الشارع بنبابيتهم بصوت جهير . فيهرع المـــارة إلى الموكب ،وعندئذ يصيح الشاويش بأعلى صوته بهذه العبارة التركية . ويستفسر الأهالى من الجنود الأربعة باللغة العربية عن الموكب فيجيبونهم بأنه بمناسبة قدوم شخصية كبيرة من إستانبول أو حفل زفاف ابنة أحـــد الكبراء ،

أو ختان ابن شخص من كبار القوم ، كما يستفسرون عن موعد مرور الموكب وعن الشوارع التى يمر بها . ثم يستأنف الموكب طوافه بسائر أحياء القاهرة .

٨٠ — **يساقجى :**

كلمة تركية بمعنى قواس أى رجل شرطة .

٨١ — **يسق :**

كلمة تركية معناها أمر بإلقاء القبض على شخص .

٨٢ — **يلضاشات**

كلمة تركية بمعنى زميل فى السلاح . ومفردها يولداش . ويرد ذكرها فى الجبرتى : ألداش ويجمعها أولداشات ، ألضاشات ، يلداشات ، يولداشات .

٨٣ — **يلك :**

كلمة تركية معناها صديرى له أكمام طويلة .

وكان الأمراء المماليك يرتدون هذا اليلك . ويتميز فى هذه الحالة بأنه قصير ومتسع ، وأكمامه طويلة جدا وواسعة للغاية . ويجمع الجبرتى هذا المصطلح يلكات .

* * *

ثبت

بأسماء المصادر والمراجع العربية والمعربة التي وردت أسماؤها في حواشي الدراسة مرتبة أبجدياً طبقاً لأسماء المؤلفين أو المعربين

١ - ابراهيم على طرخان (دكتور) :

مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة ١٣٨٢ - ١٥١٧ ، القاهرة ١٩٦٠ .

٢ - ابراهيم المويلحى :

الأرض والفلاح فى العصر العثمانى .

بحث فى مجلد بعنوان الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور .

من إصدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٣ - ابراهيم عبده (دكتور) :

تاريخ الوقائع المصرية (١٨٢٨ - ١٩٤٢) بولاق ، القاهرة ، ١٩٤٢.

٤ - ابن الأثير ، على بن أحمد بن أبى الكرم :

الكامل فى التاريخ ١٢، جزءاً ، بولاق ، ١٢٧٤ هـ .

٥ - ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور . وهى فى خمسة أجزاء من إصدار جمعية المستشرقين الألمانية هلموت ريتر ، وألبرت ديتريش . وحققها وكتب لها المقدمة والفهارس الأستاذ محمد مصطفى أمين دار الآثار العربية بالقاهرة . وأصدر سيادته كتاباً مستقلا بعنوان :

« صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس » .

وقد تولى تحقيقه وكتابة مقدمته وحواشيه وفهارسه . ونشرته الجمعية

المصرية للدراسات التاريخية وطبعته دار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ ، ويقع في ٢٢٦ صفحة من القطع الكبير .

٦ — **ابن تغرى ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى :**

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . عشرة أجـزاء . طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٢٩ — ١٩٤٩ .

٧ — **ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين بن على :**

الإصابة فى تمييز الصحابة .

٨ — **ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد :**

٨ — مقدمة ابن خلدون .

٩ — العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .

١٠ — **ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى :**

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . جزءان ، بولاق ، ١٢٨٣ هـ .

١١ — **ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد المصرى :**

الانتصار لواسطة عقد الأمصار :

١٢ — **ابن فودى ، الإمام محمد بلو بن عثمان بن فودى :**

إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور . تحقيـق ونشر دكتور شوقى عطا الله الجمل . حوليات كلية الآداب بجامعة القاهرة . العد ٦٧

١٣ — **ابن ميسر ، محمد بن على بن يوسف بن جلب ·**

تاريخ مصر . طبعة هنرى ماسيه Henri Massé القاهرة ، ١٩١٩ .

١٤ — **ابن واصل ، جمال الدين بن واصل :**

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

الجزءان الأول والثانى تحقيق دكتور جمال الدين الشيال .

الجزءان الرابع والخامس تحقيق دكتور حسنين محمد ربيع .

١٥ — أبو المحاسن ، جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة :

١٦ — أبو الوفا المراغى :

كلمة تاريخية عن المكتبة الأزهرية . بحث فى عدة مقالات نشرت فى مجلة الأزهر ، سنة ١٩٤٥ .

١٧ — أحمد تيمور باشا :

الشيخ محمد عياد الطنطاوى :

مقال فى مجلة المجمع العلمى العربى . دمشق الجزء ٩ ، أيلول (سبتمبر) ١٩٢٤ .

١٨ — أحمد حافظ عوض :

فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر . القاهرة ، ١٩٢٥ .

١٩ — أحمد حسن الباقورى :

الأزهر بين الخليفة المعز والرئيس جمال عبد الناصر .

وهو أحد البحوث التى ألقيت فى الندوة الدولية لألفية القاهرة التى أقيمت فى المدة من ٢٧ مارس حتى ٥ أبريل سنة ١٩٦٩ . وقد نشر هذا البحث فى المجلد الأول ص ص ٧١ — ١١٣ وهو أحد المجلدات الأربعة لبحوث الندوة .

٢٠ — أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) :

٢٠ — تاريخ التعليم فى عصر محمد على . القاهرة ، ١٩٣٨ .

٢١ — تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق (١٨٤٨ — ١٨٨٢) القاهرة ١٩٤٦ .

٢٢ — **أحمد فكرى (دكتور) :**

خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى .

٢٣ — **أحمد ممدوح حمدى :**

عواصمنا الإسلامية قبل القاهرة .

وهو أحد البحوث التى ألقيت فى الندوة الدولية لألفية القاهرة ونشر فى ج ١ ، ص ص ٢٠١ — ٢٠٤ ؛

٢٤ — **أمين سامى باشا :**

تاريخ التعليم فى مصر . مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٣٢٥هـ — ١٩١٧م

٢٥ — تقويم النيل . الجزء الثانى (عصر محمد على) . القاهرة ، ١٩٢٨ .

٢٦ — **أمين مصطفى عفيفى عبد الله (دكتور) :**

تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث . الطبعة الأولى . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ، ١٩٥٢ .

٢٧ — **الباز العرينى (دكتور) :**

مصر فى عصر الأيوبيين .القاهرة ١٩٦٠

٢٨ — **توفيق الطويل (دكتور) :**

التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى . القاهرة ، د. ت ؛الناشر مكتبة الآدب بالحماميز . القاهرة .

٢٩ — **جرجس سلامة :**

تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر .

٣٠ — **جمال الدين الشيال (دكتور) :**

٣٠ — تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥١ .

٣١ — رفاعة رافع الطهطاوى . مجموعة أعلام الإسلام . القاهرة ، ١٩٤٥ .

٣٢ — دكتور برون والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى . صورة من الاتصال العلمى بين الشرق والغرب فى عصر محمد على . مجلة كلية الآداب . جامعة الاسكندرية . العدد الثانى ، ١٩٤٤ .

٣٣ — جمال الدين سرور (دكتور) :

الدولة الفاطمية فى مصر . القاهرة ، ١٩٦٥

٣٤ — جورجى زيدان بك :

تاريخ الآداب العربية .

٣٥ — الجوهرى الصيرفى :

نزهة النفوس .

٣٦ — حسن ابراهيم حسن (دكتور) :

الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص . المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٣٢ .

٣٧ — حسن عبد الوهاب (باشا) :

٣٧ — تاريخ المساجد الأثرية . جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

٣٨ — وبحث منشور فى مجلة العمارة ، المجلد الثانى ، عدد ٥ — ٦ ، ٣١٠ — ٣١٥ .

٣٩ — حسن عثمان (دكتور) :

تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) فى مجلد بعنوان «المجمل فى التاريخ المصرى» وشارك فى وضعه بعض أساتذة التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة . ١٩٤٢ .

٤٠ – حسنين محمد ربيع (دكتور) :

٤٠ – بحر الحجاز فى العصور الوسطى . بحث منشور فى مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض . العدد الأول ، عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧) ص ص ٣٩٩ - ٤١٦ .

٤١ – النظم المالية فى مصر فى عصر الأيوبيين . مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤

٤٢ – البحر الأحمر فى العصر الأيوبى . من بحوث الندوة التى أقامتها جامعة عين شمس فى المدة من ١٠ حتى ١٥ مارس سنة ١٩٧٩ و موضوعها البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة .

٤٣ – حسين مؤنس (دكتور) :

الشرق الإسلامى فى العصر الحديث . القاهرة ، ١٩٣٨ .

٤٤ – الخورى بولس قرألى :

السوريون فى مصر . ج ١ . علاقات سوريا و مصر من أول التاريخ إلى محمد على .

المطبعة السورية ، مصر الجديدة ، القاهرة ، ١٩٢٨ .

٤٥ – رفاعة رافع الطهطاوى (الشيخ ، بك) :

٤٥ – تخليص الإبريز فى تلخيص باريز . القاهرة ، ١٢٦٥ هـ .

٤٦ – مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب المصرية . القاهرة ، ١٣٣٠هـ (١٩١٢ م) .

٤٧ – زكى محمد حسن (دكتور) :

٤٧ – الفن الإسلامى فى مصر . القاهرة ، ١٩٣٥ .

٤٨ – كنوز الفاطميين . القاهرة ١٩٣٧ .

٤٩ – فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .

سامى عزيز :

٥٠ — الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال البريطانى . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن :

٥١ — الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع .

سعاد ماهر محمد (دكتورة) :

٥٢ — مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . جزءان . القاهرة ، ١٩٧١.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

٥٣ — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ١٩٦٣ .

٥٤ — مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ١٩٥٩ .

٥٥ — العصر المماليكى فى مصر والشام ١٩٦٥ .

سيد رجب حراز (دكتور) :

٥٦ — الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة .

سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة) :

٥٧ — مصر فى فجر الإســـلام . من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية . الطبعة الثانية . مكتبة النهضة العربية. القاهرة ، ١٩٧٠ .

٥٨ — مصر فى عصر الإخشيديين . الطبقة الثانية . مكتبة النهضة العربية ، ١٩٧٠ .

٥٩ — الأرض والفلاح فى مصر الإسلامية .

فى مجلد « الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور » إصدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة ١٩٧٤ .

سيدة اسماعيل كاشف (دكتورة) وحسن أحمد محمود (دكتور) :

٦٠ — مصر فى عصر الطرلونيين والإخشيديين . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ، ١٩٦٠ .

السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن جلال الدين الخضيرى السيوطى :

٦١ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . جزءان ، القاهرة ، ١٣٢٧ هـ .

وقد ظهر كتاب عنوانه « جلال الدين السيوطى » نشرت فيه البحوث التى ألقيت فى الندوة العلمية التى أقامتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة حالياً) بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٧٦ . وتولت الهيئة المصرية العامة للكتاب طبع هذه البحوث فى ذلك الكتاب سنة ١٩٧٨ .

عبد الجواد صابر اسماعيل (دكتور) :

٦٢ — مجتمع علماء الأزهر فى العصر العثمانى . جزءان . رسالة دكتوراه تحت إشرافنا . لم تطبع بعد .

عبد الحليم الجندى :

٦٣ — الإمام الشافعى . القاهرة ، يناير ١٩٦٧ .

عبد الرحمن الجبرتى :

٦٤ — مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس . مخطوط من ثلاث نسخ فى دار الكتب بالقاهرة تحمل الأرقام ١٣٢٨ ، تاريخ ، المكتبة التيمورية ، ١٠١ تاريخ ، مكتبة الأمير مصطفى فاضل ، ٣٣٠ تاريخ . وطبع حديثاً طبعة غير دقيقة . وغير الناشر عنوان الكتاب فجعله « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس » . وهو لا يملك هذا الحق .

٦٥ — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . مطبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) أربعة أجزاء .

عبد الرحمن الرافعى :

٦٦ — تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر . القاهرة . جزءان :
الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، ١٩٥٥ .
الجزء الثانى : الطبعة الثالثة ، ١٩٥٨ .

٦٧ — عصر محمد على . الطبعة الثانية ١٩٤٧ .

٦٨ — عصر اسماعيل . جزءان :
الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨ .
الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨ .

٦٩ — الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى . الطبعة الثانية ١٩٤٩ .

عبد الرحمن الرافعى ، ودكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :

٧٠ — مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى . الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

عبد الرحمن زكى (دكتور) :

٧١ — القاهرة ، تاريخها وآثارها (٩٦٩ — ١٨٢٥) من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة (١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦م) .

٧٢ — موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام . القاهرة ١٩٦٩ .

٧٣ — الأزهر وما حوله من الآثار . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة ، ١٩٧٠ .

٧٤ — قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٧٥ — حواضر العالم الإسلامى . القاهرة منارة الحضارة الإسلامية . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ، ١٩٧١ .

عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :

٧٦ — عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة ١٩٦٧ .

٧٧ — أوربا فى مطلع العصور الحديثة . الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٩ (الفصول الخاصة بالدولة العثمانية) .

٧٨ — دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى . من بحوث الندوة الدولية لألفية القاهرة والتى عقدت فى القاهرة فى المدة من ٢٧ مارس حتى ٥ أبريل ١٩٦٩ . وقد نوقش هذا البحث فى جلسة ٢٩ مارس ١٩٦٩ .

وطبع فى مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٧٢ .

٧٩ — صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر . البحث الثانى الذى تقدم به المؤلف للندوة الدولية لألفية القاهرة ، ونوقش فى ذات الجلسة المشار إليها سابقاً . وطبع مستقلا فى مطبعة دار الكتب بالقاهرة ، ١٩٧١ ، ٢٢٩ صفحة .

٨٠ — مقاومة الأزهر لحملات الغزو الأجنبى لمصر فى العصر الحديث حتى سنة ١٩١٩ من بحوث العيد الألفى للأزهر ١٩٨٣ ، الهيئة المصرية العامة الكتاب ، ١٩٨٤ .

٨١ — أروقة الأزهر مظهراً لانفتاحه على العالم الإسلامى .

بحث من إصدار المجلس الأعلى للثقافة عنوانه « الإسلام على مدى خمسة عشر قرنا » بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجرى . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٨٢ — الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . خمسة أجزاء . فى

ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير . ظهر منها حتى الآن أربعة أجزاء .
الناشر مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة (١٩٨٠ — ١٩٨٤) .

٨٣ — الخطط التوفيقية لعلى مبارك . دراسة تحليلية . بحث منشور فى تراث الإنسانية المجلد الرابع العدد ١١ ص ص ٨٤٩ — ٨٩٣ ، سنة ١٩٦٦ .

عبد الله الشرقاوى (الشيخ) :

٨٤ — تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين . القاهرة ، طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٨٦ﻫ (١٨٦٩ — ١٨٧٠م) .

عبد المتعال الصعيدى :

٨٥ — تاريخ الإصلاح فى الأزهر القاهرة ، ١٩٥٨ .

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

٨٦ — نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . القاهرة ، ١٩٥٣ .

عبد المنعم ماجد (دكتور) وعبد المحسن رمضان :

٨٧ — جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها . وقد وضع هذا الجدول المستشرق ويستنفلد . ف Wustenfeld. F. وترجمه دكتور ماجد والسيد/ رمضان . والناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

على ابراهيم حسن (دكتور) :

٨٨ —تاريخ جوهر الصقلى ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

٨٩ — مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى . الطبعة الخامسة ، ١٩٦٤ .

على الجريتلى (دكتور) :

٩٠ — تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . القاهرة ، ١٩٥٢ .

علی مبارك باشا :

٩١ — الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . عشرون جزءاً . طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م).

عمر طوسن (الأمير) :

٩٢ — البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد . الإسكندرية ، ١٩٣٤ .

فؤاد اندراوس :

٩٣ — بونابرت فى مصر . تعريب كتاب ألفه J. Christopher Herold بعنوان Bonaparte in Egypt . وقد نشرت الترجمة العربية دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . بالقاهرة ، سنة ١٩٦٧ .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد :

٩٤ — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . أربعة عشر جزءاً . القاهرة ، ١٩١٣ — ١٩١٧ .

وقد نشر كتاب عنوانه « أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى » طبعت فيه البحوث التى ألقيت فى ندوة علمية أقامتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة حالياً) بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨ : واشترك فيها مجموعة من الأساتذة والباحثين . وتولت الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٧٣ نشر هذا الكتاب .

كراتسكوفسكى أغناطيوس (مستشرق روسى) :

٩٥ — تصحيحات لمقال تيمور باشا عن الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، بحث منشور فى مجلة المجمع العلمى العربى . دمشق . ج ١٢ ، عدد كانون أول (ديسمبر) ١٩٢٤ .

الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف :

٩٦ — الولاة والقضاة .

محب الدين الخطيب :

٩٧ — الشيخ محمد عياد الطنطاوى . مقال فى مجلة الزهراء . عدد رجب ١٣٤٣ .

المحبى ، محمد الأمين فضل الله بن محب الله المحبى :

٩٨ — خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . أربعة أجزاء . القاهرة ، ١٢٨٤ (١٨٦٧ / ١٨٦٨) .

لويس شيخو (الأب) :

٩٩ — الآداب العربية فى القرن التاسع عشر . جزءان . مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨ — ١٩١٠ .

لين بول ستانلى Lane-Poole Stanley The Story of Cairo :

١٠٠ — عربه الدكتوران حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن وإدوارد حليم تحت اسم سيرة القاهرة . الطبعة الثانية . القاهرة ، ١٩٥١ .

محمد أنيس (دكتور) :

١٠١ — مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى . القاهرة ، ١٩٦٢ .

محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى :

١٠٢ — الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة ، ١٠٥٤ هـ .

محمد بن عبد المعطى الاسحاقى (ابن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى الاسحاقى المنوفى) :

١٠٣ — لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . ١٠١٦ هـ .

محمد جميل بيهم :

١٠٤ — العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب . بيروت ، ١٩٥٩ .

محمد حافظ غانم (دكتور) :

١٠٥ — مبادئ القانون الدولى العام . القاهرة ، ١٩٦٤ .

محمد خليل المرادى :

١٠٦ — سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر . أربعة أجزاء ، القاهرة ، ١٣٠١ هـ (١٨٨٣ م) .

محمد رفعت رمضان (دكتور) :

١٠٧ — على بك الكبير د. ت . الناشر دار الفكر العربى . القاهرة .

محمد شفيق غربال :

١٠٨ — الجنرال يعقوب ، والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ . القاهرة ١٩٣٢ .

١٠٩ — محمد على الكبير . القاهرة ، فى مجموعة أعلام الإسلام ، ١٩٤٤ .

١١٠ — منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ما هى عليه اليوم . القاهرة ، ١٩٦١ .

محمد عبد الغنى حسن :

١١١ — حسن العطار . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .

محمد عبد الله عنان :

١١٢ — تراجم إسلامية شرقية وأندلسية . دار المعارف . القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٧ .

١١٣ — تاريخ الجامع الأزهر . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

١١٤ — الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩ م .

١١٥ — ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى . الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١١٦ — نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين . الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

محمد عبد المنعم خفاجى (دكتور) :

١١٧ — الأزهر فى ألف عام ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

محمد عمر بن سليمان التونسى :

١١٨ — الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية .

محمد فريد أبو حديد :

١١٩ — سيرة السيد عمر مكرم . من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ، ١٩٣٧ .

محمد فؤاد شكرى (دكتور) :

١٢٠ — عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر . مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

١٢١ — مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ — ١٨١١ . ثلاثة أجزاء . مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ .

محمد فهمى لهيطه (دكتور) :

١٢٢ — تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة . القاهرة ، ١٩٤٤ .

محمد لبيب البتانونى :

١٢٣ — تاريخ حياة كلوت بك . معرب عن الفرنسية . القاهرة ، ١٣٠٨هـ .

محمد المحبى ، محمد الأمين فضل الله بن محب المحبى :

١٢٤ — خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . أربعة أجزاء . القاهرة ، ١٢٨٤هـ (١٨٦٧/١٨٦٨) :

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

١٢٥ — الدولة الأيوبية . المجلد الثانى من تاريخ الحضارة المصرية . إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومى . د. ت . الناشر مكتبة مصر . الفجالة ، القاهرة .

محمود الشرقاوى :

١٢٦ — مصر فى القرن الثامن عشر . ثلاثة أجزاء ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ على التوالى .

محمود رزق سليم (دكتور) :

١٢٧ — النيل فى عصر المماليك . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ .

محمود فهمى حجازى (دكتور) :

١٢٨ — أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى . القاهرة ، ١٩٧٤ .

مرتضى بك بن مصطفى بك بن حسن بك :

١٢٩ — ذيل تحفة الأحباب ، ١١٣٦هـ . (١٧٢٤م) . محفوظ برقم ٢٨ تاريخ بمكتبة رفاعة الطهطاوى بمدينة سوهاج .

مصطفى الصفوى القلعاوى :

١٣٠ — تاريخ صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان . ١٢٢٣هـ (١٨٠٨) . محفوظ برقم ٥١ تاريخ بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج .

المقرى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقرى :

١٣١ — نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، أربعة أجزاء . طبعة بولاق . القاهرة، ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) .

١٣٢ — أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض .

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على :

١٣٣ — السلوك فى معرفة دول الملوك .

حقق الدكتور محمد مصطفى زيادة . الجزءين الأول والثانى .

وحقق الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور الجزءين الثالث والرابع .

وترجمه إلى الفرنسية سنة ١٨٣٧ المستشرق كاترمير : **Quatremère**

وجعل عنوانه : **Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte**

وذيله بمذكرات لغوية وتاريخية وجغرافية .

١٣٤ — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . بولاق ، ١٢٧٠ هـ

١٣٥ — اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . ثلاثة أجزاء ، حقق الجزء الأول دكتور جمال الدين الشيال وبعد رحيله سنة ١٩٦٧ حقق دكتور محمد حلمى محمد أحمد الجزءين الثانى والثالث . القاهرة ١٩٧٣ .

وقد ظهر كتاب سنة ١٩٧١ عنوانه « دراسات عن المقريزى » نشرت فيه البحوث التى ألقيت فى ندوة علمية عن المقريزى بصفته شيخ المؤرخين العرب فى القرن الخامس عشر الميلادى . وقد أقامت هذه الندوة لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة حالياً) بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٦ وألقى فيها نخبة من أعلام المؤرخين والأثريين والجغرافيين بحوثهم . وقامت الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة بنشر بحوثهم .

النابلسي ، عبد الغني بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم النابلسي الدمشقي الحنفي القادري النقشبندي :

١٣٦ — الحقيقة والمجاز ، في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز .

كتب المؤلف في هذا الكتاب انطباعاته عن الجامع الأزهر وأساتذته وطلبته عند زيارته له في ٩ جمادى الأولى ١١٠٥ الموافق ٦ يناير ١٦٩٤ .

والكتاب مخطوط ومودع دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٤٨١ تاريخ — المكتبة التيمورية .

نعيم زكي فهمي (دكتور) :

١٣٧ — طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى . الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٧٣٠ .

نقولا يوسف ترك :

١٣٨ — مذكرات نقولا ترك . مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية . القاهرة ، ١٩٥٠ .

وكاتب هذه المذكرات لبناني ماروني ، ومن مواليد قرية دير القمر سنة ١٧٦٣ ، وكان من أتباع الأمير بشير الشهابي زعيم الدروز الذي أوفده إلى مصر إبان الحملة الفرنسية عليها ، وامتدت إقامته فيها بضع سنوات يعد خلالها جمع العناصر والمواد التي مكنته من وضع كتابه التاريخي . وعاد إلى دير القمر .

وقد قام المستشرق الفرنسي الأستاذ جاستو فييت **Gaston Wiet** مدير دار الآثار العربية بنشر هذه المذكرات باللغة العربية كما جاءت بقلم نقولا ترك مع ترجمة لها باللغة الفرنسية وتعليق عليها . ووضع إلى جهة اليمين عنوان الكتاب باللغة العربية ، وإلى جهة اليسار العنوان الذي اختاره له ، وهو **Nicolas Turc. Chronique d'Egypte 1798 – 1804. Editée et Traduite par Gaston Wiet. Le Caire, 1950.**

ويقع هذا المجلد بقسميه العربي والفرنسي في ٥٦٨ صفحة من القطع الكبير . وتم طبعه بإذن من ملك مصر الأسبق فاروق الأول وعلى نفقته .

وكان نقولا ترك قدوضع مذكراته مرتين يختلفان بعضهما عن بعض في أحداثهما وأسلوبهما ومدتهما . وقد نشر ديجرانج المستشرق الفرنسي سنة ١٨٣٩ في باريس النص العربي لمذكرات المرة الأولى مع ترجمة فرنسية لها وكان عنوانها :

ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية . تأليف المعلم نقولا الترك من أدباء لبنان .

Desgranages; Histoire de l'Expédtion des Français en Egypte par Nakoula el Turk. Paris, 1839.

أما مذكرات المرة الثانية التي كتبها نقولا ترك فقدكان الحصول عليها ككتاب باللغة العربية وليد الصدفة . حدث في مستهل سنة ١٩٤٨ أن اقتنت المكتبة الخاصة بالملك فاروق الأول في قصر عابدين كتاباً باللغة العربية غفلا في العنوان واسم مؤلفه . وعكف المستشرق فييت على دراسته وانتهى إلى أن هذا الكتاب هو كتاب نقولا ترك .

وزارة الأوقاف وشئون الأزهر .

١٣٩ — الأزهر . تاريخه وتطوره . القاهرة ، ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤م .

ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومي :

١٤٠ — معجم البلدان . ١٢ جزءا . القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ، ١٩٠٦ م .

يحيى الخشاب (دكتور) :

١٤١ — وصف مصر عن كتاب السفرنامة لناصر خسرو .

بحث ألقى في الندوة الدولية لألفية القاهرة ١٩٦٩ ونشر في المجلد الثالث من مجلدات بحوث الندوة . مطبعة دار الكتب . القاهرة ، ١٩٧١ .

* * *

ثبت

بالمصادر والمراجع الفرنسية والإنجليزية
مرتبة أبجديا طبقا لأسماء مؤلفيها

---

(1) Achille de Vaulabelle :

Histoire Scientifique et Militaire de l' Expédition Française en Egypte. 10 vols. Paris, 1832.

(2) Afaf Loutfi El Sayed :

The Role of the «Ulema» in Egypt during the early nineteenth century.

A historical study presented to the conference on the Modern History of Egypt held in the University of London in April 1965.

Prof. Holt P. M., being the editor, included the essays presented to the said conference in one volume entitled : «Political and Social Changes in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic ». London, 1968.

(3) ——————————

A Socio - Economic Sketch of the «Ulama» in the eighteenth century.

Une étude historique presentée au Colloque International sur L' Histoire du Caire qui s'est tenu au Caire en 1969.

وقد نشرت البحوث التى قدمت باللغتين الفرنسية والانجليزية الى الندوة الدولية فى مجلد واحد هو المجلد الرابع باسم :

Colloque International sur L' Histoire du Caire.

وتضمن هذا المجلد ايضا ملخصات باللغة الفرنسية للبحوث التى قدمت

بالعربية ، ثم طبع المجلد الرابع على نفقة وزارة الثقافة فى جمهورية المانيا الديموقراطية فى مدينة ليبزج Leipzig وسنشير الى هذا المجلد فى المراجع التالية فى هذ الثبت من قبيل الاختصار باسم :

Le Colloque International. voir no. 3.

أما المجلدات الثلاثة الأولى عن البحوث التى قدمت باللغة العربية الى الندوة فقد نشرتها وزارة الثقافة فى مصر على عهد وزيرها دكتور ثروت عكاشة . وتم طبعها فى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٩٧٠ — ١٩٧١) .

(4) André Raymond :

Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIII Siècle.

Communication faite au congrès sur l'historie de l'Egypte moderne qui s'est tenu à Londres en avril 1965.

Voir no. 2 dans cette bibliographie.

(5) ——————

Problèmes urbains et urbanisme au Caire aux XVII ème et XVIII ème siècles.

Communication faite au Colloque International sur L'Histoire du Caire.

Voir :

Le Colloque International dans no. 3.

(6) Artin, Yacoub Pacha :

L'Instruction Publique en Egypte. Paris, 1890.

(7) ——————

Considérations sur l'Instruction Publique en Egypte. Le Caire, 1894.

(8) ——————

Lettres du Dr. Perron du Caire et d'Alexandrie, à M. Jules Mohl. à Paris (1838 - 1854). Le Caire, 1911.

(9) Ayalon David :

The Historian Al - Jabarti and his Background. B. S. O. A. S. London. Vol. XX. Part 2.

(10) Becher, C. H. :

Encyl. of Islam. Article Ibn - Killis.

(11) Bainville Jacques :

L' Expèdition Française en Egypte. 1798 - 1801.

dans :

Précis de l' Histoire d'Egypte; par divers Historiens et Archéologues. 4 Tomes. To. 3, 2 éme Partie. Le Caire, 1933.

(12) Belliard (Le Comte) :

Mémoires du Comte Belliard, lieutenant - général, pair de France, écrits par lui même, recueillis et mis en ordre par M. Vinet, un de ses aides de camp. Paris, 1842. 2 vols.

(13) Bourienne, (L. A. Fauvelet de) :

Mémoires de Bourienne, Ministre d' Etat sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l' Empire et la Restauration. 10 vols. Paris, 1829.

(14) Cerqua, Clella Sarnella :

Un voyageut arabe - andalou au Caire au XVII ème Siècle : al - Shihàb Ahmad al - Hadjari.

dans :

Le Colloque International etc. t. IV, op cit.

(15) Chafik Mansour Bey, Abdul Aziz Khalil Bey, Gabriel Nicolas Kahil Bey et Iskender Ammoun Effendi :

Merveilles Biographiques et Historiques, ou Chroniques du Cheikh Abd - El - Rahman El - Djabarti. Traduites de l' arabe. 9 vols. Imprimerie Nationale. Le Caire, 1888 - 1897.

(16) Chabrol, de :

Essai sur les moeurs des habitans (sic) modernes de l' Egypte.

dans :

Description de l' Egypte. Seconde édition, dite de Panckoucke. 26

vols. de texte et le même nombre de planches. Paris. 1821 - 1829. t. 18. 1ère partie, no. 9.

(17) Charles - Roux, F. :

La Politique Musulmanne de Bonaprate.

Revue des Etudes Napoléoniennes. XIV année, t. 1, janvier - février 1925.

(18) ———————

Bonaparte, Gouverneur d' Egypte. Paris, 1936.

(19) Chauvin, Victor :

La Légende Egyptienne de Bonaparte. Mons. 1902.

(20) Clot Bey, A. - B. :

Mémoires de A. - B. Clot Bey.

Publiés et annotés par Jacques Tagher. Imprimerie de L' Institut Français d' Archéologie Orientale. Le Caire, 1949.

(21) Combe, Etienne :

L' Egypte Ottomane de la Conquète par Selim (1517) à L' Arrivée de Bonaparte (1798).

dans :

Précis de L' Histoire d' Egypte, op. cit. Tome 3. Le Caire, 1933.

(22) Crecelius, Daniel :

The Emergence of the Shaykh Al - Azhar as the Pre - eminent Religious Leader in Egypt.

in :

Le Colloque International etc. op. cit., t. IV .

(23) Creswell, K. A. C. :

The Muslim Architecture of Egypt. Clarendon Press Oxford. 2 vols. 1960.

(24) ——————————

The Foundation of Cairo.

in :

Bulletin of the Faculty of Arts. Cairo University. vol. 1, 1933.

(25) ——————————

The Founding of Cairo.

in :

Le Colloque International etc., op. cit. t. IV.

(26) **Daressy, G. :**

Moustapha Pacha, Le Prisonnier d' Aboukir.

Bulletin de l' Institut d' Egypte. t. XI, session 1928 - 1929.

(27) **Dehérain, H. :**

L' Egypte Turque. Pachas et Mameluks du XVI ème au XVIII ème Siècle.

dans :

Hanotaux, Gabriel; Histoire de la Nation Egyptienne. t. IV.

(28) **Douin, G. :**

L' Egypte de 1802 à 1804. Le Caire, 1925.

(29) ——————————

Mohamed Aly, Pacha du Caire. Le Caire, 1926.

(30) ——— **et Mme Fawtier Jones, E. C. :**

L' Angleterre et L'Egypte. La Politique Mameluke 1801 - 1803. Le Caire. 1929.

(31) ——————————

L' Angleterre et L' Egypte. La Campagne de 1807. Le Caire. 1928.

(32) Dozy :

Supplément aux dictionnaires arabes. 2 ème édition, Leyden - Paris, 1927.

(33) Driault, Ed., :

La Question d' Orient, depuis ses origines jusqu à la paix de Sèvres. Paris, 1921.

(34) ——————————

Mohamed Aly et Napoléon (1807 - 1814). Le Caire, 1925.

(35) Estève, Le Comte, :

Mémoire sur les finances de l' Egypte, depuis sa conquête par le sultan Selym 1 er, jusqu' à celle du général en chef Bonaparte.

dans :

Description de l' Egypte. 2 éd. t. 12, pp. 41 - 248.

(36) Galland Antoine :

Tableau de l' Egypte pendant le séjour de l'armée française, avec la position et la distance réciproque des principaux lieux de l' Egypte; un coup d'oeil sur l' économie politique de ce pays, quelques détails sur ses antiquités, etc. 2 vols. Paris. 1803.

(37) Gamal El - Din El - Shayal :

Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteerth - century Egypt.

in :

Holt, P. M. Political and Social Change in Modern Egypt. See No 2.

(38) Gouind, E. :

L' Egypte au XIX ème Siècle. Paris. 1844.

(39) Gourgaud et Montholon :

Mémoires pour servir à l' histoire de France sous le règne de

Napoléon, écrits à Sainte Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité. Paris. 1823.

(40) Grunebaum Gustav Von :

The Nature of the Fatimid Achievement.

See :

Le Colloque International in no. 3.

(41) Guémard, G. :

Aventuriers Mameluks d' Egypte. Le Caire. s. d.

(42) ————————

Histoire et Bibliographie Critique de la Commission des Sciences et Arts de l' Institut d' Egypte. Le Caire. 1936.

(43) Holt, P. M. :

Al - Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt.

B. S. O. A. S. London. vol. XXV, Part. 1.

(44) ————————

Ottoman Egypt (1517 - 1798); an account of Arabic historical sources.

See no. 2.

(45) ————————

The Pattern of Egyptian Political History from 1517 to 1798.

See no. 2.

(46) Jehan d' Ivray (Mme Fahmy Bey) :

Bonaparte el L' Egypte. Paris. 1914.

(47) Jomard :

Description de la ville et de la citadelle du Kaire accompagnée de l' explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens (sic) sur sa distribution, ses monumens (sic), sa population, son commerce et son industrie.

dans :

Description de L'Egypte. 2 ème éd., t. XVIII. 2 ème partie.

(48) **Jomier, Jacques :**

Un aspect de l'activité d'al-Azhar du XVII ème aux débuts du XIX ème siècle. Les' aqaid ou professions de foi.

dans :

le Colloque International. voir no. 3.

(49) **Kratschovsky :**

Encyl. of Is!am. Article Tantawi.

(50) **Lapidus Ira :**

Ayyubid Religious Policy and the Development of the Schools of Law in Cairo.

dans :

Le Colloque International. voir. no. 3.

(51) **Lewis, B. :**

The Islamic Guilds.

in :

Economic History Review. London, Vol. VIII, 1937.

(52) ——————————

The Emergence of Modern Turkey. Second Ed. London, 1968.

(53) ——————————

An Interpretation of Fatimid History.

dans :

Le Colloque International. voir no. 3.

(54) **Martin, P. D. :**

Histoire de L'Expédition Française en Egypte (1798 - 1801), précédée d'un Précis de la domination arabe. 2 vols. Paris, 1815.

(55) Mengin, Fèlix :

Historie de L'Egypte sous le gouvernement de Mohammed A'y. 2 vols., Paris. 1828.

(56) ——————————

Histoire Sommaire de L'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly. Paris, 1839.

(57) Meynard, Barbier de :

Dictionnaire Turc - Français. Paris. 2 vols. 1881 - 1886.

(58) Mohammed Sabry :

L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali et la Question d'Orient (1811 - 1848). Paris. 1930.

(59) Napoléon 1 er :

Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798 - 1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui - même à Sainte - Hélène et publiés par le général Bertrand. 2 vols. Paris. 1847.

(60) ——————————

Correspondance de Napoléon 1 er, publiée par ordre de L'Empereur Napoléon III. 32 vols. Paris 1858 - 1870.

(61) Rabie, M. H., :

Some Financial Aspects of the Waqf System in Medieval Egypt. dans :

La Revue de La Société Egyptienne D'Etudes Historiques. Le Caire. no. 18, 1971.

(62) ——————————

The Financial System of Egypt 1169 - 1341 a. d. Oxford University Press. 1972.

(63) Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Solyman el - Halaby, assassin du Général en chef Kléber.

dans :

La Revue d'Egypte. vols. II et III Le Caire. 1895 - 1896.

(64) Reybaud, Louis et autres :

Histoire Scientifique et Militaire de L'Epédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, presentant le tableau de L'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu' aux successeurs d'Ali - bey, et suivis du récit des evenemens (sic) survenus en ce pays depuis le départ de Français et sous le règne de Mohammed - Ali, d'après les mémoires, matériaux, documens (sic) inédits fournis par MM. le comte Belliard, maréchal Berthier, etc. 10 vols. Paris, 1830 - 1836.

(65) Rifaat, M. :

The Awakening of Modern Egypt. London. 1947.

(66) Samuel, Bernard :

Mèmoire sur les monnoies (sic) d'Egypte.

dans :

Description de L'Egypte. 2 ème éd., t. XVI.

(67) Samuel, Stern :

Cairo as the centre of the Ismaili movement.

dans :

Le Colloque International. voir no. 3.

(68) Shafik Ghorbal :

The beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era based on Researches in the British and French Archives. London, 1928.

(69) Stanford J. Shaw :

The Financial and Administrative Organisation and Development of Ottoman Egypt 1517 - 1798. Princeton University Press. Princeton, N. J., 1962.

(70) — — ————————

Ottoman Egypt in the Eighteenth Century. The Nizâmnâme - i Missir

of Gezzar Ahmed Pasha. Edited and translated from the Original Turkish Harvard, 1962. Distributed for the Center for Middle Eastern Monographs.

(71) ——————————

Landholding and Land - tax Revenues in Ottoman Egypt.

in :

Holt, P. M.; Political and Social Change etc. see no. 2

(72) ——————————

Turkish source - materials for Egyptian History.

in :

The precedent reference.

(73) **Stanley Lane - Poole :**

A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

(74) **Umberto, Rizzitano :**

Les Arabes de Sicile et l' influence qu'ils ont exercée sur le mouvement culturel qui a fleuri en Egypte sous les Fatimides.

dans :

Le Colloque International. voir no. 3.

(75) **Vollers, K. :**

Encyl. of Islam. Article : Azhar.

(76) **Volney, Constantine F.; :**

Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784, et 1785. Paris, 1787.

(77) **Wiet, Gaston :**

L' Egypte Musulmane, de La Conquête Arabe à La Conquête Ottomane.

dans :

Précis de L'Histoire d'Egypte. Tome Deuxième.

Deuxième Partie.

(78) Zaky Mohamed Hassan :

Les Tulunides. Paris, 1932.

* ● *

محتوى الجزء الثانى

الفصل السابع عشر ٤١٩ - ٤٨٦

اندلاع ثورة الأزهر

عرض سريع لأحداث الثورة

الفصل الخامس العشرون ٦٨٩ - ٧٢٦

تصفية بقية الزعامة الأزهرية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٣٧ لسنة ١٩٨٤

مطابع سجل العرب